

شرح

مَقَامَاتُ الْحَرِيرِيِّ

لأبي العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى
القيسي الشريشي
المتوفى سنة ٦١٩ هـ

وضع حواشيه
إبراهيم شمس الدين

المجلد الأول

منشورات
مركز أبي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تلخيص الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر. أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Copyright ©
All rights reserved

Exclusive rights by DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٢٩٨ - ٣٦٦١٢٥ - ٦٠٢١٣٣ (٩٦١ ١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.C.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar al-Kotob al-Ilmiyah - Publishing House
P.o.box : 11-9424 Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2264-9

EAN

9782745122643

No 02265



9 782745 122643

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الصلاة والسلام على سيدنا ونبيينا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى صحبه الكرام المنتجبين.

وبعد:

لقد عرف الأدب العربي نوعاً من النثر الأدبي وهو السجع وهو الكلام المقفى، أو موالاة الكلام على روي واحد، وقد تأثر كتاب النثر المسجوع أولاً بالقرآن الكريم، وخطب الجاهلية، كخطل أكثم بن صيفي حيث يقول: «أيها الناس: من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو أب أث..»، وهذا السجع له نغم عذب يحرك النفس ويثير الشوق إلى سماعه.

وكان أول ظهور هذا النوع الأدبي كفن قائم بذاته في القرن الثالث الهجري، في خطب الخلفاء وعمال الأقاليم، ثم تطور هذا الفن على أيدي كتاب محترفين كابن نباتة السعدي الذي توفي سنة ٣٧٤ هـ. كما تطور على أيدي كتاب البلاط كإبراهيم بن هلال الصابي المتوفى سنة ٣٨٤ هـ، حتى أصبح النثر المسجوع أسلوباً مميزاً وضرورياً لدى الأدباء وكتاب الإنشاء. ومن رَجِم هذا الأسلوب ظهر فن جديد يدعى فن المقامات الذي يعود الفضل في ابتكاره وتأسيسه إلى بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ.

والمقامة هي حكاية تقال في مقام معين وتشتمل على الكثير من درر اللغة وفرائد الأدب والحكم والأمثال والأشعار النادرة التي تدل على سعة اطلاع وغزارة مادة وطول باع وعلو مقام في عالم الأدب. وإذا كان بديع الزمان الهمذاني السباق والمبتكر والمبتدع لهذا الفن، فإن الأستاذ الرئيس أبي محمد القاسم بن علي الحريري هو الملك المتوج على رأس الكتاب الذين تخصصوا في المقامات، فهو بالمقارنة مع كل من كتب المقامات أغزر مادة وأكثر وأشد تعمقاً في اللغة مما جعل لمقاماته منزلة خاصة جعلتها ربّما في منزلة تالية للقرآن الكريم والحديث الشريف، حتى إن أديباً عظيماً كالزمخشري يقول: إن مقاماته حرية بأن تكتب بماء الذهب.

ويعزى السبب الذي من أجله وضع الحريري مقاماته، كما نقل ياقوت الحموي في معجم الأدباء ٥٩٧/٤، ٥٩٨: عن عبد الله بن محمد بن محمد بن أحمد النقور البزاز ببغداد، قال: سمعت الرئيس أبا محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري صاحب المقامات يقول: أبو زيد السروجي، كان شيخاً شحاذاً بليغاً، ومحدثاً فصيحاً، ورد علينا البصرة، فوقف يوماً في مسجد بني حران، فسلم ثم سأل الناس، وكان بعض الولاة حاضراً، والمسجد غاص بالفضلاء، فأعجبته فصاحته وحسن صياغة كلامه وملاحظته، ثم ذكر أسر الروم ولده كما ذكرناه في المقامة الحرامية وهي الثامنة والأربعون.

قال : واجتمع عندي عشية ذلك اليوم جماعة من فضلاء البصرة وعلمائها فحكيت لهم ما شاهدته من ذلك السائل وسمعت من لطافة عبارته في تحصيل مراده، وظرافة إشارته في تسهيل إيراده، فحكى كل واحد من جلسائه أنه شاهد من هذا السائل في مسجده مثل ما شاهدت، وأنه سمع منه في معنى آخر فضلاً أحسن مما سمعت، وكان يغير في كل مسجد زيّه وشكله، ويظهر في فنون الحيلة فضله، فتعجبوا من جريانه في ميدانه، وتصرفه في تلوّنه وإحسانه، فأنشأت المقامة الحرامية ثم بنيت عليها سائر المقامات، وكانت أول شيء صنعته.

قال المؤلف : وذكر ابن الجوزي في تاريخه مثل هذه الحكاية، وزاد فيها أن الحريري عرض المقامة الحرامية على أنوشروان بن خالد وزير السلطان فاستحسنها وأمره أن يضيف إليها ما يشاكلها، فأتمها خمسين مقامة.

وقد اشتملت مقامات الحريري على فوائد جمّة عددها هو بقوله في تقديمه :

وأنشأت على ما أعانيه من قريحة جامدة وفطنة خالدة وروية ناضبة وهموم ناضبة، خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله ورقيق لفظه وجزله، وغرر البيان ودرره وملح الأدب ونوادره إلى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثال العربية واللطائف الأدبية والأحاجي النحوية والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة والخطب المحبّرة، والمواعظ المبكية والأصاحيك الملهمية، مما أمليت جميعه على لسان أبي زيد السروجي وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصري، وما قصدت بالإحماض فيه إلا تنشيط قارئيه وتكثير سواد طالبيه، ولم أودعه من الأشعار الأجنبية إلا بيتين فذين أسست عليهما بنية المقامة الحلوانية، وآخرين توأمين ضمنتهما خواتم المقامة الكرجية، ما عدا ذلك فخطري أبو غُدْرَه ومقتضب حلوه ومزّه.

شرح المقامات

لقد حظيت مقامات الحريري بكمّ كبير من الشروحات والتعليقات، أحصى منها صاحب كشف الظنون حاجي خليفة أكثر من خمسة وثلاثين شرحاً، ويعود كثرة الشروحات إلى ما زخرت به المقامات من الألفاظ، والأمثال، والأحاجي والألغاز. رالنكت النحوية والبلاغية، مما جعلها ميداناً رحباً للشرح والتفسير والاستطراد.

ويعتبر هذا الشرح الذي بين أيدينا من أهم الشروحات وأغزرها، وقد وضعه العلامة أحمد ابن عبد المؤمن القيسي المعروف بالشريشي الذي يقول : لم أدع كتاباً ألف في شرح ألفاظها وإيضاح أغراضها إلا وعيته نظراً، وتحققته معتبراً ومختبراً وترددت في تفهمه ورداً وصدرأ، وعكفت على استيفائه بسيطاً كان أو مختصراً، ولم أترك في كتاب منها فائدة إلا استخرجتها ولا نكتة إلا علقتها ولا غريبة إلا استلحققتها فاجتمع من ذلك حفظاً وخطأً أعلاق جمّة، وفوائد لم تهتم بها قبله همة، ثم لم أقنع بتدوين الدواوين، ولا اقتصر على توقيف التصانيف، حتى لقيت بها صدور الأمصار وعلماء الأعصار.

وقد قام الشارح بالتعريف بالبلدان والأمصار المذكورة في المقامات، ثم شرح غريب

الألفاظ والأمثال، ووضع تراجم وافية للمشهورين من الأدباء والأمراء والقادة والشعراء، وكان للشعر الأندلسي نصيبٌ وافٍ حيث أُورد مجموعة كبيرة منه.

أما عملنا في هذا الكتاب فقد اقتصر على تخريج جميع الآيات القرآنية وتخريج معظم الأحاديث النبوية استناداً إلى كتب الصحاح التي بين أيدينا، وكذلك خرجنا الشواهد الشعرية في مظانها. كما وضعنا عناوين فرعية وبوبنا الكتاب ووضعنا حواشٍ تشرح بعض الألفاظ الغريبة استناداً إلى معاجم اللغة التي بين أيدينا.

ونرجو أن يكون عملنا هذا خالصاً لوجهه تعالى والله الكمال وحده وهو ولي التوفيق.

إبراهيم شمس الدين

ترجمة المؤلف

هو الرئيس أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري، نسبة إلى صناعة الحرير أو بيعه، ولد سنة ٤٤٦ هـ بالمشان، وهي قرية قريبة من البصرة، ثم رحل إلى البصرة وسكن في محلة بني حرام، وتأدب بها، وقرأ العربية على أبي الحسن بن فضال المجاشعي شيخ إمام الحرمين، والفقه على أبي إسحاق الشيرازي، وعين صاحب الخير بالبصرة، وظل بهذا المنصب حتى وفاته. وكان الحريري من ذوي الجاه واليسار يملك بالمشان أكثر من ثمانية عشر ألف نخلة يغلها، وكان له منزل بالبصرة يقصده الأدباء والعلماء يقرؤون عليه أو يفيدون من علمه، وخصوصاً بعد أن ألف المقامات وذاع أمرها بين الناس، وكان مرهف الشعور صادق الحس والتخمين.

وكان الحريري ضئيل الجسم زري المنظر عصبي المزاج، ينتف شعرات لحية إذا اشتغل بالتفكير والكتابة، ولكنه مع هذا كان موضع تقدير الناس وإكبارهم، ويحكى أن شخصاً زاره، وأراد أن يتلقى عليه شيئاً من العلم لذيق شهرته، فلما رآه استزرى منظره، فأدرك الحريري ما دار في نفسه، ولما طلب هذا الشخص إلى الحريري أن يعلي عليه شيئاً من الأدب قال له: اكتب! وأملأه هذين البيتين: [البسيط].

ما أنت أول سارٍ غرّه قمرٌ ورائد أعجبتة خضرة الدمن
فاختر لنفسك غيري إنني رجل مثل المعيدي فاستمع بي ولا ترني
فخجل الرجل وانصرف عنه.

وللحريري ديوان رسائل، وله الرسالة السينية التزم في جميع كلماتها حرف السين، والرسالة الشينية التزم أيضاً بجميع كلماتها حرف الشين. وله ديوان شعر. ومن مؤلفات الحريري «درة الغواص في أوام الخواص» بين فيه أغلاط الكتاب فيما يستعملونه من الألفاظ بغير معناها وفي غير موضعها، وكذلك له «ملحة الأعراب في صناعة الإعراب»، وهي أرجوزة في النحو. توفي الرئيس أبو محمد الحريري في البصرة سنة ٥١٥ هـ.

ترجمة الشارح

هو أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القيسي الشريشي، ولد بشرش سنة ٥٧٧ هـ. وتلقى بها على أبي الحسن بن لبّال، وأبي بكر بن الأزهر، وأبي عبد الله بن زرقون، وأبي الحسين بن جبير، ورحل إلى المشرق ثم عاد إلى شريش وتوفي بها سنة ٦١٩ هـ. له كتب وشروحات كثيرة منها: مختصر لنوادير أبي علي القالي، وشرح الإيضاح لأبي علي الفارسي، وشرح جمل الزجاجي، ووضع رسالة في العروض؛ بالإضافة إلى الكتاب الذي بين أيدينا وهو أشهرها، وهو واحد من ثلاثة شروح: مختصر، ومتوسط، وهذا وهو المطول. وكان الشريشي شاعراً مطبوعاً شائق اللفظ رشيق المعنى، ومن شعره:

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبرٌ فإن قلبي بنار الشوق يستعرُ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشارح

قال الشيخ الأستاذ اللغوي النحوي أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن بن عيسى بن موسى بن عبد المؤمن القيسي الشريشي، تغمده الله برحمته ورضوانه، وأسكنه فسيح جناته بمنه وكرمه آمين :

الحمد لله الذي اختص هذه الأمة بأفصح الألسنة وأفسح الأذهان، وشرف علماءها بالافتنان في أفانين البلاغة والبيان، وميزنا بين سائر الأمم بالنشر المتفق الفير والنظم المعتدل الأوزان.

نحمده على أفئدة هداها، وألسنة أطال في شأو البلاغة مداها، ونصلي على سيد المرسلين، وخيرة العالمين، الذي ختمت بنبوته العامة النبوة، ونسخت بشرعته الثأمة الكتب المتلوة، محمد سيد هذا العالم والمخصوص بعلو المكانة، وعموم الديانة في ولد آدم، وعلى آله وصحبه الذين عزروه ووقروه، وآووه إيواء الموفين بالعهود ونصروه، ونقلوا شرعه الكريم نقل التواتر وآثروه، وسلم تسليماً، وآتاهم من لدنه رحمة وأجراً عظيماً.

ورضي الله عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، مجدد معالم الديانة، والمليء بأداء الأمانة، والمشهور على تعاقب العصور بالزمان والمكان والمكانة، وعن خلفائه الراشدين المرشدين أئمة الهدى، والتالين له في شرف ذلك المدى، والقائمين بأعباء أمره الموعود أنه يبقى أبداً.

ونسأل الله تعالى لسيدنا الخليفة الإمام أمير المؤمنين ابن الخلفاء الأئمة الراشدين، سعداً يعلى أعلامه. ونصراً يصحب قلمه وحسامه، وتأيداً يظهر أمره وينصر اعتزامه، حتى ينتظم شذان الأمصار في سلك ملكه، وتزدحم وفود الأمم على غمر بزه، وتنطوي ضمائر القلوب ومخبآت الغيوب على إخلاص طاعته والانشاء لأمره.

أما بعد؛ فإن العلم أربح المكاسب، وأرجح المناصب، وأرفع المراتب، وأنصح المناقب، وحرقة أهل الهمم من الأمم، ونخلة أهل الشرف من السلف، لم يتقلد سلكه إلا جيد ماجد ولم يتوشح بزده إلا عطف جاذ في طلب الكمال جاهد ولم يستحق اسمه إلا الواحد الفذ بعد الواحد، وهو وإن تشعبت أفانينه، وتنوعت دواوينه؛ فعلم الأدب

علمه، والأس الذي يبني عليه كَلِمَهُ، والزَّوَج الذي يخبّ في ميدان الطُّروس قلمه؛ ولذلك كان أولى ما تقترحه القرائح، وأعلى ما تجنح إليه الجوانح؛ فذوو الأخطار في سائر الأقطار يتنافسون في اقتنائه، ويتصافنون في عافي إنائه^(١)، ويرتاحون لأوضاعه وتآليفه، ويستريحون إلى أعبائه المكدودة وتكاليفه، فإنه زمام المنظوم والمنثور، وقوام نطق الألسنة وفكر الصدور، ومنشط المقال من عقل الفهامة، ومميز الأقدار بالمهابة والنباهة.

ولم يزل في كل عصر من حَمَلَتِهِ بدر طالع، وزهر غصن يانع، وعلم ترنو إليه أبصار وتوميء إليه أصابع، وصناعة البراعة بينهم تتمكن وتتأصل، وتنوع البديع ينضبط ويتحصل، والآخر يكذّ ذهنه في تتميم ما غادره الأول؛ إلى أن اعتدلت كفتاه، وامتألت ضفتاه، وراق مجتلاه ومجتاباه، وتناهى في الحسن والإحسان لفظه ومعناه.

وكان آخر البلغاء وخاتمة الأدباء، أولهم بالاستحقاق، وأولاهم بِسْمَةِ السباق، والفذ الذي قد عقلت عن توءمة فتية العراق، وفارس ميدان البراعة، ومالك زمام القرطاس والبراعة، والملبي عند استدعاء درر الفقر بالسمع والطاعة، أبو محمد القاسم ابن علي الحريري - سقى الله ثراه صوب رحماه، وكافاً إحسانه في الثناء عليه بحسنه - فبسط لسان الإحسان، ومدّ أفنان الافتنان، ومهد جاذة الإجادة، وقوي مادة الإفادة، ولم يبق في البلاغة متعقّباً، ولا للزيادة مترقّباً، لا سيما في المقامات التي ابتدعها، والحكايات التي نوعها وفرعها، والملح التي وشحها بدرر الفقر ورصّعها؛ فإنه برز فيها سابقاً، وبزّ البلغاء فائقاً، وأتى بالمعنى الدقيق واللفظ الرقيق مطابقاً، وخلّدها تاجاً على هامة الأدب وتقصاراً^(٢) في جيد لغة العرب، وروضة تحوم أنفاس الهمم عليها، ولا تصل أيدي المطامع إليها.

ولما كانت من البراعة بهذا المحل الشهير، وسارت مسير الثيّرين بين مشاهير الجماهير؛ جعلتُ الأعثناء بها سهم فهمي، والعكوف عليها تحرز عزمي، والدّءوب في حفظ لغاتها وفك مخبّاتها أهم همّي، وصيّرت تحفّظها فرض عيني، والفكر الذي لا يحول وسني بينه وبينني، فبدأت بروايتها عن الشيوخ والثقات، وتقييد ألفاظها عن أعلام هذه الجهات؛ حتى لا أنقل لفظاً إلا عن تحقيق، ولا أثبت ضبطاً إلا من طريق.

فكان أول من أخذت عنه روايتها، وتلقيت منه درايتها، ببلدي، الشيخ الفقيه المقرئ أبو بكر بن أزهر الحجري، حدثني بها عن صهره الفقيه المحدث الراوية أبي القاسم بن عبد ربه القيسي المعروف بابن جهور، عن منشئها أبي محمد الحريري.

(١) الصُّن - بالضم: كالركوة يتوضأ فيها، وخريطة لطعام الراعي، وتصافنوا الماء: اقتسموه بالحصص (القاموس المحيط: صفن).

(٢) التقصار والتقصارة، بكسرهما: القلادة جمعه تقاصير.

وحدثني بها أيضاً بلدي الشيخ الفقيه الراوية أبو بكر بن مالك الفهري عن ابن جهور المذكور، وعن الشيخ الفقيه أبي الحجاج الأُبدي القضاعي كلاهما عن أبي محمد الحريري. وحدثني بها أيضاً إجازة الشيخ الفقيه المحدث أبو محمد عبد الله بن محمد ابن عبد الله الحجري عن القضاعي، وحدثني بها أيضاً الكاتب الزاهد أبو الحسن بن جبير عن الشيخ الجليل بركات بن إبراهيم بن طاهر بن بركات القرشي المعروف بالخشوعي عن الحريري. وحدثني بها أيضاً الشيخ الفقيه الأستاذ أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود الخُشني بسنده، بعد وقوفه رحمه الله على هذا الشرح وأمره لي بتكليمه، وتلقيت بها جماعة من جلة الأشياخ أكثر في العدد ممن ذكرت؛ لا يعدمني واحد منهم إفادة ضبطية أو لفظية، ولا يفقدني زيادة هزلية أو وعظية فأخذتها أخذ متثبت، عن واعي منكّت.

ثم لم أدع كتاباً أَلَفَ في شرح ألفاظها وإيضاح أغراضها، وتبيين الإنصاف بين انفصالها واعتراضها إلا وعيته نظراً، وتحقّقه معتبراً ومختبراً، وتردّدت في تفهمه ورداً وصدرأ، وعكفت على استيفائه بسيطاً كان مختصراً؛ حتى أتيت على جميع ما انتهى إليه وسعي ممن فسرّها، واستوعبت عامة فوائده الممكنة بأسرها؛ ولم أترك في كتاب منها فائدة إلا استخرجتها، ولا فريدة إلا استدرجتها ولا نكتة إلا علقتها، ولا غريبة إلا استلحققتها، ولا غادرت في موضع منها مستحسناً يشذ عن جمعي، ولا مستجاداً ينبو عنه بصري أو سمعي. فاجتمع من ذلك حفظاً وخطأً أعلاق جمّة، وفوائد لم تهتم بها قبلي همّة، ثم لم أقنع بتبيين الدواوين، ولا اقتصرْتُ على توقيف التصانيف؛ حتى ليقت بها صدور الأمصار، وعلماء هذه الأعصار، فباحث وناقشت، وتأولت وتداولت، وطالبت المتحقّق بالأداء، والمتيقّظ بالإبداء؛ حتى لم أبق في قاذحة زنداً إلا اقتدحته، ولا مُقَفَّلاً إلا افتتحت، فتحصل لي من ذلك أيضاً عيون صائبة النواظر، وفنون قلماً توجد في مخبّات الدفاتر.

وأنا في خلال ذلك أَلَمَسْتُ مزيداً، ولا أسأَمُ بحثاً وتقييداً، إلى أن عثرتُ على شرح الفنجديهيّ للمقامات - والفنجديهيّ هو الشيخ الحافظ أبو سعد محمد بن عبد الرحمن بن محمد المسعوديّ، من قرية فنجدية من عمل خراسان - فرأيت في شرحه الغاية المطلوبة، والبغية المرغوبة، والضالة التي كانت عنيّ إلى هذا الأوان مطوية محجوبة؛ فاستأنفت النّظر ثانياً، وشمّرت عن ساعد الجدّ لا متكاسلاً ولا وانياً، وعانيت نور المعنى في نور اللفظ فأصبحت مجتلياً جانياً، فاستوعبته أيضاً أبلغ استيعاب، وقيدت من فوائد ما لم أجد قبله في كتاب، وأخذت منه أحاديث مسندة أوردّها، وآثاراً مرفوعة قيّدها تليق بالباب الذي أوردت فيه، وتورد مصحّحة إما لألفاظه وإما لمعانيه، وحذفت أسانيد - وإن كان قد أوردّها - تخفيفاً عمن يريد المثنّ ويبتغيه فتم لي بهذا الغرض استيفاء مقاصده، واستيعاب فوائده. وتركته مستلب المعاني، سطورق المغاني، كالروض ركبت

ريحه، والجسم قبض روحه؛ فانضاف من فوائد هذا التأليف البديع - إلى الفوائد الملتقطة من الألسنة والمأخوذة من التصانيف المستحسنة - روض كله زهر، وسلوك كله درر، وأدب إن لم يجمعه التصنيف فهو بعد عين أثر.

فاستخرت الله تعالى في ضمّ ما انتشر من فوائدها، ونظم ما انتثر من فرائدها، والاعتناء بتأليف في المقامات يغني عن كل شرح تقدم فيها، ولا يحرج إلى سواه في لفظ من ألفاظها ولا معنى من معانيها، فتم من ذلك مجموع جامع وموضوع بارع أودعته من اللغات أصحّها وأوضحها، وأسلسها قياد لفظ وأسمَحّها؛ وأولاهها بالصواب في مظانّ الاختلاف وأرجحها؛ ونسبت المشكل منها إلى قائله من جهابذة العلماء، وجمعت بين مشهور اللغات ومشهور الأسماء، وسبكت العبارة عن المعاني سبكاً يدل على الإلغاء والإصغاء. وهذا الفصل وإن سبقني إليه من تقدمني من الشارحين قبلي، فلي فيه مزية إيراد اللفظ البعيد عن الإشكال، والمطابقة بين الأقوال وأرباب الأقوال.

ثم زدت في فوائد هذا التأليف التعريف بالأمصار المذكورة في المقامات على أوفى ما يمكنني؛ من ذكر مواضعها وأقذارها واختطاطها، ومن عَقَد صلحها، أو تولى فتحها؛ وهذه فوائد لا يخفى مكانها، ولا ينكر استحسانها بالحاجة إلى التعريف بالمكان، تتلو الحاجة إلى غوامض اللسان.

ثم استوعبت شرح الأمثال ونسبتها، جمعاً بين القائلين والأقوال، ولم أغفل منها الكثير الدّور ولا القليل الاستعمال، وهذا الفن لم يتبعه أحد على الكمال، وإن ذكره فإنما يذكره استطراداً بحسب الحال.

ثم استوفيت أيضاً ذكر من وقع فيه من الرجال والنساء أتم استيفاء، وعرفت المشتهرين من الأدباء والأبناء، وبنيت أنسابهم وأمكنتهم، وأخبارهم وحرقتهم، وآثارهم ومدتهم، وزيادة في التهمم والأعتناء، وهذا الفن أيضاً لم يورده الشارحون حقّ إيراد؛ ولا اعتمدوه بالتبليغ حقّ اعتماده، وهومهم في الإفادة، على مغفلة في الوقت وبعده الإعادة.

ثم زدت فيه فصلين مفيدين لم أر من اعتنى بهما. ولا من قصد قصدهما. سوى أبي سعيد الفنجديهي في بعض المواضع، فإنه ألمح والمع، وأورد اليسير فما شفى ولا أقنع:

أحدهما تبين مأخذ الحريري في الكلام، وإخراج الاحالات المودعة فيه من حيز الإبهام والرد إلى المنشأ في آية أو أثر أو تخطبة أو خبر، أو حكمة فائقة، أو لفظة رائقة، أو بيت نادر، أو مثل سائر؛ وهذا تتميم بين، وتكميل متعين.

والفصل الثاني: التنبيه على صناعة البديع، وتوفية أسمائه؛ كالتجنيس والتتميم والترصيع، والإتيان بهذا النوع من التبيين والتنبيه على الجميع، وبسط أنواع الأدب

وافتنانه، والإكثار من الشعر في مظانه من الجد والهزل في المواضع اللائقة باستحسانه، ومقابلة كل باب بما يزيد في حسنه وبيانه، والجري مع أبي محمد حسب اتساع خطوه وامتداد ميدانه.

ومن تمام التصنيف ردّ الفرع إلى أصله، والجمع في الترتيب بين الشكل وشكله، فأتبعت المواعظ بما يزيدها أثراً في القلوب، وأردفت المسليات بما يُعينها في إجلاء الكروب، وسلكت هذه المسالك في سائر الأساليب وأنواع الضروب؛ فإن وجد هذا الكتاب لفظ ظاهر الهزل أو معنى ينسب فيه إلى العذل؛ من وصف نور وثمر وذكر نديم وخمر أو نعت حُسن وحسن أو مدح سماع وأذن، فلأن أبا محمد بدأ بأمر فتمم، وخص نوعاً فعمم مع أن صنعة الأدب مبنية على الملح، وخواطر الأدباء جائشة بما سنع، فجاء من هذا الترتيب الغريب، ما يضرب في الإجادة بسهم مصيب، ويثبت لي في الجد والدعوب أوفر نصيب.

ثم رأيت الشارحين لها من أولى البصر كالفنجديهي وابن ظفر قد جردوا من شروحهم مختصرات وجيزة.، اقتصروا فيها على إيراد اللغات، فحدّوت حدّوهم في مختصرٍ أوردتها فيه على الكمال، ووفّيتها حقها من رفع الغلط وكشف الإشكال، ولم أخلّ في تصريفها واشتقاقها بوجه من الوجوه ولا حال من الأحوال فجاء غاية في هذا الباب، مغنياً في اللغات الغريبة عن كل كتاب؛ فإن فاته هذا الأصل بضروب من الإفادات وأنواع من الزيادات، فلذلك الفرع شغوف الاستيعاب في اللغات، ومزية الاشتقاق والتصريف والشاهد من الشعر والآيات.

وكل ذلك بلطف الله تعالى، ويسعد من شرفت كتابي بخدمته، وبنيت تأليفي على أداء شكر نعمته، ونصبت نفسي لأقف بباله الأعلى، وأترزين بلثم تربته فأنا العبد وهو المولى؛ عماد الأنام، والظل الممدود على المسلمين والإسلام، ونعمة الله التي هي من أفضل النعم الجسم؛ منفق سوق المعارف، ومفجر بحور المنن والعوارف، والمجبر بفضلته وعدله من المفارق الفادحة والمخاوف، سيدنا الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبو عبد الله ابن إمام الأئمة الراشدين وولي عهده سيدنا الأمير الأجل أبو يعقوب، أيد الله سلطانهم، وأيد بيضتهم وحزبهم، وجمع القلوب على الأنقياد لهم، والوجوه على التوجه قبلهم.

وهذا الكتاب وإن كان المعبر عن حسنه، والغاية الملتزمة في فنّه، والجامع لما افترق في سواه، والمبرز بما وشحه من الزيادات وحلّاه، فإنه لم يتم جماله ولا استوفى احتواءه على الفوائد واشتماله، إلا ببركة مولانا الخليفة، واقرن اسمه الكريم باسم ولي عهده المستحق للتقديم في الصحيفة فالحمد لله على التوفيق لخدمتهم، والمعونة على شكر نعمتهم، والتعرض لخيري الدنيا والآخرة في ظل حرمتهم.

وقد بذلت في الخدمة جهدي، وأبرزت من فوائد هذا التأليف أنفـس ما عندي، ولم

أتعاط قياماً بكل الواجب، ولا وفاء بجميع الحقّ الراتب؛ فالقول يقتصر عن التحصيل، وليس إلى مطاولة الطود ومكاثرة اليمّ من سبيل.

وقد كنت حين أتممت هذا التأليف، وألقيت عن كاهلي الأعباء التي له والتكليف، وجلوته كالحسناء أُلقت في المنصّة النّصيف، كثرت خطابه إليّ من البلدان، وتواردت عليه رغبات الاستحسان، فقلت: حتى يتشرف بلثم اليمين العليا، ويتخصص بقبول إمام الدين والدنيا، فمن بابه الأسمى يلتقط دره المنظوم، وببركاته يسطع مسكه العبق المختوم.

وها أنا أشرع ببركة الله وبركة خليفته المبارك الأهدى، وبنجله المتقلّد منه صفة وعهداً، في الشرح الخطبة كلمة كلمة، وإيضاحها حتى لا أدع لفظة مبهمة، ثم أشرح المقامات على الولاء، وأسلك الجمع بين الإيجاز والاستيفاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله وسلم أفضل التسليم.

بسم الله الرحمن الرحيم

الصدر

اللَّهُمَّ إِنَّا نَحْمَدُكَ عَلَى مَا عَلَّمْتَ مِنَ الْبَيَانِ، وَأَلْهَمْتَ مِنَ التَّبْيَانِ، كَمَا نَحْمَدُكَ عَلَى مَا أَسْبَغْتَ مِنَ الْعَطَاءِ، وَأَسْبَلْتَ مِنَ الْغِطَاءِ.

اللهم إنا نحمدك؛ اللهم اسم خصصته الميم المشددة في آخره بنداء الباريء سبحانه، والتزم معها حذف حرف النداء لوقوع الميم خلفاً عنه، ولمحلّ اللام في أوله، أنه لا يلي حرف النداء لام التعريف إلا في قولهم: «يا الله»؛ لتكون اللام الزائدة نائبة عن حرف أصلي، وهي همزة «إله»، فصارت كالأصلي، وفي غير هذا الاسم تتجرد اللام للزيادة في أول الاسم. و «يا» «زائدة» في أوله كذلك، وهما جميعاً لتخصيص الاسم وإزالة شياخ التنكير عنه، فلما تقاربا في المعنى، وتشابها في الزيادة، وطلب كل واحد منهما أن يلي الاسم دون صاحبه، ترك استعمال الجمع بينهما في أول الاسم إلا في ضرورة الشاعر لإقامة الوزن، وأما اللام في قولهم: «يا الله» فلما كانت نائبة عن حرف أصلي خفيت زيادتها، فلما زادوا الميم في آخره فضحت اللام وشهرت معنى الزيادة، فامتنعت «يا» من أوله إلا عند الضرورة كامتناعها في الرجل والغلام؛ فلما كانت الميم هي الموجبة لمنع «يا» حُمِلَ الاسم معها معنى «يا» فصار مختصاً بالنداء ممتنعاً من غيره.

ونحمدك، معناه نشني عليك بأتم وجوه الثناء كلها، فيدخل تحته الشكر، والشكر ثناء يقابل به معروف، وفي الحديث: «الحمد رأس الشكر فمن لم يحمد الله لم يشكره»^(١) والحمد ذكر الرجل بما فيه من صفات جليلة، والشكر ذكره بما له من أفعال جزيلة، من قولهم: دابة شكور، إذا ظهر بها من السمن فوق ما تأكل من العلف ويقال: أشكر من بروقة، وهي شجرة معروفة تخصب بأدنى مطر؛ ويؤكد الفرق بينهما أن الحمد في مقابلة الذم والشكر في مقابلة الكفر فاختلفا نقيضيهما دليل على اختلافهما في أنفسهما.

البيان: وضوح المعنى وظهوره، والتبيان: تفهم المعنى وتبينه، والبيان منك

(١) أخرجه الطبراني في الجامع الصغير ١/ ٢٦٠.

لغيرك، والتبيان منك لنفسك، مثل التبيين تقول: بينت الشيء لغيري بياناً وتبينته أنا تبياناً؛ وقد وقع التبيان بمعنى البيان؛ حكى أبو منصور الأزهري رحمه الله: بينت الشيء تبييناً وتبياناً، قال تعالى ﴿تَبَيَّنَّا لَكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] أي يبين لك فيه كل ما تحتاج إليه أنت وأمتك من أمر الدين، فهو لفظ عام أريد به الخاص، وقد يقع البيان لكثرة الكلام ويعد ذلك من النفاق؛ قال النبي ﷺ: «الحياء والعبي شعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شعبتان من النفاق»^(١) أخرجه الترمذي وقال: «العبي قلة الكلام والبذاء الفحش، والبيان كثرة الكلام».

ألهمت: نهبت عليه وفهمته. وأسبغت: أتممت وكثرت. وأسبغت: أطلت. والغطاء: أراد به ستر الله على عبده.

وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ اللَّسَنِ، وَفُضُولِ الْهَذَرِ، كَمَا نَعُوذُ بِكَ مِنْ مَعَرَّةِ اللَّكْنِ، وَفُضُوحِ الْحَصْرِ، وَنَسْتَكْفِي بِكَ الْاِفْتِتَانَ بِإِطْرَاءِ الْمَادِحِ، وَإِغْضَاءِ الْمُسَامِحِ، كَمَا نَسْتَكْفِي بِكَ الْاِنتِصَابَ لِإِزْرَاءِ الْقَادِحِ، وَهَتَكَ الْفَاضِحِ.

نعوذ، أي نستجير، شره: حدة واللسن: حدة اللسان وإدلاله على الكلام فضول: زوائد. الهذر: إكثار الكلام بغير فائدة. معرة: شدة وصعوبة، والمعرة: العيب والعار. وقيل: هي كل ما يؤذي، وفلان يعرّ قومه، أي يدخل عليهم مكروهاً يلطّخهم به؛ وأصله من العرة وهي الفعلة القبيحة، أو من العرّ وهو الجرب. واللكن: احتباس اللسان عند الكلام فضوح شهرة وفضيحة. الحصر العي، وحصر حصراً إذا أعيا واستحيا أو أضاق صدره. واستعاذ من شره اللسان لأنه من اقتدر على الكلام أداه إلى المطاولة في الجدل وتصوير الباطل في صورة الحق، وفيه إثم على الكلام وأصل الشره القلق والانتشار، ومنه الشر؛ وقد شرّ يشرّ، ومنه شرر النار. ثم استعاذ من ضدها وهي المعرة لأن صاحبها لا يتم لفظه فيشين بذلك نفسه، ويقصر عن مراده من البيان، ثم قرن بها الحصر لأن من يعتريه يتوالى عليه الوهل والخجل؛ فلا يستطيع الكلام، فيفتضح ويشتهر عيبه.

وهذا الفرّ من الكلام يسمى في صنعة البديع المقابلة، وأول من صدر به كتاباً عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب البيان فقال اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العجب بما

(١) أخرجه الترمذي في البر باب ٨٠، وأحمد في المسند ٢٦٩/٥.

نحسن، ونعوذ بك من السلاطة والهدر^(١)، كما نعوذ بك من العي والحصر؛ وقديماً تعوذوا بالله من شرهما، ورجعوا إليه في السلامة منهما؛ وقد قال الثَّمر بن توبل: [الوافر]

أَعْذَنِي رَبِّ مِنْ حَصَرٍ وَعَيٍّ ومن نفسٍ أعالجها علاجاً

وقال محمد بن علقمة: [الوافر]

لَقَدْ وَارَى الْمُقَابِرُ مِنْ شَرِيكِ كَثِيرَ تَحْلُمٍ وَقَلِيلَ عَابٍ
صُمُوتاً فِي الْمَحَافِلِ غَيْرَ عَيٍّ جَدِيراً حِينَ يَنْطِقُ بِالصَّوَابِ

ثم استرسل في ذكر العي والبيان إلى غاية بعيدة، واستشهد على النوعين بآيتين؛ بقوله تعالى: ﴿سَلْقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]، وفي الضد بقوله تعالى: ﴿أَوْمَنْ يُنْشَأُ فِي الْحُلِيِّهِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]، فاحتذى الحريري هذا الحذو، فجاءت تشبيهاته أطبع وأصنع، وزاد عليه بأن ابتدأ بحمد الله على نعمة البيان، ثم استعاذ مما استعاذ منه الجاحظ، وبيان المقابلة في كلامه أنه قابل شرّة بمعرة واللّسن باللكن، والهدر بالحصر؛ فإذا تفهمت مواقعها في كلامه قست عليها ما يشبهها في النظم والنثر وسئل قدامة الكاتب عن المقابلة، فقال: هي أن يضع الشاعر ألفاظاً يعتمد التوافق بين بعضها وبعض في المخالفة، فيأتي في الموافق بما يوافق، وفي المخالف بما يخالف، وأنشد في ذلك: [الطويل]

فِيَا عَجَباً كَيْفَ اتَّفَقْنَا فَنَاضَحٌ وَفِيَّ مَطْوِيٌّ عَلَى الْغِشِّ غَادِرٌ

فجعل بإزاء «ناصح»، «وفي»، «غاشاً: غادراً». ومثله: [الطويل]

فَتَى ثَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنْ فِيهِ مَا يَسُوءُ الْأَعَادِيَا

نستكفي: معناه نسألك ونطلب منك أن تكفيينا الافتتان؛ وذلك أن تصاب بفتنة الإعجاب، وأصل الفتنة اختبار الفضة بالنار، قال تعالى في الاختبار: ﴿وَفَتْنًاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] أي اختبرناك، والفتين: الفضة المحرقة، والفتين أيضاً: الحجارة المحرقة، وهي الحجارة تدلك بها الأقدام في الحمام، والإطراء: الاسترسال في مدح الإنسان بمحضره، وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «لا تُطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فأنا عبد الله ورسوله».

إغضاء: تجاوز ومسامحة، وأصله أن يبدو لك الشيء فتدني جفنيك وتقصر نظرك كأنك لم تره، والاغضاء: الإغماض وأغضيت عنه وأغمضت، إذا تغافلته عنه. المسامح: الموافق لغرضك، والمتجاوز عن عيبك، الانتصاب: الظهور والأعتراض أمام

(١) الهدر: كثرة الكلام في خطأ، والسلاطة حدة اللسان والصخن (القاموس المحيط: «سلط»، و

الشيء، إزراء: تقصير: وتنقيص، القادح: العائب، وقدحت الدود في الأسنان والشجر: أكلتها فكأن فعل هذا العائب في أعراض الناس فعل الدود في الشجر. والقادح أيضاً: الذي يضرب الزند بالحجر ليورى، وهتك: شق، وهتك الستر: خرقة. الفاضح الذي يشهر عيوبك، وفضحت الشيء: كشفته.

وَنَسْتَغْفِرُكَ مِنْ سَوَقِ الشَّهَوَاتِ إِلَى سَوَقِ الشُّبُهَاتِ؛ كَمَا نَسْتَغْفِرُكَ مِنْ نَقْلِ
الْخَطَوَاتِ إِلَى خِطَطِ الْخَطِيئَاتِ. وَنَسْتَوْهِئُ مِنْكَ تَوْفِيقاً قَائِداً إِلَى الرُّشْدِ، وَقَلْباً
مُتَقَلِّباً مَعَ الْحَقِّ، وَلِسَاناً مُتَحَلِّياً بِالصِّدْقِ، وَنُطْقاً مُؤَيِّداً بِالْحُجَّةِ، وَإِصَابَةً ذَائِدَةً عَنِ
الزَّيْغِ، وَعَزِيمَةً قَاهِرَةً هَوَى النَّفْسِ، وَبَصِيرَةً نَذِرُكَ بِهَا عِرْفَانَ الْقَدْرِ

نستغفرك: نسألك المغفرة، وهي من غفرت الشيء سترته. الشبهات: جمع شبهة وهي ما يشبه عليك أمره، والخطوات: جمع خطوة؛ وهي ما بين القدمين، الخطط: جمع خطة وهي الطريق يخطه الرجل في الأرض يجعله حداً للشيء يحوزه ويعتمده، والخطة بالضم: المنزلة والمزية. والخطيئات: الذنوب وهي من الخطأ، وجعل ما ساقه في المقامات كأنه شهوة انتهى عملها، ثم اشتبه عليه: هل في ذلك رضا الله أم سخطه! فكأنه ساق شهوة إلى سوق يجهل التبايع فيها خاسر الصفقة، فلهذا استغفر الله منها: الهداية رشده الله رشداً وأرشده: هداة. ورشد هو رشداً ورشاداً: اهتدى. متحلياً: متصفاً ومتزيناً، مؤيداً: معاناً. وأصاب في كلامه إصابة: إذا نطق بالصواب، ورمى فأصاب لم يخطيء؛ وقوله تعالى ﴿رُخَاءَ حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، أي حيث أراد، قال الفراء: اختلفت أنا وعيسى النحوي في الآية فقلت: ما أحد أعلم بهذا من رؤية، قال: فسرنا إليه فلقيناه يتوكأ على اثنين، فقال: أين تصيبان؟ أي أين تريدان؟ فقلت لصاحبي: كُفَيْتَ السُّؤَالِ ذَائِدَةً: دافعة، الزيغ: الميل، وزاغ عن الحق: مال عنه إلى الباطل. العزيمة: الجذ، وعزم على الشيء: جد فيه. قاهرة: غالبة. وهوى النفس: ما تحبه وتميل إليه بصيرة: يقينا والبصيرة للقلب، والبصر للعين. عرّفان القدر أي معرفة أقدارنا.

وَأِنْ تُسْعِدُنَا بِالْهِدَايَةِ إِلَى الدَّرَايَةِ، وَتَعْضُدُنَا بِالْإِعَانَةِ عَلَى الْإِبَانَةِ، وَتَعَصِّمُنَا مِنَ
الْغَوَايَةِ فِي الرُّوَايَةِ، وَتَصْرِفُنَا عَنِ السُّفَاهَةِ فِي الْفِكَاهَةِ؛ حَتَّى نَأْمَنَ حَصَائِدَ الْأَلْسُنَةِ،
وَنُكْفَى غَوَائِلَ الزَّخْرَفَةِ؛ فَلَا نَرَدَّ مَوْرِدَ مَأْثِمَةٍ، وَلَا نَقْفَ مَوْقِفٍ مَنْدَمَةٍ، وَلَا نَرْهَقَ
بِتَبْعَةٍ وَلَا مَعْتَبَةٍ، وَلَا نُلْجَأَ إِلَى مَعْذِرَةٍ عَنْ بَادِيَةٍ.

الدَّراية: مصدر دَرَيْتُ الشيء دراية ودرياً، علمته. تعضدنا تقوينا، وعضده: أعانه وكان له عضداً، الإبانة: مصدر أبنت الشيء أي بينته تعصمنا من الغواية، أي تمنعنا من الضلالة والفساد، والغواية: مصدر غوى غيًّا وغواية وغوى أيضاً غواية، وهما ضد رشد رُشداً. الرواية: نقل الحديث من صاحبه إلى طالبه، تصرفنا: تزيلنا. السفاهة: الجهل، والفكاهة: المزاح وما تستريح به النفوس وهي في الكلام كالفكاهة في الطعام. حصائد الألسنة: شر كلامها وقطعها في أعراض الناس. وأراد ما جاء في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، إنا لنؤاخذ بما نتكلم؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ! هل يكبُّ الناس في النار على رؤوسهم إلا حصائد ألسنتهم!» فدعا الله أن يتم سعه بأن يؤمنه عادة الألسنة. والحصائد في الأصل: جمع حصيدة وهي الحزمة من الزرع المحصود فهي فعيلة بمعنى مفعولة والحصيد: الشيء المحصود.

نكفي: نمنع غوائل: قوائل ومهلكات، واحدها غائلة؛ وغالته المنية أهلكته، الزخرفة: تزيين الباطل، وأصلها تزيين الشيء بالزخرف وهو الذهب. نرد: نقصد، مورد مائمة: موضع إثم، والمورد أصله الموضع يشرب منه الماء مندمة: ندم. نرهق: نثهم ونعب: والزهرق العيب، وتبعة: خطيئة يتبعه ضررها بعد الموت. معتبة: سخط، وهي من العتاب، وهو تقبيح القول على جهة الاشفاق، وأصله من عتبت الأديم، أي رددته إلى الدباغ ليصلح، ومنه: إنما يعاتب الأديم ذو البشرة، ويقال عتب عليّ في كذا عتباً فأعتبته، أي رجعت إلى ما يريد وأرضيته، وباء «تبعة» وتاء «معتبة» يكسران ويفتحان. نلجأ: نُخوِّج. معذرة: اعتذار. بادرة: سقطه. وزلة، وقد بدرت الكلمة والفعلة: خرجت من غير أن يدبر موقعها، وفلان تُخشى بواده: أي فلتاته.

اللَّهُمَّ فَحَقِّقْ لَنَا هَذِهِ الْمُنِيَّةَ، وَأُنَلِّنا هَذِهِ الْبُغْيَةَ، وَلَا تُضْحِنَا عَنْ ذَلِكَ السَّابِغِ، وَلَا تَجْعَلْنَا مَضْغَةً لِلْمَاضِغِ؛ فَقَدْ مَدَدْنَا إِلَيْكَ يَدَ الْمَسْأَلَةِ، وَبَخَعْنَا بِالْاِسْتِكَانَةِ لَكَ وَالْمَسْكَنَةِ، وَاسْتَنْزَلْنَا كَرَمَكَ الْجَمِّ وَفَضْلِكَ الَّذِي عَمَّ، بِضِرَاعَةِ الطَّلَبِ، وَبِضَاعَةِ الْأَمَلِ ثُمَّ بِالتَّوَسُّلِ بِمُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْبَشَرِ، وَالشَّفِيعِ الْمَشْفَعِ فِي الْمَحْشَرِ، الَّذِي خَتَمَتْ بِهِ النَّبِيِّينَ، وَأَعْلَيْتَ دَرَجَتَهُ فِي عِلِّيِّينَ. وَوَصَفْتُهُ فِي كِتَابِكَ الْمُبِينِ فَقُلْتَ وَأَنْتَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١]. اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الْهَادِينَ، وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ شَادُوا الدِّينَ، وَاجْعَلْنَا لِهَدْيِهِ وَهَدْيِهِمْ مُتَّبِعِينَ، وَانْفَعْنَا بِمَحَبَّتِهِ وَمَحَبَّتِهِمْ أَجْمَعِينَ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ.

المُنيّة: ما يتمنى، والبُغيّة: ما يطلب، أُنلنا: أعطنا تُضَحّنا: تكشفنا ظلك السابغ: سترك المديد، وأصل الظل الستر والموضع الذي لا تبلغه الشمس وفي الحديث «ضَحّا ظله»، أي عدم فأنكشف موضعه للشمس. مضغة: لقمة، وكلّ ما يمضغ لُقمة، والماضغ هنا العائب الأكل أعراض الناس وجعل العرض حين يعيبه مضغة له، قال النبي ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بي مررت بأقوام لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبرائيل؟ فقال: «هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم». المسألة: الحاجة والفقر بخعنا: أقرنا، وبخع له بحقه أقر به وبخع نفسه قتلها غيظاً، ومنه: «فَلَعَلَّكَ بِأَخَعِ نَفْسِكَ» [الكهف: ٦] فالمتعدية بالباء غير المتعدية بنفسها، الاستكانة: الخضوع والمسكنة: الفقر والذلة. استنزلنا: طلبنا أن تنزل علينا، والاستنزال السؤال بتلطف، والجم: الكثير، فضلك: إحسانك. عمّ: شمل ضراعة: ذلة البضاعة: المال يتجر به. الأمل: الرجاء؛ يقول إن تجارتنا التي نحصل بها منك إحسانك، رجاؤنا توكلنا عليك التوسل: التقرب، البشر: الخلق، وهو في الأصل جمع بشرة، وهي ظاهرة الجلد وسُموا بشراً، لظهور أبقارهم خلافاً لغيرهم من الحيوان، الشفيح: الطالب لغيره. والمشفع: الذي أعطي الشفاعة، وقال النبي ﷺ: «خُيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل شطر أمتي الجنة فاخترت الشفاعة وإنها أعم وأكفى، أترونها للمؤمنين المنقيين! لا ولكنها للمذنبين المتلوّثين الخطائين»^(١).

المحشر: موضع اجتماع الناس يوم القيامة والمحشر أيضاً: الحشر وهو الإشبّه باليوم، ختمت: جعلته خاتمهم، أي آخرهم، درجته: منزلته، عليين: أعلى الجنة وكأنه جمع عليّة، المبين: المبين. رسول كريم، قيل: وهو جبرائيل، وقيل هو محمد ﷺ. مكين: رفيع المنزلة. ثم: معناه هناك، قال الزجاجي: هي إشارة إلى ما كان مترامياً من الأماكن، والأشهر أن المراد به في الآية جبرائيل، ولذا رجع الحريري آخرأ فأزال الآية من كتابه واستشهد بما اتفق مشاهير المفسرين على أن المراد به نبينا ﷺ، وهو قوله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» [الأنبياء: ١٠٧]، وليس رجوعه عن القول يعيب بل هو حسن، إذ كان الرجوع عن الخطأ إلى الصواب واجباً، إلا أن الثابت عند ابن جهور «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ»؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهو جبرائيل وهو الرسول لمحمد بالقرآن. ذي قوّة؛ لأنه قلع بأحد جناحيه أربع مدائن لقوم لوط؛ وهي سدوم ودامورا وصابورا وعمورا؛ في كل مدينة مائة ألف إنسان سوى ما فيها من الدواب والأنعام، آله، أي أهله وأصله «أأل» فأبدلت الهمزة ألفاً، وأكثر ما تضاف إلى الظاهر، وقد سُمع إضافتها إلى المضممر في الشعر والكلام الفصيح، خلافاً لأبي جعفر النحاس وأبي بكر الزبيدي، فإنهما من إضافتها إلى المضممر، وأكثرهم على أن همزتها مبدلة من

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد باب ٣٧، وأحمد في المسند ٧٥/٢.

هـاء «أهل» وصوابه أنها أصل في بابها، من آل يؤول إذا رجع لأنهم يرجعون إليه ويرجع إليهم، الهادين: المرشدين إلى الطريق الخير، وقد هديته الطريق إذا أرشدته شادوا: ترفعوا وبنو. هديه وهديهم: وطريقته وطريقتهم، وقال النبي ﷺ «الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»^(١) جدير: حقيق.

وَبَعْدُ. فإنه قد جَرَى بَبْغُضِ أُنْدِيَةِ الأدب الذي رَكَدَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ رِيحُهُ وَخَبَتْ مَصَابِيحُهُ، ذكر المقامات التي ابْتَدَعَهَا بِدِيعُ الزمان، وعَلَامَةُ هَمْدَانِ رحمه الله تعالى. وَعَزَا إِلَى أَبِي الْفَتْحِ الإسْكَندَرِيِّ نَشَأَتَهَا، وَإِلَى عَيْسَى بْنِ هِشَامٍ رَوَايَتَهَا، وَكِلَاهُمَا مَجْهُولٌ لَا يَعْرِفُ، وَنَكْرَةٌ لَا تَتَعَرَّفُ.

أُنْدِيَةِ: مجالس واحدها نَدِيٌّ، وَالنَّدَى وَالنَّادِي وَالْمُنْتَدَى: مجلس القوم للحديث، وَقِيلَ هُوَ مِنَ النَّدَى وَهُوَ الْكُرْمُ، لِأَنَّهُمْ يَقْصِدُونَ فِيهِ فَيَعْطُونَ. وَقِيلَ: هُوَ مِنَ النَّدَاءِ الَّذِي هُوَ الصَّوْتُ لِأَنَّهُ يَنَادِي فِيهِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِيَجْتَمِعُوا. وَقِيلَ: هُوَ مِنَ النَّدَى وَهُوَ الْعَرَقُ لِأَنَّهُ الدَّخْلُ فِيهِ يَحْتَشِمُ فَيَعْرَقُ. وَالأدب: معرفة الأخبار والأشعار، وفلان أديب، إذا كان متفنناً مشاركاً، ركدت: سكنت، والمقامات: المجالس، واحدها مقامة، والحديث يجتمع له ويجلس لاستماعه يسمى مقامة ومجلساً، لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس، ولأن المحدث يقوم ببعضه تارة ويجلس ببعضه أخرى؛ قال الأعلام: المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحض على فعل الخير.

[بديع الزمان]

ذكر البديع أبو المنصور الثعالبي في يتيّمته، فقال: «بديع الزمان هو أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمداني، مفخر همدان، ونادرة الفلك وبكر عطار، وفريد الدهر، وغرة العصر؛ ومن لم يلف نظيره في ذكاء القريحة وسرعة الخاطر وشرف الطبع وصفاء الذهن وقوة النفس، ولم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحة وغرر النظم ونكتة، ولم يروا أن أحداً بلغ مبلغه من لبّ الأدب وسره أو جاء بمثل إعجازه وسحره فإنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب فمنها أنه كان ينشد القصيدة ولم يسمعها قطّ وهي أكثر من خمسين بيتاً، فيحفظها كلها ويوردها إلى آخرها، ولا ينخرم حرف منها وينظر في الأربع

(١) أخرجه الترمذي في المناقب باب ٥٨، وأحمد في المسند ٨٧/٤، ٥٤/٥، ٥٧

والخمس الأوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة، ثم يعيدها عن ظهر قلبه هذا ويسردها سرداً، وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى غريب وباب بديع، فيفرغ منها في الوقت والساعة والجواب عما فيها وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطوره، ثم هلم جزأ إلى الأول ويخرجه كأحسن شيء وأملحه، ويوشح القصيدة الفريدة من قبله بالرسالة الشريفة من إنشائه، فيقرأ من النظم النثر، ومن النثر النظم. ويعطي القوافي الكثيرة، فيصنل بها الأبيات الرشيقة، ويقترح عليه كل عروض من النظم والنثر فيرتجله في أسرع من الطرف، على ريق لا يبخله، ونفس لا يقطع؛ وكلامه كله عفو الساعة وفيض اليد ومسارقة القلم ومجاراة الخاطر، وكان مع هذا مقبول الصورة، خفيف الزّوج، حسن العشرة ناصع الظرف، عظيم الخلق، شريف النفس كريم العهد خالص الود، حلو الصداقة، مَرَّ العداوة، فارق همذان سنة ثمانين وثلثمائة وهو مقتباً الشيبية، غض الحادثة وقد درس على أبي الحسين بن فارس، وأخذ عنه جميع ما عنده واستنفذ علمه وورد حضرة للصاحب أبي القاسم بن عباد، فتزوّد من ثمارها وحسن آثارها، وورد نيسابور في سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة فشر بها بزّه، وأظهر طرزه وأملأ أربعمائة مقامة نحلها أبنا الفتح الإسكندري في الكُذبة وغيرها وضمنها ما تشتهي الأنفس، من لفظ أنيق قريب المأخذ بعيد المزام وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام. وجدّ يروق فيملك القلوب، وهزل يشوق فيسحر العقول... ثم ألقى عصاه بهرة فعاش فيها عشية راضية وحين يبلغ أشده وأربى على أربعين سنة؛ ناداه الله فلباه. وفارق دنياه في سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة؛ فقامت نوادب الأدب وانثلم حد القلم، وبكاه الفضائل مع الأفاضل، ورثاه الأكارم مع المكارم؛ على أنه ما مات من لم يمت ذكره، ولقد خلد من بقي على الأيام نظمته ونثره؛ والله عز وجل يتولاه بعفوه ووعفرانه، ويحييه بروحه وريحانه».

وذكر الحصري رحمه الله تعالى في كتاب الزهر أن الذي سبب للبديع رحمه الله تأليف مقاماته، وهو أنه رأى أبا بكر بن الحسين بن دريد قد أغرب بأربعين حديثاً، ذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، وانتخبها من معادن فكره على طبع العرب الجاهلية بالفاظ بعيدة حوشية، فعارضه البديع بأربعمائة مقامة لطيفة الأغراض والمقاصد، بديعة المصادر، والموارد، وانتهى كلامه.

والذي جاء بها، فيه قلة الامتاع للسامع من حديثها، وفيها مقامات لا تبلغ عشرة أسطر فجاءت مقامات الحريري أحفل، وأجزل وأكمل؛ فلذلك فضلت البديعية، وقد صرح علماء الأدب في كتبهم بتفضيل البديع على نظرائه من أهل زمانه، ولقبه بالبديع يدل على قدره الرفيع، قال: [البسيط]

وَقَلَّمَا أَبْصَرْتُ عَيْنَاكَ مِنْ رَجُلٍ إِلَّا وَمَعْنَاهُ إِنْ فَتَّشْتُ فِي لَقَبِهِ

وسئل بعض علماء الأدب من أهل عصرنا عن الحريري والبديع، فقال: لم يبلغ الحريري أن يسمى «بديع يوم» فكيف يقارن بديع زمان!

وجرى ذكر مقاماته في مجلس بعض أسيادنا، وكان حافظاً أديباً، فقال: مقامات البديع يحكى أنها ارتجال، وأن البديع كان يقول لأصحابه في آخر مجلسه: اقترحوا غرضاً نبني عليه مقامة: فيقترحون ما شاءوا فيملي عليهم المقامة ارتجالاً في الغرض الذي اقترحوه؛ وهذا أقوى دليل إن صح على فضل البديع. قوله علامة: أي كثير العلم، وهي بنية للمبالغة.

[هَمْدَان]

وهمدان، بفتح الميم ونقط الذال: بلد بخراسان. وقيل همدان من كور الجبل. وبلد همدان واسع جليل القدر كثير الأقاليم والكور، افتتح سنة ثلاث وعشرين، ويشرب أهلها من عيون وأودية، وقال اليعقوبي: من أراد السير من الدينور إلى همدان سار متنزهاً إلى موضع، يقال له: أسد أباذ مرحلتين من أسد أباذ إلى مدينة همدان مرحلتان - وهي كثيرة البرد. وقال فيها ابن خالويه - وهو همداني، واستوطن حلب عند بني حمدان: [الطويل]

إذا همدانُ اعتَرَّها البرْدُ ولتَقْضَى برغمك أيلولُ وأنت مقيمُ
فعيناك عَمْشاءُ وَأَنْفُكَ سائلُ ووجهك مسودَّ البياض بهيمُ
بلاذٌ - إذا ما الصيفُ أَقبلَ جنةً ولكُنْها عند الشتاء جحيمُ

ولبعضهم: [الكامل]

هَمْدَانٌ متلفةُ النَّفوسِ ببردها والرُّمَهرير، وحرُّها مأمونُ
غَلَبَ الشتاء مصيفها وخريفها فكأنَّما تُموزها كَانُونُ

وكل الرواة يروونها «همدان» بفتح الميم ونقط الذال، إلا ابن اللبانة فإنه رأيت في شرحه: هَمْدَانٌ بسكون الميم وذلك غير معجمة، وهي قبيلة يمانية، قال فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم الله وجهه: [الطويل]

ولو كنت بواباً على باب جنةٍ لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

والرواية الأولى أثبت. قوله: «عزا» أي نسب يقال: عزيته عزياً، وعزوته عزواً: نسبته؛ واعتزى إلى بني فلان: انتسب إليهم وأبو الفتح في البديعية بمنزلة أبي زيد في الحريرية، وعيسى بمنزلة الحارث نشأتها: صنعتها. وروايتها: إسناد أحاديثها. والنكرة التي لا تتعرف، هي في غير الأسماء.

فأشار مَنْ إشارتهُ حُكْمٌ، وطاعتهُ غُنْمٌ، إلى أَنْ أنشئ مَقَامَاتٍ أتلو فيها تِلَوُ
البَدِيعِ وإنْ لَمْ يُذَرِكِ الظَالِعُ شَأوَ الضَّلِيعِ، فَذَاكرتهُ بِمَا قِيلَ فيمن أَلَفَ بَيْنَ كِلِمَتَيْنِ،
وَنَظَّمَ بَيْنَهُمَا أَوْ بَيْنَتَيْنِ، واستقلتُ مِنْ هذا المقام الذي فيه يَحَارُ الفَهْمُ، ويفرطُ الوَهْمُ
ويسبر غورَ العَقْلِ وتبين قيمةُ المرءِ في الفضلِ، ويضطرُّ صاحبه إلى أن يكون
كحاطب ليل أو جالب رجل وخيل، وقلماً سَلِمَ مِكَثَارٌ، أو أُقِيلَ لَهُ عِثَارٌ.

غُنْمٌ: غنيمة وحكى الفنجديهي في شرحه للمقامات: أن الذي أشار عليه بها هو
شرف الدين أنوشروان بن خالد وزير الخليفة، أمره بإنشاء المقامات وحكم عليه بها.
وقيل: أمره به صاحب البصرة وواليتها، وقال: سمعت الشيخ الثقة أبا بكر عبد الله بن
محمد بن أحمد بن النصور البزار ببغداد يقول؛ سمعت الشيخ الرئيس أبا محمد الحريري
يقول: أبو زيد السروجي كان شحاذاً بليغاً، ومكدياً فصيحاً، ورد علينا البصرة، فوقف
يوماً في مسجد بني حرام يتكلم، ويسأل شيئاً، وكان بعض الولاة حاضراً، والمسجد
غاص بالفضلاء فأعجبهم بفصاحته، وحسن صناعته وملاحته، وذكر أسر الروم ابنته، كما
ذكرنا في المقامة الحرامية وهي الثامنة والأربعون، قال: فاجتمع عندي عشية ذلك اليوم
جماعة من المعارف فضلاء البصرة وعلمائها، فحكيت لهم ما شاهدت من ذلك السائل
وسمعت من لطافة عبارته في تحصيل مراده، وطرافة إشارته في تسهيل إيرادته؛ فحكى كل
واحد من جلسائي أنه شاهد من هذا السائل في مسجده مثل ما شاهدت، وإنه سمع منه
معنى آخر فصلاً أحسن مما سمعت، وكان يغير في كل مسجد زيه وشكله، ويظهر في
فنون احتياله، فعجبوا من جريانه في ميدانه، وافتنانه في إحسانه؛ قال الحريري؛ فابتدأت
في إنشاء المقامة الحرامية تلك الليلة، حاذياً حذوه فلما فرغت منها أقرأتها جماعة من
الأعيان، فاستحسنوها غاية الاستحسان، وأنهو ذلك إلى وزير السلطان، واقترحوا عليّ
أخواتها، والله المستعان.

وهذا الذي ذكر الفنجديهي قد حدثني بنحوه من يوثق به من الطلبة، بسند يتصل
بأبي محمد الحريري، وإن الحريري وفد مع أهل البصرة بغداد، فوجدوا بواسط أبا زيد
السروجي فقال: يا أهل البصرة أنتم تزعمون أنكم لا تكادون ولا تخذعون، وقد والله
مشيت على مساجدكم ومحاضركم، فما تعذر عليّ فيها موضع لم أجلب منافع أهله
بضروب من المكر، فلما بلغوا بغداد أخبروا بالقصة وزير السلطان، فأمر الحريري بجمع
المقامات.

لكن الذي ثبت عندنا هو ما حدثني به الشيخ الفقيه أبو بكر بن أزهر أن الفقيه
الراوي أبا القاسم بن جهور، حدثه أن الحريري حدثه أن قصة المقامة الثامنة والأربعين

حق، وأن رجلاً قام بمسجد بني حرام فأظهر التوبة من ذنبه، وسأل عن الوجه في كفارته فقام رجل من بين الناس، فذكر أسر ابنته، فنظم الحريري القصة وجعلها مقامة، وأنها أول مقامة أثبتت في الكتاب وكان ابن جهور يقول: إن الذي أشار إليه بها في قوله: «فأشار من إشارته حكم» هو المستظهر بالله العباسي، وكان لهذا المستظهر رغبة في الطلب، وحظ من الأديب، وعناية بأهل العلم.

وحدث ابن جهور أنه دخل بغداد في أيامه وبها ألف رجل وخمسمائة رجل حامل علم، وكلهم قد أثبت أسماءهم السلطان في الديوان، وأجرى على كل واحد من المال بقدر حظّه من العلم، وكان ابن جهور يحدث أن الحريري ألف المقامات كلها على الرّكاب، وذلك أن المستظهر بالله لما أمره بصنعتها، أخرج كالحافظ على العمال، فكان يخرج في الأبردين يتمشى في ضفّتي دجلة والفرات، ويصقل خاطره بنظر الخضرة والمياه فلم ينقض فصل العمل إلا وقد اجتمع له مائتا مقامة فخلّص منها خمسين وأتلف البواقي، وصدر الكتاب، ورفعها إلى السلطان فبلغ عنده أسنى المراتب.

قوله: «فذاكرته بما قيل فيمن ألف بين كلمتين ونظم بيتاً أو بيتين»، قال عمرو بن العلاء: الإنسان في فسحة من عقله، وفي سلامة من أفواه الناس، ما لم يضع كتاباً أو يقل شعراً.

وقال العتّابي: من صنع كتاباً فقد استشرف للمدح والذم، فإن أحسن فقد استهدف للحسد والغيبة، وإن أساء فقد تعرّض للشتم بكل لسان.

غيره: من صنف فقد جعل عقله على طبق يعرضه على الناس. وقال حسان: [البسيط]

وإنما الشُّعْرُ عَقْلُ المرءِ يَغْرِضُهُ على البريّة إن كَيْساً وإن حُمْقاً^(١)
وإن أحسن بيتٍ أنت قائلُهُ بيتٌ يقال إذا أنشدته صدقاً

واستقلت: طلبت الإقالة. المقام: موضع القدمين وأنت قائم. يحار: يتحير. يَفْرُط: يسبق. الوهم: الغلط. يُسَبِّر غور العقل، يختبر قدره ومنتهاه، وأصله في الجراحات يُختَبَر غورها، أي بعد قعرها. والمسبار: الحديدية التي يقاس بها مقدار غور الجراحة وسبرها: قاسها به، يفعل ذلك الدبيب للقصاص أو للدواء. ويقال لحديدته: السِّبَار والمسبار والمسبر والمكحل والميل والمروء والمجراف.

تبين: تتبين، يضطر: يُلجأ. حاطب ليل: جامع الحطب بالظلام، وهذا مثل لأكثم ابن صيفي حكيم العرب، ذكره أبو عبيد في الأمثال وقال: إنما شبهه بخاطب الليل لأنه ربما نهشته الحية أو لسعته العقرب في احتطابه ليلاً، فكذلك المهدار ربما أصابه في إكثاره بعض ما يكره، وقال الفرزدق: [الطويل]

(١) البيت في ديوان حسان بن ثابت ص ٢٩٢.

كمحتطبٍ ليلاً أساوِدَ هضبةً أتاه بها في ظلمة الليل حاطبُهُ^(١)

وأبين من تفسيره أن حاطب الليل لا يبصر ما يحتطب، فهو يؤلف بين الحطب الكبير والصغير والقوي والضعيف. والجيد والرديء، فكذلك المكثار يأتي بالضعيف من الكلام والقوي والجيد والرديء، فشبهه لذلك بالحاطب وأراد بـ«جالب رجل وخيل» ما أراد بحاطب الليل، لأن الراجل ضعيف والفارس قوي، والمكثار: الكثير الكلام، قال النبي ﷺ: «مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ، وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ كَثُرَ ذَنْبُهُ، وَمَنْ كَثُرَ ذَنْبُهُ كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ، أَلَا وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْراً أَوْ لِيَسْكُتْ»^(٢).

أقيل: أقيم ورفع. عثار: انكباب وسقوط وإقامة العائر أن ترفعه من سقطته ومنه الإقالة في البيع ونحوه.

فلما لم يُسَعِفْ بالإقالة، ولا أَعْفَى مِنَ الْمَقَالَةِ لَبِيتُ دَعْوَتَهُ تَلْبِيَةَ الْمُطِيعِ، وَبَذَلْتُ فِي مُطَاوَعَتِهِ جُهْدُ الْمُسْتَطِيعِ وَأَنْشَأْتُ - عَلَى مَا أَعَانِيهِ مِنْ قَرِيحَةٍ جَامِدَةٍ، وَفِطْنَةٍ خَامِدَةٍ وَرَوِيَّةٍ نَاصِبَةٍ وَهُمُومٍ نَاصِبَةٍ - خَمْسِينَ مَقَامَةً تَحْتَوِي عَلَى جَدِّ الْقَوْلِ وَهَزْلِهِ وَرَقِيقِ اللَّفْظِ وَجَزْلِهِ وَغَرَرِ الْبَيَانِ وَدُرَرِهِ وَمُلْحِ الْأَدَبِ وَنَوَادِرِهِ، إِلَى مَا وَشَّخَّطَهَا بِهِ مِنَ الْآيَاتِ وَمِحَاسِنِ الْكُنَايَاتِ وَرَصَّعَتْهُ فِيهَا مِنَ الْأَمْثَالِ الْعَرَبِيَّةِ، وَاللِّطَائِفِ الْأَدَبِيَّةِ وَالْأَحَاجِي التَّحْوِيَّةِ وَالْفَتَاوَى اللَّغْوِيَّةِ وَالرِّسَالِ الْمُبْتَكِرَةِ وَالْخُطْبِ الْمُحْبَرَةِ وَالْمَوَاعِظِ الْمُبْكِيَّةِ وَالْأَضَاحِيكِ الْمُلهِيَّةِ مِمَّا أَمْلَيْتُ جَمِيعَهُ عَلَى لِسَانِ أَبِي زَيْدِ السَّرُوجِيِّ، وَأَسْنَدْتُ رِوَايَتَهُ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ هَمَامِ الْبَصْرِيِّ.

والاسعاف المصدر، وساعفته مساعفة: قضيت إرادته ولا أعفى من المقالة، أي لم يُعَفِّنِي مِنْ كَلَامِهِ وَإِلْحَاحِهِ، وَأَعْفَيْتُ: الرِّجْلُ وَعَافَيْتُهُ: أَزَلْتِ عَنْهُ مَا يَشُقُّ عَلَيْهِ وَأَصْلُهُ التَّرْكُ، وَمِنْهُ إِعْفَاءُ اللَّحْيَةِ، وَهُوَ أَنْ يَتْرَكَهَا عَلَى حَالِهَا، وَمِنْهُ: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَبِيتُ: أَجَبْتُ وَقُلْتُ: لَبِيكَ. أَنْشَأْتُ: ابْتَدَأْتُ وَأَخَذْتُ أَفْعَلَ، أَعَانِيهِ: أَعَالَجَهُ وَأَصْلُهَا مِنَ الْعَنَاءِ وَهُوَ التَّعَبُ قَرِيحَةً: ذَهْنٌ وَأَصْلُهَا مَاءُ الْبُئْرِ النَّابِعِ عِنْدَ حَفْرِهَا، وَمِنْهُ الْقَرِحَةُ لِلْجَرَّاحَةِ، لِأَنَّهُ أَصْلُهَا مَادَّةٌ وَشَبَّهَ الذَّهْنَ بِذَلِكَ لِمَا يَتَوَلَّدُ عَنْهُ مِنَ الْمَعَانِي فِطْنَةً: ذِكَاةً وَالْفُطْنَ: الذَّكْيَ خَامِدَةً سَاكِنَةً وَخَدَمَتِ النَّارُ: سَكَنَ لَهَا رُويَةً تَدْبِرُ وَرَوَّاتُ الْأَمْرِ تَدْبِرُ كَيْفَ تَصْنَعُهُ.

(١) البيت في ديوان الفرزدق ص ٥١.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق باب ٢٣، ومسلم في الإيمان حديث ٧٥، ٧٧، والترمذي في البر باب ٤٣، وابن ماجه في الأدب باب ٣٤، والفتن باب ١٢، والدارمي في الأُطعمة باب ١١، وأحمد في المسند ٢٤/٥، ٤١٢.

وأصل الروية الهمز واستعملت بغير همز. ناضبة: جافة، ونضب الماء: غار في الأرض. ناضبة: متعبة، وهم على معنى النسب أي ذو نصب ولو جاء على القياس لقليل: منصب، لأن فعله أنصبه الهم وقال بشر: [الطويل]

تَعْنَاكَ هُمْ مِنْ أَمِيمَةٍ مُنْصَبٍ وجاء من الأخبار ما لا يكذب^(١)

ونصب نَصَبًا: أعيان من التعب. جزلة: غليظة ومتينة. وغرر: جمع غُرَّة وهي خيار الشيء ومنه غُرَّة الفرس وهو البياض في جبهته فجعلها للبيان مجازاً. دُرَّرَه جمع دُرَّة، وهي الجوهرة العظيمة، والكلام الحسن يشبه بالدرر والجواهر، مُلِح: جمع ملحَة، وهي مליح الكلام. نوادره: غرائب وشحتها: زينتها، الكنايات: ضرب من الألغاز، وأصل الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه، إما لإبهام على جليسه أو لتعظيم أو لتحقير، فالإبهام أن تذكر لفظاً يفهم من ظاهره غير مرادك مثل قوله تعالى حاكياً عن هود عليه السلام، حين قال له قومه: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سُفَاهَةٍ...﴾ قال يا قوم لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ ﴿الأعراف: ٦٦، ٦٧﴾ فليس في اللفظ زيادة على ما في السفاهة، وقد تضمن الكلام التكذيب لهم والتعظيم، مثل كناية الرجل بأبي فلان، تُرِكَ اسمه وعدل إلى كنيته تعظيماً له. والتحقير: أن يكون الشيء خسيساً فتأنف من ذكره فتذكره بغير اسمه، مثل قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] فكنى عن الحدث بالأكل لما كان يتولد عنه، رَصَعته: نظمته، وألصقت بعضه ببعض، وتاج مرصع: مزين بخرز وجوهر ينتظم فيه. اللَّطَائِف: الرقائق والكلمة اللطيفة، أي الرقيقة المعنى التي تحل في القلب فتلطفه، الأحاجي: ضرب من الألغاز واحداً أحجية، وهي قولك لصاحبك: أخرج: ما في يدي ولك كذا تقول العرب: أحاجيك ما في يدي؟ وحجيتك ما في يدي؟ وهي من الحجى وهو العقل.

الفتاوى اللغوية، أراد بها المسائل المائة التي في الثانية والثلاثين وألفيتا: إظهار الشيء المسؤول عنه عند السؤال. المبتكرة: التي لم يسبق أليها، وبكر وابتكر خرج بكرة ومنه الباكور وهو المبكر من كل شيء في الإدراك، وبكر كل شيء: أوله. والمحبرة: المزيينة، وحبرت الشيء تحبيراً زينته، وأصلها من الحبر وهي ثياب تصنع باليمن فيها رقوم وتزيين أمليت: ألفت، وأمليت على الصبي: ألفت عليه ما يكتب. أسندت: رفعت.

(١) البيت لبشر بن أبي خازم في ديوانه ص ٧، ورواية البيت فيه:

تغنناك نصب من أميمة منصب كذي الشوق لما يشله وسيذهب

ولطفيل الغنوي في ديوانه ص ٣٧، ورواية البيت فيه:

تأوبني هم مع الليل منصب وجاء من الأخبار ما لا أكذب

والأغاني ٣٤٢/١٥، والرواية فيه كما في ديوان طفيل والبيت بلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٣٥٠.

وَمَا قَصَدْتُ بِالْإِحْمَاضِ فِيهِ إِلَّا تَنْشِيطَ قَارِئِهِ، وَتَكْثِيرَ سَوَادِ طَالِبِيهِ. وَلَمْ أُودِعْهُ مِنَ الْأَشْعَارِ الْأَجْنَبِيَّةِ إِلَّا بَيْتَيْنِ فَذَيْنِ أُسَسْتُ عَلَيْهِمَا بَنِيَّةُ الْمَقَامَةِ الْحُلُوانِيَّةِ وَآخَرَيْنِ تَوَامِينِ ضَمَنَتْهُمَا الْمَقَامَةُ الْكَرَجِيَّةُ وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَخَاطِرِي أَبُو عُذْرِهِ وَمُقْتَضِبُ حُلُوهِ وَمُرُّهُ هَذَا مَعَ اعْتِرَافِي بِأَنَّ الْبَدِيعَ رَحِمَهُ اللَّهُ سَبَّاقَ غَايَاتٍ وَصَاحِبَ آيَاتٍ، وَأَنَّ الْمُتَصَدِّيَّ بَعْدَهُ لِإِنْشَاءِ مَقَامَةٍ؛ وَلَوْ أُوتِيَ بِلَاغَةٍ قَدَامَةٍ، لَا يَغْتَرَفُ إِلَّا مِنْ فَضَالَتِهِ، وَلَا يَسْرِي ذَلِكَ الْمَسْرَى إِلَّا بِدَلَالَتِهِ.

الإحماض: الانتقال من الشيء إلى شيء، وأصله في الإبل ترعى الخلة وهي حلوة المرعى فتملأه فتنقل إلى الحمض تأكل منه فيذهب الحمض عن قلوبها استيلاء الحلاوة فتنشيط بذلك على الرعي فيقال: أحمض الرجل إحماضاً، والعرب تقول: الخلة خبز الإبل والحمض فاكهتها فأراد به تنقله في المقامات، من حكاية فائقة إلى قضية راقية، ومن موعظة تبكي إلى ملهية تُسلي، وفي ذلك تنشيط وترغيب في قراءتها، ونفي للملل والكسل عن قارئها، سواد: أشخاص، ويسمى الشخص سواداً، لأنه يسود الأرض بظله. أودعه: أضمنه، الأجنبية: التي ليست من شعره، والأجنبي: من ليس بينك وبينه قرابة من الجنابة وهي البعد فذين: منفردين هذا من شعر وهذا من آخر، وتوأمين: أخوين من شعرٍ واحدٍ. أسست: أصلت، والأساس أصل الحائط. الحلوانية والكرجية: منسوبةتان إلى حُلوان والكرج، وهما بلدان، ما عدا: ما جاوز. خاطري: ذهني. أبو عُذْرِهِ، أي أول صانع له، يقال للمرأة: فلان أبو عُذْرَهَا، أي أول زوج تزوجها فوجدها عذراء فافتضها وأزال عُذْرَتَهَا، أي ما بها من صعوبة، مقتضب. مقتطع. حلوه ومره: جيده ورديته.

غَايَات: جمع غاية وهي طلق^(١) الخيل والسباق منها الذي يجيء أبداً سابقاً المتصدي: المتعرض. بلاغة: فصاحة، وأصلها أن يبلغ الإنسان من الكلام والحجة ما أراد.

[قدامة بن جعفر]

قدامة. وهو أبو الوليد بن جعفر، كان بليغاً مجيداً عالماً بأسرار صنعة الكتاب ولوازمها، وله كتاب يعرف بسرّ البلاغة في الكتابة، وترجمته تدل على متضمنه، وله تحقيق في صنع البديع يتميز به عن نظرائه، وتدقيق في كلام العرب يربي فيه على أكفائه، وتحذيق في علوم التعليم أضرم فيها شعلة ذكائه؛ فلذلك سار المثل ببلاغته، واتفق

(١) الطلق: هو الشوط الواحد في جري الخيل.

المتقدم والمتأخر على فضل براعته. الفضالة: البقية من الماء وغيره، وهي ما فضل عن الحاجة. واغترفها: أخذها بيده يسري بذلك المسرى: يقصد ذلك المقصد، وأصل يسري، يسير بالليل، دلالة: تقدمه وهدايته، وتفتح دالها وتكسر، والفتح أكثر. والدليل بالفلاة: الذي يهدي القوم قصدهم.

وَلَيْلَهُ دُرُّ الْقَائِلِ : [الطويل]

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهِا بَكَيْتُ صَبَابَةً بِسَعْدَى شَفِيتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنْدُمِ
وَلَكِنْ بَكْتُ قَلْبِي فَهَيْجَ لِي الْبُكَاهَا بُكَاهَا، فَقُلْتُ: الْفُضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

مبكاها: بكاءها، صبابه: شوقاً هيج: حرك والبيتان لعدي بن الرقاع، وقبلها:

[الطويل]

ومما شجاني أنني كنت نائماً أعلل من فرط الكرى بالتنسّم
إلى أن دعت ورقاء في غصن أيكّة تُرَدَّدُ مَبْكَاهَا بِحَسَنِ التَّرْنَمِ
فلو قبل مبكاها...

[عدي بن الرقاع]

وعديّ هو أبو زيد بن مالك، ينتمي إلى معاوية بن الحارث، وينسب إلى الرقاع وهو جدّ جده. وكان شاعراً مقدماً عند بني أمية، مداحاً لهم، خاصاً بالوليد بن عبد الملك، ومنزله بدمشق، وهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم، وكان من أوصاف الناس للمطية، وكذا ذكره صاحب الأغاني في ترجمته وقال نوح بن جرير لأبيه: من أنسب الناس؟ قال: ابن الرقاع في قوله: [الكامل]

لولا الحيا وأن رأسي قَدْ عَسَا فيه المشيب لزلت أم القاسم^(١)
وكانها بين النساء أعارها عينيه أحور من جاذر جاسم
وسنان أقصده التّعاس فرثقت في عينة سِنَّةً وليس بنائم

أقرّ الحريري هنا للبديع بالفضل، وجعله سباقاً للغايات، وما أحسن هذا الأدب منه، مع علمه بفضل مقاماته على مقامات البديع، ومن أدل دليل على ذلك أنه منذ ظهرت مقامات الحريري لم تستعمل مقامات البديع، ثم إنه طبق استعمالها آفاق الأرض،

(١) الأبيات في ديوان عدي بن الرقاع ص ٩٩، والأغاني ٣/ ٣٧٤، ٩/ ٣٠٤، ٣٠٧، وأمالى المرتضى ٥١١/١، ولسان العرب (جسم)، (عتا)، ومعجم البلدان (جاسم).

إلا أنه أسرَّ هنا شيئاً، لأنه ختم كلامه، بأن البديع فضله بالتقدّم؛ وهذا منه مذهب مستحسن، ألا تراه كيف بدأ بتجريد الفضل للبديع وحده، ثم لم ير لنفسه قدراً في قوله: «وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع»؛ فجعل نفسه كالفرس الأعرج الذي جريه إذا أجهت دون مشي الصحيح، وجعل البديع كالفرس العتيق الكامل القوة ثم لما بلغ إلى هذا الموضع بعد أسطار صرّح في الظاهر للسامع بأن البديع سباق غايات، وصاحب آيات، وأومى لمن فطن أنه إنما فضله بتقدم الزمان.. ثم خلط الكلام في الخلفاء بين المتقدمين والمتأخرين، ثم تناسى ذلك إلى آخر الكتاب في السابعة والأربعين، وصرّح هناك بتفضيل المتأخر على المتقدم وتفضيله نفسه على البديع، حيث يقول: [الرجز]

إن يكن الإسكندري قبلي فالطلّ قد يبدو أمام الوئيل
* والفضل للوابل لا للطلّ *

ولو كان غيره من العلماء المنسويين إلى سوء الأدب، ورأى فضل مقاماته، لزم البديع ونقص كتابه فكان ينعكس الذم عليه: وكذا رأينا في الغالب من ادعى لنفسه فضلاً، وازدري غيره، أنه قلماً يكون إلا ممقوتاً، فلما أظهر الحريري مدح البديع ووفاه قسطه من التفضيل والترفع، ولم ينظر إلى نفسه إلا بطرف خفي قل من يتفطن له، ستر الله عليه ورفع صيته، ووضع لكتابه القبول عند الخاصة والعامة. [الطويل]

فشرق حتى لم يجد ذكر مشرق وغرب حتى لم يجد ذكر مغرب
فلا يذم كتابه إلا أحد الرجلين فذين ذكرهما؛ إما جاهل، أو حاسد.

ومذهب الناس في تفضيل الحديث على القديم؛ وأكثرهم على تفضيل القديم، وقد أحسن حبيب حيث يقول: [الكامل]

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألوه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل
وقال: [الكامل]

لا زلت من شكري في حلة لأبسها ذو سلب فاخر
يقول من تقرر أسماعه: ما ترك الأول للأخر

وذكر ابن شرف علة ذلك فقال: [الكامل]

أولع الناس بامتداح القديم وبذم الحديث غير الدميم
ليس إلا لأنهم حسدوا الحي ومالوا إلى العظام الرميم

وللمتأخرين شعر كثير في تفضيلهم أنفسهم على المتقدمين؛ من أحسنه قول المعري: [الخفيف]

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمائه لا تِ بمالم تستطعه الأوائل
وقال ابن عمار: [الطويل]

أنا ابنُ عمار لا أخفى على أحدٍ إلا على جاهلٍ بالشمس والقمرِ
إن كان أخرني دهري فلا عجبٌ فوائد الكتبُ يُستلحقن في الطررِ

والذي ذكر أبو العباس في الكامل هو الحق، قال: وليس لقدم العهد يفضل القائل، ولا لحدائنة العهد يهضم المصيب، ولكن يعطى كل ما يستحق

[الحمام]

وأما بيت عدي في الحمام فالحمام قد ذكر العرب لها في أشعارها، ونلّم هنا بفصل منها؛ يروى عن علي رضي الله عنه أنه اشتكى إلى رسول الله ﷺ الوحشة فقال له: «اتخذ حمامة تؤنسك وتصيب من فراخها وتوقظك للصلاة بتغريدها»^(١).

ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اتخذوا الحمام فإنها تلهي الجن عن صبيانكم»^(٢).

وروى جابر رضي الله عنه أنه ﷺ كان يعجبه النظر إلى الحمام الأحمر وإلى الأترج.

وكان إبراهيم بن سيار يعجب بالحمام، وكان إذا ذكرها يقول: إن الله جمع فيها حسن المنظر، وكريم المخبر؛ تكفيك مؤنتها، وتكثر لديك معونتها؛ فهي للطارق عذّة وللمستوطن لذة، تطعم في الصحراء، وتعود عليك بالسراء ويأنس الوحيد بحركاتها، وتغنيه عن الأوتار بنغماتها؛ وغيرها من الطير يستعجم وهي ناطقة، وينفر عنك وهي داجنة، وفي طباعها سكون إلى الناس واستئناس بهم، وهي طير عفيف، يبقى الذكر بعد الأنثى مفرداً، والأنثى مثل ذلك، مع شدة اتفاقهما على المحبة، إن طارا طارا معاً، وإن وقعا وقعا معاً، لها سرعة طيران لا تكاد تصيدها سباع الطير إلا بحيلة.

ولم تزل العرب تستحسن تسجيع الحمام وتغريد البلبل والورشان، وقد ذكرت العرب من رقة تسجيعة ما يبعث التذكر، ويولد الشجون، ويهيج الأسى، ويجدد رقة القلب؛ حتى يجعل البكاء فرضاً معها، والتصابي لازماً لأجلها وأعراب وادي القرى إذا ظفروا بشراب الطائف، أتوا حواط النخل عند استعلاء الظهيرة، إذا صارت الوراشين

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ ولا المعنى في كتب الصحاح.

(٢) أخرجه الطبراني في الجامع الصغير ٩/١، بلفظ: «اتخذوا هذه الحمام المقاصيص».

والفواخت إلى تلك الظلال، فيشربون ويأنسون بتغريدهن، ويقيمون ترجيع أصواتهن مقام المزامير والأوتار وأنا أسوق من المنظوم ما يوافق هذا النثر، كقول أبي صخر الهذلي: [الطويل]

ولما دعت غوريّة الأيك سَجَّعَتْ
يذكرني شجوى دعاء حمامة
بكت حزناً رزء الهديل وشفني
وأشد الأصمعي قال: [البسيط]

أيتها البلبل المغرّد في الثخ
أفراقاً تشكوه أم ظنّلت تدعو
هاج لي صوتك المغرّد شجواً
وقال آخر: [الوافر]

أحنّ إلى حوائط ذات عرق
ألتم بها بكل فتى كريم
وقال آخر: [الوافر]

إذا غنّت على الأغصان وزق
وقال آخر: [الوافر]

سيغنّيك عن مزمار آل محرق
بأىكة أطيّار تجاوين بالضحي

وأشد أبو عليّ عفا الله تعالى عنه: [الطويل]

ومن بستان إبراهيم غنّت
فقلت لها وقيت سهام رام
كما هيّجت ذا حزن مُعْنَى
وقال نصيب: [الوافر]

لقد هتفت في جُنج ليل حمامة
كذبتُ وبيت الله لو كنت عاشقاً
تبكيّ على ألف وإنّي لنائم
لَمّا سبقتنني بالبكاء الحمام^(١)

(١) البيتان للمجنون في ديوانه ص ١٨٦، والأغاني ٦٢/٢، والمقاصد النحوية ٤/٤٧٣، ولنصيب في =

وأُشَدُّ أَبُو الْعَبَّاسِ لَحْمِيدُ بْنُ ثَوْرٍ : [الطويل]

وما هاج هذا الشوق إلا حمامةً دعت ساق حرّ ترحةً وترثماً^(١)
مُحَلَّاةً طوقٍ لم يكن من تميمية ولا ضربَ صَوَاعٍ بكفّيه درهما
تَغَثَّتْ عَلَى غَصَنِ عِشَاءٍ فَلَمْ تَدَغْ لنائحةٍ في نوحها متلوّماً
إِذَا حَرَكَتْهُ الرِّيحُ أَوْ مَالُ مِيلَةٍ تَغَثَّتْ عَلَيْهِ مَائِلًا وَمَقُومًا
عَجِبْتُ لَهَا أَنَّى يَكُونُ غَنَاؤُهَا فصيحاً ولم تَفْعَزْ بِمَنْطِقِهَا فَمَا
فَلَمْ أَرْ مِثْلِي شَاقَهُ صَوْتُ مِثْلِهَا وَلَا عَرَبِيًّا شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمًا

وقال حبيب : [الكامل]

لتضعضعت عبراتُ عينيك أن دَعَثَ ورقاءُ حين تضعضع الإِظْلَامُ^(٢)
لا تشجّينَ لها فإن بكاءها ضحك وإن بكاءك استغفرامُ
هَنَ الْحَمَامُ، فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَاةً من حائهنَ فَإِنَّهِنَّ جِمَامُ

وسمع حبيب بخراسان غناءً بالفارسية، فلم يدر ما هو، غير أنه شوقه فقال : [الوافر]
جِمَذْتُكَ لَيْلَةً شَرُفْتَ وَطَالَتْ أَقَامَ سَهَادُهَا وَمَضَى كَرَاهَا^(٣)
سَمِعْتُ بِهَا غِنَاءً كَانَ أَوْلَى بأن يقتاد نفسي من عَنَاهَا
وَمَسْمَعَةٌ يَحَارُ السَّمْعُ فِيهَا ولم تصمِ منه لا يصمُ صَدَاهَا
وَلَمْ أَفْهَمْ مَعَانِيَهَا وَلَكِنْ وَرَثَ كَبِدِي فَلَمْ أَجْهَلْ شَجَاهَا
وَوَلَّيْتُ كَأَنَّنِي أَعْمَى مَعْنَى يحبُّ الغانيات ولا يَرَاهَا

يعني بهذا الأعمى بشاراً حيث يقول : [البسيط]

يا قوم أذني لبعضِ الحيّ عاشقةً والأذن تعشق قبل العين أحياناً^(٤)
قالوا بمن لا ترى تهذي! فقلت لهم : الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

= ديوانه ص ١٤، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٢٨٩، وبلا نسبة في الجنى الداني ص ٢٨٤، والحيوان ٢٠٦/٣.

(١) الأبيات في ديوان حميد بن ثور ص ٢٤، ٢٧ ولسان العرب (حرر)، (سوق)، (حمم)، ومقاييس اللغة ٦/٢، ومجمل اللغة ٨/٢، وتاج العروس (حرر)، (علط)، (سوق)، (وحى)، وبلا نسبة في كتاب العين.

(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٢٧٩.

(٣) ديوان أبي تمام ص ٤٦٧. (٤) انظر الأغاني ٢٣٨/٣.

وَأَرْجُو أَلَّا أَكُونَ فِي هَذَا الْهَذَرِ الَّذِي أَوْرَدْتَهُ، وَالْمُورِدِ الَّذِي تَوَرَّدْتَهُ،
كَالْبَاحِثِ عَنِ حَتْفِهِ بِظَلْفِهِ، وَالْجَادِعَ مَارَنَ أَنْفَهُ بِكَفِّهِ، فَأَلْحَقَ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً
الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً.

قوله: «الهذر الذي أوردته» أي الإكثار الذي أتيت به، وقد تقدّم المورد وتوردته:
اقتحمته. الباحث: المفتش، والظلف: للبقر والغنم كالخافر للخيول والحمير. وهذا مثل
للعرب؛ وذلك أن ماعزة كانت لقوم، فأرادوا ذبحها فلم يجدوا شفرة، فنبشت بظلفها في
الأرض، فاستخرجت منها شفرة، فذبحوها بها، وقالوا: بحثت عن حتفها بظلفها،
فسارت مثلاً. وقال الشاعر: [الطويل]

وكانت كعنز السوء قامت بظلفها إلى مُدِيَةٍ تحت الثرى تستثيرها^(١)

وقال أبو الأسود: [المقارب]

فلا تك مثل التي استخرجت بأظلافها مُدِيَةً أو بِفِيهَا^(٢)
فقام إليها بها ذابح ومن يذع يوماً شعوباً يَجِيها

ولفظ المثل عند أبي عبيد «كالعنز تبحث عن المدية» والجادع: القاطع الأنف.
والمارن: طرف الأنف، وأراد به قصيراً مولى جذيمة الأبرش. وقد ذكرنا قصته في شرح
الرابعة والعشرين. ورجا المصنف ألا يدركه من الضرر ما أدركا من الضرر حين جنيا على
أنفسهما وانتفع غيرهما، ضلّ سعيهم: خابت أعمالهم، وأصل ضلّ، تحير فلم يدر أين
يتوجّه، وأصل السعي المشي بسرعة، سمع أعرابي رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ
أَعْمَالاً﴾ [الكهف: ١٠٣]، فقال: أنا أعرفهم، قيل له: ومن هم؟ قال: الذين يبرزون
ويأكل غيرهم.

على أنني وإن أغمض لي الفطن المتعابي، ونضح عني المحبُّ المحابي، لا
أكاد أخلص من غمر جاهل أو ذي غمر متجاهل، يَضَعُ مني لهذا الوضع ويندّد بأنّه
من مناهي الشرع. ومن نقد الأشياء بعين المعقول، وأنعم النظر في مباني الأصول،
نظّم هذه المقامات، في سلك الإفادات وسلكها مسلك الموضوعات، عن
العجماوات والجَمادات.

(٢) البيتان في ديوان أبي الأسود الدولي ص ٢٢.

(١) البيت للفرزدق في ديوانه ص ٧١.

أغمض: سامح وسد عينيه عما لم يرض، والفطن: الذكي. التغابي: المتجاهل عن الشيء وهو عارف به، وهو مما يحمد به الرجل، قال حبيب: [الكامل]

ليس الغبيّ بسيد في قومه لكنَّ سيد قومه المُتغابي^(١)

ونُضِح بالماء: غسل. المحابي: الذي يفضّلني على غيري، وحباني: اختصني بالعطية، وأصل حباها أن تعطيه ويعطيك، وقد يكون في معنى «حباها». الغمر: الجاهل ذي غمر: صاحب عداوة. متجاهل: مستعمل للجهل وهو على خلافه؛ يقول: إن سد عينيه عن عيبي فطُنّ ذو عقل، أو تغابي حين يبصر لي خطأ، أو رأى لي ذلك العيب محبّ، فجعل يغسله عني لمحبته لكلامي؛ فلا أخلص مع ذلك إما من جاهل يعيب ما لا يفهم، أو من عارف يُظهر لي عداوة وحسداً، فيردّ حسني قبيحاً، وهو عارف بحسني؛ فيشيع في الناس أن المقامات أكاذيب، وهو عارف بفضلها وما قصد بها.

[ما قيل في الحقد]

والغمر: الحقد، وصاحبه مذموم، ولا أعرف من تعرّض من الفصحاء لمدح حامله سوى ما يحكى أن عبد الملك بن صالح جيء به إلى الرشيد في قيوده، فقال له ابن خالد - وأراد أن يبكته: بلغني أنك حقود، فقال عبد الملك: أيها الوزير، إن كان الحقد هو بقاء الخير والشر؛ إنهما لباقيان في صدري - وفي رواية أخرى: إنما صدري خزانة تحفظ ما استودعت من خير أو شر - فقال الرشيد: والله ما رأيت أحداً احتجّ للحقد بمثل ما احتجّ به عبد الملك، ففتح الباب لابن الرومي، فقال يخاطب بعض من عابه بالحقد: [الطويل]

لئن كنتُ في حفظي لما أنا مودّع
لما عبتني إلا بفضل أمانة
ولولا الحقود المستكنات لم يكن
وما الحقد إلا توهم الشكر في الفتى
فحيث ترى حقدًا على ذي إساءة
من الخير والشر انتحيت على عرضي
وربّ امرئ يزري على خُلُقٍ محضٍ
لينقض وتراً آخر الدهر ذو نقضٍ
وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض
فثمّ ترى شكرًا على حسنِ العوضِ

ثم رجع إلى الطريقة المثلى، فانتحل المذهب الأعلى، وقال يعيبه، ضارباً بسهم البلاغة في الوجهين: [البيسط]

يا ماح الحقد محتالا له شُبهاً
يا دافن الحقد في ضِغفي جوانحه
الحقد داء دوي لا دواء له
لقد سلكت إليه مسلكاً وعثاً
ساء الدفين الذي أضحت له جدثاً
يرى الصدور إذا ما جمره حُرثاً

(١) البيت في ديوان أبي تمام ص ١٥٤.

فإنما يُبْرَأ المصدور ما نَقَّشَا فاستشفينهُ بصفح أو محادثة
يعود ما لم منه مَرَّةً شَعْبًا إنَّ القبيح إذا أصلحت ظاهره
على العقول ولكن قلَّما لبثا كم زُخرف القول ذو زورٍ ولُبْسُهُ

قوله «يضع مني» أي يحط من منزلتي. الوضع: الكتاب. يندد: يشهر العيب، ندّد به، إذا أسمعته المكروه، نقد الأشياء: فُتِّشَ وبحث عليها. المعقول: العقل. أنعم: بالغ. وأصل النظم جعل حَبَات الجواهر في خيطها وضمها فيه لغيرها ثم سُمِّيَ بيت الشعر نظماً، لأن الكلام فيه ملتصق ببعضه ببعض كحبّ الجواهر، والبيت يضمه كالخيط، والسلك: خيط الجواهر. والإفادات: الفوائد. سلّك: قصد. الموضوعات: الكتب المؤلفة، أي أدخلها مدخل هذه الكتب. العجماوات: البهائم، وسمّيت واحدها عجماء لأن صوتها لا يفهم منه معنى. والجمادات: ما عدا الحيوان، وأراد ما أُلِّفَ من الكتب مما لا حقيقة له في الظاهر، وقد ضُمِّنَ الحكم الشافية في الباطن، مثل كتاب كليله ودمنة وغيره مما أُلِّفَ على السنة ما لا عقل له ولا روح. وكذلك المقامات، وإن كان ظاهرها كذباً فالقصد بها تمرين الطالب وتهذيبه وتذكية عقله، وأن يكتسب تجارب الدنيا من حكايات السُّروجي، فيكون متنبهاً لما يطرأ عليه من التَّوازل، فتؤمن على عقله الغفلة والخديعة، إلى ما ينضاف إليه من تعليم صناعة الكتابة والشعر، فإنها أعون شيء عليها.

[حكم بلسان البهائم]

ومما يحكى على ألسنة البهائم ما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: بينا راع في غنم إذ عدا عليها الذئب، فأخذ شاة منها، فطلبه الراعي منه حتى استنقذه، فالتفتت إليه الذئب وقال: من لها يوم السَّبُع، يوم ليس لها راع غيري! ^(١).

بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها، فالتفتت إليه البقرة فكلمته فقالت: أنا لم أخلق لهذا، وإنما خلقت للحرث، فقال الناس: سبحان الله! تعجباً وفزعاً؛ أبقرة تتكلم! فقال رسول الله ﷺ: «فإني مؤمن بذلك وأنا وأبو بكر وعمر» ^(٢).

السَّبُع، بسكون الباء: أرض المحشر والسبع: الفزع.

وقال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود وحتى يختبئ اليهودي

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٥٤، وفضائل أصحاب النبي باب ٥، ٦، ١٣، والحرث باب ٤، ومسلم في الفضائل حديث ١٨٥٧، والترمذي في المناقب باب ٧.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء باب ٥٤، ومسلم في الفضائل حديث ١٨٥٨.

وراء الحجر فيقول الحجر: يا عبد الله، يا مسلم هذا يهوديٌّ ورائي فاقتله^(١).
قالوا خرج أسد وذئب وثعلب يتصيدون، فاصطادوا حمار وحش وغزالاً وأرنباً فقال الأسد للذئب: اقسم بيننا هذا، فقال: الحمار للملك، والغزال لي، والأرنب للثعلب؛ فرفع الأسد يده فضربه ضربة، فإذا هو مجدل بين يديه. ثم قال: للثعلب: اقسمها، فقال: الحمار يتغذى به الملك، والغزال يتعشى به، والأرنب بين ذلك، فقال الأسد: ويحك ما أقضاك! مَنْ علّمك هذا القضاء؟ قال: رأس هذا الذئب. وحدث الشعبي، قال: صاد رجل قبرة، فقالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذهبك وأكلك. فقالت: والله ما أشبع من جوع وخير لك من أكلي أن أعلمك ثلاث خصال: واحدة وأنا في يدك، والثانية وأنا على الشجرة، والثالثة وأنا على الجبل؛ قال: هاتي: قالت: لا تلهفنّ على ما فات، فخلي سبيلها، فلما صارت على الشجرة قالت: لا تصدقن بما لا يكون أنه سيكون، فلما صارت على الجبل قالت له: يا شقيّ لو ذبحتني أخرجت من حوصلتي درتين، كل واحدة عشرون مثقالاً، قال: فعض الرجل على شفته تلهفاً، ثم قال: هاتي الثالثة، فقالت: أنت قد نسيت ثنتين فكيف أخبرك بالثالثة! ألم أقل لك: لا تلهفنّ على ما فات، ولا تصدقن بما لا يكون أنه سيكون! أنا ولحمي ودمي وريشي لا يكون فيّ عشرون مثقالاً، فكيف يكون في حوصلتي درتان كلّ واحدة عشرون مثقالاً! ثم طارت وذهبت. وأمثال هذه الملح أكثر من أن تحصى.

* * *

وَلَمْ يُسْمَعْ بِمَنْ نَبَأَ سَمْعُهُ عَنْ تِلْكَ الْحِكَايَاتِ، أَوْ أَثَمَ رُؤَاتِهَا فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ.

ثُمَّ إِذَا كَانَتْ الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَبِهَا انْعِقَادُ الْعُقُودِ الدِّينِيَّاتِ، فَأَيُّ حَرْجٍ عَلَى مَنْ أَنْشَأَ مُلْحاً لِلتَّنْبِيهِ، لَا لِلتَّمْوِيهِ، وَنَحَا بِهَا مَنْحَى التَّهْذِيبِ، لَا الْأَكَاذِيبِ! وَهَلْ هُوَ فِي ذَلِكَ إِلَّا بِمَنْزِلَةِ مَنْ انْتَدَبَ لِتَعْلِيمٍ، أَوْ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ! [الطويل]

عَلَى أَنَّنِي رَاضٍ بِأَنْ أُحْمِلَ الْهَوَى وَأَخْلَصَ مِنْهُ، لَا عَلَيَّ وَلَا لِيَا

قوله: «نبا سمعه» أي ارتفع، وأصله في السيف إذا ارتفع فلم يعض في الضربة. أثم: جعلهم أصحاب إثم، انعقاد العقود، أي ارتباط العقائد. حرج: إثم، وأصل التحريج التضيق، للتنبيه، أي لينبه به الغافل الذهن فيجعله حاضر الخاطر، نحا منحى: قصد مقصد. التهذيب: التلخيص، وهذبت الطالب: أخرجته وخلّصته، ورجل مهذب:

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٩٤، ومسلم في الفتن حديث ٢٢٣٩، وأحمد في المسند ٤١٧/٢، ٥٣٠.

مخلص من العيوب. ويروى: ندب وانتدب، فندب دعا، وانتدب أجاب. وهدي: أرشد. صراط مستقيم: طريق معتدل، ومن فعل ما ذكر مأجور غير آثم، لكنه مع هذا رضي أن يخلص ممن يتكلم في كتابه بتعيب، وأن يخرج من هذا الكتاب كفافاً لا أجر ولا وزر؛ بل نرجو له الأجر على ثبة الإفادة والتعليم، إن شاء الله تعالى.

* * *

وَبِاللَّهِ اَعْتَصِدْ، فِيمَا اَعْتَمَدْ، وَاَعْتَصِمْ مِمَّا يَصِمُ وَاَسْتَرْشِدْ، إِلَى مَا يُرْشِدُ؛ فَمَا الْمَفْزَعُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا الاسْتِعَانَةَ إِلَّا بِهِ، وَلَا التَّوْفِيقَ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا الْمَوْتِلُ إِلَّا هُوَ؛ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ، وَبِهِ نَسْتَعِينُ، وَهُوَ نِعَمَ الْمُعِينِ!

اعتضد: استعين. اعتمد: اقتصد. اعتصم: امتنع يصم، يعيب. استرشد: استهدي. يرشد: يهدي ويدل على الخير. والمفزع: الملجأ، وكذلك الموتل. وتقول: فزعتُ إلى فلان، إذا لجأت إليه واستعنت به ليحميك ويمنعك، وفزعت منه: خفته، والمفزع الذي ذكره مصدر بمعنى الفزع. وتقول: وألت من ذلك، إذا نجوت منه، وأنت موئلي منه، أي الذي تنجيني منه. والمفزع: الموتل والحصن، تفزع إليه فينجيك من طالبك. أنيب: أرجع. والإنابة: الرجوع إلى الله تعالى والتوبة إليه.

المقامة الأولى

وهي الصنعانية

حَدَّثَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: لَمَّا اقْتَعَدْتُ غَارِبَ الْأَغْتِرَابِ، وَأَنَا تُتْنِي الْمَثَرَبَةَ عَنِ الْأَثَرَابِ، طَوَّحْتُ بِي طَوَائِحُ الزَّمَنِ، إِلَى صَنْعَاءِ الْيَمَنِ، فَدَخَلْتُهَا خَاوِي الْوَفَاضِ، بَادِي الْإِنْفَاضِ؛ لَا أُمْلِكُ بُلْغَةً وَلَا أَجِدُ فِي جِرَابِي مُضْغَةً.

إِنْ قِيلَ؛ لَأَيِّ مَعْنَى اخْتَارَ الْحَرِيرِيُّ حَارِثًا وَهَمَامًا وَأَبَا زَيْدٍ، دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَسْمَاءِ؟ فَالْجَوَابُ أَنَّهُ إِنَّمَا قَصَدَهُمْ لِأَنَّهُمْ أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ: «تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَحِبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدَقُهَا حَارِثُ وَهَمَامٌ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبُ وَمَرَّةٌ»^(١) وَصَدَقَهُمَا أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَحْرَثُ، أَيُّ يَحَاوِلُ الْكَسْبَ أَوْ يَهْتَمُّ بِحَاجَتِهِ.

وَأَمَّا أَبُو زَيْدٍ، فَإِنْ صَدَقَ أَنَّهُ إِنْسَانٌ بَعِينُهُ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الصَّدْرِ وَقَعَ الْأَكْتِفَاءُ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَصْدُقْ فَقَدْ حَكَى أَهْلَ اللُّغَةِ أَنَّهُ كُنْيَةُ الْكَبَرِ، وَأَنْشَدَ ابْنُ قَتِيْبَةَ: [الطويل]

أَعَارَ أَبُو زَيْدٍ يَمِينِي سِلَاحَهُ وَحَدُّ سِلَاحِ الدَّهْرِ لِلْمَرْءِ كَالْمِ
وَكُنْتُ إِذَا مَا الْكَلْبُ أَنْكَرَ أَهْلَهُ أَفْدَى، وَحِينَ الْكَلْبُ جَذْلَانُ نَائِمٌ

سِلَاحُهُ: الْعَصَا وَإِنْكَارُ الْكَلْبِ أَهْلَهُ، إِذَا لَبَسُوا السِّلَاحَ. وَجَذْلَانُ نَائِمٌ، فِي الْجَدْبِ إِذَا مَاتَ الْمَوَاشِي فَيَشْبَعُ مِنْ لَحُومِهَا وَيَنَامُ. وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: يُقَالُ لِلشَّيْخِ الْكَبِيرِ: أَبُو زَيْدٍ وَأَبُو سَعِيدٍ وَالسُّرُوجِيُّ فِي الْغَالِبِ إِنَّمَا يَصِفُهُ بِالْكَبَرِ وَالْهَرَمِ.

فَوَقَعَتِ التَّسْمِيَةُ لُغَوِيَّةً، وَإِنَّمَا عَنَى بِالْحَارِثِ بْنِ هَمَامٍ نَفْسَهُ لِأَنَّهُ يَصِفُهُ بِأَشْيَاءٍ لَا تَلِيقُ إِلَّا بِالْدَّهْرِ، مِثْلُ قَوْلِهِ: [الرجز]

وَكُلُّ سِرْجٍ فِيهِ ذَنْبِي عَائِثٌ حَتَّى كَأَنِّي لِلْأَنْثَامِ وَارِثٌ
* سَامُهُمْ وَحَامُهُمْ وَيَافِثٌ *

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي الْأَدَبِ بَابَ ٦١، وَأَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ ٣٤٥/٤، وَالتَّبْرَانِيُّ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ ٢٢٤/١.

ومثل قوله: [مجزوء الكامل]

وَوَثَّرْتُ أَرْبَابَ الْأَرَاثِكِ وَالذَّرَائِكِ وَالسَّجُوفِ

وهي كثيرة، وفي الخمسين له كلام لا يليق إلا بالدهر، فجعل أخذ الحارث من أبي زيد، كناية عن علم الحريري بما جرب من صروف الدهر.

قوله: «اقتعدت» أي ركبت، وأصله اتخذت قعدة أو قعوداً، وهما اسمان للبعير يقعد عليه راكبه. والغارب: مقدم سنام البعير. والأغتراب والغربة: التحول في البلدان والبعد عن الأوطان، وسيأتي ما أصلهما، وأراد: لما اتخذت ظهر الغربة قعوداً. أنا أنتي: أبعدتني. المتربة: الفقر. الأتراب: الأصحاب على سنن واحد. طوحت: رمت.

وطوايح: نوايب؛ تقول: طوحت بالرجل، إذا رميت به إلى الهلاك، وقياس الطوايح المطاوح لأنك تقول: طوحت فهي مطوحة والجمع مطوحات ومطاوح. قال أبو عبيد: جاءت الطوايح على حذف الزيادة، ورد الفعل إلى أصله، فإنه من طاحت فهي طائحة، والجمع طوايح، قال أبو عمرو الشيباني: جاءت على النسب، مثل لابن وتامر، أي ذو لبن وذو تمر وذات تطويح، قال الشاعر: [الطويل]

لِيُبْنِكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لَخْصُومَةٍ وَمَخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَايحُ^(١)

ومثله «وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ» [الحجر: ١٥]: تقديره ملاقح، لأنك تقول: ألقت الريح السحاب إذا جمعت وألقت، وضارع مرتفع بمضمر تقديره: يبكيه ضارع، وهو الدليل.

[صنعاء]

صنعاء، بلد باليمن، وأضافها إلى اليمن، لأن ثم صنعاء أخرى، وهي قرية بدمشق. وكان اسم صنعاء في القديم «أزال»، قال ابن الكلبي والشرقي^(٢): ولما وافتها الحبشة قالوا: نعم، فسمي جبلها نعم أي انظر، فلما نظروا إلى مدينتها ورأوها حصينة مبنية بالحجارة قالوا: هذه صنعاء، وتفسيرها هنية، فسميت صنعاء.

وحكى الهمداني قال: وأهل صنعاء يقولون في الإسلام: إنها القرية المحفوظة، وأنهم

(١) البيت للحارث بن نهيك في خزانة الأدب ٣٠٣/١، والكتاب ٢٨٨/١، وللبيد بن ربيعة في ملحق ديوانه ص ٣٦٢، ولنهشل بن حري في خزانة الأدب ٣٠٣/١، ولضرار بن نهشل في الدرر ٢/٢٨٦، وللحارث بن ضرار في شرح أبيات سيبويه ١١٠/١، ولنهشل، أو للحارث، أو لضرار، أو لمزرد بن ضرار، أو للمهلhel في المقاصد النحوية ٤٥٤/٢، والبيت بلا نسبة في الخصائص ٣٥٣/٢، ٤٢٤، ولسان العرب (طوح).

(٢) هو الشرقي بن قطامي، واسمه الوليد والشرقي لقبه.

سمعوا هاتفاً يقول في بعض أيام من حاربهم : كلُّ عليك يا أزال، وأنا أتحنن عليك !

وأقدم قصور اليمن وأنبهها ذكراً، وأبعدها صيتاً غُمدان وقصر أزال، وهي صنعاء .

والذي أسس غُمدان وابتدأ بنيانه واحتفر بثره الذي هو اليوم سقاية لمسجد جامع صنعاء، سام بن نوح عليه السلام، على ما يذكره علماء صنعاء واليمن، وذلك أنه لما مات نوح اجتوى بعده السكنى في الأرض الشمالية، فأقبل طالعاً في الجنوب يطلب أطيب البلاد، حتى صار إلى الإقليم الأول، فوجد اليمن أطيبه مسكناً، وصنعاء أطيب اليمن، فوضع مقراته - وهي الخيط الذي يقدر به البناء ويبنى على حده - فوضع الأساس في ناحية فجَّ غُمدان في غربيّ الجبل، وهو اليوم معروف بصنعاء، فلما ارتفع بعث الله طائراً، فاخطف المقرة فطار بها، وتبعه سام، لينظر أين يقع؛ فأَمَّ بها جنوب النعم من سفح نعم، فوقع بها، فلما اتبعه طار بها، وطرحها على حرة غُمدان، فلما قرَّت، علم سام أنه قد أمر بالبناء هنالك؛ فأسس غُمدان. واحتفر بيده بثره المسمى كرامة. ويُسقى منها إلى اليوم لكنها أجاج.

خاوي الوفاض : فارغ المزاد، ويقال : خوى الرّجل، إذا سجد فترك بين جسده وبين الأرض خواء، وخوى البعير : برك على هذه الحال. والوافاض : جمع وفضة وهي شبه الجراب، وهي أيضاً كنانة السهام إذا كانت من جلد لا من خشب، فإن كانت من خشب مجلد أو غير مجلد فهي كنانة أو جُعبة.

ابن سيده في المحكم : الوفضة خريطة يحمل فيها الراعي أدواته وزاده. والوفضة : جُعبة السهام. قال أبو منصور الأزهري معنى قول النبي ﷺ «أنه أمر بصدقة [أن] توضع في الأوافاض»^(١) : إنهم أخلاط الناس. قال الفراء : هم أهل الصُّفَّة. أبو عبيد : هذا كله عندنا واحد؛ لأن أهل الصُّفَّة أخلاط من قبائل شتى، ويمكن أن يكون مع كل واحد منهم وفضة، فعلى هذا من قصر الوفضة على الجُعبة، وخطأ الحريري بأن الزاد لا يكون في الجعبة، فهو المخطي والجاهل باتساع اللغة. بادي الأنفاض : ظاهر الفقر، وقد أنفض، إذا فنى زاده. وأنفض الجراب إذا انتفض وسقط ما من فيه من بقية الزاد، ومنه قولهم : الثِّفاض يُقَطَّر الجلب، أي فناء زادهم يجعل إيلهم قطاراً، أي مربوطة بعضها خلف بعض، تساق إلى السوق فتباع، فيأكلون ثمنها، قال الهذلي : [المتقارب]

لَهُ ظَبِيَّةٌ وَلَهُ عُكَّةٌ إِذَا انْفَضَّ الْقَوْمُ لَمْ يَنْفَضْ^(٢)

ظبية : جريب صغير من جلد ظبي. بُلغة : زاد للمسافر يبلغ به من يومه إلى

(١) أخرجه بنحوه أحمد في المستد ٦/٣٩٠، ٣٩١.

(٢) البيت لأبي المثلّم الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص ٣٠٥، ولسان العرب (نفض)، (أبل)، وجمهرة اللغة ص ٣٦٣، وتاج العروس (نفض)، (عكك)، وبلا نسبة في أساس البلاغة (ظبي).

غده، الجراب: وعاء من جلد يصنع للزاد - مُضَغَّة: لقمة.

فَطَفِيفْتُ أَجُوبَ طُرُقَاتِهَا مِثْلَ الْهَائِمِ، وَأَجُولُ فِي حَوَامِئِهَا جَوْلَانِ الْحَائِمِ،
وَأُرُودُ فِي مَسَارِحِ لَمَحَاتِي، وَمَسَايِحِ غَدَوَاتِي وَرَوَحَاتِي، كَرِيماً أُخْلِقُ لَهُ دِينَايَ،
وَأُبُوحُ إِلَيْهِ بِحَاجَتِي، أَوْ أَدِيباً تُفْرَحُ رُؤْيَتُهُ غُمَّتِي، وَتُرْوِي رَوَايَتَهُ غُلَّتِي؛ حَتَّى أَذْنِي
خَاتِمَةَ الْمَطَافِ وَهَدَنِي فَاتِحَةَ الْإِلَافِ إِلَى نَادِرِ رَجِيبٍ، مُحْتَوٍ عَلَى زَحَامٍ وَنَجِيبٍ،
فَوَلَجْتُ غَابَةَ الْجَمْعِ، لِأَسْبِرُ مَجْلِبَةَ الدَّمْعِ، فَرَأَيْتُ فِي بُهْرَةِ الْحَلَقَةِ، شَخْصاً شَخَتْ
الْخَلَقَةِ. عَلَيْهِ أَهْبَةُ السِّيَاحَةِ، وَلَهُ رَنَّةُ النِّيَاحَةِ، وَهُوَ يَطْبُعُ الْأَسْجَاعَ بِجَوَاهِرِ لَفْظِهِ
وَيُقْرِئُ الْأَسْمَاعَ بِزَوَاجِرِ وَعِظِهِ، أَحَاطَتْ بِهِ أَخْلَاطُ الزَّمَرِ إِحَاطَةَ الْهَالَةِ بِالْقَمَرِ،
وَالْأَكْمَامِ بِالشَّمَرِ، فَذَلَفْتُ إِلَيْهِ لِأَقْتَبِسَ مِنْ فَوَائِدِهِ، وَالتَّقَطُّ بَعْضَ فَرَائِدِهِ، فَسَمِعْتُهُ
يَقُولُ حِينَ خَبَّ فِي مَجَالِهِ وَهَدَرَتْ شَقَاشِقُ ارْتَجَالِهِ:

طفقت: أخذت وجعلت، ومعناها ابتداء الفعل والدخول فيه. أجوب: أقطع
وأخرق، وجوب الأرض: قطعها بالمشي، الهائم: الحيران. أجول: أتصرف. حوماتها:
جهااتها، الحائم: الطائر العاطش يحوم حول الماء، أي يدور به، أراد: ألتمس المسارح:
مراعي البهائم. لمحاتي: نظراتي، يريد المواضع التي يسرح عينيه فيها بالنظر، مسايح:
مسالك، أراد طُرُقَهُ التي يسير فيها بالمشي بالغدو والعشي، والسيح: الماء الجاري على
وجه الأرض، وتكون المسايح أيضاً جمع مسيحة أو مسحة، وهي الطوافة، من قولك:
مسحت البيت، أي طفت به، فيكون على هذا «فعائل» ميمها أصيلة، وعلى الأول
«مفاعل». أخلق: أهين، ديباجتي: جلدة وجهي، يريد أنه يخلق وجهه بالمسألة كما
يخلق الثوب، وهذا من قول النبي ﷺ: «المسألة كدوح وخدوش في وجه صاحبها»^(١)
وقوله ﷺ: «لا تزال المسألة بالرجل حتى يلقي الله عز وجل، وما على وجهه مزعة
لحم»^(٢)، أي قطعة. أبوح: أذكر، حاجتي: فقري. تفرج: تزيل. غمّتي: غمي وما يضيق
نفسي. غلّتي: عطشي. أذنتي: أوصلتني. خاتمة المطاف: آخر المشي هدنتي: دلّنتي.
والإلطف: حسن السؤال وفاتحته، أراد به سؤالك من تلقى في الطريق إذا دخلت بلداً
غريباً، فإذا سألت بتلطف أرشدت بسرعة، فسؤالك هو الذي فتح لك الطريق. ويقال:
لطف سؤال الرجل، إذا رقّ لفظه ولم يكن فيه جفاء، فتقبله القلوب، وألطف الرجل

(١) أخرجه بنحوه أبو داود في الزكاة باب ٢٦، والنسائي في الزكاة باب ٩٢، وأحمد في المسند ٩٤/٢.

٢٢، ١٩/٥.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة باب ٥٢، والنسائي في الزكاة باب ٨٣، وأحمد في المسند ١٥/٢، ٨٨.

سؤاله، إذا سألك بحنان وتلطف، واللفظ الرفق، وألطفك أيضاً: بَرَزْتَكَ وأكرمْتَكَ. ، فالإلطف مصدر ألطف، ويروي: «الألطف» جمع لُطف وهو الرَفَق، يقال: لطف الله بالعباد لُطفاً رَفَقَ بهم رفقاً، وهو راجع إلى الأول. ناد مجلس. رحيب: واسع محتو: مشتمل، نحيب: بكاء. ولجت: دخلت، غاية الجمع: وسط الناس، وأصل الغابة الشجر الملتف يغيب فيه من يدخله، لأسبرُ: لأفتش، وأراد دخلت بين الناس لأجرب وأعرف ما الذي أبكاهم وجلب دموعهم. ويروي «محلبة» بالحاء، وهي من الحلب، يقال: انحلبت عينه، إذا سالت بالدمع. بُهرة: وسط. شخت: دقيق ورقيق، والشَّخْتُ: الحطب الرقيق. أهُبَةُ السباحة: آلة العبادة وهي مثل العصا وركوة الماء وثياب الصوف وغير ذلك. يطبع الأسجاع، أي يرتبها ويصنعها، تقول: طبعت الدرهم والسيوف إذا صنعتها، وطبعت الكتاب إذا ختمته، وكانت الملوك تكتب في فصوص خواتمها «لا إله إلا الله» و «الملك لله» وتطبع بذلك كتبها هذا المعني أليق بطبع الأسجاع، أي يزينها ويختمها بجواهر كلامه، ومن روى «الجواهر» باللام فعلى «يصنعها» لا غير، والتفسير على الروایتين أخذته عن أبي ذر. والأسجاع الكلام المفقّر، له قافية. كفاية الشعر، وكان من كلام الكهان، وهذه الموعظة التي في المقامة من الأسجاعه، وسجعت الحمامة، إذا غتت على طريقة واحدة، يقرع: يضرب. الأسماع: الآذان. زواجر: نواه، وزجره: نهاه وانتهره. أحاطت؛ حلقت: أخلاط: أصناف. مختلطون. الزُمَر: الجماعات. الهالة: الدارة حول القمر من نوره، والطفَاوة: الدارة حول الشمس. والساهور: هو غلاف القمر الذي يستتر فيه ما نقص منه. الأكمام: جمع كِم، وهو الغلاف الذي ينشق عن الثمر ويحيط به وسَميَ كما لأنه يستر ما تحته، والأكمام: جمع قليل، والكثير كمام، والثمر حمل الأشجار، دلفت: قربت. ودلف الشيخ في مشيته إذا أسرع من ضعف فقارب خطوه، اقتبس من فوائده: الشمس وطلب أخذها واكتسابها، والفرائد: شذور الذهب تفصيل ما بين الجواهر. خَبَ في مجاله: أخذ في كلامه، والخَبَ عدو سهل وهو الذي تسميه العامة السير، وفرس مسيار والمجال للخيل: موضع تصرفها وجريها، هدرت: صوتت. شقاشق: جمع شقشقة، وهي التفاحة يخرجها فحل الإبل من حلقه عند هياجه ورغائه، ويرجع فيها هديره؛ شبه صوت الواعظ حين يرفعه ويزجر به الناس بصوت البعير يهيج ويتابع الهدير، قال الأخطل: [الوافر]

إِذَا هَدَرْتُ شَقَاشِقَهُ وَنَشَبْتُ لَهُ الْأُظْفَارُ تُرِكَ لَهُ الْهُدَارُ^(١)

أراد: نَشَبْتُ وَتَرَكْتُ، فخفف.

(١) البيت بلا نسبة في الإنصاف ١/ ١٢٤، وفيه «المُدَارُ» بدل «الهُدَارُ». ولم أجد البيت في ديوان الأخطل.

أيُّهَا السَّادِرُ فِي غُلُوءَيْهِ، السَّادِلُ ثَوْبَ خِيَلَاتِهِ، الْجَامِحُ فِي جَهَالَاتِهِ، الْجَانِحُ إِلَى خُزْغَبَلَاتِهِ... إلامَ تَسْتَمِرُّ عَلَى غَيْكِ، وَتَسْتَمِرِّي مَرْعَى بَغِيكِ! وَحَتَامَ تَنْتَاهِي فِي زُهُوكِ، وَلَا تَنْتَهِي عَنْ لَهُوكِ!

السَّادِر: الراكب هواه، لا يردّه شيء استطالة وبغياً، ويقال للذي يطيل الجلوس في الشمس حتى يتحير بصره: قد سدر فهو سادر. في غلوائه: في ارتفاعه للشرّ ولجاجة فيه، وهو من غلا يغلو في الأمر، إذا جاز الحدّ؛ فيقول: يا أيُّهَا الأعمى الكثير اللجاج في ركوب المعاصي؛ هلاًّ نظرتُ بعين البصيرة، ورجعت عمّا أنت عليه من الضلال! السَّادِل: المرخي، خِيَلَاتِهِ: كبره. الجامح: الجاري إلى غير غاية، وقد جمع الفرس إذا أكبّ رأسه، وجرى في غير قصد، فيريد أنه أكثر الفساد حتى جرى منه في غير طريق الجانح: المائل. الخزعبلات: الأباطيل، وهو ما يترأى للإنسان في نومه من الخيال. تستمرّ: تدوم في زورك. غيك: ضلالك. تستمرى: تستطيب من المرى، وهو ما يلتذ به من الطعام. بغيك: ظلمك. تنتاهى: تبلغ النهاية، ونهاية الشيء، آخره، زهوك: كبرك وعجبك. اللهو: ما يشغل عن الخير من أنواع الطرب.

[ما قيل شعراً في ذم الكبر]

وقال القاضي أبو جعفر بن عمر في ذمّ الكبر وما يتعلق به: [الوافر]

وَلَا تُنْسَبْ إِلَى كِبَرٍ فَهَذَا
وَلَا تَصْحَبْ أَخَا كِبَرٍ وَقَدِّمْ
وَلَا تَحِبِّبْ مُحَابَاةً بِمَدْحٍ
وَحَاذِرْ أَنْ تُرَى فِي الْقَوْمِ رَأْساً
تَرَاباً كَنْ هَذَا فَعَسَاكَ أَلأ
أَبُوكَ الثَّرْبُ يَخْفِضُكَ انْتِسَاباً
عَلَى النَّفْسِ الْأَعَادِي وَالصُّحَابَا
كَفَى بِالْمَرْءِ حُوباً أَنْ يُحَابَى
وَلَا تَنْسِ الدُّنُوبَ وَكُنْ دُنَابَى
تَمَنَّى أَنْ تَكُونَ غَداً تُرَابَا

وقال أبو نواس: [البسيط]

حَذَرْتُكَ الْكِبَرَ لَا يَغْشَاكَ مِيسْمُهُ
يَا بؤْسَ جِلْدٍ عَلَى جَوْفٍ مُجَوَّفُهُ
يَرَى عَلَيْكَ لَهُ فَضلاً يَبِينُ بِهِ
إِنِّي لَأَمَقْتُ نَفْسِي عِنْدَ نَخْوَتِهَا
فَإِنَّهُ مَلْبَسٌ نَازَعْتَهُ اللَّهُ^(١)
يَحْوِي مَقَادِيرَ إِنْ كَلِمَتُهُ تَاهَا
إِنْ نَالَ فِي الْعَاجِلِ السُّلْطَانَ وَالْجَاهَا
فَكَيْفَ آمَنُ مَقْتَ اللَّهِ إِذَاهَا

وقال أبو العتاهية: [السريع]

(١) الأبيات في ديوان أبي نواس ص ١٩٧.

عجبتُ للإنسان في فخره وهو غداً في قبره يُقبر^(١)
 ما بال من أوله نطفة وجيفةً آخره يفخر!
 أصبح لا يملك تقديم ما يرجو ولا تأخير ما يحذر

تبارز بِمَعْصِيَتِكَ، مالك ناصيتك، وتجترى بِقُبْحِ سِيرَتِكَ على عالم
 سَرِيرَتِكَ، وتتوارى عَن قَرِينِكَ، وأنت بِمَرَأَى رَقِيبِكَ، وتَسْتَخْفِي من مَمْلُوكِكَ، وما
 تَخْفَى خَافِيَةً على مَلِيكَكَ أَتَظُنُّ أَنَّ سَتَنفَعُكَ حَالُكَ إذا آذَنَ ارْتِحَالُكَ! أَوْ يُنْقَذُكَ
 مَالُكَ، حِينَ تَوْبُقُكَ أَعْمَالُكَ! أَوْ يُغْنِي عَنْكَ نَدَمُكَ، إذا زَلَّتْ قَدَمُكَ! أَوْ يَعْطِفُ
 عَلَيْكَ مَعْشَرُكَ، يَوْمَ يَضُمُّكَ مَحْشَرُكَ!

قوله: «تبارز» أي تكاشف وتقابل، والبارز: الظاهر المنكشف، والناصية: شعر
 مقدم الرأس. تجترى: تقدم وشجع. والجريء: الشجاع المقدم. سيرتك: عادتك،
 وجمعها سير وهي ما يعامل به الناس من خير أو شر، وتقول: سرت سيرة من خير أو
 شر، إذا أحدثتها فعمل بها الناس بعدك، فصارت عادة لهم ولذلك فسرنا السيرة بالعادة
 حيث وقعت، وأصل السيرة هيئة فعل السير، وذلك أنك تقول: جلس فلان جلسة
 بالفتح، وهي المرة الواحدة من جلوسه، فإذا كسرت الجيم فهي هيئة جلوسه، ومثله
 ركب ركبة والركبة هيئة ركوبه، وتقول: سار هذا الفعل سيرة، والسيرة بالكسر: هيئة
 سيره في الناس من حسن أو قبح أو صواب أو خطأ، وسيرة رسول الله ﷺ: هيئة أفعاله
 حيث كانت. تتوارى: تستتر بمراى من رقيبك، أي بمنظر ربك أو بحيث يراك، ورقيب
 الشيء: حافظه وحارسه. ومليكك: مالكك، وأراد أن الإنسان إذا خلا بريية، استتر بها
 عن أخيه وعبدته حياء منهما، ولا يستحي من ربّه الذي يطلع على معاصيه، ولا يخفى
 عليه خافية، وأشار إلى قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ
 مَعَهُمْ...﴾ [النساء: ١٠٨]، وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: [البسيط]

إن كنت تعلم أن الله يا عمرُ يرى ويسمع ما يأتي وما تذرُ
 وأنت في غفلةٍ من ذاك تركب ما نهاك عنه، فأين الخوف والحدرا
 تُجاهر الله إقداماً عليه، ومن حُثالة الناس تستخفي وتعتذرُ

وقال نابغة بني شيبان: [الخفيف]

إن من يركب الفواحش سراً حين يخلو بسرّه غير خال^(١)
كيف يخلو وعنده كاتباه شاهده ورثه ذو الجلال

وقال أبو نواس: [الطويل]

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت، ولكن قل عليّ رقيب^(٢)
ولا تحسبن الله يغفل ساعةً ولا أن ما يخفى عليه يغيب
لهونا لعمر الله حتى تراكمث ذنوب على آثارهن ذنوب

حالك: عزتك ومالك. آن: حان وقرب. ارتحالك: انتقالك، توبقك: تهلكك،
يقال: أوبقته الذنوب، أهلكته فوق، أي هلك ووبق أيضاً.

وقال أعشى همدان: [البسيط]

استغفر الله أعمالي التي سلفت من عثرة يعاقبني بها أبى
زلت: زلقت.. معشرك: قومك.. محشرك: موضعك الذي تحشر إليه.

هلاً انتهجت محجة اهتدائك، وعجلت معالجة دائك، وفللت شبة
اعتدائك، وقدعت نفسك فهي أكبر أعدائك!

أما الحمام ميعادك فما إعداك! وبالمشيب إنذارك، فما أعذارك، وفي اللحد
مقيلك، فما قيلك! وإلى الله مصيرك فمن بصيرك! طالما أيقظك الدهر فتناعست،
وجذبك الوغظ فتناعست، وتجلت لك العبر فتعاميت، وحصن حص الحق
فتماريت، وأذكرك الموت فتناسيت، وأمكنك أن تواسي فما آسيت.

انتهجت: ركب. والنهج المنهج والمنهاج: الطريق الواضح. محجة: طريق، من
حجة يحجّه، إذا قصده. اهتدائك: استقامتك. معالجة: مداواة. فللت كسرت. شبة: حد.
اعتدائك: جورك وظلمك. قدعت: كفت قال النبي ﷺ: «ليس عدوك الذي إن قتلته كان
لك نوراً، وإن قتلته دخلت الجنة، ولكن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك». قال
الأصمعي: كنا بطريق مكة في بعض المنازل، إذ وقفت علينا أعرابية فقالت: أطعمونا مما
أطعمكم الله، فناولها بعض القوم شيئاً فقالت له: كبت الله لك كل عدو لك إلا نفسك.

(١) الأبيات في ديوان النابغة ص ٦٤.

(٢) البيت في ديوان أبي نواس ص ٢٠١.

قوله: «أما»: حرف إخبار واستفتاح كالأ، الحمام: الموت، من حُم الأمر، قضي: الموعد. ما إعدادك: ما استعددت له، والاعداد مصدر أعدّ للأمر إذا هيا له ما يحتاج إليه من عُدّة، يقول: الموت: هو الذي وُعدت به أن يأتيك ولا بد، فاستعد له من أفعال البر.

وللفقيه الزاهد أبي عمران موسى بن عمران: [السريع]

يا صاح في الموت لنا حكمةً بالغةً لو أننا ننتفع
فاعملْ له قبل مفاجاته ويخصد الزارع ما قد زرغ
لا حيلة تُنجيك منه ولا ذو وزر عنه به يمتنع
كم أمم أفناهم قبلنا وشمل قوم شتته فانصدغ

ولحبيب: [الطويل]

فقد أيقنّت بالموت نفسي لأتني رأيت المنايا يختر من حياتي^(١)
فيا ليت أني بعد موتي ومبعثي أكون رفاتاً لا علي ولا ليا

المشيب: الشيب، يقال: شاب رأسه شيباً أو مشيباً. إنذارك: إعلامك، وأنذرك: أعلمك مما تحذر وخوفك منه، وأراد قوله تعالى: ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]، وانظر هذا المعنى في الحادية والأربعين مستوفي نظماً ونثراً.

أعذارك: جمع عذر، والإعذار بكسر الهمزة مصدر أعذر في طلب الحاجة إذا بالغ فيها قال: ابن السبتي وجئس قوافيه: [مخلع البسيط]

الشيبُ في مفرقيّ حلاً وعقد عهد الملاح حلاً
وكان كالآبنوس رأسي فاحتله عاجه فحلاً
وخرمت وصلي الغواني وقلن قتل العميد حلاً

اللحد: حفرة في جانب القبر، ولحد الميت وألحده: شق له في جانب القبر وأصل اللفظة الميل، ومقيلك: مقامك، وأصله النوم في القائلة، قيلك: حديثك المقول وحبجتك الواضحة، والقول مصدر كالطحن والذبح والقييل: اسم للمقول كالطحن بالكسر: اسم للدقيق المطحون، والذبح اسم للمذبح، يعقوب: القال والقييل اسمان لا مصدران. ابن سيده: القيل في الأصل مصدر، وحكى الفارسيّ قاله قولاً وقيلاً، مثل ذكره ذكراً، والقال يجوز أن يكون مصدرأ، فإن سيبويه حكى: ذامه ذاماً وعابه عاباً، إلا أنه لم ينص على القال، مصيرك: رجوعك نصير: معدول عن ناصر للمبالغة. تناعست،

(١) البيتان في ديوان أبي تمام الطائي ص ٤٨٤.

أي أظهرت أنك ناعس. جذبك: قالك بعنف، ويقال: جذب وجذب وهي أقل من الأولى، وصحفت العامة هذه الثانية وقالوا: «جبد» بدال غير منقوطة، تقاعست: تأخرت وتصعبت وتشبهت بالأقعس؛ وهو الذي دخل ظهره وخرج صدره، أي قالك الوعظ إلى الخير فلم تنقد له والعرب تقول: عزة قعساء كأنها تتقعس عن الذلة. تجلت: ظهرت والعبر: ما يتخوف ويتعظ به عند رؤيته حصحص: تبين، من الحصص وهو ذهاب الشعر فيتبين ما تحته، والحاء الثانية مبدلة من صاد ثالثة، وإذا اجتمع الأمثال في مثل هذا، أبدلت العرب من الحرف الأوسط حرفاً من جنس الحرف السابق، ومثله حثثت ورققت، أصلهما حثثت ورققت، هذا قول الكوفيين، وقال البصريون: هما لغتان تقاربتا، إذ لا يبدل الحرف إلا من مثله أو من مقاربه في المخرج، هذه الحروف متباعدة لا يصح إبدالها، ماريت: شككت: تواسي: تعطي.

* * *

تَوَثَّرُ فَلَسًا تَوْعِيهِ، عَلَى ذِكْرِ تَعِيهِ، وَتَخْتَارُ قَصْرًا تَعْلِيهِ عَلَى بَرِّ تُولِيهِ، وَتَرْغَبُ عَنْ هَادٍ تَسْتَهْدِيهِ، إِلَى زَادٍ تَسْتَهْدِيهِ، وَتُعْلَبُ حُبِّ ثَوْبٍ تَشْتَهِيهِ، عَلَى ثَوَابٍ تَشْتَرِيهِ. يَوَاقِيَتِ الصَّلَاتِ، أَعْلَقُ بِقَلْبِكَ مِنْ مَوَاقِيَتِ الصَّلَاةِ، وَمُعَالَاةِ الصَّدَقَاتِ، آثُرُ عِنْدَكَ مِنْ مُوَالَاةِ الصَّدَقَاتِ، وَصِحَافُ الْأَلْوَانِ، أَشْهَى إِلَيْكَ مِنْ صَحَائِفِ الْأَذْيَانِ. وَدُعَابَةُ الْأَقْرَانِ، آسُ لَكَ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ.

* * *

تؤثر: تفضل. توعيه: تجعله في وعاء. برّ إحسان. تُولِيهِ: تعطيه وتلصقه بمن تبرزه. هادٍ: مرشد لطريق الخير. ترغب عنه: أي تتركه. تستهديه، أي تسترشده وتسأله أن يهديك إلى الخير، وتستهديه الثانية: تطلب أن يهدي لك هدية. يقول: تترك مَنْ يهديك إلى طريق الخير، فلا تسأله الهداية، وتقصد أعراض الدنيا من الأطعمة وغيرها، وترغب أن تعطي منها هدية، قال الزاهد بن عمران: [الطويل]

تَوْقٌ وَحَاذِزٌ مِنْ قُبُولِ هَدِيَّةٍ	وَإِنْ جَاءَكَ فِيهَا الْحَدِيثُ الْمَرْغَبُ
فَقَدْ حَدَّثْتُ بَعْدَ الرَّسُولِ حَوَادِثُ	تَحَذَّرْنَا مِنْهَا، وَعَنْهَا تَرْغَبُ
وَكَانَتْ هَدِيَّاتُ الْأَوَائِلِ قَبْلُنَا	تَوَلَّفَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَتَحَبَّبُ
فَعَادَتْ بَلَايَا يُسْرَعُ الْمُنُّ نَحْوَهَا	تَفَرَّقَ فِيمَا بَيْنَنَا وَتَجَنَّبُ

وله في مثله: [السريع]

أَحْذَرُ هَدَايَا النَّاسِ تَأْمِنُ الْمُنَّ	هِيَ أَوْ قَوْلَ وَاشِ يَشِي
فَقَلَّ مَنْ يَهْدِيكَ إِلَّا أَمْرُؤُ	مَنْ رَغِبَةٍ أَوْ رَهْبَةٍ قَدْ حُشِي

التبس الأمر فلا تقدمن واخشَ مقام الله فيمن خشي
كانت هدايا ثم عادت رِشاً وفي الرُّشَا الهلك لمن يزتشي
حدّرتنا منها نبيّ الهدى إذ لَعَنَ الرَّاشِي والمُرْتَشِي

الثواب: المكافأة على الفعل، وأراد به ما يجازي الله به عباده على إحسانه من الأجر، وهو من تاب يثوب إذا رجع، وأثبت الرجل: أعطيته الثواب، وهو المكافأة على فعله، قوله «يواقيت»: أي جواهر. الصَّلَات: العطايا.

أعلق: ألصق. مواقيت: أوقات، وهي جمع ميقات.

[التجنيس]

ومما يستحسن من تجنيس الصَّلَات الصَّلَاة، حكاية أحمد بن المدبر - وكان إذا مدحه شاعر ولم يرض شعره، قال لغلّامه: امض به إلى المسجد فلا تفارقه حتى يصليّ مائة ركعة، ثم خلّه، فتحاماه الشعراء إلا الأفراد المجيدين - فجاء الحسين بن عبد الرحمن البصريّ المعروف بالجمل، فاستأذنه في النشيد، فقال: أعرفت الشرط؟ قال نعم: وأنشد: [الوافر]

أرذنا في أبي حسن مديحاً كما بالمدح تُنْتَجَعُ الوَلاة
فقلنا أكرم الثقلين طُراً وَمَنْ كَفَّاهِ دِجْلَةً وَالْفُرَاتُ
فقالوا يقبل المدحات لكن جَوَائِزُهُ عَلَى الْمَدْحِ الصَّلَاةُ
فقلت لهم: وما تغني صلاتي عَيَالِي، إِنَّمَا تُغْنِي الزَّكَاةُ!
فأما إذ أبى إلا صلاتي وعاقبني الهموم الشَّاعِلَاتُ
فيأمر لي بكسر الضاد منها لَعَلِّي أَنْ تَنْشِطَنِي الصَّلَاتُ
فيصلح لي على هذي حياتي ويصلح لي على هذي المماتُ

فضحك واستظرفه، وأمر له بمائة دينار، وقال: من أين أخذت هذا؟ قال: من قول

أبي تمام: [الكامل]

هَنَّ الْحَمَامُ فَإِنْ كَسَرَتْ عِيَاةً مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهِنَّ جِمَامٌ^(١)

قوله: «مغلاة الصدقات»، أي الزيادة في المهور، وغاليت: زدت في ثمن السلعة ورددتها غالية، والصدقات واحدها صدقة، قال النبي ﷺ: «من يُمن المرأة تيسير صداقها

(١) البيت في ديوان أبي تمام الطائي ص ٢٧٩.

وخطبتها»^(١)، قال عروة: وأنا أقول: من أول شؤمها أن يكثُر صداقها. أثر: أفضل وأكثر أثرة. موالاة: متابعة. صحائف: جمع صحيفة، وهي الورقة يكتب فيها من الرق والقرطاس، دُعابة: مزاج، وفي فلان دُعابة وتداعب الرّجلان: تمازحا، وفي الحديث: «كانت فيه ﷺ دُعابة»^(٢)، وفي حديث جابر رضي الله عنه: «هلاً بكراً تداعبها وتداعبك!»^(٣). الأقران: الأصحاب والأمثال. تلاوة: قراءة، وتلوته: قرأته، واختلفوا في اشتقاق القرآن، فقال أبو عبيدة: سُمي قرآناً لأنه يجمع السور ويضمها، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ٣]، أي إذا جمعنا لك شيئاً فضّمه واعمل به، وقال قطرب: سُمي قرآناً لأن القارئ يُظهره ويبينه ويلقيه من فيه، من قول العرب: ما قرأت الناقة سلاً قط، أي ما رمت به. قال النبي ﷺ: «إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد» قالوا: يا رسول الله. ما جلاؤها؟ قال: «قراءة القرآن»^(٤).

تَأْمُرُ بِالْعُرْفِ وَتَنْتَهِيكَ جِمَاهُ وَتَحْمِي عَنِ النُّكْرِ وَلَا تَتَحَامَاهُ، وَتُزْخِرُ عَنْ الظُّلْمِ ثُمَّ تَغْشَاهُ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ثُمَّ أَنْشَدَ: [المجتب]

تَبَالِطَالِبِ دُنْيَا	تَنَى إِلَيْهَا انْصِبَابَهُ
مَا يَسْتَفِيئُ غَرَاماً	بَهَا وَقَرِظَ صَبَابَهُ
وَلَوْ دَرَى لَكَفَاهُ	مِمَّا يَرُومُ صُبَابَهُ

العرف، أي المعروف، تنتهك: تبالغ في تناوله بما لا يجوز. حماء: ما حُمي منه ومنع، وأصل الحمى موضع العشب يحميه الرجل لإبله، وانتهاكه: استئصال عشبهِ بالرعي، ونهكت الجلد وانتهكته، إذا أخذته بشفرة حتى يرقّ ويضعف النكر: المنكر. تتحاماه: تتباعد عنه. تزخِر عن الظلم: تُنحي عنه غيرك وتزيله، وتغشاه: تأتيه وتباشره، تخشى: تخاف، وقال ذو الرّمة في هذا المعنى وهو أحسن شعرٍ قاله: [البسيط]

يا ربّ قد أَسْرَقْتُ نَفْسِي وَقَدْ عَلِمْتُ علماً يقيناً لقد أَحْصَيْتْ أَثَارِي

(١) أخرجه أحمد في المسند ٧٧/٦، بلفظ: «إن من يمن المرأة تيسير خطبتها».

(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ٨١، وابن ماجه في الجهاد باب ٤٠، وأحمد في المسند ٦٧/٣.

(٣) روي بطرق وأسانيد مختلفة، وفي كتب الصحاح برواية: «هلاً بكراً تلاعبها وتلاعبك». أخرجه البخاري في البيوع باب ٣٤، والوكالة باب ٨، والجهاد باب ١١٣، والمغازي باب ١٨، والنكاح باب ١٠، ١٢١، ١٢٢، والنفقات باب ١٢، والدعوات باب ٣٥، ومسلم في الرضاع حديث ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٨، وأبو داود في النكاح باب ١٠، وابن ماجه في النكاح باب ٧، والدارمي في النكاح باب ٣٢، وأحمد في المسند ٣/٢٩٤، ٣٠٢، ٣٠٨، ٣٠٤، ٣٦٢، ٣٦٩، ٣٧٤، ٣٧٦.

(٤) لم أجد الحديث بهذا اللفظ في كتب الصحاح.

يا مخرج الروح من نفسي إذا احتضرت وفارج الكرب زخزحني عن النار^(١)
دعا لنفسه أن يكون من الفائزين، لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُخْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

قوله «تَبَّأ»، أي خسراً وهلاكاً، وتَبَّت يده: خسرت قال تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١]، أي غير خسار وهلاك، قال الشاعر: [الوافر]

عَرَادَةُ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمٍ لَوْ طِ أَلَا تَبَّأَلْمَاعِمْلُوا تَبَّأَبَا^(٢)!

ثنى: عطف ورد: انصبابه: جريه، يستفيق: يستريح، وأفاق من المرض: استراح، غراماً: شدة حب لازم له غير مفارق، ومنه سُمِّي الغريم لملازمته التقاضي وإلحاحه فيه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَمًا﴾ [الفرقان: ٦٥] أي مُلْحَاً دائماً ومنه ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٦]، وفلان مغرم بالنساء: يحبهن ويلازمهن، وقال حاتم: [الطويل]

فَمَا أَكَلْتُ إِنْ نَلْتَهَا بَغْنِيمَةً وَلَا جُوعَةً إِنْ جَعْتَهَا بَغْرَامَ
أي بهلاك وملازمة.

فرط صباية: شدة شوق ومجازاة حد في ذلك. يروم: يطلب. صباية. بقية الماء.

[ما قيل شعراً في ذم الدنيا]

وهذا الشعر مستحسن القوافي، ومثله في ذلك قول الزاهد ابن عمران، وكثيراً ما كان يستمد في شعره من أدب المقامات: [الكامل]

تَبَّأ لَذي جَهِل دَعَا لِمَبْرَةٍ وَأَجْبُثْهُ بِرَأْبِهِ فَأَذَاعَهَا
مَنَا وَقَدْ كَافَأَتْهُ بِهَبَاتِهِ وَذَخَرْتُهَا عِنْدِي لَهُ، فَأَضَاعَهَا
فَأَقْلَ اللَّثَامَ مِنَ الرِّجَالِ وَلَا تَجِبْ مَهْمَا دَعَاكَ وَجُنُبْ أَوْضَاعَهَا
وقال آخر: [مجزوء الكامل]

يَا مَنْ يَضِيْعُ عُفْرَهُ مَتَمَادِيَا فِي اللُّهُوِ أَمْسِكَ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَا مَحَا لَةَ ذَاهِبٍ كَذَهَابِ أَمْسِكَ

(١) يروى البيت:

يا قابض الروح عن جسم عصى زمناً وغافر الذنب زحزحني عن النار
وهو في ملحق ديوان ذي الرمة ص ١٨٧٥، ولسان العرب (زحج)، وتاج العروس (زحج).

(٢) البيت لجريز في ديوانه ص ٨١٩، ولسان العرب (عرد)، وتاج العروس (عرد)، ويروى «صنعوا تباباً» بدل «عملوا تباباً».

ولمنصور الفقيه في الشعر المردف : [المقارب]

إذا كُنْتَ تَزَعَمُ أَنَّ الْفِرَاقَ فراقَ الحياةِ قريبُ قريبُ
وَأَنَّ الْمَقْدَمَ مَا لَا يَفُوتُ على ما يفوت مصيبُ مصيبُ
وَأَنْتَ عَلَى ذَاكَ لَا تَرَعَوِي فأمرُكَ عندي عجيبُ عجيبُ

وقال القاضي أبو حفص عمر في معنى شعر الحريري في ذم الدنيا : [مخلع البسيط]

يَا رَاكِضاً فِي طَلَابِ دُنْيَا ليس لمن تَضَرَّعُ انتعاشُ
لَمْ تُخَشِ نَارَ هَوَى لَطَافِهَا بمن له نحوها انحياشُ
أَعْذِرْ مِنْكَ الْفِرَاشَ حَالاً علمت ما يجهل الفراشُ
نَطْلِبُهَا لَا تَنَامُ عَيْنُ عنها ولا يستقرُّ جاشُ
مَنْ لَكَ بِالرِّيِّ مِنْ شَرَابِ يشتدُّ من شُرْبِهِ العطاشُ
دَعَهَا فَطَلَّابُهَا رِعَاغُ طاشت بألبابهم فطاشوا
لَمْ يَرُدُّوها فَهَمَّ رِوَاءُ وواردوها همُّ العطاشُ
فَاضْماً لِتَرْوَى، وَكُنْ كَقُورِ سُقُوا بها غَبَّةً فعاشوا
كَأَنَّ آمَالَنا ظَبَاءَ ونحن من حَيرةِ خِداشُ
إِنْ لَآمَالَنا انْبِساطاً به لأعمارنا انكماشُ
كَأَنَّ رِجَالَنا صَقُورُ ونحن من تحتها خَشاشُ

ولابن الرومي رحمه الله : [الطويل]

لَعَمْرِكَ مَا الدُّنْيَا بَدَارُ إِقَامَةٍ إذا زال عن عين اللبيب غطاؤها
فَكَيْفَ بَقَاءُ النَّاسِ فِيهَا وَإِنَّمَا يُنال بأسباب الفناء بقاؤها

وقال آخر : [الطويل]

وَمَنْ يَحْمَدُ الدُّنْيَا لِعَيْشِ يَسْرِهِ فسوف لَعَمْرِي عن قريب يلوؤها
إِذَا أَدْبَرَتْ كَانَتْ عَلَى الْمَرْءِ حَسْرَةً وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

ولابن سارة رحمه الله تعالى : [الوافر]

بُنُو الدُّنْيَا بِجَهْلٍ عَظُمُوهَا فجَلَّتْ عندهم وهي الحقيرة
يُهَارِشُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً عَلَيْهَا مهارشة الكلاب على العقيرة

ثُمَّ إِنَّهُ لَبَدَّ عَجَاجَتَهُ، وَغِيضَ مُجَاجَتَهُ، وَاعْتَصَدَ شَكْوَتَهُ. وَتَأَبَّطَ هَرَاوَتَهُ فَلَمَّا

رَنَتِ الْجَمَاعَةُ إِلَى تَحْفُزِهِ، وَرَأَتْ تَأَهُّبَهُ لِمُزَايِلَةِ مَرْكَزِهِ، أَدْخَلَ كُلُّ مِنْهُمْ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ، فَأَفْعَمَ لَهُ سَجَلًا مِنْ سَيْبِهِ، وَقَالَ: اضْرِفْ هَذَا فِي نَفْقَتِكَ، أَوْ تَفَرِّقْهُ عَلَى رُفْقَتِكَ، فَقَبِلَهُ مِنْهُمْ مُغْضِيًا، وَانْثَنَى عَنْهُمْ مُثْنِيًا، وَجَعَلَ يُودِّعُ مَنْ يُشِيعُهُ، لِيَخْفِيَ عَلَيْهِ مَهْيَعُهُ، وَيُسْرِبُ مَنْ يَتَّبَعُهُ، لِكِي يُجْهَلَ مَرْبِعُهُ.

قوله: «ثم إنه لبَد عجاجته»، أي سَكَنَ غِبرته المرتفعة حتى لصقت بالأرض غَيْضُ: جفف. الْمُجَاجَة: ما يُلْقَى مِنْ فِيهِ، «قد مَجَّ الرجل ريقه إذا سال من حمق أو كبر، وأراد بلبد عجاجته، قطع كلامه الذي كان قد استرسل، وأخذه من قول سليمان بن عبد الملك، وقد تكلَّم وفد بين يديه، فلم يصنعوا شيئاً وتكلم بعدهم رجل قبيح المنظر فأبلغ، فقال سليمان: كأن كلامه بعد كلامهم سحابة لبَدت عجاجاً.

وأراد بـ«غَيْض مُجاجته» ما كان يسيل من عينيه وأنفه عند البكاء. وَاغْتَضَدَهَا: جعلها تحت عَضْدِهِ. والشكوة: ركوة الماء تُضَنَعُ من جلد الثور أو الخروف، وتَأْبَطُهَا: جعلها تحت إبطه. هراوته: عصاه. رنت: نظرت. تحفزه: تهيوه وعجلته للانصراف، وتحفُزُ وانحفز، إذا كان جالساً على عقبه مهتئاً للقيام، تأهبه: استعداده، مزايله: مفارقه. مركزه: موضعه الذي قام به. أفعم ملاً، وفعمت الشيء فعماً: ملأته. سَجَلًا: دلوا. سيبه: عطاؤه، معناه وهب له نصيباً من عطائه. رفقتك: أصحابك. مغضياً: مستحياً، وأصل «أغضى» كف بصره وضم جفنيه،. انثنى: رجع وانعطف عن طريقه، مهْيَعُهُ: طريقه البين. يسرب: يفرق. فكأنه «تفعل» من السَّرب وهو الطريق، كأنه يردهم عن تشييعه في طريق مختلفة، أو يكون من لفظ السَّرب، وهو الجحر. فكأنه يغنيهم عنه حيث يقصد تعمية طريقه عليهم، أو يكون من لفظ السارب وهو الذاهب في الأرض، وقد سرب سروباً، فكأنه يذهبهم في كل ناحية ليجهل مكانه مربعه: منزله في الربيع خاصة. والمربع: المنزل في كل وقت؛ من ربت بالمكان، أقمت به.

قال الحارث بن هَمَام: فَاتَّبَعْتُهُ مَوَارِيًّا عَنْهُ عِيَانِي، وَقَفَوْتُ إِثْرَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يِرَانِي؛ حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَغَارَةٍ، فَانْسَابَ فِيهَا عَلَى غَرَارَةٍ، فَأَمْهَلْتُهُ رَيْثُمَا خَلَعَ نَعْلَيْهِ، وَغَسَلَ رِجْلَيْهِ، ثُمَّ هَجَمْتُ عَلَيْهِ، فَوَجَدْتُهُ مُحَاذِيًّا لِتِلْمِيذٍ، عَلَى خُبَرٍ سَمِيذٍ، وَجَدِي حَنِيزٍ، وَقَبَالَتَهُمَا خَابِيَةٌ نَبِيذٍ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا هَذَا، أَيْكُونُ ذَاكَ خَبَرَكَ وَهَذَا مَخْبَرَكَ!

موارياً: ساتراً. عياني: شخصي، أي تبعته مستخفياً بحيث لا يراني، قفوته: اتبعته من جهة قفاه، انساب: دخل، وأصل الأنسياب، جرى الحية على وجه الأرض، أو

جَرى الماء كذلك، ولا يكون الأنسياب إلا على وجه الأرض، لا يقال: انساب في الجحر؛ حدثني به بعض من لقيت من أصحابنا، وكان أضبط الناس للسان العرب، قال: وقول الحريري: «انساب فيها» وهم منه، ولو قال: «انشام فيها» لكان أمثل، يشبّهه بالسيف إذا وُضع في غمده. عَرارة: غفلة. رَيْث: قذر. هجمت عليه: دخلت عليه فجأة، ومنه هجم عليه الحرّ، وهجمتُ عينه: دخلت في رأسه. محاذياً: ملاصقاً أو جالساً بحذائه. تلميذ: متعلم الصنعة حَنِيذ: مشويّ، وحند اللحم حَنْذاً: شواه بحجارة محماة. نبّذ، أراد به خمرأ، خبرك، أراد به أمرك الذي أنت عليه، مخبرك، أي باطنك وما يختبر منك.

ومما ينتظم في هذا النمط حكاية أبي نواس حين رُئي في مجلس منصور بن عمار يبكي، فظن الناس أنه قد نسك، فجعلوا يهنتونه، ويقولون: نرجو لك من الله الخير، فقال: أنا أهون على الله من ذلك؛ وليس كما تظنون، ولكن أبكي لبكاء ذلك الغزال - وغلّام بالمجلس يبكي من وعظ منصور - ثم قال: [السريع]

لم أبكِ في مجلس منصورٍ	شوقاً إلى الجئنة والخورِ
لكن بكائي لبكا شادينِ	تقيّه نفسي كلّ محدورِ
تنتسب الألسن في وصفه	إلى مدى عجزٍ وتقصيرِ

وحضر أيضاً مجلس بعض القصاص، فقالوا له: لعلّ الله قد أقبل بك! فقال: إنما حضرت لأجل هذا الغزال، ثم قال: [مجزوء الرمل]

خَلْيَانِي وَالْمَعَاصِي	وَدَعَا ذِكْرَ الْقِصَاصِ
واسقياني الخمرَ صِرْفاً	في أباريق الرِّصَاصِ
وعلى وجهه غزالٍ	طائع ليس بمعاصي
بين فتیانٍ كرامٍ	قد تواصوا بالمعاصي
وعلى الله - وإن أف	رطت في الذنب - خلاصي

فزفر زفرة القَيْظِ، وكادَ يَتَمَيَّزُ مِنَ الْعَيْظِ؛ وَلَمْ يَزَلْ يُخْمَلِقُ إِلَيَّ، حَتَّى خِفْتُ أَنْ يَسْطُو عَلَيَّ، فَلَمَّا أَنْ خَبَتْ نَارُهُ، وَتَوَارَى أَوَارُهُ، أَنشَد: [المقارب]

لَبَسْتُ الْخَمِيصَةَ أَبْغِي الْخَبِيصَةَ	وَأَنْشَبْتُ شِصِّي فِي كُلِّ شَيْصَةِ
وَصَيَّرْتُ وَغْظِي أَخْبُولَةً	أُرِيغُ الْقَنْيِصَ بِهَا وَالْقَنْيِصَةَ
وَأَلْجَأَنِي الدَّهْرُ حَتَّى وَلَجَ	تُ بِلُطْفٍ احْتِيَالِي عَلَى اللَّيْثِ عَيْصَةِ
عَلَى أَتْنِي لَمْ أَهْبْ صَرْفَهُ	وَلَا نَبَضْتُ لِي مِنْهُ فَرِيصَهُ

ولا شرعْتَ بي على موردٍ يَدْنُسُ عِرْضِي نَفْسُ حَرِيصَةٍ
وَلَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ فِي حُكْمِهِ لَمَّا مَلَكَ الْحُكْمُ أَهْلَ النَّقِيصَةِ

قوله : «فزفر زفرة القيظ» الزفرة : تنفس المهموم أو المغتاض ، والقيظ : شدة الحر ، شبه ما أبداه من شدة الغيظ بوهج الحر . يتميز : يتقطع ويتفرق ، يحملق : يحد النظر ، والحملقة : نظر الغضبان ، والحملاق : باطن الجفن . يسطو : يصل ويتناولني بالمكرهه ، يقال : سطا عليه وبه ، يسطو سطواً وسطوة ، إذا قهره وأذله ، خبت ناره : سكنت حدة غيظه ، توارى : تغطى واستتر . أواره : لهبه ونار غيظه ، والأوار : وهج النار الخميصة : كساء فيه خطوط ، وقال يعقوب وأبو عبيد : الخميصة : كساء مربع أسود له علمان . الخبيصة : نوع من الحلواء ، وتسميه عامتنا الخبيز ، بالزاي ، وكنى به عن لذة العيش ، . الشَّصَّ : حديدة معوجة يصاد بها الحوت ، وتسمى الصنارة ، شيصة : ثمرة رديئة ؛ ومن مَلَح قصاص البلدان ، أن أبا عبد الله الخواص كان يقول في قصصه : إنما الناس مثل التمر ، فيهم الشيص والبرني ، يا رب اجعلنا بُرْنِيّاً ولا تجعلنا شيصاً ، وقال قاص آخر : إن في الجنة لحم جدي ولحم كل شيء بلا عظم مثل الشَّيْص في بلادنا بلا نوى ، يريد أنه لا يحتقر شيئاً ؛ فكل ما اتخذ له أخذه ، أحبولة : آلة يصاد بها ، أريغ : أطلب ما يصعب أخذه ، كأنه يروغ من كذا ، أي عدل عنه ورجع ، وهو يخفى رجوعه . قال القراء : يقال لا للذي يرجع : راغ يروغ ، إلا أن يكون مخيفاً لرجوعه ، قال الله تعالى : ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾ [الصفافات : ٩٣] ، أي رجع إليهم يضربهم مخيفاً لرجوعه ، ومعنى «باليمين» أي بيمينه الذي حلف في قوله تعالى : ﴿وَنَالِلِهِ لَا يُكِيدُنْ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء : ٥٧] ، أو يريد باليمين القوة ، وقال تعالى : ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ﴾ [الذاريات : ٢٦] ، أي رجع إليهم في إخفاء منه لرجوعه . القنيص والقنيصة : الذكر والأنثى مما يصاد من الوحش ، وهذا مثل ، وإنما أراد ما يأخذه من الناس بالحيل ، الجاني : أحوجني . ولجت : دخلت . لطف : رقة ، وتلطف ، عيصه : بيته ، وأصله الشجر الملتف . والليث : الأسد . أهب : أخف ، صرفة قلبه ، نبضت : تحركت . فريصة : بضعة في آخر الكتف تتحرك عند الفزع ، شرعت : دخلت ، وعلى : بمعنى «في» نحو قولك : كان ذلك على عهد فلان ، أي في عهده . مورد موضع الماء . يدنس : يوسخ ويعيب ، . عِرْضِي : ذكرى . نفس حريصة : كثيرة الرغبة والطمع ، النقيصة : الخصلة القبيحة يفعلها الرجل فينقص بها .

وقال بعضهم : [الكامل]

عُضِّي عيونك يا عيونُ التُّرْجِسِ منك استحيْتُ بِأَنْ أَقْبَلَ مُؤْنِسِي
نام الحبيبُ تَدْبَلْتُ أَجْفَاءَهُ وعيونكن شواخصُ لم تنعَسِ
فأجابني تفاح صفحة خده بفصاحة من السن لم تُخْرِسِ

قَبْلُ حَبِيبِكَ مَا اشْتَهَيْتَ فَإِنْ مِنْ
يَا رَبِّ إِنْ قَدْ ذَرْتَهُ لِمَقْبَلِ
وَلْتَنْ قَضَيْتَ لَنَا بِصَحْبَةِ ثَالِثِ
يَا رَبِّ فَلْتَكُ شَمْعَةً فِي الْمَجْلِسِ
عَادَاتِنَا كَتَمَانِ سِرِّ الْمَجْلِسِ
غَيْرِي فَلِلْمَشْوَكَ أَوْ لِلْأَكْوَاسِ

ومن أحسن ما قيل في الدهر، قول تميم بن المعز:

يَا دَهْرُ مَا أَقْسَاكَ مِنْ مَتَلُونِ
أَتُرُوحُ لِلنُّكْسِ الْجَهُولِ مَمْهَدًا
وَإِذَا صَفَوْتَ كَذَرْتَ شِيْمَةَ بَاخِلِ
لَا أَرْتَضِيكَ وَإِنْ كَرُمْتَ لِأَنْنِي
زَمَنْ إِذَا أَعْطَى اسْتَرَدَّ عَطَاءَهُ
مَا قَامَ خَيْرُكَ يَا زَمَانَ بِشَرِّهِ
أُولَى بِنَا مَا قَلَّ مِنْكَ وَمَا كَفَى
وَإِذَا اسْتَقَامَ بَدَا لَهُ فَتَحَرَّفَا
أُدْرِي بِأَتَاكَ لَا تَدُومُ عَلَى الصِّفَا
فِي حَالَتَيْكَ وَمَا أَقَلَّكَ مُنْصِيفَا
وَعَلَى اللَّبِيبِ الْحَرِّ سِيفًا مُزْهَفَا!

إدريس بن اليمان: [البسيط]

مَاذَا أَقُولُ لِدُنْيَا لَوْ ظَفَرْتُ بِهَا
شَجَاً مِنْ أَقْذِيَةِ الْأَيَّامِ بِرَحِّ بِي
أَدْبَتْهَا غَضَبًا لِلْعِلْمِ وَالْأَدَبِ
بَلْ بِالْعَوَالِي وَبِالْهَنْدِيَةِ الْقَضْبِ

ثُمَّ قَالَ لِي: اذْنُ فَكُلْ، وَإِنْ شِئْتَ فَقُمْ وَقُلْ. فَالْتَفَتُ إِلَى تَلْمِيذِهِ وَقُلْتُ:
عَزَمْتُ عَلَيْكَ، بَمَنْ تَسْتَدْفِعُ بِهِ الْأَذَى، لَتُخْبِرَنِي مَنْ ذَا؟ فَقَالَ: هَذَا أَبُو زَيْدِ
السُّرُوجِيِّ، سِرَاجُ الْغُرَبَاءِ، وَتَاجُ الْأَدْبَاءِ.

فَانصَرَفْتُ مِنْ حَيْثُ أَتَيْتُ، وَقَضَيْتُ الْعَجَبَ مِمَّا رَأَيْتُ!

قول: «أذن» أي أقرب. قل، أي قل ما شئت، التلميذ: الخادم، والجمع التلاميذ،
قال لبيد: [المنسرح]

* يجلو التلاميذ لؤلؤاً قشيباً^(١) *

أي يجلو التلاميذ لؤلؤاً جديداً، وطلبة العلم: تلاميذ شيخهم، الأذى: الضرر،

(١) صدره:

فالماء يجلو متونهن كما

والبيت في ديوان لبيد بن ربيعة ص ٣١، ولسان العرب (قشب)، وتهذيب اللغة ٨/ ٣٣٥، وتاج
العروس (قشب).

سراج: مصباح، يريد أنه للغرباء مصباح يفخرون به ويهتدون بحيلته، وللأدباء تاج يتزينون به ويضعونه فوق رؤوسهم. انصرفت: رجعت، قضيت العجب؛ أي أتممته، كأنه قال: قضيت حاجتي مما رأيت، ويقال: قضى بحبه من كذا، أي بلغ مراده، وقضى عليه القاضي، أي قطع عليه، والقاضي: القاطع للأمور المحكم لها. وقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، أي قطعهن وأحكم خلقهن، ويكون «قضى» بمعنى «عمل».

المقامة الثانية

وهي الحلوانية

حكى الحارث بن همام قال: كَلِفْتُ مُذْ مِيطْتُ عَنِّي التَّمَائِمُ، وَنِيطْتُ بِي الْعَمَائِمُ، بَأَنْ أَغْشَى مَعَانَ الْأَدَبِ، وَأَنْضِي إِلَيْهِ رِكَابَ الطَّلَبِ لِأَعْلَقَ مِنْهُ بِمَا يَكُونُ لِي زِينَةً بَيْنَ الْأَنَامِ، وَمُزْنَةً عِنْدَ الْأَوَامِ، وَكُنْتُ لَفَرْطِ اللَّهَجِ، بِاِقْتِبَاسِهِ، وَالطَّمَعِ فِي تَقْمُصِ لِبَاسِهِ، أَبَاحْتُ كُلَّ مَنْ جَلَّ وَقَلَّ، وَأَسْتَسْقِي الْوَبْلَ الطَّلَّ، وَأَتَعَلَّلُ بِعَسَى وَلَعَلَّ.

* * *

كَلِفْتُ، أَيِ اشْتَدَّ حَبِي، وَالكَلَفُ: شِدَّةُ الْحَبِّ وَالْمِبَالِغَةِ فِيهِ، فَلَانِ كَلِفْتُ بَفَلَانٍ، أَيِ مَبَالِغٍ فِي مَحَبَّتِهِ، وَمِيطْتُ وَأَمِيطْتُ: أَزِيلْتُ. التَّمَائِمُ: الْأَحْرَازُ نِيطْتُ: عَلَّقْتُ، وَإِذَا بَلَغَ الصَّبِيُّ الْحِلْمَ عِنْدَ الْعَرَبِ أَزَلُّوا الْأَحْرَازَ عَنْ عُنُقِهِ، وَأَلْبَسَ الْعِمَامَةَ وَالْإِزَارَ، وَقُلَّدَ السِّيفَ، فَأَرَادَ: أَحْبَبْتُ مَذْ بَلَغْتُ الْحِلْمَ مَجَالِسَ الْأَدْبَاءِ. أَغْشَى: أَقْصَدَ وَأَدْخَلَ.

المَعَانِ: الْمَنْزِلُ. أَبُو عُبَيْدٍ، يَقَالُ: الْبَصْرَةُ مَعَانٌ مَثًا، أَيِ مَنْزِلٌ مَنَا، قَالَ الْمَعْرِيُّ:

[الوافر]

* مَعَانٌ مِنْ أَحَبَّتْنَا مَعَانٌ^(١) *

فَالْأَوَّلُ اسْمُ مَوْضِعٍ مَعْلُومٍ جُنُسٌ بِهِ، وَجَعَلَهُ مَنْزِلَ أَحِبَابِهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: سُمِّيَ مَعَانًا لِمَعَايِنَةِ النَّاسِ فِيهِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، أَوْ لِأَنَّهُ فِيهِ أَعْيَانًا، أَنْضِي: أَهْزِلُ الرِّكَابَ: الْإِبِلَ، وَجَعَلَ لِلطَّلَبِ إِبِلًا مَجَازًا، وَإِنَّمَا يَرِيدُ: أَتَعَبْتُ نَفْسِي فَرَحَلْتُ إِلَى طَلْبِهِ عَلَى الْإِبِلِ، لِأَعْلَقَ مِنْهُ: لِأَحْصَلَ مِنْهُ عَلَى فَائِدَةٍ أَتَعْلَقُ بِهَا، الْأَنَامُ: الْخَلْقُ مُزْنَةٌ: سَحَابَةٌ. الْأَوَامُ: شِدَّةُ الْعَطَشِ؛ يَرِيدُ أَنَّهُ يَتَعَبُ نَفْسَهُ فِي طَلْبِ الْأَدَبِ لِيَتَزَيَّنَ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ؛ وَيَعِيشُ بِهِ إِذَا احْتِاجَ إِلَيْهِ، فَرَطَ اللَّهَجِ: شِدَّةُ الْحَبِّ، يَقَالُ: قَدْ لَهَجَ بِالشَّيْءِ، إِذَا أَكْثَرَ الْحَدِيثَ بِهِ لِحَبِّهِ فِيهِ، وَحَرَصَهُ عَلَيْهِ، وَلَهَجَ الْفَصِيلُ بِالرِّضَاعِ، إِذَا لَجَّ فِيهِ. اِقْتِبَاسُهُ: اِكْتِسَابُهُ، التَّقْمُصُ: لِبْسُ

(١) عجزه:

تجيب الصاهلات به القيان

والبيت في سقط الزند ص ١٧٢.

القميص. لباسه: ثيابه، أي أطمع أن ألبس من ثيابه قميصاً. أباحث: أسائل. جلّ: عظم. قلّ: حقر. أستسقى الوبل والطلّ، أي أطلب منه السقي، والوبل: أشدّ المطر والطلّ: أضعفه، ويقال: الرّكّ أضعف من الطلّ، ومنه قيل للدنىء: ركيك. أتعلّل: أشغل نفسي وأطمعها، والعلالة: الشيء اليسير، وعسى ولعلّ: معناهما الرجاء والطمع؛ يريد أنه يسائل الجليل في العلم والحقير، ومن كثر علمه وكان كالوبل، أو قلّ وكان كالطلّ، وإذا فقد من يؤخذ عنه العلم رجا نفسه بوجوده وأطمعها. والتعلّل: قطع الزمان بالعيش اليسير وقد تعلّل بشراً به، إذا أخذ منه قليلاً قليلاً؛ فمعنى «أتعلّل عسى ولعلّ»، أذهب عنه وجدي بالرجاء والطمع.

فَلَمَّا حَلَلْتُ حُلُوانَ، وَقَدْ بَلَوْتُ الْإِخْوَانَ، وَسَبَرْتُ الْأَوْزَانَ؛ وَخُبِرْتُ مَا شَانَ
وَزَانَ، أَلْفَيْتُ بِهَا أَبَا زَيْدٍ السَّرُوجِيَّ يَتَقَلَّبُ فِي قَوَالِبِ الْأَنْتَسَابِ، وَيَخُطُّ فِي أَسَالِيبِ
الْاِكْتِسَابِ فِدْعِي تَارَةً أَنَّهُ مِنْ آلِ سَاسَانَ، وَيَعْتَزِي مَرَّةً إِلَى أَقْيَالِ غَسَانَ، وَيَبْرُزُ طَوْرًا
فِي شِعَارِ الشُّعْرَاءِ، وَيَلْبَسُ حِينَئِذٍ كِبَرَ الْكِبَرَاءِ.

[حلوان]

حللت: نزلت، وحلوان: بلدة بينها وبين مدينة بغداد أربع مراحل، وهي من كور
الجبل، وسميت باسم بانيها، وهو حلوان بن علي بن الحاف بن قضاة وهي مدينتان
بينهما نهر عظيم مقداره فرسخ، وهي مقابلة لطبرستان، وهي جبلية سهلية بحرية لها
زيتون ونخيل، وبها قصب السكر وافتتحت في زمن عمر.

بلوت: جربت، الإخوان: الأصحاب. سبرت: فتشت، الأوزان: أقدار الناس،
خبرت: جربت وعرفت، شان: عاب. وزان: زَيْنَ؛ يريد أنه دخلها وهو مجرب عارف
بالناس. ألفيت: وجدت، يتقلب: يتنوع. قلوب جمع قالب، وقالب كل شيء: قياسه،
وما يصنع عليه. يخط: المشي في الأرض على غير قصد كمشي الأعمى، أساليب:
طُرق. واحدها أسلوب. آل ساسان: ملوك الفرس. يعتزي: ينتسب. أقيال: ملوك
غسان: قبيلة باليمن كان منها ملوك، وغسان: ماء كان شرباً لولد مازن بن الأزد بن
الغوث فسَمَوْا به، يبرز: يظهر. طوراً: حيناً. شعار: ثياب. والشعار ثوب يلي الجسد.
كبر: تكبر، يريد أنه لقي أبا زيد بحلوان يتنوع بذلك. في أحوال المكدين، ويجري
بذلك في طرق اكتساب المعيشة فِدْعِي أنه من آل ساسان.

وأصل هذا أن الفرس كان فيهم الملك، وكانت العرب تحت حكم ملوكهم، فلما
بعث رسول الله ﷺ لملكهم بكتابه يدعوهم إلى الإسلام، مزّقه، فدعا الله عليهم أن

يمزقوا كلَّ ممزقٍ، فأوقع بهم المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد حروب شديدة معظمها بالقادسية، فلم يبق لهم في الملك رسم، وصاروا في خلافة عثمان رضي الله عنه تحت حكم المسلمين، وكانوا أهل دهاء وجراءة وحروب ورماية، فسكن من بقي منهم الأمصار، واستعربوا وتفقهوا. فكان منهم من نفع الله به المسلمين، وكان منهم أهل أهواء وبدع، ونشأت منهم هذه الطائفة الخسيسة أهل الكُذبة، فكانوا يطوفون على البلدان، ويقولون: نحن من بني ساسان، فينتسبون إلى ملوكهم، ثم يتدلّون في السؤال، ويذكرون تلاعب الدهر وانقلاب حال الملوك إلى السؤال، فيقع الإشفاق عليهم، والميل بالرزق لهم، حتى شعر الناس بمكرهم وخديعتهم، فطردوا، وصار الناس إذا رأوا سائلاً متمسكاً قالوا. ساساني، وقيل: إنّ ساسان اسم رجل معين، وهو أول من أسس الكُذبة، فنسبوا إليه، كما أنّ الطفيلي منسوب إلى رجل اسمه طفيل وهو أول من تطفل، فأراد أن أبا زيد كان يتنوع في أحواله، فيتمسكن تارة ويدعي أنه من ساسان، ويتعاطم أخرى فينتسب إلى غسان، ويبرز مرة في أحلاس الشعراء المكدين، ويظهر ثانية في ثياب فاخرة، ولباس الكبراء المثرين.

بَيَدَ أَنَّهُ مَعَ تَلَوْنِ حَالِهِ، وَتَبَيُّنِ مُحَالِهِ، يَتَجَلَّى بَرُوءٌ وَرِوَايَةٌ، وَمُدَارَاةٌ وَدِرَايَةٌ، وَبِلَاغَةٌ رَائِعَةٌ، وَبِدِيهَةٌ مُطَاوِعَةٌ، وَأَدَابٌ بَارِعَةٌ وَقَدَمٌ لِأَعْلَامِ الْعُلُومِ فَارِعَةٌ، فَكَانَ لِمَحَاسِنِ آلَاتِهِ، يَلْبَسُ عَلَى عِلَالَتِهِ، وَلَسَعَةِ رَوَايَتِهِ، يُصْبِي إِلَى رُؤْيَتِهِ، وَلَخْلَابَةٍ عَارِضَتِهِ يُزْغِبُ عَنْ مُعَارَضَتِهِ وَلَعْدُوبَةٍ إِيْرَادِهِ يُسَعْفُ بِمِرَادِهِ فَتَعَلَّقْتُ بِأَهْدَابِهِ لَخَصَائِصِ آدَابِهِ، وَنَافَسْتُ فِي مُصَافَاتِهِ، لِنَفَائِصِ صِفَاتِهِ. [الطويل]

فَكُنْتُ بِهِ أَجْلُو هِمُومِي وَأَجْتَلِي زِمَانِي طَلِقَ الْوَجْهَ مُلْتَمَعِ الضِّيَا
أَرَى قُرْبَهُ قُرْبِي وَمَغْنَاهُ غْنِيَةً وَرُؤْيَتُهُ رِيًّا، وَمَحْنَاهُ لِي حَيًّا

قوله: «بيد أنه»، أي غير، محاله: باطله: والمحال ما لا يمكن أن يتصور، وهو «مفعل» من حال الشيء، إذا تغير، كأنه أزال عن وجهه. يتجلى: يتزين. رواء: نظافة وحسن منظر، مداراة: حسن سياسة في صحبتته، وأصلها المخادعة، دراية ودرية: مصدر دريت، بلاغة: فصاحة، رائعة: معجبة، ومن شاهدها ارتاع وتعجب، والبديهة والبداهة: الأخذ في الكلام من غير فكرة، وهي الإرتجال. مطاوعة: منقادة بارعة: فائقة تفضل غيرها أعلام: جبال فارعة: طائفة قد علتها، واللام في قوله: «لأعلام» زائدة، وزيادتها إذا تقدمت أحسن منها إذا تأخرت، مثل ضربت زيداً ولزيد ضربت، آلاته: عدده، وأراد به هذه الأنواع التي قدمها التي تحلى بها يلبس: يصاحب ويخالط علاته: عيوبه التي ذكر من أنواع الغربة، سعة رويته: كثرة علمه وما يرويه. يصبي: يمال. خلافة: خداع، وقد

خلبه خلْباً وُخلابة: خدعه، عارضته: قوة كلامه. معارضته: مقابلته ومناقضة كلامه، وتقول: رغبت عن الشيء تركته وتزهدت فيه، ورغبت فيه، إذا أحببته، فيريد أنه لقوة كلامه وصلابته لا يتعرّض أحد لجداله فهو يخادع به الناس حتى لا يعترض له فيما يقول، وقيل: معنى فلان شديد العارضة، إذا أفحش وأسمع المكروه، ورجل شديد العارضة، أي لا تُقرب ناحيته، إirاده: أخذه في الكلام، يسعف: يساعد، أهدا به: أطراف ثوبه وخصائص الشيء: ما يختص به، أي ينفرد، نافست: زایدت وغاليت مصافاته: مصاحبته، نفائس جمع نفيس، وهو الرفيع من كل شيء، يسمى نفيساً، من النفس وهو العين، حتى كأنه لرفعته تتعلق به العين، وقد قال المعري:

فالعَيْنُ يسلم منها ما رأت فنبت عنه وتلحق ما تهوى من الصور^(١)

قوله: «أجلو»، أي أكشف أجتلى: نظر طلق الوجه: مستبشراً، والطلق ضدّ العابس، ملتمع: منير بادي اللمعان: قربي: نسباً، ومغناه: منزله، من قولهم: غني بالمكان يغني غنياً، إذا أقام به غنية: غنى، يقال: غني يغني غنى فهو غني، إذا استغنى، والاسم: الغنية، رياً: شبعاً من الماء، ورويت من الماء ضدّ عطشت: محياه: حياته. حياً: مطر عام. يقول: أنه بمصاحبته أبا زيد يزول همه، ويلقاه ببشر منه، فيرى قربه منه بالود كقراية النسب، وكان منزله لما يجد فيه من الخصب أو من غزارة العلم يرى أنه غناه، وإذا رآه زال عطشه للعلم أو للماء برويته، وقصد تجنيس الألفاظ يبعد المعنى.

وَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ بُزْهَةً، يَنْشِئُ لِي كُلَّ يَوْمٍ نُزْهَةً، ويدراً عن قَلْبِي شُبْهَةً، إلى أن جدحت، له يدُ الإملاقِ كأسُ الفراقِ، وأغراه عَدَمُ العُرَاقِ بِتَطْلِيْقِ العِرَاقِ، ولَفْظَتُهُ مِعَاوِزَ الإِرْفَاقِ، إلى مفاوِزِ الآفَاقِ وَنَظَمَهُ فِي سَلَكِ الرِّفَاقِ حُفُوقُ رَايَةِ الإِخْفَاقِ، فَشَحَذَ لِلرَّخْلَةِ غَرَارَ عَزْمِيَّتِهِ، وَظَعَنَ يَقْتَادُ الْقَلْبَ بِأَزْمَتِهِ. [الطويل]

فَمَا رَاقِنِي مِنْ لَاقِنِي بَعْدَ بُعْدِهِ وَلَا شَاقِنِي مَنْ سَاقِنِي لِوَصَالِهِ
وَلَا لَاحَ لِي مُذْ نَذَرْتُ لِفَضْلِهِ وَلَا ذُو خِلَالٍ حَارَ مِثْلَ خِلَالِهِ

لبثنا: أقمنا. برهة: مدة، ينشئ: يصنع ويبتدىء، والنزهة أصلها التّباعد عن الرّيب، ثم كثر حتى صارت الخروج للرياض، للتفرّج، ثم استعملت في المعاني فقيل: نزه فلان في آدابه، وكنى بهذا عما يستفيدة من علمه. يدرأ: يدفع. شبهة: إشكال والتباس. جدحت: حركت ومزجت، والمجدح: آلة يمزج بها المشروب الصعب

(١) البيت في ديوان أبي العلاء المعري ص ١٥٠.

الأمتراج، الإملاق: الفقر من الملقاة وهي الصخرة الملساء، فأملق كأنه صادف مَلَقَة لا تنبت شيئاً، ولم يصادف خصباً بعد أن كان في ترفقة وغنى، أغراه: حرّضه.

والعُراق، اختلفوا فيه، فقال صاحب العين: العُراق: العظم بلا لحم، فإن كان عليه لحم فهو عَرَق.

ابن قتيبة، يقال للعظم الذي عليه اللحم عُراق، وللخالي من اللحم عَرَق.

أبو عبيد، العُراق: القطعة من اللحم، أبو زيد، قول العامة: ثريده العراق خطأ؛ إذ كان العُراق العِظام، وأنشد لرجل يطرد الطير عن زرعه في عام جذب: [الرجز]

عَجِبْتُ من نفسي ومن إشفاقها ومن طرادي الطَّير عن أرزاقها^(١)
في سَنَةٍ قد كشفت عن ساقها حَمَرَاءَ تَبْرِيٍّ لِلْحَمِّ عن عراقها

ابن الأنباري، قول أبي عبيد هو الصواب؛ لأن العرب تقول: أكلت العُراق ولا تقول: أكلت العظم، وفي حديث أم إسحاق العنْزِيَّة: فجعلت لا آكل العُراق ولا أضعه، فقولها: «لا آكل» يدل على أن العُراق لحم مفرد أو لحم على عظم،

الأصمعي، قيل لأعرابي: أي الطعام أطيب؟ قال: ثريده ذَكْنَاء من الفلفل، رقطاع من الحمض، ذات حفافين من البضع، لها جناحان من العراق، قيل: كيف أكلت لكها؟ قال: أصدع بهاتين - يعني السبابة والوسطى - وأسند بهذين - يعني الإبهام والخنصر - وأجمع ما شذ منها بهذه - يعني البنصر - وأضرب فيها ضرب وليّ السوء في مال اليتيم، فهذا يدل على أن العُراق قطع اللحم إذا كانت العرب لا تصف الشريد والأطعمة بكثرة العظام.

والعُراق في البيت: الأكل، تقول: عرقت العظم عراقاً، أكلت ما عليه من اللحم، والعظم معروق، وهو بمنزلة سكت سكاتاً.

العراق: قال صاحب العين: هو شاطئ البحر، وبه سميت العراق لأنها على شاطئ دجلة، ابن الأعرابي، سمي عِراقاً لأنه سَفُل عن نجد، ودنا من البحر، أخذ من عراق القربة، وهو الخرزفي أسفلها، قطرب، سُمِّي عِراقاً لأنه دنا من البحر، وبه يُناخ وينجد.

ويقال: استعرت إبلهم، إذا أتت ذلك الموضع، لفظته، أي رمته. ومعاوز: جمع مَعَوَز، والمعوَز هو العَوَز نفسه، والمَعَوَز بالكسر: الثوب الخلق وجمعه معاوز، الإرفاق ومصدر أرفقته، إذا أوصلت إليه نفعاً يرتفق به، ورفقته بمعناه فأراد بمعاوز الإرفاق فقد ما يرتفق به والمفاوز: جمع مفازة وهي الصحراء سميت مفازة على التفاؤل، لأن الرجل إذا

(١) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (عرق)، وتاج العروس (عرق).

قطعها فاز ونجا. والآفاق: نواحي الأرض، نظمته: ضمّه وجمعه سلك: خيط، الرّفاق: جمع رُفقة، وعنى بسلك الرفاق الطريق الذي ينتظمون فيه إذا أخذوا في السير، لأنهم يمشون فيه واحداً بعد واحد، فنظمهم الطريق، وصار لهم كالسلك. خفوق: اضطراب، وقد خفق خفقاً وخفوقاً، والإخفاق: الخيبة، ويقال: غدا فأخفق، إذا خاب، ومثله في الصائد: صاد فأروق. شحد: حدّ وسن، وشحد الرجل سيفه.، إذا ألحّ عليه بالتحديد، ومنه قولهم للملحّ في المسألة: شحاذ، والعامّة تصخّفه فتقول: شحات، بالتاء. غرّار: حدّ. وأراد أنه لما عزم على الارتحال حدّ عزمته، أي عوّل على السفر يحدّ. والعزّمة: مصدر عزم إذا جدّ، وجعل لها حدّاً، مبالغة في تعجيل السفر. ظعن: ذهب وارتحل. أزمة: جمع زمام، وهو حبل من جلود يشدّ به في حلقه مجعولة في وتد أنف البعير، فجعل تعلّق قلوب أصحابه به عند فراقه، وحينئذٍ إليه؛ كأنه قد ربطها بأزمة وقادها معه، فمن روى «القلوب» عادت الهاء من «أزمته» على السروجيّ، ومن روى «القلب» عادت على القلب أو على السروجيّ، والقلب لابن همام.

وقوله: «راقني»، أي أعجبنني، وقد راق الشيء يروق رَوْقاً فهو رائق إذا أعجب، لاقني: لصق بي وصحبني. شاقني: شوقني. ساقني لوصاله: دعاني لصحبته، لاح: ظهر، ندّ: فرّ وشرد. ندّ: مثل، والجمع أنداد، خلال: جمع خُلّة الضم؛ وهي الصداقة، خلال: جمع خُلّة بالضم أيضاً، وهي الخصلة. وهذا الثُّمط في وصف الصديق وغيبته بارع ولابن عمران في ذلك: [البسيط]

يا مَرَحِباً بصديقٍ لستُ أبصرُهُ إلّا تجدّد لي أنسٌ بمزاة
وإن تغيب عن عيني فلم أرهُ فلي فؤاد بظَهْرِ الغيبِ يرعاه

واستسرّ عني حيناً، لا أعرف له عَرِيناً، ولا أحد عنه مُبيناً، فلَمّا أبْتُ من غُرْبتي، إلى مَنْبَتِ شُعْبتي، حضرتُ دَارَ كُتُبِها التي هي مُنتدى المُتأدِّبين، ومُلْتَقَى القاطنين مِنْهُمْ الْمُغْتَرِّين، فدخلَ ذُو لِحْيَةٍ كَثَّةٍ، وهيئَةُ رَثَةٍ، فَسَلَّمَ على الجُلّاسِ، وجَلَسَ في أُخْرِيَاتِ النَّاسِ.

استسرّ: غاب واختفى، وأصله من سِرار الهلال في آخر الشهر وهو يستسرّ ليلة لا يظهر أو ليلتين، والعرين: بيت الأسد ومأواه، مبنياً: معلماً به يبين لي أين استقرّ. أبْتُ: رجعت، منبت شُعْبتي، أي بلدة قرابتي التي نبتوا فيها، يريد البصرة. والشعبة: القرابة، دار كتبها: مدرسة العلم. منتدى: مجتمع القاطنين: الساكنين، وقطن بالمكان: أقام فيه، كثة: كثيرة الأصول من غير طول.

[اللحية وما قيل فيها]

ويقال للّحية إذا أقصر شعرها وكثر: أنها لكثة، وقد «كثت تكث كثاة وكثوثة، ورجل كث اللحية، ولحية كُثُومة، إذا كُثِفَت وقصرت وجعدت، ورجل كُثُم اللحية، وإذا عظمت وكثر شعرها قيل: إنه لذوا عُثُنون، وإنه لَهْلُوف، فإذا كانت اللحية قليلة في الذقن ولم تكن في العارضين فذلك السُّنوط والسناط، ورجل سُناط: بين السُّنَط، فإذا لم يكن في وجهه كثير شعر، فذلك الثُّطط ورجل ثُطّ، ورجل ثُطاط، والسُّبَلَة: مقدّم اللحية، ورجل مسبل، وفلان خفيف العذارين، وهما ما اتصل من شعر اللحية بالصُّدغ، وهما العارضان، وهما ما نبت في الخدين من الشعر على عوارض الأسنان، قال رؤبة في لحية حرب بن قُطن: [الرجز]

هَلْوَفةٌ كأنها جُوالِقُ نكداء لا بارك فيها الخَالِقُ^(١)
لها فضولٌ ولها بنائِقُ إذا الرياح العصفُ السَّوابِقُ
طَيَّرَناها طارث لها عقائِقُ إن الذي يحملها المائِقُ
وأُشَدُّ أبو علي: [الطويل]

وأنت امرؤ قد كُثَّأت لك لحيّة كأنك منها قاعد في جُوالِقِ^(٢)

قال النبي ﷺ: «من سعادة المرء خفة لحيته». وكانت عائشة رضي الله عنها تقسم فتقول: «لا والذي زين الرجال باللّحي»، تقول: إنه قَسَم الملائكة.

إلى ص ٨٥

كتاب شرح مقامات الحريري الجزء الأول من ص ٨٥ باسمه

قال الأحذب الصوفي: سمعت مطيار بن أحمد يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله، أشتهى لحية كبيرة، فقال لي: «لحيتك جيدة، وأنت محتاج إلى عقل تام».

وقال ﷺ: «اعتبر واعقل الرّجل في ثلاث: في طول لحيته، ونقش خاتمه، وكنيته».

أتى رجلٌ طويلٌ اللحية معاوية فقال له: أمّا اللحية فلا نسأل عنها، فما نقش خاتمك؟ فقال: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُذُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾

(١) الأشطار الثلاثة الأول من الرجز بلا نسبة في لسان العرب (هلف)، وتاج العروس (هلف)، وكتاب العين ٥٢/٤، وتهذيب اللغة ٣٠٢/٦.

(٢) البيت بلا نسبة في لسان العرب (كثأ)، وتاج العروس (كثأ).

[النمل : ٢٠] ، قال : فما كنتك؟ فقال : أبو الكوكب الدرّي ، قال : كَمَل الرجل .

وكان ﷺ يأخذ من لحيته من طولها وعرضها بالسواء^(١) .

وكان عبد الله بن عمر يقبض على لحيته ، ويأخذ ما زاد منها على قبضته .

الحسن بن المثنى : إذا رأيت رجلاً له لحية طويلة ، ولم يتخذ لحية بين لحيتين ، كان في عقله شيء .

وكان المأمون جالساً مع ندمائه ببغداد ، مشرفاً على دجلة وهم يتذكرون أخبار الناس ، فقال المأمون : ما طالت لحية إنسان قط إلا ونقص من عقله بمقدار ما طال من لحيته ، وما رأيت عاقلاً قطُ طويلَ اللحية . فقال له بعض جلسائه ، ولا يرّد على أمير المؤمنين : قد يكون في طول اللحي أيضاً عقل ؛ فبينما هم يتذكرون في هذا ، إذ أقبل رجل كبير اللحية ، حسن الهيئة ، فاخر الثياب ، فقال المأمون : ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال بعضهم : رجل عاقل ، وقال آخر : يجب أن يكون هذا قاضياً ، فقال المأمون لبعض الخدم : عليّ بالرجل ، فلم يلبث أن أضعد إليه ووقف بين يديه ، فسلم فأجاد السلام ، فأجلسه المأمون ، واستنطقه فأحسن النطق ، فقال المأمون : ما اسمك؟ فقال : علوية ، قال : فما الكنية؟ قال : أبو حمدويه ، فضحك المأمون ، وغمز جلساءه ثم قال : ما صنعتك؟ قال : فقيهٌ أجيد الشرع في المسائل ، فقال له : نسألك مسألة! فقال الرجل : سل عما بدا لك ، فقال له المأمون : ما تقول في رجل اشترى شاة من رجل ، فلما تسلمها المشتري ، وقضى الثمن ، ضرطت ، فخرج من استها بكرة ففقات عين رجل ؛ على من تجب دية العين؟ قال : فنكت بإصبعه في الأرض طويلاً ، ثم قال : تجب على البائع دون المشتري ، فقال المأمون : وما العلة التي أوجبت الدية عليه دون المشتري؟ قال : إنه لما باعها لم يشترط أنّ في استها منجنيقاً ، قال : فضحك المأمون حتى استلقى على قفاه ، وضحك كل من حضره من الندماء . وأنشد المأمون يقول : [السريع]

ما أخذ طالت له لحيّة فزادت اللّحية في جليّة
إلا وما ينقص من عقله أكثر مما زاد في لحيّة

وقال آخر : [المقارب]

إذا عظمت للفتى لحيّة فطالت فصارت إلى سرّيّة
فنقصان عقل الفتى عندنا بمقدار ما زاد في لحيّة

وأنشد أبو عليّ : [مجزوء الكامل]

(١) أخرجه الترمذي في الأدب باب ١٧ ، بلفظ : «كان النبي ﷺ يأخذه من لحيته من عرضها وطولها» .

لا تفخرنْ بلحِيةَ
يَهوى تفرُّقَها الرِّيا
قَدْ يدركُ الشَّرَفَ الفتى
وقال : الحسيلة العجلة .

وأنشد أبو العباس رحمه الله : [الطويل]

كل امرئٍ ذي لحية عَثُولِيَّةٍ
وما الفضلُ في طول السُّبال وعِزِّهِ
يقوم عليها ظَنٌّ أنَّ له فضلاً^(٢)
إذا الله لم يجعل لصاحبه عَقْلاً
عَثُولِيَّة : كبيرة .

نظر يزيد بن مزيد الشيباني رحمه الله إلى رجل ذي لحية عظيمة ، وقد تَلَفَّقَتْ على صدره ، وإذا هو خاضب ، فقال له : إنك من لحيتك في مؤنة ، فقال : أجل ، ولذلك أقول : [الطويل]

لَعَمْرُكَ لو يعطي الأميرُ على اللَّحَى
إذا لَشَفْتَنِي لحيتي من عصابة
لها درهم للذُّهنِ في كلِّ جمعة
ولولا نوالُ من يزيد بن مَزِيدٍ
لأصبحتُ قد أيسرتُ منذ زَمَانٍ
لهم عنده ألفٌ ولي مائتان
وآخر للِحْناء يبتدران
لصوتِ في حافاتِها الجَلَمَانِ

فأمر له بعشرة آلاف درهم . والجلَمَان : المقصص ، ويسمى الجالَم .

وقال إسحاق بن خلف يصف رجلاً بالقَصْرِ وطول اللّحية : [البسيط]

ما سرَّني أنِّي في طولِ داودِ
ماشيئُ داود فاستضحكتُ من عَجَبٍ
ما طولُ داود إلا طولُ لحيتِهِ
تَكُنْه خضلة منها إذا نفحت
أجدى وأغنى من الخِزِّ الصَّفِيقِ ومن
وأُنني عَلِمَ في البأسِ والجُودِ
كأنني والذِّمَّشي بمولودِ
يظلُّ داودُ فيها غيرَ موجودِ
ريح الشمال ، وجفَّ الماء في العودِ
بيض القطائف يوم القَرِّ والسُّودِ

وأشد إفراطاً منه قول ابن الرومي : [السريع]

ولحِيةٍ يحملُها مائقٌ
تقوده الرِّيح بها طائعاً
مثل الشُّراعين إذا أشرعاً
قوداً عنيفاً يُثْعِب الأخدعاً

(١) الأبيات بلا نسبة في لسان العرب (حسل) وتهذيب اللغة ٤/ ٣٠٤ .

(٢) البيتان بلا نسبة في تاج العروس (عثل) .

لم ينبعث في مشيه إصبعاً
صاد بها حيتائه أجمعا

وإن عدا والريح في وجهه
لو غاص في اليم بها غوصة

وأشد إفراطاً منه قول الآخر : [الكامل]

أهديت للأقوام عرف الثوم
ضاقت مسالك دعوة المظلوم
قامت مقام العارض المزكوم

يا لحيّة الشنخ الأزب تميم
لو أنها دون السماء غمامة
أو صبها في الماء ثم سماً بها

ولابن سارة : [البسيط]

فضول أشعارها أودت بأشعاري
مذبذبة وقعت في عود بيطار

ولحية لست أدري كيف أنعتها
كأنها ويمين الرّيح تنشرها

وقال آخر : [السريع]

ذالحية قد كبرت في اتساع
كأنه ناشر ثوب يباع

أبصرت شيخاً ذاهباً جائياً
عزضاً وطولاً وهو من خلفها

وقال آخر : [الوافر]

فضيقت لها بلحيته رباح
لهافي كل زاوية جناح

لقد كانت مجالسنا فساحاً
مقلّبة الأسافل والأعالي

وقال آخر : [السريع]

قد برزت لحيّة بهلول
وعرضها ميل إلى ميل
أسرج منه ألف فنيديل
لخالطت ما في السراويل

يا أيها الناس خذوا حذركم
فطولها الفرسخ في فرسخ
لو ضم ما يقطر من دهنها
ولو سها الحجام عن قصها

ذكر هنا أبو محمد لحية السروجي أنها كثة، وكل صفة يصف بها السروجي في المقامات، فتلك كانت صفة الحريري. وذكر ابن جهور أن الحريري كان قليل اللحية لا خلقة، وإنما كان مولعاً بتنفها، كانت يده رحمه الله لا تفارق لحيته. وهذا على كثرته قليل فيما قيل في اللحية.

قوله «رثة»، أي خلقة بالية. أخريات : أطراف، وهي جمع أخرى.

ثم أخذ يبدي ما في وطابه، ويُعجب الحاضرين بفضل خطابه، فقال لمن

يَلِيهِ : مَا الْكِتَابُ الَّذِي تَنْظُرُ فِيهِ؟ فَقَالَ : دِيوَانُ أَبِي عِبَادَةَ، الْمَشْهُودُ لَهُ بِالْإِجَادَةِ.

أَتَى طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَجْلِسَ قَوْمٍ، فَجَعَلُوا ينادونه من كُلِّ جَانِبٍ : هَا هُنَا يَا صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ ! قَالَ : فَجَلَسَ فِي أَدْنَى الْمَجْلِسِ، ثُمَّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : «إِنَّ مِنَ التَّوَاضُعِ لِلَّهِ الرِّضَا بِالذُّونِ مِنْ شَرَفِ الْمَجْلِسِ».

وَطَابَهُ : زِقَاقُ لَبْنَةٍ، أَرَادَ أَنَّهُ يَظْهَرُ مَا عِنْدَهُ. يَعْجَبُ : يَجْعَلُهُمْ يَتَعَجَّبُونَ. بِفَصْلِ خُطَابِهِ : يَرِيدُ بِفَصْلِ كَلَامِهِ وَجُودَةَ بِلَاغَتِهِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَفُضِّلَ الْخُطَابُ﴾ [ص : ٢٠] هُوَ قَوْلُ الْخُطِيبِ : «أَمَّا بَعْدُ». يَلِيهِ : يَلِصُقُ بِهِ.

[البحترى]

أَبُو عِبَادَةَ. قَالَ الْبَكْرِيُّ : هُوَ الْوَلِيدُ بْنُ عُبَيْدٍ بْنُ يَحْيَى بْنِ عُبَيْدٍ، مِنْ بَنِي بَحْتَرِ بْنِ عَتُودِ بْنِ عُثَيْنِ بْنِ سَلَامَانَ بْنِ ثُلٍّ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَوْتِ بْنِ جَلْهَمَةَ، وَهِيَ طَيْيَّةٌ. شَاعِرٌ مُقَدَّمٌ لَا يُعَدَّلُ بِهِ أَحَدٌ، يُفْضَلُ عَلَى حَبِيبٍ، وَالنَّاسُ فِي تَفْضِيلِهِمَا عَلَى اخْتِلَافٍ.

قَالَ أَبُو الْفَرَجِ الْأَصْبَهَانِيُّ : كَانَ الْبَحْتَرِيُّ شَاعِرًا فَصِيحًا، حَسَنَ الْمَذْهَبِ نَقِيَّ الْكَلَامِ، خُتِمَ بِهِ الشُعْرَاءُ الْمَحْدَثُونَ، وَلَهُ تَصَرُّفٌ فِي ضُرُوبِ الشُّعْرِ، سِوَى الْهَجَاءِ، فَإِنَّ بِضَاعَتَهُ فِيهِ نَزْرَةٌ.

قَالَ الْبَحْتَرِيُّ : وَكَانَ أَوَّلُ أَمْرِي أَنِّي سَرْتُ إِلَى أَبِي عَامِرٍ بِحُمْصٍ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ شُعْرِي - وَالشُّعْرَاءُ يَعْرِضُونَ عَلَيْهِ أَشْعَارَهُمْ - فَتَرَكَ مَنْ حَضَرَ وَأَقْبَلَ عَلَيَّ، فَقَالَ لِي حِينَ تَفَرَّقُوا : أَنْتَ أَشْعَرُ مَنْ أَنْشَدَنِي، فَكَيْفَ حَالُكَ؟ فَشَكُوتُ خَلَّةٍ، فَكُتِبَ إِلَى أَهْلِ مَعْرَةِ النِّعْمَانِ، وَشَهِدَ لِي بِالْحَذَقِ فِي الشُّعْرِ، وَشَفَعَ لِي إِلَيْهِمْ، وَقَالَ : امْتَدِّحْهُمْ. فَسَرْتُ إِلَيْهِمْ، فَأَكْرَمُونِي بِكِتَابِهِ، وَوُظِّفُوا لِي أَرْبَعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ، فَكَانَتْ أَوَّلَ مَالٍ أَصَبْتُهُ.

وَحَدَّثَ أَبُو الْفَرَجِ، قَالَ : حَدَّثَنِي أَبُو الْعَوْتِ الْبَحْتَرِيُّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ : أَوَّلُ أَمْرِي أَنِّي دَخَلْتُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ مُحَمَّدَ بْنَ يُونُسَ الثُّغْرِيِّ، فَأَنْشَدْتُهُ قَصِيدَةً أَوَّلُهَا : [الْكَامِلُ]

* أَفْأَقَ صَبٌّ مِنْ هَوَى فَأُفَيْقًا ^(١) *

فَسَّرَ أَبُو يُونُسَ بِهَا، وَقَالَ : أَحْسَنْتَ وَاللَّهِ يَا فَتَى وَأَجَدْتَ - وَفِي مَجْلِسِهِ رَجُلٌ رَفِيعُ نَبِيلٍ قَرِيبُ الْمَجْلِسِ مِنْهُ، فَوْقَ كُلِّ مَنْ حَضَرَ، تَكَادَ تَمَسَّ رُكْبَتُهُ رُكْبَتَهُ، فَأَقْبَلَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ : أَمَّا تَسْتَجِي مِنِّي ! هَذَا شُعْرِي تَنْتَحِلُهُ وَتَنْشُدُهُ بِحَضْرَتِي ! فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ : أَحَقًّا مَا

(١) عجزه:

أَمْ خَانَ عَهْدًا أَمْ أَطَاعَ سَفِيْقًا

وَالْبَيْتُ فِي دِيوَانِ الْبَحْتَرِيِّ ٣/ ١٤٥٠، وَهُوَ بِلَا نِسْبَةٍ فِي رِصْفِ الْمَبَانِي ص ٣٨٢.

تقول؟ قال: نعم، وإنما عَلِقَهُ مِنِّي وسبق به إليك، وزاد فيه. ثم اندفع فأنشد أكثر القصيدة، حتى شككني - علم الله - في نفسي، وبقيت متحيراً، فقال لي أبو سعيد: يا فتى، قد كان لك في قرابتك مِنِّي ما يغنيك عن هذا! فجعلت أحلف بكل مَحَرَجَةٍ من الإيمان أن الشعر لي، ما سمعته منه، ولا انتحلته. فلم ينفع ذلك شيئاً، وأطرق أبو سعيد، وقطع بي حتى تَمَثَّيْتُ أن يُسَاحَ بي في الأرض، فقمت منكسِفَ البالِ، أجزَرجلي، فما بلغت باب الدار حتى رَدَّنِي الغلام، فأقبل عليَّ الرجل وقال: الشعر لك يا بني، والله ما قلته قط، ولا سمعته إلا منك؛ ولكنني كنت ظننتُ أنَّكَ تهاونتَ بموضعي، فأقدمت على الإنشاد بحضرتي، تريد مضاهاتي، حتى عرَّفني الأمير نسبك، ولوددت ألا تلد طائفة إلا مثلك، ودعاني وضمَّني إليه، وعانقني، وأبو سعيد يضحك، فلزمته بعد ذلك وأخذت عنه، واحتذيت فنه.

وعن أبي الغوث عن أبيه قال: قال لي أبو تمام: بلغني أن بني حُميد أعطوك مالا جليلاً، فيم مدحتهم؟ فأنشِدني شيئاً منه، فأنشدته، فقال لي: كم أعطوك؟ فقلت: كذا، فقال لي: ظلموك، والله ما وقَّوك حقَّك، فلم استكثرت ما أعطوك! والله لبيئت منها خَيْرُ مما أخذت. ثم أطرق قليلاً وقال: لعمرِى لقد استكثرت ذلك لِمَا مات الكرام، وذهب الناس، وغاضت المكارم، وكسدت أسواق الأدب، أنت والله يا بني أميرُ الشعراء غداً بعدي، فقمت فقبَّلت رأسه ويديه ورجليه، وقلت: والله لهذا القول أسرُّ لي مما وصل إلي منهم.

قال البحتري: أنشدت أبا تمام يوماً شيئاً من شعري، فأنشدني بيت أوس: [الطويل]
وَإِنْ مُقَرَّمٌ مِثْلًا دَرَا حَدُّ نَابِهِ تَمْخُطُ فِينَا نَابُ آخِرِ مُقَرَّمٍ^(١)

ثم قال: يا بني، نَعَيْتَ إِلَيَّ نفسي: فقلت: أعيدك بالله من هذا! فقال لي: إن عمري ليس يطول، وقد نشأ مثلك لطيفاً، أما علمت أن خالد بن صفوان المِثْقَرِي رأى شبيب بن شبة، وهو من رهطه يتكلم، فقال: يا بني، نَعَى نفسي إليَّ إحسانك في كلامك؛ لأنَّا أهل بيت، ما نشأ فينا قط خطيب إلا مات من قبله.

قال: فمات أبو تمام بعد سنة من قوله هذا، ومات البحتري سنة ثلاث وثمانين ومائتين.

المبرد: ذكرت للمتوكل المنازعة التي جَرَتْ بيني وبين أبي الفتح في تأويلات، فبعث إلى عامله بالبصرة أن يحملني إليه مكرهاً، فوردت سرّاً من رأى، فأدخلت على

(١) البيت لأوس بن حجر في ديوانه ص ١٢٢، ولسان العرب (قرم)، (ذرا)، وتهذيب اللغة ٧/ ٢٦١، ١٤٠/٩، وتاج العروس (خمط)، (قرم)، وأساس البلاغة (خمط)، (قرم)، وبلا نسبة في لسان العرب (خمط)، ومقاييس اللغة ٢/ ٣٥٢، ٥/ ٧٥، والمخصص ١٠/ ٢٠٠، ١٥/ ٥٥.

المتوكل، وفي المجلس البحترى وأبو العنيس الصيمري، فأنشده البحترى قصيدة أولها:
[مجزوء الكامل]

عَنْ أَيِّ ثَغْرِ تَبْتَسِمُ وَبِأَيِّ طَرْفٍ تَخْتَكِمُ^(١)
حَسَنٌ يَضُنُّ بِحُسْنِهِ وَالْحُسْنُ أَشْبَهُ بِالْكَرَمِ
حتى بلغ:

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ جَعْفَرِ الْمُتَّ وَكُلِّ بْنِ الْمَعْتَصِمِ
الْمُرْتَضَى ابْنِ الْمَجْتَبَى وَالْمَنْعَمِ ابْنَ الْمَنْتَقِمِ
أَمَّا الرَّعِيَّةُ فَهِيَ مِنْ أَمَنَاتِ عَذْلِكَ فِي حَرَمِ
يَا بَانِي الْمَجْدِ الَّذِي قَدْ كَانَ قُؤُوصَ فَاثْهَدَمِ
اسْلَمَ لِدِينِ مُحَمَّدٍ فَلِذَا سَلِمْتَ فَقَدْ سَلِمَ
نَلْنَا الْهَدَى بَعْدَ الْعَمَى بَلْ وَالْغَنَى بَعْدَ الْعَدَمِ

ثم مشى القهقري للإنصراف، فوثب أبو العنيس، وقال: يا سيدي، تأمر برذه! فقد والله عارضته، فأخذ ينشد في ذلك: [مجزوء الكامل]

فِي أَيِّ سَلْحٍ تَنْتَظِمُ وَبِأَيِّ كَفٍّ تَلْتَقِمُ
أَدْخَلْتَ رَأْسَ الْبَحْثَرِ يَ أَبِي عُبَادَةَ فِي الرَّحِمِ

ووصله بما يشبهه من الشعر. فضحك المتوكل حتى استلقى، وقال: يُدفع إلى أبي العنيس عشرة آلاف درهم، فقال أبو الفتح: يا أمير المؤمنين، والبحترى الذي هُجِيَ وأُسمع المكروه ينصرف خائباً؟ قال: وَيُدفع إلى البحترى عشرة آلاف درهم، قال: يا سيدي، وهذا البصري الذي أشخصناه من بلده، ألا يشركهم فيما حصلوه؟ قال: وَيُدفع له عشرة آلاف: قال وانصرفنا كلنا في شفاعة الهذلي، ولم ينفع البحترى جُده وحِذقه. وأما أبو الفرج، فقال: حَدَّثني جحظة عن أبي العنيس الصيمري، قال: كنت عند المتوكل والبحترى ينشده:

* عَنْ أَيِّ ثَغْرِ تَبْتَسِمُ *

وكان البحترى من أبغض الناس إنشاداً، يتشادق ويتزاور في مشيه مرّة جانباً، ومرّة القهقري، ويهزّ رأسه مرّة ومنكبّه أخرى، ويشير بكفيه، ويقف عند كل بيت، ويقول: أَحسنتُ والله! ثم يقبل على المستمعين، ويقول لهم: ما لكم لا تقولون: أحسنت! هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله، فضجر المتوكل من ذلك، وأقبل عليّ فقال: أما

تسمع يا صيمري ما يقول؟ فقلت: بلى يا سيدي، فمز فيه بما أحببت، فقال: بحياتي
اهجّه على هذا الروي، فقلت على البديهة [مجزوء الكامل]

أدخلت رأسك في الرّجَمِ	وعلمت أنك تنهزم
يا بحرّي حذارٍ ونحو	ك قضا قضاة ضُفْم
فلقد أسلت بواذني	ك من الهجاسيل العرم
فبأيّ عرض تعتصم	وبهتكه جف القلَم
والله حلفه صادق	وبقبر أحمَد والحرَم
ووحق جعفر الإمام	م بن الإمام المعتصم
لأصيرنك شُهْرَة	بين المسيل إلى العلَم
يا بن الثّقيلة والثّقيف	ل على قلوب ذوي النّعم
وعلى الصّغير مع الكبـ	ير من الموالى والحشم

وبعد هذا ما يقبح ذكره؛ فغضب البحرّي، وخرج يعدو، وجعلت أصبح به:

أدخلت رأسك في الرّجَمِ وعلمت أنك تنهزم
والمتوكّل يضحك، ويصفق حتى غاب عنه.

ومدح البحرّي بعض الولاة، فتوانى في حقه، فأنشده: [البسيط]

إنّ الأمير أطال الله مدّته يُعطى من العُرف ما لم يغطّه أحد^(١)
ينسى الذي كان من معروفة أبداً إلى العباد، ولا ينسى الذي يعدّ

فأعطاه خمسين ألف درهم، وقال: البيتان خير من القصيدة.

وقال الهذلي: قيل للبحرّي: أيما أشعر؟ أنت أو أبو تمام؟ قال: جيّدُهُ خيرٌ من
جيّدِي، ورديني خير من رديته. وصدق، أبو تمام لا يتعلّق به أحد في جيّدِهِ، وربما اختل
لفظه لا معناه، والبحرّي لا يختل لفظه.

وقيل له: قد عثرت باحتذائك أبا تمام في شعرك! فقال: أيعاب عليّ أن أتبع أبا
تمام، وما عملت بيتاً قط حتى أخطّر شعره ببالي!

وذكروا معني تعاوره البحرّي وأبو تمام، فقال المبرّد للبحرّي: أنت في هذا أشعر
من أبي تمام، فقال: لا والله، ذلك الرئيس الأستاذ، والله ما أكلت الخبر إلا به.

وقال عبد الله بن الحسن: سألت المبرّد عن أبي تمام والبحرّي أيهما أشعر؟ فقال:

(١) البيت في ملحق ديوان البحرّي ص ٢٥٤٥.

لأبي تمام استخراجات لطيفة، ومعانٍ ظريفة، وجيده أجود من شعر البحتري ومن تقدمه من المحدثين، وشعر البحتري أحسن استواء من شعره، لأن البحتري يقول القصيدة كلها، فتكون سليمة من طعن طاعن، وأبو تمام يقول البيت النادر والبارد؛ وهذا المعنى كان أعجب إلى الأصمعي، وما أشبهه إلا بغائص يُخرج الدرة المَحْشَلَة - وهي زجاجة توضع مكان الدرة - ثم قال: لأبي تمام والبحتري من المحاسن ما لو قيس بأكثر شعر الأوائل ما وجدوا فيه مثله، ثم قال: والبحتري ختم الشعر، وله بيتان لو وضعنا إلى شعر زهير لجازا فيه؛ وهما: [الوافر]

فما سَفَّه السَّفِيه وإن تعدى بأنجعَ فيك من جِلْمِ الحليم^(١)
متى أحفظتَ ذا كرمٍ تخطى إليك ببعض أفعال اللئيم

وذكر المبرد في هذا المجلس شعراً له، وقدمه على نظرائه: [الكامل]

وإذا ذكرتُ محاسنَ ابني صاعِدٍ أذت إليك مخائِلَ ابني مُخَلِّدٍ^(٢)
كالفرقدنين إذا تأملَ ناظرٌ لم يعملَ موضعَ فرقدٍ عن فرقدٍ

وقوله: [الكامل]

مَنْ شاكِرٌ عني الخليفةَ لِلَّذِي أولاه من فضلٍ ومن إحسانٍ^(٣)
حتى لقد أفضلتُ من إفضاله ورأيت نَهَجَ الجود حيثُ رأيتُ

وبعدهما: [الكامل]

أغنت يداهُ يدي وشَرَدَ جُودُهُ بُخْلِي، فأفقرني كما أغنانِي

وله أيضاً في الفتح بن خاقان، وقد نزل إلى الأسد فقتله: [الطويل]

حملت عليه السيف عطفك ما انثنى ولا يذكُ ارتدَّت ولا حَدُّه نَبَاً^(٤)
فأحجم لِمَا لم يجد فيك مطمَعاً وصمَّم لِمَا لم يجِدْ عنك مَهْرَباً

وله فيه:

وما منع الفتحُ بن خاقان نيله ولكنها الأيام تُعطى وتَحْرِمُ^(٥)
سحابَ خطاني جُودُهُ وهو مسيلٌ وبحرَ عَدَانِي فيضُهُ وهو مَفْعُمٌ
ويدرُ أضواءُ الأرض شرقاً ومغرباً وموضعُ رجلي منه أسودٌ مُظْلَمٌ

(١) ديوان البحتري ص ٢٠٧٩.

(٢) ديوان البحتري ص ٥٤١.

(٣) ديوان البحتري ص ٢٢٥٥.

(٤) ديوان البحتري ص ٢٠٠، ٢٠١.

(٥) ديوان البحتري ص ١٩٨٠.

أَشْكُو نَدَاهُ بَعْدَ أَنْ وَسَّعَ الْوَرَى وَمَنْ ذَا يَذِمُّ الْغَيْثَ إِلَّا مَذْمُومٌ !
وله أيضاً في انتقاض صلح بين عشيرته : [الوافر]

إِذَا مَا الْجَرْحُ رَمَّ عَلَى فَسَادٍ تَبَيَّنَ فِيهِ تَفْرِيطُ الطَّبِيبِ ^(١)
وَلَسَّهُمْ السَّدِيدُ أَشَدَّ حُبًّا إِلَى الرَّامِي مِنَ السَّهْمِ الْمُصِيبِ
ومن جيد شعره : [الطويل]

وَلَمَّا التَّقِينَا وَاللَّوَى مَوْعِدُ لَنَا تَبَيَّنَ رَائِي الدَّرَّ حَسَنًا وَلَا قُطْعَةً ^(٢)
فَمَنْ لَوْلُؤٍ تَجَلَّوْهُ عِنْدَ ابْتِسَامِهَا وَمَنْ لَوْلُؤٍ عِنْدَ الْحَدِيثِ تَسَاقُطُهُ

والبحتري مكثر جداً، وديوان شعره نسيج مختلفاً بالزيادة والنقص ؛ لأن شعره لا ينضبط لكثيره .

[وصية أبي تمام للبحتري]

قال البحتري : كنت أروم الشعر في حدائتي، وكنت أرجع فيه إلى الطبع، ولم أكن أفق على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضائه، حتى قصدت أبا تمام، وانقطعت فيه إليه، واتكلت في تعريفه عليه، فكان أول ما قال لي : يا أبا عبادة، تخير الأوقات وأنت قليل الهموم، صفر من الغموم . واعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصدها الإنسان لتأليف الشيء، أو حفظه في وقت السحر، وذلك أن النفس تكون قد أخذت بحفظها في الراحة، وقسطها من النوم، فإن أردت التشبيب، فاجعل اللفظ رقيقاً، والمعنى رقيقاً، وأكثر فيه بيان الصبابة، وتوَجُّع الكآبة، وقلق الأشواق، ولوعة الفراق؛ فإذا أخذت في مدح سيد [ذو أبياد]، فأشهر مناقبه، وأظهر مناسبه، وابن معالمة، وشرف مقامه، ونضد المعاني، واحذر المحتمل منها . وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الهجينة، وكن كأنك خياط تقطع الثياب على مقادير الأجسام، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك، ولا تعمل شعراً إلا وأنت فارغ القلب . واجعل شهوتك إلى قول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه، فإن الشهوة تجمع النفس . وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سبق من شعر الماضين، فما استحسنت العلماء فاقصده، وما تركوه فاجتنبه؛ ترشد إن شاء الله تعالى .

قال : فأعملت نفسي فيما قال، فوفقت على السياسة .

* * *

فَقَالَ : هَلْ عَثَرْتَ لَهُ فِيمَا لَمَحْتَهُ، عَلَى بَدِيعِ اسْتَمْلَحْتَهُ؟ قَالَ : نَعَمْ، قَوْلُهُ : [السريع]
كَأَنَّمَا يَبْسِمُ عَنْ لَوْلُؤٍ مُنْضِدٍ أَوْ بَرْدٍ أَوْ أَقَاخٍ ^(٣)

(١) ديوان البحتري ص ١٩٠ .

(٢) ديوان البحتري ص ١٢٣٠ .

(٣) البيت بلا نسبة في تاج العروس (ظلم) .

فإنَّه أَبْدَعَ فِي التَّشْبِيهِ، الْمَوْدَعِ فِيهِ.

قوله: «هل عثرت»، معناه اطلعت. لمحتة: نظرتة. بديع: معنى لم يسبق غيره إليه من تشبيه أو تجنيس وشبههما ممَّا ذكر من صنع البديع في [المقامة] الثالثة والعشرين. والبِدْع: إحداث الشيء قبل أن يكون أولاً، والبِدْعَةُ: ما ابتدع من الدِّين، والبديع: المحدث العجيب، وأبدع الرجل: أتى ببديع من قول أو فعل، وأبدع الله الأشياء وابتدعها: خلقها بلا مثال. استملحته: وجدته مليحاً. ييسم: يبدي بعض أسنانه عند الضحك. لؤلؤ: جوهر شبه به الأسنان. وهذا البيت من شعره، وقبله: [السريع]

بَاتَ نَدِيمًا لِي حَتَّى الصُّبَاخِ أَعْيَدُ مَجْدُولُ مَكَانِ الْوِشَاخِ^(١)
فَبِتْ أَفْدِيهِ وَلَا أَرْعَوِي لَنَهِي نَاهٍ عَنْهُ أَوْ لَخِي لَأَخِ
أَمْزُجُ كَأْسِي بِجَنَى رِيقِهِ وَإِنَّمَا أَمْزُجُ رَا حَا بِرَاخِ
كَأَنَّمَا يَيْسَمُ . . . الْبَيْتِ .
وبعده: [السريع]

سَخَّرَ الْعُيُونِ الثُّجَلِ مُسْتَهْلِكُ لُبِّي، وَتَوْرِيدِ الْخُدُودِ الْمَلَاخِ
قُلْ لِأَبِي نَوْحٍ شَقِيقِ الْعَلَا وَمَعْدِنِ الْجُودِ، وَتَرْبِ السَّمَاحِ
أَعُوذُ بِالْفَضْلِ الْجَمِيلِ الَّذِي عَوَّدْتَنِي، وَالنَّائِلِ الْمُسْتَمَاحِ
مَنْ أَنْ تَصُدَّ الطَّرْفَ عَنِّي وَأَنْ أَخِيبَ فِي جَدُوكَ بَعْدَ النَّجَاحِ
أَشْمَتْتُ حُسَادِي وَأَخْرَجْتَنِي عَنْ سَيْبِكَ الْمُغْدَى عَلَيَّ الْمَرَاخِ
فَهَلْ لِأَنْسِ بَانَ مِنْ عَوْدَةٍ أَمْ هَلْ لِحَالٍ فَسَدَتْ مِنْ صَلَاخِ
لَسْتُ عَلَى سَخَطِكَ جَلَدُ الْقَوَى وَلَا عَلَى هَجْرِكَ شَاكِي السُّلَاخِ

قوله: «المودع»: المضمن، وأودع الشي: صيره وديعةً.

فَقَالَ لَهُ: يَا لِلْعَجَبِ، وَلِضَيْعَةِ الْأَدَبِ! لَقَدْ اسْتَسَمَنْتَ ذَا وَرَمٍ، وَنَفَخْتَ فِي
غَيْرِ ضَرَمٍ! أَيْنَ أَنْتَ مِنَ الْبَيْتِ النَّدْرِ، الْجَامِعِ مُشَبَّهَاتِ الثُّغْرِ! وَأَنْشَدَ: [البسيط]
نَفْسِي الْفِدَاءَ لِثُغْرِ رَقٍ مَبْسَمُهُ وَرَأَاهُ شَبَّ نَاهِيكَ مِنْ شَبِّ
يَفْتَرُّ عَنْ لَوْلِي زَطِبٍ وَعَنْ بَرْدِ وَعَنْ أَفَاحٍ وَعَنْ طَلْعٍ وَعَنْ حَبِّ

استسمنت: حسبته سميناً وطلبت السمانة من هزيل. وَرَمَ: دُمَل، والمعنى أنه يرميه بسوء الفهم، وقد بين هذا أبو الطيّب المتنبي فقال: [البسيط]

أَعِيدُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسِبَ الشَّخْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمٌ^(١)
وَمَا انْتَفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِنَظَرِهِ إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلُمُ

ونفخت في غير ضرر، مثل لطلب الشيء في غير موضعه، ولفظ المثل: «نفخت» أو «تنفخ»، والضَّرَم: النار. النَّدْر، والنادر: الغريب. الثغر: الأسنان، مبسمه: موضع ابتسامة، يعني الفم.

الشَّنْب: الماء القليل الجاري على الأسنان الجرمي: سمعت الأصمعي يقول: الشَّنْب بَزْد الأسنان والفم، فقلت: أصحابنا يقولون: حَدَّثَهَا حين تَطْلُع، فيراد بذلك حَدَّثَتْهَا وطراءتها، لأنها إذا أَتَتْ عليها السنون تَغَيَّرَتْ، فقال: ما هو إِلَّا بَزْدَهَا. ابن سيده: قال الأصمعي: سألت رُوْبَةَ عن الشَّنْب ما هو؟ فأخذ حَبَّةَ رمان فأوماً إلى بصيصها.

ناهيك: كافيك، وتقول: ناهيك بفلان! أي قد انتهى الأمر فيه إلى الغاية ونَهِيَ الرَّجُل من اللحم وأنهى، إذا شبع منه واكتفى، والنَّهْي: الغدير لأنه ينتهي إليه ماء الوادي. يفتَر: يكشف ويبسم. رطب، أي طري كما أخرج من أصدافه، وفي اللؤلؤ إذا ذاك رطوبة وسطوع بياض، فإذا أصابه الهوى ودام عليه صَلْب، وإذا تداولته الأيدي باللمس وقدم تَغَيَّرَ بياضه. الطَّلُع: أول حَمَل النخلة، وهو الفرخ فإذا انشق فهو بالضَّحْك، وبه تشبه الأسنان في بياضه، ثم الإغريض إذا افترق حَبّه، وإنمَّا شَبّه الأسنان بالطَّلُع، وهو الفرخ، لأنه إذا شَقَّ وجد ما فيه من حمل النخلة في غاية البياض، ويقال له: الوليع، قال الشاعر: [المقارِب]

وتَبَسِّمُ عَنْ لَوْلِيٍّ كَالْوَلِيعِ تَشَقَّقُ عَنْهُ الرِّقَاةُ الْجُفُوفَا^(٢)

الجُفُوف جمع جُفٍّ وهو قشر الفرخ، ويقال له القيقاء والبلبله، وهو طيّب الريح، والرِّقَاة: الراقون إلى أعلى النخل.

والحَبَب: تنَضَّد الأسنان، وقيل: طرائق تظهر في الخمر عند مزجها بالماء، فأَمَّا الفقاقيع التي تعلو الخمر عند المَزْج فهي الحَبَاب، بزيادة الألف، قال المثلَّمس: [الوافر]

(١) البيتان في ديوان المتنبي ٣/٣٦٦، ٣٦٧.

(٢) يروى صدر البيت:

وتبسم عن نير كالوليع

وهو بلا نسبة في لسان العرب (ولع)، (جفف) وتهذيب اللغة ٣/٢٠٠، ١٠/٥٠٥، وكتاب العين ٢/٢٥١، ٦/٣٣، وتاج العروس (ولع)، (جفف).

عُقَارُ أُغَيِّقَتْ فِي الدَّنِّ حَتَّى كَأَنَّ حَبَابَهَا حَدَقَ الْجَرَادُ^(١)

وقال آخر : [الكامل]

حُمْرَاءُ قَانِيَةٌ إِذَا مَا شَعَشَعَتْ يَنْزَوُ إِلَى وَجْهِ النَّدِيمِ حَبَابُهَا

فَاسْتَجَادَهُ مَنْ حَضَرَ وَاسْتَخْلَاهُ، وَاسْتَعَادَهُ مِنْهُ وَاسْتَمْلَاهُ، وَسُئِلَ لِمَنْ هَذَا الْبَيْتُ، وَهَلْ حَيٌّ قَائِلُهُ أَوْ مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: أَيُّمُ اللَّهِ، لِلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ، وَلِلصِّدْقِ حَقِيقٌ بَأَنَّ يُسْتَمَعَ؛ إِنَّهُ يَا قَوْمُ، لَنَجِيئُكُمْ مِنْذُ الْيَوْمِ. قَالَ: فَكَأَنَّ الْجَمَاعَةَ ارْتَابَتْ بِعَزْوَتِهِ، وَأَبَتْ تَصْدِيقَ دَعْوَتِهِ. فَتَوَجَّسَ مَا هَجَسَ فِي أَفْكَارِهِمْ، وَفُطِنَ لِمَا بَطَّنَ مِنْ اسْتِنكَارِهِمْ، وَحَازَرَ أَنْ يَفْرُطَ إِلَيْهِ ذَمٌّ، أَوْ يَلْحَقَهُ وَهْمٌ، فَقَرَأَ ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾. ثُمَّ قَالَ: يَا رُوَاةَ الْقَرِيضِ، وَأَسَاءَةَ الْقَوْلِ الْمَرِيضِ، إِنَّ خُلَاصَةَ الْجَوْهَرِ تَظْهَرُ بِالسَّبْكِ، وَيَدُ الْحَقِّ تَصْدَعُ رِدَاءَ الشُّكِّ، وَقَدْ قِيلَ فِيمَا غَبَرَ مِنَ الزَّمَانِ: عِنْدَ الْامْتِحَانِ يُكْرَمُ الْمَرْءُ أَوْ يُهَانُ، وَهَذَا أَنَا قَدْ عَرَّضْتُ خَبِيَّتِي لِلِاخْتِبَارِ، وَعَرَّضْتُ حَقِيَّتِي عَلَى الْاِغْتِبَارِ.

قوله : «استعاده»، أي قال : أعده عليّ . استملاه : طلب أن يكتبه . أيم الله : يمين يحلف به . نجئكم : محدثكم - يعني نفسه . ارتابت : شكّت والزّيب : الشك . بعزوته : بنسبته ، أي بنسبته إلى نفسه . دعوته : ادعاؤه أنه من قوله : والدعوة بكسر الذال في النسب ، وبفتحها في الطعام . فتوجّس : أي أحسّ وسمع هجس : وقع وخطر . فطن : شعر . بطن : خفي ، يريد أنه فهم منهم أنهم لم يصدقوه في أنّ الشعر له ، وأنكروا أن يقول مثله . حاذر : خاف . يفرط : يسبق . القريض : الشعر . أساء : أطباء ، وأحدهم آس . القول المريض : الضعيف من قبل راويه . خلاصة : ما خلاص منه . وجواهر الأرض ، مثل الحديد والنحاس وغيرهما ، فإذا عرض الجواهر على النار ، فما كان منه خالصاً زاد صفاء وجودة ، وما لم يكن خالصاً فضحّته النار وأظهرت عيبه . السبك : الاختبار بالنار . تصدع : تشق . غبر : مضى هنا ، ويستعمل كثيراً بمعنى «بقي» وهو من الأضداد ؛ يقال : غبر الشيء غبوراً إذا بقي ، قال الله تعالى : ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الأعراف : ٨٣] ، أي الباقيين . الامتحان : الاختبار والبحث ، وهذا المثل من أمثال الفرس ، ولهذا أبعد مدّته حيث قال : غبر من الزمان . خبيتي : مكتومي ، وما خبأته من علمي ، وأصل «خبيتي» الهمز ، فقلبت همزته ياء وأدغمت فيها الياء ، كما قلبت في «خاصية» . وتقول :

(١) البيت في شعراء النصرانية ص ٣٤٢ ، ولعمرو بن معدي كرب في ديوانه ص ١٠٧ :

مضاعفة تخيرها سليم كأن قتيورها حدق الجراد

عَرَضْتُ الشَّيْءَ عَلَى الْبَيْعِ وَعَرَضْتُهُ لِلْبَيْعِ، إِنْ أَتَيْتَ بَعْلَى خَفَّفْتَ الرَّاءَ، وَإِنْ أَتَيْتَ بِاللَّامِ شَدَّدْتُهَا. وَالْحَقِيقَةُ: وَعَاءٌ يَجْعَلُهُ الرَّاكِبُ خَلْفَهُ، وَالْإِعْتِبَارُ وَالِاخْتِبَارُ وَاحِدٌ.

فَانْتَدَرَ أَحَدُ مَنْ حَضَرَ، وَقَالَ: أَغْرِفُ بَيْتًا لَمْ يُنْسَجْ عَلَى مِنْوَالِهِ، وَلَا سَمَحَتْ قَرِيحَةٌ بِمِثَالِهِ، فَإِنْ أَثَرَتْ اخْتِلَابَ الْقُلُوبِ، فَاَنْظِمْ عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ: [البسيط]
فَأَمْطَرْتُ لَوْلُؤًا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ وَرْدًا وَعَصَّتْ عَلَى الْعُنَابِ بِالْبَرْدِ

قوله: «ابتدر»، أي سبق بالكلام وبادر به. والمِنْوَال: خشبة الحائك؛ يريد أن البيت رفيع الصنعة في الشعر لم يُصنع بيت مثله، لأنَّ الثوب أنواع، وصنعة الشعر تشبه نَسَجَ الثوب. سمحت: جادت. قريحة: ذهن. آثرت: فضلت. اختلاب القلوب: إمالتها إليك بتصديقك وانخداعك بما تبديه، وهو من الخَلْب وهو من غشاء القلب. وعن أبي عبيدة وغيره قال ثعلب: الخَلْب: الذي بين الزيادة والكبد، يقال: خَلَبَنِي حُبُّ فُلَانٍ، أي وصل حبه إلى خَلْبِي، وفلان خَلَبَ نِسَاءً، أي تخليه النساء، وخَلَابٌ: يخلب الناس، أي يذهب بقلوبهم، وخَلَبَ جمعه خلبة، وكله من الخَلْب، قال أعرابي: [البسيط]

مَنْ كَانَ لَمْ يَذْرِ مَا حُبِّ جَمَعَتْ لَهُ أَوْ كَانَ فِي غَفْلَةٍ أَوْ كَانَ لَمْ يَجِدِ
فَالْحُبُّ أَوْلَهُ رَوْعٌ وَآخِرُهُ مِثْلُ الْحَرَارَةِ بَيْنَ الْخَلْبِ وَالْكَبِدِ

[انظم: قل شعراً منظوماً. والأسلوب: الطريقة].

لَوْلُؤًا: دُرًّا. النرجس: نَوَّارٌ أَصْفَرُ فِي نَوْرِهِ انْكَسَارٌ وَفَتُورٌ لَا يَكَادُ يُرَى، لَهُ وَرَقَةٌ قَائِمَةٌ، تَشَبَّهُ بِهِ الْعَيْنَانِ إِذَا كَانَ فِي نَظَرِهِمَا فَتُورٌ.

[ما قيل في النرجس]

وقد تمادى إنكار أدباء وقتنا تشبيه العين بهذا النَوَّارِ الأصفر المعروف عندنا بالنرجس، فأكثرهم ينكر أن يكون يقع به تشبيه لأجل صفرته، وإن ذكرته لأحد قال: وَأَيُّ صَفْرَةٍ فِي الْعَيْنِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِصَاحِبِهَا عَلَّةُ الْبِرْقَانِ! ويستهجَن موضع التشبيه جداً.

وقد سألت عنه بعض أشياخي في صغري، وأنا أقرأ عليه كتاب «الجمال» وكان أديباً شاعراً، فأنكر وقوع التشبيه بهذا النَوَّرِ الأصفر، وقال لي: النَّرْجِسُ عندهم بالمشرق نُورٌ يَشْبَهُ نُورَ الْقَوْلِ، وَأَكْثَرُ مَنْ لَقِيْتُهُ يَسْتَبْعِدُ التَّشْبِيهَ بِهَذَا الْأَصْفَرِ، لِأَجْلِ لَوْنِهِ، وَذَلِكَ لِقَلَّةِ تَحْصِيلِهِمْ مَعْرِفَةَ كَلَامِ الْعَرَبِ وَتَشْبِيهَاتِهَا، وَالْعَرَبُ تَوْقِعُ تَشْبِيهَاتِهَا عَلَى الصُّورَةِ دُونَ الْمَعْنَى، وَعَلَى الْمَعْنَى دُونَ الصُّورَةِ، وَعَلَيْهِمَا جَمِيعاً؛ وَهُوَ أَكْمَلُ وَجْهِ التَّشْبِيهِ. وَانْظُرْ أَقْسَامَ التَّشْبِيهِ فِي الثَّالِثَةِ وَالْعِشْرِينَ تَقَعُ عَلَى عِلْمِ هَذَا وَغَيْرِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى.

وتشبيه العيون بالسيوف والسُّهَام، إنَّمَا المراد به المَضَاء والقَطْع، ولا يُلتفت في ذلك إلى اللون، وكذلك تشبيه العيون بالترجس الأصفر إذا قصد ما فيه من الفتور واقع متمكّن في التشبيه، ألا ترى ابن المعتزّ التفت إلى الفتور وحده حين قال: [الكامل]

وَسَنَانُ قَدْ خَدَعَ الثُّعَاسُ جَفَوْنَهُ فَحَكَّى بِمَقْلَتِهِ ذَبُولَ التَّرْجَسِ^(١)

والتَّرجس الذي يشبّه به أهل المشرق العيون، هو نبات له قضبان خضر في رؤوسها أقماع، يخرج منها نور ينبسط منه على الأقماع ورق أبيض، في وسط البياض دائرة قائمة من ورق صغير. هذه الصفة التي تقع في أشعارهم إذا ذكروا التَّرجس، وبذلك وصفه كسرى أنوشروان، فقال: التَّرجس ياقوت أصفر، بين دُرّ أبيض على زمرد أخضر، أخذه بعضهم فقال فيه: [الطويل]

وياقوتة صفراء في رأس دُرّة مركبة في قائم من زَبَرْجَدٍ
كأن بهي الدرّ عقد نظامها فريد أنيق قد أطاف بعسجدٍ

وأنشد أبو عَوْن الكاتب في كتاب التشبيه له، فقال: من جيّد ما قيل في النرجس ما أنشده المبرّد رحمه الله تعالى: [السريع]

نَرْجِسَةٌ لَاحِظَنِي طَرْفُهَا تَشْبِيهُ دِينَاراً عَلَى دِرْهَمٍ
وقال عبيد الله بن عبد الله فيه: [المنسرح]

ترنو بأبصارها إليك كَمَا تَزْنُو إِذَا خَافَتِ الْيَعَافِيرُ
مثل اليواقيت قد تُظْمَنَ عَلَى زَمَرْدَ فَوْقَهُنَّ كَافُورُ
كأنّها والعيون ترمقها دَرَاهِمٌ وَشَطَطُهَا دَنَائِيرُ

وقال أبو نواس: [الطويل]

لَدَى نَرْجِسٍ غَضُّ الْقِطَافِ كَأَنَّهُ إِذَا مَا مَنَحْنَاهُ الْعَيُونَ عَيُونُ
مُخَالَفَةٍ فِي شَكْلِهِنَّ وَصَفْرَةُ مَكَانٍ سَوَادٍ وَالْبَيَاضُ جَفُونُ

أجاد التشبيه، وكشف بذكر المخالفة قتاع الشبهة، وبين مواقع التشبيه غاية البيان.

وقال أبو عبد الملك بن فرج في كتاب الحاسّ والمحسوس، له: وأحسن بيت أنشدنيه أبو جعفر البغدادي رحمه الله: [الطويل]

مَدَاهِنُ دَرِّ بَيْنٍ أَوْرَاقُ فِضَّةٍ عَلَى قَيْسٍ شَبَرَ أَخْضَرَ كَالزَّبَرْجَدِ

وقال أبو الفرج البغاء: [السريع]

ونرجس لم يَغْدُ مُبَيَّضُهُ الْـ
تخال أحقاق لَجِينِ حَوْثِ
كأنما يُهدي المحيّي به
يغني عن الوَرْدِ إذا مارنا

وقال ابن المعتز: [الطويل]

كَأَنَّ عَيُونَ النُّرْجَسِ الْغَضُّ بَيْنَنَا
إِذَا بَلَّهِنَّ الْقَطَرُ خَلَّتْ دُمُوعُهُ

وقال النّاشي: [مجزوء المتقارب]

أَخْصَصَ الصِّفَاتِ الَّتِي
عَيُونٌ بِلَا أَوْجِهٍ

وقال ابن الرومي: [الكامل]

يَا نَرْجَسَ الدُّنْيَا تَرَى أَبْدَا
ذَهَبُ الْعَيُونِ إِذَا مَثَلْنَ لَنَا

وهذه الصفة التي أثبتها أهل المشرق للنّرجس، هي التي يصف بها أهل المغرب البهار، قال ابن أبي عامر في جارية اسمها بهار: [الكامل]

حَدَّقَ الْحَسَانَ تَقَرَّرَ لِي وَتَغَارُ
طَلَعَتْ عَلَى قَضْبِي عَيُونُ كَمَائِمِي
وَأَخْصَصَ شَيْءَ بِي إِذَا شَبَّهْتَنِي
أَهْدَى لَنَا قُضْبَ الزَّبَرْجَدِ سَاقُهُ
أَنَا نَرْجَسٌ حَقًّا بَهَرْتُ عَقُولَهُمْ

بَيَّنَّ أَنَّ الْبَهَارَ عِنْدَنَا، هُوَ الَّذِي تَسْمِيهِ أَهْلُ الْمَشْرِقِ نَرْجَسًا.

وقال أبو جعفر بن برد: [الطويل]

تَأْمَلْ فَقَدْ شَقَّ الْبَهَارُ مَغْلَسًا
مَدَاهُنُ تَبَرٍ فِي أَنَامِلِ فِضَّةٍ

وقال القسطلي: [المتقارب]

يَهَارُ يَرُوقُ بِمَسْكٍ دَكِّيٍّ
وَصَنَعَ بَدِيعٍ وَخَلَقَ عَجَبٍ

غصون الزَّيْرَجِدِ قد أوزقت بها فضة نورت بالذهب

وقال القاضي أبو الحسن بن لبّال : [الرمل]

ويَهَارِ يحكى كؤوسَ لجينِ سمرتها الكواكب الزُّهر حتى
حملتها أناملٌ من زَبْرَجِدِ سمرت وسطها كواكبٌ عَسْجِدُ

وأنشدني بعض أشياخنا : [الكامل]

انْظُرْ إلى حُسْنِ الْبَهَارِ وَغُنْجِهِ فكأنما هي راحةٌ من فِضَّةٍ
يرئو إليك بمَقْلَتِي وَسَنَانِ وكأَنَّ نَشْرَ نَسِيمِهِ غَبَّ التَّدَى
قد ضُمْنَتْ كَأْساً مِنَ الْعِقْيَانِ

والذي تسميه أهل المغرب نرجساً يسميه أهل المشرق بهاراً، ولذلك قال الحريري في العاشرة : «ووزدتي بالبهار»، دعا فيها على الغلام بالحمى، وأن ينعكس حمرة خده صفرة، وقال حبيب في ذلك : [الخفيف]

إنَّ وَجْهَ الْحَمَّى لوجهٌ صفيقٌ حين تسطوبه نَهَاراً جَهَاراً
لم تَشْنُ وَزْدَ وَجْنَتَيْهِ وَلَكِنْ صَيَّرَتْ وَزْدَ وَجْنَتَيْهِ بَهَاراً

وبلون النرجس يشبه أهل الأندلس المريض .

وقال أبو بكر الأبيض : [البيسط]

يا شاكياً صدني عن مسه ألمي تضاعل الدهرُ إشفاقاً على قمرٍ
طال اشتياقي به ليلاً فلم أُنم لم أرضَ قلبي مكاناً إذ حللت به
رقيبته في سماء المجد والكرم حتى خلطتك في سوادئهِ بِدَمِي
أنتَ الْبَهَارُ ولا أدري متى خَلَعْتَ عليك أيدي الليالي نَرْجِسَ السَّقَمِ

ولابن الزقاق : [الرمل]

وغزالٍ ذي اعتدالٍ شَفْهُ جارت الحمى على وجنته
بعد ما شقَّ هَوَاهُ الْأَنْفَسَا فاستحال الوردُ منه نَرْجِسَا

فثبت بما قدمناه، أن نرجسهم بهارُنا، وأن بهارهم نرجسنا. وأكد ما يدل على صحته اشتراك البيت الذي أنشده أبو الفرج على النرجس مع بيت ابن بُرْدٍ في لفظٍ واحدٍ، أخذ ابن بُرْدٍ منه صفة النرجس، فقلبه لاسم البهار حين نظمه .

واغلم أن تشبيه العين بنرجسهم أبين لتعلقهم بالصورة، وأن تشبيهها بنرجسنا أدون لتعلقه بالمعنى، وهو مع ذلك متمكن في باب التشبيه، وأن اسم النرجس لا بد فيه من صفرة .

وقد قال شاعر من المشرق، وهو أحمد بن يونس الكاتب في مناقضة ابن الرومي في تفضيله النرجس على الورد:

إِنْ كُنْتَ تَنْكِرُ مَا ذَكَّرْنَا بَعْدَمَا قَامَتْ عَلَيْهِ دَلَائِلُ وَشَوَاهِدُ
فَانْظُرْ إِلَى الْمَصْفَرِّ لَوْنًا مِنْهُمَا وَافْطِنْ فَمَا يَصْفَرُّ إِلَّا الْحَاسِدُ

فلولا ما ذكرنا من أشعارهم، لحكمنا بهذا البيت، على أن نرجسهم هو نرجسنا، ومذهب ابن الرومي تفضيله على الورد، وهو القائل: [المتقارب]

وَأَحْسَنَ مَا فِي الْوَجْهِ الْعَيُورِ نُوْ وَأَشْبَهَ شَيْءٍ بِهَا النَّرْجِسُ

والنفوس تشوق إلى رؤية نرجسهم، لأننا لم نعلم نرجسنا غير هذا الأصفر، حتى نعلم بما ذكرناه أنه هو النوار المعروف، وهم أيضاً يتشوقون لمنظر نرجسنا.

ويدل على ذلك حكاية القاضي الفقيه أبي الحسن بن لبّال، قال: خرجت عشيةً لخارج إشبيلية أيام حدائتي وقراءتي بها، فجلست في وسط واديها، ويدي كتاب أنظر فيه، وإذا رجلٌ يُحْمَلِقُ حَوَالِيَّ، فإذا نظرتُ في الكتاب يأخذ وينشد للأشعار التي بين أيدينا نظائر من بديع الشعر، فذاكرته فوجدته بحرَ أدبٍ، فسألته عن محفوظه، فقال: أحفظ خمسة عشر ألف بيت من الشعر، فسألته: هل تنظم شيئاً؟ فأنشدني في وصف فرس، وزعم أنه القائل: [الكامل]

مَنْعَ الْحَوَافِرِ أَنْ تَطِينَ بِهِ الثَّرَى فَكَأَنَّهُ فِي جَرِيهِ مَتَعَلِّقُ
وَكَأَنَّ أَرْبَعَةَ تَوَافَقَ طَرْفُهُ فَتَكَادُ تَسْبِقُهُ إِلَى مَا يَرْمُقُ

فاستعدت بيته، وراجعته في قوله: «تطين»، فقلت له: إنما هو «تطأن»، فلم يعرف اللفظ، وإنما تكلم بلا همز على لحن عامته، فجربته في غيره، فوجدت شعره من جهة الطبع وكثرة الحفظ، لا من جهة العلم، فسألته عن بلاده، فقال: أنا من العراق، فقلت له: فما السبب الذي جاء بك إلى الأندلس؟ فقال لي: لأرى النرجس الأصفر المذكور في أشعاركم عياناً. ودعاني إلى الإطالة في ذكر النرجس رغبةً أن أرفع عن غيري خيرة الشبهة التي أقيمت فيها زماناً طويلاً، لا أجد من يرفعها عني.

[الوَأَوَاءُ الدَّمَشْقِي]

والبيت الذي اقتضى النظم على أسلوبه هو لأبي الفرج الغساني الدمشقي، المعروف بالوَأَوَاءُ، ذكره أبو منصور الثعالبي في يتيّمته، فقال: أبو الفرج من حسان الدهر، وصاغة الكلام.

ومن عجائب أمره أنه كان منادياً بدار البَطِيخ بدمشق ينادي على الفواكه، وما زال يشعر حتى جاد شعره، ووقع له ما يروق، ويشوق ويفوق، حتى تعلّق بالعيوق.

وقال الفتح بن خاقان: إني انصرفت البارحة من مجلس أمير المؤمنين، فلما دخلت مجلسي لقيت خلافة جاريتي، فلم أتمالك أن، قَبَلْتُهَا، فوجدت ما بين شفيتها هواء، لو رقد المحموم فيه لأفاق. وهذا مستطَرَف من كلام الفتح، فقال الوأواء ملماً به: [الطويل]

سَقَى الله ليلاً طاب إذ زار طيفه فأفنيته حتى الصَّبَاح عَنَاقاً^(١)
بطيب نسيم منه يُستجلب الكَرَى فلو رقد المحموم فيه أفاقاً
وله أيضاً: [البسيط]

بالله ربكما عُوجاً على سَكَنِي وعاتباه، لعلَّ العَثْبَ يَغْطِفُ^(٢)
وعرَضاً بي وقولاً في حديثكما ما بالُ عبدِكَ بالهَجْرَانِ ثُلُفُ!
فإن تبسّم قولاً في ملاطفة ما ضرَّ لو بوصالٍ منك تُسَعِفُ!
وإن بدا لكما من سَيِّدِي غضبٌ فغالطاه، وقولا: ليس نعرفُ
وله في النحول: [الوافر]

وما أبقى الهوى والشوق مني سيوى رُوحَ تَرَدُّدٍ في خَيَالِ^(٣)
خفيتُ عن العواذل أن ترايني كأنَّ الرُّوحَ مني في مُحَالِ
وله في الزَّرَقَة: [البسيط]

يا مَنْ هُوَ الماءُ في تكوين خِلْقَتِهِ وَمَنْ هُوَ الخُرْقِي أفعال مُقْلَتِهِ^(٤)
وَمَنْ بَزْرَقَةِ سيف اللّحْظِ طَلَّ دَمِي والسيف، ما فُخْرُهُ إلا بَزْرَقَتِهِ
عَلِمْتَ إنسان عيني أن يعوم فَقَدْ جادت سِبَاحته في بحر دمعَتِهِ
وله أيضاً: [المقارب]

تملَّكْتَ يا مهجَّتِي مهجَّتِي وأسهرت يا ناظري ناظري^(٥)
وما كان ذا أملَى يا ملولُ ولا هَجَسَ الهَجْرُ في خاطري
فجذب بالوصالِ فدثكَ النفوسُ فلستُ على الهَجْرِ بالقادر
وفيك تعلَّمتُ نظَمَ القَرِيضِ فلَقَّبَنِي النَّاسُ بالشَّاعِرِ
وله من قصيدة:

يُقِمْنَ لَنَا بَزَقَ الثُّغُورِ أَوْلَةَ إذا ما ضَلَلْنَا في ظلام الدَّوَابِ

(١) ديوان الوأواء الدمشقي ص ١٦٤.

(٢) ديوانه ص ١٤٦، ١٤٧.

(٣) ديوان الوأواء ص ١٨٩.

(٤) ديوانه ص ٦٥.

(٥) ديوانه ص ٩٩.

قال : ومن بديع تشبيهاته قوله :

فَأَمْطَرَتْ لَوْلُؤًا مِنْ نَرْجِسٍ...^(١) البيت .

ثم قال : هذا البيت ضمته خمسة تشبيهات بغير أداة التشبيه ، وذكر المتنبي منها أربعة فأجاد ، وهي ما ضمنها قوله رحمه الله : [الوافر]

بَدَتْ قَمَرًا ، وَمَالَتْ خُوطَ بَانٍ ، فَاخْتُ عُنْبَرًا ، وَرَنْتَ غَزَالًا^(٢)

وللفقيه أبي محمد بن حزم خمسة تشبيهات في بيت واحد ، ولا يقدر أحد على أكثر منه ، إذ لا يحتمل العروض ولا أبنية الأسماء أكثر من ذلك ، قال : [الطويل]

وَجُنْحُ ظِلَامِ اللَّيْلِ قَدْ مَدَّ وَأَتْلَجَ خَلُوتُ بِهَا وَالكَأْسُ ثَالِثَةُ لَنَا
وَهَلْ فِي ابْتِغَاءِ الْعَيْشِ وَنَحْكَ مِنْ حَرْجٍ فَتَاةٌ عَدِمْتُ الْعَيْشَ إِلَّا بِقَرِيبِهَا
ثَرَى وَحَيًّا وَالدَّرَّ وَالتَّبَرَّ وَالسَّبَجَ كَأَنِّي وَهِيَ وَالكَأْسُ وَالْخَمْرُ وَاللُّجْجُ
وَقَبْلَ بَيْتِ الْوَأْوَاءِ : [البسيط]

لِلنَّاطِرِينَ وَلَمْ تَغْرُبْ عَلَى أَحَدٍ
مَا إِنْ أَرَى لِقَتِيلِ الْحَبِّ مِنْ قَوْدٍ
وَزِدَا وَعَضَّتْ عَلَى الْعُنَّابِ بِالْبَرْدِ
قَوْمُوا انظُرُوا كَيْفَ فَعَلَ الظُّبْيُ بِالْأَسَدِ !
إِنْسِيَّةٌ لَوْ بَدَتْ لِلشَّمْسِ مَا طَلَعَتْ
قَالَتْ وَقَدْ فَتَكَتْ فِينَا لَوَاحِظُهَا :
فَأَمْطَرَتْ لَوْلُؤًا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ
ثُمَّ اسْتَمَرَّتْ وَقَالَتْ وَهِيَ ضَاكِكَةٌ :
وَأَوَّلُ الْقَصِيدَةِ : [البسيط]

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى صَدْرِي يَدًا لِيَدٍ
وَصَحْتُ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلَمَاءِ وَاكْبَدِي !
وَقَالَ أَيْضًا : [الوافر]

أَتَانِي زَائِرًا مَنْ كَانَ يُبْنَدِي .
فَقَالَ النَّاسُ لَمَّا أَبْصَرُوهُ
فَقُلْتُ لَهُمْ وَدَمْعُ الْعَيْنِ يَجْرِي
لَوْ نَصَبُوا رَحًا بِإِزَاءِ عَيْنِي
لِيَ الْهَجَرَ الطَّوِيلَ وَلَا يَزُورُ^(٣)
لِيَهْنِكَ زَاكُ الْقَمَرِ الْمُنِيرُ
عَلَى خَدِّي لَهُ دُرٌّ ثَمِيرُ
لَكَانَتْ مِنْ مَدَامِعِهَا تَدُورُ

فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كَلَمَحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، حَتَّى أَتَشَدَّ فَأَغْرَبَ : [البسيط]
سَأَلْتُهَا حِينَ زَارَتْ نَضُو بَرْقَعِهَا أَلْ
سَقَانِي وَإِيدَاعِ سَمْعِي أَطْيَبَ الْخَبَرِ

(١) ديوانه ص ٨٤ . (٢) البيت في ديوان المتنبي ٣/ ٣٢٤ . (٣) ديوان الواواء الدمشقي ص ٢١٠ .

فَزَحَزَحَتْ شَفَقًا غَشَى سَنَا قَمْرٍ وَسَاقَطَتْ لَوْلُؤًا مِنْ خَاتَمِ عَطْرِ

قوله: «لمح البصر»، يعني نظر العين إلى الشيء بسرعة ثم تغييب عنه بسرعة، وأصل البصر الإدراك بالعين. أغرب: أتى بغريب. نَضُو: كشف. القاني: الأحمر. إيداع سمعي: إعطاء أذني، كأنه جعله وديعة عنده. زحزحت: أزال. الشفق: حمرة الشمس بعد الغروب. غَشَى: غطى. سنا: ضوء. عطر: فَوَاح طَيِّب التنفس. وبيت الحريري في صنعة البديع فائق، وإن لم يأت بعدد تشبيهات بيت أبي الفرج، وبيانه أن أبا الفرج يصف امرأة باكية، فيقول: إنها نثرت دموعها عَلَى مَنْ قَتَلَتْ من عشاقها، فسقطت على خدّها فبلّلته، وعَضَّتْ على أصابعها المصبوغة بالحِجَاءِ بأسنانها، فجعل البيت كُلُّهُ استعارة، فقال: «فأمطرت لَوْلُؤًا»، وهو يريد: بكّت دمعاً، وذكر نرجساً ووردًا، وهو يريد عيناً وخدّاً، وذكر عُثَابًا وَبَرْدًا، وهو يريد أنامل وأسناناً، فضمّن تحت ألفاظه هذه المعاني، وزاد فائدة التشبيه؛ وهذا يفعله أهلُ القدرة على الشعر، فقابل الحريري هذا بقوله: «فزحزحت شفقاً»، وهو يرى نقاباً أحمر، وذكر «سنا قمر» وهو يريد ضوء وجهها، وذكر لَوْلُؤًا من خاتم، وهو يريد كلاماً من فم. والبيت الثاني في مقابلة بيت أبي الفرج، والأول توطئة له، وهو يصف امرأة زارته متنقبة فسألها، أن تكشف عن وجهها وتحذّثه، فأزالت نقابها، وأسمعتَه كلاماً حسناً من فم عطر.

[ما قيل في اللؤلؤ]

واللؤلؤ تشبّه به الأسنان في مثل قوله: [السريع]

* كأنما يبسم عن لؤلؤ^(١) *

وقوله: [البسيط]

* يفتر عن لؤلؤ رطب وعن برّد *

ويشبه به الكلام في مثل قول البحري: [الكامل]

* ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه^(٢) *

(١) عجزه:

منضد أو برّد أو أقاخ

والبيت بلا نسبة في تاج العروس (ظلم).

(٢) صدره:

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها

والبيت في ديوان البحري ص ١٢٣٠، وتاج العروس (سقط)، وكتاب الصناعتين ص ٢٠٨.

وقول الحريري : [البسيط]

* وساقطت لؤلؤاً من خاتم عطر *

ويشبه به الدمع، كقول الواواء : «فأمطرت لؤلؤاً»، وهو كثير.

ومن أحسنه قول الشاعر : [الطويل]

ولمّا وقفنا للوداع ودمعها ودمعي يُثيران الصّبابة والوجدًا
بكت لؤلؤاً رطباً ففاضت مدامعي عقيقاً، وصار الكلّ في نحرها عقداً

وقال ابن عبد ربه : [الكامل]

وكأنما غاص الأسى بجفونها حتى أتاك بلؤلؤ منشور

فأخذه الرمادي فحسّنه فقال : [الطويل]

ولم أرَ أخلّى من تبسم أعين غداة اللوى عن لؤلؤ كان كامناً

قال : فوقعت استعارة التبسم للعين موقعاً لطيفاً، وإنما هو للشعر بسبب توسط اللؤلؤ. والحدائق يتحيلون في أخذ المعاني بترك القافية والوزن، كقول ابن شهيد : [الطويل]

ولمّا فشا من دمعنا بعض سِرنا إلى كاشحينا والقلوب كواتم
أمرنا بإمساك الدُموع جُفُوننا ليشجي بما يطوي عذول ولانم
أبى دمعنا يجري مخافة شامت فنظّمه بين المحاجر ناظم
وراق الهوى مئاً عيون كريمة تلمحن حتى ما تروق المباسم

[ما قيل في الامتحان]

وقال ابن شهيد في الامتحان فأحسن : [الطويل]

ونُبئت أقواماً تجيش صدورهم عليّ وأني منهم فارغ الصّدر
أصاخوا إلى قولي فأسمعت صمهم وغاصوا على سري فأعياهم أمري
فقال فريق : ليس ذا الشعر شُغْرهُ وقال فريق لئمن الله ما نذري
فمن شاء فليخبر فإنني لحاضر ولا شيء أجلي للشكوك من الخبر

وينظر في هذا الامتحان ونسبة شعره فيه إلى الانتحال، إلى قصة أبي بكر بن بقي حين استهدى بعض إخوانه أقلاماً، فبعث إليه بثلاث من القصب، وكتب معها : [البسيط]

خُذْها إليك أبا بكر العلاء قصباً كأنما صاغها الصّواغ من ورقه
يُزهى بها الطرس حسناً ما نشرت به مسك المداد على الكافور من ورقه

فأجابه أبو بكر بن بقيّ فقال : [البسيط]

أرسلت نحوي ثلاثاً من قنّا سلب
ميادة تطعن القِرْطاسَ في ورَقه
فالحظّ ينكرها والخطّ يعرفها
والرقّ يخدمها بالرق في عُقْبه

فحسده عليها بعض مَنْ سمعها، ونسبه إلى الانتحال، فقال أبو بكر يخاطب صاحبه

الأوّل : [البسيط]

وجاهلٍ نسب الدُّغْوَى إلى كَلِمِي
فقلت مِنْ حَنَقِي النِّمّا تعرّضَ لي :
ما ذم شعري وإلّم الله لي قسَم
إلا امرؤ ليست الأشعارُ من طُرُقهِ
الشعر يشهد أنّي في كواكبه
بل الصّباح الذي ينشقّ في أفُقهِ

وخرج السّلامي^(١) إلى الموصل وهو صبيّ حين راهق البلوغ، فوجد بها أبا عثمان الخالديّ وأبا الفرج البَغْءاء وأبا الحسن التّلعفريّ وشيوخ الشعراء، فلما رأوه عجبوا منه، واتّهموه في شعره، فقال الخالديّ: أنا أكفيكم أمره. فاتخذ دعوة، وجمع الشعراء والسّلاميّ معهم، فلما توسّطوا الشراب، أخذ في التفتيش عن قدر بضاعته، ثم لم يلبثوا أن جاء مطرٌ شديد وثلج وبرّد عمّ الأرض كثرة، فألقى أبو عثمان الخالديّ نارنجاً بين أيديهم على ذلك البرّد، وقال: يا أصحابنا، هل لكم في أن نصف ذلك؟ فقال السّلاميّ ارتجالاً: [مجزوء الكامل]

لله درّ الخـالـديّ
أهدى لماء المُرّزّين عنـد
حتّى إذا صَدَرَ العتـا
بعثت إليه بعذره
لا تعذّلوه فإلّما
الأوحد التّذّب الخطير
عد جموده نار السّعير
بإليه من حنق الصّدور
من خاطري أوفى السُرور
أهدى الخدود إلى الثّعور

فأمسكوا عنه عند ذلك، واعترفوا له بالفضل، إلّا التّلعفريّ، فإنه أقام على قوله

فيه، حتى قال السّلاميّ فيه: [الكامل]

يا شاعراً بشعوره لم يشعّر
لو كنت تعرف والدّاً تسمّو به
تاه ابن فائقة الفسوق على النّوّري
وبلادة في الشعر تعلم أنه
ما كنت الأوّل طالب لم يظفر
لم تنتسب صفة إلى تلّعفر
بقنالك صفّعان ونكهة أبخر
تيسّن ولو نصرت بطبع البحتري

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد السّلامي.

وقال فيه : [الوافر]

سَمَا التَّلْعَفْرِي إِلَى وَصَالِي ونَفْسُ الْكَلْبِ تَكْبُرُ عَنْ وَصَالِهِ
يَنَافِي خُلُقَهُ خُلُقِي وَتَأْبَى فَعَالِي أَنْ تَضَافَ إِلَى نَعْبَالِهِ
فَصَنَعَتِي اللَّطِيفَةَ فِي لِسَانِي وَصَنَعَتُهُ الْخَسِيسَةَ فِي قَذَالِهِ
فَإِنْ أَشْعَزَ فَمَا هُوَ مِنْ رَجَالِي وَإِنْ يُضْفَعُ فَمَا أَنَا مِنْ رَجَالِهِ

[صاعد بن الحسن الربيعي]

وكان المنصور بن أبي عامر قد أثبت عنده الحسدة، أن صاعداً اللغوي متهم في كل ما يورده من حديث أو شعر، فأدخلت عليه يوماً باكورةً وزد لم تفتح أكمامها، فقال فيها صاعداً ارتجالاً: [المتقارب]

أَتَتِكَ أَبَا عَامِرٍ وَرَدَّةٌ يَذْكُرُكَ الْمَسْكُ أَنْفَاسَهَا
كَعَذْرَاءٍ أَبْصَرَهَا مَبْصُرٌ فَغَطَّتْ بِأَكْمَامِهَا رَأْسَهَا

فسر بذلك المنصور. وكان ابن العريف حاضراً فحسده وقال: إن هذين البيتين لغيره، [وقد أنشدنيهما بعض البغداديين بمصر لنفسه، وهما عندي على ظهر كتاب بخطه، فقال له المنصور: أرنيه. فخرج ابن العريف، وركب وجعل يبحث، حتى أتى مجلس ابن برد - وكان أحسن أهل وقته بديهة - فوصف له ما جرى فقال: [المتقارب]

عَشَوْتُ إِلَى قَصْرِ عَبَّاسَةٍ وَقَدْ صَرَخَ الثَّوْمُ حِرَّاسَهَا
أَبْيَاتًا ضَمَّنَ فِيهَا الْبَيْتَيْنِ، فَكَتَبَهَا ابْنُ الْعَرِيفِ بِخَطِّ بَصْرِيِّ، وَصَارَ بِهَا إِلَى الْمَنْصُورِ. فَاشْتَدَّ غَيْظُهُ، وَقَالَ: نَغْدَا أَمْتَحَنَهُ، فَإِنْ فَضَحَهُ الْامْتِحَانُ لَمْ يَبْقَ فِي مَوْضِعٍ لِي فِيهِ سُلْطَانٌ ثُمَّ أَخَذَ طَبَقاً فِيهِ ضُرُوبٌ مِنَ الْأَنْوَارِ، وَعَلَيْهِ جَوَارٍ بِاسْمَيْنِ عَلَى بَرَكَةِ مَاءِ حَصْبَاؤِهَا الدَّرِّ وَالْجَوْهَرِ. وَدَعَاهُ فِي مَجْلَسِ حَافِلٍ، وَقَالَ لَهُ: هَذَا طَبَقٌ فِيهِ شَيْءٌ مَا تَوَهَّمْتُ أَنَّهُ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَي مَلِكٍ قَبْلِي، فَصَفَهُ فَقَالَ عَلَى الْبَدِيهَةِ: [الطويل]

أَبَا عَامِرٍ هَلْ غَيْرُ جَدَوَاكَ وَكَفُّ وَأَعْجَبَ مَا يَلْقَاهُ عِنْدَكَ وَاصِفُ!
وَشَائِعُ نَوْرِ صِنَاعِهَا هَامِرُ الْحَيَا حُلِيًّا فَمِنْهَا عَبَقَرٌ وَرِفَارُ
وَلَمَّا تَنَاهَى الْحَسَنُ فِيهَا تَقَابَلَتْ عَلَيْهَا بِأَنْوَاعِ الْمَلَاهِي الْوَصَائِفُ
كَمَثَلِ الظُّبَاءِ الْمَسْتَكْنَةِ كُنُوساً تَظَلَّلُهَا بِالْيَاسَمِينِ السَّقَائِفُ
فَلَمْ تَرْعَيْنِي فِي الْبِلَادِ حَدِيثَةً تَنْقُلُهَا فِي الرَّاحَتَيْنِ الْمَنَاصِفُ

والحكاية لطولها في القسم الرابع من الذخيرة.

وخرج معه إلى أرض الزاهرة، فمد يده إلى شيء من الترنجان يعبث به، ورمى به إلى صاعد معرضاً بأن يصفه، فقلل: [الطويل]

لم أذِرْ قبل ترنجان عِثْت بهِ
من طيبه سَرَقَ الأترج نكهَتَهُ
كأنما الحاجب المنصور علَّمه
مَنْ ليس يقعده عن سُؤدد كرمِ
وله أيضاً: [الوافر]

بعثت إليك من خيري داري
توكُّل بالعكوف على التَّصابي
محزمة كالوان العقيق
وتصطاد الخليع من الطريق

فحار الحاضرون لِبَدَاهَتِهِ، واعترفوا بِتَزَاهَتِهِ. فَلَمَّا آتَسَ استثناسَهُمْ بكلامِهِ،
وانصبَّابُهُمْ إلى شِعْبِ إِكْرَامِهِ، أَطْرَقَ كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ، ثم قال: وَدُونَكُمْ بَيْتَيْنِ آخَرَيْنِ،
وَأُنْشِدْ: [البسيط]

وَأَقْبَلْتُ يَوْمَ جَدِّ الْبَيْنِ فِي حُلَلِ
فَلَاخَ لَيْلٍ عَلَى صُبْحٍ أَقْلَهُمَا
سُودَ تَعَضُّ بِنَانِ النَّادِمِ الْخَصِيرِ
غُضُنْ وَضُرْسَتْ الْبِلُورَ بِالْدَّرَرِ
فَحَيْثُ اسْتَسْنَى الْقَوْمُ قِيَمَتَهُ، وَاسْتَغَزَرُوا دِيَمَتَهُ، وَأَجْمَلُوا عِشْرَتَهُ، وَجَمَلُوا قِشْرَتَهُ

قوله: «لبداهته»، أي لارتجاله وإنشاده من غير فكرة، ويقال: بَدَهه بَذْهًا وبديهة
وبَدَاهَة، إذا فجأه. وبده في كلامه: إذا لم يتفكر فيه، وفلان حسن البديهة والبَدَاهَة، أي
الإرتجال.

[سرعة البديهة وما قيل فيها]

والقول من غير تفكر وهو عندهم مما يمدح به، وإن كانت الإصابة غالباً في الروية
وإطالة الفكرة، كما قال عبد الله بن وهب الراسبي للخوارج حين عقدوا له: دَعُوا الرَّأْيَ
حتى يختمر، فلا خير في الرأي الفطير، والقول القصير.
وقال المنصور لكتابه: لا تبرم أمراً حتى تفكر، فإن فكرة العاقل مرآته تريه حسنه
من قبيحه.

وقال أيضاً: الحكمة نور الفكرة، والصواب فرع الروية، والتدبير فرع الهمة.

قال ابن الرومي: [البسيط]

نَارُ الرُّوْيَةِ نَارٌ جَدَّ مَنْضُجَةٌ وَلِلْبَدِيْهِةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيْجٍ

وقد يفضلها قوم لعاجلها لكنّه عاجل يمضي مع الريح

وقال أشجع في جعفر بن يحيى: [المقارب]

يريدُ الملوّك مدى جعفرٍ ولا يصنعون كما يصنعُ
وليس بأوسعهم في الغنى ولكنّ معروفه أوسعُ
بدهته مثل تفكيره متى تلقه فهو مستجّعُ

وقال فيه: [الوافر]

بديهته وفكرته سواء إذا التبسّت على الناس الأمورُ

وقال إبراهيم بن العباس الصوليّ في الفضل بن سهل: [الكامل]

يقضي الأمور على بديته وتريه فكرته عواقبهُ
فيظلّ يُوردها ويصديرها فلنعم حاضره وغائبهُ

ودخل المأمون يوماً بعض دواوينه، فرأى غلاماً جميل الصورة، على أذنه قلم فقال: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا يا أمير المؤمنين الناشئ في دولتك، والمتقلب في نعمتك، والمؤمل بخدمتك؛ الحسن بن رجاء خادمك. فقال المأمون: أحسنت يا غلام، وبالإحسان في البديهة تفاضلت العقول. ثم أمر أن تُرَفَّع مرتبته في الديوان.

قوله: «بنزاهته» أي برفعته وبعده من التهمة بسرقة الشعر. أنس: أبصر استثناسهم: أنسهم وتركهم الإنكار. طرفة: نظرة، قد طُرفَ طُرفاً، إذا حرَّك جفنيه بعد النظر. دونكم: إغراء، ومعناه خذوا حذرکم واسمعوا. جدّ: تحقّق. البين: الفراق. بنان: أصابع. الحَصِر: المنقطع عن الكلام عيًّا. ليل؛ أراد به نقاباً أسود. صبح: وجه. أقلهما: رفعهما. غصن: قدّ. ضرّست البلور: الأصابع. الدرر: الأسنان.

والظاهر من سياق هذين البيتين أنه قصد أن يزيدهم استثناساً بأنه غير مدّع في الشعر، ودلّ على هذا ظاهر الكلام قبل البيتين وبعدهما، وهو قد أدرج معنى زائداً في البيت ولم يصرح به لما عليه في ذلك من التقصير عن درجة غيره، وذلك أنه لما لم يستوف مقابلة بيت أبي الفرج مرّةً بيتيه المتقدمين، استوفاهما في هذا البيت الثاني، لأنه قابل «أمطرت» بساقت، واللؤلؤ باللؤلؤ، والنرجس بالخاتم، وهما العين والقم، وحمرة الخد بسنا القمر، وبقي عليه زائد من قول أبي الفرج: «وعضت على العنّاب بالبرد» فقابله في هذا البيت بقوله: «وضرّست البلور بالدرر، وجعلها تعضّ على أصابعها وهي بيض، لأنه يصف امرأة شعرت بفراق أحبائها، فتركت الزينة واستعمال الحِجَاء، فلما حان وقت فراقهم، لبست ثياب الحزن، وأقبلت تودّعهم تلهفاً وتندماً على فراقهم، ووصف الأصابع

باللّين والصبيغ، وذلك مذكور في العاشرة، وجعلها لابسة السواد، لأن أهل الشرق يلبسونه لحزنهم، وأهل الأندلس يلبسون البياض لحزنهم، قال الشاعر: [الوافر]

ألا يا أهلَ أندلسٍ فطنتم بلطفكم إلى أمرٍ عجيبٍ
لبستم في مآتمكم بياضاً وجئتم منه في زيٍّ غريبٍ
صدقتم فالبياض لباسُ حزنٍ ولا حزنٌ أشدَّ من المشيبِ

وأشد أبو عثمان الأشنانداني في أبيات المعاني له: [السيط]

أرعت مراتع مدرها على عجلٍ صنوين إن أفردا لم يرعياً أبداً
واستبدلت من رياض الحزن مونقةً ثوبَ الأمير الذي في مُلكه قعداً

عنى بمراتع مدرها شغرها، وبصنوين مقصّ حلقته به، وبرياض الحزن ثياباً ملوّنة، وبثوب الأمير ثوباً أسود، لأن ملوك بني العباس لباسهم السواد وعارض ابن لبّال الحريري في أبياته فقال: [مجزوء الكامل]

ودعّثها ومدامعي تنهلّ بالدّمع الطليقي
فبكث فأذرت أدمعاً في صفحة الخدّ الأنيقي
ومضت تعضّ بنائها بين التلهّف والشهيق
ورأيت مبيضّ اللجج حين يعضّ محمراً العقيق

وكما عارض بيت الحريري عارض قول البحرّي المتقدم: [السريع]

يا بأبى ظبيّ إذا مارنا أثخن قلبي وفؤادي جراح
يفترّ عن طلعٍ وعن جوهريّ وفنّضة أو حبيبٍ أو أقاح
فزاد عليه بوصفين.

[مما قيل في الفراق]

ومما يناظر ما تقدّم من البكاء عند الفراق قول محمد بن يوسف: [الكامل]

وكأنما أثر الدموع بخدها طلّ تساقط فوق وزد يانح
عذب الفراق لنا قبيلَ وداعنا ثم اجترعناه كسُمّ نافع

وقال ابن الرومي: [المنسرح]

لو كنت يوم الوداع شاهداً وهنّ يطفئن غلّة الوجد
لم ترّ إلا دموع باكية تسفح من مُقلّة على خد
كان تلك الدموع قطرُ ندَى يقطر من نرجسٍ على وزد

وقال النّاشي : [المتقارب]

بكَيْثُ الْفِرَاقِ وَقَدْ رَاعَنِي بكاءُ الحبيب لبعد الدياز
كَأَنَّ الدَّمْعَ عَلَى خَدِّهَا بَقِيَّةُ طُلٍّ عَلَى جُلْنَاز

وقال أبو نواس : [الطويل]

تَقُولُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِحْدَى نَسَائِهِمْ لِي الْكِبْدُ الْحَرَّى فِيسْ وَلَكَ الصَّبْرُ^(١)
وَقَدْ غَلَبَتْهَا عَبْرَةٌ فِدْمَوْعُهَا عَلَى خَدِّهَا جَمْرٌ وَفِي نَحْرِهَا صَفْرٌ

يقول : لون خدّها أحمر، فتشكّلت الدمعة به جمراً، ولون نحرها أصفر عاجي كما قال ذو الرمة : [البسيط]

كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبٌ فَصَارَ فِيهَا لِلْوَنِ الدَّمْعُ صُفْرَتُهُ

وقيل للعباس بن محمد : ما لونُ الماء؟ فقال : لون إنائه .

ولمّا ذكر الحريريّ الحلل السود على الجارية، تذكّرت ما قال أبو عثمان الناجم في جارية رأى عليها ثوباً أزرق : [الخفيف]

مَا تَعَدَّتْ قَبُولُ حَيْنَ جَلَتْ زَيْدُ مَا شَبِيهَا بِوَجْهِهَا ذِي الضِّيَاءِ
لَبَسَتْ أَزْرَقاً فَجَاءَتْ بِوَجْهِ يَشْبَهُ الْبَذْرَ فِي أَدِيمِ السَّمَاءِ

ولأبي حفص بن برد في غلام بدا له في ثوب لازورديّ، فقال : [مجزوء الكامل]

لَمَّا بَدَا فِي لَازور دِي الْحَرِيرِ وَقَدْ بَهَزَ
كَبُرَتْ مِنْ فَرَطِ الْجَمَا لِ وَقُلْتُ مَا هَذَا بَشَرُ
فَأَجَابَنِي لَا تَنْكَرُنْ ثَوْبَ السَّمَاءِ عَلَى الْقَمَرِ

وقال ابن المعتزّ في غلام عليه ديباج بنفسجيّ : [مجزوء الكامل]

وَبِنَفْسَجِيّ الثَّوْبِ قَتَ لَ مُحِبِّهِ مِنْ حَالِهِ
الآن صرّت الببدر إذ أَلْبَسْتُ ثَوْبَ جَمَالِهِ

قوله : «استسنى»، أي استعظم، وقد سنّ الرجل، وسنا : شرف وعظم . ديمته : كلامه بالشعر وهو دائم غير منقطع، أو يريد بها فطنته التي تمده بما شاء من الشعر، وأصل الديمة المطر الدائم . واستغزروها : استكثروها ووجدوها غزيرة أجملوا عشرته، أي أحسنوا صحبته وعاشروه بالجميل . جمّلوا قشرته، أي حسّنها، من لفظ الجمال، أو يكون معناه : جمّلوا من جمّلت الحساب وأجمّلته، أي جمّعته، فكانهم جمعوا له شيئاً

(١) البيت في ديوان أبي نواس ص ٨.

وكسوه . وقشرته : ثوبه ، لأنه قدّم أن هيئته كانت رثّة ، فاحتاجوا أن يكسوه .

قال المخبرُ بهذه الحكاية : فَلَمَّا رَأَيْتُ تَلْهَبَ جَذْوَتِهِ ، وَتَأَلَّقَ جُلُوتِهِ ، أَمَعَنْتُ النَّظَرَ فِي تَوَسُّمِهِ ، وَسَرَّحْتُ الطَّرْفَ فِي مِيسَمِهِ ، فَإِذَا هُوَ شَيْخُنَا السَّرُوجِيّ ، وَقَدْ أَقْمَرَ لَيْلَهُ الدَّجُوجِيّ ، فَهَنَأْتُ نَفْسِي بِمَوْرِدِهِ ، وَابْتَدَرْتُ اسْتِلاَمَ يَدِهِ ، وَقُلْتُ لَهُ : مَا الَّذِي أَحَالَ صِفَتَكَ ، حَتَّى جَهِلْتُ مَعْرِفَتَكَ ، وَأَيُّ شَيْءٍ شَيَّبَ لِحْيَتَكَ ، حَتَّى أَنْكَرْتُ حَلِيَّتَكَ ! فَأَنْشَأُ يَقُولُ : [المجنث]

وَقَعُ الشَّوَائِبِ شَيْبٌ	وَالدَّهْرُ بِالنَّاسِ قُلُوبٌ
إِنْ ذَاكَ يَوْمًا لِشَخْصٍ	فَفِي غَدٍ يَتَغَلَّبُ
فَلَا تَثِقْ بِوَمِيضٍ	مِنْ بَرْقِهِ فَهُوَ خَلْبٌ
وَاضْبِزْ إِذَا هُوَ أَضْرَى	بِكَ الْخُطُوبِ وَالْأَلْبِ
فَمَا عَلَى الثُّبْرِ عَارٌ	فِي النَّارِ حِينَ يُقْلَبُ

ثُمَّ نَهَضَ مُفَارِقًا مَوْضِعَهُ ، وَمُسْتَضْجِبًا الْقُلُوبَ مَعَهُ

تلتهب جذوته : اشتعال جمرته واتفادها ؛ وأراد حدة ذهنه ، والجذوة : النار في طَرْفِ العود . تألّق : لمعان . جُلُوته : ما جلاه وكشفه من وجهه ، وتقول : جلوت العروس جُلُوة ، إذا أزلت نقابها ، وأظهرت وجهها ، والجُلُوة بالكسر : هيئة جلوة حين يجلى ، وأراد بتألّق جلوته بريق وجهه . أمعنت : بالغت وأدمنت النظر ، وأصله من أمعن في الأرض إذا أبعد الذهاب فيها . توسمه : نظر سماته ، وهي علامته التي يُعرف بها ، ويريد أنه أدام النظر في نعوته . سرّحت الطَّرْفَ : أرسلت العين بالنظر ، وأصل الطرف تحرّك العين عند النَّظَر ، تقول : طرفت العين طرفاً . والعين : الجارحة ، والبَصَرُ : ما تدركه بنظرها ، ثُمَّ سُمِّيت العين طرفاً لذلك . وميسمه : علامته . أقمر : ابيضّ ، فصار مثل لون القمر . الدَّجُوجِيّ : الشديد السواد ، وأراد نبات شعره الأسود .

قوله : «بمورده» ، أي بقدمه وإتيانه ، تقول : وَرَدَ عَلَيْنَا فُلَانٌ ، إِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ مِنْ بَلَدٍ آخَرَ ، وَالْمُورِدُ : مُصْدِرُ وَرْدٍ ، وَهُوَ بِمَعْنَى الْوُرُودِ ، لِأَنَّهُ قَدَّمَ أَنَّهُ غَابَ عَنْهُ مَدَّةٌ لَا يَعْرِفُ لَهُ مَوْضِعًا ، وَلَا يَجِدُ عَنْهُ مَخْبِرًا ؛ حَيْثُ قَالَ : «وَاسْتَتَرَ عَنِّي حِينًا» ، فَلَمَّا رَأَاهُ بَبْلَدِهِ بِالْبَصْرَةِ فَرِحَ بِقَدُومِهِ وَهَنَأَ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ .

استلام : تقبل اليد . ابن الأنباري : استلم الحجر ، معناه أخذه ومسّه بيده ، واستلم ، افتعل ، من المسالمة . يريد أخذ الحجر وضّمّه إليه ، أو يكون استفعل ، من اللأمة وهي

السلاح، يريد أنه حصّن نفسه بمسّ الحجر من العذاب، لأن السلاح إنما يلبس ليُمتنع به ويتحصّن. أحال: غير. حليتك: صفتك، ولذلك احتاج أن يمعن النظر لمّا تغيّرت صفاته التي كان يعرفه بها من الفتوة والشبيبة، فلما رآه قد شاب شعره، وتغيّرت صفاته لم يعرفه إلا بعد طول تأمل. وقال الحلواني القيرواني: [الكامل]

ولربّ باكيةٍ رأت في لِمَتِي وَخَزَ المشيب تَأَلَّقَتْ ضَحِكَائُهُ
قالت: أغضناً قد علاه فلا أرى زهر الرِّياض ونوّرت ورقائُهُ
فأجبتها: قارعَتْ في جَنِبِ الهوى صرف الزُّمان، وهذه نكبائُهُ

ولاين الجد: [الكامل]

نَكَرَتْ نُحُولِي وهو من فَرَطِ الأَسَى لفراقِ إخوانِ عليّ كرامِ
وتعجّبت للشَّيب لا تتعجّبي هذا غبار وقائع الأَيامِ

قوله: «فأنشأ يقول» أي ابتداءً، وأنشدوا: [مجزوء الكامل]

أنشأت تطلب ما تَغَيَّرَ رَقَدَتْناشبت الأظافر

أي ابتدأت تطلب. الشوائب، أصله ما يقع في الماء الصافي من الأَقْداء فيكدره، فأراد أن أنكاد الدهر شَيْبَةً. وَقَلَبَ: كثير التقلّب، فيحوّل من حال إلى حال. دان: طاع وانقاد. يتقلّب: يتحوّل عن الطاعة. وميض: لمع خفيّ. خُلِبَ: خداع، لا ماء فيه، وأراد: لا تثق بالدهر، إذا ما كسبت فيه شيئاً من المال فإنه يحوّل عنك ولا يترك لك منه شيئاً. أضرى: أغرى وألصقها بك، وأصل «أضرى» من ضراوة الكلب، تقول ضَرَيْ الكلب بالصيد؛ إذا تعلّم الصيد، وأضرته أنا بمعنى عرّضته للصيد. والخطوب: الأمور الشداد. وألب: حشد، أي اصبر للشدائد إذا أضرها الدهر بك وحشدها، فما عليك في ذلك عيب، كما أن الذهب يُسَبِّك بالنار وهو مع ذلك عزيز القدر. والتبر: الذهب قبل سبكه، وانظر هذا المعنى عند قوله في السابعة والأربعين: [البسيط]

وطالَمَا أَضْلَيْ الياقوت جمرَ غَضَى ثم انطفأ الجمرُ والياقوتُ ياقوتُ

وزاد الآخر في المعنى فقال: [البسيط]

إني أنا الذَّهَبُ المُحَمَّى ومخبِرُهُ يزيد في السُّبُك للدينارِ ديناراً

وأنشدوا: [الكامل]

اضبرْ على نُوبِ الزُّمّا ن فهكَذَا مضت الدُّهورُ
فَرَحْ وَخُزْنُ تِمارَةٍ لا الحزن دَامَ ولا السُّرورُ

المقامة الثالثة

وهي الدينارية

رَوَى الحارثُ بنَ هَمَّامٍ قالَ: نَظَمَني وأخذاناً لي نادٍ، لَمْ يَخِبْ فِيهِ مَنادٍ، ولا
كَباً قَذَحُ زنادٍ، ولا ذَكَّتْ نارُ عِنادٍ؛ فَبَيَّنَّا نَحْنُ نتجاذِبُ أَطرافَ الأناشيدِ، ونتواردُ
طُرَفَ الأسانيدِ، إذ وقف بنا شَخْصٌ عَلَيْهِ سَمَلٌ، وفي مِشْيَتِهِ قَزَلٌ.

نَظَمَني، أي جمعني. أخذانا؛ أي أصحاباً. نادٍ: مجلس. منادٍ: متكلم. كبا: شخ
ولم يبد ناراً. قَذَحَ: ضرب. زناد: حديدة النار، وزناد العرب من خشب، وأكثر ما يكون
من المِزخ والعَفار؛ وإنما هو أن يُؤخذ عود قدر شبر، فيثقب في وسطه ثقب لا ينفذ،
ويؤخذ عود آخر قدر ذراع، فيحدّ طرفه، ويُجعل ذلك في الثقب، وقد وضعه رجلٌ بين
رجليه، فيُدِيره ويفتلّه، فيبيدي النار، فالأعلى زَنْد والسفلى زَنْدَة، والزناد جمع زند.
قوله: «ذَكَّتْ»، أي اشتعلت. عناد: خلاف، يريد أن هؤلاء الأصحاب لحسن أدبهم
ومناظرتهم ليس بينهم خلاف، وهم علماء لا يسقط من كلامهم شيء، وليس فيهم
جاهل، فيكون كلامه قليل الإصابة. والأناشيد: ما يتناشدونه من الأشعار بينهم، كأن
واحدًا أنشودة. وتجادب أطرافها، يريد المشاركة في إنشادها، أي إذا أنشد أحدهم
شعراً ليُغرب به شاركوه في إنشاده لحفظهم الأشعار، فكانهم تجاذبوه كما يُتجادب
بأطراف الثوب. والأسانيد: الأخبار المسندة إلى أهلها. وأصل التوارد، مزاحمة الإبل
على شرب الماء، فجعل مشاركتهم في ضبط غرائب الأخبار كتوارد الإبل على الماء،
والطُرَف: الغرائب، والطرفة: الشيء العجيب من كل شيء، الذي لا يوجد له نظير.
سَمَلٌ: ثوب خَلَقَ، وأكثر ما تقول العرب: ثوب أسمال وأخلاق، فيوصف بالجمع لأنه
قُطِعَ متفرقة. وسَمَلٌ: قليل، وفي تبذل اللباس روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي
ﷺ: «إن الله يحب المتبذل لا يبالى بما لبس». قَزَلٌ: عرج.

فقال: يا أخايرَ الدَّخائِرِ، وبشائرَ العِشائِرِ، عموا صباحاً، وأنعموا اضطباحاً،
وأنظروا إلى مَنْ كانَ ذا نَدْيٍ وَنَدَى، وَجِدَةٍ وَجَدًا، وَعَقَارٍ وَقَرَى، وَمَقَارٍ وَقَرَى،
فَمَا زالَ به قُطوبُ الخُطوبِ، وخُروبُ الكُروبِ، وشَرَرُ شرِّ الحَسودِ، وانتياب

الثَّوْبِ السُّودِ، حَتَّى صَفِرَتِ الرَّاحَةُ، وَقَرِعَتِ السَّاحَةُ، وَغَارَ الْمَنْبُعُ، وَنَبَا الْمَرْبُعُ، وَأَقْوَى الْمَجْمَعُ، وَأَقْضَى الْمَضْجَعُ، وَاسْتَحَالَتْ الْحَالُ، وَأَعْوَلَ الْعِيَالُ، وَخَلَّتِ الْمَرَابِطُ، وَرَجِمَ الْعَابِطُ، وَأَوْدَى النَّاطِقُ وَالصَّامِتُ، وَرَثَى لَنَا الْحَاسِدُ وَالشَّامِتُ.

قوله: «يا أخاير الذخائر»، الأخاير: جمع أخير، كما يقال: أكبر وأكابر، والمستعمل خير وشر، ولا يقال: أخير ولا أشر إلا شاذاً، وإن كان هو الأصل، لكنه رفض استعماله وجاء الجمع على الأصل، لأنه يرذ الشيء إلى أصله وقال رؤبة: [الرجز]

* بلال خير الناس وابن أخير^(١) *

فنطق بالمستعمل لشهرته، وبأصله وهو قليل، فإذا تعجبوا من ذلك قالوا: ما أخير فلاناً، وما أشر فلاناً. والذخائر: جمع ذخيرة؛ وهي الشيء النفيس الغالي يصونه الإنسان ويعتدّه لزمانه. البشائر: جمع بشارة، وقد بشرت الرجل بشارة إذا أدخلت عليه السرور. والعشائر: جمع عشيرة، وهي قرابة الرجل من قبيلته، يقول: أنتم أرفع الذخائر، وخيرها، وأنتم يستبشر من لقيكم برؤيتكم، ويتيامن بلفائكم، ويعلم أنكم تصلونه وتكرمونه؛ ليستعطفهم بهذا الكلام. عموا صباحاً: دعاء لهم بالنعمة في الصباح، أي جعلكم الله تنعمون في صباحكم. وعموا: أمر من وعم يعم، وهي في معنى نعم ينعم. وأنعموا اصطباحاً، أي طاب شربكم في الصُّباح وتنعمتم به، والاصطباح: أن يُصْبِحُوا وهم يشربون. نديّ: مجلس اجتماع، أي هو شريف يُقعد ويجتمع عنده. ندى: كرم. جدى: عطية. العقار: المال الذي لا ينتقل كالنخل والدَّور والأرضين. قرى: جمع قرية. مقار: جفان يُقرى فيها الأضياف، أي يطعمون فيها. والقرى: طعام الضيف. قُطوب. عبوس. الخطوب: الشدائد. الحروب: القتال. الكروب: الهموم، قال النبي ﷺ: «مما أعلم أنه لا يقوله مكروب إلا فرَّج الله عنه، كلمة أخى يونس: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ...﴾ [الأنبياء: ٨٧] الآية».

ومن كلام ابن المعتز: الحوادث المحضة مكسبة لحظوظ جزيلة، وثواب مدخر، وتطهير من ذنب، وتنبيه من غفلة، وتعريف بقدر النعمة، ومرور على مقارعة الدهر، وإذا استرجع الله مواهب الدنيا كانت مواهب الآخرة.

غيره: لولا حوادث الأيام، لم يعرف صبر الكرام، ولا جزع اللثام.

وقال أبو تمام: [الكامل]

(١) الرجز بلا نسبة في الدرر ٢٦٥/٦، وشرح التصريح ١٠١/٢، وشرح عمدة الحافظ ص ٧٧٠، وجمع الهوامع ١٦٦/٢.

والحادثات وإن أصابك بُؤْسُهَا فهو الذي أنْبَاكَ كَيْفَ نَعِيمُهَا^(١)

الحسود: المتمتني إهلاك مالك، وإذا رأى لك خيراً تمتنى إزالته، يريد أن الحسود اتبع ماله بالعين حتى أهلكه، وقلماً يُوجد الذي يرمي بالعين إلا حسوداً. انتياب: نزول وقصود. الثَّوب: النوازل. قوله، «صفرت»، أي خلت من الدراهم الراحة: باطن الكف. قرعت: خلت من المال وصارت قرعاء. والساحة: فناء الدار، والساحة عند العرب: الرَّحْبَةُ التي تُحَلَّقُ بها البيوت، وأراد أنها خلت من الإبل والبقر والغنم وغير ذلك. غار المنبع: جفَّ الماء النابع، والمنبع: موضع النَّبْع. المربع: المنزل في الربيع. ونبا: بأهله: وجد نبوة، أي ارتفاعاً غير وطىء فلم تمكن الإقامة فيه. أقوى: خلا. المجمع: موضع الاجتماع. أقض: خَشُن وصار فيه القَضَض، وهي الحجارة. والمضجع: موضع رقاذه، وأخذه من قول أبي ذؤيب: [الكامل]

أَمْ مَا لَجَنِبَكَ لَا يَلَاثِمُ مَضْجَعاً إِلَّا أَقْضُ عَلَيْهِ ذَاكَ الْمَضْجَعُ^(٢)

وكنى بهذه الألفاظ عن تغيّر الأحوال وذهاب الملل.

وساق الكلام مساق حكايات الأعراب؛ منها أن أعرابياً وقف بقوم، فقال: أشكو إليكم أيُّها الملاً زماناً أناخ عليّ بكلِّكـله بعد نعمة من البال، وثروة من المال، وغبطة من الحال، أضْمَانِي جديدها بنَّبل مصائبه، عن قِسيّ نوائبه، فما ترك لي رغبة أجتدي ضَرْعَهَا، ولا ثاغية أَرْتَجِي نفعها، فهل فيكم من معين على صرفه، أو مُغْدٍ على حتفه!

وقد ذكرنا منها جملة في الثالثة والثلاثين. وحكى أبو عليّ في نوادره حكاية عن أبي زيد اللغويّ على لسان أعرابيّ يشبه كلام الحريريّ هنا في سياقه وكثير من الألفاظ، فيقول: إنّ المنبع الذي كنا نعيش به نحن وأموالنا قد ذهب، فهلكنا بذهابه. والمربع: وهو موضع الخَضْب، صار نبوة لا ينبت شيئاً، فلم تجد الإبل ما ترعاه فهلكت، وإذا هلك المال هلك صاحبه، والمجالس التي كنا نجتمع فيها، هلك أهلها فخلّت، ومضجعنا الذي كان موطأً بالفرش أقض فامتنع من الإضجاع عليه.

قوله: «استحالت، تغيّرت». وحال الرجل: ما هو عليه من خير أو شرّ أو غنى أو فقر، والحال أيضاً: المال. أعول: بكى، وعيال الرّجل: من يفتقر إليه في مؤنته ونفقته، واحدهم عيّل. المرابط: المواضع التي تربط فيها الخيل وتُخَبَس. الغابط: الذي يتمنى مثل مالك ولا ينقص منه شيء. أودى: هلك. الناطق: المال من الحيوان مثل الإبل والبقر والغنم، وكلّ ما يُتملّك من ذي روح؛ سميت بذلك لأصواتها، والناطق كل حيوان

(١) البيت في ديوان أبي تمام ص ٣١٠.

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذليّ في شرح أشعار الهذليين ص ٥، ولسان العرب (قضض)، ومقاييس اللغة ١٢/٥، وكتاب العين ٩/٥، وتهذيب اللغة ٢٥١/٨، وتاج العروس (قضض).

له صوت . والصامت : الذهب والفضة والمتاع . رثى : بكى . وأشفق الشامت : الذي يُسرّ بمصيبتك ، ومنه تسميت العاطس ، وهو إدخال السرور عليه بالدعاء ، وقد شمت به شماتاً وشماتة ، فهو شامت إذا سرّ ببلاء ينزل به . والحاسد ، هو الحسود .

[الحسد وما قيل فيه]

والحسد أول ذنب عُصِيَ الله به في السماء والأرض ، أما في السماء فحسد إبليس آدم ، وأما في الأرض فحسد قابيل هابيل .

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا أَرْنَا اللَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ [فصلت : ٢٩] : إنهما قابيل وإبليس ، فالحسد حمل إبليس على الكفر ، وحمل قابيل على قتل أخيه .

وقال عليّ رضي الله عنه : لا راحة لحسود ، ولا أخ لملول ، ولا محبّ لسئىء الخلق . وقال رجل لخالد بن صفوان : إني أحبك ، قال : وما يمنعك ، ولست لك بجارٍ ولا أخٍ ولا ابن عمٍّ ! يريد أن الحسد موكل بالأذنين .

الحسن البصريّ : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلومٍ من حاسد بنفسٍ دائم ، وحزن لازم ، وغيرة لا تنفد .

معاوية : كلّ الناس أقدر على أن أَرْضِيَهُمْ إلّا حاسد نعمة ، فإنه لا يرضيه إلّا زوالها . المبرّد : حدثنا الزياتي ، قال : يقال : ستة لا تخطئهم الكآبة : فقير حديث عهد بغنى ، ومُكثِّرٌ يخاف على ماله التلف ، والحسود ، والحقود ، وطالب مرتبة فوق قدره ، وخليط أهل الأدب وليس منهم .

قال الأصمعيّ : اجتمع ثلاثة حسّاد ، فقال أحدهم لصاحبه : ما بلغ من حسدك؟ قال : ما انتهيت أن يُفعل بمسلم خيرٌ قطّ ، فقال الثاني : أنت رجل صالح ، ولكني ما انتهيت أن يُفعل بي خير قطّ ، فقال الثالث : ما في الأرض خير منكما ، ولكني ما انتهيت أن يُفعل أحد بأحد خيراً قطّ .

قال : وأنشد الشاعر : [البسيط]

كلّ العداوة قد تُرْجَى مودّتها إلّا عداوة مَنْ عاداك مِنْ حَسَدٍ

وقال حبيب : [الكامل]

وإذا أرادَ الله نشرَ قُضِيْلَةٍ طُوِيَتْ أُنَاحَ لَهَا لِسَانُ حَسُودٍ^(١)

(١) البيتان في ديوان أبي تمام ص ٨٥ .

ما كان يُعْرِفُ طِيبَ عَرْفِ الْعُودِ

لولا اشتعال النَّارِ فيما جاورث

وقال القاضي ابن عمر : [المتقارب]

وَعَزَّ مَكَانِي فَمَا أَظْلَمُ
بنور مآثرنا مظلم
يعذب بي ثم لا يُرَحِّمُ
يقول ولكن كما يعلم

نَهَانِي جِلْمِي فَمَا أَظْلَمُ
ولا بد من حاسدٍ قلبه
رحمت حُسُودي على أنه
أنا الحسود ولسنا كما
وقال اليماني : [الكامل]

ضَمَّتْ صدورهم من الأُزْغَارِ
في جنة وقلوبهم في نارٍ
فكأنما برقعتهابنهارٍ

إني لأرحم حاسدي لفرط ما
نظروا صنيع الله بي فعيونهم
لا ذنب لي قد رُمْتُ كَثَمَ فواضلي

قوله : «رثى لنا الحاسد والشامت» : قال النبي ﷺ : «أرحموا ثلاثاً : غني قوم افتقر، وعزيز قوم ذل، وفقيرها يلعب به الجهال» .

قال الشافعي : خمسة مرحومون : عزيز ذل، وغني فل، وحبيب مل، وفصيح كل، وفقير ضل.

وقال الشافعي : ومن حديث واثلة، قال رسول الله ﷺ : «لا تظهر الشماتة بأخيك، فيعافيه الله ويبتليك»^(١)، وأخذته الحريري من قول الآخر : [السريع]

ومُقْلَةٌ إنسانها باهت
بالنار إلا أنه ساكت
إلا وفيه سقم ثابت
يا ويح من يرثي له الشامت!

لم يبق إلا نفس خافت
ومغرم تُوقد أحشاؤه
رق فما في جسمه مفصل
يرثي له الشامت مما به

وَأَلْ بَنَّا الدَّهْرُ الْمَوْقِعُ، وَالْفَقْرُ الْمُدْقِعُ، إِلَى أَنْ اخْتَدَيْنَا الْوَجَى، وَاعْتَدَيْنَا الشَّجَا، وَاسْتَبَطْنَا الْجَوَى، وَطَوَيْنَا الْأَخْشَاءَ عَلَى الطَّوَى، وَاکْتَحَلْنَا السُّهَادَ، وَاسْتَوَطْنَا الْوَهَادَ، وَاسْتَوَطْنَا الْقَتَادَ، وَتَنَاسَيْنَا الْأَقْتَادَ، وَاسْتَبَطْنَا الْحَيْنَ الْمَجْتَاخَ، وَاسْتَبَطْنَا الْيَوْمَ الْمُتَاخَ، فَهَلْ مِنْ حُرٍّ آسٍ، أَوْ سَمَحٍ مُوَاسٍ! فوالذي اسْتَخَرَجَنِي مِنْ قَبْلَةٍ، لَقَدْ أَمْسَيْتُ أَخَا عَيْلَةٍ، لَا أَمْلِكُ بَيْتَ لَيْلَةٍ.

(١) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٥٤.

قال الحارث بن همام: فَأَوَيْتُ لِمَفَاقِرِهِ، وَلَوَيْتُ إِلَى اسْتِنْبَاطِ فَقَرِهِ، فَأَبْرَزْتُ دِينَاراً، وَقُلْتُ لَهُ اخْتَبَاراً: إِنَّ مَدَخَتَهُ نَظْماً، فَهُوَ لَكَ حَتْمًا، فَانْبِرَى يُنْشِدُ فِي الْحَالِ، مِنْ غَيْرِ انْتِحَالٍ.

قوله: «آل بنا» أي رجع بنا، وقد آل يئيل ويؤول، أي رجع. الموقع: المهلك، من أوقع به، ويحتمل أن يريد بالموقع الذي يحمله على الوقوع، ورجل موقع إذا اشتكى ألم رجليه. المدقع: الملتصق بالدقعاء، أي التراب، أي لم يترك للإنسان شيئاً يبسطه غير التراب. احتذينا: انتعلنا. الوجى: توجع باطن القدمين من الحفا، يريد أنه ليس مكان النعال الحفا حتى توجعت قدماء. الشجى: ما يعرض في الحلق، وكنى بهذا عن سوء الحال، لأن الشجى ليس بغذاء إنما هو مشقة وتعب. ولكن بالغ في وصف سوء حاله، فقال: إنه يَنْتَعِل ما لا يَنْتَعِل، ويغتذى ما ليس بغذاء، أي ليس ثم انتعال ولا غذاء. استبطنا، أي جعلناه في بطوننا. الجوى: فساد الجوف. والأحشاء: ما في الجوف وما حشي به. الطوى: الجوع، وقد طوي يَطْوِي؛ لأن الأحشاء إذا امتلأت من الطعام انتشرت، وإذا فرغت منه انطوى بعضها على بعض. والشهاد: امتناع النوم، من قول الشاعر: [الرميل]

مَا لِعَيْنِي كُجِلْتُ بِالسُّهَادِ وَلِجَنبِي نَابِيَا عَنْ وَسَادِي

استوطنا: سكنا واتخذناه وطناً. الوهاد: ما انخفض من الأرض. استوطنا: وجدناه وطناً. القتاد: شجر له شوك شديد يسمى عندنا جنض الأمير. الأقتاد: خشب الرّحال، يريد أنهم نسوا ركوب المطايا لبعدهم عنها ورجعوا الآن يمشون على الشوك فيجدونه وطناً. الحين: الموت. المجتاح: من لفظ الجوائح، يريد به المستأصل للأموال. استبطنا: وجدناه بطيء المجيء. المتاح: المقدّر، يريد أن يوم موتهم تمتّوه لشدة ما قاسوا، وأبطأ عليهم. آس: طبيب يطبّ علة الفقر والجمع الأساة. سمح: كريم. والمواسي: المعين. وذكر عاصم في شرح قوله: «يواسي في كريبته أخاه»، أن معناه، جعله أسوة نفسه، فمواسٍ من الأسوة، كأنه يشاركه في ماله. ويقال: آسيته، والأصل الهمز.

المفصل: معنى فلان يواسي فلاناً، يشاركه، والمواساة المشاركة، وآساه: شاركه فيما هو فيه.

مؤرّج: ما يواسيه، أي ما يصيبه بخير أصلاً.

غيره: معناه يعوّضه من مودته وقرابته شيئاً، من الأوس وهو العوض، قال الشاعر:

[مجزوء الكامل]

فَلَا زِمَيْكَ مِشَقَّصًا أَوْ سَأَ أُونِسُ مِنَ الْهَبَالَةِ^(١)

والهبالة : اسم ناقة، أي أرميك بسهم يكون عَوْضًا عن الناقة. وكان أصله يؤاوسه، فقدموا السين وهي لام الفعل، وأخروا الواو وهي عينه، فصار «يؤاوسه» فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، فهو من المقلوب، وإن جعلته من أسوت الجرح، إذا أصلحته فلا قلب فيه.

قوله : «فوالذي استخرجني من قبلة»، قبلة هي أم الأوس والخزرج، وهي بنت الأرقم الغسانية، وانتسابه لها كانتسابه قبل إلى أقيال غسان. أخا عيلة : صاحب فقر، قال تعالى : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ [التوبة : ٢٨]، أي فقراً، وقال ﷺ : «أعوذ بك من القسوة والغفلة والعيلة والمسكنة». بيت ليلة : قوت يبيت عليه ليلة.

أويت : أشفقت وحننت. مفقره : جمع فقر على غير قياس - ومثله مذاكير الرجل جمع ذَكَر : محاسنه ومساويه. لويت : انعطفت. استنباط : استخراج الْفَقْر في النثر : فواصله، وهي مثل القوافي في النظم، والْفَقْر : ما تقدّم في المقامة من الكلام الْمَقْفَر. أبرزت : أظهرت. حتماً : واجباً، يريد أنه قصد إلى أن يحقق ما تقدّم من الفصاحة في فقره إن كانت له أو انتحلها، فقال ليختبره : امتدح هذا الدينار بشعر. فانبرى، أي اعترض وتقدّم. انتحال : ادّعاء منه في شعر غيره، يقال : انتحل كذا، أي ألزمه نفسه، وجعله كالملك، من النحلة، وهي الهبة والعطية. [الرجز]

أَكْرِمَ بِهِ أَضْفَرَ رَأَقَتْ صُفْرَتُهُ	جَوَابَ أَفَاقٍ تَرَامَتْ سَفْرَتُهُ
مَأْثُورَةٌ سُمِعَتْهُ وَشَهْرَتُهُ	قَدْ أُوْدِعَتْ سِرًّا الْغِنَى أَسْرَتُهُ
وَقَارَنْتُ نَجَجَ الْمَسَاعِي خَطَرَتُهُ	وَحُبِّبْتُ إِلَى الْأَتَامِ غُرَّتُهُ
كَأَنَّمَا مِنَ الْقُلُوبِ نُفَرَّتُهُ	بِهِ يَصُولُ مَنْ حَوَتْهُ صُرَّتُهُ
وَإِنْ تَفَانَتْ أَوْ تَوَانَتْ عِثْرَتُهُ	يَا حَبِّدًا نُضَارُهُ وَنُفَرَّتُهُ
وَحَبِّدًا مَغْنَأَتُهُ وَنُضْرَتُهُ	كَمْ أَمْرٍ بِهِ اسْتَتَبْتُ إِمْرَتُهُ
وَمُتَرَفٍ لَوْلَاهُ دَامَتْ حَسْرَتُهُ	وَجَيْشٍ هَمُّ هَزَمَتْهُ كَرَّتُهُ
وَبَذَرٍ تَمَّ أَنْزَلَتْهُ بَذَرَتُهُ	وَمُسْتَشْيِطٍ تَلَطَّى جَمْرَتُهُ
أَسْرًا نَجْوَاهُ فَلَانَتْ شِرَّتُهُ	وَكَمْ أَسِيرٍ أَسْلَمَتْهُ أَسْرَتُهُ

(١) البيت لأسماء بن خارجة في لسان العرب (حشاً)، (أوس)، (هيل)، وتاج العروس (حشاً)، (هيل)، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ١٣٨/٥، ٣٠٧/٦، ١٣٨/١٣، ومقاييس اللغة ٦٥/٢، وديوان الأدب ٣٨٦/١، والمخصص ٦٦/٨، ويروى «فلا حشأنك» بدل «فلا زيميك».

أَنَقَذَهُ حَتَّى صَفَّتْ مَسَرَّتَهُ وَحَقَّ مَوْلَى أَبْدَعَتْهُ فِطْرَتَهُ
* لَوْلَا الثَّقَى لَقُلْتُ جَلْتُ قُدْرَتَهُ *

قوله: «أَكْرِمَ به»، معناه ما أكرمه. راقى. أعجبت. جواب آفاق: قطاع بلاد.
ترامت سفرته: بَعُدَتْ غيبته، وسمي السفر سفراً، لأنه يُسفر عن أخلاق الرجال، أي
يكشفها ويوضحها، أخذ من قولهم: سَفَرَتِ المرأة عن وجهها، إذا كشفتها وأظهرته،
ويقال للمكنسة: مِسْفَرَة، لأنها تُسفر التراب عن الموضع، وسفر بيته، كنسه. مأثورة:
محدث بها. سمعته: ذكره المسموع أودعت: ضُمَّنْتُ. أسرته: خطوط وجهه، أراد
نقشه، وأن بين أسطاره سر الغنى، فمن ملكه ملك الغنى. قارنت: ساوت: النجح: ضد
الخيبة. المساعي: المشي في طلب الحوائج. الأنام: الخلق. غرته: وجهه؛ قيل لأبي
الزناد: مالك تحب الدراهم وهي تدنيك من الدنيا! قال: إنها وإن أدنني من الدنيا، فقد
صانني عنها. والثقرة: القطعة المسبوكة من الذهب والفضة، قبل أن يطبع منها الدراهم
والدنانير، وأراد: كأنما قطعت نقرته من قلوب الناس لشدة جهم فيه. والثقرة، إنما
تستعمل من الفضة، واستعملها في الذهب لقرب ما بينهما، وأخذه من قول البحري:

فكَلَّ قَلْبٍ إِلَيْهِ مَنْصَرَفٌ كَأَنَّهُ مِنْ جَمِيعِهَا خُلِقَا^(١)

أو من قول ابن الرومي: [الطويل]

به أَمَسْتُ الْأَهْوَاءَ يَجْمَعُهَا هَوَى كَأَنَّ نَفُوسَ النَّاسِ فِي حَبِّهِ نَفْسُ

أو من قول المتنبي: [الكامل]

فِي خَطِّهِ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ شَهْوَةٌ حَتَّى كَأَنَّ مَدَادَهُ الْأَهْوَاءَ^(٢)

يصول: يقهر ويغلب، وصال الشجاع على قِزْنِهِ، والفحل على إبله، والحمار على
أُتْنِهِ صَوْلًا، إذا قهر وعلا وصاح بها. الصرة: الخرقه تصر فيها الدراهم. حوته: ضَمَّتْهُ،
يريد أن مَنْ مَلِك الدينار صال به على زمانه. تفانت: هلكت. توانت: أبطأت وضعفت عن
نصرتة. عترته: قرابته الأدنون نضاره: ذهبه. نصرتة: حسنه. مغناته: منابه، يقال فلان
يغني مغناتك، أي ينوب منابك، ويقوم مقامك، يريد أنه ينوب عن الإنسان في المضايق
وينصره. استتبَّت: تَمَّت واستقامت، والمستتب: الطريق البين، قال الشاعر: [الطويل]

* عَلَى مُسْتَتَبٍّ كَالْمَجْرَةِ تَعْمَلُ *

(١) البيت في ملحق ديوان البحري ص ٢٦١٥. (٢) البيت في ديوان المتنبي ١/ ٢٠.

إمزته : ولايته . مُتَرَف : منعم . حُسْرته : تفجّعه ، وحزنه . كَرّته : رجعته ، وبدرتَم : القمر ليلة الكمال ؛ ويريد به شخصاً به يشبه البدر في حسنه ورفعته ، فإذا بعثت في طلبه الدينار أنزلته عن مرتبته وتملكته ، والبُدرة : عشرة آلاف درهم مستشيط : غضبان : تتلظى : تتلهب . جمرته : شدة غيظه أسَرَ : أخفى نجواه : حديثه سراً . شِرّته : حدّته وغضبه ، يقول : كم من غضبان شديد الغيظ ، مثل حاكم يَصُول بصاحب جناية ويهدّده ، فإذا رُشِيَ بالدينار وُبِعث إليه سراً أزال غضبه ، وسكنت حدّته . أسلمته ، تركته . أسرته : قومه . مسرّته : فرحه أبدعته : أوجدته قبل أن يكون . فطرته : خلقته . التقى : الخوف . جلّت : عظمت .

* * *

ثُمَّ بَسَطَ يَدَهُ ، بَعْدَمَا أَنْشَدَهُ ، وَقَالَ : أَنْجَزَ حُرُّ مَا وَعَدَ ، وَسَخَّ خَالٌ إِذَا رَعَدَ
فَنَبَذْتُ الدِّينَارَ إِلَيْهِ ، وَقُلْتُ : خُذْهُ غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْهِ ، فَوَضَعَهُ فِي فِيهِ ، وَقَالَ : بَارِكِ
اللَّهُمَّ فِيهِ ، ثُمَّ شَمَّرَ لِلْإِنْشَاءِ ، بَعْدَ تَوْفِيهِ الثَّنَاءِ .

* * *

قوله : «أنجز حرُّ ما وعد» ، هذا مثل ، قاله الحارث آكل المرار - وهو جدّ امرئ القيس - لصخر بن نهشل بن دارم ؛ وذلك أن الحارث قال : يا صخر ، هل أدلك على غنيمَةٍ على أن لي خمسها؟ قال نعم ، فدلّه على قوم من العرب ، فأغار عليهم صخر بقومه فظفروا وغنموا ، فحملهم صخر على أن يعطوا الحارث الخمس ، فأبوا ؛ وكان طريقهم على شجعات - وهي ثنية متضايقة - فلما دنوا منها صار إليهم صخر حتى قعد على رأسها ، ومنعهم الجواز أو يعطوا الحارث الخمس ، فقال حمزة اليربوعي : والله لا نعطيه من غنيمتنا شيئاً ؛ ومضى في الثنية ، فحمل عليه صخر فقتله . فلما رأى ذلك الجيش أعطوه الخمس ، ففي ذلك يقول نهشل بن حرّي بن منجز بن نهشل بن دارم : [الطويل]

ونحن منعنا الجيش أن يتأوَّبوا على شجعاتٍ والجياد بنا تجري
حبسناهمُ حتّى أقرّوا لحكمنا وأدّى أنفال الخميس إلى صخرٍ

فمعنى «أنجز حرُّ ما وعد» أحضر وهياً . وقد نجز الشيء إذا حضر ، ولفظه لفظ الخبر ، ومعناه الأمر ، أراد لينجز حرُّ ما وعد .

* * *

سَخَّ : صبّ وأمطر . خالٌ : سحاب يخيّل لك أن المطر فيه . رَعَدَ : صوّت ؛ يقول لابن همام : إنَّ السحاب إذا سمع الرعد سَخَّ بالمطر ، وأنت قد أسمعني ذكر الدينار ، ووعدتني به ، فأنجز لي وعدي .

نَبَذْتُ : رميتُ . مأسوف : محزون . بارك : أي ضع البركة فيه ، وقولهم : تبارك الله ،

أي تقدّس وتطهّر، وقيل: هو «تفاعل» من البركة، أي البركة تنال بذكر اسمك. الانشاء: الرجوع. توفيه الثناء: كمال الشكر والمدح.

[في وصف الدينار]

ومما قيل في وصف الدينار ومدحه: [الكامل]

وَمُقَسَّمِ الوجناتِ يبرُق وجهُه بادِ على وجنّاته عبّادُ
جِبِلِ الأنامِ على محبّة حسنه فكأنّه ربّ وهم عبّادُ

وفي مقامات البديع في وصفه: [الرجز]

يا حسنّها فاقعة صفراء مشرقة منقوشة قوراء
يكاد أن يقطرَ منها الماء قد أثمرتها همّة علياء
يا ذا الَّذي بغيته الثناء ما ينقضي بقدرِكَ الإطراء
* امض على الله لك الجزاء *

[الوعد وإنجازه]

وإذ قد فرغت من شرح ألفاظه في إنجاز الوعد في المثل، وما اتّصل به، فلنذكر مذهبهم في ذلك.

فأكثرهم على إنجاز الوعد، وقد ذكر فيما هو مستقبل: [المقارب]

* وبع أجلاً منك بالعاجِل *

وقال: وإذا خُيرتَ بين دَرّة منقودة، ودُرّة موعودة فَمِلْ إلى النقد وقال جرير:

[الطويل]

إنّي لأرجو منك خيراً عاجلاً والنفس مولعة بحبّ العاجِل^(١)

قال آخر: [الطويل]

ولا شك أنّ الخيرَ منك سجيّةً ولكنّ خير الخير عندي المعجَلُ

وقال آخر: [الطويل]

أتى زائراً من غير وعدٍ وقال لي: أجلك عن تعذيب قلبك بالوعدِ

وبعضهم يرى أن يكون بين الوعد والإنجاز مهلة؛ ومنه أن منصور بن زياد كلّم يحيى

ابن خالد في حاجة رجل، فقال له: عذّ عني قضاءها، فقال منصور بن زياد: وما يدعوك إلى العِدَّة مع القدرة! فقال: هذا قول مَنْ لا يعرف موقع الصنائع من القلوب، إنّ الحاجة إذا لم يتقدّمها وعُد يُنتظر به نجحها، لم تتحدّث النفس بسرورها؛ إنّ الوعد مطعم والإنجاز طعام، وليس من فاجأه طعام كمن وجد رائحته وتطعمه ثم طعمه، فدع الحاجة تختمر بالوعد، ليكون لها عند المصطنع حسن موقع ولطف محلّ.

قال ابن الكلبي لهشام بن عبد الملك: يا أمير المؤمنين، لا تصنع إليّ معروفاً حتى تعذني به، فإنه لم يأتي منك سبب على غير وعد إلاّ هان عليّ قدره، وقلّ متي شكره، فقال له: لِمَ قلت ذلك، وقد قال سيّد قومك أبو مسلم الخولانيّ: إنّ أنجح المعروف في القلوب، وأبرده على الأكباد معروف غير منتظر بوعده لا يكدره مَطْل.

ووعد المهديّ عيسى بن دأب جارية ثم وهبها له، فأنشده عبد الله بن مصعب الزبيريّ [قول مضرس الأسديّ] [الطويل]

ولا تياسن من صالح أن تنالهُ وإن كان قدماً بين أيدي تبادره
فقال: يُدفع لعبد الله جارية أخرى، فقال الزبيريّ:

وأنجز خير الناس مَنْ قبل وعده أراحك من مَطْلٍ ومن طول كَدّه
فقال له عيسى بن دأب: ما صنعت شيئاً! هلاً قلت: [الرجز]

حلاوة الفضل بوعده ينجزُ لا خير في العرف كنهب يُنهزُ
فقال المهديّ: [مجزوء الكامل]

الوعد أحسن ما يكو ن إذا تقدّمه ضمان

وقال بعض البلغاء: دع الوعد يركض ثلاثاً، فإن كثير العطاء قبل الوعد قليل، وجليله حقير.

وقال يحيى بن خالد: من لم يبت مسروراً بوعده، لم يجد للصنيعة مطعماً وفيه يقول أبو قابوس التصرانيّ: [البسيط]

رأيت يحيى أتمّ الله نعمته عليه يأتي الذي لم يأتيه أحد
ينسى الذي كان من معرفه أبداً إلى الرجال ولا ينسى الذي يعدّ

وقال الحارثي: [الطويل]

وما روضةً دارئةً أسديّة منمنمةً زهراء ذات ثرى صغيد
بأحسن من حرّ تضمن حاجة لحرّ، فأوقى بالتّجاح مع الوعد

وقال ابن رشيق: [السريع]

أحسنْتَ في تأخيرها مئةً لولم تؤخِّرْ لم تكن كامِلةً
وكيف لا يحسنُ تأخيرها بعد يقيني أنها حاصلَةٌ !
وجئْتُ الفردوس يدعى بها آجله للمرء، لا عاجِله

وقال رجل لأبي عمرو بن العلاء: وعدتني بأمر فلم تنجزه! فقال أبو عمرو: من أولى منّا بالعتب؟ أنا وإلا أنت! قال: أنا؛ قال أبو عمرو: لا والله بل أنا، قال: وكيف؟ قال: لأبي وعدتك وعداً فأنت تفرح بالوعد، فبتّ ليلتك جذلانً مسروراً وبتّ أنا بهم الإنجاز، فبتّ ليلتي مفكراً مغموماً بما عاق الدهر من بلوغ الإرادة فيه، فلقيتني مدلاً ولقيتك مستحيّاً.

واعذر بعض الرؤساء لأبي عليّ البصريّ من تأخّر وعد، فقال: في شكر ما تقدّم من إحسانك شاغل عن استبطاء ما تأخّر منه.

فَنَشَأْتُ لِي مِنْ فُكَاهَتِهِ نَشْوَةَ غَرَامٍ، سَهَلْتُ عَلَيَّ اثْتِنَافَ اغْتِرَامٍ، فَجَرَدْتُ دِينَارًا
آخَرَ وَقُلْتُ لَهُ: هَلْ لَكَ فِي أَنْ تَذُمَّهُ، ثُمَّ تَضُمَّهُ؟ فَأَنشَدَ مُرْتَجِلاً وَشَدَا عَجِلاً:

قوله: «فنشأت»، أي ظهرت وبدت. فكاهة: مزاح. نشوة غرام: سكرة شوق، والغرام: الحرب المعذب للقلب. اثتناف: استقبال. اغترام: غزم. ثم ذكر أن يذمه ثم يضمّه، وقد نظمهما الزاهد بن عمران في قوله: [الكامل]

إِنَّ الْمُوْنَةَ وَالْحِسَابَ كِلَاهُمَا قرنا بهذا الدرهم المذموم
كَلِفَ الْأَنَامِ بِذَمِّهِ وَيَضُمُّهُ فتعجبوا المذمّم مضموم

وقال ابن شرف في الدينار والدرهم: [الطويل]

أَلَا رُبَّ شَيْءٍ فِيهِ مِنْ أَحْرَفِ اسْمِهِ نَوَاهٍ لِنَاعِنِهِ وَزَجَرَ وَإِنْدَارُ
فَتَيْنًا بِدِينَارٍ وَهَمْنَا بِدَرَاهِمٍ وَآخِرَ ذَاهِمٍ، وَآخِرَ ذَائَارُ

وقال ابن رشيق: [المعجث]

صَحَفْتُ دَالِيْنَ مِنْ دِيْنٍ أَرِيْلُوحٍ وَدِرْهَمٍ
فَقَالَ لِي ذَلِكُمْ «ذِيْ» نَارٍ» وَذَا قَالَ: «ذَرْهَمٍ»

وابن رشيق وابن شَرَف أديبَا القَيْرَوَانِ، يَجْمَعُهُمَا الْبَلَدُ وَالزَّمَانُ، وَكَانَا مَرَّةً يتصاحبان، ومرةً يتباغضان.

وقال ابن رشيق في مدح الدينار والدرهم: [الوافر]

صديقُ المرء كالدينار طبعاً
تراه إذا أقام يقيمُ جاهاً
وكيف يفارق المرء الطباعاً!
وإن فارقتَه أجدى انتفاعاً

أخذه من قول كشاجم: [الرمل]

ومريدٌ من أباه
فهو كالدينار لا يُكـ
ومهيّن من أجله^(١)
رِمٌ إلا ممن أذلّه

وقال آخر: [البسيط]

النارُ آخر دينارٍ نطقَتْ به
والمرء ما لم يفد من غيره ورعاً
والهم آخر هذا الدرهم الجاري
مقسم القلب بين الهم والنار

قوله: «مرتجلاً»، أي من غير تفكير. شدا: ابتدأ الغناء وطرب بنشيدته [الرجز]

تَبَّأ لَهُ مِنْ خَادِعٍ مُمَازِقٍ
يَبْدُو بِوُضْفَيْنِ لِعَيْنِ الرَّامِقِ
أَصْفَرُ ذِي وَجْهَيْنِ كَالْمُنَافِقِ
زِينَةُ مَغْشُوقٍ وَلَوْنُ عَاشِقِ
وَحُبُّهُ عِنْدَ ذَوِي الْحَقَائِقِ
يَذْعُو إِلَى اِزْتِكَابِ سُخْطِ الْخَالِقِ
لَوْلَا لَمْ تُقْطَعْ يَمِينُ سَارِقِ
وَلَا اِشْمَازٌ بِاخِلٍّ مِنْ طَارِقِ
وَلَا اسْتُعِيدَ مِنْ حَسُودٍ رَاشِقِ
أَنْ لَيْسَ يُغْنِي عَنْكَ فِي الْمَضَائِقِ
وَاهَا لِمَنْ يَقْذِفُهُ مِنْ خَالِقِ
قَالَ لَهُ قَوْلُ الْمُحَقِّ الصَّادِقِ:
لَا بَدَثَ مَظْلِمَةٌ مِنْ فَاسِقِ
وَلَا شَكَا الْمَمْطُولِ مَظْلَ الْعَائِقِ
وَشَرُّ مَا فِيهِ مِنَ الْخَلَائِقِ
إِلَّا إِذَا فَرَّ فَرَارَ الْآبِقِ
وَمَنْ إِذَا نَاجَاهُ نَجْوَى الْوَامِقِ
لَا رَأْيَ فِي وَصْلِكَ لِي فَفَارِقِ

تباً: أي خسراً. ممازق: لا يصفو وده لصاحبه، وقد مدق وده، إذا لم يخلصه،
ومدق اللبن: خلطه بالماء، والمذيق: المخلوط. أصفر ذي وجهين، قال أبو هريرة رضي
الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «شَرُّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ، يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهِ، وَهَؤُلَاءِ
بِوَجْهِ»^(٢).

(١) البيتان في ديوان كشاجم ص ١٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب باب ١، والأدب باب ٥٢، والأحكام باب ٢٧، ومسلم في البر حديث ٩٨،
٩٩، وأبو داود في الأدب باب ٣٤، والترمذي في البر باب ٧٨، ومالك في الموطأ كتاب الكلام، حديث
٢١، وأحمد في المسند ٢/٢٤٥، ٣٠٧، ٣٣٦، ٤٥٥، ٤٦٥، ٤٩٥، ٥١٧، ٥٢٥.

ووقع هذا في نثر البديع، قال في مخاطبة أبي الفتح عيسى : أظعنأ تريد؟ قلت : إي والله، قال : أخَصَب رائدُك، ولا ضَلَّ قائدُك، فمتى عزمْتَ؟ قلت : غداً غَدٍ، فقال : [الوافر]

صباحُ الله لا صبحُ انطلاقٍ وطيرُ الوصل لا طيرُ الفراقِ
وقال السَّعد لا يعدوك دأباً يصاحبكم إلى يومِ التَّلَاقِ

فأين تريد؟ قلت : الوطنَ، قال : بُلُغْتَ الوطنَ، وقضيتَ الوطنَ، فمتى العود؟ قلت : القابل، فقال : طويتَ الرِّيط^(١)، وثبت الخيط، فأين أنت من الكرم؟ قلت : بحيث أردت، فقال : إذا رجعت الله سالماً من هذا الطريق؛ فاستصحب لي عدوًّا في ثياب صديق، من نجار الصُّفَر، يدعو إلى الكفر، ويرقص على الظُّفَر، كدارة العين، يحطُّ ثَقُلَ الدين، وينافق بوجهين. فعلمت أنه يلتمس ديناراً، فقلت : ذلك لك نقداً، ومثله وعداً، فأنشأ يقول : [مخلع البسيط]

رأيتُ مِمَّا خطبتُ أَعلى لا زلتُ للمكرُمات. أهلاً
صَلَبْتُ عدوًّا، ودمت فرداً وطبت فرعاً وطبت أصلاً
يا واحدَ الدهر والمعالي لا لَقِي الدهر منك تُكْلاً

قوله : «عدوًّا في ثياب صديق» من قول أبي نواس : [الطويل]

إذا امتحنَ الدُّنيا لبيبٌ تَكشَّفَتْ لَهُ عن عدوِّ في ثياب صديق^(٢)

قوله : «الرامق» أي الناظر، ورمقت الشيء رمقاً أتبعته النظر إليه. وزينة المعشوق التي في الدينار: نقشه وتزيينه، ولون العاشق: صفته، فالناظر في الدينار يرى في الظاهر زينته فيهواه، فيقع على ما وقع عليه باطن العاشق من العذاب والغرام، ويدلُّ على ذلك صفته الظاهرة عليه. وقال ابن ظفر: زينة المعشوق غرور مدعاة إلى التهور في الغرام، ولون العاشق وهو الأصفر دليل على ما أسر من شاغف الكلف، فالغافل ينظر من الدينار مثل زينة المعشوق مجرَّدة عن عاقبتها، فيصيده الهوى، والعافل ينظر منه إلى لون العاشق، فيستدلُّ على باطن الجوى ذوي الحقائق، يعني أهل الرشd والعلم، والذين ينظرون إلى ما في الدنيا بعين الحقيقة.

ثم لولا حبُّ الدنيا ما سرق السارق، فيستوجب قطع يده، أو بعض أعضائه، واليد يجب قطعها بربع دينار ذهب. ومن مُلِح السَّرقة أن الجاحظ حكى أن رجلين كان أحدهما أيمن، والآخر أعسر، فكان الأيمن يفخر على الأعسر، فأخذ في سرقة، فقطعت أيماهما، فكان الأعسر يعمل بيساره أعماله كلها، والأيمن لا يستطيع أن يعمل بيساره

(١) الريط: جمع ريطه، وهي الملاعة.

(٢) البيت في ديوان أبي نواس ص ١٩٢.

شيئاً، ففخر الأعسرُ عليه بذلك، فقال له الأيمن: ما علمت أن للأعسر فضيلة إلا أن يسرق فيؤخذ فتقطع يمينه.

الفاسق: الخارج عن الطاعة إلى ركوب المعصية أو عن الإيمان إلى الكفر، أُخِذَ من فسَقَتِ الرطبة، إذا خرجت من قشرها. وقال قوم: الفاسق الجائر، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، أي جار، عنه قال رؤية: [الرجز]

يَهَوِّينَ فِي نَجْدٍ وَعَوْرٍ غَائِرَا فَوَاسِقًا عَنْ قَضْدِهَا جَوَائِرَا^(١)

اشمأز: انقبض. باخل: شحيح، ويخيل أكثر من باخل. طارق: قاصد بليل. المَطل: تأخير الحق الواجب، وأصله من مَطل القَيْنُ الحديد في النار، إذا مدَّه وطوَّله. العائق: الحابس، وقد عاقه عن الشيء إذا حبسه. راشق: عائن، وأصله الرامي، فجعله للذي يصيب الناس بعينه. واستعِيد: قرىء عليه المعوذتان، وهما: ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾، و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾. الخلائق: الطبائع، واحدتها خليقة. الآبق: الهارب، وأبقَ العبد يَأْبِقُ إِبَاقًا: زال عن مولاه، وفي معنى فراق الدينار فوق الأخطل: [الوافر]

ومعشوق يرقص كل يوم تزي في وجهه أبداً كلاماً
إذا فارقتَه أجداً خيراً ولا يجدي عليك إذا أقاماً

وهذا من قول الحسن البصري، وقد رأى رجلاً يقلب درهماً، فقال له: أتحتب درهمك هذا؟ قال: نعم، قال: فإنه ليس لك حتى يخرج من يدك.
واهاً: تعجب، معناه ما أعجب من يقذفه. حالق: جبل أملس مُنيف. ناجاه: حدّته سراً. الوامق: المحب، وقد ومق يَمِيقُ مِقَّةً المحق: القائل الحق.

فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَغَزَرَ وَبَلَكَ! فَقَالَ: وَالشَّرْطُ أَمْلُكَ، فَتَفَحَّثَهُ بِالذِّنَارِ الثَّانِي،
وَقُلْتُ لَهُ: عَوَّذُهُمَا بِالْمُثَانِي، فَأَلْقَاهُ فِي فَمِهِ، وَقَرْنَهُ بِتَوَّعْمِهِ، وَانْكَفَأَ يَحْمَدُ مَغْدَاهُ،
وَيَمْدَحُ النَّادِي وَنَدَاهُ.

(١) الرجز لرؤية في ملحق ديوانه ص ١٩٠، وأساس البلاغة (فسق)، وللعجاج في ملحق ديوانه ٢/ ٢٨٨، والكتاب ٩٤/ ١، وبلا نسبة في لسان العرب (فسق)، وتهذيب اللغة ٤١٤/ ٨، وتاج العروس (فسق)، وجواهر الأدب ص ٣٣، والخصائص ٤٣٢/ ٢، وشرح التصريح ٢٨٨/ ١، وشرح شذور الذهب ص ٤٣١، والمحتسب ٤٣/ ٢.

قوله: «ما أغزر وئلك»، أي ما أكثر بلاغتك. وأملك: ألزم وأحق، يريد أن شرطك الذي شرطت من إعطائي ديناراً آخر إن ذممته، قد لزمك بذمي له. والشرط أملك مثل، وأول من قاله الأفعى الجرهمي، وكان حكيماً للعرب، فتحاكم إليه خصمان، فاشتراط أحدهما وأراد ألا يلتزمه، فقال الأفعى: الشرط أملك، وتقديره الشرط أملك لأمرك منك.

نفحته: رميته. عوذهما: رقاها. والمثاني: أم القرآن، سميت بذلك لأنها تنثني في الصلاة، واحتضنها لأنه أشار عليه أن يحمد الله على أخذ الدينار، فكأنه قال: اقرأ الحمد لله رب العالمين، شكراً لله عليهما وتعويذاً لهما.

وهذا كما قال ابن رشيق في غلام جميل: [السريع]

مورّد الوجنة والخدّ	معتدل القامة والقُدّ
ما عرف الخدّ من الورد	لو وضع الورد على خدّه
اقرأ عليه سورة الحمد	قل للذي يعجب من حسنه

وله في مثله: [السريع]

فقال لي مستهزئاً: ما هو!	شكوت بالحبّ إلى ظالمي
اقرأ عليه «قل هو الله»	قلت: غرام ثابت، قال لي:

وقال أبو عبيد: المثاني في كتاب الله ثلاثة أشياء: القرآن، سمّاه الله المثاني في قوله تعالى: «**كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي**» [الزمر: ٢٣]، وسمّى الفاتحة «مثنائي» في قوله: «**سَبِّحْهُ** من المثنائي» [الحجر: ٨٧] وروى عثمان وابن عباس وابن مسعود عنه عليه السلام. «إن المثنائي من السور ما دون المئين»، كأنها جعلت مبادئ والتي تليها مثاني.

قوله: «بتوءمه»، أي بأخيه، يعني الدينار الأول. انكفاً: انقلب وولّى، معناه بكوره وسيره في الغدوّ. النادي وناده: المجلس وكرم أهله.

[مدح الأشياء وذمّها]

ونريد أن نأتي بفصل في مدح الشيء وذمّه على حكم ما مدح الحريري الدينار وذمّه، ونبيّن مذهب العرب وأهل الأدب في ذلك، فقد ألف ابن رشيق فيه كتاباً جلبت في هذا الكتاب عيونه.

قال أبو عثمان الجاحظ: العربي يعاف الشيء ويهجو به غيره، فإن ابتلي به فخر به، ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهة ما هجا به غيره، فافهم هذا؛ فإن الناس يغلطون على العرب، ويزعمون أنهم يمدحون بالشيء الذي يهجون به، وهذا باطل؛ ليس شيء إلا وله وجهان، فإذا مدحو ذكروا أحسن الوجهين، وإذا ذمّوا ذكروا أقبح الوجهين.

قال ابن رشيّق: وأكثر ما تجري هذه الممادح والمذام على جهة المناقفة، لا على جهة المناصفة، ومن باب المسامحة لا من باب المشاححة، وإلّا فالشيء لا يوافق ضده، فيكون الحسن قبيحاً في حالة واحدة، والمدح ذمّاً لمعنى واحد، لكن لكل شيء - كما ذكر الجاحظ - مساوئ ومحاسن؛ كما فعل عمرو بن الأهتم بين يدي رسول الله ﷺ وقد استشهد الزّبرقان بن بدر على ما ادّعه من الشرف في قومه، قال عمرو: أجل يا رسول الله، إنه مانع حوزته، مطاع في أنديته، شديد العارضة. فقال الزّبرقان: أما والله لقد علم أكثر مما قال؛ ولكن حسدني شرفي، فقال عمرو: أما وقد قال ما قال، فوالله ما علمته إلا ضيق الطّعن زيم المروءة، لئيم الخال، حديث الغنى فرأى الكراهة في عين رسول الله ﷺ لما اختلف قوله، فقال: يا رسول الله، رضيتُ فقلت أحسن ما علمت، وغضبتُ فقلت أقبح ما علمت؛ وما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الثانية، فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة»^(١).

وكتب يزيد بن معاوية في صدر كتابه إلى عبيد الله بن زياد - وقد ولّاه محاربة الحسين بن علي رضي الله عنهما - وكان قبل ذلك يسيء الرأي فيه: أما بعد، فإن المسبوب يوماً ممدوح، وإن الممدوح يوماً مسبوب.

ويروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام لم يعجب شيئاً قط، فمر يوماً بكلب ميت، فقال أصحابه: ما أنتنّ ريحه! فقال عيسى عليه الصلاة والسلام: ما أحسن بياض أسنانه!

وقالت للحضين بن منذر امرأة: كيف سدت وأنت دميم بخيل! فقال: لأنني شديد الرأي، شديد الإقدام.

وقال مسلمة بن عبد الملك لأخيه هشام: كيف تطمع في الخلافة وأنت بخيل، وأنت جبان! فقال: لأنني حلیم، وأنا عفيف؛ فسلم لعائبه ما ادّعه من مساوئه، وذكر من محاسنه ما لم يَنازِع فيه.

صعد خالد بن عبد الله القسريّ منبر مكة يوم الجمعة، وهو أمير للوليد بن عبد الملك بن مروان، فأثنى على الحجاج خيراً، فلما كانت الجمعة الثانية وقد مات الوليد، ورد عليه كتاب سليمان يأمره بشتن الحجاج وذكر عيوبه، وإظهار البراءة منه، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنّ إبليس كان يُظهر من طاعة الله عزّ وجلّ ما كانت الملائكة ترى له به عليهم فضلاً، وكان الله قد علم من غشه ما خفي عن الملائكة، فلما أراد الله فضيخته ابتلاه بالسُّجود لآدم، فظهر لهم ما كان يخفيه منهم، فلعنوه. وإنّ

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الأدب باب ٩٠، والترمذي في الأدب باب ٦٩، وابن ماجه في الأدب باب ٤١، والدارمي في الاستئذان باب ٦٨، وأحمد في المسند ١/٢٦٩، ٢٧٣، ٣٠٣، ٣١٣، ٣٢٧، ٤٥٦/٣، ١٢٥/٥.

الحجاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كُتِبَ له به فضلاً، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غلّه وغشّه على ما خفيَ عَنَّا؛ فلما أراد فضيحتَه أجرى ذلك على يد أمير المؤمنين فالعنوه لعنة الله . ثم نزل .

ومرّ غيلان بن خرّشة الضّبيّ مع عبد الله بن عامر بنهر أم عبد الله الذي يشقّ البصرة، فقال عبد الله: ما أصلح هذا التّهر لأهل هذا المصر! فقال غيلان: أجل والله أيّها الأمير؛ يتعلّم العوم فيه صبيانهم، ويكون لسقائهم ولسيل مياهم، ويأتيهم بميرتهم؛ ثم عاد ابن عامر فساير زياداً عليه، فقال زياد: ما أضّرّ هذا النهر لأهل هذا المصر! فقال: أجل والله أيّها الأمير، تنزّ منه دورهم، ويغرق فيه صبيانهم، ويكثر لأجله بَوضهم .

ومدح الجاحظ القروض، فقال: هو ميزان الشّعْر ومعيّزُه، به يعرفُ الصحيح من السقيم، والعليل من السليم، وعليه مدار القريض والشعر، وبه يُسلم من الأود والكسر . ثم ذمّه فقال: هو علّم مولّد، وأدب مستبّرّد، ومذهب مرفوض، تستنكره العقول، مستفعلن فعول، من غيره فائدة ولا محصول .

وكان العباس بن عليّ عمّ المنصور يأخذ الكأس بيده، ثم يقول: أمّا النفس فتسمحين، وأمّا الهمّ فتطردين، أفتراك متي تُفْلتين! ثم يشربها .

وشكا أبو العنّياء حاله إلى عبد الله بن سليمان، فقال: أليس قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن المدبر! قال: كتبتُ إلى رجل قد حصّر من همّته طول الفقر، وذَلّ الأسر، ومعاناة محن الدهر، فأخففت في طلبتي . قال: أنت اخترته، قال: وما علمي أعزّ الله الأمير في ذلك! قد اختار موسى قومه سبعين رجلاً وما كان منهم رشيد، واختار رسول الله ﷺ ابن أبي سرح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتدّاً، واختار عليّ رضي الله عنه أبا موسى حَكَمًا، فحكم عليه .

* * *

قال الحارث بن همّام: فَنَاجَانِي قَلْبِي بِأَنَّهُ أَبُو زَيْدٍ، وَأَنَّ تَعَارُجَهُ لِكَيْدٍ . فاستعدّته وَقُلْتُ لَهُ: قَدْ عُرِفَتْ بَوْشِيكَ، فاستَقِمَ فِي مَشِيكَ . فقال: إِنْ كُنْتُ ابْنَ هَمّام، فَحُيِّيتَ بِإِكْرَامٍ، وَحَيِّيتَ بَيْنَ كِرَامٍ . فقلت: أَنَا الْحَارِثُ، فَكَيْفَ خَالُكَ وَالْحَوَادِثُ؟ فقال: أَتَقَلَّبُ فِي الْحَالَيْنِ: بُؤْسٌ وَرَخَاءٌ، وَأَتَقَلَّبُ مَعَ الرِّيحَيْنِ: زَغَرَعٌ وَرُخَاءٌ . فقلت: كَيْفَ ادَّعَيْتَ الْقَزَلَ، وَمَا مِثْلُكَ مَنْ هَزَلَ! فَاسْتَسَرَّ بِشْرُهُ الَّذِي كَانَ تَجَلَّى، ثُمَّ أَنشَدَ حِينَ وَلَّى: [المتقارب]

وَلَكِنْ لَأَقْرَعَ بَابَ الْفَرَجِ
وَأَسْأَلُكَ مَسْلَكَ مَنْ قَدْ مَرَجَ

تَعَارَجْتُ لَا رَغْبَةَ فِي الْعَرَجِ
وَأَلْقَيْ حَبْلِي عَلَى غَارِبِي

فإن لآمني القَومُ قلتُ اغذِرُوا فليسَ على أغرجٍ مِن حَرَجٍ

قوله: «فاستعدته»، أي قلت له أعد عليّ. عرفت بوشيك، أي عرفت بحسن كلامك وتزيينه. استقم استغِـدِلْ وأزِلْ عِوَجَكَ. حُيِّت: طال بقاؤك، والتحية البقاء: حَيَّيت: عشت. والحوادث: ما يحدث من الخير والشر. بؤس: شدّة العيش. رخاء: لينه وسعته. زعزع: ريح شديدة تحرك الشجر وتقلعه. والزعزعة: تحريك الشيء إذا أردت قلعه. رخاء: ريح ليّنة سريعة، من الإرخاء في السير، وهو عَدُوٌّ فوق التقريب، وناقة مِرْخاء: سريعة القزل: أسوأ العرَج، وقد قزل قَزَلًا.

وهزل هَزَلًا: ترك الجِدَ في قول أو فعل، يقول: كيف تحيلت بالعرَج ومثلك لا يهزِل ولا يقع في هذه النقيصة! فهو يهزأ به، فغضب عند ذلك استسرّ بشره: زال عنه سماحه وطلاقة وجهه. تجلّى: ظهر. ولّى: ذهب.

قوله: «أقرع»، أي أضرب. الفرَج: كشف الهمّ. ألقى حبلي على غاربي: أي أسرح وأمشي حيث أحببت، والعرب تطلق هذا اللفظ، فتقول للمرأة: حبلك على غاربك، أي أنت مسيئة فتوجّهي حيث شئت لا مانع لك ولا حابس، والغارب: ما انحدر من السّنام، والجبل هو الذي يُعقل به البعير، فإذا سرّحوه حلّوا عقاله وألقوه على غاربه، قال ابنُ الأنباريّ: أصله أن يلقي على جبل الناقة على غاربها فتفزّع، ولا ترعى إذا لم تره على الأرض.

أسلك مسلك، أي أدخل مدخل، والمسلك: الطريق. مَرَج: خلط الجَدّ بالهزل. حرج: إثم والله تعالى أعلم.

المقامة الرابعة

وهي الدِّمياطية

أخْبَرَ الْخَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ قَالَ: ظَعَنْتُ إِلَى دِمْيَاطَ، عَامَ هِيَاطٍ وَمِيَاطٍ؛ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ مَرْمُوقُ الرِّخَاءِ، مَوْمُوقُ الْإِخَاءِ، أَسْحَبُ مَطَارِفَ الثَّرَاءِ، وَأَجْتَلِي مَعَارِفَ السَّرَاءِ. فَرَأَفْتُ صَحْبًا قَدْ شَقُّوا عَصَا الشَّقَاقِ، وَازْتَصَّعُوا أَفَاقِيقَ الْوِفَاقِ؛ حَتَّى لَأَحُوا كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ فِي الْإِسْتَوَاءِ، وَكَالْتَفْسِ الْوَاحِدَةِ فِي التَّثَامِ الْأَهْوَاءِ. وَكُنَّا مَعَ ذَلِكَ نَسِيرُ النَّجَاءَ، وَلَا نَزْحُلُ إِلَّا كُلُّ هَوْجَاءٍ، وَإِذَا نَزَلْنَا مَنَزِلًا، أَوْ وَرَدْنَا مَنَهْلًا، اخْتَلَسْنَا اللَّبَثَ، وَلَمْ نُطِلِ الْمُكْثَ، فَعَنَّ لَنَا إِعْمَالُ الرُّكَّابِ، فِي لَيْلَةٍ فَتِيَّةِ الشَّبَابِ، غُدَافِيَّةِ الْإِهَابِ. فَأَسْرَيْنَا إِلَى أَنْ نَصَا اللَّيْلُ شَبَابَهُ، وَسَلَّتِ الصُّبْحُ خِضَابَهُ.

قوله: «ظعنت»، أي رحلت، والظعن ضد الإقامة.

دِمْيَاطُ: بلد بينه وبين مصر ثلاثون فرسخاً، وهي على ساحل البحر الملح، وإلى دِمْيَاطِ ينتهي ماء النيل، فيفترق منها فيخرج بعضه إلى بحيرة تَنْبِيسَ، وهي بحيرة تجري فيها السفن والمراكب العظام، ويخرج بعضه إلى البحر، وبها تعمل الشروب، وقد ذكرنا ذلك عند تَنْبِيسَ.

قوله: «هِيَاطُ»: صباح، وتهايط القومُ: اجتمعوا ودَبَرُوا أَمْرَهُمْ. مِيَاطُ: دفاع، أي كان عام هَزَجٍ وَخِلَافٍ. مَرْمُوقُ: منظور إليه، الرِّخَاءُ: سعة المال مَوْمُوقُ: محبوب. أَسْحَبُ: أجز. مَطَارِفُ: ثياب لها أعلام في أطرافها أَجْتَلَى: أنظر. مَعَارِفُ: وجوه. السَّرَاءُ: الغنى والسُرور. رَأَفْتُ: صحبت في السفر. الصُّحْبُ: الأصحاب الشَّقَاقُ: الخلاف، ومعنى شَقُّوا عَصَاهُ، أَزَالُوهُ وَطَرَحُوهُ، والعرب تقول: شَقَّ فُلَانُ الْعَصَا، إِذَا تَرَكَ الطَّاعَةَ وَخَرَجَ مَبَايِنًا، قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: الْعَصَا تُضْرَبُ مِثْلًا لِلْاجْتِمَاعِ، وَانْشِقَاقُهَا يُضْرَبُ مِثْلًا لِلْإِفْتِرَاقِ الَّذِي لَا اجْتِمَاعَ بَعْدَهُ. أَفَاقِيقُ: جمع أفواق، وَأَفْوَاقُ جمع فُوقٍ، وهو ما بين الحِلْبَتَيْنِ وَالْوِفَاقِ: ترك الخلاف، وقد وافقته موافقةً وَوِفَاقًا.

قوله: «لأحوا» أي ظهروا. والعرب تضرب المثل بأسنان المُشْطِ، وهو يقع على كلِّ استواء في أيِّ حال كان، قال النبي ﷺ: «الناس كأسنان المُشْطِ، وإنما يتفاضلون

بالعافية»، فإن أرادوا الاستواء في الشر قالوا: سواسية كأسنان الحمار، وقال كثير يهجو بني ضمرة: [الطويل]

فسائل بقومي كل أجرد سابح وسلّ غنماً زبّي بضمرة أو سَخلاً^(١)
سواء كأسنان الحمار فلا ترى لذي كِبَرَة منهم على ناشيء فضلاً

الثمام: اجتماع واتفاق. الأهواء: جمع هوى، وهو ما تحبّه وتميل إليه النفس، فأراد أن أغراضهم متفقة. النّجاء: السير السريع. نرحل: نشدّ عليها الرّخل ونشخص بها. هوجاء: ناقة سريعة، كأنّ بها هوجاً وهو الحمق، لسرعة مشيها. وردنا منهلاً: أتينا ماءً ننزل عليه، والتّهلّ: المشرب الأول، والعَلَلُ الثاني؛ وذلك أن الإبل تردّ الماء فتشرب منه، ثم تخرج ترعى ساعة وتستريح، وتسمّى تلك الاستراحة الرّعي الثّمرة، ثم ترد مرّة أخرى فتشرب الماء، فالشرب الأول نهل، والثاني علل. والمَنهل: موضع التهل. والورود: قصد الماء.

اختلسنا: استرقنا. اللبث: الإقامة، ومثله المُكث، أي لا يستقرون بموضع ينزلون فيه إلا قليلاً. والرّكاب: الإبل؛ وإعمالها: استعمالها. فتيّة الشباب: صغيرة السن، وأراد أنها طويلة سوداء لا قمر فيها، لأن شعر الشباب أسود، ويريد أنها أول الشهر، فهي كالفتية، والليلة أول الشهر سوداء. غُدافية: منسوبة إلى الغداف، وهو الغراب لسواده، والإهاب: الجلد، وأراد لونها أسرينا: مشينا بالليل، ويقال: سرى وأسرى. نضاً الليل شبابه، أي أزال ظلامه، ونضاً ثوبه: جرّده عنه، ومثله: سلّت خضابه، وأراد أن الصبح بيّض الظلام بضوئه، وسلّت الشيء سلّناً؛ أزاله عمّا علق به، والمرأة خضابها كذلك، وسيأتي ذكر الصبح آخر المقامة.

[مما قيل في سواد الليل]

وينظر في سراه مع صحبه في سواد الليل إلى قول ابن شهاب: [الخفيف]

وفُتُوْا أسْرَوْا وقد عكف اللَّيْلُ ل وأقعى مُغْدَوِفَ الأَطْنَابِ
وكأنّ النجوم لمّا هدتهم أشرقّت كالعيون من أهْدَابِ
يتفرون جَوْز كلّ فلاة جُنْح ليلٍ جَوْزَاؤُهُ من رِكَابِ
عنّ ذكرى لمدحهم فتناهَوْا من حديثي في عرض أمر حِجَابِ
همّة في السّماء تسحب ذيلًا من ذيول العُلا وجد الرُّكَّابِ

ومما جاء في سُرَى الليل قول عبد الصّمد بن المعدّل، وهو من حسن الاستعارة:

[المقارب]

(١) البيتان في ديوان كثير عزة ص ٣٨٤، والبيت الثاني في لسان العرب (سوا).

أَقُولُ وَجُنْحُ الدُّجَى مُلْبَدٌ
وَنَحْنُ ضَجِيعَانِ فِي مَسْجِدٍ
فِيَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ لَا تَبْعَدِي
وَيَا غَدَ إِنْ كُنْتُ لِي رَاحِمًا
وَقَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ: [مخلع البسيط]

يَا رَبِّ لَيْلٍ حَالِكِ الْجَلْبَابِ
وَمَا أَحْسَنَ قَوْلِ ابْنِ شَيْهِيدٍ فِي وَصْفِ اللَّيْلِ: [الطويل]

وَبِتْنَا نَرَاعِي اللَّيْلَ لَمْ نَطْوِ بُرْدَهُ
تَرَاهُ كَمَلِكِ الزُّنْجِ مِنْ فَرَطٍ كَبْرِهِ
مَطْلًا عَلَى الْآفَاقِ وَالْبَدْرِ تَاجُهُ
وَقَالَ حَبِيبٌ: [الطويل]

إِلَيْكَ هَتَكْنَا جُنْحَ لَيْلٍ كَأَنَّهُ
وَقَالَ ذُو الرِّمَّةِ: [الكامل]

وَدَوِّيَّةٌ مِثْلُ السَّمَاءِ اعْتَسَفَتْهَا
وَقَالَ أَيْضًا [الطويل]

وَلَيْلٍ كَجَلْبَابِ الْعُرُوسِ أَذْرَعَتْهُ
أَحْمَ غُدَافِيٍّ، وَأَبْيَضَ صَارِمٌ
وَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ: [الخفيف]

يَا خَلِيلِيَّ بِالْهَوَاجِرِ مِنْ مَغَمٍّ
اطْلُبَا ثَالِثًا سِوَايَ، فَلِئَنِّي
رَابِعُ الْعَيْسِ وَالْدُّجَى وَالْبَيْدِ

(١) البيت في ديوان أبي تمام ص ١٠٣.

(٢) البيت في ديوان ذي الرمة ص ٦٨٥، وشرح شواهد الإيضاح ص ٣٨٢، وهو بلا نسبة في شرح شذور الذهب ص ٤١٥.

(٣) يروى صدر البيت الأول:

وليل كائنات الرؤيضي جُبْنَتْهُ

والبيتان لذي الرمة في ديوانه ص ١١٠٨، وأساس البلاغة (روز)، وتاج العروس (روز)، والحيوان ٢٥٠/٣، ولسان العرب (روز).

(٤) البيتان في ديوان البحتري ص ٦٣٣.

وقال السَّلامِيّ : [الطويل]

إليك طَوَى عَزَضَ البَسِيطَةَ عاجلاً قطارُ المطايا أن يلوح لها القَصْرُ
وكنْتَ وعزَمي في الظَّلامِ وصارمي ثلاثة أشباح كما اجتمع النَّسْرُ
وبشَّرت آمالي بملكٍ هو الوَرَى، ودار هي الدُّنيا، ويوم هو الدَّهْرُ

فالبيت الأوّل والثاني نحو بيت البحتريّ، والبيت الثالث نحو بيت ذي الرّمة في التقسيم، ويمثل هذا الكلام يمتدح الملوك وإلا فلا. ولما مدح عضد الدولة بلغه به من المكانة الغاية القصوى، وفُتِنَ بشعره، حتى كان يقول: إذا رأيت السَّلامِيّ في مجلسي، ظننت أنّ عطارداً نزل من السماء. وسنذكر من شعره ما يحسن.

فحين ملَلْنَا السُّرى، ومِلْنَا إلى الكَرى، صَادَفْنَا أرضاً مُخضَّلَةً الرُّبَا، مُعْتَلَّةَ الصَّبَا، فتخيّرناها مُنَاخاً للعِيسِ، وَمَحَطّاً للتَّعْرِيسِ، فَلَمَّا حَلَّهَا الخَلِيطُ، وَهَدَأَ بِهَا الأَطِيطُ وَالغَطِيطُ، سَمِعْتُ صَيِّتاً مِنَ الرِّجَالِ، يَقُولُ لِسَمِيرِهِ فِي الرِّحَالِ: كَيْفَ حُكْمُ سِيرَتِكَ، مَعَ جِيلِكَ وَجِيرَتِكَ؟.

قوله: «السرى»، أي السير بالليل. الكرى: النوم. مخضلة: مبتلة بالندى. الرُّبَا: الكُدى، واحدها ربوة. معتلة الصُّبَا، أي ليثة الريح. مناخاً: منزلاً للعِيس: الإبل يخالط بياضها حمرة. محطاً: منزلاً تحطُّ به الأحمال. التعريس: النزول بالليل في آخره، وهذا التخيّر الذي ذكر لهذه الأرض، منتزَعٌ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا كانت أرض مخضبة فتقصّدوا في السير وأعطوا الركاب حقّها، فإن الله رفيق يحب الرفق، وإذا كانت مجدبة فألحوا عليها، وعليكم بالدلجة، فإنّ الأرض تُطوى بالليل، وإياكم والتعريس على ظهر الطريق، فإنه مأوى الحيات ومدارج السباع»^(١).

الخليط: الأصحاب. هدأ: سكن. الأَطِيط: أصوات الإبل، والغَطِيط: أصوات الناس الثِّيام. صَيِّتاً: جهير الصوت. سميره: رفيقه الذي يسمُر معه بالحديث. الرِّحَال: منازل المسافرين، سَمِيت رحالاً باسم الرِّحَال التي توضع فيها، والرَّحْل: اسم لما يحمله البعير من حمله وقتبه وما يوطأ به تحت الحمل. سيرتك: عادتك. جيلك: أهل عصرك. جيرتك: جيرانك.

فقال: أَرَعَى الجَارَ، وَلَوْ جَارَ، وَأَبْذُلُ الوِصَالِ لِمَنْ صَالَ وَأَحْتَمِلُ الخَلِيطَ،

(١) أخرجه ابن ماجه في الطهارة باب ٢١، ومالك في الاستئذان حديث ٣٨، برواية: «إياكم والتعريس على جواز الطريق».

وَلَوْ أَبْدَى التَّخْلِيْطُ، وَأَوْدُ الْحَمِيْمَ، وَلَوْ جَرَّعَنِي الْحَمِيْمَ، وَأَفْضَلَ الشَّفِيْقَ، عَلَى الشَّقِيْقَ، وَأَفِي لِلْعَشِيْر، وَإِنْ لَمْ يُكَافِءْ بِالْعَشِيْر، وَأَسْتَقِلَّ الْجَزِيْلَ، لِلتَّزِيْلَ، وَأَعْمُرُ الزَّمِيْلَ، بِالْجَمِيْلَ. أُنْزِلَ سَمِيْرِي، مَنَزَلَةَ أَمِيْرِي، وَأَجِلْ أُنَيْسِي، مَحَلَّ رَئِيْسِي، وَأَوْدُعْ مَعَارِفِي، عَوَارِفِي، وَأُوْلِي مَرَاْفِقِي، مَرَاْفِقِي، وَأَلِيْنُ مَقَالِي، لِلْقَالِي، وَأُوْدِيْمُ تَسَالِي، عَنِ السَّالِي، وَأَرْضَى مِنَ الْوَفَاءِ، بِاللَّفَاءِ وَأَفْنَعُ مِنَ الْجَزَاءِ، بِأَقْلُ الْأَجْزَاءِ، وَلَا أَتَظَلُّمُ، حِيْنَ أَظْلَمُ، وَلَا أَنْقَمُ، وَلَوْ لَدَغَنِي الْأَرْقَمُ.

قوله: «أرعى»، أي أحفظ. جار: تعدى ومال عن الحق، قال ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»^(١). أبذل: أعطي. صال: صاح مخوفاً. الخليط: الصاحب، ويقع على الواحد والاثنين والجمع بلفظ واحد، وسُمي بذلك لاختلاط الأمر بين الصاحبين. الحميم الأول: الصديق المخلص، والثاني: الماء الحار. الشفيق: المحب. الشقيق: الأخ من الأب، كأنه شق معك ظهر أبيك ومن الأم كأنه شق معك بطن أمك. أفي للعشير: أعامل الصاحب بالوفاء يكافىء بالعشير: يجازى بالعشر من فعلى، والمكافأة المواساة. استقل، أراد قليلاً الجزيل: الكثير. النزيل: الضيف، والنزل ما يعد للضيف من طعام وغيره. أغمر: أعطى الزميل: الرديف. الجميل: الأفعال الجميلة. أميري: الحاكم على الأنيس: الذي يؤنس بحديثه، وفلان رئيس قومه: أفضلهم وأعزهم. أودع: أعطى وديعة معارفي: من يعرفني - عوراً في: هباتي؛ واحداً عارفة، وهي اليد من النعمة. أولى مرافقي: أعطى مصاحبني في السفر، ومنه الرفقة لاتفاق بعضهم ببعض، جمع مرفقة وهي المعونة وما يُرتفق به. القالي: المبغض، وقلبت الرجل قلي، أبغضته تسالي: كثرة سؤالي. السالي: الناسي للمودة والتارك لها، وسلوت عن الشيء أسلو سلواً وسلوة، إذا تركته. اللفاء: النقصان. وقال أبو علي في الإيضاح: اللفاء ما دون الحق، قال أبو زيد الطائي واسمه حزملة رحمه الله: [الوافر]

فما أنا بالضعيف فتظلموه ولا حظي اللفاء ولا الخسيس^(٢)

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الأدب باب ٢٨، ومسلم في البر حديث ١٤٠، وأبو داود في الأدب باب ١٢٣، والترمذي في البر باب ٢٨، وابن ماجه في الأدب باب ٤، وأحمد في المسند ٨٥/٢، ١٦٠، ٢٥٩، ٣٠٥، ٤٤٥، ٤٥٨، ٥١٤، ٣٢/٥، ٢٦٧، ٣٦٥، ٥٢/٦، ٩١، ١٢٥، ١٣٨.

(٢) يروي صدر البيت:

وما أنا بالضعيف فتظلموني

وهو لأبي زيد الطائي في ديوانه ص ١٠٠، ولسان (لفاً)، (خيس)، (لفاً)، والمخصص ٢٤/١٦، وتاج العروس (لفاً)، (خبس)، (لفاً)، وبلا نسبة في كتاب العين ٨/٣٣٥، وتهذيب اللغة ١٥/٥٨٤، ولسان العرب (وفي).

أقنع: أرضى، والقناعة الرضا باليسير. والجزاء: المكافأة، وجازيته بما صنع مثل كافأته، والأجزاء: الأنصباء تقسم على جماعة، واحدها جزء، وأقلها أنقصها أتظلم: أشتكي من الظلم. لا أنقم: لا أنتقم. تقول: نقت منه نقمة، أي عاقبته، فمعناه: لا أعاقب صاحبي، ولو بلغ في الإضرار مني الغاية، وتقول أيضاً: نقت الشيء وأنقمه نقماً ونقوماً: إذا أنكرته، فمعناه على هذا: لا أنكر على صاحبي ولو بالغ في الأذى، ويقال في الإنكار أيضاً، نقم ينقم.

فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَيَكْ يَا بُنَيَّ! إِنَّمَا يُضَنُّ بِالضَّئِينَ، وَيُنَافَسُ فِي الثَّمَنِ؛ لَكِنْ أَنَا لَا آتِي، غَيْرَ الْمُوَاتِي، وَلَا أَسِمُ الْعَاتِي، بِمَرَاعَاتِي، وَلَا أَصَافِي، مَنْ يَأْبَىٰ إِنْصَافِي، وَلَا أَوَاحِي، مَنْ يُلْغِي الْأَوَاحِي، وَلَا أَمَالِي، مَنْ يُخَيِّبُ أَمَالِي، وَلَا أُبَالِي، بِمَنْ صَرَمَ حِبَالِي، وَلَا أَذَارِي، مَنْ جَهَلَ مِقْدَارِي، وَلَا أُعْطِي زِمَامِي، مَنْ يُخْفِرُ ذِمَامِي، وَلَا أَبْذُلُ وَدَادِي، لِأَضْدَادِي، وَلَا أَدْعُ أَيْعَادِي، لِلْمُعَادِي، وَلَا أَغْرُسُ الْيَادِي، فِي أَرْضِ الْأَعَادِي، وَلَا أَسْمَحُ بِمُؤَاسَاتِي، لِمَنْ يَفْرَحُ بِمَسَاسَاتِي، وَلَا أَرَىٰ التِّفَاتِي، إِلَىٰ مَنْ يَسْمَتُ بَوَفَاتِي، وَلَا أَخْصُ بِحَبَائِي، إِلَّا أَحْبَائِي، وَلَا أَسْتَطِبُ لِدَائِي، غَيْرَ أَوْدَائِي، وَلَا أُمْلِكُ خُلَّتِي، مَنْ لَا يَسُدُّ خُلَّتِي، وَلَا أَصْفِي نَيْتِي، لِمَنْ يَتَمَنَّىٰ مَيْتِي، وَلَا أَخْلِصُ دُعَائِي، لِمَنْ لَا يَقْعُمُ وَعَائِي، وَلَا أَفْرُغُ ثَنَائِي، عَلَىٰ مَنْ يَفْرُغُ إِنَائِي.

قوله: «ويك» معناه التعجب، كأنه قال: ما أعجبك! أو عجباً لك. وقيل: أراد «ويلك»، فحذف اللام. إنما يضنُّ بالضَّئِينَ، هذا مثل؟ أول من قاله الأغلب العجلي، وفسره أبو عبيد فقال: معناه: تمسك بإخاء من تمسك بإخائك، وبيانه أن الضَّئِينَ البخيل، ويضنُّ: يبخل، فيقول: إنما أتمسك وأتعلق بصاحب تمسك بي وعرف حقي، فأنا أبخل به على غيري أن يشركني في صحبتته كما يبخل بي هو على غيره، وقيل: الضَّئِينَ في المثل هو الشيء المضمون به لنفاسته، فمعناه إنما يبخل بالشيء النفيس الرفيع. المواتي: المساعد الموافق. العاتي المتكبر الصعب الخلق. والمراعاة: المحافظة للود اسم: اجعلها سمة، أي علامة. أصافي: أخلص له ودِّي. يأبى: يمنع. إنصافي، أي إعطائي الحق من نفسه. أواخي: أصير له أخاً وأتخذه صديقاً. يلغي: يترك ويطرح. الأواخي: أسباب الود، واحدها أخية، وأصل الأخية غزوة من حبل تشد في وتد أو على حجر تحت الأرض، وتبقى العروة على الأرض فيربط فيها حبل الدابة فيمسكها. أمالي: أعاون، وأصلها الهمزة، تقول: مألته على الأمر أمالته، إذا عاونته وساعدته، ومنه: والله ما قتلت عثمان ولا مألته في قتله، فخفف الهمزة ليوافق أمالي، وهو جمع أمل، وهو

الرجاء. صرم حبالِي: قطع أسباب وصالي، وهم يكونون بالحبل عن الودّ، لأن الودّ يربط القلوب ويؤلفها كالحبل فيما يربط. قوله: «أداري» أسوس وأسحن صحبته. والزمّام: حبل من جلود يربط في حلقة في أنف البعير. يخفر ذمامي: ينق عهدي، أي لا أنقاد لمن لا عهد له. ودادي: حُبِّي، وهو من وادّه وهو الذي لا يكون إلا من اثنين فوضعه موضع ودّي، ويقال أيضاً: في الحُب حُباب، مثل وداد، قال الشاعر: [الطويل]

* أداء عراني من حُبابك أم سحر^(١) *

أضدادي: أعدائي المناقضين لأفعالي. إيعادي: تهديدي وتخويفي الأيادي: النعم، وواسيته: مواساة: جعلته أسوة نفسي في مالي فقاسمته فيه مساأتي: أحزاني وما يسوء بي. التفاتي: نظري وانعطافي إلى جهته. يشمت: يسرّ: وفاتي: موتي. أخصّ: أفرد. جبائي: عطائي. أحبائي: جمع حبيب استطبّ: أطلب طبه. خلّتي: صداقتي. يسدّ خلّتي: يصلح فقري. أخلص: أجعله خالصاً. يُفعم: يملأ. أفرغ ثنائي: أصبّ مدحي وأكسوه، أو يكون أفرغه، أبلغ آخره.

وَمَنْ حَكَمَ بِأَنْ أَبْذُلَ وَتَخْزُنَ، وَأَلِينَ وَتَخْشُنَ، وَأَذُوبَ وَتَجْمُدَ، وَأَذْكُورَ وَتَحْمُدَ! لَا وَاللَّهِ، بَلْ نَتَوَارَنُ فِي الْمَقَالِ، وَزَنَ الْمِثْقَالِ، وَتَتَحَادَى فِي الْفَعَالِ، حَذَوِ النَّعَالِ حَتَّى نَأْمَنَ التَّغَابُنَ، وَنُكْفِيَ التَّضَاعُنَ؛ وَإِلَّا فَلِمَ أَعْلُكَ وَتُعْلِنِي، وَأَقْلُكَ وَتَسْتَقْلِنِي، وَاجْتَرَحُ لَكَ وَتَجْرَحُنِي، وَأَسْرَحُ إِلَيْكَ وَتُسْرَحُنِي. وَكَيْفَ يُجْتَلَبُ إِنْصَافٌ بِضَيْمٍ، وَأَتَى تُشْرِقُ نَفْسٌ مَعَ غَيْمٍ! وَمَتَى أَضْحَبُ وَدُّ بَعْسَفٍ، وَأَيُّ حُرٍّ رَضِيَ بِخُطَّةٍ خَسَفٍ! وَلِلَّهِ أَبُوكَ حَيْثُ يَقُولُ:

قوله: «تخزن»، أي تحبس. أذكور: أضىء، يقال: خمدت النار، إذا سكن لهبها، ودكت: اتقدت. والمثقال: الصنجة التي يوزن بها، سُميت بذلك لأنها تثقل ما يوزن بها في الكفة الثانية. تتحاذى: تتشابه. والفعل: بفتح الفاء: اسم للفعل الحسن أو القبيح، ولا يقال بكسرهما إلا في مصدر فاعل، قال ابن الأعرابي: الفعل: فعل الواحد من الخير والشر، والفعل بالكسر: الفعل بين الإثنين. حذو: متشابهة، والعرب تقول في الشيتين يشتبهان: هما حذو النعل بالنعل، أي كل واحد من التعلين تُقطع على قالب أختها، ومنه قول الهذلي: [الكامل]

(١) صدره:

فوالله ما أدري وإنني لصادق

والبيت لأبي عطاء السندي في لسان العرب (حب) والتنبيه والإيضاح ٧٥/١، وتاج العروس (حب)، وبلا نسبة في جوهرة اللغة ص ٦٤.

وتأمل السُّبُت الذي أخذوكُم فأنظُر بمثل حذائه فاحذوني^(١)

التَّغَابِن: الغبن. نكفي: نمنع. التضاضن: العداوة، وتضاضن الرجلان: اعتقد كل واحد منهما لصاحبه ضغناً وهو الجحد. أعلك: أسقيك عللاً، أي مرّة بعد أخرى. تعلني: تمرضني. أقلك: أرفعك. تستقلني: تحقرني. أجتري: اكتسب. أسرح: أرمي عليك، وأجلب عليك الرزق بالغداة والعشيّ تسرجني: تهملني. ضيم: ذلّ أئى: كيف تشرق: تُضيء، من أشرقت، وتشرق تطلع، من شرقت. غيم: سحب. أصحاب: أنقاد. بعسف: بجور. وأصل العسف ركوب الأمر بغير تدبير. والخطّة: المنزلّة والمرتبة، والخسف: الإذلال والنقصان، ومنه خسف الأرض، والخاسف: المهزول، ويقال: باتوا على الخسف، أي جياًعاً ليس لهم شيء يتقوّتون به والخسف للداة: أن تبيت بغير علف [السريع]

جَزَيْتُ مَنْ أَعْلَقَ بِي وَدَّهْ
وَكَلْتُ لِلْخَلِّ كَمَا كَالِ لِي
وَلَمْ أَخْشُرْهُ وَشَرُّ الْوَرَى
وَكُلُّ مَنْ يَطْلُبُ عِنْدِي جَنَى
لَا أَبْتَغِي الْعَبْنَ، وَلَا أَتُنِّي
وَلَسْتُ بِالْمُوجِبِ حَقًّا لِمَنْ
وَرُبَّ مَذَاقٍ الْهُوَ خَالِنِي
وَمَا دَرَى مِنْ جَهْلِهِ أَنِّي
فَاهْجُرْ مَنْ اسْتَغْبَاكَ هَجَرَ الْقَلَى
وَالْبَسَ لِمَنْ فِي وَضْلِهِ لُبْسَةٌ
وَلَا تُسْرِجْ الْوُدَّ مِمَّنْ يَرَى

جَزَاء مَنْ يُبْنِي عَلَى أَسْهِ
عَلَى وَفَاءِ الْكَيْلِ أَوْ بَخْسِهِ
مَنْ يَوْمُهُ أَخْسَرُ مِنْ أَمْسِهِ
فَمَالُهُ إِلَّا جَنَى عَزْسِهِ
بِصَفْقَةِ الْمُغْبُوبِ فِي حِسِّهِ
لَا يُوجِبُ الْحَقُّ عَلَى نَفْسِهِ
أَضْدُقُّهُ الْوُدَّ عَلَى لَبْسِهِ
أَقْضِي غَرِيمِي الدَّيْنَ مِنْ جَنْبِهِ
وَهَبْهُ كَالْمَلْحُودِ فِي رَمْسِهِ
لِبَاسَ مَنْ يُزْعَبُ عَنْ أُنْسِهِ
أَنَّكَ مُخْتَاجٌ إِلَى فَلْسِهِ

قوله: «أعلق»، فمعنى علّق، أي ألصق. أسه: أصل بنائه؛ يقول: من علّق بقلبي ودّه، جعلت ذلك الودّ أساً بقلبي، وبنيت عليه ودي، فإن أسس في قلبي ودّاً سليماً بنيت له عليه مثله، وإن غشني في ودّ غششته، والهاء في «أسه» ترجع إلى «من» أي مَنْ نصحني في صحبتِهِ نصحته. والخلّ: الصاحب. بخسه: نقصه أخسر: أنقص. الورى:

(١) البيت لبدر بن عامر الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص ٤١٠، وللهمذلي في لسان العرب (حزن)، وتهذيب اللغة ٣٦/١١.

الخلق من الناس. الجنى: ما يجني من الشمرة أبتغي الغبن: أطلب الخداع: أنثني: أرجع، وصفقة المغبون: بيعة المخدوع حسه: فهمه، والحسن: صوت حركة الحي. والصفقة: في الأصل مصدر، يقال: صَفَّقَ صفقاً إذا ضرب بإحدهما على الأخرى، وكانت صفقة البيع عند العرب أن يضرب المشتري بيده على يد البائع، فإن رضي البيع قبض على يد المشتري وانعقد البيع، وإن لم يرض أرسل يده، ثم صاروا يقولون، رضي الصفقة، إذا رضي البيع، ثم سُمِّيَ عقد البيع صفقة. مذاق: خلاط غير مخلص. الهوى: الحب. وخألني: حسبني. لبسه: تخليطه وتلبسه. غريمي: صاحب ديني. من جنسه: من نوع ما أعطاني. استغباك: استجهلك. القلي: البغض. هبه: احسبه. الملحود: المدفون. رسمه: قبره، وينظر إلى بيته قول ابن الرومي: [الرمل]

مَنْ تَصَدَّى لِأَخِيهِ	بِالْغَنَى فَهُوَ أَخُوهُ
فَإِنْ احْتِجَّ إِلَيْهِ	رَاءَ مَنْهُ مَا يَسُوهُ
يُكْرَمُ الْمُثْرَى فَإِنْ أُمِرَ	لَقَّ أَقْصَاهُ بَنُوهُ
أَنْتَ مَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْ صَا	حَبِكَ الدَّهْرَ أَخُوهُ
فَإِنْ احْتِجَّتْ إِلَيْهِ	سَاعَةً مَجَّكَ قُوهُ

ووجد على حجر مكتوباً: [الرمل]

كَلَّ مِنْ أَحْوَجِكَ الدَّهْرَ إِلَيْهِ وَتَعَرَّضَتْ لَهُ هُنْتُ عَلَيْهِ

وهذان المذهبان اللذان ذكرهما الحريري مبنيان على آيتين، من كتاب الله تعالى؛ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾، والثانية قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ اِنتَصَرَ بَعْدَ ظِلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١].

وقال النبي ﷺ: «لا خير في صحبة مَنْ لا يرى لك من الحق، مثل الذي ترى له».

وللشعراء القدماء والمحدثين في المذهبين شعر كثير، قال المقنع الكندي في

المذهب الأول: [الطويل]

وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي	وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لِمُخْتَلِفٌ جَدًّا ^(١)
أَرَاهُمْ إِلَى نَصْرِي بِطَاءٍ وَإِنْ هُمْ	دَعُونِي إِلَى نَصْرٍ أَتَيْتَهُمْ شَدًّا
وَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَزَّتْ لِحْوَمُهُمْ	وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتَ لَهُمْ مَجْدًا
وَإِنْ ضَيَّعُوا غَيْبِي حَفِظْتُ غَيْبَهُمْ	وَإِنْ هُمُ هَوُوا غَيَّ هَوَيْتَ لَهُمْ رُشْدًا
وَإِنْ زَجَرُوا طَيْرًا بَنَحْسٍ تَمُرُّ بِي	زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا تَمُرُّ بِهِمْ سَعْدًا
لَهُمْ جَلٌّ مَالِي إِنْ تَتَابَعُ لِي غَنَى	وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أَكْلِفْهُمْ رِفْدًا

ولا أحملُ الحِقْدَ القديمَ عليهم وليس يسودُ القومَ من يحملُ الحَقْدَا

وقال معن بن أُويس المُنزِي في المذهب الثاني : [الطويل]

إذا أنت لم تُنصِفْ أخاك وجدته على طرف الهجران إن كان يعقل^(١)
ويركبُ حدَّ السيفِ مِن أن تُضيِمَهُ إذا لم يكن عن شَفرة السيفِ مَزَحَلُ
وكنْتُ إذا ما صاحبُ رَامٍ ظَنَّنِي وبدلُ سوءاً بالذي كُنْتُ أفعلُ
قلبت له ظهر المِجَنِّ فلم أدم على ذاك إلا ريثما أتحوَّلُ

وقال إبراهيم بن العباس الصولي : [الوافر]

أميل مع الذمَام إلى ابن عمِّي وأخذ للصديق من الشقيِّق^(٢)
وإن ألفيتني حُرّاً مُطاعاً فإنك واجدي عبدَ الصديقِ
أفرِّق بين معروفِي وبينني وأجمع بين مالي والحقوقِ
وكنْتُ إذا الصديقُ أراد غيظي وأشرقني على شَرِّقِ بِريقِي
غفرتُ ذنوبه، وصفحت عنه مخافة أن أعيش بلا صديقِ

وكلف إبراهيم بن العباس بعض إخوانه مقاطعة صديق فقال له : [مجزوء الكامل]

إنني متى أحمل بحقدِ ك لا أضربُ به سيواك^(٣)
ومتى أطعْتُك في أخيك أطعْتُ فيك غداً أخاك
حتَّى أرى مستقسماً يومي لداً، وغداً لذاكاً

وقال أبو الفتح البُستي في المذهب الثاني : [السريع]

فإن تزرزني أرز وإمّا تَقِفْ ببابي أقف ببابك
والله لا كنتُ في حسابي إلا إذا كنتُ في حسابك

أين هذا من قول البستي أيضاً وقد خالفه فيه خلافاً شديداً، ولا نازعه أحد فيه، ولا سبقه إليه إذ يقول : [المتقارب]

وإنني لأختصُّ بعضَ الرجال وإن كان قدماً ثقيلاً عَماماً^(٤)
فإنَّ الجُبَّينَ على أنه وخيمٌ ثَقِيلٌ يشهِّي الطَّعامَ

(١) الأبيات في شرح ديوان الحماسة للحطيط التبريزي ١٣٢/٣.

(٢) الأبيات في ديوان الصولي ص ١٥٤.

(٣) الأبيات في ديوان الصولي ص ١٤٦.

(٤) العمام : هو الغليظ الجامي .

ولأبن شرف : [البسيط]

بِغِ مَنْ جَفَاكَ وَلَا تَبْخُلْ بِسَلْعَتِهِ واطلب به بَدَلًا إِنْ رَامَ تَبْدِيلًا
وهو كثير، وبما ذكرت يستدل على الباب.

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَامٍ: فَلَمَّا وَعَيْتُ مَا دَارَ بَيْنَهُمَا، تُقْتُ إِلَى أَنْ أَعْرِفَ
عَيْنَهُمَا، فَلَمَّا لَاحَ ابْنُ ذُكَاءٍ، وَأَلْحَفَ الْجَوَّ الضِّيَاءُ، غَدَوْتُ قَبْلَ اسْتِقْلَالِ الرُّكَّابِ،
وَلَا اغْتِدَاءِ الْغُرَابِ، وَجَعَلْتُ أَسْتَفْرِئُ صَوْبَ الصَّوْتِ اللَّيْلِيِّ، وَأَتَوَسَّمُ الْوُجُوهَ
بِالنَّظَرِ الْجَلِيِّ، إِلَى أَنْ لَمَحْتُ أَبَا زَيْدٍ وَابْنَهُ يَتَحَادَثَانِ، وَعَلَيْهِمَا بُرْدَانِ رَثَّانِ، فَعَلِمْتُ
أَنَّهُمَا نَجِيًّا لَيْلَتِي، وَصَاحِبًا رِوَايَتِي.

قوله : «وعيت»، أي حفظت. تقنت، أي اشتقت. عينهما : شخصهما لاح : ظهر.
ابن ذُكَاءٍ : هو الصبح، وذكاء هي الشمس، ويقال للصبح : ابن ذكاء لأنه من ضوءها.
ألحف : غطى. الجوّ : الهواء بين السماء والأرض، أراد أن الصبح غطى نواحي السماء
بضوئه.

[مما قيل في ضوء الصبح شعراً]

ومن حسن التشبيه في ضوء الصبح قول ذي الرمة :

وقد لاح للسّاري الذي كَمَّلَ السّرى على أخريات اللّيل فَنُتِقَ مشهُرٌ^(١)
كلون الحصان الأبيض البطن قائماً تمايل عنه الجُلّ واللون أشقرُّ

شبه اختلاط الضوء بالظلمة بالفرس الأشقر الأبيض البطن.

وقال ابن المعتز : [الوافر]

وساقٍ يجعل المَندِيلَ مِنْهُ مكان حمائل السيف الطّوالِ
غدا والصبحُ تحت الليل بادٍ كطِرفِ أشقرٍ ملقى الجلالِ

وقال يوسف الرمادي : [الطويل]

وليلة أنس قد غمرنا ظلامها بأوجهٍ راح تستنير فترشفُ
إلى أن بدا ضوء الصبح كأنما تحمّل لقمان، وأقبل يوسفُ

(١) البيتان في ديوان ذي الرمة ص ٦٥٥، ولسان العرب (شهر)، (نبط)، (فتق)، وتاج العروس (نبط)،
(فتق)، وتهذيب اللغة ٨٠/٦، ٦٣/٩، وكتاب العين ٤٠٠/٣، ١٣١/٥، وأساس البلاغة (فتق).

قوله : «غدت»، أي بكرت . استقلال : ارتفاع وقيام . والركاب : الإبل واحدها ، راحلة . ولا اغتداء الغراب ، أي ولا مثل اغتدائه ؛ فحذف «مثل» المنصوبة بلا ، وأقام «اغتداء» مقامها لأن «لا» لا تنصب المعارف ، وأراد أن اغتدائي كان قبل أن يغتدي الغراب ، والغراب أكثر الطير بكوراً ، وهذا وما شابهه في هذا الكتاب مثل قوله : «ولا كيد فرعون موسى» ، «ولا انهلال السحب» ، «ولا عمرو بن عبيد» ، إذا طلبت حقيقة معناه صار المشبه أقوى من المشبه به ، ولم يأت هذا إلا عن العرب ، تقول العرب : «فتى ولا كمالك» فيريدون مالكا أفضل من الفتى ، ومثله «مرعى ولا كالسعدان» أي أن المرعى فاضل في طيبه ، ولكن السعدان أفضل منه ، ومثله : «ماء ولا كصداء» ، فصداء أفضل من ذلك الماء على طيبه ، فهذا مذهب العرب في ذكر «لا» بين المشبهين .

وأما قول الحريري : «غدوت ولا اغتداء الغراب» ، فيريد أن غدوي أبكر من اغتداء الغراب ، وكذلك «ولا انهلال السحب» ، وهو يريد أن جودهم فوق جود السحاب ، لأن كلام العرب : فلان أبكر من الغراب ، وأجود من السحاب ، ولا يقولون السحاب أجود من فلان ، ولا الغراب أبكر من فلان ، ولا فائدة في ذلك ، فإذا حققت لفظه «ولا» في تشبيه الحريري على ما يجب لها في كلام العرب انقلب المعنى ، وإنما اللفظ من كلام عامة العراق ، فاستعملها لأنها عندهم متعارفة وليس بعربية ، ومثل هذا قد جوزه المولدون في أشعارهم ، وجاء منه في مقامات البديع كثير . ويستعمل أهل فاس في مغربنا لفظة «ولا» في تشبيهاتهم كثيراً جداً على حد استعمال الحريري لها ، ولا يستعملها أهل الأندلس .

وقال الفنجديهي : الرفع في قوله : «ولا اغتداء الغراب» ، أكثر مبالغة في التشبيه من النصب .

قوله : «أستقرىء» ، أي أتبع . صوب : جهة وناحية الليلي : الذي سُمع بالليل أتوسم ، أتعرف وأنظر سمتها . الجلي : البين . لمحت : رأيت . بُزدان رثان : ثوبان خَلَقان . نجياً ليلتي ، أي المتحدثان فيها ، وجعلهما متحدثين مع الليلة مجازاً لما أوقعا الحديث فيها ، كقوله تعالى : «بل مكر الليل والنهار» [سبأ : ٣٣] ولا يمكن أن يُمكر فيهما ، فنسب ذلك المكر إليهما . صاحباً رويتي . أي اللذان أروى عنهما هذه القصة .

فَقَصَدَتْهُمَا قَصْدَ كَلَفٍ بِدَمَائِهِمَا ، رَاثٍ ، لِرَثَائِهِمَا ، وَأَبْحَثُهُمَا التَّحَوُّلَ إِلَى رَحْلِي ، وَالتَّحَكَّمَ فِي كَثْرِي وَقَلِّي ، وَطَفِقْتُ أَسِيرُ بَيْنَ السَّيَّارَةِ فَضْلَهُمَا ، وَأَهْرُ الْأَعْوَادِ الْمُثْمِرَةِ لَهُمَا ، إِلَى أَنْ غُمِرَا بِالنُّخْلَانِ ، وَاتَّخَذَا مِنَ الْخُلَانِ . وَكُنَّا بِمَعْرِسٍ نَتَبَّنُ مِنْهُ بُنْيَانُ الْقَرَى ، وَتَنْتَوُرُ نِيرَانُ الْقَرَى .

فَلَمَّا رَأَى أَبُو زَيْدِ امْتِلَاءَ كَيْسِهِ، وَانْجِلَاءَ بُوسِهِ، قَالَ لِي: إِنَّ بَدَنِي قَدْ انْسَخَ، وَدَرَنِي قَدْ رَسَخَ، أَفَتَأْذُنُ لِي فِي قَصْدِ قَرْيَةٍ لَأَسْتَحِمَّ؟ وَأَقْضِي هَذَا الْمِهْمَ؟ فَقُلْتُ: إِذَا شِئْتَ فَالْزُرْعَةَ الشُّرْعَةَ، وَالرَّجْعَةَ الرَّجْعَةَ، فَقَالَ: سَتَجِدُ مَطْلَعِي عَلَيْكَ، أَسْرَعَ مِنْ ارْتِدَادِ طَرَفِكَ إِلَيْكَ.

* * *

كَلِيف: محب. دَمَائْتُهُمَا: سهولتهما، والدَّمَائَةُ سهولة الأرض، وكل ما وطئته وسهّلته وأذلّته بيدك فهو دَمِث. رَاث: بالك مشفق. وَرَثَائْتُهُمَا: سوء حالهما. أَبَحْتُهُ: جعلته له مباحاً كَثْرِي وَقُلِّي: أي كثير مالي وقليله. طَفَقْتُ: أخذت. أَسِير: أمشي. السيارة: القوم الذين يسيرون في الأسفار. أَهَزَّ الْأَعْوَادَ، استعاره، وأراد أنه يستعطف لهما أصحاب الأموال فيواسونهم، فكنى عنهم بالأعواد، وقد كرّر هذا المعنى نظماً حين قال: [الرجز]

قصدته والشيخ يبغى جنى عُودٍ له ما زال مهزوزاً

وقال الشاعر في مثله: [البسيط]

إِلَّا يَكُنْ وَرَقِي غَصّاً أَرَا ح به للمعتفين فلاني لئن العود

أَرَادَ إِنْ لَا أَكُنْ كَثِيرَ الْمَالِ فَلَنِي كَرِيم. وَالْوَرِقُ: المال غير الصامت، وأراح به: أهُتَزَّ بِهِ، من الأريحية. وراح الشجر: أتى بورق في آخر الصيف لا أصل له، ويقال لها الخلفة. قوله: «غمرًا»، أي أعطيا. النَّحْلَانِ: العطايا. الْخِلَانُ: الأصحاب. وقوله: «وكنا بمعمرس»، المعمرس موضع النزول آخر الليل نتنور: ننظر النيران. الْقِرَى: طعام الضيف. كيسه: وعاء دراهمه، والكيس: خريطة تسع خمسمائة درهم والبذرة تسع عشرة آلاف درهم، قال حبيب:

من بعد ما صارت هنيذة صرمةً والبذرة النُّجْلَاءُ صارت كيساً^(١)

قوله: «انجلاء بوسه»، انكشاف فقره. دَرَنِي: وسخى. ورسخ الشيء في الأرض رسوخاً: غاب فيها، ورسخ العالم في العلم: دخل فيه. أَسْتَحِمَّ: أدخل الحمام، واستحَمَّ الرجلُ: اغتسل بالحميم؛ وهو الماء الحار. أَقْضَى: أقطع وأزيل، وقضيت الشيء: صنعته. المِهْمُ: أراد به فَرُضُ الصَّلَاةِ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إِنَّ أَمْرَ أُمُورِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ، فَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لَمَّا سِوَاهَا أَضْيَع. وقيل: المِهْمُ: الوسخ لأنَّ

(١) الهنيذة: اسم للمائة من الإبل، والصرمة: ما بين العشرة إلى بضعة عشر، والنجلء: الواسعة.

الأمر المهم، هو الذي في القلب منه همّ وشغل، وقد ذكر أن الذي أوجب عليه قصد الحمام هو ما عليه من الوسخ، فيكون قوله: «وأقضى هذا المهم» من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، وقد أهمني الشيء فهو مهم، وهذا القول أوفق بمراده.

[الحمام وما قيل فيه شعراً]

وللزاهد بن عمران رحمه الله وقد استبطأ في دخول الحمام: [البيسط]

يا صاح عهدي بالحمام قد بُعداً فلا تلمني فيه إن طلبت مدى
قارعت فيه العدا في معركٍ لجبٍ دخر تزل به الأقدام قد بُعداً
عداً أثرن برأسي حين ثزن به توقدا وأعادت جلده جلدًا
فظلت مستأصلاً بالقتل أجمعها فلم أدغ والداً منها ولا ولداً
ثم انشيت معافى ناعماً جذلاً مظفراً أستزيد الواحد الصمداً

ورأى نفسه ممتداً بين يدي الحكاك، فقال: [المتقارب]

أأغتر إن مد في العُمر لي وأرجي المتاب إلى قابلي
وأغفل والموت لي طالبٌ حيث كذب الغضى القاتلي
كأنني بي هكذا ميتاً تحكّم في يد الغاسلي

وله أيضاً: [المنسرح]

شكرت للدهر حسن ما صنعا طريد مجد تحيتي رفعا
يا حسن حمانا وقد غرئت شمس الضحى فيه بعد ما متعا
أيقن أن الهلال راكبه فضاء للحاضرين واتسعا
فأنعم أبا عامر بنعمته واعجب لأمرين فيه قد جمعا
نيرانه من زنادكُم قدحت وماؤه من بئانكم نبعنا
ولبعضهم في حمام كانت مضاوئه من زجاج أحمر، وفي سمائه حمرة وبياض [المتقارب]
تحيرت من طيب حماننا فخيل لي أن فيه الفلق
فمن حمرة فوقنا وبيضاض لخذ الحبيب إذا ما عرق
رأى الدهر ما سد من حسنه فسد كوى سقفه بالشفق

ودخل الحمام أبو جعفر التُّطيلي وأبو بكر بن بقي رحمهما الله تعالى، فقال أبو

جعفر: [المنسرح]

يا حسن حمانا وبهجته مرأى من السحر كله حسن
ماء وناز حواهما كنف كالقلب فيه السرور والحرن

ونظر فيه إلى غلام وسيم، فقال: [البسيط]

هل استمالك مِئال القَوَامِ وَقَدْ سالت عليه من الحَمَّامِ أُنْدَاءُ
كالغصن بأشَرَ حَرِّ النار من كَثَبٍ فظلَّ يَقْطُرُ من أعطافه الماءُ

وقال آخر: [البسيط]

حَمَامنا فيه فصل القيظ محتدِّمٌ وفيه للبرد سرُّ غير ذي ضررٍ
ضدَّانِ ينعم جسم المرء بينهما كالغصن ينعم بين الشمس والمطرِ

وقال ابن رشيق: ومما قلته على عقب وداع:

ولم أَدْخِلِ الحمام سَاعَةً بينهم لأجل نعيم، قد رضيت بِبُوسِي
ولكن لتجري عَبرتي مطمئنة فأبكي، ولا يدري بذاك جليسي

وقال آخر: [الوافر].

وحَمَّام كَأَنَّ النار فيه مسقَرةٌ بنيرانِ الجحيمِ
دخلت أنا وَمَنْ أهواه فيه فعاد لنا كجَنَّات النعيمِ

وقال آخر في ذم حَمَام: [المقارب]

وحَمَّام سُوءٌ وَخِيمُ الهوا قليل المياه كثير الزُحَامِ
فما للقيام به من قعودٍ ولا للقعود به من قِيَامِ
حنيَّاته عطفات القِسي وقطراته صائبات السُّهَامِ

وقال آخر في تعجيل الخروج منه: [مجزوء الرمل]

خذ من الحمام واخرج قبل أن يأخذ مِنكَ
خَدَّتْنِ عَنْنِه وإلا حَدَّثَ الحَمَّامُ عَنْكَ

وقال ابن رشيق: [الوافر]

وَمُرَّتْهُنَّ لَدَى الحَمَّامِ أَضْحَى وحالاه لأصحاب السَّعِيرِ
إذا سئموا العذاب أو استغاثوا أغاثوهم بباب الزمهريرِ
كذلك حاله حَرّاً وبردأً ببيت الحوض أو بيت الطهورِ
وطال به انتظارُ مُواعيده فقد زاد الشقي على النُّظِيرِ

وله أيضاً: [الطويل]

سأشكر للحَمَّام بدءاً وعودةً أيادي بيضاً ما لهنَّ ثمينُ

جلاك على عينيَّ عُريانَ حاسراً فرحتَ بتطليقي وأنتَ قمين
وطهر قلبي من هواك بباردٍ وسُخِّنْ نقرَ الجفن وهو سَخِينُ

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الحمَّام يذكُرُ جهنم، وينقي الدَّرَن.

وقال عليّ رضي الله عنه: بشس البيت الحمَّام! تُكشَف فيه العورات، وترتفع فيه الأصوات، ولا يُقرأ فيه آية من كتاب الله تعالى.

ودخله بعضُ الأمراء مع الرقاشي فقال له: امدحه، فقال: يذهب القشافة، ويعقب النظافة، ويفشُّ الثَّخمة، ويطيَّب الثَّعْمَة، فقال: ذمه، فقال: يهتك الأستار، ويؤلف الأقدار، ويذهب بالوقار.

قوله: «إذا شئت فالسرعة السرعة»، يقول إذا شئت أن تقصد الحمَّام فالزم السرعة، وعجل الرجعة، وكرزهما تأكيداً، والفعل الناصب لهما يلزم إضماره مع التكرير، فإذا أفردت جاز إظهار الفعل، ونظيرهما قول العرب: الطريق، الطريق، والأسد الأسد وقال الشاعر: [البسيط]

* خَلَّ الطريقَ لمن يُبْنِي المنارَ لَهُ ^(١) *

فلما سقط التكرير ساغ له إظهار الفعل. مَطْلَعِي: مصدر بمعنى طلوعي. أهل الحجاز يفتحون لامه في المصدر وغيرهم يكسرها. ارتداد طرفك، أي رجوع نظرك.

ثُمَّ اسْتَنْتَ اسْتِنَانَ الْجَوَادِ فِي الْمَضْمَارِ، وَقَالَ لِابْنِهِ: بَدَارِ بَدَارًا! وَلَمْ نَخْلُ أَنَّهُ عَرٌّ، وَطَلَبَ الْمَقَرَّ. فَلَبِثْنَا نَرْقُبُهُ رَقَبَةً الْأَعْيَادِ، وَنَسْتَطْلِعُهُ بِالطَّلَائِعِ وَالرُّوَادِ، إِلَى أَنْ هَرِمَ النَّهَارُ، وَكَادَ جُرْفُ النَّهَارِ يَنْهَارُ. فَلَمَّا طَالَ أَمَدُ الْإِنْتِظَارِ، وَلَاحَتِ الشَّمْسُ فِي الْأَطْمَارِ، قُلْتُ لِأَصْحَابِي: قَدْ تَنَاهَيْتُنَا فِي الْمُهْلَةِ، وَتَمَادَيْنَا فِي الرِّحْلَةِ، إِلَى أَنْ أَضْعَنَّا الزَّمَانَ، وَبَانَ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ مَانَ، فَتَاهَبُوا لِلظَّعْنِ، وَلَا تَلُؤُوا عَلَى خَضْرَاءِ الدُّمَنِ.

(١) عجزه:

وابرز ببرزة حيث اضطرَّك القَدْرُ

والبيت لجبرير في ديوانه ٢١١/١، وشرح التصريح ١٩٥/٢، والصاحبي في فقه اللغة ص ١٨٦، والكتاب ٢٥٤/١، ولسان العرب (برز)، والمقاصد النحوية ٣٠٧/٤، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٧٨/٤، والرد على النحاة ص ٧٥، وشرح الأشموني ٤٨١/٢، وشرح المفصل ٣٠/٢.

استنَّ استنان الجواد: جرى كما يجري الفرس، وإنما يقال: استنَّ في كلامه إذا جرى في غير طريق بتحريف، ومنه قولهم: استنَّت الفصال حتى القرعى، يريدون جرت الفصال وهي تلعب، ومنه قوله عليه السلام: «فاستنَّت شرفاً أو شرفين»^(١). وقال الشاعر يذكر طعنة خرج دمها في جهة: [المقارب]

بمستنَّة كاستنان الخرو فب وقد قطع الحبل بالمرود^(٢)

أراد المهر، ويقال له: خروف وفلو. وقد فسر «استنَّت الفصال» بأن معناه أحسن رعيتهما، حتى كأنه صقلها. والجواد: الفرس الكريم. المضمار: الطَّلَق تجري فيه الخيل، سَمِيَ مضماراً لأن الخيل تَضُمُّر فيه، وذلك أن العرب كانت تَسْمُن الخيل فتستخرجها إلى المِضْمَار، فتجريها طَلَقاً قدر ما تحتَمَل، ثم تزيدها يوماً آخر في الجزى على ذلك، ثم لا تزال تزيدها في الطَّلَق كل يوم، حتى تجري بها الأميال، فيسيل عَرَق الخيل بذلك الجزى، ويشتدُّ لحمها بذلك التضمير قال زهير: [الوافر]

تُضْمَر بالأصائل كل يوم تُسَنَّ على سنايكها القرون^(٣)

القرون: دُفَع العرق، واحدا قرْن.

وقوله: «بدار بدار»، أي سبقاً سبقاً، وهو معدول عن بدر، فيقول لابنه: أبدر بالجرى، واسبق إلى الحمام. لم نَحَلْ: لم نحسب. غَرَّ: خدع. نرقبه، أي ننظر من أين يجيء ويروى: «نرقبه رقة أهلة الأعياد».

وما أحسن قول ابن الزقاق في هذه الرُّقبة: [الطويل]

وشهرٍ أدرنا لارتقاب هلاله جفوناً إلى نحو السماء موائل^(٤)

إلى أن بدا أخوى المدامع أحورٌ يجزّ لأذيال الشَّباب غلائلا

فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً بمن قد حوى طيب السَّمول شمائل

أتطلبك الأبصار في الجوّ ناقصاً وأنت كذا تمشي على الأرض كاملا

وله في معناه: [الكامل]

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٤٨، والاعتصام باب ٢٤، والمناقب باب ٢٨، والتفسير، تفسير سورة ٩٩، والشرب باب ١٢، ومسلم في الزكاة حديث ٢٤، ٢٥، والنسائي في الخيل باب ١، وابن ماجه في الجهاد باب ١٤، ومالك في الجهاد حديث ٣، وأحمد في المسند ٢/٢٦٢، ٣٨٣.

(٢) البيت لرجل من بني الحارث في لسان العرب (خرف).

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ١٨٧، ولسان العرب (سنن)، (قرن)، وتهذيب اللغة ١٢/٣٠٤، وجمهرة اللغة ص ١٣٢١، ومقاييس اللغة ٧/٧٧، وتاج العروس (سنن)، (قرن)، وبلا نسبة في لسان العرب (صوح)، وجمهرة اللغة ص ٧٩٣، والمخصص ٩/١٤٣.

(٤) الأبيات في ديوان ابن الزقاق ص ٢٣٨.

لله شهرٌ ما نظرتُ هلالَهُ إلا كنونٍ أو كعطفة لام^(١)
حتى تبدّي لي أغنٌ مهفهفٌ بضياهه ينجابُ كلُّ ظلامٍ
فطفقت أهتِفُ بالأنام ضللثُم وغلطثُم في عدّة الأيام
ما جاءنا شهرٌ لأول ليلة مذ كانت الدنيا ببدر تمام

نستطلعها، أي نلتمس طلوعه. الطلائع: الباحثون عليه. والرواد: الطالبون له، وأصل الطلائع الباحثون عن أخبار العدو. والراصدون في الطرقات، الواحد طليعة، وأصل الرواد الطالبون للمرعى. هَريم: شاخ، ومعناه قارب أن يتمّ ينهار: ينهدم. والجُرْف: ما يأكله الوادي، استعاره للنهار. لاحت: ظهرت والأطمار: الثياب الخلقة، أراد أن ثوب الشمس وهو ضوءها قد تغيّر وبلى عند الغروب، وبعضهم يستعمل هذه الاستعارات في الشتاء وغروب الشمس.

ومما يستغرب من ذلك قول العلويّ الأصبهاني: [الطويل]

ومجلسٍ شربٍ جنّته مطرباً عشياً وعينُ الشمس في الأفق تنعسُ

وقال ابن الرومي: [الطويل]

كأنّ جنوح الشمس ثم غروبها وقد جعلت في مجنح الليل تمرّضُ
تخاوضُ عينٍ بينَ أجفانها الكرى يرتنق منها النوم وهي تغمّضُ

وقال أيضاً: [الطويل]

إذا رتعت شمسُ الأصيل ونقضتْ على الأفقِ الغربيّ وزساً مُدعزعا
وودّعت الدنيا لتقضي نحبّها وشوّل باقي عمرها فتشغشعاً
ولاحظت الأنوار وهي مريضةٌ وقد وضعت خذاً على الأرض أضرعاً
كما لاحظت عواده عينٌ مدنفٍ توجّع ما أوصابه ما توجّعاً

أخبرني ابن منصور، قال: خرجتُ بخارج فاس عشية مع فتى وراق، فنظر إلى صفرة الشمس واستنشق برد النسيم، وأنشدني مرتجلاً: [خلع البسيط]

انظر إلى الشمس في الأصيل كأنّها وجئتْنا عليل
ورقّ هذا النسيمُ حتّى كأنما يشتكي نحولي

وقال ابن الزقاق: [الكامل]

وعشيةٍ لبست ملاء شقيق تُزهى بلسونٍ للحدود أنيق^(٢)

(٢) الأبيات في ديوان ابن الزقاق ص ٣٠٦.

(١) الأبيات في ديوان ابن الزقاق ص ٢٥٨.

أبقتُ بها الشَّمْسُ المَنِيرَةُ مِثْلَ مَا أبقي الحياءُ بوجنتي معشوق
لو أستطيع شربُها كلفاً بها وعدلت فيها عن كؤوس رحيق
وقال ابن سراج : [الكامل]

والشمس تنفض زعفراناً بالربا وتبت مسكتها على الغيطان
وما أحسن قول الرّصافي في معناه : [الكامل]

وعشي أنسٍ للسرور وقد بدا من دون قُرصِ الشَّمْسِ ما يتوقّع^(١)
سقطت ولم تملك يمينك ردها فوددت يا موسى لو أنك يُوشعُ

وقال ابن الرومي في طلوع الشمس في خلل السحاب وذكر امرأة : [الوافر]
تريك بياض غُرَّتِها ووجهاً كقرن الشَّمْسِ أغسق ثم زالاً
أصاب خصاصةً فبدا كليلاً كلاً وانفل سائره انفللاً

قوله : «بدا كليلاً» إشارة إلى أنه عندما بدا غاب بسرعة، وأذكر «كلاً» في المقامة التاسعة والثلاثين .

وقال ابن المعتز في نحوه : [الوافر]
تظلّ الشمسُ ترمقنا بلحظ مريض مدنفٍ من خلفٍ سيّثٍ
تحاول فتقّ غيم وهو يأبى كعنين يريد نكاح بكرٍ

قوله : «تناهينا»، أي بلغنا النهاية، والمهلة : التراخي، يقول : قد تراخينا في انتظاره حتى بلغنا الغاية في ذلك . «تمادينا في الرحلة»، هذا على حذف مضاف للعلم به، تقديره : تمادينا في ترك الرحلة وانتظارها، ومثل هذا الحذف جائز في النظم والنثر وأنشد أبو علي : [البسيط]

أنا النذيرُ لكم مني مجاهرةً كي لا ألام على نهبي وإنذاري
أي على تركي النهي والإنذار، وقال آخر :

وأهلك مهرَ أبيك الدّواء ليس له من طعام نصيبٍ

أي فقد الدواء، وجاء في القرآن ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف : ٨٢] أي أهل القرية، و ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ﴾ [محمد : ١٣]، أي من أهل قريتك، ومثل هذا كثير في القرآن والكلام الفصيح، بما لا يتم المعنى إلا بتقديره؛ فالذي غلظ الحريري

(١) البيتان في ديوان الرصافي ص ١٠٤ .

فقال: لو تبادت بهم الرحلة لكانوا في سير متصل، قد جهل الكلام الفصيح فأراد: طالت بنا هذه السفرة. وتمادى الشيء فهو متمادٍ، إذا طال فيه المدى، وهو الغاية البعيدة. يقول: تأخرنا عن السفر اليوم لتمادينا في انتظاره، فطالت علينا السفرة لعطلة السفر، حتى أضعنا اليوم الذي انتظرناه فيه حيث لم نسافر فيه. والزمان: اليوم. بأن: تبين. مان: كذب؛ يقال منه: مان يمين مئناً، وأما مائه يمونه مؤناً، فقام بمؤنته. قوله: «فتأهبوا»، استعدوا. الظعن: الرحيل ولا تلووا: تعرجوا. خضراء الدمن: عشب المزابل، هي حسنة المنظر سيئة المخبر، وإذا يبست لم ينتفع بعودها لخوره وضعفه، فشبّه بها أبا زيد لحسن ظاهره فيما أبدى لهم من فصاحته، وسوء باطنه في كذبه وإخلاف وعده، حتى عطلهم عن سفرهم نهراً في انتظاره، قال النبي ﷺ: «إياكم وخضراء الدمن»، ف قيل له: وما خضراء الدمن؟ فقال: «الجارية الحسنة في المنبت السوء».

وَنَهَضْتُ لِأَخْدِجِ رَاحِلَتِي، وَأَتَحَمَّلُ لِرِخْلَتِي، فَوَجَدْتُ أَبَا زَيْدٍ قَدْ كَتَبَ، عَلَى الْقَتَبِ: [الكامل]

يَا مَنْ غَدَا لِي سَاعِدًا وَمُسَاعِدًا دُونَ الْبَشَرِ
لَا تَخْسِبَنَّ أَتْيَ نَائِي لَكَ عَنْ مَلَالٍ أَوْ أَشْرِ
لِكَيْئَنِّي مُذْ لَمْ أَزَلْ مِمَّنْ إِذَا طَعِمَ انْتَشَرَ

قال: فأقرأت الجماعة القَتَبَ، لِيَعْدِرَهُ مَنْ كَانَ عَتَبَ فَأَعْجِبُوا بِخُرَافَتِهِ، وَتَعَوَّذُوا مِنْ آفَتِهِ.

ثُمَّ إِنَّا طَعَنَّا وَلَمْ نَذَرِ مِنْ اعْتَاَصَ عَنَّا.

قوله: «أحدج»: أي اجعل عليها الحدج، وهو مركب من مراكب النساء، وأراد أرحل الناقة. وراحلتها: ناقته. أتحمّل لراحلتي، أو قِرْ حُمْلِي للرحيل، يقال: تحمّل القوم، إذا عبّوا أحمالهم وارتحلوا. والقَتَبُ: الرِّخْل. قوله: «ساعدا»، أي ذراعاً يستعين به. مساعداً: موافقاً. نأيتك: بعدت عنك. أشّر: بطر وعدم شكر، يقال: أشّر الرجل يَأْشِرُ أَشْرًا، إذا بطر، قال الأخطل يذكر بني أمية: [البسيط]

أَعْطَاكُمْ اللَّهُ جَدًّا تُنْصَرُونَ بِهِ لَا جَدَّ إِلَّا صَغِيرٌ بَغْدُ مُحَقَّرٌ^(١)
لَمْ يَأْشُرُوا فِيهِ إِذْ كَانُوا مَوَالِيَهُ وَلَوْ يَكُونُ لِقَوْمٍ غَيْرِهِمْ أَشْرُوا

(١) البيتان في ديوان الأخطل ص ١٠٤.

قوله: «مذ لم أزل»، أي مذ بنئت ووجدت. انتشر: ذهب. عتب: لام وسخط فعله. خرافته: حديثه الملهي.

[حديث خرافة]

وحديث خرافة مثل سائر على السنة الناس في القديم والحديث، يضرب لكل حديث لا حقيقة له. ووقع في أمثال المفضل بسند يصل إلى عائشة رضي الله عنها، أنها قالت للنبي ﷺ: حدثني حديث خرافة^(١)، فقال: رحم الله خرافة، كان رجلاً صالحاً، فأخبرني أنه خرج ذات، ليلة فلقني ثلاثة نفر من الجن فسبوه، فقال أحدهم: نغفو عنه، وقال آخر نقتله، وقال آخر: نستعبده، فبينما هم يتشاورون في أمره، إذ ورد عليهم رجل، فقال: السلام عليكم. فقالوا: وعليك السلام، قال: وما أنتم؟ قالوا: نفر من الجن، أسرنا هذا فنحن نأتمر في أمره، فقال: إن حدثتكم حديثاً عجيباً، أتشركوني فيه؟ قالوا: نعم، قال: إني كنتُ ذا نعمة فزالت، وركبني دين، فخرجت هارباً، فأصابني عطش شديد، فسرت إلى بئر فنزلت لأشرب، فصاح بي صائح من البئر: مه! فخرجت منها ولم أشرب، فغلبني العطش، فعدت، فصاح بي، ثم عدت الثالثة فشربت، ولم ألتفت إليه فقال: اللهم إن كان رجلاً فحوّله امرأة، وإن كان امرأة فحوّلها رجلاً، فإذا أنا امرأة، فأتيت مدينة فتزوّجني رجل، فولدت منه ولدَيْن، ثم عدتُ إلى بلدي، فمررت بالبئر التي شربت منها، فنزلت فصاح بي كما صاح في الأول، فشربت ولم ألتفت له، فدعا كالأول، فعدتُ رجلاً كما كنت. فأتيت بلدي، فتزوّجت امرأة، فولدت منها ولدَيْن، فلي ابنان من ظهري وابنان من بطني. فقالوا: إن هذا لعجيب، أنت شريكنا، فبينما هم يتشاورون إذ ورد عليهم ثور يطير فلما جاوزهم، إذا رجل بيده خشبة، وهو يحفز في إثره، فوقف عليهم فسلم، فردّوا وسألهم، فردّوا عليه مثل ردهم على صاحبهم؛ فقال: إن حدثتكم بحديث أعجب من هذا أتشركوني فيه؟ قالوا: نعم قال: كان لي عمّ، وكان موسراً، وكان له ابنة جميلة، وكنا سبعة إخوة، وكان لعمي عجل يريّه، فانفلت، فقال: أيكم يرّده فابنتي له؛ فأخذت خشبتي هذه، واتزّرت، ثم حفزت في إثره وأنا غلام، وقد شئت، فلا أنا ألحقه ولا هو يكلّ؛ فقالوا: إن هذا لعجيب، أقعد فأنت شريكنا. فبينما هم يتشاورون، إذ ورد عليهم رجل على فرس أنثى، وخلفه غلام على فرس ذكر، فسلم كما سلم أصحاباه فردّوا عليه كرّدهم على صاحبيه. فسألهم فأخبروه الخبر، فقال لهم: إن حدثتكم بحديث أغرب من هذا، أتشركوني فيه؟ فقالوا: نعم، قال: كانت لي أم خبيثة - ثم قال للفرس الأنثى الذي تحته: أكذلك هو فقالت: برأسها نعم - قال: وكنتُ أتهمّها بهذا العبد - وأشار إلى الفرس، الذي تحت غلامه: أهكذا؟ فقال برأسه: نعم - فوجّهت بغلامي هذا الراكب ذات يوم في بعض حاجاتي،

فحبسته عندها فأغفى، فرأى في منامه كأنها صاحت صنيحة، فإذا هي بجُرْدٍ قد خرج، فقالت: اسجد، فسجد، ثم قالت: اكرب فكرب، ثم قالت: ادرس فدرس، ثم دعت برحاً فطحنت قدح سويق، فأنت به الغلام، فقالت له: انت به مولاك، فأتاني به، فاحتلت عليهما حتى سقيتهما القدح، فإذا هي فرس أنثى، وإذا هو فرس ذكر، قال: أكذلك؟ قالت الفرس الأنثى برأسها: نعم، وقال الفرس الذكر برأسه: نعم، فقالوا إن هذا أعجب شيء سمعناه، أنت شريكنا. فأجمع رأيهم فأعتقوا خرافة فأتى النبي ﷺ وسلم فأخبره بهذا الحديث، فما جاء من الأحاديث المحالّة نُسِبَ إلى خرافة صاحب الحديث.

قوله: «آفته» أي ضرره. ظعنًا: رحلنا. اعتاض: استبدل.

المقامة الخامسة

وهي الكوفة

حكى الحارث بن همام قال: سَمَزْتُ بِالْكُوفَةِ فِي لَيْلَةٍ أُدِيمُهَا ذُو لَوْنَيْنِ، وَقَمَرُهَا كَتَغْوِيدٍ مِنْ لَجِينٍ، مَعَ رُقَّةٍ غُدُّوا بِلَبَّانِ الْبَيَّانِ، وَسَحَبُوا عَلَى سَحْبَانٍ ذِيلِ النَّسِيَانِ، مَا فِيهِمْ إِلَّا مَنْ يُحَفِّظُ عَنْهُ وَلَا يُتَحَفَّظُ مِنْهُ، وَيَمِيلُ الرَّفِيقُ إِلَيْهِ، وَلَا يَمِيلُ عَنْهُ، فَاسْتَهْوَانَا السَّمَرُ، إِلَى أَنْ غَرَبَ الْقَمَرُ، وَعَلَبَ السَّهَرُ. فَلَمَّا رَوَّقَ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا التَّهْوِيمُ، سَمِعْنَا مِنَ الْبَابِ نَبَأَ مُسْتَنْجِحٍ، ثُمَّ تَلَتْهَا صَكَّةٌ مُسْتَفْتِحٍ، فَقُلْنَا: مَنْ الْمُلِمُّ، فِي اللَّيْلِ الْمُدْلِهِمْ؟ فَقَالَ:

[الكوفة]

سَمَزْتُ بِالْكُوفَةِ. الكوفة بلد بالعراق مشهور بينه وبين بغداد ثلاثون فرسخاً، وسميت كوفة لاستدارتها، أخذت من الكوفان، وهي الرملة الشديدة البياض، وقيل: سميت كوفة لاجتماع الناس فيها، من قولهم: تكوَّفَ الرمل تكوِّفاً، إذا ركب بعضه بعضاً، وقيل: سميت كوفة، لأنها قطعت من البلاد، من قولهم: أعطيت فلاناً كيفةً، أي قطعة، وكفت وكيف كيفا: قطعت والكوفة «فُعلة» منه، قُلِبَتِ الْيَاءُ وَأَوَّاءُ لِلضَّمَّةِ الَّتِي قَبْلَهَا. وهي مدينة العراق الكبرى، والمَصْرُ الأعظم وقبة الإسلام، ودار هجرة المسلمين، وأول مدينة اختطها المسلمون بالعراق.

وذكر شيخنا أبو الحسن بن جبُّير في رحلته حاجاً، أنه دخل الكوفة في أول محرَّم سنة تسع وتسعين وخمسمائة، فقال: هي مدينة كبيرة، وقد استولَّى الخراب على أكثرها، فالعامر منها أقلُّ من الخراب، ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها، وهي لا تزال تضرُّ بها، وكفالك بتعاقب الأيام والليالي ما حقاً ومفنياً! وبنائها بالآجر خاصّة، ولا سور لها. والجامع العتيق آخرها ممّا يلي شرق البلد، ولا عمارة تتصل به من جهة الشرق. وهو جامع كبير، في الجانب القبليّ منه خمس أبلطة، وفي سائر الجوانب بلاطتان متّسعتان، وهي على أعمدة من السَّوَارِي المصنوعة من صَمِيمِ الحجارة المنحوتة قطعة على قطعة، مفرّغة بالرّصاص، ولا قسيّ عليها، وهي في نهاية من الطول متصلة

بسقف المسجد، فتحار العيون في تفاوت ارتفاعها، فما رئي في الأرض مسجد أغلى سقفاً منه، ولا أطول أعمدة، ولهذا الجامع آثار كثيرة منها بيت بإزاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة، يقال إنه كان مُصَلَّى الخليل إبراهيم عليه السلام، وعليه ستر أسود صوناً له، ومنه يخرج الخطيب لابساً ثياب السواد للخطبة، والناس يزدحمون على هذا البيت للصلاة فيه، وبمقربة هذا البيت عن يمين القبلة محراب مَحَلَّق عليه بأعواد الساج، كأنه مسجد صغير مرتفع عن صحن البلاط، هو محراب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وفيه ضربه الشقيّ عبد الرحمن بن مُلَجَم، فالناس يصلُّون فيه باكين داعين، وفي الزّواية من البلاط القبليّ المتصل بآخر البلاط الغربيّ شبه مسجد صغير مَحَلَّق عليه أيضاً بأعواد الساج، وهو مفارُ الثُّور الذي كان آية نوح عليه السلام، ويتصل بالجدار القبليّ فضاء، يقال إنه. كان منشأ السفينة.

ومع هذا الفضاء دار عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه - تلقينا هذه الآثار من أشياخ البلد وفي الجهة الشرقيّة بيت قبر مَسْلَمَة بن عَقِيل، وفي جوف الجامع سقاية كبيرة فيها ثلاثة أحواض كبار، وفي غربيّ المدينة على مقدار فرسخ المشهد الشهير المنسوب لعلي بن أبي طالب حيث بركت ناقته، وهو محمول عليها ميتاً، وفيه قبره، والله نعالى أعلم بصحة ذلك. والفُرات في الجانب الشرقيّ على قدر نصف فرسخ، والجانب الشرقي كله حدائق نخل ملتفة يمتد سوادها امتداد البصر.

قوله: «سمرت» أي ذهب نومي. الأديم: الجلد، وأراد أن لون الليلة فيه سواد وبياض، لأن قمرها ناقص، ولذلك جعله. كتعويذ من الجُنّ؛ وهو خرز فضة، يُستعمل مستديراً استدارة القمر، وبعض الدائرة، فارغ فيربط في الدائرة خيط، فيعلّق في أعناق الصبيان.

[مما قيل في الهلال شعراً]

وقال فيه السكرادي: [الكامل]

م فففيه همّ قد أمضّهُ	قُمْ سَلْ هَمِّي بالمدّ
ء كأنه تعويذ فضّهُ	أو ما ترى قمر السّما
ق تخالّه في الخدّ عَضّهُ	فإذا ألمّ به الممحا

وعلى معنى البيت الآخر، قال إسماعيل القاضي يصف الهلال: [مجزوء الخفيف]

واخش صَرْفِ النوائبِ	اسقني قبل صاحبي
خُ خلال الغيّاهِبِ	فالهِلال الذي يلو
غ لصيد الكواكبِ	مثل فخ اللجين صي

وقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب: [المنسرح]

لَمَّا رَأَيْتَ الْهَلَالَ مُنْطَوِيًّا فِي غَرَّةِ الْفَجْرِ قَارَنَ الزُّهْرَةَ
شَبَّهْتُهُ وَالْعِيَانُ يَشْهَدُ لِي بِصَوْلَجَانٍ أَوْفَى لَضَرْبِ كُرَّةِ
وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو الْحَسَنِ بْنُ لُبَّالٍ : [مَجْزُوءُ الرَّجْزِ]

انْظُرْ إِلَى الْهَلَالِ إِذْ لَاحَ بِهِيَّ الْمَنْظَرِ
كَزُورِقٍ مِنْ فُضَّةٍ وَسَطَ لُجَّيْنِ أَخْضَرِ
أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ الْمَعْتَزِ : [الْكَامِلُ]

أَهْلًا بِفِطْرٍ قَدْ أَنْارَ هَلَالُهُ فَالآنَ فَاغْدُ إِلَى الْمُدَامِ وَبَكْرِ
وَانْظُرْ إِلَيْهِ كَزُورِقٍ مِنْ فُضَّةٍ قَدْ أَثْقَلَتْهُ حَمُولَةٌ مِنْ عَنَبِرٍ
وَلَهُ أَيْضًا : [الْمَنْسَرَحُ]

أَهْلًا وَسَهْلًا بِالنَّايِ وَالْعُودِ وَشَرْبِ كَأْسٍ بِكَفِّ مَقْدُودِ
قَدْ انْقَضَتْ دَوْلَةُ الصِّيَامِ وَقَدْ بَشَّرَ مَرَأَى الْهَلَالِ بِالْعِيدِ
يَتَلَوُ الثَّرِيًّا كِفَاغِرِ شَرِّهِ يَفْتَحُ فَاهَ لِأَكْلِ عَنُقُودِ

وَقَدْ شَبَّهَهُ ابْنُ الْمَعْتَزِ بِقَلَامَةِ الظَّفَرِ ، فَأَحْسَنَ حَيْثُ يَقُولُ : [الْبَسِيطُ]

وَجَاءَنِي فِي قَمِيصِ اللَّيْلِ مُسْتَتِرًا يَسْتَعْجِلُ الْخَطْوَ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ حَذَرٍ
وَلَاحَ ضَوْءُ هَلَالٍ كَادَ يَفْضُحُهُ مِثْلُ الْقَلَامَةِ قَدْ قُدَّتْ مِنَ الظَّفَرِ
وَأَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ الْأَعْرَابِيِّ : [الْمُقَارِبُ]

كَأَنَّ ابْنَ مُزْنَتِهَا جَانِحًا فَسَيْطُ لَدَى الْأَفْقِ مِنْ خِنْصَرٍ^(١)

ابن مزنتها : الهلال . الفسيط : قلامة الظفر .

قوله : «غذوا» : أي ربوا به وجعل غذاؤهم ؛ واللَّبَانُ لِلْأَدَمِيَّاتِ ، وَاللَّبَنُ لِلْأَدَمِيَّاتِ
وغيرهن . سَحَبُوا : جَرَّوْا . سَحْبَانُ : فَصِيحُ الْعَرَبِ ، وَاَنْظَرَهُ فِي السَّادِسَةِ عَشْرَةَ . ذَيْلُ
اللسان : طَرَفُهُ ، يُرِيدُ أَنَّهُمْ بِفَصَاحَتِهِمْ أَتَسَوَّوْا ذِكْرَ سَحْبَانِ ، فَكَأَنَّهُمْ جَرَّوْا عَلَيْهِ ثَوْبَ النَّسِيَانِ
حَتَّى غَطَّوْهُ ، فَلَمْ يَذْكُرْ أَحَدٌ مِنْ هَؤُلَاءِ ، وَأَصْلُ ذَلِكَ أَنَّ يُسَحَّبُ ذَيْلُ الثَّوْبِ عَلَى أَثَرِ
لِيَخْفَى ، كَقَوْلِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ : [الطَوِيلُ]

* تُعْفَى بِذَيْلِ الدَّرْعِ إِنْ جِثَّتْ مَوْتَلِي*

وكقوله : [الطويل]

(١) البيت لعمر بن قميئة في ملحق ديوانه ص ١٩٣ ، ولسان العرب (فسط) ، وبلا نسبة في أساس البلاغة
(فسط) ، وجمهرة اللغة ص ٨٣٥ ، وشرح عمدة الحافظ ص ٤٣٤ ، وكتاب الصناعتين ص ٢٢٣ .

خرجتُ بها تمشي تجرُّ وراءنا على أتريننا ذيلُ مِرْطٍ مُرَحَلٍ^(١)
 قوله: «يُحفظ عنه»، أي هم علماء يروون العلم فيحفظ عنهم. يُتَحَفَّظُ، يُتَحَذَّرُ،
 وأخذ هذا من قول سليمان بن عبد الملك: قد أكلتُ الطَّيِّبَ، ولبست اللِّينَ، وركبت
 الفارَةَ، وتبطَّنت العذراءَ، فلم يبق لي من لذتي إلا صديق أطرح فيما بيني وبينه مؤنة
 التحفُّظ. فهذا الذي طلبه سليمان وجده الحريري في أصحابه، وأصل التحفُّظ الاجتهاد
 في حفظ الشيء وقلة الغفلة في الأمور، كأنه على حذر، وأنشد ثعلب: [الكامل]

إنِّي لأبغض عاشقاً متحفِّظاً لم تنهه أغينُ وقلوبُ^(٢)
 قوله: «يميل الرفيق إليه»، تقول: ملئت إلى فلان، إذا أحببته وتقرَّبت منه، وملت عنه،
 إذا كرهته وبعدت عنه. والرفيق: الصاحب يُرتفق به في السفر. قوله: «استهوانا»، هوى بنا
 وشغلنا. والسَّمر: الحديث يُسمر عليه. وذكر الحريري أن أصل السَّمر ظل القمر، والسَّمر:
 الحديث، ومنه أخذ السمر، وغالب أحوال السَّمار أنهم يتحدثون في ظل القمر - وذكر هذا
 في تفسير الرابعة والأربعين - وهو الأصل، ثم لتسع فيه فصار الجلوس بالليل للحديث يسمى
 سَمراً، على أي حال اتفق. روق: ضرب رواقه، والرواق: الثوب يُستظلُّ به من الشمس،
 يريد أن الليل ضرب عليهم من ظلامه رواقاً فانحجب عنهم به القمر. والبهيم: الخالص
 السواد، والبهيم الخالص من كل لون. والتهويم: النوم بالليل، والتغوير: النوم في القائلة،
 وقد هَوَمَ الرجل، إذا أسقط الثُّعاس رأسه فانتبه بسقوطه فرفعه، فحقيقته سجود الرأس من
 النعاس، قال ذو الرُّمة في ذلك: [الطويل]

وأشعثٌ مثل السَّيف قد لآحَ جسمه وجيفُ المهازى والهموم الأباعِدُ^(٣)
 سقاء الثُّعاس كأسٌ سكر فرأسه لدين الكرى في آخر الليل ساجِدُ

ويقال: خفق رأسه فهو خافق، قال ذو الرمة: [البيسط]

وخافق الرأس فوق الرُّخْلِ قلت له رُغَ بالزَّمام وجوزُ الليل مَرَكُومُ^(٤)

(١) البيت لامرئ القيس في ديوانه ص ١٤، وخزانة الأدب ١١/٤٢٧، والدرر ٤/١٠، وشرح التصريح
 ١/٣٨٧، وشرح شواهد الشافية ص ٢٨٦، وشرح شواهد المغني ٢/٦٥٢، ٩٠١، وشرح عمدة
 الحافظ ص ٤٦٢، ولسان العرب (نير)، وتاج العروس (رجل)، (رجل)، وبلا نسبة في أوضح
 المسالك ٢/٣٣٩، ووصف المباني ص ٣٣٠، وشرح شافية ابن الحاجب ٢/٣٣٨، ومغني اللبيب
 ٢/٥٦٤، وجمع الهوامع ١/٢٤٤.

(٢) البيت بلا نسبة في لسان العرب (حفظ)، وتاج العروس (حفظ).

(٣) البيتان في ديوان ذي الرمة ص ١٣٠.

(٤) البيت لذی الرمة في ديوانه ص ٤٢٠، ولسان العرب (زهغ)، وتهذيب اللغة ٣/١٠١، ومقاييس اللغة
 ٣/٣٧ ومجمل اللغة ٣/٣٢، وتاج العروس (خفق)، وديوان الأدب ٣/٣٩٦، وبلا نسبة في جمهرة
 اللغة ص ٨١٨، ومقاييس اللغة ٣/٢٨٦، والمخصص ٧/١٥٢، ١٢/١٠٤.

وقال الرصافي فأحسن : [الخفيف]

ومجدّين للشّرى قد تعاطوا غفوات الكرى بغير كؤوس
جَنَحُوا وانحنوا على العيس حتى خَلُثهم يلثمون أيدي العيس
نبذوا الغمض وهو حلّو إلى أن وجدوه سلاقة في الرؤوس

قوله : «نبأة»، أي صوت. مُستنبج : يحكي نباح الكلاب، وكان الرجل إذا تلف بالليل بالصحراء ولم يدر أين يتوجّه، حاكى بصوته نباح الكلب، فإن كان قريباً من العمران تَبَحَثَ لنباحه كلاب الحيّ، فسمع أصواتها، فقصد الحيّ فتسمّي العرب مَنْ يفعل هذا المستنبج. وأنشد أبو عليّ في نواته : [الطويل]

ومستنبج بات الصدى يستتيهه فتاة وجوز الليل مضطرب الكسر
رفعَتْ له ناراً ثقبوا زنادها تليح إلى الساري : هلم إلى قدري

وقال حسان بن مائل : [الطويل]

ومستنبج في جُنج ليل دعوته بمشوبة في رأس صمّدٍ مقابل^(١)
فقلت له أقبل، فإنك راشد وإنّ على النار التدى وابنٌ مائل^(٢)

وقد أنشد أبو تمام في حماسه في باب الأضياف في المستنبج ما فيه كفاية؛ فليُنظر هنالك.

قوله : «تلتها»، أي تبعها. صكة : دفعة. مستفتح : طالب فتح الباب الملمّ : الزائر : المدلهم : الشديد السواد، من الدّهمة، ولامه زائدة [الرجز]

يا أهلَ ذا المَعْنَى وُقِيتُمْ شَرّاً ولا لَقِيتُمْ ما بَقِيتُمْ ضُرّاً
قد دَفَعَ اللَّيْلُ الَّذِي اكْفَهَرَا إلى ذُرَاكُم شِعْثاً مُغْبَرّاً
أخا سِفارٍ طَالَ واسْبَطَرَا حتّى انثنى مُحَقَّقاً مُضْفَرّاً
مِثْلَ هِلَالِ الْأَفْقِ حِينَ افْتَرَا وقد عَرَا فَنَاءَ كُومٍ مُغْتَرّاً
وَأَمَّكُمْ دُونَ الْأَنَامِ طُرّاً يَبْغِي قَرَى مِنْكُمْ وَمُسْتَقَرّاً
فَدُونَكُمْ صَيْفاً فَنُوعاً حُرّاً يَرْضَى بِمَا اخْلَوْلَى وَمَا أَمَرّاً
وَيَنْثَنِي عَنْكُمْ يَنْثُ الْبِرّاً

(١) الأبيات في ديوان الرصافي ص ١٠٣.

(٢) البيت لحسان بن مائل في لسان العرب (لجج)، وتاج العروس (لجج).

المُعْنَى : المنزل . وقُيِّمَ : كفيتم ، وإنما دعا لهم بهذا ، لأن في حديث أبي سعيد الخُدْرِي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «يوشك قلوبُ الناس أن تملأَ شراً حتى يجري الشرُّ فضلاً بين الناس فلا يجد قلباً يدخله» .

اكفهرَ : تراكم ظلامه وكثر . ذَرَأَ : شَعَثاً : متغيّر الشعر ، والشعث : ترك غسل الرأس حتى يتغيّر . مغبراً : عليه الغبار ، وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلاً وسخت ثيابه ، فقال : «أما وجد هذا ما ينقي به ثيابه!» . ورأى رجلاً شعث الرأس ، فقال : «أما وجد هذا ما يسكن به شعره!» أخاً سيفار : صاحب أسفار ، أي ملازم لها . اسبطرَ : امتدّ وطال سفره انثنى : رجع عاد . محقوقفاً : منحنيأً . الأفق : ناحية السماء . افتترَ : انفتحت أطرافه ولم يتقارب ، كأنه فرَّ هذا من هذا ، ومنه فررت الدابة ، وافتترَ : ضحك ، وشبه انحنأؤه من السفر بدائرة القمر الناقص ، وأكثر ما يقعون هذا التشبيه على الانحناء من الكبير ، قال الشاعر : [الوافر]

تقوس بعد مرّ العمر ظهري وداستني الليالي أي دؤس
فأمشي والعصا تهوي أمامي كأن قوامها وتر لقوسي
وقال ابن لبّال : [المنسرح]

قوس ظهري المشيب والكبر والدهر يا عمرو كلُّه عبّر
كأنني والعصا تدب معي قوسها وهي في يدي وتر

قوله : «عراً» : قصد . فناءكم : منزلكم ، وفناء الدار : ما أحاط بها من الأرض فحمتها . معتراً : قاصداً لطلب معروفكم ، أمكم : قصدكم . طراً : أجمع . يبغي قرى : يطلب طعاماً . احلولى : اشتدت حلاوته . ينث : يفشي وينشر . البر : الإحسان

قال الحارث بن همّام : فلما خَلَبْنَا بِعُدُوبَةِ نَطْقِهِ ، وَعَلِمْنَا مَا وَرَاءَ بَرْقِهِ ، ابْتَدَرْنَا فَتَحَ الْبَابِ وَتَلَقَّيْنَاهُ بِالْتَّرْحَابِ ، وَقُلْنَا لِلْغُلَامِ : هَيَّا هَيَّا ، وَهَلُمَّ مَا تَهَيَّا .

فقال الضيف : وَالَّذِي أَحْلَنِي ذَارَكُم ، لَا تَلَمَّظْتُ بِقِرَاكُم ، أَوْ تَضَمُّوا لِي الْأَتَّخِذُونِي كَلَاً ! وَلَا تَجْشُمُوا لِأَجْلِي أَكْلاً ؛ فزُبْ أَكْلَةً هَاضَتِ الْإِكِلَ ، وَحَرَمَتْهُ مَآكِلَ ، وَشَرُّ الْأَضْيَافِ مَنْ سَامَ التَّكْلِيفِ ، وَآذَى الْمُضِيفِ ، خُصُوصاً أَدَى يَغْتَلِقُ بِالْأَجْسَامِ ، وَيُقْضِي إِلَى الْأَسْقَامِ ، وَمَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ الَّذِي سَارَ سَائِرُهُ : «خَيْرُ الْعَشَاءِ سَوَافِرُهُ» ، إِلَّا لِيُعْجَلَ النَّعْشِي ، وَيُجْتَنَّبَ أَكْلُ اللَّيْلِ الَّذِي يُعْشِي ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تَقْدَ نَارَ الْجُوعِ ، وَتَحُولَ دُونَ الْهَجُوعِ .

قوله : «خَلَبْنَا»، أي خدعنا . علمنا ما وراء برقه، يريد أن ما أبدى لهم من الكلام الفصيح دلهم على ما عنده من العلم، كما أن البرق إذا ظهر ولمع عَلِمَ ما وراءه من المطر . ابتدرنا : استبقنا، التُّرحاب : من قولهم . مرحباً مرحباً . هَيَّا هَيَّا، أي سق سق . هلم ما تهَيَّا، أي أَحْضِرْ ما تيسر . لا تَلَمَّظْ بقراكم : لا تذوّقْ بطعامكم، وأصل التَلَمَّظْ تتبع اللسان ما بقي من الطعام في الفم بعد الأكل . كَلَّا : ثقيلاً، وفلان كُلُّ على أهله، إذا لم يكفهم مؤنة نفسه، والكُلُّ : الإعياء، وجمعه كلول، وعلى فلان كُلُّ كثير، قال النابغة الجعديّ : [الطويل]

رَأَيْتُمْ بَنِي سَعْدٍ كُلُّوْلاً كَثِيْرَةً شَهِيدٌ بِذَاكَ ابْنَا حُمَادِ بْنِ أَحْمَرَ^(١)

تَجَشَّمُوا : تكلفوا أكلًا : طعاماً، والأكلة : الغداء والعشاء، والأصل في هذا أنَّ الأكل بالفتح، مصدر أكل، وبالضمّ ما أكل، والأكلة بالفتح : المرّة الواحدة، وبالضمّ اللقمة، وبالكسر هيئة الأكل . هاضت : أضعفت، وأدخلت عليه هيضةً، وهي القيء والاسهال، وأصل المثل : رب أكلة تمنع أكالات ؛ وقال ابن هرمة : [الوافر]

وَرُبَّتْ أَكْلَةٌ مَنَعَتْ أَخَاهَا بِلَذَّةِ سَاعَةٍ أَكَلَاتِ دَهْرٍ

وَكَمْ مِنْ طَالِبٍ يُشْفَى بِشَيْءٍ وَفِيهِ هَلَاكُهُ لَوْ كَانَ يَذَرِي

والمآكل : جمع مأكلة أو مأكل، وهي الأكل، وهي أيضاً ما يؤكل سامّ التكليف، أي عَرَضَ مضيفه إلى تكلف ما يشقّ عليه . والأذى : الضرر، والمضيف : صاحب المنزل . يَفِضِي : يُؤُول . سار سائرته : انتشر التحدّث به ومشى في الناس خير العشاء سوافره ؛ بواكره، أي ما أكل منه بضوء النهار، واحداً سافرة، والسافرة : التي سَفَرَتْ نقابها عن وجهها، أي كشفتها ؛ فكأن اللقمة إذا أبصرتها عند أكلها قد سَفَرَتْ الظلام عن نفسها، وتُجمع على سوافر على هذا المعنى، حكى أبو بكر بن شعبان النحويّ، قال : دخلت على محمد اليزيديّ وهو يتغذّى، فقال : يا أبا بكر، خير الغداء بواكره، فخير العشاء ماذا؟ فقلت : لا أدري، فقال : دخلت على حسين بن الخادم، وهو يتغذّى فقال : يا أبا سليمان، خير الغداء بواكره، فخير العشاء ماذا؟ فقلت : لا أدري، فقال : كنت بحضرة الرشيد وهو يتغذّى، فدخل الأصمعيّ، فقال : يا أصمعيّ، خير الغداء بواكره، فخير العشاء ماذا؟ فقال : بواصره، يعني ما يُبَصَّر من الطعام قبل الظلام . وحكى أبو يعقوب في الغداء التأخير . فقال : قال الحكيم - وقيل هو لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه - من سرّه البقاء ولا بقاء، فليبكر الغداء، وليبكر العشاء، وليخفف الرّداء - يريد ثقل الدّين .

التعشيّ : أكل العشاء، وهو ما يؤكل بالعشيّ . يعشيّ : يورث العشاء، وهو سواد البصر ليلاً، قال ابن دُرَيْد : [مجزوء الكامل]

(١) البيت في ديوان النابغة الجعدي ص ٦٥.

وأرى العَشاءَ في العين أكـ شر ما يكون من العَشاء^(١)
أراد من تأخير العشاء، لأن أكل الطعام بالليل يحدث ضعف البصر أكثر من غيره،
وقال كشاجم: [مجزوء الخفيف]

وَنَدِيمٍ مَخَالِفٍ لَا يَشَاءُ الَّذِي أَشَاءُ^(٢)
هو في الصَّخْرِ لِي أَخ وَعَدُوٌّ إِذَا انْتَشَى
اقتُرحت العَشاءَ يو مَا عَلَيْهِ فَأَذْهَبَا
ساعةً ثم قال لي: العَشاءُ يورث العَشاءَ

كأن هذا التطبُّب أخذَه كشاجم من قول [ضيف] الصاحب بن عباد، قال الصاحب:
ما أفحمني أحد كأبي الحسن البديهي، فإنه كان عندي، فقدّمت إليه فاكهة، فأمعن في
المشمش، فقلت: المشمش يلطّخ المعدة، فقال: لا يعجبني المضيف إذا تطبّب، فوددت
أنّي لم أقلها.

وورد النهي عن ترك العشاء في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله
ﷺ: «لَا تَدْعُوا الْعَشاءَ، وَلَوْ بَكَفٍ مِنْ حَشَفٍ، وَإِنْ تَرَكَهُ مَهْرَمَةً»^(٣).

وقوله: «تحول دون الهجوع»، أي تمنع من النوم، وجاء في الحديث النَّهْيُ عَنْ
التَّكْلَفِ، قال سفيان: ذهبت أنا وصاحبٌ لي إلى سلمان، فقال: لولا أن رسول الله ﷺ
نَهَى عَنِ التَّكْلَفِ لَتَكَلَّفْتُ لَكُمْ، ثم جاء بخبز وملح، فقال صاحبي: لو كان في ملحنا
صَعْتَر! فبعث سلمان مطهرته، فأرهنها، فجاء بصعتر، فلما أكلنا قال صاحبي: الحمد لله
الذي أقتننا بما رزقنا، فقال سلمان: لو قنعت لم تكن مطهرتي مرهونة! وجاء في حديث
جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نعم الإدام الخل»^(٤)، وكفى بالمرء إثماً أن
يسخط ما قُرب إليه. الهجوع، أي النوم.

قال: فَكَأَنَّهُ أَطْلَعَ عَلَى إِزَادَتِنَا، فَرَمَى عَنْ قَوْسٍ عَقِيدَتَنَا، لَا جَرَمَ أَنَا أَنْسَاهُ
بِالتِّزَامِ الشَّرْطِ، وَأَتَيْنَا عَلَى خَلْقِهِ السَّبْطِ وَلَمَّا أَخْضَرَ الْعُلَامَ مَا رَاجَ، وَأَذْكَى بَيْنَنَا
السَّرَاجَ، تَأَمَّلْتُهُ فَإِذَا هُوَ أَبُو زَيْدٍ، فَقُلْتُ لِصَاحِبِي: لِيَهْنِكُمُ الضَّيْفُ الْوَارِدُ، بَلْ

(١) البيت في ديوان ابن دريد ص ٣٠.

(٢) الأبيات في ديوان كشاجم ص ١٠٦.

(٣) أخرجه الترمذي في الأطعمة باب ٤٦، بلفظ: «تَعَشَوْا وَلَوْ بَكَفٍ مِنْ حَشَفٍ».

(٤) أخرجه أبو داود في الأطعمة باب ٣٩، والنسائي في الأيمان باب ٢١، وابن ماجه باب ٣٣،
والدارمي في الأطعمة باب ١٨.

الْمُغْنَمُ الْبَارِدُ! فَإِنْ يَكُنْ أَقْلَ قَمَرِ الشُّغْرِ فَقَدْ طَلَعَ قَمَرُ الشُّغْرِ، أَوْ اسْتَسَرَّ بِذُرِّ النَّثْرِ
فَقَدْ تَبَلَّجَ بِذُرِّ النَّثْرِ. فَسَرَتْ حُمَيَّا الْمَسْرَةَ فِيهِمْ، وَطَارَتْ السَّنَةُ عَنْ مَاقِيهِمْ، وَرَفَضُوا
الدَّعَةَ الَّتِي كَانُوا نَوَّوْهَا وَثَابُوا إِلَى نَشْرِ الْفُكَاةِ بَعْدَ مَا طَوَّوْهَا؛ وَأَبُو زَيْدٍ مُكَبُّ عَلَى
إِعْمَالِ يَدَيْهِ، حَتَّى إِذَا اسْتَرْفَعَ مَا لَدَيْهِ، قُلْتُ لَهُ: أَطْرَفْنَا بَغْرِيَّةً مِنْ غَرَائِبِ أَسْمَارِكَ،
أَوْ عَجَبِيَّةً مِنْ عَجَائِبِ أَسْفَارِكَ.

قوله: «عقيدتنا»؛ أي ما انعقدت عليه نيّاتنا، ويقال: رميت عن القوس، ولا يقال:
رميت بها، إلا أن ترميها من يدك. لا جرم، بمعنى حقا، ولا بد ولا محالة. السَّبَطُ:
السهل. راج: تيسر. أذكى: أوقد. السُّرَاج: المصباح تأملته: نظرته ليهنئكم، أي
ليسرّكم. الوارد: القاصد. المغنم البارد: الهنيء الذي يُغْنَمُ دون قتال ولا تعب. أفل:
غاب الشُّعْرِي: كوكب معروف، وهما شعريان: العُبور والغَمِيصَاء، سَمَّوْهَا عُبُوراً لأنهم
يزعمون أنها عبرت المجرة، وسموا الأخرى الغَمِيصَاء لأنها بكت على اختها حتى
غمصت عينها. أي خفيت استسرّ: غاب وخفي. النثرة: ثلاثة أنجم مجتمعة. تبلّج: ظهر
وأضاء. النثر: ضد النظم، يقول: إن غاب قمر السماء الذي يتحدث بضوئه، فهذا أبو
زيد قمر الفصاحة قد طلع، فجددوا حديثكم ودعوا النوم.

سَرَتْ: مشت حُمَيَّا الْمَسْرَةَ: شدة السرور، والحُمَيَّا: حدة الخمر وتسمّى الخمر
الحُمَيَّا. السَّنَةُ: أخفّ من النوم. مَاقِيهِمْ: عيونهم، والمَاقُ: طرف العين من جهة الأنف.
رفضوا: تركوا. الفكاهة: الحديث المظرف، وأصلها المزاح، ومنه قولهم: لا تمازحن
صبيّاً ولا تفاكهنّ أمة، قال ابن الأنباري: المعنى: لا تمازحنّ، إلا أنه استسمح إعادة
اللفظ فأتى بلفظ في مثل معناه، مخالف للفظه. وتفاكهنّ، مشتق من الفكاهة، وهي
المُزَاح، وقال طرفة: [الطويل]

وإن امرأ لم يُعَفْ يوماً فكاهةً لمن لم يُرِدْ سوءاً بها لجهول^(١)

ووصف أبو العيناء بن أبي دواد، فقال: له هزل يؤثّم به، وجدّ يتقدم الجدّ، وبين
ذلك فكاهة تستملّح، ودعابه تُستظرف. ومزح، مصادره ثلاثة: مَزْحٌ ومُزَاحٌ وممازحة.
اليزيدي: بالكسر لا غير. أبو عمرو: ما ذكره اليزيدي مصدر مازحت مُزَاحاً وممازحة.

قوله: «مكب»، أي مائل الرأس. إعمال يديه: استعمالها بالأكل. واسترفع: أمر
برفعه، ويروى «استقرخ»، أي أتم. أطرفنا، أي حدّثنا بطرفة، وهي الحديث المستملّح،
والطرفة عند العرب: الشيء المحدث الذي لم يكن عرف، وجاء فلان بطرفة وشيء

(١) البيت في ديوان طرفة بن العبد ص ١٢٠.

طريف. وهو مشتق من الطريف والطارف، وهما المال المستحدث الذي جمعه الرجل واكتسبه. والتالد: ما ورثه عن الآباء، قال الشاعر: [الطويل]

وأصبح مالي من طريف وتالدٍ لغيري وكان المال بالأمس ماليا
أسمارك: جمع سمر، وهو الحديث يُسمر عليه.

فقال: لَقَدْ بَلَوْتُ مِنَ الْعَجَائِبِ مَا لَمْ يَرَهُ الرَّاءُونَ، وَلَا رَوَاهُ الرَّاءُونَ؛ وَإِنَّ مِنْ أَعْجَبَهَا مَا عَابَتْهُ اللَّيْلَةُ قُبِيلَ انْتِيَابِكُمْ، وَمَصِيرِي إِلَى بَابِكُمْ؛ فَاسْتَخْبَرْنَاهُ عَنْ طُرُقَةِ مَرَّاهُ، فِي مَسَرَحِ مَسْرَاهُ، فقال: إِنَّ مَرَامِي الْغُرْبَةَ، لَفَطَنْتَنِي إِلَى هَذِهِ الثَّرْبَةِ، وَأَنَا ذُو مَجَاعَةٍ وَبُؤْسَى، وَجَرَابِ كَفْؤَادِ أُمِّ مُوسَى. فَتَهَضُّتُ حِينَ سَجَا الدُّجَى، عَلَى مَا يَبِي مِنَ الْوَجَى، لِأَزْتَادَ مُضِيفاً، أَوْ أَقْتَادَ رَغِيفاً، فَسَاقَنِي حَادِي السَّغْبِ، وَالْقَضَاءُ الْمَكْنَى أَبَا الْعَجَبِ، إِلَى أَنْ وَقَفْتُ عَلَى بَابِ دَارٍ، فَقُلْتُ عَلَى بَدَارٍ:

قوله: «ما لم يره الرءاون»، أي الناظرون إليه، وقوله: «ولا رواه الراوون» أي حفظه الحافظون، عابته: شاهدهته ورأيته بعيني. إنتيابكم: قصدكم مصيري: رجوعي. مرآه: رؤيته. مسرح: حيث يسرح ويمشي. مسراه: سيره بالليل مرامي: قواذف الثربة: البلدة مجاعة: جوع. بؤسى: ضرر. جراب: وعاء الزاد. كفؤاد أم موسى، أي فارغاً لقوله تعالى: ﴿وَأُصْبِحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾ [القصص: ١٠].

[موسى عليه السلام]

وسمّي موسى لأنهم وجدوه بين ماء وشجر، ومو بالقبطية هو الماء، وشا الشجر، فعربت فجعلت الشين سيناً. وهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، ولم تزل بنو إسرائيل من عهد يوسف عليه السلام تحت أيدي الفراعنة، وهم على بقايا من دين إبراهيم عليه السلام المشروع له وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم الصلاة والسلام، حتى كان فرعون الذي بعث موسى عليه السلام إليه، ولم يكن منهم فرعون أعنى على الله منه ولا أطول عمراً. وكان شديد الغليظة ستيء الملكة. واسمه الوليد بن مصعب، وكان اتخذ بني إسرائيل خولاً، فصنّف منهم يبنون، وصنّف يحرثون، ومن لا عمل له وظف عليه الجزية، فرأى في منامه أن ناراً أقبلت من المقدس، فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، فسأل عن رؤياه، فقيل له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه رجل يكون على يديه هلاك مضر، فأمر بقتل كل مولود يولد في بني إسرائيل. فجمع القوابل وعهد إليهن بذلك، فذبح الولدان

وعذَّب الحبالى، حتى يطرحن ما في بطونهنّ، حتى كاديفنيهم، فقيل له: إنما هم حَوْلُكَ، وإنك إن تُفْنِهم ينقطع النسل. فأمر بقتل الغلمان عاماً ويُسْتَحْيون عاماً، فولد هارون في السنة التي يستحيون فيها. وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها.

فلما وضعت أمه حَزَنَت لِسَانَهُ، فأوحى الله إليها: أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليمّ - وهو النيل - ولا تخافي ولا تحزني. فعملت تابوتا وجعلته فيه، وألقته في اليمّ، وقالت لأخته: قصّيه، أي اقتفي أثره، فحمله الماء حتى أدخله بين أشجار تحت قصر فرعون، فخرج جوارى فرعون يغتسلن، فوجدن التابوت، فأدخلته إلى آسية امرأة فرعون، وهي بنت مزاحم، إسرائيلية، فكشفت عنه التابوت، فرأته. فرحمته وأخذته، وأخبرت به فرعون، فأراد أن يذبحه، وخَشِيَ أن يكون المولود الذي حَذَرَ منه، فلم تزل به آسية حت تركه لها، وذلك قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرْمًا﴾ [القصص: ٨]، فاللام من ﴿ليكون﴾ للعاقبة، ولم يكن لفرعون ولد، فاتَّخَذَهُ له ولداً، فارتادوا له المرضعات، فلم يقبل ثدي واحدة منهن، ولما غاب أمره عن أمه، كاد قلبها يطير وجداً عليه، فبعثت أخته كأنها تلتمس رضاعه، فلما رأت أسفهم عليه حيث لا يُقبل على مرضعة - وذلك قوله تعالى ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ [القصص: ١٠] قالت: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم؟ فقالوا لها: دلينا على ذلك، فذهبت فجاءت بأمه.

فلما رآته كادت لشدة حبها فيه، وفرحها به أن تقول: هو ابني، وتفتضح، فعصمها الله من ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٢]، فأعطته ثديها، فأخذ يرضعه. فربّته في قصر فرعون، فلما تحرّك عرضته آسية على فِرْعَوْنَ، فلما أخذه مَدَّ موسى يده إلى لحيته فتنفها، فقال فرعون: عليّ بالذباحين، فإنما هو هذا! فقالت آسية: قُرّة عين لي ولك، لا تقتلوه فإنه صبي لا يعقل، ودعت له بحمر وياقوت لتختبره، فطرح جبريل عليه السلام يده في النار وأخذ قطعة منها، فوضعها موسى عليه السلام في فمه، فأحرقته. فتكره فرعون، فكبر في حجره. فلما ترعرع تبناه، فكان يركب مراكبه ويلبس ملابسه، ويدعى ابن فرعون.

ثم إن موسى عليه السلام أخبر أن فرعون قد ركب، فركب أثره، فأدركه ببلد منف، فدخلها وقد أُحْلِيَتْ لفرعون وليس في طرقها أحد، فرأى إسرائيلياً مع قبطي يقتتلان، فاستغاثه الإسرائيلي، فوكز القبطي فقصى عليه، فكان من قصته معهما ما قص الله تعالى في كتابه، حتى خرج خائفاً يترقب إلى مدين.

وأما رجوعه منها إلى فرعون بأنه رسول الله إلى أن غرق فرعون في البحر وجنوده، فمذكور في الثامنة عشرة.

قوله : « نهضت »، أي مشيت. سجا الدجى : سكن بالظلام وغطى كل شيء .
الوجى : الحفا. أرتاد : أطلب. مضيفاً : منزلاً، وأضافه : أنزله . وأضافه : نزل به فهو
ضيفه، أي النازل به . أقتاد : أقود . حادي السغب : سائق الجوع [الرجز]

* * *

حُيِّتُمْ يَا أَهْلَ هَذَا الْمَنْزِلِ وَعَشْتُمْ فِي خَفْضِ عَيْشِ خَضِلِ
مَا عِنْدَكُمْ لَابِنِ سَبِيلِ مُزْمِلِ نَضَوْ سُرَى خَابِطِ لَيْلِ أَلِيلِ
جَوَى الْحَشَى عَلَى الطَّوَى مُشْتَمِلِ مَا ذَاقَ مُذْيُومَانَ طَعْمَ الْمَاكِلِ
وَلَا لَهُ فِي أَزْضِكُمْ مِنْ مَوْئِلِ وَقَدْ دَجَا جُنْحُ الظَّلَامِ الْمَسْبِلِ
وَهُوَ مِنَ الْحَيْرَةِ فِي تَمَلُّلِ فَهَلْ بِهَذَا الرُّنْعِ عَذَبَ الْمَنْهَلِ
يَقُولُ لِي : أَلْقِ عَصَاكَ وَادْخُلِ وَابْشُرْ بِبَشِيرٍ وَقَرَى مُعْجَلِ !

* * *

حُيِّتُمْ : طابت حياتكم، والتحية البقاء . خفض : لين وخفض عيشه خفضاً، إذا
أخضب، خضل : ناعم، وخضل : الشيء يخضل خضلاً : ابتل ابن سبيل : خاطر طريق،
وهو الغريب، وسُمي الغريب ابن السبيل، لأنه إذا ظهر على قوم لا يعرفونه لم يعرف له
نسب إلا السبيل الذي جاء منه . ومزمل : لا زاد له، وأرمل القوم : فنى زادهم .

ومن أبيات اللغز في ابن السبيل : [الطويل]

ونحنُ ابن مَنْ لَا يَنْكِزُ النَّاسُ فَضْلَهُ وَلَيْسَ لَهُ فِي النَّاسِ مِنْ طَالِبٍ وَثَرٌ
فَإِنْ تَحَقَّقُوا فِينَا أَبَانَا فَحَقَّنَا رَعَيْنُكُمْ وَإِلَّا أَوْقَدْتَ نَارَكُمْ شَرًّا

أي سببتم في كل مكان، كما قال الآخر : [الطويل]

وَأَنْتَ الَّذِي شَبَّبْتَنِي قَبْلَ شَبَبَتِي وَأَوْقَدْتَ لِي نَاراً بِكُلِّ مَكَانٍ
ومنها أيضاً : [الوافر]

وَأَحْيَاناً يَكُونُ كَبِيرٌ سَنٌ وَأَحْيَاناً يَكُونُ مِنَ الشُّبَابِ
وَمَنْسُوبٌ إِلَى مَنْ لَمْ يَلِدْهُ كَذَلِكَ اللَّهُ أَتَزَلَّ فِي الْكِتَابِ

قوله : « نضو سُرَى »، أي هزبل من مشى اللَّيْلُ في الأسفار . وخابط ليل : الذي
يمشي فيه على غير هداية . أَلِيل : شديد السواد . جوى الحشى : فاسد الجوف من
الجوع، وهو الطوى . مشتمل : منضم، أي قد انضم جوفه على الجوع، ففسدت
أحشاؤه . مئول : ملجأ، من وألت إلى كذا، أي لجأت . دجا : ألبس . جنح : سواد :
المسبل . المطبق . تملل : تقلب وتوجع . والزريع : المنزل، والمنهل : موضع الماء .

ويقال: ألقى عصاه، إذا ترك السير وأقام. وروى الأصبعي عن بعض البصريين أنه قال: سُميت العصا عصاً لأن اليد والأصابع تشتمل عليها، وهو من قول العرب: عصوت القوم إذا جمعتهم على خير أو شر، ويقال: عُصِيَ بالسيف يَعْصِي إذا ضُرب به كما يضرب بالعصا. بشر: طلاقاً وجه.

قَالَ: فَبَرَزَ إِلَيَّ جَوْذَرٌ، عَلَيْهِ شَوَذَرٌ، وَقَالَ: [الرجز]

وَحُرْمَةِ الشَّيْخِ الَّذِي سَنَّ الْقِرَى. وَأَسَّسَ الْمُحْجُوجَ فِي أَمِّ الْقُرَى
مَا عِنْدَنَا لِطَارِقٍ إِذَا عَرَى سِوَى الْحَدِيثِ وَالْمُنَاحِ فِي الدَّرَا
* فَمَا تَرَى فِيمَا ذَكَرْتُ. مَا تَرَى *

برز: خرج. جؤذر: ظني، وأصله ولد الغزالة. الشوذر: ثوب قصير.

[إبراهيم عليه السلام]

والشيخ الذي سَنَّ الْقِرَى، هو إبراهيم عليه السلام، واختصه بلقب الشيخ لأنه أول من شاب، ولما رأى الشيب، قال: يا رب، ما هذا؟ فأوحى الله إليه، يا إبراهيم، هذا وقار، فقال: يا رب زدني وقاراً. وشاب وهو ابن مائة وخمسين سنة، وذلك أنه لما ولدت سارة إسحاق، قال الكتفانيون: ألا تعجبون لهذا الشيخ والعجوز وجداً غلاماً، فتبئياه! فصور الله إسحاق على صورة إبراهيم عليهما السلام، فلم يفصل بينهما، فوشم الله إبراهيم بالشيب.

قوله: «سَنَّ»: ابتداء، وجعله سُنَّةً، وهو أول من ضَيَّفَ الضيف، وأطعم المساكين، وقصَّ شارب، وقلم أظافره واستحذ واستاك، وفرَّق شعره، ومضمض واستنثر، واستنجد بالماء. وأسَّسَ المحجوج، أي بنى أساس البيت الحرام.

وأم القرى: مكة. والطارق: الآتي بالليل. والمناخ: موضع البروك. يقرى: يُضَيَّف. الكرى: النوم برى أعظمه، أي أزال اللحم عنها. انبرى: اعترض.

[قرى الضيف]

وقال حبيب في أن أول من قرى الضيف إبراهيم عليه السلام: [الكامل]

للجودِ سهمٌ في المكارم والتقى لا ربة المكدي ولا المسهوم^(١)
وبيان ذلك أن أول من قرى وحبا خليل الله إبراهيم

(١) المكدي: الفقير، والمسهوم: الضال. والبيت في ديوان أبي تمام ص ٣٠٠.

وقال أبو بحر صفوان بن إدريس في فتي اسمه إبراهيم، وأبدع ما شاء حيث قال : [الكامل]
 أَسْمِيَّ مِنْ سَنِّ الْقِرَى رَفَقًا بِمَنْ يَفْنَى عَلَيْكَ صَبَابَةٌ وَعَرَامًا
 أَنَا ضَيْفُ حَسَنِكَ فَاضْطَنِّعْنِي إِنَّهُ ضَيْفُ الْهَوَى يَسْتَوْجِبُ الْإِكْرَامًا
 لَمَّا نَظَرْتَ نَجُومَ خَيْلَانٍ بَدَتْ فِي صَحْنٍ وَجَنَّتِكَ اسْتَفْدَتْ مُقَامًا
 أَفْنَيْتَ جِسْمَ الصَّبِّ شَوْقًا مِثْلَمَا أَفْنَى سَمِيَّكَ قَبْلَكَ الْأَصْنَامَا
 يَا زَهْرَةً سَكَنْتَ فَوَادِي غَضَّةً إِنِّي تَبَوَّاتُ اللَّهِيْبَ كِمَامَا
 حَتَّى كَأَنَّ الْحَبَّ قَالَ لِأَضْلَعِي: يَا نَارُ كُنْ بَرْدًا لَهُ وَسَلَامَا

وقال أبو بكر بن ميمون فيما يتعلق بهذه النار : [المتقارب]

أَبَا قَاسِمَ وَالْهَوَى جَنْبَةً وَإِنِّي مِنْ حَرِّهَا لَمْ أُفِئْ
 تَقَحَّضْتُ جَاغِمَ نَارِ الْحَشَى وَخَضْتُ بِحَارِ سَوَادِ الْحَدَقِ
 أَكُنْتُ الْخَلِيلَ وَكُنْتُ الْكَلِيمَ أَمَنْتُ الْجَوَى وَأَمَنْتُ الْعَرَقُ!
 انظر إلى الأضياف الرابعة والأربعين .

فَقُلْتُ: مَا أَضْنَعُ بِمَنْزِلِ قَفْرٍ، وَمَنْزِلِ حِلْفٍ فَقْرٍ! وَلَكِنْ يَا فَتَى، مَا اسْمُكَ،
 فَقَدْ فَتَنَنِي فَهْمُكَ؟ فَقَالَ: اسْمِي زَيْدٌ، وَمَنْشِئِي قَيْدٌ، وَوَرَدَتْ هَذِهِ الْمَدْرَةُ أَمْسٍ، مَعَ
 أَخْوَالِي مِنْ بَنِي عَبَسَ.

قوله : «بمنزل قفر»؛ كأن هذا المنزل هو الذي وصفه الآخر حيث يقول : [الرمل]
 لَيْسَ إِغْلَاقِي لِبَابِي أَنْ لِي فِيهِ مَا أَخْشَى عَلَيْهِ السَّرْقَا
 إِنَّمَا أَغْلَقْتُهُ كَيْ لَا يَرَى سُوءَ حَالِي مِنْ يَمْرِ الطُّرْقَا
 مَنْزِلُ أَوْطَانِهِ الْفَقْرِ فَلَوْ يَدْخُلُ السَّارِقُ فِيهِ سُرْقَا

[البؤس والحرمان]

وإنما أخذ الحريري هذا المعنى من قصة يزيد المدني، وكان من أهل الملح،
 فاستضافه أعرابي، فقال: ما عندنا إلا الأسودان، فقال الأعرابي: خير كثير، فقال: لعلك
 تظنهما التمر والماء! والله ما هما إلا الليل والحرّة، فلم يكن ليزيد دارٌ إلا الحرّة - وهي
 أرض سوداء فيها حجارة سود، وهي مقبرة المدينة - والقبور المجصّصة تكون بالليل
 موحشة، فما ظنك بقبور سود في أرض سوداء في ظلمة الليل! كيف حال من يكون هذا
 قِراء! فبهذا البلاء أعرض يزيد عن ضيافة الأعرابي.

ونحو هذا من أقوال المازحين قول أبي الشمقمق - ويروى عن وهب عابد قرطبة : [الوافر]

برزت من المنازل والقباب
فمنزلي الفضاء وسقف بيتي
ورائي لم أجد مصراع بيت
ولا أنشئ الثرى عن عود نحت
ولا خفت الإباق على عبيدي
وفي ذا راحة وفراغ بال

وقال آخر : [الطويل]

ولما التمسْتُ الرزق فأنجذ حبله
خطبتُ إلى الإعدام إحدى بناته
فأولدتها الحُزف الشَّقِيَّ فماله
فلو تهت في البداء والليل مسبل
ولو خفت شراً فاستترت بظله
ولو جادَ إنسان عليّ بدرهم
ولو يُمطرُ الناسُ الدنانيرَ لم يكن
وإن يقترب ذنباً ببرقة مذنب
وإن أر خيراً في الأنام فنازح
أمامي من الجزمان جيش عرمرم

وقال آخر : [الخفيف]

لو ركبْتُ البحار صارت أجا
ولو آتني وضعت ياقوته حم
ولو آتني وردت عذبا فراتاً

وقال آخر : [الخفيف]

لو وردت البحار أطلب ماء
أو مسنتُ العود النُّضير بكفي
أو رمى باسمى النجوم الدَّارِي
ولو أني بعث القناديل يوماً

فلم يصف لي من بحر العذب مشرب
فزوجنيها الفقر إذ جئت أخطب
على الأرض غيري والد حين يُنسب
علي جناحيه لما لاح كوكب
لأقبل ضوء الشمس من حيث تغرب
لرحت إلى رخلي وفي الكف عقرُب
بشيء سوى الحصباء رأسي يُخصب
فإن برأسي ذلك الذنب يُعصب
وإن أر شراً فهو مئى مقرب
ومنه ورائي جحفل حين أركب

لا ترى في متونها أمواجاً
راء في راحتي لصارت زجاجاً
عاد لا شك فيه ملحاً أجاجاً

جف قبل الورود ماء البحار
لذوى بعد بهجة واخضرار
لانزوى ضوءها عن الأبصار
أدغم الليل في ضياء النهار

وقال شواش : [الكامل]

كسدت شواشيننا وقلّ معاشنا فسعدونا مقرونة بنحوس
فكأنما قُطعت رؤوس الناس أو خُلِقوا الشقوتنا بغير رؤوس

قيل لأبي الشمقمق : أبشِرْ فإنّا روينا في الحديث : «العارون في الدنيا هم الكاسون يوم القيامة» ، فأنشأ يقول : [مجزوء الرمل]

أنا في حالٍ تعالي ليس لي شيء إذا قيل
فأراضني الله فرشي ولقد أفلسْتُ حَتَّى
وَمَنْ رَأَى شَيْئاً مُحَالاً لو بَقِيَ فِي النَّاسِ حُرٌّ
الله ربي أي حال لِمَنْ ذَا؟ قلت ذَا لي
والسَّمُوات ظلالُ لي حلّ أكلَى لعيالي
فأناعين المحال لم أكن في مثل حالي

قوله : «منزل» ، أي مضيف . حلف : صاحب . منشيء : موضعي الذي نشأت فيه .

[مدينة فيد]

وفيد بلد مشهور ، في نصف المسافة التي بين مكة وبغداد ، وفيها عين ماء ، وينزلها عمال طريق مكة وأهلها من طييء ، وهم في سفح جبلهم المعروف بسلمى ، وقد ذكرها زهير في قوله : [البسيط]

ثم استمرؤوا وقالوا إن مشربكم ماء بشرقي سلمى فيد أو ركك^(١)

قال الزجاجي : سميت بفيد بن حام ، وهو أول من نزلها ، قال : ويقول أهل العراق : هي من قولهم : فاد الرجل يفيد فيداً إذا مات ، أو من قولهم : استفاد فائدة ، وقلما يقولون : أفاد فائدة ، والفيد أيضاً نور الزعفران . قال شيخنا ابن جبير رضي الله عنه : إنه خرج من مدينة رسول الله ﷺ بضخوة يوم السبت الثامن من المحرم سنة سبع وتسعين مع أمير الحاج ، وصبحوا فيداً يوم الأحد في اليوم الرابع عشر من خروجهم . ثم وصفها فقال : هي مضرٌ كبير ، منفرج في بسيط من الأرض ، يمتد حوله ربض ، يطيف به سور عتيق . وهو معمور بسكان من الأعراب يتعيشون من الحجاج في التجارات

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ١٦٧ ، والعقد الفريد ٣٥٥/٥ ، ولسان العرب (فيد) ، (ركك) ، وتاج العروس (فيد) ، (ركك) ، والمحتسب ٨٧/١ ، ٢٧/٢ ، ومعجم البلدان (ركك) ، والمنصف ٣٠٩/٢ ، وبلان نسبة في معجم ما استعجم ص ١٠٣٣ ، والمقتضب ٢٠٠/١ ، والمعرب ١٥٦/٢ ، والممتع في التصريف ٦٤٣/٢ .

والمبايعات وغير ذلك من المرافق، وفيها يترك الحجاج بعض أزوادهم إعداداً للإرمال^(١) من الزاد عند انصرافهم يتركونها عند معارفهم، بها، فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم، ووهبوا لمن أودعوها عندهم شيئاً من ذلك.

وهي نصف الطريق من بغداد إلى مكة أو أقل يسيراً، ومنها إلى الكوفة اثنا عشر يوماً في طريق سهلة. ودخلها أمير الحاج على تعبئة وأهبة إرهاباً للمجتمعين بها من الأعراب لئلا يداخلهم الطمع في الحاج، لكنهم لا يجدون إليهم سبيلاً والحمد لله. والمياه كثيرة في آبارها، تمدّها عيون تحت الأرض، وامتلاّت أيدي الحجاج القادمين من أغنام العرب بالمبايع، فلم يبق خيمة ولا ظلال إلا وإلى جانبها كبش أو كبشان، بحسب الوجد، فعَمَّ جميع المحلّة الغنم واللبن والسمن والعسل، فأكلوا واحتملوا، وكان ذلك اليوم عيداً للركب.

قال: وبهذه المحلّة العراقية، وما انضاف إليها من الخُراسانية والموصلية وسائر جهات الآفاق ينزل من صحبة أمير الحاج جمعٌ لا يحصى عددهم إلا الله تعالى، يغصّ بهم البسيط الأفيح، ويضيق بهم المهمة الضحضح، فترى الأرض تميد بهم مبدأً، وتموج بجمعهم موجاً، فتصير بهم بحراً طامي الغباب، مأوّه السراب، وسفينه الركاب، وشراعه الظلال المرفوعة والقباب، ويسير سير السحاب، متداخلاً بعضها على بعض، فتعاین تراحماً في البراح المنفسح يهول ويروع، واصطكاكاً لمبيع التجارات فيه، فبعضها ببعض مقروع؛ فمن لم يشاهد هذا السفر العراقي لم يشاهد عجباً يتحدّث به، ويتحف السامع بغرائب، والقزّة والقوّة لله وحده وحسبك أن النازل في منزل من هذه المحلّة متى خرج لبعض حاجاته، ولم يكن له دلالة على موضعه ضلّ وتلّف، وعاد منشوداً بجملة الضوأل، وربما اضطر به الحال إلى الوصول لمضرب الأمير ورفع المسألة إليه، فيأمر أحد المنشدين بما أعدّ لذلك فيردّفه خَلْفَه على جمل، ويطوف به المحلّة منادياً باسم جماله وبلده، إلى أن يؤدّيه إلى رفقته.

وعجائب هذه المحلّة كثيرة، ولأهلها من اليسار ما يغنيهم على ما هم بسبيله.

وما ذكرنا أمر هذه المحلّة إلا ليستدلّ على أن فيها بلداً في غاية القوّة والعمارة، حيث أمِدّ هذا الجمع الكثير والجم الغفير بما تقدم من أنواع الأرزاق، وإن قبائل طيء متوفرة بحيث تطلع إلى الغارة على مثل هذه المحلّة. والملك لله وحده مفني الجميع بعد كمال العدة.

قوله: «وردت»، أي أتيت. المدرة: البلد. عنس: قبيلة.

فَقُلْتُ لَهُ: زِدْنِي إِيضَاحاً، عَشْتُ وَنَعِشْتُ، فَقَالَ: أَخْبَرْتَنِي أُمِّي بَرَّةً، وَهِيَ كَاسِمُهَا بَرَّةٌ؛ أَنَّهَا نَكَحَتْ عَامَ الْغَارَةِ بِمَاوَانَ، رَجُلًا مِنْ سَرَاةِ سُرُوجَ وَغَسَّانَ، فَلَمَّا آنَسَ مِنْهَا الْإِنْقَالَ - وَكَانَ بَاقِعَةً فِيمَا يُقَالُ - طَعَنَ عَنْهَا سِرًّا وَهَلَمَّ جَرًّا فَمَا يُعْرِفُ: أَحْيُ هُوَ فَيَتَوَقَّعُ، أَمْ أُوْدِعَ اللَّخْدَ الْبَلْقَعَ.

قال أبو زيد: فَعَلِمْتُ بِصِحَّةِ الْعَلَامَاتِ أَنَّهُ وَلَدِي، وَصَدَفَنِي عَنِ التَّعْرِفِ إِلَيْهِ صَفَرُ يَدِي، فَقَصَلْتُ عَنْهُ بِكَبِدٍ مَرْضُوضَةٍ، وَدُمُوعٍ مُفْضُوضَةٍ. فَهَلْ سَمِعْتُمْ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ، بِأَعْجَبَ مِنْ هَذَا الْعِجَابِ! فَقُلْنَا: لَا وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ، فَقَالَ: أَثْبَتُوهَا فِي عَجَائِبِ الْإِتْفَاقِ، وَخَلَّدُوهَا بِطُورِ الْأَوْرَاقِ، فَمَا سِيرَ مِثْلَهَا فِي الْآفَاقِ فَأَحْضَرْنَا لِدَوَاةٍ وَأَسَاوِدَهَا، وَرَقَشْنَا الْحِكَايَةَ عَلَى مَا سَرَدَهَا.

إيضاحاً: بياناً. نعيشت: جُبرت. وبرّة الأول اسمها والثاني صفتها، يريد أنها مكرّمة كثيرة البرّ. نكحت: تزوّجت. عام الغارة، أي عام أغار عليهم عدوّهم. ماوان: بلدة. سرّاة: سادة. آنس: أبصر والإنقال: الامتلاء بالولد. باقعة: داهية، ويقال: إنه الذي جال بقاع الأرض وعرف خيرها وشرها.

قال ابن الأنباري رحمة الله: فلان باقعة، أي داهية حذر محتال حاذق، والباقعة عند العرب: الطائر الحذر المحتال الذي يشرب الماء من المَبَاقِعِ^(١)، ولا يردُّ المشارع والمياه المحصورة خوفاً من أن يُحتال عليه فيُصْطَاد، ثم شَبَّهَ به كل جَذِرٍ محتال. هلم جرّاً، معناه إلى الآن، قال ابن الأنباري: هلم جرّاً، سيروا على هَيْئَتِكُمْ، أي تَثَبُّتُوا عَلَى سِيرِكُمْ، ولا تَجْهَدُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَشْقُوا عَلَيْهَا، أَخِذْ مِنَ الْجَزِّ فِي السُّوقِ، وَهُوَ أَنْ تَتْرَكَ الْغَنَمَ وَالْبَقَرَ تَرعى فِي السَّيْرِ، وَيَنْتَصِبُ «جَرّاً» فِي قَوْلِ الْكُوفِيِّينَ عَلَى الْمَصْدَرِ، لِأَن فِي «هَلَمْ» مَعْنَى «جَرٍّ»، وَفِي قَوْلِ الْبَصَرِيِّينَ: هُوَ مَصْدَرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ تَقْدِيرُهُ «هَلَمْ جَارِزِينَ» أَيِ مُسْتَثْبِتِينَ، قِيَاساً عَلَى: جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ مَشِياً، وَأَقْبَلَ رَكْضاً، وَجَاءَ وَأَقْبَلَ عِنْدَ الْكُوفِيِّينَ بِمَعْنَى مَشَى وَرَكُضَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: يَنْصَبُ عَلَى التَّمْيِيزِ. يُتَوَقَّعُ: يُنْتَظَرُ، أُوْدِعَ: أَدْخَلَ اللَّخْدَ الْبَلْقَعَ: اللَّحْدَ الْخَالِي. صَدَفَنِي: أَمَالَني. التَّعْرِفُ: أَنْ يَعْرِفَهُ أَنَّهُ أَبُوه. صَفَرُ يَدِي: فَرَاغَهَا مِنَ الدَّرَاهِمِ. فَصَلْتُ: زَلْتُ مَرْضُوضَةً: مَدْقُوقَةً مَكْسُورَةً. مَفْضُوضَةٌ: مَفْتَرَقَةٌ. أُولِي الْأَلْبَابِ: أَهْلُ الْعُقُولِ. الْعُجَابُ: مَبَالِغَةٌ فِي الْعَجَبِ.

خلدوها، أي أثبتوها. الآفاق: البلدان وجهات الأرض جميعها. أساودها:

(١) المباق: أي الأمكنة التي يستقى منها.

أقلامها . رقصنا : كتبنا . على ما سردها ، أي كما حكاها وتكلم بها .

ثم استبطناه عن مُرتّاه ، في استضمام فتّاه ، فقال : إذا ثَقُلَ رُذني ، خَفَّ عَلَيَّ
أن أَكْفُلَ ابْنِي ؛ فقلنا : إن كَانَ يَكْفِيكَ نَصَابٌ مِنَ المَالِ ، أَلَفْنَاهُ لَكَ فِي الْحَالِ ؛
فقال : وَكَيْفَ لَا يَقْنِئُنِي نَصَابٌ ، وَهَلْ يَحْتَقِرُ قَدْرُهُ إِلَّا مُصَابٌ !

قال الراوي : فالتزمَ مِنْهُ كُلُّ مِنَّا قِسْطًا ، وَكَتَبَ لَهُ بِهِ قِطًا ، فَشَكَرَ عِنْدَ ذَلِكَ
الصُّنْعَ ، وَاسْتَنْفَذَ فِي الثَّنَاءِ الْوُسْعَ ، حَتَّى إِنَّا اسْتَطَلْنَا الْقَوْلَ ، وَاسْتَقْلَلْنَا الطَّوْلَ . ثُمَّ
إِنَّهُ نَشَرَ مِنْ وَشْيِ السَّمَرِ ، مَا أَرَزَى بِالْحَبَرِ ، إِلَى أَنْ أَظْلَمَ التَّنْوِيرُ ، وَجَشَرَ الصُّبْحُ
الْمُنِيرُ ، فَقَضَيْنَاهَا لَيْلَةً غَابَتْ شَوَائِبُهَا ، إِلَى أَنْ شَابَتْ ذَوَائِبُهَا ، وَكَمَلَ سَعُودُهَا ، إِلَى
أَنْ انْفَطَرَ عُودُهَا .

استبطناه : سألناه وطلبنا منه معرفة باطنه . مُرتّاه : رأيه وغرضه . رُذني : كمي .
أكفل : أضمت . نصاب : عشرون ديناراً . ألفناه : جمعناه . يقنني : يكفيني . مصاب :
مجنون . قوله : « قسطاً » ، أي نصيباً . قطاً : كتاباً . الصنع : الفعل الجميل ، استنفذ :
استتم . الوسع : الطاقة ، ووسع الرجل قدر ما يجد من مال أو كلام أو غير ذلك ، وهو
من السعة ، أي أثنى غاية ما يمكنه من الثناء . استطلنا : استكثرتنا ووجدناه كثيراً
طويلاً ، والطول : الإنعام والفضل ، أي رأينا ما أنعمنا به عليه قليلاً . والوشى : ثياب
مرقومة بألوان شتى من الحرير . والجبر : ثياب فيها خطوط ورقوم مختلفة ، والجبر
تصنع باليمن ، فشبهه حسن حديثه بالوشى ، وخصّ الجبر لحسن فنونه ، وقال ابن
الزقاق - وكأنه وصف الليلة والعجاب الذي سامرهم به أبو زيد ، وزاد عليه الشجاعة :
[الكامل]

لِلَّهِ لَيْلَتُنَا الَّتِي اسْتَجَدَى بِهَا	فَلَقَّ الصَّبَاحَ لِسُدْفَةِ الإِظْلَامِ
طَرَأَتْ عَلَيَّ مَعَ النُّجُومِ بِأَنْجَمِ	مِنْ فَتِيَةٍ بَيَضَ الْوُجُوهِ كِرَامِ
إِنْ حَوْرَبُوا فَرِغُوا إِلَى بَيضِ الطُّبَا	أَوْ خَوِطَبُوا فَرِغُوا إِلَى الْأَقْلَامِ
فَتَرَى الْبَلَاغَةَ إِنْ نَظَرْتَ إِلَيْهِمْ	وَالْبَأْسَ بَيْنَ يِرَاعَةٍ وَحُسَامِ

جتر : طلع . قضيناها : أتممناها . شوائبها : ما ينكدها ويكدرها . الذوائب : الشعر
الطويل الأسود ، وأراد به ظلام الليل ، وجعل فيه بياض الصبح بمنزلة الشيب في سواد
الشعر ، قال ابن دريد : [الرجز]

إِذَا تَرَى رَأْسِي حَاكِي لَوْنِهِ طَرَّةٌ صَبَحَ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَى

انفطر: اشتق وطلع. عودها: بياض صبحها، ويقال: انفطر القضيبي، إذا بدأ نبات ورقه، وقال امرؤ القيس: [المتقارب]

* كخروبة البانة المنفطر^(١) *

ولمَّا ذَرَّ قَرْنُ الْغَزَالَةِ، طَمَرَ طُمُورَ الْغَزَالَةِ، وَقَالَ: انْهَضْ بَنَّا لِنَقْبِضَ الصَّلَاتِ، وَنَسْتَنْضِصَ الْإِحَالَاتِ، فَقَدْ اسْتَطَارَتْ صُدُوعُ كِبْدِي، مِنْ الْحَنِينِ إِلَى وَلَدِي. فَوَصَلْتُ جَنَاحَهُ، حَتَّى سَنَيْتُ نَجَاحَهُ؛ فَحِينَ أُحْرَزَ الْعَيْنُ فِي صُرَّتِهِ، بَرَقَتْ أَسَارِيرُ مَسَرَّتِهِ، وَقَالَ لِي: جُزَيْتَ خَيْرًا عَنْ خُطَا قَدَمِيكَ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ! فَقُلْتُ: أَرِيدُ أَنْ أَتْبَعَكَ لِأَشَاهِدَ وَلَدَكَ النَّجِيبَ، وَأُنَافِثَهُ لِكِي يَجِيبَ.

قرن الغزالة: شعاعها وحاجبها، والغزالة من أسماء الشمس، وأسمائها كثيرة؛ ذكرها يعقوب وغيره، وذكر منها عشرة خمسة بالهاء، وهي: الغزالة، والجارية، والجونة، ومهاة، والإلاهة. وخمسة بغير الهاء وهي: الشمس، والسراج، والضَّخ، ودُكَّاء، وبوح.

طمر: وثب. الغزالة: الظبية. انهض أي قم: الصَّلَات: العطايا. نستنض: نستحضر. والنَّاض: المال الحاضر. والإحالات: الديون التي وعدوه بها. استطارت: توسعت وانتشرت. صُدُوع: شقوق. والحنين: الشوق والرحمة.

وصلتُ جناحه، أي مشيت معه ويدي في يده، وجناح الرجل: يده. سنيت: يسرت. نجاحه: قضاء حاجته. أحرز العين: حصل المال. وصرته: خرقة دراهمه. برقت: لمعت. أسارير: طرق الوجه، ومنه الحديث عن رسول الله ﷺ: «فخرج تبرق أسارير وجهه»، ويقال لها الأسرة؛ ويقال لخطوط الكف: الأسرة، وقد جمعهما التهامي في لفظ واحد في قوله: [الكامل]

يُبْدِي أَسِرَّةَ وَجْهِهِ وَيَمِينِهِ. فِي سَاعَةِ الْإِعْسَارِ وَالْإِسَارِ
مسرته: سروره، أراد: انطلق وجهه سروراً بالمال. خطأ: مشى. والنجيب: الجيد العقل الكريم الأصل. قوله: «أنافثه»، أي أكلمه.

(١) صدره:

بـرـهـمـة زُؤدة رخصـة

والبيت لامرئ القيس في ديوانه ص ١٥٧، ولسان العرب (خرعب)، (بون)، (بره)، وتهذيب اللغة ٢٧٥/٣، والمخصص ٢١٤/١٠، ٣/١١، وديوان الأدب ٨٧/٢، وتاج العروس (خرعب) (بون)، (بره)، ويلا نسبة في مقاييس اللغة ٢/٢٥١.

فَنظَرَ إِلَيَّ نَظْرَةَ الْخَادِعِ إِلَى الْمَخْدُوعِ وَضَحِكَ حَتَّى تَغْرَغَرَتْ مُقْلَتَاهُ بِالْذُّمِّوعِ ،
وَأَنْشَدَ : [مخلع البسيط]

يَا مَنْ تَظَنَّنِي السَّرَابَ مَاءً لَمَّا رَوَيْتُ الَّذِي رَوَيْتُ
مَا خِلْتُ أَنْ يَسْتَسِرَّ مَكْرِي وَأَنْ يُخِيلَ الَّذِي عَنَيْتُ
وَاللَّهُ مَا بَرَّةٌ بِعُرْسِي وَلَا لِي ابْنٌ بِهِ اِكْتَنِيتُ
وَأِنَّمَا لِي فَنُونٌ سِخِرٍ أَبَدَعْتُ فِيهَا وَمَا اقْتَدَيْتُ
لَمْ يَخْكِيهَا الْأَصْمَعِيُّ فِيمَا حَكَى ، وَلَا حَاكَهَا الْكَمِيْتُ
تَخِذْتُهَا وَضَلَّةً إِلَى مَا تَجَنَّبَهُ كَفِّي مَتَى اشْتَهَيْتُ
وَلَوْ تَعَافَيْتُهَا لَحَالَتْ حَالِي ، وَلَمْ أَخْوِ مَا حَوَيْتُ
فَمَهْدِ الْعُذْرَ أَوْ فَسَامِخَ إِنْ كُنْتُ أَجْرَمْتُ أَوْ جَنَيْتُ
ثُمَّ إِنَّهُ وَذَعَنِي وَمَضَى ، وَأَوْدَعَ قَلْبِي جَمْرَ الْغَضَى .

تغرغرت : امتلأت . تظننى : حسب . حلت : حسبت . يستسر : يخفي . مكري :
خداعي . يُخِيل : يلبس ويشبه . عُرسي : زوجتي . فنون : أنواع . أبدعت فيها : أحدثها
ولم أقتد بغيري فيها . يحكها : يحدث بها . حاكها : نسجها وقال مثلها . الأصمعيّ مذكور
في المقامة الأربعين .

[الكميّ الشاعر]

وأما الكميّ الشاعر ، فهو ابن زيد الأسديّ ، وهو شاعر مجيد أكثر جداً ، وديوان
شعره مستعمل مشهور ؛ ولَمَّا قَالَ قَصَائِدَهُ الْهَاشِمِيَّاتِ قَصْدَ الْبَصْرَةِ ، فَأَتَى الْفَرَزْدَقَ فَقَالَ :
يَا أَبَا فِرَاسٍ ، أَنَا ابْنُ أَخِيكَ ، فَقَالَ : وَمَنْ أَنْتَ ؟ فَانْتَسَبَ لَهُ ، قَالَ : صَدَقْتَ ، وَمَا حَاجَتُكَ ؟
قَالَ : أَنْتَ شَيْخٌ مُضَرٌّ وَشَاعِرُهَا ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرِضَ عَلَيْكَ مَا قُلْتَ ، فَإِنْ كَانَ حَسَنًا
أَمَرْتَنِي بِإِذَاعَتِهِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ أَمَرْتَنِي بِسْتَرِهِ : قَالَ : يَا ابْنَ أَخِي ، أَحَسِبُ شَعْرَكَ عَلَى
قَدْرِ عَقْلِكَ ، فَقُلْ رَاشِدًا ، فَأَنْشَدَهُ : [الطويل]

طَرِبْتُ وَمَا شَوْقًا إِلَى الْبَيْضِ أَطْرَبُ وَلَا لِعِبَاءٍ مِنِّي وَذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ^(١) !

قال : بلى ، فالعب ، فَأَنْشَدَهُ : [الطويل]

(١) البيت للكميت في جواهر الأدب ص ٣٩ ، وخزانة الأدب ٤/٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٩ ، ١١ /
١٢٣ ، والدرر ٣/٨١ ، وشرح شواهد المغني ص ٣٤ ، والمحتسب ١/٥٠ ، ٢/٢٠٥ ، ومغني اللبيب
ص ١٤ ، والمقاصد النحوية ٣/١١٢ ، وبلا نسبة في الدرر ٥/١١٢ ، وجمع الهوامع ٢/٦٩ .

ولم يُلْهِنِي دَارٌ وَلَا رَسْمٌ مَنْزِلٍ ولم يَتَطَرَّبْنِي بَنَانٌ مُخَضَّبٌ^(١)
قال : ما يَتَطَرَّبُكَ إِذَا؟ فقال : [الطويل]

لَا أَنَا مَمَّنْ يَزْجُرُ الطَّيْرُ هَمَّهُ أَصَاحُ غَرَابٍ أَمْ تَعْرِضُ ثَعْلَبُ
قال : أَنْتَ مَمَّنْ؟ وَيَحْكُ! وَإِلَى مَنْ تَسْمُو؟ قال : [الطويل]

وَلَا السَّانِحَاتُ الْبَارِحَاتُ عَشِيَّةً أَمَرَ صَحِيحُ الْقَرْنِ أَمْ مَرَّ أَغْضَبُ
قال : أَمَّا هَذَا فَقَدْ أَحْسَنْتَ فِيهِ ، قال : [الطويل]

وَلَكِنْ إِلَى أَهْلِ الْفَضَائِلِ وَالنُّهَى وَخَيْرُ بَنِي حَوْءٍ وَالْخَيْرُ يُطَلَّبُ
قال : فَمَنْ هُمْ وَيَحْكُ! فقال : [الطويل]

إِلَى النَّفْرِ الْبَيْضِ الَّذِينَ بِحَبِّهِمْ إِلَى اللَّهِ فِيمَا نَابَنِي أَتَقَرَّبُ
فقال : أَرَحْنِي وَيَحْكُ! مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فقال : [الطويل]

بَنِي هَاشِمٍ رَهْطِ النَّبِيِّ فَإِنَّنِي بِهِمْ وَلَهُمْ أَرْضَى مَرَاراً وَأَغْضَبُ
فقال : اللَّهُ دَرَكُ يَا بَنِي! فَقَدْ أَصَبْتَ وَأَحْسَنْتَ ، إِذْ عَدَلْتَ عَنِ الزَّعَانِفِ وَالْأَوْبَاشِ ، إِذَا لَا يُصْرِدُ سَهْمُكَ^(٢) ، وَلَا يَثْلُبُ قَوْلُكَ . ثُمَّ مَرَّ فِيهَا ، فَقَالَ : أَظْهَرَ وَأَشْهَرَ ، فَأَنْتَ أَشْعَرُ مِنْ مَضَى ، وَأَشْعَرُ مَنْ بَقِيَ .

فحينئذ قدم المدينة ، فأتى عبد الله بن الحسين ، فأنشده ، فقال : يَا أَبَا الْمُسْتَهْلِ ، إِنَّ لِي ضِيعَةً أَعْطَيْتُ فِيهَا أَرْبَعَةَ آلَافِ دِينَارٍ وَهَذَا كِتَابُهَا ، وَقَدْ أَشْهَدْتُ لَكَ بِهَا شَهُوداً ، فَقَالَ : يَا أَبَايَ أَنْتَ وَأُمِّي! كُنْتُ أَقُولُ الشَّعْرَ لَغَيْرِكُمْ أُرِيدُ بِهِ الدُّنْيَا وَالْمَالُ ، وَلَا وَاللَّهِ مَا قُلْتُ فِيكُمْ شَيْئاً إِلَّا لِلَّهِ ، وَمَا كُنْتُ لَأَخْذُ فِي شَيْءٍ جَعَلْتَهُ اللَّهُ ثَمَناً . فَلَمَّا أَبَى عَلَيْهِ أَخْذَ مِثْرِهِ ، فَدَفَعَهُ إِلَى أَرْبَعَةِ غُلَمَانٍ ، فَجَعَلَ يَدُورُ بِهِ دَوْرَ بَنِي هَاشِمٍ ، وَيَقُولُ : هَذَا الْكَمِيتُ ، قَالَ فِيكُمْ الشَّعْرَ حِينَ صَمَتَ النَّاسُ عَنْ فَضْلِكُمْ ، وَعَرَّضَ دَمَهُ لِبَنِي أُمَيَّةَ ، فَأَتَيْبُوهُ بِمَا قَدَرْتُمْ . فَاجْتَمَعَ لَهُ مِنْ حَلَى النِّسَاءِ وَمِنْ الدَّنَانِيرِ وَالْدِّرَاهِمِ مَا قِيَمَتُهُ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فَجَاءَ بِهَا إِلَى الْكَمِيتِ ، وَقَالَ : يَا أَبَا الْمُسْتَهْلِ أَتَيْنَاكَ بِجَهْدِ الْمَقْلِ ، وَنَحْنُ فِي دَوْلَةٍ عَدَوْنَا ، فَاسْتَعْنِ بِهَذَا عَلَى دَهْرِكَ ، فَقَالَ : يَا أَبَايَ أَنْتَ وَأُمِّي ، قَدْ أَكْثَرْتُمْ وَأَطْنَبْتُمْ ، وَمَا أَرَدْتُ بِمَدْحِي إِيَّاكُمْ إِلَّا لِلَّهِ ، فَأَرَدَدَهُ إِلَى أَهْلِهِ . فَجَهَدَ بِهِ بِكُلِّ حِيلَةٍ ، فَأَبَى ، فَقَالَ : أَمَّا إِذَا أَبَيْتَ أَنْ تَقْبَلَ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَقُولَ شِعْراً تَغْضَبُ بِهِ بَيْنَ النَّزَارِيَةِ وَالْيَمْنِيَّةِ لَعَلَّ فِتْنَةً تَحْدُثُ ، فَتُخْرِجَ بَيْنَ أَضْغَانِهَا ، فَقَالَ قَصِيدَتَهُ الَّتِي أَوْلَاهَا : [الوافر]

(١) البيت في شرح هاشميات الكمي ص ٤٣ ، ولسان العرب (طراب) ، وتاج العروس (طرب) ، وأساس البلاغة (طرب) .

(٢) أصرد السهم : أخطأ .

أَلَا حُيِّيتَ عَنَّا يَا مَدِينَا وهل بأسٌ بقولِ مسلمينا^(١)!

فعرّض فيها، وصاح باليمن فيما كان من أمر الحبشة وغيرهم؛ مثل قوله: [الوافر]

لنا قمر السماء وكلّ نجم تُشير إليه أيدي المهتديا
وما ضربت هجاناً بني نزارٍ هوائجُ من فحول الأعجمينا
وما حملوا الحمير على عتاقٍ مضمرة فيُلْقَوا مُثْلِغينا

ومشت في العرب، فافتخرت نزار على اليمن واليمن على نزار، واثارت العصبية في البادية والحاضرة، وتحزّب الناس، فتعصّب مروان بن محمد لقومه من نزار على اليمن، فانحرفت عنه إلى الدعوة العباسية وكان الكميت سبب ذلك.

وكان لامتداحه بني هاشم وتعريضه ببني أمية، يطلبه خلفاء بني أمية، فهرب منهم عشرين سنة، فجذّ هشام بن عبد الملك في طلبه ولم يجده، ولم يستقرّ للكميت قرار من خوفه. وكان لمسلمة بن عبد الملك حاجة عند هشام يقضيها له، لا يردّه فيها، فخرج مسلمة لبعض صيوده، فأتاه الناس يسلمون عليه، وأتاه الكميت - ومسلمة لا يعرفه - فقال: السّلام عليك ورحمة الله وبركاته، أما بعد: [مجزوء الكامل]

قِفْ بِالذِّيارِ وقوف زائرٍ وتأيّ إنك غير صاغِرٍ^(٢)

حتى انتهى إلى قوله: [مجزوء الكامل]

يا مسلم بن أبي الوليد دِلْمِيَّتٍ إن شئت ناشِرُ
عَلِقْتُ حبالِي من حبا لك ذمّة الجارِ المجاوزِ
فالآن صرْتُ إلى أميٍّ عة والأمور لها مصايِرُ
والآن كنتُ به المصيّ ب كمهتدي بالأمس حائرُ

فقال مسلمة: سبحان الله! من هذا الذي أقبل من أخريات الناس ثم بدأنا بالسلام، ثم قال: أما بعد ثم الشعر؟ قيل: الكميت، فأعجب بفصاحته، فسأله عمّا كان فيه من طول غيبته، فذكر له سخط هشام عليه، فضمن له أمانه وتوجّه به حتى أدخله على هشام، وهشام لا يعرفه، فقال الكميت: السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال هشام: نعم الحمد لله، من هذا؟ قال الكميت: مبتدئ الحمد ومبتدعه، الذي خصّ بالحمد نفسه، وأمر به ملائكتّه، وجعله فاتحة كتابه، ومنتهى شكره، وكلام أهل جنته. أحمدّه حمد من علم يقيناً، وأبصر مستبيناً، وأشهد بما شهد به لنفسه، قائماً بالقسط

(١) البيت في ديوان الكميت ١١٤/٢، ولسان العرب (عجز)، والفاخر ص ٢، وخزانة الأدب ١٧٩/١.

(٢) البيت للكميت في ديوانه ٢٢٣/١، وإصلاح المنطق ص ٣٠٤، ولسان العرب (أيا)، وكتاب العين ٤٠١/٨، وبلا نسبة في الممتع في التصريف ٥٨٤/٢، والمنصف ١٤٢/٢.

وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده العربيّ ورسوله النبيّ الأميّ، الذي أرسله والناس في هبّوات^(١) حيرة ومُذلهّمات ظلمة، عند استمرار أبهة الضلالة. فبلغ عن الله ما أمر به، حتى أتاه اليقين ﷺ. ثم إنّي يا أمير المؤمنين تهت في حيرة، وجزت في سكرة، أهاب بي داعيها، فأجابه غاويها، فاقطوطيت^(٢) في الضلالة حائداً عن الحق، قائلاً بغير الصدق، فهذا مقام العائذ بك، ومنطق التائب، ومبصر الهدى بعد طول العمى. يا أمير المؤمنين، كم من عائرٍ أقلتُم عثرته، ومجترم عفوتُم عن جرمه!

فقال هشام - وقد علم أنه الكميّ: مَنْ سَنَّ لك هذا الغواية، وأهاب بك في العماية؟ قال: الذي أخرج آدم من الجنة فنسى ولم يجد له عزماً، وأنت يا أمير المؤمنين، أضاء الله بك الظلمة الداجية بعد العموس فيها فبصرت، وحقن بك دماء قوم أشرب خوفك قلوبهم؛ فهم يبيكون لما يعلمون من حزمك وعزمك وبصيرتك، وعزّ بأسك. وثبات جأشك. وأنت مستغن برأيك عن رأي ذوي الألباب؛ برأي أريب، وحلم مصيب. فأطال الله لأمر المؤمنين البقاء، وأتم عليه التعماء، ودفع به الأعداء. فرضي عنه وأمر له بمال كثير.

فهذه منزلة الكميّ من الشعر والخطابة خلافاً لمن يقول: القافية جلبته في المقامات؛ وغيره من الشعراء كان أولى بموضعه.

قوله: «حاكها»، أي نسجها. يريد أن الكميّ ممن يصنع الشعر ولا يقوله على طبعه، فلذلك قال: «حاكها». وسأل بعض الخلفاء جريراً عن النابغة وزهير، فقال: ينيّران الشعرَ ويُسديّانه، والعلماء بالشعر يسمون صنّاع الشعر عبيد الشعر، مثل زهير وابنه كعب والحطيئة وعدي بن الرقاع والكمي.

قوله: «تخذتها»، أي اتخذتها، يقال: تخذ يتخذ بمنزلة اتّخذ يتخذ، وحُفّف عنه، حذفوا ألف الوصل من اتخذ، والتاء الأولى الساكنة، التي هي فاء الفعل، فبقي تخذ، ومثله تقي يتقي واتقى يتقي، حذف ألفه وتاؤه الأولى، وليس يطرد هذا التخفيف، وإنما جاء في اتّخذ واتقى وأتسع، فقالوا: تقي وتخذ وتجه وتسع وصلة أي موصلة. تعافيتها: تكاررتها، وهي تفاعلت من عفت الشيء أعافه عيافاً، أي كرهته. حالت: تغيّرت. أحو: أجمع. مهّد: اقبل وسهّل. أجرمت: أذنبت لنفسي، جنيت: أذنبت لغيري، أراد: إن كان عذري بيناً فأقبله، وإن كنت ظالماً فتجاوز واسمح. أودع: ضمّن وجعل فيه. الغضى: شجر جمره يثبت في النار.

(٢) اقطوطيت: أي قاربت في المشي إسراعاً.

(١) هبّوات: أي غبرات.

المقامة السادسة

وهي المِراغِيَّة وتعرف بالخِفاء

روى الحارث بن همام قال: حَضَرْتُ دِيوَانَ النَّظَرِ بِالْمِراغَةِ، وَقَدْ جَرَى بِهِ ذِكْرُ الْبِلاغَةِ؛ فَأَجْمَعَ مَنْ حَضَرَ مِنْ فُرْسَانِ الْيِراغَةِ، وَأَرْبابِ الْبِراغَةِ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَنْقُ مَنْ يُنْقَحُ الْإِنْشَاءَ، وَيَتَصَرَّفُ فِيهِ كَيْفَ شَاءَ، وَلَا خَلْفَ، بَعْدَ السَّلَفِ، مَنْ يَبْتَدِعُ طَرِيقَةَ غَرَاءَ، أَوْ يَفْتَرِعُ رِسَالَةَ عِذْرَاءَ، وَأَنَّ الْمُفْلِقَ مِنْ كُتَّابِ هَذَا الْأَوَانِ، أَلْتَمَسَ مَنْ أَرَمَهُ الْبَيَانِ، كَالْعِيَالِ عَلَى الْأَوَائِلِ، وَلَوْ مَلِكٌ فَصَاحَةٌ سَخْبَانٍ وَائِلٌ.

ديوان النظر، أي مجلس المناظرة. المِراغة: بلدة من كُور أذربيجان. اليراعة: القلم قبل أن يبرى ويسوى، فإذا بُرِيَ وَسُويَ قيل له قلم، وبقي عليه الاسم الأول وهو اليراعة، واليراع: القصب. أرباب اليراعة: أصحاب أصالة الرأي. والبارع: الأصيل الجيد الرأي، ويقال: بَرَعَ يبرع بروعاً وبراعة، إذا فاق في السؤدد. وينقح: يحسن ويخلص. الإنشاء. الكتابة. خَلْفَ: بَقِيَ. السلف: المتقدمون، وسلفوا: ذهبوا وتقدموا. يبتدع: يحدث. طريقة: حالة موصوفة، وطريقة فلان كذا، أي حالته التي هو عليها. غراء: واضحة مشهورة لم يقل أحد مثلها. وغرة الشيء: أوله. يفترع: يفتض. عذراء بكر، سَمِيت عذراء لصعوبة جماعها، وتعذر الشيء: تصعب، وافتراع البكر: إدمائها وإزالة ما تصعب منها، وكل ما أدميته فقد فرعته وافترعته، فمعنى يفترع رسالة عذراء أي يأتي برسالة قد تصعب طريقها على غيره، فاقتدر هو على سلوك طريقها والإتيان بها. المفلق: الفصيح المعرب الذي يأتي بالفلق؛ وهو الشيء العجيب. الأوان: الوقت. العيال: مَنْ يتكل في مؤنته على غيره ولا يقوم بنفسه، وعال الرجل عيلةً إذا افتقر، وعُلته عولاً: قمت بمؤنته، فيريد أن كُتِّبَ هذا الزمان عيال على من تقدمهم حيث افتقروا إلى الأخذ من كلامهم.

وقد وعدنا أن نذكر سخبان فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

وكان بالمجلس كهلٌ جالسٌ في الحاشية، عندَ مواقفِ الحاشية، فكان كَلِّمًا

شَطَّ الْقَوْمَ فِي شَوْطِهِمْ، وَنَثَرُوا الْعَجْوَةَ وَالنَّجْوَةَ مِنْ نَوْطِهِمْ، يَنْبِئُ تَخَازُرُ طَرْفِهِ، وَتَشَامُخُ أَنْفِهِ، أَنَّهُ مُخَرَّبِقٌ لَيْتِنَاعٌ، وَمُجَرَّمٌ سَيْمَدُ الْبَاعِ، وَنَابِضٌ يَبْرِي النَّبَالَ، وَرَابِضٌ يَنْبِغِي النَّضَالَ. فَلَمَّا ثَلَّثَ الْكَنَائِنُ، وَقَاءَتِ السَّكَاثِنُ، وَرَكَدَتِ الزَّعَازِعُ، وَكَفَّ الْمُنَازِعُ، وَسَكَنَتِ الزَّمَاوِجُ، وَسَكَّتِ الْمَزْجُورُ وَالزَّاجِرُ، أَقْبَلَ عَلَى الْجَمَاعَةِ، وَقَالَ:

الكهل: التام الخلق، بين الشاب والشيخ. الحاشية: طرف المجلس. والحاشية الثاني. الاتباع وخدمة القوم، وأصلها رُذال المال وصغاره، قال يعقوب: الحاشية والحواشي والحشو: صغار الإبل، وأنشد: [الرجز]

* جَلَّلْتُهَا وَالْأَخْرَ الْحَوَاشِيَا ^(١) *

ل: جرى. شوطهم: طَلَقَهُمْ. نثروا: أَلْقَوْا عَلَيْهَا. العجوة: التمرة الطيبة. والنجوة: الرديئة، هكذا كان يفسرها شيخنا أبو بكر بن أضر عن ابن جهور، وما وجدت في كتاب لغة أن النجوة اسم للتمر الرديئة، وقد بحث عنها بعض أصحابنا غاية البحث في كل كتاب فيه ذكر النخل والتمر، فأخبرني أنه ما وجد لها ذكراً، وأظنها لغة بصرية متعارفة بينهم في التمر الرديء، لا أنها لغة عربية، فاستعملها كما استعمل غيرها من لغة بلده، لأن البصرة أكثر بلاد الله نخلاً، فيسمون كل نوع من التمر باسم، والتمر تكثر أنواعه عندهم. ورأيت أكثر أهل سجلماسة لا يكادون يحصون أنواعه لكثرتها، ورأيت بها نوعاً من التمر زعموا أنه لا يطيب أبداً، وإنما حاله أن ينكمش على نواه، فلا تجد إلا جلدأ يابساً على النواة، فيعلفونه المعز، فيحتمل أن يكون مثل هذا في نخل البصرة يسمى نجوة، ويقابل بالعجوة التي هي أشرف التمر وأطيبه. وأما من فسر النجوة هنا بالمرتفع من الأرض، فلا معنى له. الفندجديهي: النجوة، قيل: إنها لفظة التمر إذا سقطت لا يبالي بها، فإن صحت روايتها فكانها سميت بالنجوة التي هي العذرة. نوطهم: وعاء تمرهم، قال أبو حنيفة: التوطة: الجلة الصغيرة من جلال التمر، والجلة: الوعاء الذي يكثر فيه التمر، وكل وعاء له علاقة فهو نوطه، والجمع نوط، وقد ناطه ينوطه، إذا علقه، فأراد: أَلْقَوْا الكلمة الجيدة والرديئة من كلامهم. ينبئ: يخبر. تخازر طرفه: كسر عينيه بالنظر، وتخازر: نظر بموخر عينيه، وهو نظر المنكر للشيء. تشامخ: ارتفاع، وهو فعل المستحقر للشيء مخربق: متهىء. ليتناع: لينهض، وفسره أبو عبيدة في الأمثال، فقال: المخربق: المطرق الساكت، لينباع. ليثب إذا أصاب فرصة، قال: ومعناه أنه

(١) يروى الرجز:

تري المصك يطرد الحواشيا جَلَّلْتُهَا وَالْأَخْرَ الْحَوَاشِيَا
وهو بلا نسبة في لسان العرب (صكك)، (عشا)، وتاج العروس (صكك)، (عشا).

سكت لداهية يريدها، وقيل: المخرنبق: الساكت على السوء. لينباع: ليظهر الذي في ظنه في الشر. مجرّمز: منقبض، وهو كقول النابغة:

وقلت يا قوم إنّ الليث منقبضٌ على براثنه للوثبة الضاري^(١)
فأخذه ابن الرومي فقال: [الطويل]

سكنٌ سكوناً كان رهناً بوثة غماس كذاك الليث للوثب يلبُد
نابض: رام، ويقال: أنبض القوس، إذا جذب وترّها ثم أطلقه ليختبر شدّتها. ونَبَضَ العرق: تحرّك، فيكون: «نابض» على النسب، أو على حذف الزائد. الفنجديهي: أورد أبو الحسين بن فارس اللغوي في كتابه المجمل أنّ نبض لغة في أنبض، وهما بمعنى واحد، قال الشاعر: [الطويل]

فإن أباهما مقسّمٌ بيمينه لئن نبضت كفي فإني لنابض^(٢)

فصح بهذا قوله. رابض: لاطىء بالأرض، وربضت الشاة: اضطجعت. يبغي النضال، أي يطلب المراماة، وأراد أنه يريد أن يلقي عليهم المسائل ليجاذبوه. قوله: «نُثِلت»، أي نفضت وصب ما فيها. الكنائن: الجعاب، وهي أوعية السهام. فاءت: رجعت. السكائن: جمع سكيئة، وهي الوقار، يريد: أتم أهل المجلس كلامهم فسكتوا. ركدت: سكنت. الزعازع: الرياح الشديدة المزلزلة، واحدها زعزع. كفّ المنازع: أمسك المخالف، يريد انقطع كلامه.

لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِذَا، وَجُرْتُمْ عَنِ الْقَصْدِ جِدًّا، وَعَظَّمْتُمُ الْعِظَامَ الرُّفَاتِ، وَافْتَتَيْتُمْ فِي الْمَيْلِ إِلَى مَنْ فَاتَ، وَغَمَضْتُمْ جَيْلَكُمْ الَّذِينَ فِيهِمْ لَكُمْ اللَّذَاتُ، وَمَعَهُمْ انْعَقَدَتِ الْمَوَدَّاتُ. أَنْسَيْتُمْ يَا جَهَابِذَةَ الثَّقَدِ، وَمَوَابِذَةَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ، مَا أَبْرَزْتُهُ طَوَارِفُ الْقَرَائِحِ، وَبَرَّرَ فِيهِ الْجَذْعُ عَلَى الْقَارِحِ، مِنَ الْعِبَارَاتِ الْمُهَذَّبَةِ، وَالِاسْتِعَارَاتِ الْمُسْتَعْدَبَةِ، وَالرِّسَائِلِ الْمَوْشَحَةِ، وَالْأَسَاجِيعِ الْمُسْتَمْلَحَةِ! وَهَلْ لِلْقُدَمَاءِ إِذَا أَنْعَمَ النَّظَرُ، مَنْ حَضَرَ، غَيْرُ الْمَعَانِي الْمَطْرُوقَةِ الْمَوَارِدِ، الْمَعْقُولَةِ الشُّوَارِدِ، الْمَأْثُورَةِ عَنْهُمْ لِتَقَادُمِ الْمَوَالِدِ، لَا لِتَقَدُّمِ الصَّادِرِ عَلَى الْوَارِدِ! وَإِنِّي لِأَعْرِفُ الْآنَ مَنْ إِذَا أَنْشَأَ، وَشَى، وَإِذَا عَبَّرَ، حَبَّرَ، وَإِنْ أَسْهَبَ، أَذْهَبَ، وَإِذَا أَوْجَزَ، أَعْجَزَ، وَإِنْ بَدَّ، شَدَّ، وَمَتَى اخْتَرَعَ، خَرَعَ.

(١) البيت في ديوان النابغة ص ٤٢.

(٢) البيت بلا نسبة في المخصص ١٦/٨، وفيه «وإني لنابض» بدل «فإني لنابض».

إذا: أمراً فظيماً منكرأ. جُرتَم عن القصد: خرجتم عن الاستقامة. جداً: كثيراً.
 الرفات: البالية. افتتم: فعلتم ما لا يجب وتجاوزتم فيه، ويقال: افتتات الرجل «افتنل»
 من الفوات، وفات: ذهب وعدم. غمصتم: حقّرتُم وغطيتُم. جيلكم: أهل عصركم.
 اللّذات: جمع لذة، وهو الذي ولد معك. جهابذة: حدّاق؛ الواحد جهبذ. النّقد: معرفة
 الكلام، نقده: ميّزه، وأصله من ميز الدراهم الجيدة من الرديئة. موابذة: حكام،
 والموبذ: الكثير الجاه من الفُرس، مثل الوزير والقائد. أبرزته: أظهرته. طوارف،
 جديّدات وغريبات. القرائح: الأذهان. برز: غلب. الجَدَع من الخيل ابن سنتين.
 القارح: ابن خمس، أي غلب فيه الحديث العصر القديم. عبارات: جمع عبارة وهي
 التفسير، وعبرت عن فلان: تكلمت عنه وكنت لسانه. المهدّبة: المخلّصة من العيب.
 الاستعارة: أن تعير اللفظ ما يستحقّه غيره، وهي من العارية. الموشحة: المزيّنة.
 الأساجيع: جمع أسجوعة، وهي الكلام المربوط بقافية. أنعم: بالغ. المطروقة: التي
 نزل عليها. المعقولة: المربوطة. الشوارد: الفارة، يقول: ليس للقدماء. إلا المعاني التي
 قصدها المتأخرون، كما قصدها المتقدّمون، وقيدَها المتأخرون بالكتاب كما قيدَها
 المتقدّمون، فكان تقييدها سبباً لأن مشّت في الأقطار فعرفت وحفظت. المأثورة:
 المحدث بها. الصادر: الخارج عن الماء، والوارد: الداخل إليه، وذكر هنا أنّ الصادر
 يتقدّم الوارد، وذلك أنا إذا فرضنا موضع ماء لا يمكن وروده إلا واحداً بعد واحد،
 فالصادر يسبق الوارد على ما ذكره في المقامة. قال الحريري في درة الغواص: إنّ
 الخواصّ يقولون: هذا أمر يعرفه الصادر والوارد، ووجه الكلام أن يقال: الوارد
 والصادر، لأنه مأخوذ من الوزد والصدر، ولما كان الوزد يقْدُم الصدر، وجب أن يقْدَم
 لفظ «الوارد» على الصادر، وهذا كما ترى، الورد يقدم الصدر في حق واحد، ورَد الماء
 ثم صدر عنه، وأما في حق اثنين كما قدّمنا وكما ذكر هو في هذه المقامة، فالصادر يتقدّم
 الوارد. وقول الناس: هذا أمر يعرفه الصادر والوارد في حق اثنين، فهم فيه على صواب،
 ومحال أن يكون المثل في حق واحد، لأنّ الشيء لا يعطّف على نفسه، ولو كان الوارد
 على زعمه يتقدّم الصادر لجاز تقديم الصادر عليه، لأنّ الواو لا تعطي رتبة، يقول: لا
 نتحدّث بكلمهم ونظمهم ونثرهم لفضلهم علينا، لكن لسبقهم لنا.

أنشأ: كتب. وشى: زين ورّقَم. عبّر: تكلم أو فسّر. حَبّر: حَسَن. أوجز: اختصر.
 أعجز، أي عجز عن فعله غيره. أسهب: أطال الكلام. أذهب: جاء بالذهب، وأصل
 أسهب، حفر بئراً بعيدة القعر، وأذهب: صادف معدن الذهب في حفير. بدّه: ارتجل ولم
 يتفكّر. شدّه: حَيّر من يتعاطى منزلته. اخترع: قال ما لم يُسبق إليه. خرع: شقّق المعاني.

فَقَالَ لَهُ نَاطُورَةُ الدِّيَوَانِ، وَعَيْنُ الْأَعْيَانِ: مَنْ قَابِرُ هَذِي الصَّفَاةِ،

وَقَرِيعُ هَذِهِ الصِّفَاتِ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ قِرْنُ مَجَالِكَ، وَقَرِينُ جِدَالِكَ؛ وَإِذَا شِئْتَ ذَاكَ فَرُضْ نَجِيًّا، وَادْعُ مُجِيبًا، لِتَرَى عَجِيبًا. فَقَالَ لَهُ: يَا هَذَا، إِنَّ الْبُغَاثَ بِأَرْضِنَا لَا يَسْتَنْسِرُ، وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْفِضَّةِ وَالْقِضَّةِ مُتَسِّرٌ، وَقَلٌّ مَنِ اسْتَهْدَفَ لِلنُّضَالِ، فَخَلَصَ مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ، أَوْ اسْتَشَارَ نَقَعَ الْإِمْتِحَانِ، فَلَمْ يَقْدَرَ بِالْإِمْتِهَانِ، فَلَا تُعَرِّضْ عِرْضَكَ لِلْمُقَاضِحِ، وَلَا تُعَرِّضْ عَنْ نَصَاحَةِ النَّاصِحِ. فَقَالَ: كُلُّ أَمْرٍ أَعْرِفُ بَوَسْمِ قَدْجِهِ، وَسَيَقْرِي اللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ. فَتَنَاجَتْ الْجَمَاعَةُ فِيمَا يُسَبَّرُ بِهِ قَلْبُهُ، وَيُعْمَدُ فِيهِ تَقْلِيلُهُ؛ فَقَالَ أَحَدُهُمْ: ذَرُوهُ فِي حِصَّتِي؛ لِأَرْمِيَهُ بِحَجَرِ قِصَّتِي، فَإِنَّهَا عُضْلَةُ الْعَقْدِ، وَمَحَكُ الْمُنْتَقَدِ. فَقَلَّدُوهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ الزَّعَامَةَ، تَقْلِيدَ الْخَوَارِجِ أَبَا نَعَامَةَ.

* * *

قوله: «ناظورة»، أي كبير القوم ومقدمهم الذي ينظرون إليه. الديوان: دار الكتاب وموضع اجتماعهم. والديوان، الزمام يكون فيه أسماء الجند وأرزاقهم، وأصله «دَوَان»، فقلبت واوه الأولى ياء لانكسار ما قبلها، ودلَّ عليه دواوين في جمعه، وهو اسم أعجمي عَرَبٌ، والأصل في تسميته أن كسرى أمر الكتاب أن يجتمعوا له في دار، ويعملوا حساب السواد في ثلاثة أيام، وأعجلهم فيه، فأخذوا في ذلك، وأطلع عليهم لينظر ما يصنعون؛ فنظر إليهم يحسبون بأسرع ما يمكن، وينسخون كذلك، فعجب من كثرة حركتهم، فقال: أرى «ديوان» ومعناه شياطين، ثم سَمَى موضعهم ديواناً، ثم استعملته العرب، وجعل كل محضل من كلام أو شعر ديوان. قارع: ضارب وكاسر. الصِّفَاة: الصخرة الملساء، استعارها للصعب من الكلام. قريع: سيد. الصِّفَات: النعوت التي تقدِّم أنه يُعَرِّفُ بفعلها. وقِرْنُ مجالك: صاحب كلامك الذي تجول فيه - يعني نفسه. قرين جدالك: صاحب مجادلتك، والقِرْنُ بالكسر: الذي يماثلك في شدة أو خصام أو علم، وإن لم يكن بينكما معرفة، وقرينك: صاحبك الذي لا يفارقك كأنه قُرْنُ معك. والمجال: الموضع الذي تُرَاض فيه الخيل. رُض: سنَّ ولين. النجيب: الفحل الكريم من الإبل، وعنَى نفسه. ادع مجيباً، يقول: سِئْنِي ثم ادعني أستجب لك. ترى عجبياً، في حسن جوابي. البُغَاث: صغار الطير. يستنسر: يصير نسرأ، يقول: نحن أهل علم ومعارف، فلا تجوز علينا المخاوف، والعرب تقول في أمثالها: «إن البُغَاثَ فِي أَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ»، أي يرجع الضعيف قوياً لعزنا وحمايتنا له ممن يريده، وقيل في البُغَاث: إنه ذَكَرُ الرَّحْمِ، وقيل: البُغَاثُ كُلُّ مَا يُصَاد مِنَ الطَّيْرِ، والجوارح: كُلُّ مَا يَصِيد، والرَّهَام: ما لا يصيد ولا يصاد، كالخَطَاف وغيره. القِضَّة: الحصى البيض الصغار، ويقال: جاء بالقِضِّ والقضيض بالقاف والضاد، ومعناه جاء بالكبير والصغير. والقضيض: صغار الحصى وما تكسَّر منه، وقالوا: جاؤوا قَضَهُم بقضيضهم. أي كلَّهم. استهدف: صار هدفاً، وهو

العَرَضُ للسهم. النَّضال: المراماة. العُضال: الذي لا يُبرأ منه. استثار: حرك نقع غبار. الامتحان: الاختبار. يَفْدُ: يقع في عينه القُدَى، وهو ما يسقط في العين، ويقول: من صار غرضاً لللسنة قل أن يسلم، ومن صار طالباً لمناظرة أهل المعارف أهين وأفحم. المفاضح: المخزيات واشتعار العيوب. وُسْم: علامة. قدحه: سهمه، يريد قداح الميسر، وكان كل رجل يعمل في قدحه علامة يعرف بها، قال دريد بن الصمة: [الوافر] وأصفر من قداح النَّبْعِ فرع به عَلمان من عَقَبٍ وُضِرْسِ^(١)

الضرس: العض بالضرس وسنذكر في الثالثة والأربعين قداح العرب:

سيتفرى: سيتكشف. قوله: «تناجت»، أي تحدثت سراً. يُسَبَر: يقاس. قَلِيه: بثره. يَغْمَد: يُقَصِد. تقلبيه: تجربيه. ذروه: اتركوه. حِصَتِي: نصيبي. قصتي: خبري، وجعل لمسألته حجراً يرميه به مجازاً. عُضلة: صعبة. العقد: جمع عقدة، يريد أن عقدها صعب الحل. محك المنتقد: وهو حجر يقاس جيد الفضة والذهب من الرديء؛ أراد أن مسألته نهاية في الصعوبة، والعُضلة: كل مسألة شديدة لا يُهتدى لمثلها، ولا يوقف على جوابها، من قولهم: داء عضال ومعضل، إذا كان شديداً لا يُهتدى لدوائه، ولا يوقف على علاجه، وعُضِلَت المرأة تعضيلاً، نشب ولدها في بطنها، وعُضِلَت الدجاجة بيضها كذلك، وفلان عُضلة من العضل، أي داهية لا يُهتدى لمكره. قوله: «الزعامة»، أي الرياسة.

[قَطْرِي بن الفجاءة]

وأبو نعامة هو قَطْرِي بن الفجاءة التميمي الخارجي. وكان له فرس يكنى بها في الحرب، ويكنى في السلم أبا محمد. وقَطْرِي: منسوب إلى قَطَر، موضع قريب من عُقير. وكان فارساً شجاعاً شاعراً مجيداً، وكان رئيس الخوارج، وسلموا عليه بأمر المؤمنين عشرين سنة، وكان خطيباً فصيحاً، وله خطبة في ذم الدنيا انتهى فيها من البلاغة إلى الغاية. وأولها:

أما بعد فإني أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة، حُفَّت بالشهوات، وراقت بالقليل، وتحببت بالعاجل، وتحلّت بالأمانى، وتزينت بالغرور، لا تدوم زهرتها، ولا تؤمن فجعتها، غرارة ضلالة، حائلة زائلة، نافذة بائدة، لا تعدو إذا هي تناهت إلى أمانة الرغبة فيها، والرضا عنها، أن تكون كما قال تعالى: ﴿كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ

(١) البيت لدريد بن الصمة في ديوانه ص ١١٧، ورواية العجز فيه:

خفني الوسم من ضرس ولمس

ولسان العرب (كفا)، (عقب)، (ضرس)، (نبح)، والتنبيه والإيضاح ١١٨/١، ١٨٤/٢، والمخصص ٣/١١، ٤٨/١٣، وتاج العروس (كفا)، (عقب)، (ضرس)، (نبح)، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ١٠/٣٩٠، ٤٨٦/١١، ومجمل اللغة ٣/٣١٠، وديوان الأدب ١٦١/٢، ويروى «صلب» بدل «فرع».

الْأَرْضِ فَأَضْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ [الكهف: ٤٥].

كم واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة إليها قد صرعته، وذي احتيالٍ فيها قد خدعته. وكم من ذي أهبة فيها قد صيرته حقيراً، وذي نخوة قد ردته ذليلاً، وذي تاج قد كبّته لليدين والقم؛ سلطانها دول، وعيشها رنق، وعذبها أجاج، وحلوها صبر، مليكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وسليمها منكوب، وجامعها محروب؛ مع أن وراء ذلك سكرات الموت، وهول المطلع، والوقوف بين يدي الحكم العدل ﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى﴾ [النجم: ٣١].

ومن جيد شعره في وقعة دُولاب^(١): [الطويل]

لعمرك إني في الحياة لزاهدٌ	وفي العيش ما لم ألقَ أم حكيم ^(٢)
من الخفِرات البيض لم يرَ مثلها	شفاءً لىدى بئ ولا لسقيم
لعمرك إني يوم أَلِطَم وجهها	على نائبات الدهر جدُّ لثيم
ولو شهدتني يوم دُولاب أبصرت	طعان فتى في الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل	وعُجنا صدور الخيل نحو تميم
فلم أر يوماً كان أكثر مفظعاً	يُمِج دماً من فائظ وكليم
وضاربة خذاً كريماً على فتى	أغرّ نجيب الأمهات كريم
أصيب بدُولابٍ ولم تك موطناً	له أرض دُولابٍ ودير حميم
فلو شهدتني يوم ذاك وخيلنا	تبيع من الكفار كلَّ حريم
رأت فتيةً باعوا الإله نُفوسهم	بجنات عدن عنده ونعيم

وأم حكيم التي شتّب بها، كانت معه في عسكر الإباضية، وكانت من أشجع الناس، وأجملهم وجهاً، وأحسنهم بدينه متمسكاً. وكان قطريّ يحبها ويجلّها، وأخبر من شاهدها في تلك الحروب أنها كانت ترتجز فتقول: [الرجز]

أَحْمِلُ رَأْسًا قَدْ سَمْتُ حَمْلَهُ وَقَدْ مَلَلْتُ دَهْنَهُ وَعَسَلَهُ
* أَلَا فَتَى يَحْمِلُ عَنِّي ثِقْلَهُ *

والخوارج يفدونها بالآباء والأمهات، وخطبها جماعة من أشراف الخوارج فردّتهم، وقالت: [الطويل]

(١) دُولاب: قرية من عمل الأهواز، كانت بها حرب الأزارقة ومسلم بن عيسى بن كرز.
(٢) الأبيات في ديوان قطري بن الفجاءة ص ١٧٥، والبيت السادس في لسان العرب (فيظ)، برواية: فلم أر يوماً كان أكثر مقصعاً يبيع دماً من فائظ وكليم

ألا إنَّ وجهها حَسَنَ الله خَلْقَهُ لأجدر أن يُلقَى به الحسن جامعا
وأكرم هذا الجِزَمَ عن أن ينالَهُ تورك فخلِ همّه أن يجامعا

أين هذه من أم خارجة، واسمها عمرة بنت سعد، كان يقال: لها خُطْب، فتقول:
نُكح، وضرب بها المثل فقل: أَسْرُعُ من نكاح أم خارجة.

وأين هي من حفيذة قطري مع صاحبها، حكى الإصبهاني عن إسماعيل بن المهاجر
قال: خرجت أنا والسيد الحميري سكارى، فلقينا بنت الفُجاءة بن عمرو بن قَطْرِي بن
الفجاءة، وكانت امرأة بُزْزَة حسناء، فواقفها السَّيّد، وأنشدها من شعره، فأعجب كلُّ
واحد منهما صاحبه، ثم خطبها، فقالت: كيف يكون هذا ونحن على ظُهر الطريق! قال:
يكون كنكاح أم خارجة، قيل لها: خُطْب، قالت: نُكح، فاستضحكت وقالت: نَنْظُر في
هذا، وعلى ذلك فمن أنت؟ قال: [البسيط]

إن تسأليني بقومي تسألني رجلاً في ذِروة المجد من أجواد ذي يَمَنٍ
ثم الولاء الذي أنجو النجاة به من كُبة النارٍ للهادي أبي حسنٍ

فقالت: لا شيء أعجب من هذا! يمانني وتميمية، ورافضي وإباضية، فكيف
يجتمعان! فقال: بحسن رأيك تسخو نفسك، ولا يذكر أحدنا سلفاً ولا مذهباً، قالت:
أفليس التزويج إذا عُلِم، انكشفت معه الستور؟ قال: وأنا أعرض عليك أخرى، قالت:
وما هي؟ قال: المُنعة التي لا يعلم بها أحد، قالت: تلك أخت الزنا، قال: أعيدك بالله
أن تكفري بعد إيمانك! قالت: وكيف؟ قال لها: قال الله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ
فَاتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، قالت: أستخير الله وأقلدك، إذ كنت صاحب قياس وتفتيش.
ولما انصرفت معه، وبات معرساً بها؛ وبلغ أهلها من الخوارج أمرها تَوَعَّدوها بالقتل،
فجحدت وقالوا: أتزوجت بكافراً! فكانت تختلف إليه مدةً وتواصله.

وقوله: «تقليد الخوارج أبا نعمة»، لما قُتِل الزبير بن علي السليطي أمير الخوارج،
أداروا أمرهم، فأرادوا تولية عبيدة بن هلال الشكري، فقال: ألا أدلكم على من هو خير مني
لكم؟ مَنْ يطاعن في قُبُل، يحمي عن دُبُر؛ عليكم بقطري بن الفجاءة المازني، فبايعوه.

فأَقْبَلَ عَلَى الكَهْل، وقال: أَعْلَمُ أَنِّي أُولِي، هَذَا الْوَالِي، وَأَرْفُحُ حَالِي،
بِالْبَيَانِ الْحَالِي. وَكُنْتُ أَسْتَعِينُ عَلَى تَقْوِيمِ أَوْدِي، فِي بَلَدِي، بِسَعَةِ ذَاتِ يَدِي، مَعَ
قِلَّةِ عَدَدِي. فَلَمَّا ثَقُلَ حَاذِي، وَتَفَعَّدَ رِذَاذِي، أُمَمْتُهِ مِنْ أَزْجَائِي، بِرَجَائِي، وَدَعَوْتُهُ
لِإِعَادَةِ رُؤَايِي، وَإِرَاوَانِي؛ فَهَشَّ لِلْوَفَادَةِ وَازْتَاخَ، وَعَدَا بِالْإِفَادَةِ وَرَاخَ. فَلَمَّا اسْتَأْذَنْتُهُ
فِي الْمَرَاخِ، إِلَى الْمَرَاخِ، عَلَى كَاهِلِ الْمَرَاخِ؛ قَالَ: قَدْ أَزْمَعْتُ أَلَا أَرُودُكَ بَنَاتَا؛ وَلَا

أَجْمَعَ لَكَ شَتَاتًا، أَوْ تُنْشِئَ لِي أَمَامَ اِزْتِحَالِكَ، رِسَالَةً تُودِعُهَا شَرْحَ حَالِكَ، حُرُوفُ
إِخْدَى كَلِمَتِهَا يَعْطُهَا التَّفْطُ، وَحُرُوفُ الْآخَرَى لَمْ يُعْجَمْنَ قَطُّ، وَقَدْ اسْتَأْنَيْتُ بَيَانِي
حَوْلًا، فَمَا أَحَارَ قَوْلًا، وَتَبَهْتُ فِكْرِي سَنَةً، فَمَا اِزْدَادَ إِلَّا سَنَةً. وَاسْتَعْنْتُ بِقَاطِبَةِ
الْكِتَابِ، فَكُلُّ مِنْهُمْ قَطَّبَ وَتَابَ، فَإِنْ كُنْتَ صَدَعْتَ عَن وَصْفِكَ بِالْيَقِينِ، فَأَتِ بَايَةَ
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.

فقال له: اسْتَسَعَيْتَ يَغُوبًا، وَاسْتَسَقَيْتَ أُسْكُوبًا، وَأَعْطَيْتَ الْقَوْسَ بَارِيهَا،
وَأَسْكَنْتَ الدَّارَ بَانِيهَا. ثُمَّ فَكَّرَ رَيْشَمَا اسْتَجَمَّ قَرِيحَتُهُ، وَاسْتَدَّرَّ لِقَحْتَهُ، وَقَالَ: أَلْقِ
دَوَاتَكَ وَأَقْرُبْ، وَخُذْ أَدَاتَكَ وَاكْتُبْ:

* * *

قوله: «أوالي»، أي ألزم وأتخذ وليًا. أَرْقَح: أصلح، يقال رَقَحَ مِنْ عَيْشِهِ، إِذَا
أصلح منه، قال الشاعر: [السريع]

يَتْرَكَ مَا رَقَحَ مِنْ عَيْشِهِ يَغْبِثُ فِيهِ هَمَجٌ هَامِجٌ^(١)

الْهَمَجُ: البعوض، ثُمَّ قِيلَ لَأَرْدَالَ النَّاسِ: هَمَجٌ. الْحَالِي: الْمَزِينُ بِالْحُلِيِّ. أَوْدِي:
عَوَجِي. سَعَةٌ: كَثْرَةٌ. ذَاتُ يَدِي، أَيْ مَالِي. عَدْدِي: عِيَالِي. حَاذِي: ظَهْرِي، وَفُلَانٌ
خَفِيفُ الْحَاذِ، أَيْ قَلِيلُ الْعِيَالِ، وَأَصْلُ الْحَاذِ مُؤَخَّرُ الْفَخْذَيْنِ. نَفْدٌ رَذَاذِي: فَرَاغٌ قَلِيلٌ
مَالِي، وَالرَّذَاذُ. الْمَطَرُ الضَّعِيفُ. أُمَّتُهُ: قَصْدَتُهُ. أَرْجَائِي: جِهَاتِي وَبِلَادِي. رَجَائِي:
أَمَلِي. رُؤَائِي: حَسَنُ هَيْئَتِي وَحَالِي: إِرْوَائِي: إِزَالَةُ عَطَشِي. هَشٌّ: خَفٌّ، وَرَجُلٌ هَشٌّ
بَسَامٌ: طَلِيقُ الْوَجْهِ. لِلْوَفَاةِ: لِلْقُدُومِ عَلَيْهِ. وَارْتَاخٌ: طَرَبٌ وَاهْتَزُّ. الْإِفَادَةُ: تَكْسِيبُ
الْفَوَائِدِ. الْمَرَاخُ، بِفَتْحِ الْمِيمِ: الْمَشْيُ وَالْإِنْصِرَافُ. وَالْمَرَاخُ، بِالضَّمِّ: الْمَوْضِعُ الَّذِي
تَرْوُحُ إِلَيْهِ الْإِبِلُ وَتَرْوُحُ مِنْهُ، أَوْ تَرَاخُ إِلَيْهِ، أَيْ تَسَاقُ بِالْعَشِيِّ. وَالْمَرَاخُ، بِالْكَسْرِ: النِّشَاطُ
وَالْخِفَّةُ، وَقَدْ مَرِحَ مَرَحًا، لَعِبَ، مِنَ الْفَرَحِ. كَاهِلٌ: مَا بَيْنَ فُرُوعِ الْكَتِفَيْنِ، اسْتَعَارَهُ
لِلنِّشَاطِ. أَزْمَعْتُ: عَزَمْتُ بَتَاتًا: زَادًا. شَتَاتًا: مَالًا مُتَفَرِّقًا. تُنْشِئُ: تُصْنَعُ وَتُكْتَبُ. أَمَامَ
ارْتِحَالِكَ: قَبْلَ سَفَرِكَ: تَوَدَّعَهَا: تَضَمَّنَهَا وَتَجَعَلَ فِيهَا. يَعْجَمُنْ: يَنْقُطُنْ، وَأَعْجَمْتُ
الْكِتَابَ: أَزَلْتُ عَنْهُ عُمْجَمَتَهُ.

(١) البيت للحارث بن حلزة في ديوانه ص ٦٦، ولسان العرب (همج)، (رقح)، وتهذيب اللغة ٦/ ٧١،
وجمهرة اللغة ص ٥١٩، ومجمل اللغة ٤/ ٤٨٨، وديوان الأدب ١/ ٣٤٦، ٢/ ٢٤٥، وأساس البلاغة
(رقح)، وإصلاح المنطق ص ٧٩، والبخلاء ص ١٦٤، والبيان والتبيين ص ٣/ ٣٠٣، والحيوان ٣/
٤٥٠، وشرح اختيارات المفضل ص ١٧٣١، والمعاني الكبير ص ٦٠٨، وتاج العروس (رقح)، وبلا
نسبة في جمهرة اللغة ص ٤٩٦، ومقاييس اللغة ٦/ ٦٤، والمخصص ٣/ ٩٤، ٨/ ١٨٥.

قطّ: لفظة موضوعة لما مضى من الدهر. وجعل الحريري قول الخواصّ: «لا أكلمه قطّ» من أفحش الخطأ لتناقض الكلام، قال: وذلك أنّ العرب تستعمل لفظة «قطّ» فيما مضى من الزمان، كما تستعمل لفظة «أبدأ» فيما يستقبل، فيقولون ما كَلَّمْتُهُ أبداً، والمعنى: ما كَلَّمْتُهُ فيما انقطع من عمري، لأنه من قَطَطْتُ الشيء، إذا قَطَعْتَهُ، ومنه قَطَّ القَلَمُ، إذا قطع طَرَفَهُ. وفيما يؤثر من شجاعة عليّ رضي الله عنه أنه كان إذا استقبل قَدْ، وإذا استدبر قَطّ، فالقَدْ قطع الشيء طولاً، والقَطّ قطعُه عرضاً. يقول. تصنع رسالة تضمنها حالك، يكون تركيبها من كلمة يعمّ حروفها التقط، وكلمة لا ينقط منها حرف، وبهذا المعنى سُمِّيَت المقامة الخفاء، لأنّ الأخيفَ من الخيل: الذي إحدى عينيه زرقاء. والأخرى كحلاء. استأنيت: أمهلت وأخرت. أحرار: ردّ وراجع. نَبِهْتُ: أيقظت. سَنَةُ: حولاً. سِنَةٌ: يوماً. قاطبة: جماعة. قَطَب وجهه، إذا عَبَسَه. صَدَعْتُ: أوضحت وأظهرت، وأصل الصدع الشق. باليقين: بالحقّ الواضح. آية: علامة، قال ابن الأنباريّ رحمه الله: في قولهم آية من القرآن ثلاثة أوجه:

قيل إنها علامة لانقطاع الكلام قبلها وبعدها، واحتجّ أبو عبيدة لذلك بقول الشاعر:

[الوافر]

* بآية ما تحبُّون الطُعَمَا (١) *

وبقول النابغة: [الطويل]

تَوَهَّمْتُ آيَاتٍ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لَسْتُ أَغْوَامَ وَذَا الْعَامِ سَابِعُ (٢)

الثاني: سُمِّيَت الآية لأنها جماعة حروف، قال أبو عمرو: خرج القوم بآيتهم، أي بجماعتهم.

الثالث: سُمِّيَت آية لأنها عجب من العجائب، فالآية العجب.

قوله: «استسقيت»: طلبت سعيه أي جريه. واليَغُبُّوب: الفرس السريع. استسقيت:

(١) صدره:

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي تَمِيمًا

والبيت ليزيد بن عمرو بن الصقع في خزنة الأدب ٥١٢/٦، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٣، ٥٢٦، والدرر ٩٢/١، وشرح أبيات سيبويه ١٨٦/٢، وشرح شواهد المغني ٨٣٦/٢، وشرح المفصل ١١٨/٣، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٢٥٠، ومغني اللبيب ٤٢٠/٢، ٦٣٨، وجمع الهوامع ٥١/٢.

(٢) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص ٣١، وخزنة الأدب ٤٥٣/٢، وشرح أبيات سيبويه ٤٤٧/١، والصاحبي في فقه اللغة ص ١١٣، والكتاب ٨٦/٢، ولسان العرب (عشر)، والمقاصد النحوية ٣/٤٠٦، ٤٨٢/٤، وبلا نسبة في أوضح المسالك ٢٦١/٤، وشرح التصريح ٢٧٦/٢، وشرح شواهد الشافية ص ١٠٨، والمقتضب ٣٢٢/٤، والمقرب ١٤٧/١، وتاج العروس (لوم).

استمطرت وطلبت سُقياه. والأسكُوب: المطر الكثير. باريتها: صانعها، وكل هذه أمثال، ويريد: أنا أهل لكل ما طلبت.

وأول من قال: أعط القوس باريتها الحطية، وذلك أنه دخل على سعيد بن العاص وهو يقري الناس، فأكل أكلًا جافياً، وخرج الناس، فأقام، وأتاه الحاجب ليُخرجه فامتنع، وقال: أترغب بهم عن مجالستي! إني بنفسى عنهم لأرغب! فقال له سعيد: دَعُه. ثم تذاكروا الشعر والشعراء، فقال لهم الحُطية: والله ما أصبتم جيد الشعر ولا شاعر العرب، ولو أعطيتم القوس باريتها، وقعتم على ما تريدون، فقال له سعيد: فمن أشعر العرب؟ قال: الذي يقول: [الخفيف]

لا أَعُدُّ الإِقْتَارَ عُذْماً وَلَكِنْ فَقَدْ مَنْ قَدْ رُزِئَتْهُ الإِغْدَامُ^(١)

إلى آخر القصيدة. قال: فمن قائلها؟ قال: أبو دؤاد الإيادي، قال: ثم من؟ قال: والله لحسبك بي رهبة أو رغبة؛ أنا إذا رفعت إحدى رجلتي على الأخرى، وعويت في إثر القوافي كما يعوي الفصيل الصادي إثر أمه؛ قال: [من أنت؟ قال:] الحُطية، قال: حيّاك الله يا أبا مليكة، ألا أعلمتنا بمكانك، ولم تحملنا على الجهل بك، فنضيع حقك ونبخسك قسطك! وأدناه ووصله.

وقال الشاعر: [البيط]

يا باريَ القُوسِ بزيّاً ليس يُخسِيه لا تظلم القوس واعط القوسَ باريتها^(٢)

ريث: مقدار وبطء. استجم: استكثر. قريحته: طبيعته، والقريحة في الأصل أول ماء البئر النابع، واستجمها: تركها حتى تكثر. استدر: استنزل دَرَّها وهو لبنها. واللَّفَحَة: الناقة ذات اللبن؛ يريد: أقام قليلاً يفكر ويختار ما يقول: ومثل هذه الحالة ذكروا أن صديقاً لكلثوم العتابي أتاه يوماً، فقال له: اصنّع لي رسالة، فاستمدّ مدّة، ثم علّق القلم، فقال له صاحبه: ما أرى بلاغتك إلا شاردةً عنك، فقال له العتابي: إني لما تناولت القلم تداعت عليّ المعاني من كلّ جهة، فأحببت أن أترك كلّ معنى حتى يرجع إلى موضعه، وهذا مثل قول امرئ القيس - ويقال إنه قالها وهو ابن عشر سنين: [المقارب]

أذودُ القوافي عني ذباداً ذبادَ غلامٍ غويّ جواداً^(٣)

(١) البيت لأبي دؤاد الإيادي في ديوانه ص ٣٣٨، والأصمعيات ص ١٨٧، والأغاني ١٣٩/٢، ١٦/١٩٩، ١٥٥/١٧، وتخليص الشواهد ص ٤٣١، وخزانة الأدب ١٢٥/٨، ٥٩٠/٩، ٥٩١، والدرر ٢٣٨/٢، والشعر والشعراء ٢٤٤/١، والمؤتلف والمختلف ص ١١٥، والمقاصد النحوية ٣٩١/٢، وبلا نسبة في همع الهوامع ١٤٨/١.

(٢) البيت للحطية في شرح شواهد الشافية ص ٤١١، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٨/٣٥٠، ٣٤٩.

(٣) الأبيات لامرئ القيس في ديوانه ص ٢٤٨، ولسان العرب (مرج)، والتنبيه والإيضاح ٢١٩/١.

فلَمَّا كُثِرْنَ وَعَثِيْنَهُ تَخَيَّرَ مِنْهَا جَوَاداً جَيَّاداً
فَاعْزَلَ مَرَجَانَهَا جَانِباً وَأَخَذَ مِنْ دُرِّهَا الْمَسْتَجَاداً

وقال عريف القوافي: [الطويل]

أَبَيْتُ بِأَبْوَابِ الْقَوَافِي كَأَنَّمَا أَصَادِي بِهَا سِرْبًا مِنَ الْوَحْشِ نَزْعًا^(١)
عَوَاصِيٍّ إِلَّا مَا جَعَلْتُ وَرَاءَهَا عَصَا مِزِيدٍ تَغْشَى وَجُوهًا وَأَذْرَعًا
إِذَا خَفْتُ أَنْ تُرَوِّى عَلَيَّ رَدْدُهَا وَرَاءَ التَّرَاقِي خَشِيَّةٌ أَنْ تَطْلُعَا

أَصَادِي: أَدَارِي، وجعل القوافي تقتحم عليه كالإبل، وهو يضربها بعصاه حتى يختار جيادها.

[الدواة والمداد والقلم]

قوله «أَلِقْ»، أي اجعل فيها ليقة، تقول: لِقْتُ الدواة فهي مَلِيقَةٌ، وأَلَقْتُهَا فهي مَلَاقَةٌ، وجمع اللَّيْقَةِ لَيْقٌ. ويقال لِلصُّوفَةِ قَبْلُ أَنْ تُبَلَّ بِالْمَدَادِ: الْبُوهَةُ وَالْمَوَارَةُ، فَإِذَا بَلَّتْ بِالْمَدَادِ سُمِّيَتْ لَيْقَةً، وَقَدْ يُقَالُ لَهَا: لَيْقَةٌ قَبْلُ أَنْ تُبَلَّ، سُمِيتَ بِمَا تَوَوَّلُ إِلَيْهِ، كَمَا قِيلَ لِلْكَبِشِ: ذَبِيحٌ، وَلِلصَّيْدِ: رَمِيَّةٌ، فَإِنْ كَانَتْ قَطْنَةٌ فِيهِ الْعُطْبَةُ وَالْكُرْسُفَةُ، وَكَرْسَفَتِ الدَّوَاةُ كُرْسُفَةً، وَالْقَطْنَ كُلَّهُ يُقَالُ لَهُ: الْعُطْبُ وَالْكُرْسُفُ.

ويقال لِلْمَدَادِ: نَفْسٌ وَنَفْسٌ، وَالْكَسْرُ أَفْصَحُ، وَقِيلَ: الْفَتْحُ مُصَدَّرُ نَفْسَتِهَا، جَعَلْتُ فِيهَا نَفْسًا، وَالْحَبْرُ مِنَ الْمَدَادِ بِالْكَسْرِ لَا غَيْرَ، وَالْحَبْرُ بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرُ: الْعَالِمُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: سَمِّيَ الْمَدَادُ حَبْرًا بِاسْمِ الْعَالِمِ، كَأَنَّهُمْ أَرَادُوا مَدَادَ حَبْرٍ، فَحَذَفُوا، وَلَوْ كَانَ مَا قَالُوهُ صَحِيحًا لَقَالُوا لِلْمَدَادِ: حَبْرٌ بِالْفَتْحِ، وَالْأَشْبَهُ أَنْ يَسْمَى حَبْرًا لِأَنَّهُ يَحْسُنُ الْكِتَابَةَ، مِنْ قَوْلِهِمْ: حَبِرَتِ الشَّيْءُ إِذَا حَسَّنَتْهُ. وَيُقَالُ لِلْجَمَالِ: حَبْرٌ وَسَبْرٌ، فَمَدَادُ حَبْرٍ، كَقَوْلِكَ مَدَادَ زِينَةٍ وَجَمَالٍ، أَوْ يَكُونُ مِنَ الْحَبْرِ وَالْحُبَارِ، وَهُوَ الْأَثَرُ، فَيَسْمَى بِذَلِكَ لِتَأْثِيرِهِ فِي الْكِتَابِ. وَيُقَالُ: مَدَدَتِ الدَّوَاةُ أَمْدَهَا مَدْدًا، إِذَا جَعَلَتْ فِيهَا مَدَادًا، فَإِنْ كَانَ فِيهَا مَدَادٌ فَزَدَتْ عَلَيْهِ قَلْتُ: أَمَدَدْتُهَا، فَإِذَا أَمَرْتَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْمَدَادِ بِالْقَلَمِ قَلْتُ: اسْتَمَدَدَ، فَإِنْ سَأَلْتَهُ أَنْ يُعْطِيَكَ عَلَى الْقَلَمِ مَدَادًا، قَلْتُ: أَمِدْ لِي مِنْ دَوَاتِكَ، وَاسْتَمَدَدْتَهُ أَنَا؛ سَأَلْتُهُ أَنْ يَمْدَنِي. وَقَالَ الْخَلِيلُ: مَدَّنِي وَأَمْدَنِي: أَعْطَنِي مِنْ مَدَادِ دَوَاتِكَ، وَكُلُّ شَيْءٍ زَادَ فِي شَيْءٍ فَهُوَ مَدَادٌ لَهُ، وَأَمَهَتْ الدَّوَاةُ وَمَوَّهَتْهَا؛ إِذَا جَعَلَتْ فِيهَا مَاءً، وَالْأَمْرُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ أَمَةٌ وَمَوْهٌ دَوَاتِكَ.

(١) البيت الأول لسويد بن كراع في لسان العرب (بوب)، وتاج العروس (بوب)، والأغاني ٣٩٩/١٢، والشعر والشعراء ص ٦٣٩، والبيت الثاني لسويد بن كراع في مقاييس اللغة ٤٧٦/٢، والشعر والشعراء ص ٦٣٩، وبلا نسبة في لسان العرب (ريد)، وتهذيب اللغة ١٠٩/١٤، وجمهرة اللغة ص ٢٩٧، والمخصص ٩١/٧، وتاج العروس (ريد).

واشتقاق الدّواة من الدّواء، لأن بها إصلاح أمر الكتاب، وبعض الشعراء اشتقّها من دَوِيّ الرجل يَدَوِيّ دَوِيّاً، إذا صار في جوفه الداء، قال: [البسيط]

أما الدواة فأدوى حملها جسدي وحرف الخط تحريف من القلم^(١)

ووزنها «فَعْلَة» تحرّكت الياء وقبلها فتحة، فقلبت ألفاً، وتجمع دَوِيّات؛ كقناة وقنوات، ودَوِيّ كقناة وقنأ. ويقال: أدويت فأنا مدوٍ: اتّخذت دواة، ويقال للذي يبيعها: دَوَاء كخيّاط، وإذا أمرت من يتخذها قلت: أدو دَوَاءً، ويقال لمن يحملها ويمسكها: دَوَاء، ويقال لها: الدواة والرقيم والنون.

ويقال: هو القلم المِزْبَر بالزاي والمِذْبَر من زبرت وذبرت، أي كتبت، ومن فرق بينهما قال: زبرت بالزاي، أي كتبت، وذبرت، أي قرأت. وسُمِّيَ قَلَمًا لأنه قَلَم، أي قطع وسوّى، كما يَقلَم الظفر، وكلّ عود قطع وخز رأسه وأعلم بعلامة فهو قلم، قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وكانت سهاماً فيها أسماءهم مكتوبة. ويقال للذي يُقَلِّم به: مِقلِّم، وللذي يُبْرِى به: مبرّى، ولَمَّا سَقَطَ عن البزى والتّقليم: القَلّامة والبُرّاية. وقيل لأعرابي: ما القلم؟ ففكر ساعة، وجعل يقلّب أصابعه، ثم قال: لا أدري؛ فقليل له: توهمه في نفسك، قال: هو عود قَلِّم من جوانبه كتقليم الأظفار. ويقال لعُقْدَة: الكعوب، واحداً كَعْب، ولما بينها الأنابيب، واحداً أنبوب، ويستعملان في الرّمح، وفي كلّ عود فيه عُقْد، والعقدة التي تشبه تسمى الأبنّة وجمعها أبنّ، فإن كان في العود أو القصبة تأكل، قيل فيه: قاذح ونقّد، ويقال لباطنه: الشحمة، ولظاهره اللّيط، فإن قشرت منه قشرة قلت: ليّطت من القلم ليطة، فإن أخذت شحمته بالسكين قيل: شحمته أشحمه، فإن أفرطت في أخذها، قلت: بطّنته تبطيناً فهو مبطّن، وحفرته فهو محفور، فإن تركت شحمته، قلت: أشحمته إشحاماً. ويقال لغشائه الذي عليه: الغلاف واللّحاء والقشر، فإذا نزعته عنه قيل: قشرته ولحوته وقشوته وسحوته، ويقال في ثلاثتها بالياء، ووسقته ونقّخته، مشدّدان. ويقال لطرفيه اللّذين يكتب بهما: السّنان والشّعيرتان، واحدهما سنّ وشعيرة، فإذا قطع طرفه وهىء للكتابة قيل: قطّطته أقطّه قَطّاً، وقصمته أقصمه قَصْماً، والمِقطّ بالكسر: ما يقطّ عليه، وبالفتح الموضع الذي يقط من رأسه، فإن جعلت إحدى سنيّه أطول من الأخرى قلت: قلم محرف، وقد حرّفته تحريفاً، فإن سويتهما قلت: قلم مبسوط، فإن سمع له صوت عند الكتابة، فذلك الصريف والصرير والرشيّق ويقال للقصّب: اليرّاع والأبّاء، الواحد يرّاعة وأبّاء، وقيل: الأبّاء أطراف القلم، أي القصّب، ويقال للقطن الذي يوجد في بطنها: البَيْلَم والقَيْصِف والقَيْصَع، واحده بَيْلَمَة وقَيْصَفَة وقَيْصَعَة، فإن كان في القصّب تأكل قيل فيه: قاذح ونقّد،

(١) البيت بلا نسبة في تاج العروس (دوي).

وكذلك العود والسنّ والقَرَن، فإن كان فيها عَوَجٌ فذلك الدَّرء.

قوله: «خذ أداتك»، أي قلمك. وقال ابن طاهر لكاتب له: أَلِقْ دواتك، وأطلِ سنّ قلمك، وفرّق بين السطور، وتوسط بين الحروف.

وقال ابن عبد ربه: ينبغي للكاتب أن يصلح آلتَه التي لا بدّ له منها، وأداته التي لا تتمّ صناعته إلا بها، وهي دواته، فلينعم ربُّها بإصلاحها، ثم ليختر من أنابيب القصب أقلّها عُقْدًا، وأكثرها لحمًا، وأصلبها قشرًا، وأعدلها استواءً، ويجعل لقرطاسه سِكِينًا حادًا ليكون عونًا له على بَرَى أعلامه، وبيربها من ناحية نبات القصب.

واعلم أنّ محلّ القلم من الكاتب محلّ الرَّمح من الفارس، نظم أحد الشعراء فقال:

[الرمّل]

يُمسِكُ الفارسُ رُمحاً بيدٍ وأنا أمسك فيها قَصَبَه
فكلنا فارسٌ في شأنِهِ إنما الأفلامُ رُمحُ الكَتَبَه

وقال أبو الفتح البُستي: [البسيط]

إن هزّ أعلامه يوماً ليعملَها أنساك كلّ كَمِيٍّ هزّ عامِلَه
وإن أقزّ على رَقٍّ أناملَه أقرب الرّقِّ كَتَابُ الأنام لَه

رأى جعفر بن يحيى خطأ فاستحسنه، فقال: الخطّ خَيْطُ الحكمة، يُنظم فيه منشورها، وتُفَصّل فيه شذورها.

ومن كتاب جعفر بن يحيى إلى محمد بن الليث: أما بعد، فليكن قَلَمُكَ محرّفًا. لا متينًا ولا رقيقًا، ضيق القلب، فأبره برّياً مستويًا كمنقار الحمامة، وأعطف بطنه، ورقّق شفرتيه، وليكن قِرْطاسك رقيقًا مستويًا التَّنْج، مخرّج السَّحَاء^(١)، مستويًا من أحد الطرفين إلى آخره، فليست تستقيم السّطور إلا فيما كان كذلك، وليكن أكثر مَطَك في أطراف القرطاس الذي فيه يسارك، وأقلّه في الوسط، ولا تمطّ في الطرف الآخر، والمطّ نصف الخطّ، ولا يقوى عليه إلا العاقل.

قال العتّابي: سألني الأصمعيّ في دار الرشيد أيّ الأنابيب للكتابة أصلح، وعليها أصبر؟ فقلت له: ما نَشِفَ بالهجير ماؤه، وستره من تلويحه غشاؤه، من الدَّرية الظهور، النيرة القشور، الفَضِيّة الكسور؛ قال: فأني نوع من البزي أصوب وأكتب؟ فقلت له: البرية المستوية القُطّة، التي عن يمين سنّها قُرْنة^(٢)، تأمن معها الحجّة عند المدّة والمطّة، للهواء في شيقها صفيق، وللريح في جوفها خريق، والمداد في خرطومها رقيق. قال العتّابي: فبقي الأضمعيّ شاخصاً إليّ لا يحير جواباً.

(١) السحاء: أي القشرة.

(٢) القرنة: الطرف المائل من كل شيء.

وقال الحسن بن وهب: يحتاج الكاتب إلى خلال: جودة بَرِيّ القلم، وإطالة جَلْفَتِهِ، وتحريف قَطْعَتِهِ، وحسن التأتّي لامتناء الأنامل، وإرسال المدة بعد إشباع الحروف، واستواء الرسوم، وحلاوة المقاطع.

وقال بعض الكتاب: عَطَرُوا دفاتركم بجيدِ الحبر، فإنَّ الكتب غوانٍ والحبر غوالٍ.

وقال بعض الكتاب أيضاً: [الوافر]

وما رَوْضَ الربيع وقد زهاه ندى الأشجار يَارجُ بالعَدَاةِ
بأضوعٍ أو بأسطعٍ من نسيمٍ تؤذيه الأفأوهُ من دَوَاةِ
كأنَّ هذا من قول الآخر: [الوافر]

دعي في كتابه ليس منها له فكر يُعَدّ ولا بديهِ
كأنَّ دواته من ريقٍ فيه تُلاق، فريحها أبداً كريهِ

ونظر جعفر بن محمد إلى فتى على ثيابه أثر مداد، وهو يستره، فقال له: [الكامل]
لا تجزعن من المداد فإنه عطر الرجال وجلية الكتابِ

ولبعضهم يهجو كاتباً: [الوافر]

حمارٌ في الكتابة يدعيها كدعوى آل حربٍ في زيادِ
فدغ عنك الكتابة لستَ منها ولو لَطَخْتَ نفسك بالمدادِ

وقال كشاجم لوزاق يدعي الكتابة: [الكامل]

وزعمت أنك في الكتابة مدركٌ شأوي، فقلت: رماحنا أقلامٌ^(١)
هيهاً تلك صناعة ممزوجةٌ فيها ضياءٌ واضحٌ وظلامٌ
هذا الحديد سلاح أبطال الوغى وبه يَمْجِ دماءنا الحجامُ

وقال أبو العيناء: كنتُ عند إبراهيم بن العباس، وهو يكتب كتاباً، فنقطت من القلم نقطة مفسدة، فمسحها بكمّهِ؛ فتعجّبت، فقال: لا تعجّب، المال فرع والقلم أصل، والأصل أحوج إلى المراعاة من الفرع، وبهذا السواد جاءت هذه الثياب، ثم أطرق قليلاً وقال: [الوافر]

إذا ما الفِكرُ وَلَدَ حسن لفظٍ وأسلمهُ الوجودُ إلى العيانِ
ووشاه فنمنمه جوادٌ فصيحٌ في المقالِ بلا لسانِ
تري حُللَ البَيانِ منشراتٍ تجلّى بينها صور المعاني

وكتب سليمان بن وهب بقلم صلب، فاعتمد عليه اعتماداً شديداً، فصّر القلم في يده، فأنشد: [الطويل]

إذا ما التقينا وانتضينا صوارماً يكاد يُصمّ السامعين صريرها
تساقط في القِرْطاس منها بدائعُ كمثل اللآلي نظمها ونثيرها
تقود أبيات البيان بفطنةٍ تكشف عن وجه البلاغة نورها
تظلّ المنايا والعطايا شوارعاً تدور بما شئنا وتمضي أمورها
إذا ما خطوب الدهر أُرْخَتْ ستورها تجلّت بنا عما يسرّ ستورها

وأتى رجل وكيعاً، فقال: رجل يمتّ إليك بحرمة! فقال له: وما خُرمتك؟ قال له: كنتَ تكتبُ بمحبرتي عند الأعمش. فوثب وكيع إلى منزله، ثم أخرج منه دنانير لنفقته، وقال له: اعذرني فما أملك غيرها، ودفعها إليه.

وقال أبو الحسن بن لبّال في محبرة أبوس: [الكامل]

وخديمة للعلم في أحشائها كلّف بجمع حلاله وحرامه
لبست رداء اللّيل ثم توشّحت بنجومه وتتوجّحت بهلاله

وحدثني عن شيخي الفقيه أبي عبد الله بن زَرْقُون ابنه الفقيه أبو الحسين، قال: حدثني أبي أنه كان بسبّنة أيام الشبيبة والطلب، في مجلس جمع من طلبة الأدب، فتعرّض لهم رجل بمِخْبَرَة صنعها، وأراد أن يقصد بها الوالي على حسنهما، وكانت محبرة أبوس بحلية صفراء مذهّبة، فأطرقوا يروّون، فبادرهم أبو الطالب بن أبي ركب فقال: [الكامل]

جاءتك من غرر العلا زنجيّةٌ في حُلّةٍ من حليّةٍ تتبخترُ
سوداء صفراء الحليّ كأنّها ليل تُطرّزه نجوم تزهرُ

فاستحسنهما من حضر، ورأوا أنه قد أربى على الغاية فيما عنه صدر، فكتبنا للرجل في رقعة، فبعد ما سار بها قليلاً، رجع فأبرز منها قلم صُفْرٍ مذهّباً، ورغب أن يضمّن ذكره في منظوم يضاف إلى البيتين، فأطرقوا يروّون في ذلك، فبادرهم أبو طالب المذكور فقال: [الكامل]

كملت بأصغر من نجار حليّها تخفيه أحياناً، وحيناً يظهرُ
خرسان إلا حينَ يزُضع ثديها فتراه ينطق ما يشاء ويذكرُ

وقال آخر يصف دواة وأقلاماً: [الخفيف]

قدّ بعثنا إليك أمّ العطايا والمنايا زنجيّة الأخسابِ
في حشاها من غير حَرْبٍ حِرَابٍ وهي أمّضى من نأفذاتِ الحِرَابِ

وأحسن ما قيل في القلم قول حبيب يصف قلم محمد بن عبد الملك الزيات :

[الطويل]

لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي بَسَنَانِهِ
لَهُ الْجَلَلُوتُ اللَّاءُ لَوْلَا نَجِيُّهَا
لُعَابُ الْأَقَاعِي الْقَاتِلَاتُ لِعَابُهُ
لَهُ دِيْمَةٌ طُلٌّ، وَلَكِنْ وَقَعَهَا
فَصِيحٌ إِنْ اسْتَنْطَقَتْهُ وَهُوَ رَاكِبٌ
إِذَا مَا أَمْتَطَى الْخُمْسَ اللَّطَافَ وَأَفْرِغَتْ
أَطَاعَتُهُ أَطْرَافَ الْقَنَا وَتَقَوَّضَتْ
إِذَا اسْتَغْزَرَ الذَّهْنَ الذَّكِيَّ وَأَقْبَلَتْ
وَقَدْ رَقَدَتْهُ الْجَنْصِرَانُ وَسَدَدَتْ
رَأَيْتَ جَلِيلًا شَأْنَهُ وَهُوَ مَرْهَفٌ

وقال أبو الفتح البستي : [الطويل]

إِذَا أَقْسَمَ الْأَبْطَالُ يَوْمًا بِسَيْفِهِمْ
كَفَى قَلَمَ الْكِتَابِ مَجْدًا وَرَفْعَةً

وقال البحتري : [البسيط]

تَعْتَوُّ لَهُ وَزَرَاءُ الْمَلِكِ خَاضِعَةٌ

وقال أبو العباس التنوخي : [البسيط]

إِنْ يَخْدُمُ الْقَلَمُ السَّيْفَ الَّذِي خَضَعَتْ
قَالِمُوتُ وَالْمَوْتُ لَا شَيْءَ يُقَابِلُهُ
يَذَا قَضَى اللَّهُ لِلْأَقْلَامِ مُذْ بُرِيَتْ

وناقضه أبو الطيب المتنبي فقال : [البسيط]

حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ لِي :
أَكْتُبُ بِنَا أَبْدَأُ بَعْدَ الْكِتَابِ بِهِ

وقال الصولي : فاخر صاحب سيف صاحب قلم، فقال صاحب القلم : أنا أكتب بلا

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٢٥٧.

(٢) البيت في ديوان البحتري ص ٢٠٤٨.

(٣) البيتان في ديوان المتنبي ٤/ ١٥٩، ١٦٠.

غَرَّرَ، وَأَنْتَ تَقْتُلُ عَلَى خَطَرٍ، فَقَالَ صَاحِبُ السَّيْفِ: الْقَلَمُ خَادِمُ السَّيْفِ إِنْ تَمَّ مِدَادُهُ،
وإِلَّا فِإِلَى السَّيْفِ مَعَادُهُ.

قال الصولي: وقال بعض اليونانيين: الدين والدنيا تحت شيئين: سيف وقلم،
والسيف تحت القلم.

وفي ذلك يقول جرير التميمي: [الوافر]

أَتَحْقِرُنِي وَلَسْتُ لَذَاكَ أَهْلًا وَتُذْنِي الْأَصْغَرَيْنِ مِنَ الْخَوَانِ
جَهَابُذَةً وَكُتَّابًا وَلَيْسُوا بَفِرْسَانَ الْكِتَابَةِ وَالطَّعَانِ
سَتَذَكِّرُنِي وَتَعْرِفُنِي إِذَا مَا تَلَاقِي الْحَلَقَتَانِ مِنَ الْبِطَانِ
وقال كشاجم: [الطويل]

هَنِيئًا لِأَصْحَابِ السِّيُوفِ بَطَالَةٌ تَقْضِي بِهَا أَيَامَهُمْ فِي التَّنْعَمِ
وَكَمْ فِيهِمْ مِنْ دَائِمِ الْأَمْرِ لَمْ يَرْغ بِحَرْبٍ وَلَمْ يَنْهَذْ لِقَرْنٍ مَصْمَمِ
وَكُلُّ ذَوِي الْأَقْلَامِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ سِيُوفُهُمْ لَيْسَتْ تَجْفَ مِنْ الدَّمِ
وقال آخر: [البسيط]

قَوْمٌ إِذَا أَخَذُوا الْأَقْلَامَ مِنْ قَصَبٍ ثُمَّ اسْتَمَدُوا بِهَا مَاءَ الْمَنِيَّاتِ
نَالُوا بِهَا مِنْ أَعَادِيهِمْ وَإِنْ بَعَدُوا مَالًا يَنَالُ بِحَدِّ الْمَشْرِفِيَّاتِ

وقال البحتري يصف كلام الحسن بن وهب وأقلامه: [الكامل]

وَإِذَا تَأَلَّقَ فِي الْعَيُونِ كَلَامُهُ أَلْ مَخْمُودُ خَلَّتْ لِسَانُهُ مِنْ عَضِيهِ^(١)
وَإِذَا دَجَّتْ أَقْلَامُهُ ثُمَّ انْتَحَثَ بَرَقَتْ مَصَابِيحُ الدُّجَى فِي كُثْبِهِ
فَاللَّفْظُ يَقْرُبُ فَهْمُهُ فِي بُعْدِهِ مَثَا، وَيَبْعُدُ نَيْلُهُ مِنْ قُرْبِهِ
حِكْمٌ، فَسَائِحُهَا خِلَالُ بَنَانِهِ مَتَدَفَّقٌ، وَقَلْبُهَا فِي قَلْبِهِ
فَكَأَنَّهَا وَالسَّمْعَ مَعْقُودٌ لَهَا شَخْصَ الْحَبِيبِ بَدَا لَعَيْنِ مُحِبِّهِ

وقال علي بن الجهم في رقعة جاءته بخط جارية: [السريع]

مَا رَقْعَةٌ جَاءَتْكَ مَثْنِيَّةٌ كَأَنَّهَا خَسَدٌ عَسَلِي خَسَدٌ
نَبْدٌ سَوَادٍ فِي بَيَاضٍ كَمَا ذُرٌّ قَتِيْتُ الْمُسْكِ فِي الْوَرْدِ
سَاهِمَةُ الْأَسْطَرِ مَصُورْفَةٌ عَنْ وَجْهِ الْهَزْلِ إِلَى الْجَدِّ
يَا كَاتِبًا أَسْلَمَنِي عَثْبُهُ إِلَيْهِ، حَسْبِي مِنْكَ مَا عِنْدِي

وقال البحرني في ابن الزيات: [الخفيف]

قد تَصَرَّفَتْ في الكتابة حتى عَطَّلَ النَّاسُ ذَكَرَ عَبْدِ الحَمِيدِ^(١)
في نظام من البلاغة ما شَدَّ لكِ أَمْرُو أَنَّهُ نِظَامُ فَرِيدِ
وبديع كأنه الزَّهر الضَّا حَكَ في رَوْنَقِ الرَّبِيعِ الجَدِيدِ
ما أعيرت منه بطونُ القراطيد سَ وما حملت ظهورُ البَرِيدِ
حُزْنَ مستعملَ الكلام اختياراً وتَجَنَّبْنَ ظُلْمَةَ التَّغْقِيدِ
كالعذارى عَدَوْنَ في الحُلَلِ الصَّفْ رٍ إِذَا رُحْنَ في الخُطوبِ السُّودِ

قال المأمون لمحمد بن داود: إن شاركتك في اللَّفْظ فقد تاركتك في الخطِّ، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ من أعظم آيات النبي ﷺ أَنَّهُ أَذَى عَنْ اللَّهِ تَعَالَى رِسَالَتَهُ، وَحَفِظَ وَحْيَهُ، وَهُوَ أَمِيٌّ لَا يَعْرِفُ مِنْ فَنُونِ الْخَطِّ فَنًا، وَلَا يَقْرَأُ مِنْ حُرُوفِهَا حَرْفًا، وَبَقِيَ عُمُودُ ذَلِكَ فِي أَهْلِهِ، فَهَمَّ يَشْرَفُونَ بِالشَّرَفِ الْكَرِيمِ فِي نَقْصِ الْخَطِّ، كَمَا يَشْرَفُ غَيْرُهُمْ بِزِيَادَتِهِ، وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَخَصَّ النَّاسَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالْوَارِثَ لِمَوْضِعِهِ، وَالْمَتَقَلِّدَ لَنَهْيِهِ وَلَأَمْرِهِ، فَتَعَلَّقَتْ بِهِ الْمِشَابَهَةُ الْجَلِيلَةُ، وَتَنَاهَتْ إِلَيْهِ الْفَضِيلَةُ. فَقَالَ الْمَأْمُونُ: يَا مُحَمَّد، لَقَدْ تَرَكْتَنِي لَا أَسِيَّ عَلَى الْكِتَابَةِ وَلَوْ كُنْتُ أَمِيًّا.

قد ذكرنا من آلات الكتابة نثرًا ونظمًا ما فيه كفاية وفي السادسة والعشرين من النظم في أوصاف الكتاب ما يستحسن ويتنظم بما أوردنا هنا.

وإنما أخرج الحريريَّ رسالته الخيفاء من هذه الأوصاف المنظومة في الرسائل التي قدَّمناها آنفًا لما ذكره من أَنَّ جميع الكتاب قطب لإنشائها وتاب، لما فيها من لزوم نقط لفظة وترك أخرى؛ وهي على ما بها من التكلُّف، رائقة المعاني، أنيقة المباني، ولو غيره تعاطاها لأظلمت معانيها، وتداعت مبانيها، فلهه هو! لقد كان متقاداً له صعب الكلام بأيسر مَرَامٍ! وما هو في محاولة البلاغة إلا كما قال حبيب في سليمان بن وهب: [الخفيف]

سُرِّحَ نَطْقُهُ إِذَا مَا اسْتَمَرَّتْ عَقْدَةُ الْعِيِّ فِي لِسَانِ الْخَطِيبِ^(٢)
ومصيب شواكل الأمر فيه مشكلاتٌ مَلَكْنَ لُبَّ اللَّيْبِ
لا معنى بكل شيء ولا كـ لٌ عَجِيبٌ فِي عَيْنِهِ بِعَجِيبِ

الكرمُ - ثَبَّتَ اللَّهُ جَيْشَ سَعُودِكَ - يَزِينُ، وَاللُّؤْمُ - عَضَّ الدَّهْرُ جَفْنَ حَسُودِكَ
يَشِينُ، وَالْأَزْوَعُ يَثِيبُ، وَالْمَعُورُ يَخِيبُ، وَالْحَلَّاحُ لُ يَضِيفُ، وَالْمَاجِلُ يَخِيفُ،

(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٣٧.

(١) الأبيات في ديوان البحرني ص ٦٣٦.

وَالسَّمْحُ يُغْذِي، وَالْمَحْكُ يُغْذِي، وَالْعَطَاءُ يُنْجِي، وَالْمِطَالُ يُشْجِي، وَالِدُّعَاءُ يُقِي،
وَالْمَذْحُ يُنْقِي، وَالْحُرُّ يَجْزِي وَالْإِلْطَاطُ يُخْزِي، وَأَطْرَاحُ ذِي الْحُرْمَةِ غَيِّ، وَمَحْرَمَةٌ
بَنِي الْأَمَالِ بَغْيٌ، وَمَا ضَنَّ إِلَّا غَبِينٌ، وَلَا غَبِنَ إِلَّا ضَنِينٌ، وَلَا خَزَنَ إِلَّا شَقِيٌّ، وَلَا
قَبَضَ رَاحَهُ تَقِيٌّ. وَمَا فَتِيءٌ وَعَدُّكَ يَفِي، وَأَزَاوُكَ تَشْقِي، وَهَلَالُكَ يُضِي، وَحِلْمُكَ
يُغْضِي، وَالْأَوُكُ تُغْنِي، وَأَعْدَاؤُكَ تُثْنِي، وَحُسَامُكَ يُفْنِي، وَسُودُكَ يَبْنِي، وَمُواصِلُكَ
يَجْتَنِي، وَمَادِحُكَ يَفْتَنِي، وَسَمَاحُكَ يُغِيثُ، وَسَمَاوُكَ تَغِيثُ، وَدَرْكَ يَفِيضُ، وَرَدُّكَ
يَغِيضُ، وَمَوْمِلُكَ شَيْخٌ حَكَاهُ فِيءٌ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ. أَمَّا بِظَنِّ حِرْصُهُ يَشِبُّ،
وَمَدْحُكَ بِنُحْبٍ مُهُورُهَا تَجِبُ، وَمَرَامُهُ يَخْفُ، وَأَوَاصِرُهُ تَشِفُّ، وَإِطْرَاوُهُ يُجْتَدِبُ،
وَمَلَامُهُ يُجْتَنِبُ، وَوَرَاءَهُ ضَفَفٌ، مَسْهَمٌ شَطَفٌ؛ وَخَصْمُهُمْ جَنَفٌ، وَعَمَّهُمْ قَشَفٌ،
وَهُوَ فِي دَمْعٍ يَجِيبُ، وَلَهُ يُذِيبُ؛ وَهَمٌّ تَضِيفُ، وَكَمْدٌ نَيْفُ، لِمَأْمُولٍ خَيْبُ،
وِلْهَامُ شَيْبُ، وَعَدُوُّ نَيْبُ، وَهَدُوُّ تَغْيِبُ، وَلَمْ يَزَعْ وَدَهُ فَيَغْضِبُ، وَلَا خُبْتُ عُودَهُ
فَيَقْضِبُ، وَلَا نَفَثَ صَدْرَهُ، فَيَنْفَضُ، وَلَا نَشَرَ وَضْلَهُ فَيَنْغَضُ، وَمَا يَفْتَضِي كَرْمُكَ
نَبْذَ حَرَمِهِ؛ فَيَبِضُ أَمْلَهُ، بِتَخْفِيفِ أَلَمِهِ، يَنْثُ حَمْدُكَ بَيْنَ عَالِمِهِ. بَقِيَتْ لِإِهَاطَةِ
شَجَبٍ، وَإِعْطَاءِ نَسَبٍ، وَمُدَاوَاةِ شَجَنِ، وَمُرَاعَاةِ يَفْنٍ، مَوْصُولًا يَخْفَضُ، وَسُرُورِ
غَضٍ، مَا غُشِيَ مَعْهَدُ غَنِيٍّ، أَوْ خُشِيَ وَهَمُّ غَبِيٍّ، وَالسَّلَامُ.

قوله : «غَضَّ الدهر جفن حُسودك»، يقال : غَضَّ جفنه، أي سدَّ عينيه، دعاء عليه
بالعمى، يقول : الكرم يزِين صاحبه . واللؤم - وهو البخل - يَشِينه وَيَعْيِيهِ، ثم دعا له
بدوام السعد وثبوته، وبعى عين الحُسود حتى لا يبصر ما أُعْطِيَ الممدوح من النعم،
فأخذها بالعين . الأروع : السيد الكريم، وهو الذي قَصِدَ، وقيل : الأزوع الحديد النفس،
وقيل : الذي يروغك بجماله . يُثِيبُ : يُجَازِي قاصده . والمُعَوِّر : البادي العَوْرَةِ، وهو
الفارس يظهر في طعنه خلل، وأراد به الناقص الخلق الكثير السقاهة، ومن جملة عيوبه
البخل حتى يخيب قاصده، لأنه قابل به الأزوع، وهو التامُّ الجسيم، الجهير الصوت،
قال الشاعر : [الطويل]

يواخي لثيمُ النَّاسِ كُلِّ مَلَائِمٍ وينطق بالعَوْرَاءِ مَنْ كَلَّ مُعَوِّرًا^(١)

(١) يروى صدر البيت :

يروم أذى الأحرار كلَّ مُلَائِمٍ

وهو بلا نسبة في لسان العرب (لأم)، وتاج العروس (لؤم).

الحُلّاحل: السيّد الذي يُحَلّ به الناس كثيراً. يُضيف: يُنزل الأضياف ويكرمهم. والمّاحل: البخيل، شُبّه بالبلد الماحل، وهو الجذب، فكأنّ الماحل الذي لا يوجد عنده خير، يقال: أمحل البلد، وبلد ماحل وذو مَحَل، مثل لابن وتامر، والماحل النّمام، يقال: مَحَلّ به إلى السلطان إذا وَشَى به، وهو الذي يُخيف على الحقيقة، والماحل أيضاً: المخاصم، وقد ما حلّته وما حلّني. يُغْذِي: يطعم. والمِحْكُ: اللّجوج، وهو مقابل السّمح الخلق. يُقْذِي: يجعل في العين قَدْماً، أي يضِرّ قاصده ويؤلمه. يُنْجِي: يخلّص صاحبه من الدّم، وتقدّم المطال. يُنْقِي: يغسل العيب. والإلطاط: الامتناع من فعل الخير، ويقال: لَطّ وألَطّ، إذا ذهب، ولَطّ الشيء وألَطّه، إذا ستره. يُخْزِي: يهين. أطراح: ترك. ذي الحزّمة، أي صاحبها، والحرمة ما لا يحلّ انتهاكه، ومن قصدك فقد دخل في حرمك، فتركه ليس من المروءة. غَيّ: فساد وضلال. مَحْرمة: منع. بنى الآمال: أهل الرجل الذين يرجون خيره ويلتفنون به. بَغَى: ظلم. ضَنّ: بخل. غَيَّبَن: مخدوع في رأيه. ضنين: بخيل، يقول: ما يَضُنّ بماله من هو شديد النظر ولا المصيب الرأي إنما يبخل به مَنْ هو فاسد النظر مغبون في رأيه. خَزَن: حبس ماله: قبض راحه: ضمّ كفه على ما فيها، وهذه كناية عن المنع والبخل. والتقيّ: الذي يقّي نفسه من العذاب بعمله الصالح، من وقى نفسه أقيها، واختلف في وزنه فقيل «فعلول» وأصلها «وقوى»، فأبدلوا من الواو تاء لقرب مخترجيها، ومن الواو الثانية ياء وأدغموها في الياء، وكسروا القاف لتصحح الياء، والاختيار أن يكون وزنه «فعليلاً» وأصله «تقيّ»، فأدغموا الياء في الياء، والدليل على صحته جمعهم له على اتقياء، كوليّ وأولياء، ومن قال: إنه «فعلول» قال: لما أشبه «فعليلاً» جميع جمعها.

قوله: «ما فتى»، أي ما زال. يضي: يصدق ويكون وفيّاً. آراؤك: جمع رأى. تشفي: تزيل الهمّ عن قلب وليك، وتبرئ مرض قاصدك من فقره، يصفه بجودة الرأي وحسن النظر فيما يصلح به أحوال أصحابه وقصاده. هلالك يضي: يصفه بطلاقة الوجه وإضاءته عند السؤال، قال زهير: [الطويل]

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مَتَهَلَّلًا كَأَنَّكَ تَعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ^(١)

وكما قال أبو بكر في الطّلاقة: [الكامل]

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَسْرَةِ وَجْهِهِ بَرَقَتْ كَبْرَقِ الْعَارِضِ الْمَتَهَلِّلِ^(٢)

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ١٤٢، وكتاب العين ٣/٣٥٢، وتهذيب اللغة ٥/٣٦٥، وبلا نسبة في تاج العروس (هلل)، ولسان العرب (هلل).

(٢) البيت لأبي كبير الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص ١٠٧٤، وتاج العروس (عرض)، وبلا نسبة في المخصص ٨٩/١.

خلافاً لِسَيِّءِ الخُلُقِ الذي يَقْطُبُ وجهه عند اللقاء، واللثيم الذي إذا سئل انزوى وتقبّض.

يغضي: يسمح. آلاؤك: نعمك. أعداؤك تُثني: يقول لكثرة المادحين لك والناشرين لفضلك، لم يمكن أعداؤك وحسادك ذمك لتكذيب الناس إياهم، فصاروا يثنون عليك مع من يثني؛ ويحكى أنّ أعرابياً استضاف حاتماً، فلم يُنْزله، فبات جائعاً مقروراً، فلما كان في السحر ركب راحلته، وانصرف، فتقدّمه حاتم، فلما خرج من بين البيوت لقيه متنكراً، فقال له: من كان أباً مثواك البارحة؟ قال: حاتم، قال: فكيف كان مبيتك عنده؟ قال: خير مبيت، نحر لي ناقةً فأطعمني لحماً عبيطاً، وأسقاني الخمر، وعلف راحلتي، وسرّت من عنده بخير حال. فقال له: أنا حاتم، والله لا تبرح حتى ترى ما وصفت، فردّه وقال له: ما حملك على الكذب؟ فقال له الأعرابي: إنّ الناس كلّهم يثنون عليك بالجلود، ولو ذكرت شراً كنت أكذب، فرجعت مضطراً إلى قولهم، إبقاء على نفسي لا عليك. وقد تقدّم قول البحرّي في هذا المعنى: [الطويل]

أأشكو نداءه بعد ما وسع الوَرَى وَمَنْ ذَا يذمُّ العَيْثَ إِلَّا مُدَمِّمٌ^(١)!

وقال حبيب: [الطويل]

فإن أنا لم يحمذك عَنِّي صاغراً عدوك فاعلم أنني غير حامدٍ^(٢)
بسبّاقة تنساق من غير سائق وتنقاد في الآفاق من غير قائد
أفادت صديقاً من عدوّ وصيرت أقارب دنيا من رجالٍ أباعد
ومخلفة لما ترذ أذن سامع فتصدر إلا عن يمين وشاهد

وهذه القصيدة من كلامه يمدح بها محمد بن الهيثم، يقول: يسمع عدوك إطنابي في مدحك فيمدحك صاغراً، فكيف وليك! فأمذك بقصيدة تقطع الأرض، ليست ببلبل تُساق، ولا بخيل تقاد، فتردّ العدو صديقاً، والبعيد قريباً، ولا يسمعها أحد إلا ويحلف أنه لم يسمع مثلاً، فيشهد له بالصدق.

قوله: «وسودك يَبْنِي»، أي يرفع لك مجدداً وشرفاً. حسامك يفنى، أي سيفك يقطع ويفني أعداءك. مواصلك يجتنى، أي من زارك وواصلك اجتنى نعمتك ومواهبك. يقتنى، أي يكتسب. سماؤك تغيث، أي تأتي بالغيث وهو المطر فيستغيث الناس به من الجذب. سماحك يُغيث، أي جودك وحسن خلقك يفرّج كُرب المهموم، وتقول: غوث الرجل، أي قال: واغوثاه، وأغثته أغيثه، إذا فرّجت عنه ما يشتكي منه. درّك يفيض: عطاؤك يشمل، أي لبّك يملأ الإناء ويفيض عليه، يريد أن عطاه يكثر لسائله. وردك

(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ١١٩، ١٢٠.

(١) البيت في ديوان البحرّي ص ١٩٨٠.

يَغِيضُ، أي منعك يذهب الرزق، وغاض الماء: غار في الأرض، مؤمّلك: راجيك.
والفيء: الظلّ بعد الزوال، يريد أن عمره قد أدبر، فشبه نفسه بالفيء الذاهب. أمّك
بظنّ، أي قصّدك برجاء. وحرصه يُثب، أي طمعه يتزايد فيجعلها في غاية من القلق.
نُحِب: مختارة. مهورها: حقوقها، يقول: مدحك بنخب في ملته، فوجبت حقوقها
لحسنها وجودتها. ومما ينظر إلى هذه المعارضة قول الشاعر: [الوافر]

وخذ حمدي بجودك، ذا بهذا كلانا اليوم أربع صيرفي
لأصبح من نوالك في رياش وتصبح من مقالي في حلي
وقال آخر: [مجزوء الرجز]

وخلّة كسّاهها كالحلي في التهابة
فاستبطنت مديحاً كالأزي في نصّابة
فراح في ثيابي ورخت في ثيابه

وقال ابن شهيد في ضيف له: [الطويل]

وما انفك معشوق القواء نمّده ببشر وترحيب وبسط لسان
إلى أن تشهى البين من ذات نفسه وحنّ إلى الأهلين حنة خان
فاتبعته ما سدّ خلّة حاله وأتبعني ذكراً بكلّ مكان

وقوله: «مرامه يخفّ»، أي مطلبه سهل عليك.

أواصره: جمع أصرة وهي صلة الرحم، والأضر: الموضع الحابس، من قولهم:
أصرت فلاناً على الشيء أصره أضراً، إذا حبسته عليه وعطفته، ويقال: ما تأصرتني على
فلان أصرة، أي ما تحبسنني عليه حابسة، ولا تعطفني عليه عاطفة. ذكره ابن الأنباري.

وذكر الحريري في الدرّة، أن اشتقاق أواصر القرابة والعهد من المأصر، بكسر
الصاد، ومعناه الوضع الحابس للمارّ عليه، فسمّيت أواصر، لأنها تعطف على ما يجب
رعايته من المودة والرحم. قال: وحكى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، قال: اجتمع
عندنا أبو نصر أحمد بن حاتم وابن الأعرابي فتحدّثا، فحكى أبو نصر أن أبا الأسود دخل
على عبيد الله بن زياد، وعليه ثياب رثة، فكساه ثياباً جديدة من غير أن يسأله، أو
استكساه، فخرج وهو يقول: [الطويل]

كسّاك ولم تستكسه فحمّدته فتى ماجد يعطى الجزيل ويأصر
وإنّ أحقّ الناس إن كنت مادحاً بمدحك من أعطاك والعرض وافر

فقال ابن الأعرابي: «وانصر» بالنون، فقال له أبو نصر: دعني يا هذا ويا صري
وعليك بناصرك؛ يريد بـ«ياصر» يعطف.

قوله: «تشفّ»، أي تزيد وتفضل غيرها، يقول: إن الأسباب التي توجب عطفك وحنانك عليّ كثيرة منها الشَّيْخ والضعف وكثرة العيال وجودة المدح، والعهود السابقة التي بيني وبينك. إطراؤه يُجْتَذَب، أي مدحه يحتاجيه الناس ويحرصون على تحصيله لجودته، وأصل الإطراء المدح في الوجه، فهو يمشاهدته كأنه مدح طريّ، أو ظهرت عليه طراوة. «ملاّمه يُجْتَنَب»: ذمّه يخاف ويبعد منه، فيرثي عليه، يقول: إنّ الذي رجاك شيخ مسنّ فقير قصّدك بيقين لأنك من أهل الكرم، فطمعهُ لذلك يزيد لما ارتجى من معروفك، وأهدى إليك من مدائحه عرائس وجبت عليك حقوقها، ومرامه سهل عليك، ولديك علّق تقوم مقام القرابة، وتزيد على ذلك، وله مدح يرغّب فيه وذم يرهّب منه.

وراءه ضَفَف، أي خلفه كثرة عيال، من ضَفَّ الطعام ضَفًّا إذا كثر القوم عليه، وضَفَّ العيش اشتدّ. والشَّظَف: سوء الحال، حصَّهم: عرَّاهم وנתف ريشهم. جَنَف: ميل الدهر عليهم. قَشَف: بؤس عيش. يجيب: يساعد. وله: هم وحيرة. يذيب: يُذهب اللحم. تَضَيَّف: نزل به ومال إليه. كمد: حزن قارب الموت. نَيْف: زاد على المعهود. لمأمول، أي لمقصود مرجو. إهمال: تضييع وتسييب. نَيْب: عَضُّ بأسنانه. وهدو تغيّب، أي سكون وأمن زال عنه. ينزع: يمل. نفث صدره، أي تكلم بشرّ، ونفث: بَرَّق من داء في صدره ومنه المثل: لا بدّ للمصلوّر أن ينفث. ينفض، أي يضرب ويبعد. نُشِر: ارتفع وزال. يقتضي: يتضمّن ويلزم. تبيذ: طرح. حرّمه: جمع حرمة. بيّض أمله، أي أسعد رجاءه، ورّده أبيض يعظّلئك الذي يخفف ألمه، ويزيل وجعه. ينث: ينشر. عالمة: ناسه وأهل زمانه. بقيت: عشت وطال بقاؤك. إماطة شجب: إزالة هلاك وتنحيته. نشب: مال. شجن: حزن، والشجن أيضاً الحاجة. مراعاة: حفظ. يَفَن: شيخ كبير. موصولاً، أي متصلاً. بخفض: عيش هنيء. غض: ناعم جديد. غشي: قُصِد ودخل. معهد: موضع يعهده جلوسه. وهم غبي: غلط جاهل.



فَلَمَّا فَرَّخَ مِنْ إِمْلَاءِ رِسَالَتِهِ، وَجَلَّى فِي هَيْجَاءِ الْبَلَاغَةِ عَنْ بَسَالَتِهِ، أَرْضَتْهُ الْجَمَاعَةُ فِعْلاً وَقَوْلًا، وَأَوْسَعَتْهُ حِفَاوَةٌ وَطُولًا. ثُمَّ سُئِلَ مِنْ أَيِّ الشُّعُوبِ نَجَارُهُ، وَفِي أَيِّ الشَّعَابِ وَجَارُهُ، فَقَالَ: [مجزوء الكامل]

وَسَرُوجُ ثُرَيْبِي الْقَدِيمَةِ
رَاقِئًا وَمَنْزِلَةً جَسِيمَةَ
يَبَةٍ وَمَثْرَهَةً وَقِيمَةَ
فِيهَا وَلَذَاتِ عَمِيمَةِ
فِي رَوْضِهَا مَاضِي الْعَزِيمَةِ

عَسَانُ أَسْرَتِي الصُّومِيَةِ
فَالْبَيْتُ مِثْلُ الشَّمْسِ إِشْ
وَالرُّبْعُ كَالْفِرْدَوْسِ مَطْ
وَاهَا لِعَيْشِ كَانَ لِي
أَيَّامُ أَشْحَبِ مُطَرَّقِي

أَخْتَالَ فِي بُزْدِ الشُّبَا
لَا أَتَّقِي نُوبَ الزَّمَا
قَلَوُ أَنْ كَرِيماً مُثْلِفٌ
أَوْ يُفْتَدَى عَيْشُ مَضَى
فَالْمَوْتُ خَيْرٌ لِلْفَتَى
تَقَنَّاؤُهُ ثُرَّةُ الصُّغَا
وَيَرَى السَّبَّاعَ تَنَوُّشَهَا
وَالذَّنْبُ لِلْأَيَّامِ لَوُ
وَلَوْ اسْتَقَامَتْ كَانَتْ الـ

بِ وَأَجْتَلِي النَّعَمَ الْوَسِيمَةَ
نِ وَلَا حَوَادِثُهُ الْمُلِيمَةَ
لَتَلِفْتُ مِنْ كُرْبِي الْمَقِيمَةَ
لَقَدْتُهُ مُهَجَّتِي الْكَرِيمَةَ
مِنْ عَيْشِهِ عَيْشُ الْبَهِيمَةَ
رِ إِلَى الْعَظِيمَةِ وَالْهَضِيمَةَ
أَيْدِي الضَّبَاعِ الْمُسْتَضِيمَةَ
لَا شُؤْمَهَا لَمْ تَنْبُ شِيمَةَ
أَحْوَالٍ فِيهَا مُسْتَقِيمَةَ

* * *

قوله : «إملاء رسالته» ، أي إلقائها عليه ليكتبها جلي : كشف . الهيجاء : الحرب ، وهي من الهنج وهو الحركة . والإضطراب . بـسالته : شجاعته . أوسعته : كثرت له . حفاوة : إكرام . والطول : الإنعام . الشعوب : القبائل ، وأحدها شُعب ، بفتح الشين وهو الأب الكبير . ثعلب ، الشعب : الأب الأكبر الذي ينتهون إليه والقبيلة دونه . نجاره : أصله . الشعاب : الطرق في الجبال . وجاره : جُحره ، أراد بيته ، لأنهم سألوه من أي قبيلة هو ، وعن مسكنه في أي موضع هو .

وقوله : «غسان أسرتي» : أي هذه القبيلة أصلي وقرابتي . الصميمة : الصريحة الخالصة . تربتي . بلدي . إشراقاً : ضياء ونقاء من العيب . جسيمة : عظيمة . الفردوس : الجنة ، سُمِّيَتْ بذلك لعرائشها ، والفردوس : المعرّش من الكرم . مطيبة ، أي سروج مثل الجنة في طيب الهواء ، وفي نزهتها وحسنها ، وفي قدرها ، وأراد بالبيت غسان ، وبالربع سروج ، أو يريد بيته في غسان في الشرف كالشمس ، ومنزله في سروج كالجنة في طيبها ونزهتها ، وقد قال في أخرى : [الرمل]

مَنْ رَأَاهَا قَالَ مَرْسَسَى جَنَّةُ الدُّنْيَا سَرُوجُ

ومثل قوله في البيت مثل الشمس ، قول أبي الطمّحان القيني : [الطويل]

وإني من القوم الذين هم هم إذا مات منهم سيّد قام صاحبه^(١)

(١) البيتان الثاني والثالث ، لأبي الطمّحان القيني في الأغاني ٩/١٣ ، وأمالى المرتضى ٢٥٧/١ ، وتخليص الشواهد ص ٢٠٢ ، وخزانة الأدب ٩٥/٨ ، ٩٦ ، وديوان المعاني ٢٢/١ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٥٩٨ ، وكتاب الصناعتين ص ٣٦٠ ، ولسان العرب (خضض) ، والمقاصد النحوية ٥٦٧/١ ، وهما للقطّ بن زرارة في الحيوان ٩٣/٣ ، والشعر والشعراء ص ٧١٥ .

نجوم سماء كلما غار كوكبٌ بدأ كوكب تأوي إليه كواكبُهُ
أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم . دُجى الليل حتى نظّم الجَزَع ثاقبه

وقال حسان بن ثابت : [الكامل]

بيض الوجوه مضيئة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول^(١)

وزاد عليه في الإضاءة والإشراق حجة بن المضرب فقال : [الطويل]

أضاءت لهم أحسابهم فتضاءلت لنورهم الشمس المنيرة والبدرُ

وزاد عليه أبو الطيب وعلى الناس في علو الهمة وتباعد منازلها من منازل
الكواكب، حيث يقول : [البسيط]

وعزمة بعثتها همة زحل من تحتها بمكان الثرب من زحل

وزحل أرفع من الشمس ومن سائر الكواكب منزلةً، وهذا من علو المتنبي الذي
يخرج به عن الناس حتى يُعاب، لأنه لو جعلها مع زحل في منزلة واحدة، كما جعل
الحريري منزلته مع الشمس لكان قد بلغ النهاية، وزاد على غيره، فلم يكتف بذلك حتى
جعلها تعلو على زحل، كما يعلو زحل على الأرض. ومن هذا الإفراط في شعره كثير،
وأكثر النقاد يعيبون عليه؛ وبعد هذا فمعجزاته في الشعر زاد بها على المتقدمين
والتأخرين عند الأكثر فلا يجاري في كثير منها.

وهاً: تعجباً، كأنه قال: ما أعجب ما كان عيشي بها! عميمة: كثيرة. أسحب
مطرُفي: أجز ثوبي المعلم في طرفه إعجاباً بنفسي. أختال: أمشي الخيلاء متكبراً. بزد
الشباب: ثوب الفتوة. أجتلي: أنظر. الوسيمة: الحسان. والثوب والحوادث: النوازل
والمصائب، كلها بمعنى واحد، وهي ما ينوب الإنسان: أو يحدث عليه أو ينزل به، أو
يصيبه من البلاء بعد العافية. المليمة: التي تأتي بما يلام عليه. كربى المقيمة: همومي
الثابتة. مُهجتي: نفسي، وأصلها دم القلب. تقتاده: تسوقه. بُرة: حلقة من صُفُر تجعل
في وترة أنف البعير، يذلل بها. الصغار: الذلة. العظيمة: داهية يُستعظم أمرها.
والهزيمة: المحقرة لشأنه عند الناس، فيريد بالبهيمة البعير الذي يقاد ويذلل بالبُرة،
وبالعظيمة سؤاله الناس، وبالهزيمة احتقارهم له إذا سألهم فيردونه خائباً. والسباع هنا:
الأسود. تنوشها: تتناولها وتخدشها.

(١) يروى صدر البيت :

بيض الوجوه كريمة أحسابهم

وهو لحسان بن ثابت في ديوانه ص ١٢٢، ولسان العرب (طرز)، (أنف)، وتهذيب اللغة ١٣/ ١٧٨،
ومقاييس اللغة ٣/ ٤٤٦، وتاج العروس (طرز)، (أنف)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٧٠٤.

[مما قيل في الضباع]

والضباع: جمع ضَبُع؛ وهو نوع من سباع الأرض، وهي مضادة في الخلقة لسبع الأندلس، لأنها عظيمة الكفْل والفخذين رقيقة الصدر، وهذا السبع أزلَّ عظيم الصدر، والضبع عظيم البطن، ولذلك سمى حُضاجر بالجمع، والحِضجر: عظيم البطن. والحِضجر: الوطب الكبير من اللبن، ويشبه به العظيم البطن، وهي عرجاء مثل هذا السبع، ويضرب بحمقها المثل فيقال: أحمق من ضَبُع، وأحمق من أم عامر وهي كنيته. ومن حمقها أن الصائد يدخل وجارها فيقول لها: خامري أم عامر، ومعناه الجئي ألى أقصى مغارك واستتري، فتتقبص، فيقول: أم عامر ليست في وجارها، ثم يقول: أبشري أم عامر بكمر الرجال، أبشري أم عامر بشاة هزلي، وجراة عظمى، فتمد يديها ورجليها، فيوثقها ويشد عراقيبها بحبال فلا تتحرك، ولو شاءت أن تقتله لأمكنها، ولا يدخل عليها إلا عرباناً، وإن دخل بثوب قتله، ثم يخرج لأصحابه بالحبال، وهم على قم الوجار بأسلحتهم، فيخرجونها بالجر من قعر الوجار ويقتلونها.

ومن حمقها أنها تترك جِراءها إذا خرجت تلتمس ما تأكل، فتجد جِراء أخرى قد خرجت أيضاً لذلك، وتركت جِراءها فترضع أولاد غيرها، وتترك أولادها، فربما ضاعت جِراؤها فأكلها الذئب. وقال الشاعر: [الطويل]

كُمُرُضعةٍ أولاد أخرى وضِيَعَتْ بني بطنها، هذا الضلال عن القَصْدِ

قال أبو زيد: والضباع لا تفترس شيئاً إنما تأكل الجيف، وتنش القبور عن الموتى، وربما اجتمعت الجماعة منها على حمار فأكلته، وليس لها بالنهار كبير عمل، قال الهذلي: [الوافر]

تبیت اللَّيْل لا يخفى عليها حمارٌ حيث جُرَّ ولا قتيلٌ^(١)

قوله: «المستضيمة» أي المذلة. والضميم: الذل؛ يضرب المثل لتلاعب الزمان بالناس بالأسود والضباع، فقال: إنَّ الضباع المحتقرة عند الأسود تتناول الأسود بالضرر، وكذلك الزمان يرفع الحقير والهجين ويكثر رزقه، ويضع الرفيع ويقتّر عليه، ويملك الهجناء والأراذل الخطط الجسم، ويجرّع النبلاء والأعيان غُصَص المخازي وكؤوس الحمام.

[الدهر وأحواله]

وهذه أحوال مشاهدة تنسب إلى الدهر لوقوعها فيه، وقدّرها الباربي عز وجل اختباراً لعباده، وليبصر العقلاء جريان أحكامه في خلقه، وأن الكل تحت قهره، وأن كل إنسان من

(١) البيت لساعدة بن جوية الهذلي في ديوان الهذليين ٢١٦/١.

أهل الحزم والرأي عاجز عن إدراك ما لم يقدر له ؛ وقال محمد بن الفضل : [الرمل]

هانت الدنيا على اللـ ه فاعطاها اللئاماً
فهم فيها يعيشون نـ ولحون الكراماً

وقال المعري في معنى بيت الحزيري : [الوافر]

ومن صحب الليالي علمته خداع الإلف والقيـل المحالاً^(١)
وغيرت الخطوب عليه حتى تـريه الذر يحملن الجبالاً

وقال يزيد المهلب يـرثي المتوكل : [البسيط]

علثك أسياف من لا دونه أخذ وليس فوقك إلا الواحد الصمد
وأصبح الناس فوضى يعجبون به ليثاً صريعاً تندى حوله النقـد

وأخذ لفظ بيته من قول حبيب : [البسيط]

من لم يعاين أبا نصر وقاتله فما رأى ضبعاً في شـدقه سـبع^(٢)
فيم الشـماتة إعلاناً بأسـد وعـى أفـنـاهـم الضـبـر إذ أبـقـاكـم الجـزـع !

هكذا ينظم حرّ الكلام، ويعتذر لموت الكرام، وتنفى عنهم شماتة اللئام. وقد أحسن الاعتذار أيضاً لأبي نصر بأغرب من هذا، وجعله قاتل نفسه، إذ لا نظير له في شجاعته فيقتله، وإنما قتله أمر الله الذي لا يغالب، كما قال أبو الطيب : [الطويل]

ألا إنما كانت وفاة محمد دليلاً على أن ليس لله غالب^(٣)

وكذلك قوله : [الطويل]

فإن ترم عن عمرٍ توانى به المسدى فخانك حتى لم يجد فيك منزعا
فما كنت إلا السيف لاقى ضربة فقنطعها حتى انثنى فتقطعا

أي لم يقتل حتى قلت أعداءه، وأبو نصر هو محمد بن حميد قتله بابك الخرمي ومما قال فيه حبيب - وهو أشجع بيت قيل - قوله : [الطويل]

ونفس تعاف العار حتى كأنما هو الكفر يوم الرؤع أو دونه الكفر^(٤)
فأثبت في مستنقع الموت رخله وقال لها: من تحت إخمصك الحشر

قوله : «الذنب للأيام»، نسب الذنب إليها لوقوع المكروه فيها. كما تقدم. تنب :

(١) البيتان في سقط الزند ص ٨١.

(٣) البيت في ديوان المتنبي ١/١٠٩.

(٢) البيتان في ديوان أبي تمام ص ٣٧٢.

(٤) البيتان في ديوان أبي تمام ص ٣٦٩.

ترتفع، شيمة: طبيعة، أي لولا شؤم الأيام لم تتغير الطباع، أي لو استقامت هي لاستقامت أحوال الناس فيها، فكان كل إنسان يدرك منها على قدر منزلته.

[مما قيل في ذم الزمان]

ومما قيل في ذم الزمان مما يوافق هذا المعنى، أنّ عبد الملك بن مروان سأل مسلمة بن يزيد - وكان من المعمرين - فقال: أي الملوك رأيت أكمل؟ وأي الزمان رأيت أفضل؟ فقال: أما الملوك فلم أر إلا حامداً أو ذاماً، وأما الزمان فيرفع أقواماً ويضع أقواماً، وكلهم يذمّ زمانه. لأنه يبلي جديدهم، ويفرق عديدهم، ويهرم صغيهرهم، ويهلك كبيرهم.

أبو جعفر الشيباني قال: أئانا أبو ميثاس الشاعر، ونحن في جماعة، فقال: ما أنتم فيه؟ قلنا: نذكر الزمان وفساده، قال: كلاّ إنّ الزمان وعاء، وما ألقى فيه من خير أو شر كان على حاله، ثم أنشأ يقول: [الوافر]

أرى حُللاً تُصانُ على رجال
يقولون الزّمان به فسادٌ
وأخلاقاً تُذال ولا تُصانُ
وهم فسدوا وما فسد الزّمانُ

وقال آخر: [المقارب]

أيا دهر إن كنت عاديئنا
جعلت الشرار علينا خياراً
فها قد صنعت بنا ما كفّاك
وأوليتنا بعد وجه قفاك

وقال أبو العتاهية: [الطويل]

كفّاك عن الدنيا الذميمة مخبراً
وأن رجال النّفع تحت مداسيها
غنّى باخليها وافتقار كراميها
وأن رجال الضرّ فوق سنّاميها

وقال ابن لُثك: [مجزوء الرمل]

يا زمانا ألبس الأحـ
لست عندي بزمانٍ
رارَ ذلاً ومهـائنة
إنما أنست زمّانة

وقال ابن الرومي: [الكامل]

دهرٌ علا قدرُ الوضيع به
كالبحر يرسب فيه لؤلؤه
وغدا الشّريف يحطّطه شرّفه
سُفلاً ويطفو فوقه جيّفه

وكرّره فقال: [البسيط]

قالت علا الناس إلا أنت قلت لها:
كذاك يسفّل في الميزان ما رجّحاً

وقال آخر : [الخفيف]

رَبِّ يَوْمٍ بِكَيْتٍ فِيهِ فَلَمَّا صرْتُ فِي غَيْرِهِ بِكَيْتٍ عَلَيْهِ
وقال آخر : [البسيط]

لَمْ أَبْكُ مِنْ زَمَنِ نَكْدِ أَسَاءَ بِهِ إِلَّا بِكَيْتٍ لَعِيهِ حِينَ أَفْقَدُهُ
وَلَا جَزَعْتُ عَلَى مَيِّتٍ فُجِعْتُ بِهِ إِلَّا ظَلَلْتُ بِسَكْنَى الْقَبْرِ أَحْسَدُهُ
وَلَا ذَمَمْتُ زَمَانًا فِي تَقْلَبِهِ إِلَّا وَفِي زَمَنِي قَدْ صِرْتُ أَحْمَدُهُ

وقال ابن أبي عيزارة : [الطويل]

عَتَبْتُ عَلَى سَلَمٍ فَلَمَّا فَقَدْتُهُ وَجَرَيْتُ أَقْوَامًا بِكَيْتٍ عَلَى سَلَمٍ
رَجَعْتُ إِلَيْهِ بَعْدَ تَفْوِيْتِ غَيْرِهِ فَكَانَ كَبُرُهُ بَعْدَ طَوْلٍ مِنَ السَّقَمِ

وأشد المبرّد : [الطويل]

حَيَاةَ أَبِي الْعَبَّاسِ زَيْدُتْ بِقَرِيهِ أَخَا ثِقَةٍ قَاسَ الْأُمُورَ وَجَرِيًّا
وَنَعْتَبَ أَحْيَانًا عَلَيْهِ وَلَوْ قَضَى لَكُنَّا عَلَى الْبَاقِي مِنَ النَّاسِ أَعْتَبَا

قال عروة بن الزبير : الناس بزمانهم أشبه منهم بأبائهم . أخذه أبو الطيّب فقال :
[الوافر]

وَشَبَّهَ الشَّيْءَ مَنْجَذِبٌ إِلَيْهِ وَأَشْبَهْنَا بِدُنْيَانَا الطَّغَامُ
وَلَوْ لَمْ يَعْلُ إِلَّا دُوْ مُحَلٌّ تَعَالَى الْجَيْشُ وَانْحَطَّ الْقَتَامُ
وَدَهَرَ نَاسُهُ نَاسٌ صَفَاؤُ وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُنُثٌ عِظَامُ
وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ
الطَّغَامُ : السفلة .

ثُمَّ إِنْ خَبَرَهُ نَمًا إِلَى الْوَالِي، فَمَلَأَ فَاهُ بِاللَّالِيءِ، وَسَامَهُ أَنْ يَنْضَوِيَ إِلَى
أَخْشَائِهِ، وَيَلِيَّ دِيْوَانِ إِنْشَائِهِ، فَأَخْسَبَهُ الْجِبَاءُ، وَظَلَفَهُ عَنِ الْوِلَايَةِ الْإِبَاءُ .

قال الراوي : وَكُنْتُ عَرَفْتُ عَوْدَ شَجَرَتِهِ، قَبْلَ إِيْتَاعِ ثَمَرَتِهِ، وَكِدْتُ أَنْبَهُ عَلَى
عُلُوِّ قَدْرِهِ، قَبْلَ اسْتِنَارَةِ بَذَرِهِ، فَأَوْحَى إِلَيَّ بِإِيْمَاضِ جَفْنِهِ، أَلَّا أُجْرَدَ عَضْبُهُ مِنْ
جَفْنِهِ، فَلَمَّا خَرَجَ بَطِينُ الْخُرْجِ، وَفَصَلَ فَائِزًا بِالْفُلُجِ، شَيَّعَتْهُ قَاضِيًا حَقَّ الرُّعَايَةِ، وَلَا
حَيًّا لَهُ عَلَى رَفَضِ الْوِلَايَةِ، فَأَعْرَضَ مُتَبَسِّمًا، وَأَشْدَّ مُتَرَنِّمًا : [المقارب]

لَجُوبُ الْبِلَادِ مَعَ الْمَثَرَبَةِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْمَرْتَبَةِ

لِإِنَّ الْوُلَاةَ لَهُمْ نَبَوَّةٌ وَمَعْتَبَةٌ يَالَهَا مِغْتَبَةً!
وَمَا فِيهِمْ مَنْ يَرْبُ الضَّنِيعَ وَلَا مَنْ يُشَيِّدُ مَارْتَبَةً
فَلَا يَخْدَعُكَ لُمُوعُ السَّرَابِ وَلَا تَأْتِ أَمْرًا إِذَا مَا اشْتَبَهَ
فَكُنْ حَالِمٍ سَرَّةٍ جِلْمُهُ وَأَذْرِكُهُ الرُّوعَ لِمَّا انْتَبَهَ

* * *

قوله: «نما»، أي ارتفع ووصل. اللاليء: الدرر. سامه: كلفه، ينضوي: ينضم. وأحشائه: خاصته. يلي ديوان إنشائه: يتولى دار كتابته، أي يكون هو الذي ينشئ الكتب، وينسخها الكتاب وتنفذ إلى البلاد. أحسبه: كفاه. الجباء: العطاء. ظلفه: منعه. الإباء: الامتناع، وقد أبيت من كذا، أي امتنعت منه؛ ويكنى به عن نزاهة النفس. عود شجرته، يريد أنه كان عرفه قبل أن يتكلم، وأن يعترف نفسه. وإيناع الثمرة: إدراكها ونضج ثمرتها. إيماض جفنه: إشارة عينه. عضبه: سيفه. جفنه: غمده، أي أشار علي أن أستره. بطين: مملوء. الخُزج: وعاء معلوم، وهذا كقول الشاعر: [الطويل]

يبيتون بالذهن خفافاً عيائهم ويخرجن من دارين بجُرّ الحقائق^(١)

وقد أخذ هذا اللفظ في مقامة أخرى فقال: حتى آل ذا عيبة خضراء وحقية بجراء، أي مملوءة. وإلى هذا المعنى أشار، نُصِيب في قوله: [الطويل]

أقول لركب قافلين رأيتهُم قفا ذات أوشالٍ ومولاك قارب^(٢)
قفوا خبروني عن سليمان إني لمعروفه من أهل ودان طالبُ
فعاجوا فائنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق

ثناؤها عليه، أن بدت للناس مملوءة من معرفه، فأتى أبو العتاهية فزاد المعنى بياناً بقوله: [الكامل]

(١) البيت لأعشى همدان في الحماسة البصرية ٢/ ٢٦٢، ٢٦٣، ولشاعر من همدان في شرح أبيات سيبويه ١/ ٣٧١، ٣٧٢، ولأعشى همدان أو للأحوص أو لجريز في المقاصد النحوية ٣/ ٤٦، وهو في ملحق ديوان الأحوص ص ٢١٥، وملحق ديوان جريز ص ١٠٢١، والبيت بلا نسبة في الإنصاف ص ٢٩٣، وأوضح المسالك ٢/ ٢١٨، وجمهرة اللغة ص ٦٨٢، والخصائص ١/ ١٢٠، وسر صناعة الإعراب ص ٥٠٧، وشرح الأشموني ١/ ٢٠٤، وشرح التصريح ١/ ٣٣١، وشرح ابن عقيل ص ٢٨٩، والكتاب ١/ ١١٥، ولسان العرب (خشف)، (ندل).

(٢) الأبيات لنصيب في ديوانه ص ٥٩، والبيت الأول في تاج العروس (ودد)، والبيت الثاني في لسان العرب (ودد)، وزهر الآداب ١/ ٣٣٥، والأغاني ١/ ٣٢٣، وأمالى المرتضى ١/ ٦١، والحماسة البصرية ١/ ١٥٧، وأمالى القالي ١/ ٩٤، ٣/ ٤٠، والكامل ص ٢٣٨، وتاج العروس (ودد)، وفيه «راغب» بدل «طالب»، والبيت الثالث في الأغاني ١/ ٣١٧، وأمالى المرتضى ١/ ٦١، وخزانة الأدب ٥/ ٢٩٦، وشرح شذور الذهب ص ٣٨، والشعر والشعراء ١/ ٤١٨، ولسان العرب (حدث).

إِنَّ الْمَطَايَا تَشْتَكِيكَ لِأَنَّهَا قَطَعْتَ إِلَيْكَ سَبَاسِباً وَرِمَالاً^(١)
فَإِذَا أَتَيْنَ بِنَا أَتَيْنَ مَخْفَةً وَإِذَا رَجَعْنَ بِنَا رَجَعْنَ ثِقَالاً

قوله: «فصل»، أي زال وتنحى.. الفُلج: الظفر بما أراد. الرعاية: حفظ الصحبة. لاحقاً: لائماً. رفض: ترك. مترئماً: مطرباً. أي لما خرج ممتلىء الوعاء، ظافراً بما أراد، لُمتَه على ترك خدمة الأمير التي كلفه. فأتشد معتذراً. المتربة، أي الفقر. المرتبة: المنزلة الرفيعة. وهذا البيت ينظر إلى حكاية الأَصمعي وقد رُئي ركباً حماراً فقيل له: أبعد براذين الخلفاء تركب هذا؟ فقال متملاً: [الطويل]

وَلَمَّا أَبْتُ إِلَّا طِرَافاً بَوْدَهَا وَتَكَنْدِيرَهَا الشَّرْبُ الَّذِي كَانَ صَافِيَا
شَرَبْنَا بِرُنْقٍ مِنْ هَوَاهَا مَكْنَدٍ وَلَيْسَ يَعَافُ الرُّنْقُ مَنْ كَانَ صَادِيَا

يقول: هذا وأملك ديني ونفسي، أحب إلي من ذلك مع ذهابهما.

أطرف الشيء وتطرفه: استفاده، وقيل: استجاده.

نبوة: ارتفاع وقلة ثبات. معتبة: سخط. يا لها: تعجب، كأنه قال: يا عجباً لها، ما أشدها. يرب: يصلح ويقوي. الصنيع: الفعل الجميل. يشيد: يرفع ويتم. رتبه: بناه وهيأه. السراب: ما يظهر نصف النهار كأنه ماء، اشتبه: أشكل. الحالم: من يرى في منامه رؤيا، وقد حلُم يحلُم: والرزق: الفزع، يقول: مثل المترقه بالخطئة السلطانية كحالم رأى نفسه في النوم أميراً، فانتبه في أيدي أعاديه أسيراً، أو رأى نفسه بين غزلان ورياحين فانتبه لزئير أسود ولصفير ثعابين، وكذلك الأمراء إن رفعوا الخديم ببعض إنعامهم كدروه بتعجيل انتقامهم. ومما يجري في هذا النمط قول الشاعر: [الطويل]

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ إِذَا نَمْتُ لَمْ أَعْدِمْ خَوَاطِرَ أَوْهَامٍ
فَإِنْ كَانَ شَرًّا كَانَ لَا شَكَّ وَاقِعاً وَإِنْ كَانَ خَيْرًا كَانَ أَضْغَاثَ أَحْلَامٍ

أخذ المعنى هذا الشاعر من قول أشعب الطماع. قال: رأيت رؤيا نصفها حق، ونصفها باطل، قيل: وكيف ذلك؟ قال: كنت أراني أحمل بذرة؛ فمن ثقلها كنت أسلح في ثيابي، فانتبهت فإذا السِّلح ولا بذرة. قال الفنجديهي: ومن أحسن ما سمعت في هذا المعنى أبيات لطيفة المعاني ظريفة المباني، شرفني بإنشادها وإملائها علي السيد الأجل أبو المظفر يوسف بن أيوب صلاح الدين بـقاهرة مصر لبعضهم: [البيسط]

وَزَارَنِي طَيْفٌ مِّنْ أَهْوَى عَلَى وَجَلٍ مِّنَ الْوُشَاةِ وَدَاعِي الصَّبْحِ قَدْ هَتَفَا
فَكَدْتُ أَوْقِظُ مَنْ حَوْلِي بِهِ فَرَحاً وَكَادَ يُهْتِكُ سِتْرَ الْحُبِّ بِي شَغَفَا

ثم انتبهتُ وآمالي تخيبني نيل المنى فاستحالت غبطني أسفاً
ومن مُلح هذا الباب، أن ابنَ عَبدل دخل على بشر بن مروان لما وَلِي الكوفة،
فقال: أيها الأمير إني رأيت رؤيا، فأذن لي يقصّها، فقال: قل، فقال: [الكامل]
أغفيت قبل الصبح نومَ مسهّد في ساعة ما كنت قبل أنامها
فرايت أنك زُعتني يوليدة مغنوجة حَسَن عليّ قيامها
وببدره حُمِلت إليّ وبغلة شهباء ناجية يصلّ لجامها
فقال له بشر: كلّ شيء رأيتَه فهو عندك إلا البغلة، فإنها دهماً، قال: امرأتي طالق
ثلاثاً إن كنت رأيتها إلا دهماً ولكنني غلطت.
قال البطّين الشاعر: قدمت على عليّ بن يحيى الأرميني، فكتبت إليه: [البسيط]
رأيت في النوم أنني راكب فرساً ولي غلام وفي كفّي دنانيرُ
فجئت مستبشراً مستشعراً فرحاً وعند مثلك لي بالفعل تبشيرُ
فوقع في أسفل كتابي: «أَضْفَاكُ أَخْلَامَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَخْلَامِ بِعَالَمِينَ» [سورة
يوسف: ٤٤]، ثم أمر لي بكل ما رأيتَه في منامي.

المقامة السابعة

وهي البرقعيدية

حكى الحارث بن همام، قال: أزمعتُ الشُّخوصَ من بَرَقَعيدٍ، وقد شمتَ بَرَقَ عيدٍ، فكَرِهْتُ الرِّحْلَةَ عَنِ تِلْكَ المَدِينَةِ، أَوْ أَشْهَدَ بِهَا يَوْمَ الزَّيْنَةِ. فَلَمَّا أَظْلَمَ بِفَرْضِهِ وَنَفْلِهِ، وَأَجْلَبَ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ، اتَّبَعْتُ السُّنَّةَ فِي لُبْسِ الجَدِيدِ، وَبَرَزْتُ مَعَ مَنْ بَرَزَ لِلتَّعْبِيدِ وَحِينَ التَّأَمُّ جَمْعُ الْمُصَلَّى وَاتَّظَّمْ، وَأَخَذَ الزَّحَامُ بِالْكَظْمِ، طَلَعَ شَيْخٌ فِي شَمْلَتَيْنِ، مَخْجُوبُ الْمُقْلَتَيْنِ، وَقَدْ انْتَضَدَ شِبْهُ المَخْلَاقَةِ، وَاسْتَفَادَ العَجُوزَ كَالسُّغْلَاقَةِ، فَوَقَّفَ رِقَّةً مُهَافِتٍ، وَحِيًّا تَحِيَّةً خَافَتْ. وَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ دُعَائِهِ، أَجَالَ خَمْسَةَ فِي وَعَائِهِ؛ فَأَبْرَزَ مِنْهُ رِقَاعًا قَدْ كَتَبَنَ بِأَلْوَانِ الْأَصْبَاغِ، فِي أَوَانِ الْفَرَاغِ، فَنَاولَهُنَّ عَجُوزَهُ الْحَيْزُبُونَ، وَأَمَرَهَا بِأَنْ تَتَوَسَّمَ الزُّيُونَ، فَمَنْ أَنْسَتْ نَدَى يَدَيْهِ، أَلْقَتْ مِنْهُنَّ وَرَقَةً لَدَيْهِ، فَأَتَاخَ لَهُ الْقَدْرُ الْمَعْتُوبُ، رِقَّةً فِيهَا مَكْتُوبٌ . . .

ازمعت الشخوص، أي عزمت على الخروج. بَرَقَعيد: بلد بينه وبين الموصل عشرون فرسخاً. شمت: نظرت.

ويريد يبرق عيد، مقدّمات العيد التي ينظر الناس بها في أسبابه، سأل رجل الجنيد، لماذا سُمِّي يوم العيد؟ فقال: لأنَّ آدمَ لما خرج من الجنة، وأهبط إلى الأرض، ثم تاب الله عليه، فردّه إلى الجنة، كان في ذلك اليوم؛ فقليل له يوم عيد، لأنه أعيد إلى الجنة فيه، قال ابن الأنباري رحمه الله: معنى يوم العيد، الذي يعود فيه الفرح والسرور. والعيد عند العرب: الوقت الذي يعود فيه الفرح أو الحزن، وأصله «العوذ» لأنه من عاد يُعود، فلما سَكُنْتَ الواء وكُسِرَ ما قبلها قُلِبَتْ ياء، فصارت من باب ميزان وميقات، وهما من الوزن والوقت، وكذلك الياء إذا سكنت، وانضمَّ ما قبلها قلبت واواً مثل مُوسر وموقن، وهما من أيسر وأيقن، ويقولون في الجمع مياسر.

المدينة: البلد، مَنْ أَخَذَهَا مِنْ مَدَنٍ بِالْمَكَانِ يَمْدُنْ، إِذَا أَقَامَ فِيهِ، فَهِيَ «فَعِيلَة» والجمع مدائن بالهمز، والميم أصلية والياء زائدة، ومن أَخَذَهَا مِنْ دَانَ يَدِينْ، فالميم

زائدة والياء أصلية، وهي «مفعولة». يقال: دِنْتُ الرَّجُلَ ملكته، ودنت له أطعت، ويقال للأمة مَدِينَةٌ لأنها مملوكة، قال الشاعر: [الطويل]

ربت ورباً في حَجَرها ابن مدينةٍ يظلّ على مَسحاته يترَكُلُ^(١)

يعني عبداً: يوم الزينة: يوم العيد لتزيّن الناس فيه. قوله: «أظل»، أي قرب ودنا حتى دخلنا في ظلّه. بفرضه: يعني زكاة الفطر. ونفله: يعني صلاة العيد. الفنجديهيّ: فَرَضَ العيد: صدقة الفطر، ونَفَلَ العيد مثل الصلاة والغُسل ولبس الجديد من الثياب.

ابن عمر رضي الله عنهما: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان على الناس صاعاً من تمر أو شعير، على كل كَرٍّ أو عبد، ذكر أو أثنى من المسلمين.

ابن عباس رضي الله عنهما: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان لجبر الصيام من اللغو والزَّفْت طعمة للمساكين، فمن أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعدها فهي صدقة من الصدقات. أجلب بخيله ورجله، أي جمع أصحاب الخيل والرجالة وجاء بهم، ضرب به المثل لإقباله وتصميمه على المجيء. لبس: لباس، وجاء في لبس الجديد حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما على أحدكم أن يكون له ثوبان سوى ثوبي مهنته لجمعته ولعيده».

جابر: كان للنبي ﷺ حُلَّةٌ يلبسها في العيدين ويوم الجمعة. برزت: خرجت. التأم: التحم والتصق. المصلّى: موضع صلاة العيد. الزحام: الضيق لكثرة الناس. الكظم: تضيق النفس من شدة الزحام. شملتين: عبايتين، والشملة: نوع من الأكسية، وقيل لها شملة لأن صاحبها يشتمل بها، أي يديرها حواليه، محجوب: مستور. المقلتين: العينين، أراد أنه أعمى. اعتضد: علقها في عضده. استقاد: جعلها تقوده. السُعلاة: أنثى الغول، وذكرها يسمّى الكعنكع، وأنشدوا: [الرجز]

* غُولَا تَرَاعِي شَرِساً كَعَنَكَعَا^(٢) *

والغول: جنّ مسكنها الصحارى تتراءى للإنسان كأنها إنسان فلا يزال يتبعها حتى

(١) البيت للأخطل في ديوانه ص ١٥٥، ولسان العرب (ركل)، (دين)، (مدن)، وتهذيب اللغة ١٠/ ١٨٨، ١٤٥/ ١٤، ١٨٢، وتاج العروس (ركل)، (دين)، (مدن)، وكتاب العين ٣٥٣/ ٥، ٥٣/ ٨، ومقاييس اللغة ١/ ٣٣٤، ٣١٩/ ٢، ٤٣٠، وأساس البلاغة (ركل)، والمخصص ١٣/ ١٩٩، ومجمل اللغة ٢/ ٤١٣، والبيت بلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٦٨٤.

(٢) يروي الرجز:

كأنّها وهو إذا استَبَا معاً غولٌ تدهي شرساً عكنكعاً
وهو بلا نسبة في تاج العروس (عكنكع)، ومقاييس اللغة ١٢/ ٤.

يضلّ الطريق فيهلك . قوله : « متهافت » ، أي متساقط لضعفه ، وتهافت الشيء في يدي : تناثر . خافِت : خفيّ الصوت ، وقد خَفَّت الرجل ، إذا ظهر عليه الضعف من مرض أو جوع أو غير ذلك ، وأصل خفت مات هزالاً . فرغ : أتمّ أجال : مشى وصرّف . خمسه : أصابعه . في وعائه ، يعني المخلاة التي اعتَصَدَها ، وهي تعليقة يعلّقها السائل في عنقه أو ذراعاه ، ويجعل فيها ما يُعْطَى مِنَ الصَّدقة . أبرز : أخرج . أوان : وقت . الفراغ : قلة الشغل . ناولهنّ : أعطاهنّ . الحيزبون : المسنة القويّة الخلق . تتوسّم : تنظر . الرّبون : المنخدع عن ماله «فعول» بمعنى «مفعول» ، وهو من ألفاظ أهل المشرق ، وأراد به الكثير الصدقة ، أنست : أبصرت ندّى : كرم . أتاح : ساق . القَدْر المعتبر : المعلوم . [الهجج]

لَقَدْ أَضْبَحْتُ مَوْقُودًا	بِأَوْجَاعٍ وَأَوْجَالٍ
وَمَمْنُوا بِمَخْتَالٍ	وَمَخْتَالٍ وَمُغْتَالٍ
وَحَوَانٍ مِنَ الْإِخْوَا	نِ قَالٍ لِي لِإِمْلَالِي
وَأَعْمَالٍ مِنَ الْعُمَا	لِ فِي تَضْلِيلِ عَمَالِي
فَكَمْ أَضَلَّى بِأَذْحَالٍ	وَأَمَحَالٍ وَتَرْحَالٍ
وَكَمْ أَخْطَرُ فِي بَالٍ	وَلَا أَخْطَرُ فِي بَالٍ
فَلَيْتَ الذَّهْرَ لَمَّا جَا	رَ أَطْفَالِي أَطْفَالِي
فَلَوْلَا أَنَّ أَشْبَالِي	أَغْلَالِي وَأَغْلَالِي
لَمَّا جَهَّزْتُ أَمَالِي	إِلَى آلٍ وَلَا وَالِي
وَلَا جَرَّزْتُ أَذْيَالِي	عَلَى مَسْحَبٍ إِذْ لَالِي
فَمِخْرَابِي أَخْرَى بِي	وَأَسْمَالِي أَسْمَى لِي
فَهَلْ حُرِّيْرِي تَخُ	فِيْفَ أَثْقَالِي بِمِثْقَالٍ
وَيُطْفِي حَرَّ بَلْبَالِي	بِسِرْبَالٍ وَسِرْوَالٍ!

قوله : «موقوداً» ، أي مشرفاً على الموت من شدة الأوجاع والأوجال ، والموقودة في القرآن^(١) : المقتولة بالخشب ، والوقد : شدة الضرب . أو جال : مخاوف . ممنوا : مبتلى . محتال : ماكر كثير الحيلة . مختال : متكبر . مغتال : مهلك . حوان : كثير الخيانة .

ابن عمر رضي الله عنهما : قال رسول الله ﷺ : «قلما يوجد في آخر الزمان درهم من حلال ، أو أخ يوثق به» . قال : مبغض . إقلالي : فقري . إعمال : جدّ وبحث ، تقول : أعملت الشيء في الشيء ، إذ جعلته يعمل فيه . والعمال : عاملو كل شيء . تضليع :

(١) أي قوله تعالى : «والمخنقة والموقود» [المائدة : ٣] .

إفساد. أعمال: جمع عمل، يريد أنه مطلوب يبحث على أعماله إذا أتى بها مجموعة فتنتقض أعماله وتصير له أضلاعاً بعد اجتماعها، وذلك فساد لها. ويحتمل أن يكون التّضليع من «ضَلَعُكَ مع فلان». أي ميلك معه، فأعماله تميل عن طرقها فتفسد. وقيل: تضليع الأعمال: تثقيلها، قال الأزهري رحمه الله: ضَلَعُ الدين: ثقله حتى يميل صاحبه عن الاستواء لثقله، وفي الحديث: «أعوذ بالله من ضَلَعُ الدّين». أصْلَى: أحترق. أذحال: أحقاد وعداوات. إمحال: فقر. تَرَحّال: سَفَر ونقلة من بلد إلى بلد. أخطر: أمشي متبختراً، وقد خطر الرجل، إذا أقبل بيديه وأدبر بهما، وهي مشية الشبان. بال: خَلَق. ولا أخطر في بال: لا أمر على بال أحد ولا خاطره. جاز: مال عن الحق ولم يعدل. أطفأ: أمات. أطفالي: أولادي، ومثله: أشبالي.

الفنجديهي: يقول: ليت الدهر لمّا ظلم أولادي، وجار عليهم أماتني لأتخلص، فإنّ مقاساة الولائد سبب الوقوع في المصائد. قال ابن عيينة: قلت لصيّاد: أي طائر أسرع إلى مصايدكم؟ قال: الذي يزق، يعني الذي يطعم ولده. أغلالي: قيودي. والأعلال: جمع علّ، وهو القُرَاد الضخم، وهو الذي يلصق بأفخاذ الدواب، وهو كثير التشبّث والالتصاق، لا يُقْلَع إلا بجهد، فيريد بالأعلال أولاده لأنهم قيوده فلا يسرح بسببهم، وبالأعلال أنهم قد تعلّقوا به يطلبون ما عنده، وقال الشاعر يصف ناقته: [الطويل]

* ولو ظلّ في أوصالها العَلّ يرتقي ^(١) *

ويقال للقُرَاد: الطَّلَح والفينق والحجير والعلّ والبُرَام والقُرشوم واللّبود في بعض اللغات. جهّزت: أرسلت. آل: قريب، وآل: أهل، أو يكون آل أميراً وسائساً؛ قال عمر رضي الله عنه: أُلْنَاوَأَيْلَ علينا، أي سبنا الناس وساسنا غيرنا، فيكون على هذا مقلوباً من «أَيْل»، كما قيل: سار في سائر مسح: طريق. يقول: لولا ذلّ الأولاد ما قصدت والياً، ولا جررت ذيلي في طريق ذلّ، ويقال: سحب ذيله سحباً إذا جرّه، والمسحَب: موضع جرّه ثوبه محرابي: مسجدي. أخرى: أحق بي. أسمالي. أثوابي الخَلْقَة. أسمى لي: أعزّ لي وأرفع لقدري. أثقالِي: همومي أو ديوني، أو كثرة عيالي وأحدها ثقل، وثَقُلَ الشيء ثِقلاً ضَدَّ خَفٍّ، وأثقل الرجل: كثر عياله. بلبالي: حزني، والبلبال: وسواس الهموم. سربال: قميص. والسروال: معروف، وفي الحديث أن امرأة سقطت من على حمار فأعرض النبي ﷺ بوجهه عنها، فقالوا: إنها متسرولة، فقال النبي ﷺ: «اللهم اغفر للمتسرولات من أمّتي - ثلاثاً - يا أيّها الناس اتخذوا السراويلات فإنها من أستر ثيابكم، وحضّوا بها نساءكم إذا خرجن».

(١) أخرجه البخاري في الجهاد باب ٧٤، والأطعمة باب ٢٨، والدعوات باب ٣٥، وأبو داود في الوتر باب ٣٢، والنسائي في الاستعاذة باب ٨، ٢٥، ٤٥، والترمذي في الدعوات باب ٧٠، وأحمد في المسند ٢٢٦/٣.

ومن مُلَحِّ الصاحب بن عباد أن بعض الشعراء كتب له : [المقارب]

أيا مَنْ عطاياه تُعطى الغني إلى راحتي مَنْ نأي أو دنا
كسوت المقيمين والزائرين كسأ لم يخل مثلها مُفكِنا
وخاشية الدار يمشون في ثياب من الخز إلا أنا

فقال الصاحب: قرأت في أخبار مَعْن بن زائدة أن رجلاً قال له: احملني أيها الأمير، فأمر له بناقاة وفرس وبغلة وحمار وجارية، ثم قال له: لو علمت أن الله خلق مركوباً غير هذا لحملتك عليه. وقد أمرنا لك من الخز بجبة وقميص ودُرّاعة وسراويل وعمامة ومنديل ومُطَرَف ورداء وكساء وجُورب وكيس، ولو علمنا لباساً غير هذا من الخز لأعطيناكه. ثم أمر بإدخاله إلى الخزانة؛ وصب تلك الخلع عليه.
وأخبار الصاحب مستزفة كثيرة الملح.

قال الخارث بن همام: فلما استعرضت حُلَّةَ الأنبياء، ثقت إلى معرفة مُلحِمِها، وراقم علمِها. فتأجرتي الفكر بأن الوُصلةَ إليه العُجوز، وأفتاني بأن حُلوانَ المُعرفِ يَجُوزُ؛ فَرَصَدْتُها وهي تَسْتَقْرِى الصُّفوفَ صفّاً صفّاً؛ وَتَسْتَوَكِفُ الأكُفَّ كُفّاً، وما إن يَنجَحَ لها عَناءٌ، ولا يَرشَحُ على يَدِها إناءٌ، فلما أكدى استِغْطافُها، وكدّها مطافُها، عادت بالإستزجاج، ومالت إلى إزجاج الرِّقاع، وأنساها الشيطان ذكرَ رُفْعَتِي، فلم تُعْجِ إلى بُقْعَتِي، وآبت إلى الشَّيخِ باكِيةً لِلحِزْمَانِ، شاكِيةً تَحامِلَ الزَّمانِ؛ فقال: إنا لله، وأقوَضُ أَمْرِي إلى الله، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله! ثم أنشد: [مخلع البسيط]

لَمْ يَبْقَ صَافٍ وَلَا مُصَافٍ وَلَا مَعِينٌ وَلَا مُعِينُ
وَفِي الْمَسَاوِي بَدَا التَّساوِي فَلَا أَمِينٌ وَلَا ثَمِينُ

قوله: «ملحمها»، ناسجها، ولما جعل الشعر حُلَّةً جعل له ناسجاً وراقماً. ناجاني: حدثني. الوُصلة: الموصلة. استعرضت، أي نظرت وعرضتها على نفسي. ثقت:

(١) صدره:

ظَلَلْتُ ثلاثاً لا تُراغ من الشذا

والبيت للممزق العبيدي في الأصمعيات ص ١٦٥، والحيوان ٤٤١/٥، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٥٧.

اشتقت . أفتاني ، أعلمني . الحُلوان : أجر الكُهَّان ، وأراد أجره العُراف ، وهو الذي يعرّف بالتلائف الملتقطة أربابها ، فيفتكونها منه بما اتفقوا عليه ، فذهب مالك أن من عَوَف اللُّقطة ، وكان من شأنه أخذ الجُعل على مثل ذلك ، فله أجره مثله ، والشافعي لا يوجب له حقاً ؛ سواء كان من شأنه أن يعرّف باللُّقطة أو لم يكن ، تعب في ذلك أو لم يتعب ، إلا أن يشترط قبل الطلب .

رصدتها : ارتقبتها . تستقري : تتبع ؛ واقتريت الأرض واستقريتها ، تتبّعُها متأملاً . تستوكف : تستمطر . ينجح : ينفع ويؤثر ؛ يقال : نجحت الحاجة إذا انقضت ، ونجح طالبها إذا لم يخب ، وأنجح : أشهر ؛ يقول : إن مشيها عليهم لم يقض حاجتها ولا نفعها . وقصد يرشح الإناء كرم الكف ؛ يقول : لم يرشح لها كفً بعطيّة . أكدي : خاب وصعب ، ويقال : أكدي الحافر ، وهو أن يحفر البئر يطلب الماء ، فإذا بلغ إلى الصلابة ويش من الماء ولم يقدر على الحفر قيل له : أكدي فهو مكدي ، والكُذبة هي الصلابة التي يتعذر حفرها . استعطافها : تليينها القلوب . كدّها : أتعبها . مطافها : مشيها وطوفها على الناس ، ويحسن أن ينشد هنا في حالها لأبي نَواس : [الطويل]

إذا لم يُعِثْكَ الله فيما تريده فليس لمخلوقٍ إليه سبيلُ
وإن هو لم يرشدك في كلِّ مسلكٍ ضللت ، ولو أن السَّمَاءَ دليلُ

غيره : [الطويل]

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأكثر ما يجنى عليه اجتهادهُ

عاذت : تعوّذت ولاذت . الاسترجاع ؛ قولهم : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ : « ما قال أحدٌ عند المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجِرْني في مُصِيبتي ، وأخلف لي خيراً منها ؛ إلا استجيب له »^(١) .

ارجاع : ردّ . تعج : تميل وترجع . بقعتي : موضعي . آبت : رجعت . الحرمان : الخيبة والمنع . تحامل : مشقات ، وتحاملت في الأمر : تكلفته على مشقة . أفوض : أَرَدَ .

لا حول ، أي لا حيلة ، يقال : ما له حيلة ولا حَوْل ، وما له احتيال ولا محتال ، ولا مَحالة ولا مَحيلة ؛ كلّهُ بمعنى . ويقال : ما له مَحال بالفتح ، أي حَوْل ، ومَحال بالكسر ، أي مكر . ثعلب : هو من قولهم : مَجَل به ؛ إذا سعى به إلى السلطان وعرضه للهلاك . ومَجَل به القرآن : شهد عليه بالتقصير ؛ وقال الفراء : المَحالة على ثلاثة أقسام ؛ هي

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة . أخرجه مسلم في الجنايز حديث ٣ ، ٤ ، وأبو داود في الجنايز باب

١٨ ، والترمذي في الدعوات باب ٨٣ ، وابن ماجه في الجنايز باب ٥٥ ، ومالك في الجنايز حديث

٤٢ ، وأحمد في المسند ٦/٣٠٩ ، ٣٠٣ ، ٣١٧ ، ٣٢١ .

الحيلة، والتي تجعل على رأس البئر كالبكرة، وواحدة محال الظهر وهي فقاره. ويقال: أخذت في الحوالة والحوالة، إذا قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، وينتصب «لا حول ولا قوة» بالتبرئة، وإن شئت رفعتهما بالابتداء، «وبالله» خبر «قوة»، وحذفت خبر «لا حول» لدلالة الثاني عليه، وإن شئت رفعت «حول» بالابتداء، ونصبت «قوة» بالتبرئة، وإن شئت نصبت «حولا» بالتبرئة ورفعت «قوة» بالعطف على موضع «لا حول»، وإن شئت نصبت «قوة» بالتنوين عطفاً على اللفظ.

وقوله: «صاف»، أي خالص الود. مصاف: صادق في وده. معين: ماء كثير، يريد صاحب كرم كثير. معين: يُعين بماله. المساوي: ضد المحاسن، واحدها «سوء» على غير قياس، وقيل لا واحد لها. بدا: ظهر. الثمين: النفيس الغالي الثمن؛ يقول: إنَّ الناس قد استووا في الأفعال السيئة، وأراد قوله ﷺ: «لا يزال الناس بخير ما تباينوا، فإذا استووا هلكوا»، ومعناه أن الناس في الغالب إنما يتساوون في الشر، ولا تجدهم كلهم فضلاء لأنَّ الخير قليل.

قال أبو العباس التُّطيلي فيما يتعلّق بهذا المعنى: [البسيط]

والناس كالناس إلا أن تجربهم
وللبصيرة حكم ليس للبصر
كالأيك مشتبهات في منابتها
وإنما يقع التفضيل بالثمر
وقال التهامي:

ومن الرُّجالِ معالمٌ ومجاهلٌ
ولربما اعتضد الحليمٌ بجاهلٍ
ومن النُّجومِ غوامضٌ وذُراري
لا خير في يُمْنى بغير يسارٍ
والناس مشتبهون في إيرادهم
وتفاضل الأقسام بالإضارِ

ثم قال لها: مَنِّي النَّفْسَ وَعِدِّيها، واجمعي الرِّقَاعَ وَعُدِّيها، فقالت: لَقَدْ عَدَدْتُها لَمَّا اسْتَعَدْتُها، فَوَجَدْتُ يَدَ الضِّياعِ، قَدْ غَالَتْ إِخْدَى الرِّقَاعِ، فقال: ثَغْساً لَكَ يَا لَكَاعِ، أَتُحَرِّمُ وَيَحْكُ الْقَنْصَ وَالْجِبَالَ، وَالْقَبَسَ وَالذُّبَالَ! إِنَّها لَضِعْثٌ عَلَى إِبَالَةٍ. فأنصاعتُ تَفْتَضُّ مَذْرَجَها، وَتَنْشُدُ مَذْرَجَها؛ فَلَمَّا دَانَتْنِي قَرَنْتُ بِالرُّفْعَةِ، دِرْهَمًا وَقِطْعَةً، وَقُلْتُ لها: إِنْ رَغِبْتَ فِي الْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ - وَأَشْرْتَ إِلَى الدَّرْهَمِ - فَبُوجِي بِالسَّرِّ الْمُبْهَمِ. وَإِنْ أَبَيْتِ أَنْ تَشْرَحِي، فَخُذِي الْقِطْعَةَ واسْرَحِي. فَمَالَتْ إِلَى اسْتِخْلَاصِ الْبَذْرِ الثَّمِّ، وَالْأَبْلَجِ الْهَمِّ، وَقَالَتْ: دَغْ جِدَالِكَ، وَسَلْ عَمَّا بَدَالِكَ، فَاسْتَطْلَعْتُها طَلَعَ الشَّيْخِ وَبَلَدَتِهِ، وَالشَّعْرِ وَنَاسِجِ بُرْدَتِهِ.

قوله: «عديها»، أي طمّعيها. استعدتها: رددتها. غالت: أهلكت، واستعار للتضييع «يداً» مجازاً. تعساً: هلكاً، والتّغس: الدّعاء ألاّ تَقَالَ عثرته يا لكاع: يا لثيمة يا مُتِنّة، واللّكاع: وسخ الفرج. واللّكع: ولد الحمار. القنص: الصيد.

الحُبالة: الشبكة، وصفة الحُبالة أن يُعمد لحبل من شعر مخلوط بيسير من صوف، فذلك أقوى له، فيعقد في أحد طرفيه عين يجري فيها الحبل، ويربط في الطرف الثاني خشبة، وربما حدّدا طرفها، ثم يأتون إلى الطريق الذي يدخل منه الصيد إلى الماء فيحفرون فيه حفرة فيغطونها بورق الشجر وشبهها، ويفتحون عليها عين الحبل، ثم يغطونها بالتراب والزّبل، حتى تصير في طبع الأرض، فإذا أقبل الصيد للماء، فوضع يده أو رجله في الحفرة، سقطت به، وانضمّ على يده أو رجله الحبل، فيشب فازعاً ويفرّ، فتتبعه تلك الخشبة، فكلّما انتفض أقبلت عليه، فتضربه بين يديه ورجليه وبطنه وظهره، فتوهي أعضائه، وربما كسرت يديه أو رجله، فلا يسير بها قدر ميل، حتى يقف موقوذاً منها، فيأتيه الصائد فيأخذه، وأنواع الحُبالة كثيرة.

قوله: «القَبَس»، يريد به نور المصباح، والذُّبالة: الفتيلة. ضِغْث: حُزْمة من حشيش صغيرة، وأصلها جماعة القضبان، وشبهها من النبات، يجمعها أصل واحد، وكلّ ما جمعت عليه كفك من حشيش أو عيدان فانتزعته من أصله ضِغْث. إِبالة: حُزْمة كبيرة، والضِغْث على الإِبالة مثل حزمة الحطّاب إذا حملها للبيع، وجعل فوقها حُزْمة صغيرة لنفسه؛ فالكبيرة إِبالة والصغيرة ضِغْث، فكأنه قال: إنها خسارة على خسارة، ويقال لها: إِبالة وأبيل وأبيلة، وضِغْث على إِبالة، مثّل أخذه من قول الشاعر: [مجزوء الكامل]

في كلّ يوم من ذُوالِهِ ضِغْثٌ يزيد على إِبالَةٍ^(١)

وقال آخر وذكر ناقته: [البسيط]

رَدّت عواري غيطانِ الفَلا ونجّت بمثل إِبالَةٍ من خالصِ الشَّعرِ

وهذا مثل قول حبيب: [الطويل]

فكم جُرْعٍ وإِدْجَبٍ ذِروة غاربٍ وبالأُمس كانت أتمكثه جوانِبُهُ^(٢)

قوله: «انصاعت»، أي ذهبت نافرة وانشنت مسرعة، وكلّ ما ثنيته ولوئته بسرعة؛ فقد صعته صوعاً، وكذلك إذا جمعته وفرّقه، فذهب عنك بسرعة، وصاع الشجاع القوم

(١) البيت لأسماء بن خارجة في لسان العرب (حشاً)، (أوس)، (أبل)، (ذال)، وتاج العروس (حشاً)، (ذال)، (هبل)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٣٨٠، ١٠٢٧، وتهذيب اللغة ١٣٨/٥، والمخصص ٦٦/٨، ١٧٧/١٣، وديوان الأدب ١٧٧/٤.

(٢) البيت في ديوان أبي تمام ص ٤٤.

في الحرب؛ إذا جمعهم بهيبته ثم صدمهم، ففروا سراعاً متفرقين، وكل نافرٍ مسرعٍ منصاع، وقال ذو الرمة في الخمر: [البيسط]

رَمَى فَأَخْطَأَ وَالْأَقْدَارُ غَالِبَةٌ فَاَنْصَعْنَ وَالْوَيْلُ هَجِيرَاهُ وَالْحَرْبُ^(١)

تقتص، أي تتبع. مدرجها: طريقها التي مشت فيها لتفريق الرقاع، ويقال: درج الشيخ والصبي درجاً ودَرْجَاناً، إذا تقاربت خطاهما، والمدرج: الموضع الذي درجاً فيه، والمدرجة: قارة الطريق. تشد: تطلب من نشدت الضالة، ومدرجها: رقعته، ويقال: أدرجت الكتاب والثوب طويتهما. القطعة: عند أهل المشرق: الواحدة من صرف يعرفونه الحندوس، يعمدون إلى دراهمه فيقطعونها قطعاً، فهي صرفهم، وبها يتصدقون، فأراد أنه قرن برقعة الشعر درهماً، وقطعة من الحندوس، وقال لها: إن خبرتني بقائل الشعر، فخذني الدرهم أجرة، وإن أبيت أن تعرفيني به فخذني القطعة صدقة وانصرفي. المشوف: المصقول المجلّو، والشوف: الجلاء، والمعلم: المنقوش، ونقشه علامته، وقيل: هو الذي عليه علامة الملك، وأخذه من قول عترة: [الكامل]

ولقد شربت من المدامة بَعْدَمَا رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ^(٢)

بُوحِي. تكلمي. المبهم: المغلق المليس. أبنت: امتنعت. اسرحي: اذهبي. استخلاص: تخلص، واستخلص الشيء، جعله خالصاً. التّم: الكامل. والأبلج: النقي الأبيض، وفعله إبلاج كاحماز. الهم: الكبير الذي يهّم به من رآه، وشيخ هم: مسن، والهم: الرقيق النحيف، وهو من همته النار إذا أذابته، وهَمَمَتِ الشحم: أذبت. استطلعتها طُلُعُهُ: استخبرتها خبره، وسألته أن تطلعني عليه، وتقول: استطلعت طلع الشيء، إذا حاولت الإطلاع عليه، وأردت معرفة خبره الذي تطلع منه عليه، وطلع بالكسر. بُرَدَتْ: ثوبه.

فَقَالَتْ: إِنَّ الشَّيْخَ مِنْ أَهْلِ سَرُوجٍ، وَهُوَ الَّذِي وَشَى الشَّعْرَ الْمُنْسُوجَ، ثُمَّ حَظَفَتِ الدُّرْهَمَ خِطْفَةً الْبَاشِيقِ، وَمَرَقَتْ مُرُوقَ السَّهْمِ الرَّاشِقِ، فَخَالَجَ قَلْبِي أَنَّ أَبَا زَيْدٍ هُوَ الْمَشَارُ إِلَيْهِ، وَتَأَجَّجَ كَرْبِي لِمَصَابِهِ بِنَظَرِيهِ، وَأَثَرْتُ أَنْ أَفَاجِيهِ وَأَنَاجِيهِ، لِأَعْجَمَ عُودَ فِرَاسْتِي فِيهِ، وَمَا كُنْتُ لِأَصِلَ إِلَيْهِ إِلَّا بِتَخَطِّي رِقَابَ الْجَمْعِ، الْمُنْهِي عَنْهُ فِي الشَّرْعِ، وَعَفْتُ أَنْ يَتَأَذَى بِي قَوْمٌ، أَوْ يَسْرِى إِلَيَّ لَوْمٌ، فَسَكَدْتُ بِمَكَانِي،

(١) البيت في ديوان ذي الرمة ص ٧١، ولسان العرب (هجر)، وتهذيب اللغة ٤٣/٦، وكتاب الجيم ٣/٣٢٥، وجمهرة أشعار العرب ص ٩٥٣، وتاج العروس (هجر)، وأساس البلاغة (هجر).

(٢) البيت لعنترة في ديوانه ص ٢٠٥، ولسان العرب (شوف)، (علم)، وتهذيب اللغة ٤٢٠/٢، ١١/٤٢٥، وجمهرة اللغة ص ٨٧٥، ومقاييس اللغة ٣/٢٢٩، وتاج العروس (شوف)، وكتاب العين ٦/٢٨٩، وبلا نسبة في المخصص ١٣/١٤٣.

وَجَعَلْتُ شَخْصَهُ قَيْدَ عِيَانِي، إِلَى أَنْ انْقَضَتِ الْخُطْبَةُ، وَحَقَّتِ الْوُثْبَةُ، فَخَفَقْتُ إِلَيْهِ، وَتَوَسَّمْتُهُ عَلَى التَّحَامِ جَفْنِيهِ، فَإِذَا أَلْمَعِيَّتِي أَلْمَعِيَّةُ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَفِرَاسَتِي فِرَاسَةُ إِيَّاسٍ.

وَشَى: زَيْنَ وَرَقْمٍ. خَطَفْتُ: أَخَذْتُ بِسُرْعَةٍ. الْبَاشِقُ: مِنْ جَوَارِحِ الطَّيْرِ. مَرَقْتُ: خَرَجْتُ بِسُرْعَةٍ. الرَّاشِقُ: الَّذِي يَرِشِقُ الصَّيْدَ، أَيْ يَنْشِبُهُ، وَيَكُونُ الرَّاشِقُ بِمَعْنَى الْمَرْشُوقِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ مَاءٌ دَافِقٌ﴾ [الطَّارِقُ: ٦]، أَيْ مَدْفُوقٍ. قَوْلُهُ: «خَالِجٌ»، أَيْ دَاخِلٌ وَجَاذِبٌ. تَأَجَّجَ: اشْتَعَلَ. كَرَبِي: هَمِّي، وَالتَّأَجَّجُ «التَّفَعُّلُ» مِنَ الْأَجْجِ، وَهُوَ تَصْوِيتُ النَّارِ وَلَهْبُهَا إِذَا اشْتَعَلَتْ وَعَظُمَتْ. أَثَرْتُ: اخْتَرْتُ وَفَضَّلْتُ، وَأَثَرْتَهُ بِكَذَا: فَضَّلْتَهُ بِهِ وَالْإِثَارُ الْمَصْدَرُ. أَفَاجِيهِ: آتِيَهُ فَجَاءَةً وَهُوَ لَا يَشْعُرُ. أُنَاجِيهِ: أَحَدَّثَهُ. أَعْجُمُ: أَجْرَبُ. فِرَاسَتِي: نَظْرِي، وَجَعَلَ لَهَا عَوْدًا مَجَازًا. تَخْطَى رِقَابَ الْجَمْعِ: الْجَوَازُ عَلَى أَعْنَاقِ النَّاسِ؛ خَرَجَ التِّرْمِذِيُّ فِي النَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَخْطَى رِقَابَ النَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ اتَّخَذَ جَسْرًا إِلَى جَهَنَّمَ»^(١).

عَفْتُ: كَرِهْتُ. يَتَأَذَى: يَصِيبُهُمْ أَذَى. يَسْرِي: يَصِلُ. اللُّومُ: ضَدُّ الْحَمْدِ، وَهُوَ أَنْ تَأْخُذَ الْإِنْسَانُ بِلِسَانِكَ ذِمًّا لِمَا فَعَلَ. سَكَدْتُ: التَّصَقَّتْ وَلَزِمَتْ. قَيْدَ عِيَانِي: غَرَضُ نَظْرِي، أَيْ قَيْدَتْ نَظْرِي فِيهِ. انْقَضَتْ: تَمَّتْ. حَقَّتِ الْوُثْبَةُ، أَيْ وَجِبَتْ الْقَفْزَةُ إِلَيْهِ. خَفَقْتُ: أَسْرَعْتُ. تَوَسَّمْتُهُ: نَظَرْتُهُ. التَّحَامُ: التَّصَاقُ وَانْغِلَاقُ. أَلْمَعِيَّتِي: ذِكَايِي وَصَدَقَ ظَنِّي، وَالْأَلْمَعِي، هُوَ الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ، وَلَا يَخْطِئُ، وَهُوَ الْيَلْمَعِي مِنَ اللَّمْعَانِ، كَأَنَّهُ يَلْمَعُ لَذِكَايِهِ وَجُودَةَ فَطَنَتِهِ، وَقَالَ أَوْسٌ: [الْمَنْسُوحُ]

الْأَلْمَعِي الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ كَأَنْ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا^(٢)

وَلَا يَبِينُ أَحَدُ الْأَلْمَعِي بِأَحْسَنَ مِمَّا بَيَّنَّهُ أَوْسٌ، فَإِذَا سُئِلْتُ: مَا الْأَلْمَعِي؟ فَأَنْشَدْتُ بَيْتَهُ تَأْتِ بِالجَوَابِ الشَّافِي.

وَالْفِرَاسَةُ، أَنْ تَنْظُرَ الشَّيْءَ فَتَسْتَدَلَّ بِظَاهِرِهِ عَلَى بَاطِنِهِ، وَبِمَا حَضَرَ عَلَى مَا غَابَ، وَقِيلَ: الْأَلْمَعِيَّةُ أَنْ تَرَى الشَّيْءَ عَلَى بُعْدٍ فَتَعْرِفَهُ وَتَحَقِّقَهُ، وَالْفِرَاسَةُ أَنْ تَرَى الرَّجُلَ بَيْنَ يَدَيْكَ فَتَحْكُمَ عَلَيْهِ بِمَا أَضْمَرَ، أَوْ بِمَا يَرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ، فَلَا أَلْمَعِيَّةَ فِي الْبَعْدِ، وَالْفِرَاسَةُ فِي

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهٍ فِي الْإِقَامَةِ بَابَ ٨٨، وَأَبُو دَاوُدَ فِي الطَّهَارَةِ بَابَ ١٢٧، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْجُمُعَةِ بَابَ ١٧، وَالنَّسَائِيُّ فِي الْجُمُعَةِ بَابَ ٢٠، وَأَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ ٤١٧/٣، ٤٣٧، ٤٣٨/٤.

(٢) الْبَيْتُ لِأَوْسِ بْنِ حَجَرٍ فِي دِيْوَانِهِ ص ٥٣، وَلِسَانُ الْعَرَبِ (حَظْرَبُ)، (لَمْعُ)، وَتَهْذِيبُ اللُّغَةِ ٢/ ٤٢٤، وَدِيْوَانُ الْأَدَبِ ١/ ٢٧٣، وَكِتَابُ الْجِيمِ ٣/ ٢١٤، وَدِيْوَانُ الْأَدَبِ ١/ ٢٧٣، وَكِتَابُ الْجِيمِ ٣/ ٢١٤، وَالْكَامِلُ ص ١٤٠٠، وَذِيلُ أَمَالِي الْقَالِي ص ٣٤، وَمَعَاهِدُ التَّنْصِيصِ ١/ ١٢٨، وَلَاوُسُ أَوْ لِبْشَرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ فِي تَاجِ الْعُرُوسِ (لَمْعُ)، وَبِلَا نِسْبَةٍ فِي مَقَائِيسِ اللُّغَةِ ٥/ ٢١٢.

القرب، وكيف اختلفت الألعمية والفراسة، فالظنّ الصادق يجمع بينهما.

[ابن عباس وبعض أخباره]

وابن عباس رضي الله عنه، هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي، يكنى أبا العباس.

ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان ابن ثلاث عشرة سنة يوم توفي رسول الله ﷺ. واختلف في السنة التي مات فيها، ما بين ثمان وستين في الأقل، وأربع وسبعين في الأكثر. وصلى عليه محمد ابن الحنفية، وقال: اليوم مات رباني هذه الأمة، وضرب على قبره فسطاط.

روي عن النبي ﷺ أنه قال: «اللهم علّمه الحكمة وتأويل القرآن»^(١)، وفي حديث آخر: «اللهم بارك فيه، وانشر منه، واجعله من عبادك الصالحين». وفي حديث آخر: «اللهم زده علماً وفقهه»^(٢)؛ وفي حديث آخر: «اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل»^(٣). وكلها أحاديث صحاح.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يحبه ويدنيه ويقربه ويشاوره، مع وفور جلة الصحابة رضي الله عنهم.

وكان ابن عمر رضي الله عنه يقول: ابن عباس فتى الكهول، له لسان سؤول، وقلب عقول.

عبد الله بن عبد الله: ما رأيت أحداً كان أعلم بالسنة، ولا أجلد رأياً، ولا أثبت نظراً من ابن عباس.

ولقد كان عمر يعدّه للمعضلات، مع اجتهاد عمر ونظرة للمسلمين.

عمرو بن دينار: ما رأيت مجلساً كان أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس، الحلال والحرام والعريّة والأنساب والشعر.

عطاء: كان الناس يأتون ابن عباس في الشعر والأنساب، وناس يأتونه لأيام العرب ووقائعها، وناس يأتونه للعلم والفقه، فما منهم صنف إلا يقبل عليهم بما يشاؤون.

مسروق: كنت إذا رأيت ابن عباس، قلت: أجمل الناس؛ فإذا تكلم قلت: أفصح الناس، فإذا تحدث قلت: أعلم الناس.

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة باب ٢٤، والترمذي في المناقب باب ٤٢، وابن ماجه في المقدمة باب ١١.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري في الوضوء باب ١٠، ومسلم في فضائل الصحابة حديث ١٣٨، وأحمد في المسند ١/٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥.

(٣) راجع التخرّيج السابق.

أبو وائل: خَطَبْنَا ابن عباس رضي الله عنهما، وهو على الموسم، فافتتح سورة، فجعل يقرأ ويفسر، فجعلت أقول: ما رأيتُ ولا سمعتُ كلام رجل مثله، لو سمعته فارس والترك والروم لأسلمت.

طاوس: أدركت نحو خمسمائة من أصحاب رسول الله ﷺ، إذا ذكروا ابن عباس خالفوه، فلم يزل يقودهم حتى ينتهوا إلى قوله:

ابن مسعود: نِعْمَ تِرْجَمَانُ القرآن ابن عباس، ولو أدرك أسناننا ما عاشره منّا رجل.
يزيد الأصم: خرج معاوية حاجًّا، ومعه ابن عباس، فكان لمعاوية موكب، ولابن عباس موكب ممّن يطلب العلم.

القاسم بن محمد: ما رأيتُ في مجلس ابن عباس باطلاً قطّ، وما سمعت فتوى أشبه بالسنة من فتواه.

وكان أصحابه يسمونه الحَبْر والبَحْر. وذكر أبو العباس في الكامل أن عمر بن أبي ربيعة أنشده قصيدته: [الطويل]

أَمِنْ آلِ نَعِمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبَكَّرُ غَدَاةٍ غَدٍ أَمْ رَائِحٍ فَمَهْجَرُ^(١)

فحفظها مَنْ سمعها، وهي ثمانون بيتاً.

مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: رأيتُ جبريل عليه السلام عند النبي ﷺ مرتين، ودعا لي بالحكمة رسول الله ﷺ مرتين.

وروى عنه أنه رأى رجلاً مع النبي ﷺ فلم يعرفه، فسأل عنه النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: أرايته؟ قال: نعم، قال: ذاك جبريل، أما إنك ستفقد بصرَكَ؛ فعمي بعد ذلك في آخر عمره، وهو القائل في ذلك - ويروى لحسان رضي الله عنهما: [البسيط]

إِنْ يَأْخُذِ اللَّهُ مِنْ عَيْنِي نَوْرَهُمَا فِي لِسَانِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورُ^(٢)

قَلْبُ ذِكِّي وَعَقْلُ غَيْرِ ذِي دَخَلٍ وَفِي فَمِي صَارَمٌ كَالسَيْفِ مَأْثُورُ

نظر إليه الحطيئة في مجلس عمر رضي الله عنهما، فقال: مَنْ هذا الذي برع الناس بعلمه، ونزل عنهم بسنّه؟ ف قيل له: عبد الله بن عباس.

وقال فيه حسان بن ثابت رضي الله عنهما: [الطويل]

إِذَا مَا ابْنُ عَبَّاسٍ بَدَا لَكَ وَجْهُهُ رَأَيْتَ لَهُ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ فَضْلًا^(٣)

(١) البيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٩٢، وهو بلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٣٢٦.

(٢) البيتان في ديوان حسان بن ثابت ص ١٦٥.

(٣) الأبيات في ديوان حسان بن ثابت ص ٣٥٩.

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل
بمنتطحات لا ترى بينها فضلاً
كفى وشقى ما في النفوس ولم يدغ
لذي إزبة في القول جداً ولا هزلاً
سموت إلى العليا بغير مشقة
فنلت ذراها لا ذليلاً ولا وُغلاً

ونظر إليه معاوية يوماً يتكلم معه، فأتبعه بصره، فقال متمثلاً: [الطويل]

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل
مصيب ولم يشن اللسان على هُجر
يصرف بالقول اللسان إذا انتحى
وينظر في أعطافه نظر الصَّفر
وروي أن طائراً أبيض خرج من قبره، فتأولوه علمه خرج إلى الناس.

وقيل: دخل قبره طائر أبيض، ف قيل: هو بصره.

وقال أبو الزبير: مات ابن عباس رضي الله عنهما بالطائف، فجاء طائر أبيض فدخل في نعشه حين حُمِل، فما رثي خارجاً منه.

وفضائله كثيرة مشهورة، فلنقف منها على هذا القدر.

[إياس القاضي]

وأما إياس، فهو أبو وائلة بن معاوية بن قرة بن إياس بن هلال بن رباب المزني، قاضي البصرة. وسبب قضائه أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كتب إلى عدي بن أرطاة عامله على البصرة؛ أن اجمع إياس بن معاوية المزني والقاسم بن ربيعة الحارثي، فول القضاء أنفذهما وأفقههما. فجمع بينهما، فقال كل واحد: إن صاحبه أنفذ وأفقه، فقال له إياس: سل عني وعن القاسم فقيهي المصير: الحسن وابن سيرين - وكان القاسم يأتيهما وإياس لا يأتيهما - فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به، فقال القاسم: لا تسأل عني ولا عنه؛ فوالله الذي لا إله إلا هو؛ إن إياساً لأفقه مني، فإن كنت كاذباً فما عليك إلا ألا توليني وأنا كاذب، وإن كنت صادقاً فينبغي لك أن تقبل قولي. فقال له إياس: إنك جئت برجل، فوقفته على شفير جهنم، فنحي نفسي منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها، وينجو مما يخاف، فقال له عدي: أما إنك إذ فهمتها فأنت لها؛ فاستقضاه.

وقال إياس رحمه الله: أرسل إلي ابن هبيرة فأتيته، فسألني فسكت، فلما أطلت قال: هيه! قلت: سل عما بدا لك، قال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: أتفرض الفرائض؟ قلت: نعم، قال: أتعرف من أيام العرب شيئاً؟ قلت: نعم، قال: أتعرف من أيام العجم شيئاً؟ قلت: أنا بها أعرف، قال: إني أريد أن أستعين بك على عملي، قلت: إن في خصالاً ثلاثاً لا أصلح معها للعمل، قال: ما هي؟ قلت: أنا دميم كما ترى، وأنا عيى، وأنا حديد، قال: أما دمامتك فإني لا أريد أن أحاسن بك الناس، وأما العي فإني أراك تُغرب عن نفسك، وأما الحدة فإن السوط يقومك، قم. فولاني القضاء، وأعطاني عشرة آلاف درهم، فهي أول مال تمولته.

ودخل عليه عدي بن أرطاة في مجلس القضاء - وعدي أمير البصرة، وكان أعرابي الطبع - فقال: يا هناء، أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط، قال: فاسمع مني، قال: للاستماع جلست، قال: إني تزوجت امرأة، قال: بالرِّفاء والبنين، قال: وشرطت لأهلها ألا يخرجها من بينهم، قال: أوف لهم بالشرط، قال: فأنا أريد الخروج، قال: في حفظ الله، قال: فاقض بيننا، قال: قد فعلت، قال: فبِمَ تحكم؟ قال: بالأُ تخرجها، قال: بشهادة مَنْ؟ قال: بشهادة ابن أخت خالتك.

وأول ما ظهر من ذكائه، أنه دخل دمشق، وهو غلام، فتحاكم مع شيخ عند قاضيهما، فصال إياس بخُدته على الشيخ، فقال له القاضي: إنه شيخ كبير، فحُفِّض كلامك، فقال له إياس: الحقُّ أكبرُ منه، فقال له القاضي: أسكت، فقال: ومن ينطق بحجتي؟ فقال له القاضي: ما أراك تقول حقاً، فقال إياس: لا إله إلا الله، أحقُّ هذا أم باطل؟ فدخل القاضي من فوره إلى عبد الملك بن مروان، فأعلمه بما رأى من ذكائه، فقال له عبد الملك: أخرج فاحكم بينهما، وأخرجهُ الآن من دمشق إلى بلاده لئلا يُفسد على أهل الشام.

ولما دخل عبد الملك البصرة رأى إياساً وهو صبيّ، وخلفه أربعة من القراء أصحاب الطيالة، وإياس يقدّمهم، فقال عبد الملك: أف لهذه العثانين؟ أما فيهم شيخٌ يقدّمهم غير هذا الحدث! ثم التفت إليه، وقال: كم سنُّك؟ فقال: سنّي - أطال الله بقاء الأمير - سنُّ أسامة بن زيد بن حارثة حين ولّاه رسول الله ﷺ جيشاً فيهم أبو بكر وعمر؛ فقال: تقدّم بارك الله فيك، وكان سنُّه سبع عشرة سنة.

وأما ذكاؤه وفراسته، فقد ألّف في ذلك المدائني كتاباً سمّاه كتاب «زكّن إياس»، والزكّن: التشبيه، يقال: زكّن عليهم وزكّم: شبّه وخيّل، وقيل: الزكّن: الظنّ والفرش. ومن زكّنه أنه اختصم إليه رجلان في قطيفتين: حمراء وخضراء، فقال أحدهما: دخلت الحوض لأغتسل ووضعت قطيفتي، ثم دخل واغتسل، فخرج قبلي، وأخذ قطيفتي، فتبعته، فزعم أنها قطيفته، فقال: ألك بيّنة؟ قال: لا، قال: اثنوني بمُشط، فأُتي به، فسرح رأس هذا، ثم هذا، فخرج من رأس أحدهما صوف أحمر، ومن رأس الآخر أخضر، ففُضِيَ بالأخضر لصاحب الأخضر، وبالأحمر لصاحب الأحمر.

وأتى المدينة فصلّى في مسجد رسول الله ﷺ، فزكّنه أهله حتى صاروا فرقتين: فرقة تزعم أنه معلم، وأخرى تزعم أنه قاض، ثم وجّهوا إليه رجلاً، فأخبره خبرهم، فقال: أصاب الذين ذكروا أنني قاض، ورويداً أخبرك عن القوم؛ أما الذي من صفته كذا فهو كذا، وأما الذي يليه فهو كذا، وأما ذاك الشيخ فإنه نجار، فقال الرجل: في كلّهم والله أصبت إلا في الشيخ، فإنه من قريش، فقال إياس: وإن كان من قريش! فقام الرجل إلى أصحابه، فقال: قد جئتكم من عند أعجب الناس، والله إن منكم من أحدٍ إلا أخبرني

بصناعته إلا هذا فزعم أنه نجار، فقال: صدق والله؛ إني لأنجر عيدان جوارِي - يعني عود المزمار.

ونظر إلى ثلاث نسوة فزعن من شيء، فقال: هذه حامل، وهذه مرضع، وهذه بكر، فسئِلن فوجِدْنَ كذلك، فسئِل من أين لك علم ذلك؟ فقال: لَمَّا فَرَعْنِ وضعت كل واحدة منهن يدها على أهم المواضع لها، فوضعت المرضع على ثديها، والحامل على بطنها، والبكر على فَرْجها.

وسمع نباح كلب لم يره، فقال: هذا نباح كلب مربوط على شفير بئر، فنظر فكان كما قال، فقليل له في ذلك، فقال: سمعت عند نباحه دويًا، ثم سمعت بعده صدَى يجيبه، فعلمت أنه عند بئر.

ومن فراسته أنه رأى أثر اعتلاف بعير، فقال: هذا بعير أعور، فنظروا فكان كما قال، فقليل له في ذلك، فقال: لأنني وجدت اعتلافه من جهة واحدة.

ولما صار ذكاؤه يضرب به المثل، كما يضرب بجود حاتم وحلم الأحنف وشجاعة عمرو بن معد يكرب، نظمهم حبيب في بيت جمع فضلهم المتفرق للعباس بن المأمون، فقال: [الكامل]

إقدامُ عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس^(١)
وتوفي سنة اثنتين وعشرين ومائة وأخباره كثيرة، وفيما أوردناه كفاية.

فَعَرَفْتُهُ حِينَئِذٍ شَخْصِي؛ وَآثَرْتُهُ بِأَحَدِ قُمْصِي، وَأَهَبْتُ بِهِ إِلَى قُرْصِي، فَهَسَّ لِعَارِفَتِي وَعِرْفَانِي، وَلَبَّى دَعْوَةَ رُغْفَانِي، وَانْطَلَقَ وَيَدِي زِمَامُهُ، وَظَلِّي إِمَامُهُ، وَالْعَجُوزُ ثَالِثَةُ الْأَثافي، وَالرَّقِيبُ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِي. فَلَمَّا اسْتَحْلَسَ وَكُنْتِي، وَأَخْضَرْتُهُ عُجَالَةً مُكْنَتِي، قَالَ لِي: يَا حَارِثُ، أَمَعْنَا ثَالِث؟ فَقُلْتُ: لَيْسَ إِلَّا الْعَجُوزُ، قَالَ: مَا دُونَهَا سِرٌّ مَحْجُوز. ثُمَّ فَتَحَ إِخْدَى كَرِيمَتِيهِ، وَرَأَوُا بَتْوَةً مَتِيهِ، فَإِذَا سِرَاجًا وَجْهِهِ يَقْدَانِ، كَأَنَّهُمَا الْقَرْقَدَانِ. فابْتَهَجْتُ بِسَلَامَةٍ بَصَرِهِ، وَعَجِبْتُ مِنْ غَرَائِبِ سِيرِهِ، وَلَمْ يُلْقِنِي قَرَارًا، وَلَا طَاوَعَنِي اضْطِبَارًا، حَتَّى سَأَلْتُهُ: مَا دَعَاكَ إِلَى التَّعَالِي؛ مَعَ سَيْرِكَ فِي الْمَعَامِي، وَجَوِّكَ الْمَوَامِي، وَإِغْيَالِكَ فِي الْمَرَامِي!

قوله: «أهبت به»، أي دعوته، وأصل «أهاب» دعا لنفسه من بعد. وقيل: الإهابة

(١) البيت في ديوان أبي تمام ص ١٧٤.

دعاء الإبل للشرب . والقُرْص : رغيف صغير سُمِّيَ قرصاً ، كأنه قرص من العجين ، أي قُطِع ، والتقريص : التقطيع . هَشَّ : خف فرحاً . والعارفة ، يريد النعمة وهي المعروف . لَبَّى : أجاب وقال : لبيك ، ومصدره تلبية وهي «تفعلة» ، من الإلباب وهو اللزوم ، ولَبَّ بالمكان وألَبَّ به : أقام ، وأصله لَبَّب بثلاث باءات ، فأبدلوا الآخرة ياء استثقلاً لاجتماع الأمثال ، كما قالوا : تَظَنِّيتَ وتمَطَّيتَ ، فالياء فيهما بدل من مثل الحرف الذي قبلها ، ثم أتبعوه الإبدال في المصدر وهو تلبية ، فياؤه باء ، وقولهم : لبيك ، معناه إجابةً بعد إجابة ، ولزوماً لطاعتك بعد لزوم . رُغِفَان : جمع رغيف ، يريد أنه لما سمع بذكر الخبر ، فكأنَّ الخبر دعاه فأجابه . زمامه : مقوده . إمامه : هاديه . الأثافي : حجارة القِدر ، وهي ثلاث ، والعرب تقول : رماه الله بثلاثة الأثافي - يعنون بها الجبل ، لأنهم يجعلون حَجَرَيْن ويلصقونهما بالجبل ، فيقوم الجبل مقام الحجر الثالث ، واحداثها أَثْفِيَةً بالتشديد ، وقد تُخَفَّفُ ، وقد أَثْفَيْتَ القدر وأَثْفَيْتَها وثَفَيْتَها ، وتسمي العرب أثافيَّ الحديد المِنْصَب . الرقيب : الحافظ ، يريد الله تعالى . استحلَسَ وكُنْتِي ، أي دخل ، بيتي ، وجلس على جِلْسِهِ ، وهو ما يُبْسَط تحت بسطه ؛ يقيها الأرض ، وفلان جَلَسَ بيته ، أي لازم القعود فيه ، وفي الحديث : «كن في الفتنة جَلَسَ بيتك»^(١) ، أي لا تدخل فيها ، والجَلَس : كساء يلي ظهر البعير تحت البرذعة ويلزمه ، فشبه الذين يعرفون الشيء ويلزمونه بالجَلَس ، ومنه قولهم : لست من أحلاسها ، أي من أصحابها العارفين بها . ومنه بنو فلان أحلاس الخيل ، أي الذين يضمُّرونها ويلزمون ظهورها ، وأحلاس القوافي : المجيدون في نظم الشعر ، والوُكُنَّة : الثقبه في الحائط يسكنها الطائر ، وقيل : هي الموضع من الشجرة وغيرها ، يقع عليه للمبيت ، وهي الوُكُن ، ووَكَنَ الطائرُ وَكُنًا ، فهو واكن إذا حضن على فرخه ، فلزم وَكُنْتَهُ . عُجَالَة مُكُنْتِي : ما تعجَّل وأمكن من الطعام . محجوز : ممنوع ، وحجزت الشيء : حرزته ومنعته ، وحجزت بين الشيئين حجزاً ، فأنا حاجر ، إذا جعلت بينهما حائلاً ، والمفعول محجوز ، ومنه الحِجَاز ؛ لأنها أرض حجزت بين نجد والسَّراة . كريمته : عينيه ، وفي الحديث قال النبي ﷺ : «ما من عبد أذهب الله كريمته إلا كان ثوابه عند الله الجنة» قالوا : وما كريمته؟ قال : عيناه^(٢) . رأراً : قَلْبَهُما وأدارهما إدارة كثيرة . وتوأمتاه : كريمته ، وقوله : «مسح كريمته» ، يريد أنه حكَّهما بكفِّه ، فانفض عنهما ما كان ألصقهما به ، حتى التحما . وقيل : رأراً : أدار العين وحدَّدَ نظرها . وتوأمتاه : عيناه ، وفي الغريب المصنَّف : رأراتِ المرأةَ بعينها ولآلات ، إذا برقت عَيْنُها ، وأنشد ابن الأعرابي : [الطويل]

(١) أخرجه أبو داود في الفتن باب ٢ ، والدارمي في المقدمة باب ٢٧ ، وأحمد في المسند ٤/٤٠٨ ، جميعهم برواية : «كونوا أحلاس بيوتكم» .

(٢) روي بطرق وأسانيد متعددة أخرجه الترمذي في الزهد باب ٥٨ ، وأحمد في المسند ٣/٢٨٣ ، ٥/٣٦٦ ، ٢٥٨ .

عجبت من الحُور الكريم نجارها تُرأىء بالعينين للرجل الحِبل^(١)

الحِبل: الداهية. الفرقدان: نجمان مُنيران في بنات نعش. ابتهجت: فرحت. سِيره: عاداته. يُلْقِنِي قرار: يحبسني سكون وطمأنينة. التَّعامي: استعمال العمى. المعامي: الطرق المجهولة، وقيل: القفار البعيدة التي تعمى فيها الآثار فلا يُهتدى فيها. الموامي: القفار، واحدها مَوْماة. إيغالك: إبعادك ومبالغة دخولك. المرامي: المقاصد والبلاد التي ترميه إلى بلاد أخرى؛ يقول: سألت ما الذي دعاك إلى استعمالك العمى مع دخولك لطلبك الرزق في المشقات وجُوب البلاد البعيدة، فلم تجدْ لنفسك حيلة حتى تشبَّهت بالعميان!

فَتَظَاهَرَ بِاللُّكْنَةِ، وَتَشَاغَلَ بِاللُّهْنَةِ، حَتَّى إِذَا قَضَى وَطَرَهُ، أَتَارَ إِلَيَّ نَظْرَهُ؛
وَأَنْشَدَ: [الطويل]

وَلَمَّا تَعَامَى الدَّهْرُ وَهُوَ أَبُو الْوَرَى عَنِ الرُّشْدِ فِي أَنْحَائِهِ وَمَقَاصِدِهِ
تَعَامَيْتُ حَتَّى قِيلَ إِنِّي أَخُو عَمَى وَلَا عَزَرَ أَنْ يَخْذُوا الْفَتَى حَذَوُ وَالِدِهِ
ثُمَّ قَالَ لِي: انْهَضْ إِلَى الْمُخْدَعِ فَاتْنِي بِغُسُولِ يَرُوقِ الطَّرْفِ، وَيُنْقِي الْكَفَّ،
وَيُنْعِمُ الْبَشْرَةَ، وَيُعْطِرُ النُّكْهَةَ، وَيَشُدُّ اللَّثَّةَ، وَيَقْوِي الْمَعْدَةَ، وَلِيَكُنْ نَظِيفَ الطَّرْفِ،
أَرِيحَ الْعُرْفَ، نَقِي الدَّقَّ، نَاعِمَ السَّخْقِ، يَخْسِبُهُ اللَّامِسُ دُرُوراً، وَيَخَالُهُ النَّاشِيقُ
كَافُوراً، وَاقْرَأْ بِهِ خِلَالَ نَقِيَّةِ الْأَصْلِ، مَحْبُوبَةِ الْوَصْلِ، أَيْقَةِ الشَّكْلِ، مَدْعَاةً إِلَى
الْأَكْلِ؛ لَهَا نَحَافَةُ الصَّبِّ، وَصَقَالَةُ الْعُضْبِ، وَآلَةُ الْحَرْبِ، وَلَدُونَةُ الْغُضَنِ الرَّطْبِ.

تظاهر: استعان. واللُّكْنَةُ: احتباس اللسان؛ يريد: لما امتلأ فمه بالطعام - لم يتسرح لسانه بالكلام، فوجد بذلك علةً لقطع الجواب، فكان اللُّكْنَةُ أعانته على ذلك. اللُّهْنَةُ: الطعام المعجل للضيف قبل الغداء، وكل ما تعجلته قبل إدراك الطعام لهنة، ولهُنَّتِ الضيف: عللته بذلك. قضى وطره؛ أتم حاجته من الأكل، والوطر: المراد، ولا فعل له. أثار: تابع نظره وحدده. الوری: الخلق. أنحائه: أغراضه ومقاصده، والتحو كالقصد. لا غزو: لا عجب. يحدو حدوه: أي يفعل فعله.

(١) يروى صدر البيت:

فيا عجباً للخود تبدي قناعها

والبيت بلا نسبة في لسان العرب (حبل)، وتهذيب اللغة ٧٨/٥، وتاج العروس (حبل).

[مما قيل في العمى شعراً]

وهذا الاعتذار عن التعامي حسن، وقد تقدم اعتذار ابن عباس رضي الله عنهما عنه .
ومما يعزى للحضري في ذلك : [الوافر]

وقالوا قد عميت فقلت كلاً
سواد العين زار سواد قلبي
فإني اليوم أبصر من بصير
ليجتمعاً على فهم الأمور

أخذه من قول بشار : [الطويل]

إذا وُلِدَ المولود أعمى وجدته
عميتُ جنيناً والذكاء من العمى
وغاز ضياء العين للقلب فاغتدى
وشعر كنوز الروض لامت بينه
وجدك أهدى من بصير وأخولاً
فجئت عجيب الظن للعلم معقلاً
بقلب إذا ما ضيع الناس حصلاً
بقول إذا ما أخزن الشجر أسهلاً

وقال بشار : [مخلع البسيط]

قالوا العمى منظر قبيح
تالله ما في البلاد شيء
قلت بفقدي لكم يهون
تأسى على فقده العيون

وعكس هذا المعنى أبو العيناء حين سأله المتوكل : ما أشد ما عليك في ذهاب
بصرك؟ قال : ما حرمة يا أمير المؤمنين من رؤيتك مع إجماع الناس على جمالك .
ومما يستملح من هذا الباب : نشأ أعمى بين أعورين ، فإذا مشياً أو قعدا ، فحاذى
عور هذا عور هذا نشأ بينهما أعمى .

وقال المتنبي يمدح العور ويذمه في بيت واحد : [الوافر]

أيا ابن كرويس يا نصف أعمى وإن تفخر فيا نصف البصير^(١)

فإذا انضم ابن كرويس إلى مثله نشأ بينهما أعمى ، قال الشاعر : [البسيط]

وبيئنا أبداً أعمى نؤلفه قد يخلق الله عميانا من العور

وقال آخر : [الوافر]

ألم ترني وعمراً حين نغدو إلى الحاجات ليس لنا نظير
أسايره على يمتى يديه وفيما بيننا رجل ضرير

وقال آخر في أعور وعوراء تعاشقا : [الخفيف]

هي عوراء باليمين وهذا أعورُ بالشَّمال وافق شأنا
بين شخصيهما ضريراً إذا ما قعدت عن شماله تتغنى

فأما قول جميل الشكري في صفة الذئب: [الطويل]

وأعور من يمناه إن شاء مرة وإن شاء من يسراه ما كان راقداً
لقد فزت دون العور - أوس - برتبة وأعطيت نابا يفلق الصخر بارداً
فإنما وصفه بشدة الحذر، وذكر العور على معنى الاستعارة كما قال حميد بن ثور: [الطويل]
ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

وقال ابن المعتدل: [المديد]

أشتهي في المقلة القبلا لا كثيراً يشبه الحولاً
واحمرار الخد من خجل إنني أستحسن الخجلاً

وقال آخر: [مجزوء الرجز]

وأحول ذي حرَّكته يملأ بيتي برَّكة

يريد أنه يرى من الشيء اثنين، كما قال الآخر: [البسيط]

فقد جعلت أرى الشخصين أربعة والواحد اثنين ممَّا بورك البصر
لأن هذا يصف الكبير.

واعتذر القاضي أبو محمد عبد الوهاب عن الحول فأحسن، حيث يقول: [الطويل]

حمدت إلهي إذ بُليت بحبها وبني حول يغني عن النظر الشَّزُر
نظرت إليها والرَّقيب يظنني نظرت إليه، فاسترحت من العذر

فحوله رفع عنه ثقل مؤنة التكلف الذي ذكر الآخر حين قال: [الطويل]

ولمَّا التقينا والعيون نواظر وليس لنا رسل سوى الطَّرْفِ للطَّرْفِ
تنزهت في خديك من نظر خفي وما زلت أخفي الودَّ ضعفاً على ضعفي
فإن غفل الواشون فزت بنظرة وإن نظروا نحوي نظرت إلى كفي

فلذلك حمِد الله على الحول.

وقال الناشي في هذا المعنى فأحسن: [الكامل]

يتناقلان اللفظ من جفنيهما فكأنما يتناسخان كتاباً
وإذا سهت عينُ الرقيب تخالست كفاهما خلس السلام سيلاباً

وللقاضي أبي محمد عبد الوهاب، أنشدنا بعض أشياخنا البيت الثاني والأخير من القطعة التالية، وكان كثيراً ما يحرضنا بها على الطلب، ويسلّتنا عن الغربة: [الطويل]

ومحجوبة في الخدر عن كل ناظرٍ ولو برزت بالليل ما ضلّ مَنْ يسري
أقول لها والدّمع يغلب صبرها أعدّي لفقدي ما استطعت من الصبر
سأنفق زرعان الشبيبة أنفاً على طلب العلياء أو طلب الأجر
أليس من الحرمان أن ليالياً تمرّ بلا نفع وتحسب من عمري!

ولم ينشدنا البيت الأول ولا الأوسط، وهما من القطعة.

وأما كلام الحريري الذي فرغنا من شرحه؛ فهو منقول من مقامة البديع، يقول على لسان عيسى بن هشام: «ثم فارقه وتبعته، وعرفت أنه متعام لسرعة ما عرف الدينار. فلما نظمنا حلوة، مددت يميني إلى يسرى عضديه، فقلت: والله لتريني سرّك، أو لأهتكّن سترك، ففتح عن توأمتيه، وحذر لثامه عن وجهه، فإذا والله أبو الفتح الإسكندري، فقلت له: أنت أبو الفتح؟ فقال: [مجزوء الرمل]

أنا أبو قلمون في كل لون أكون
اختر من الكسب دوناً فإن دهرك دون
زجّ الزمان بحمي إن الزمان زبون
لا تكذب بعقل ما العقل إلا الجنون

وعتب الحريري على العمى فائق في النثر، وشعره في الاعتذار عنه رائق في النظم، وهو على انطباعه في القصد إذا أتى بالبيتين أتى بالعجب، وهو في ذلك كما قيل في أبي منصور الفقيه: إذا رمى بزجّة قتل.

قوله: «المخدع»، هو بيت داخل بيت، قال ابن الأنباري: هو الخزانة في جانب البيت، وهو من خدع، إذا توارى واستتر، وأخدعه إخداعاً: أخفاه، فمن ضمّ ميم «مخدع» فهو من «أخدع»، ومن فتح فهو من «خدع»، وخدع الصب في جحره خدعاً: دخله خوفاً من صائده. الغول: الأشنان، وهو النقاوة، ويقال أيضاً: الغاسول، وكل ما غسلت به ثوبك أو رأسك فهو غسل وغسول. يزوق: يعجب. الطرف: العين. ينق: ينظف. والبشرة: ظاهر الجلد. والنكهة: رائحة الفم، ونكهت الرجل أنكهه وأنكهه - والفتح أقل - واستنكهته، كله شممت فاه، قال الشاعر: [الوافر]

نكهت مجالداً فشمت منه كريح الكلب مات حديث عهد^(١)

(١) البيت للحكم بن عبدل في الحيوان ٢٥١/١، وبلا نسبة في لسان العرب (جلد)، (نجا)، (نكه)، =

واللثة: اللحم على الأسنان. نظيف الظرف: نقي الوعاء. أريج العرف: عطر الرائحة، والأرج: فوح الطيب وأرج المسك: فاح. فتى الدق: طري الكسر. ناعم: حسن، قد بولغ في سحقه، يريد أنه في الحال الذي يسحق يستعمل. الناشق: الشام. والذرور والكافور: من أنواع الطيب، والذرور هو المعروف بالذريرة، والذرور أيضاً: غبار يُذَرّ في العين، وكلّه مأخوذ من الذر، وهو التفرق، لأن أجزاءه تفرقت عند سحقه، وفعله ذر، وأصله ذرر والكافور مأخوذ من الكفر، وهو التغطية، فليشدة فوجه وحده يستر رائحة غيره من الطيب. واللامس: الذي يمسه بيده. الخلالة: عويد رقيق يخرج به الطعام من خلل الأسنان. أنيقة الشكل، معجبة الهيئة، وشكل الشيء: هيئته التي هو عليها. ومدعاة: داعية، والهاء للمبالغة. نحافة الصب: رقة العاشق. والعضب: السيف القاطع. آلة: عدة وأداة، يريد أنها محددة مصقولة مثل آلة الحرب. ويروى «آلة» بالتشديد، وهي الحربة. لدونة: لين. نحافة الصب: ليس هو تشبيهاً حقيقياً، وإنما أراد أنها أخذت من العاشق نحافته، ومن العضب صقالته، ومن الغصن لدونته، ولو شبه الخلالة في الرقة بالعاشق ونحوه لكان جائزاً، وكان من التشبيه المقلوب، وكلاهما بديع في بابه.

والخلالة التي ذكر، أصلها نبات لشجير ينبت في الصيف، وتطلع له رؤوس، يكون في الواحد منها عدة من قضبان رقاق، فيمسك الرجل منها في جيبه رأساً، فمتى أكل طعاماً نزع منها قضيباً فتخلل به، ويعرف هذا النبات عندنا بالبستينج، فيحتمل أن يكون هذا بعينه هو الذي عندهم في المشرق، وإلا فصفته التي وصفت موجودة في البستينج من الرقة والصفاء واللين والحدة.

وجاء في الحديث التهي عن التخلل بعود الآس والزمان والقصب، وقال رسول الله ﷺ: «نقوا أفواهكم بالخلال فإنها مسكن الملكين الكاتبين الحافظين، وإن قلمهما اللسان، ومدادهما الريق، وليس عليهما شيء أشد من فضول الطعام».

أبو أيوب: قال ﷺ: «حبذا المتخللون في الوضوء والطعام»^(١).

أبو هريرة قال: قال ﷺ: «من أكل فليتخلل، فما تخلل فليلفظ، ومالأك بلسانه فليتلع»^(٢).

= وكتاب العين ٣/٣٨٠، ٦/١٨٦، والمخصص ١١/٢٠٩، وتهذيب اللغة ٦/٢٤، ١١/٢٠٠، ومجمل اللغة ٤/٣٨٣، وتاج العروس (جلد)، (نكه)، (نحو)، ويروى: «قريب عهد» بدل «حديث عهد».

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/٤١٦.

(٢) أخرجه الدارمي في الوضوء باب ٥، والأطعمة باب ٤٢، وأبو داود في الطهارة باب ١٩، وابن ماجه في الطهارة باب ٢٣، وأحمد في المسند ٢/٣٧١.

[أشعار في التشبيه]

والخِلالة إذا بلغت من رقتها، أن تقع بين الأسنان، فالعاشق إذا بلغ الغاية التحول، هو الذي يشبه بها، كما قال في التاسعة في وصف الصبي الهزيل من الجوع: «ولي منه سُلالة، كأنها خِلالة»، وأخذه من قول ديك الجن: [الخفيف]

ارحِمِ اليوم ذَلَّتِي وخُضُوعِي فلقد صرت ناحلاً كالخِلالِ

وقال أبو الطيّب: [البسيط]

رُوحٌ تَرَدَّدَ في مثل الخلال إذا أطارت الريح عنه الثوب لم يَبِين^(١)

فذكر أن ثوبه على بدنٍ لم يتبين للناظر. والتشبيه المقلوب عندهم شيء مستظرف، ومذهب مستحسن كما قال ذو الرمة: [الطويل]

ورملٍ كأوراك العذارى قطعته وقد جَلَّلته المظلماتُ الحنادِسُ^(٢)

فقلب التشبيه، لأن العادة أن تشبه الأعجاز بكثبان الرمل، كما قال الآخر: [الرجز]

* مثل قضيبٍ تحته كُثيبٌ *

وكما قال الآخر: [الطويل]

وبيضِ نضيراتِ الوجوه كأنما تأزَّرن دون الأزرِ رملاتٍ عالِجٍ
وأخذه حبيب، وجود الصنعة حيث قال:

كم أحرزت قُضْبَ الهندي مصلته تهتز من قُضْبٍ تهتز من كُثْبٍ

علق قوله: «من قُضْبٍ تهتز» بـ «أحرزت» يلج لك بديع صنعته بسرعة، فإنه أراد: كم أحرزت قُضْبَ الهند وهي السيوف إذا أُضِلَّت من أغمادها، وهزّت. من قُضْبٍ، أي قدود نساء. تهتز من كُثْبٍ، أي أكفال شبه أكداس رمال.

وما أعذب وأظرف قول البحري: [الكامل]

أين الغزال المستعير من الثَّقَا كَفَلًا ومن نَوْرِ الأقاحي مبسما^(٣)

فهذا هو الذي جرت به العادة؛ في التشبيه، فقلب ذو الرمة العُرف والعادة فشبه كثبان الثَّقَا بأكفال النساء، وتبعه خالد الكاتب وغيره.

(١) البيت في ديوان المتنبي ١٨٦/٤.

(٢) يروى عجز البيت:

إذا البسته المظلمات الحنادِسُ

وهو في ديوان ذي الرمة ص ١١٣١، ولسان العرب (ورك)، (جمل)، وتاج العروس (ورك).

(٣) البيت في ديوان البحري ص ١٩٥٨.

حدث جحظة قال : حدثني خالد الكاتب ، قال : جاءني يوماً رسول إبراهيم بن المهدي ، فسرت إليه ، فرأيت رجلاً أسود على فُرْشٍ قد غاص فيها ، فاستجلسني وقال : أنشدني من شعرك ، فأنشدته : [الطويل]

رأت منه عيني منظرين كما رأته من الشمس والبدر المنير على الأرض
عشيّة حيائي بوردٍ كأنه خدود أضيفت بعضهن إلى بعض
ونازعني كأساً كأن حبابها دموعي لما صدّ عن مُقلتي غمضي
وراح وفعل الرّاح في حركاته كفعل نسيم الريح في الغصن الغضّ

فرحفت حتى صار في ثلثي الفراش ، وقال : يا فتى ، شبهوا الخدود بالورد ، وأنت شبهت الورد بالخدود ! فزدني ، فأنشدته : [مجزوء الكامل]

عاتب نفسي في هوا ك ف لم أجدها تقبل
وأطعت داعيها إلي لك ولم أطع من يغذل
لا والذي جعل الوجو ه لحسن وجهك تمثّل
لا قلت إن الصبر عث لك من التّصابي أجمل

فرحفت حتى انحدر من الفراش ، ثم قال : زدني ، فأنشدته : [الوافر]

عش فحُبّيك سريعاً قاتلي والصّنى إن لم تصلني وأصلي
فأنا بين اكتئابٍ وضئى تركاني كالقضيبي الدّابل
فبكى العاذل لي من رحمة فبكائي لبكاء العاذل

فاستخفت طرباً ، ثم قال : يا بليق ، كم معك لنفقتنا ؟ قال : ثمانمائة وخمسون ديناراً ، قال : اقسما بيني وبين خالد ، فدفع إلي نصفها :

وقد سبق إلى قوله : «كأنه خدود» ، قال المفضل : دخلت على الرشيد وبين يديه طبق ورد ، وعنده جارية مليحة شاعرة أدبية ، قد أهدت إليه ، فقال : يا مفضل ، قل في هذا الورد شيئاً تشبّه به ، فأنشأت أقول : [البسيط]

كأنه خدّ معشوقٍ يقبله فم الحبيب وقد أبقى به خجلاً
وقالت الجارية : [البسيط]

كأنه لون خدي حين تدفعني كف الرشيد لأمر يوجب الغسلاً

فقال : يا مفضل قم فاخرج ، فإن هذه الماجة قد هيّجتنا ، فقمّت وأرخت الستور .

ولقد أحسن ابن الزقاق في قوله : [الخفيف]

ورياض من الشقائق أضحت تتهادى بها نسيم الرياح

زرتها والغمام يجلد منها
قلت: ما ذنبها؟ فقال مُجيباً:
زهرات تروق لَوْنُ الزَّاحِ
سرقَتْ حُمْرَةَ الخدود المِلَاحِ

وقال البحرّي: [السيط]

في طلعة الشمس شيء من ملاحظتها
وللقضيب نصيب من تشبّثها^(١)

وقال ابن المعتز: [الطويل]

سقتني في ليلٍ شبيه بشعرها
فأَمْسَيْتُ في ليلين: في الشعر والدجى
شبيهة خديها بغير رقيب
وشمسين: من خمر وخذ حبيب

وأستطرد إلى قلب التشبيه من مبالغة التحول الذي ذكرنا، فأقول: إذا صار جسم العاشق من النحول يوصف بمثل قول الشاعر: [السريع]

أنحلني الحبّ فلو زجّ بي
قد كان لي فيما مضى خاتمٌ
في مُقْلَةِ النَّائم لم ينتبه
والآن لو شئت تمنطقت به

وبمثل قول أبي بكر بن دُرَيْد: [السريع]

إنّ الذي أبقيت من جسمه
صُبابة لو أنها قطرةٌ
يا متلف الصبّ ولم يشعُر
تجول في جفنك لم تُقْطِرْ

صار جسم الخلالة على نحافته أكبر من جسم الصبّ بأضعاف، فينقلب التشبيه، وكذلك إذا بولغ في وصف الأكفال بالعظم صغرت عندها الكُتبان، فينقلب التشبيه.

وقد ترجم ابن جني في خصائصه ترجمة، فقال: هذا باب من غلبة الأصول على الفروع، ثم أنشد بعض ما أنشدنا، وقرنها بمسائل من العربية حسان تشبه الباب.

وللمتقدمين والمتأخرين في النحول شعر كثير، ويستحسن في ذلك قول المجنون:

[الطويل]

فأصبحتُ من ليلَى الغداة كناظرٍ
ألا إنما غادرت يا أمّ مالكٍ
مع الصبّح في أغقاب نجم مغربٍ^(٢)
صدى أينما تذهب به الريح يذهب

أخذه المؤمل فقال: [السريع]

قد صرتُ من ضعفي إلى حالةٍ
يكاد جسمي من نحول الضئى
تجري لها آماقُ حُسّادي
تحمله أنفاسُ عُوّادي

(١) البيت في ديوان البحرّي ص ٢٤١.

(٢) البيت لقيس بن الملوّح في ديوانه ص ٦٤، ولسان العرب (غرب)، وبلا نسبة في المخصص ١٤/١.

وزاد خالد الكاتب، فجعله لا يُدرك إلا بالوهم، فقال: [البسيط]

يا من تجاهلَ عَمَّا كان يعملُه عمدًا وباح بسرِّ كان يكتُمُه
غداً خليلك نِضْواً لا حراكَ به لم يبق من جسمه إلا تَوَهَّمُه

فزاد ابن المعتز، وجعله يخفى على الموت، فقال: [البسيط]

مُسَهَّدُ خانهِ التفریق فی أَمَلِه أضناه سَيِّدُه ظِلماً بمرتحلِه
فدقَّ حتى لو أن الدهر قَادَ له حتفًا لما أبصرته مقلتا أَجَلِه

فأعدمه المتنبي واستريح منه. فقال: [الطويل]

أراكِ حسبَ السِّلَكِ جِسمي فَعَقَّتِه عليك بدُرٌّ عَن لِقَاءِ التَّرَائِبِ^(١)
ولو قَلَمُ أَلْقَيْتُ فِي شَقِّ رَأْسِه من السَّقم ما غَيَّرْتُ من خَطِّ كَاتِبِ

قال: فَنهَضْتُ فيما أَمَر، لأذراً عَنْهُ العَمَر، وَلَمْ أَهْمْ إِلَى أَنَّهُ قَصَدَ أَن يَخْدَع، بِإِذْخَالِي المُخْدَع، وَلَا تَطَنَّنْتُ أَنَّهُ سَخِرَ مِنَ الرُّسُولِ، فِي اسْتِدْعَاءِ الْبِخْلَالَةِ وَالْعُسُولِ.

فَلَمَّا عُدْتُ بِالْمُلْتَمَسِ، فِي أَقْرَبَ مِنْ رَجْعِ النَّفْسِ، وَجَدْتُ الْجَوْ قَدْ خَلَا، وَالشَّيْخَ وَالشَّيْخَةَ قَدْ أَجْفَلَا، فَاسْتَشْطُتُ مِنْ مَكْرِهِ غَضَبًا، وَأَوْغَلْتُ فِي إِثْرِهِ طَلَبًا. فَكَانَ كَمَنْ قُمِسَ فِي الْمَاءِ، أَوْ عُرِجَ بِهِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ.

قوله: «أدرا»، أي أزيل. العَمَر: الودك. أهِم: أظن، ويذهب وهمي. تَطَنَّنْتُ: حسبت، وأبدل إحدى نوني «ظن» ياء تخفيفاً للتضعيف. سخر: هزأ. المُلْتَمَس: المطلوب. الْجَوْ هنا: داخل البيت. أَجْفَلَا: هربا وأسرعاً. قوله: «استشطت»: اشتد غضبي. مَكْرِهِ: خداعه. أَوْغَلْتُ: بالغت وباعدت. قُمِسَ: غمس. عُرج به: طلع به. عَنَان بفتح العين: سحب، والعَنَانة: السحابة، وأَعْنَت السماء: صار لها عَنان، والله الموفق للصواب.

المقامة الثامنة

وهي المعرّة

[معرّة النعمان]

هي بلدة بالشام، والثُّعْمان: اسم جبل مطّل عليها، والمَعْرَة اسم البلدة، فأضيفت إليه، ولها سبعة أبواب، وعلى جبل منها دَيْر سمعان، فيه قبر عمر بن عبد العزيز، وقبر شيث بن آدم عند باب شيث منها، وداخلها قبر يوشع بن نون، وله يوم حَفِيل في كلّ عام، وإلى المعرّة ينسب الشاعر المعرّي. قال شيخنا ابن جبّير: إنه خرج من قُتْسرين يريد حُمْص، قال: فرأينا عن يمين طريقنا بمقدار فرسخين بلاد المَعْرَة، وهي سواد كلها محاطة بشجر الزيتون والتين والفُستق وأنواع الفواكه، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين، وهي من أخصب البلاد، وأكثرها أرزاقاً، ووراءها جبل لبنان، وهو سامي الارتفاع، ممتدّ الطول، متّصل من البحر إلى البحر، وفي سفح الجبل حصون للملحدة الإسماعيليّة، فرقة مَرَقَتْ من الإسلام، وأدعت الإلهية، قيّض لهم شيطان يعرف بسنان، خدعهم بأباطيل وخيالات، وموّه عليهم باستعمالها، وسحرهم بمُحالها، فاتخذوه إلهاً يعبدونه، ويذلّون الأنفس دونه، وحصلوا من طاعته بحيث يأمر أحدهم بالتردّي من شاهق جبل، فيتردّى المأمور، والله يضل من يشاء.

أخبر الحارث بن همام قال: رَأَيْتُ مَنْ أَعَاجِبِ الزَّمَانِ، أَنْ تَقْدَمَ حَضَمَانٍ، إِلَى قَاضِي مَعْرَة النُّعْمَانِ، أَحَدُهُمَا قَدْ ذَهَبَ مِنْهُ الْأَطْيَانُ، وَالْآخَرُ كَأَنَّهُ قَضِيبُ الْبَانِ.

قوله: «الأطيان»، أي الأكل والنكاح، أي هو شيخ مسنّ، وقيل: الأطيان: النوم والنكاح، وقيل: طيب النكاح، وطيب النكحة.

أبو هريرة، قال النبي ﷺ: «الأطيان التمر واللبن»^(١).

وسئل شيخ مسنّ من العرب عن حله، فقال: ذهب مني الأطيان: السّير والأثر، وبقي الأزطبان: الضّراط والسّعال.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤٧٤/٣، بلفظ: «فإن رسول الله ﷺ سماهما الأطيين».

والبان : شجر تشبه بقضبانة القُدود الناعمة .

فَقَالَ الشَّيْخُ : أَيَّدَ اللَّهُ الْقَاضِي ، كَمَا أَيَّدَ بِهِ الْمُتَقَاضِي ، إِنَّهُ كَانَتْ لِي مَمْلُوكَةٌ رَشِيقَةُ الْقَدِّ ، أَسِيلَةُ الْخَدِّ ، صَبُورٌ عَلَى الْكَدِّ ، تَخْبُ أَخْيَانًا كَالنَّهْدِ ، وَتَرْقُدُ أَطْوَارًا فِي الْمُهْدِ ، وَتَجِدُ فِي ثَمُورِ مَسِّ الْبَرْدِ ، ذَاتَ عَقْلِ وَعِنَانٍ ، وَخَدَّ وَسِنَانٍ ، وَكَفَّ بِنَانٍ ، وَفَمٍ بِلَا أَسْنَانٍ ؛ تَلْدَغُ بِلِسَانٍ نَضْنَانٍ ، وَتَرْفُلُ فِي ذَيْلٍ فَضْفَاضٍ ، وَتُجَلَى فِي سَوَادٍ وَبَيَاضٍ ، وَتُسْقَى وَلَكِنْ مِنْ غَيْرِ حِيَاضٍ ، نَاصِحَةً خُدَعَةً ، حُبَابَةً طُلَعَةً ، مَطْبُوعَةً عَلَى الْمُتَفَعَّةِ ، وَمَطْوَاعَةً فِي الضِّيْقِ وَالسَّعَةِ ، إِذَا قَطَعْتَ وَصَلْتَ ، وَمَتَى فَصَلْتَهَا عَنْكَ انْفَصَلْتَ ، وَطَالَمَا خَدَمْتِكَ فَجَمَلْتَ ، وَرُبَمَا جَنَّتْ عَلَيْكَ فَالَكَمْتُ وَمَلَمَلْتُ ، وَإِنَّ هَذَا الْفَتَى اسْتَخْدَمْنِيهَا لِغَرَضٍ ، فَأَخْدَمْتُهُ إِيَّاهَا بِلَا عَوَاضٍ ، عَلَى أَنْ يَجْتَنِي نَفْعَهَا ، وَلَا يُكَلِّفَهَا إِلَّا وَسْعَهَا ، فَأَوْلَجَ فِيهَا مَتَاعَهُ ، وَأَطَالَ بِهَا اسْتِمْتَاعَهُ ، ثُمَّ أَعَادَهَا إِلَيَّ وَقَدْ أَفْضَاهَا ، وَبَدَّلَ عَنْهَا قِيَمَةً لَا أَرْضَاهَا .

المتقاضي ، أي المتحاكم إليه الذي يطلب من الحاكم قضاءه ، وعونه على خصمه ؛ وهذا الغرض الذي ذكره ضرب من الألغاز ، لأنه مشى كلامه في وصف جارية و غلام ، وقد ضمن الكلام وصف إنثى ورمزود . مملوكة ، يعني الإبرة جعلها مملوكة لأنها مما يُتَمَوَّل . رشيقة القد : معتدلة القامة . أسيلة : ملساء . خد الإبرة : شق في ثقبها ، وأصل الخد شق مستطيل في الأرض ، والأسالة : ملاسة مع طول .

صبور على الكد ، أي صابرة على المشقة والتعب ، وفعل - بمعنى فاعل - يمتنع من إلحاق الهاء به إذا وقع صفة لمؤنث ، قال عنترة : [البسيط]

إِنِّي امرؤ سهلُ الخليفة ماجدٌ لا أتبع الثفس اللجوجَ هَواها

ومنه : امرأة شكور وصبور ولجوج ولحن أبو محمد خواص العراق بقولهم : شكورة ولجوجة وصبوبة ، قال : إن هذه التاء إنما تدخل في «فعل» إذا كانت بمعنى «مفعول» ، نحو ناقة ركوبة وشاة حلوبة . قال : وذكر النحويون في امتناع الهاء من «فعل» بمعنى «فاعل» للمؤنث عللاً ، أجودها أن الصفات الموضوعة للمبالغة نُقِلَتْ عَنْ بَابِهَا لَتَدَلَّ عَلَى الْمَعْنَى الَّتِي تَخَصَّصَتْ بِهِ ، فَأَسْقَطْتُ الْهَاءَ مِنْ صَبُورٍ وَقَتَا مَعَطَارٍ وَنَظَائِرِهِ ؛ كَمَا أَلْحَقْتُ بِصِفَةِ الْمَذْكُورِ فِي رَجُلٍ عَلَامَةً وَنِسَابَةً ، لِيَدُلَّ عَلَى تَحْقِيقِ الْمِبَالِغَةِ ، وَتَوْذُنِ بَحْدُوثٍ مَعْنَى زَائِدٍ فِي الصِّفَةِ . وامتناع الهاء المذكورة في أصل مطرد [لم يشذ منه إلا قولهم] : عدوة ، فإنهم ألحقوه بصديقه ، والشيء في أصول العربية [قد] يُحْمَلُ عَلَى ضَدِّهِ وَنَقِيضِهِ ، كَمَا يَحْمَلُ عَلَى نَظِيرِهِ وَرَسِيلِهِ .

تَحَبَّ: تثب في الثوب بسرعة. التَّهَد: الفرس الضَّخْم. أطواراً: أحياناً، ومهدّها: مثبر الخائط الذي تُمسك به إبرته. تَمُوز: أحد الشهور، وهو يوليه. والبرد: أن يبردها الحَدَّاد بالمَبْرَد ليقومها ويعدّلها، فالبرد هنا فعل صانعها. قال ابن ظفر: ذهب بالبزد إلى ما طُبِع عليه الحديد من البَرْد في القِيظ. قوله: «ذات عقل وعنان»، أراد بالعنان الخيط لأنها ترسله في الخياطة، والعقل شدّها بالخيط حين تمسك في الثوب. سنان: طرفها المسنون، أي المحدّد. كفّ ببنان: الكفّ والتضريب شيئاً معروفاً في الخياطة، فيريد أن الخائط يقلّب التضريب بأصابعه وهي البنان ويكفّه بالإبرة. فم، يريد ثقب الإبرة. تلدغ: تضرب الإصبع. واللسان النضناض للحية، والنضضة، قيل: هي صوت الحية، وقيل: حركة لسانها، وإنما اختلفَ فيها لأن الحية إذا ضيّقَ عليها فتحت فاهاً وصفرت وحرّكت لسانها، فيقال: نضضت، وشبه طرف الإبرة بلسان الحية لكثرة حركته في الثوب؛ وما أحسن قول الشاعر في تشبيه لسان الأفعى بنور السراج: [الوافر]

وقنديل كَأَنَّ النُّورَ مِنْهُ مَحِيّاً مَنْ أَحَبَّ إِذَا تَجَلَّى^(١)
أشار على الدُّجى بلسانٍ أَفْعَى فشمّر ذيلَه فَرَقاً وَوَلَّى

وقال ابن الصبّاغ الصقليّ في شمعة: [المنسرح]

يطعنُ صَدْرَ الدُّجى بَعَالِيَةٍ صَنُوبَرِي لِسَانٍ كَوَكْبِهَا
كحِيَّةٍ بِاللِّسَانِ لَاحِسَةٍ ما أدركت من سواد غِيْهِبِهَا

وللبيتين الأولين حكاية مستظرفة، حدّثني بها غير واحد من الطّلبة أردت ترك ذكرها لأمرين: لشهرتها، ولأنني وجدت البيتين مثبتين في بعض النسخ من القلائد لأحد رجالها، ثم عزم عليّ بعض الأدباء أن أذكرها، فذكرتها على اختصار لفائدتها؛ وذلك أن الشاعر المعروف بالبكيّ الهجاء، دخل عليه في ليلة ماطرة ذات رعد وبرق في بيت فندق دوابّ - شخص في الظلام لا يعرفه، وعلى البكيّ بقية من سلّهامة خلّقة، لا يواريه غيرّها، وعلى الثاني بقية من قميص قد أسودّ من طول البلى وكثرة الأوساخ، حتى لا يعرف رائبّه من أيّ ثوب هو؛ وقد بلّل كلّ واحدٍ منهما المطر. وهما في بلاء من الفقر والجوع والبرد، فرّق لهما خادم الفندق، فدخل عليهما بقنديل، فعندما نظر كلّ واحد منهما صاحبه تأسّى به، ورأى أنه قد وجد لنفسه نظيراً في الشقاء. فقال البكيّ لجليسه: أيّ شيء أنت؟ فقال: شاعر، وشؤم الأدب بلغ بي ما ترى، قال: فأجز، فقال: [الوافر]

* وقنديل كَأَنَّ النُّورَ مِنْهُ *

(١) البيتان لأبي جعفر بن البني الأندلسي في تاج العروس (بن).

فقال الآخر : [الوافر]

* محيّا من أحبّ إذا تجلّى *

فقال البكيّ : [الوافر]

* أشار على الدجى بلسانٍ أفعى *

فقال الآخر : [الوافر]

* فشمر ذيله فرقاً وولّى *

فقال له البكيّ - وقد أعجب به : بمن تعرّف؟ فقال : بعنق البرة، قال له : وأنا البكيّ، فجعلنا يتناظران بقية ليلتهما في أيهما أكثر حرماناً، حتى أصبحا وكانا يتلمسان. فقال عنق البرة للبكيّ : هلّم لنفترع؛ أينما يقيم هنا، وأينما يرحل؟ فإننا إن بقينا في موضع واحد، أدرك الناس من شؤمنا ما يؤذي بهم إلى الهلاك، فافترعا فخرجت قرعة البكيّ بالرحيل، فارتحل ونزل بفاس، فحلّ بأهلها من بلاته ما قد شهر.

قوله : «ترفل في ذيل فضفاض»، أي تمشي في خيط طويل. تجلّى في سواد وبياض، أي تبرز في خيط أسود لخياطة السواد، وأبيض لخياطة البياض. تسقى : أراد سقي الحداد لها إذا أخرجها من النار وألقاها في الماء لتصلّب. ناصحة : خائطة، والتصاح : الخياط، ونصح الثوب : خطته. خُدعة : تخدع الخائط كثيراً، فتخيّط وجه الثوب الأعلى، وتترك الأسفل، والهاء في هذه الصفات للمبالغة. حُبأة طُلعة : يصف حالها من الخياطة حين تختبئ في الثوب، ثم تطلع في يد الخائط. مطبوعة أي مصنوعة لينتفع بها. مطواعة في الضيق والسعة؛ يريد إذا دفعها في الثوب دخلت فيه، سواء اتسع موضع دخولها أو ضاق. إذا قطعت وصلت، يريد إذا قطعت الثوب وفصلته ألقته. فصلتها عنك : نحييتها، وجعلتها في مثيرها. خدمتك، أي صرفتها فيما تحتاج من خياطة ثيابك. جَمَلْتُ : ألفت قطع الثوب. جنت عليك فالمت، أي ضربتك فأوجعتك وصيرتك ذا ألم. ململت، أي جعلتك متقلّباً لشدة الوجع. قوله : «استخدمنيها»، أي طلب مني خدمتها. الغرض : الحاجة، وأصل الغرض ما قصدته سهام الرامي، ثم سميت الحاجة غرضاً، لأنها قصدت بالرغبة فيها. وسعها : طاقتها وقدر ما تحتمل مما تكلف. أولج فيها متاعه، أي أدخل فيها خيطه. أفضاها : خرق عيناها، وفي المرأة خلط مسلكيها، من أفضيت إلى الشيء، وصلت إلى متّسعه، ومنه : القوم فوضى، أي متسعون مختلطون. بذل : أعطى.

فَقَالَ الْحَدَّثُ : أَمَّا الشَّيْخُ فَأَصْدَقُ مِنَ الْقَطَا، وَأَمَّا الْإِفْضَاءُ فَفَرَطَ عَنْ خَطَا، وَقَدْ رَهْنَتْهُ، عَنْ أَرْضٍ مَا أَوْهَنْتُهُ، مَمْلُوكًا لِي مُتَنَاسِبِ الطَّرَفَيْنِ، مَنَسِبًا إِلَى الْقَيْنِ،

نَقِيًّا مِنَ الدَّرَنِ وَالشَّيْنِ، يُقَارِنُ مَحَلَّهُ سَوَادَ الْعَيْنِ، يُفْشِي الْإِحْسَانَ، وَيُنْشِي
الاسْتِحْسَانَ، وَيُغْذِي الْإِنْسَانَ، وَيَتَحَامَى اللُّسَانَ، إِنَّ سُودَ جَادٍ، أَوْ وَسَمَ أَجَادٍ،
وَإِذَا زُودَ وَهَبَ الزَّادَ، وَمَتَى اسْتَزِيدَ زَادَ، لَا يَسْتَقِرُّ بِمَعْنَى، وَقَلَمًا يَنْكِحُ إِلَّا مَثْنَى،
يَسْخُو بِمَوْجُودِهِ، وَيَسْمُو عِنْدَ جُودِهِ، وَيَنْقَادُ مَعَ قَرِينَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ طِينَتِهِ،
وَيُسْتَمْتَعُ بِزِينَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يُطْمَعِ فِي لِينَتِهِ.

* * *

[القطا]

الْقَطَا: طائر يصيح «قَطَا قَطَا» فسمي بصياحه، وبما يفهم من صوته، ولذلك تسميه
العرب الصَّدُوق، ويقال: أنسب من قطاة، لأنها إذا صاحت عرفت، وقال الشاعر:
[البسيط]

تدعو القطا وبه تدعى إذا انتسبت يا صدقها حين تدعوها فتنسب^(١)
حمراء مقبله سكاء مدبرة للماء في البحر منها نؤطة عجب

وقال الكمي: [البسيط]

لا تكذب القول إن قالت قطا صدقت إذ كل ذي نسبة لا بدّ ينتحل^(٢)

وقال أبو وجزة: [البسيط]

ما زلن ينسبن وهنأ كل صادقة باتت تبأشر عزمأ غير أزواج^(٣)

يريد، أن الحمير وردت الماء ليلاً، فأثارت القطا عن أفاحيصه، فصاحت: «قطا

(١) يروى صدر البيت الأول:

تدعوا قطاً وبه تُدعى إذا تُسبّت

وهو للنابغة في ديوانه ص ١٧٧، ولسان العرب (دعا)، (قطا)، وتهذيب اللغة ٣/١٢٣، ٩/٢٤٠،
وتاج العروس (قطا)، ويروى البيت الثاني:

حذاء مقبله سكاء مدبرة للماء في النحر منها نؤطة عجب

والبيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص ١٧٧، ولسان العرب (حذ)، (نوط)، وتهذيب اللغة ٣/٤٢٦،
٩/٤٣٠، وجمهرة اللغة ص ٩٦، ١٠٧٣، والبيت لابن مقبل في المخصص ٨/١٣٢، وليس في
ديوانه، وبلا نسبة في لسان العرب (سكك)، والمخصص ١/٨٥، وكتاب العين ٣/٢٣، وجمهرة
اللغة ص ١٠٤٨، ومقاييس اللغة ٢/٥، وتاج العروس (سكك).

(٢) البيت في الحيوان ٦/٥٧٨.

(٣) البيت لأبي وجزة السعدي في لسان العرب (زوج)، (هدج)، (عزم)، (قطا)، وتاج العروس (عزم)،
(قطا)، وتهذيب اللغة ٢/٣٩٢، ٩/٢٤١، وبلا نسبة في المخصص ٤/٤٦.

قطاً؛ فذلك انتسابه وجعلها صادقة لصياحها قطاً، والعُزم يبيضها، لأن فيه سواداً وبياضاً، وبيّض القطأ أفراد ثلاثة أو خمسة، قال مزاحم العقيلي في القطأ وفراخها: [الطويل]

فلَمَّا دَعَّته بِالْقَطَاةِ أَجَابَهَا بِمِثْلِ الَّذِي قَالَتْ لَهُ لَمْ يَبْدَلِ^(١)

وقال المعريّ: [الكامل]

عُرِفَتْ جُدُودُكَ إِذْ نَقَطْتَ وَطَالَمَا لَفْظُ الْقَطَا فَأَبَانَ عَنْ أَنْسَابِهَا

وقال الأصمعيّ: القطأ لا تصيح إلا إذا أرادت الماء، فإذا عدم الماء، وسمعت العرب صياح القطأ، فرحوا به وعرفوا قُرْبَ الماء من بعده.

وقيل: سُمِّيَ القطأ لثقل مشيه، يقال: قَطَا الرجل يَقْطُو، إذا ثَقُلَ مشيه.

قوله: «فرط» أي سبق. عن خطأ، أي عن غير تعمد. رهنته: أعطيته رهناً، وأرهنتك: أعطيتك ما ترهنه. والأرّش: قيمة العيب، أي دية الجرح، مأخوذ من أرش بين القوم لأنّ الأرّش يختصم في قدره. أوهنته: أفسدته، ووهن الشيء يَوْهَنُ ويَهِنُ: ضَعُفَ، وأوهنته أنا، إذا أضعفته. مملوكاً، يعني المروء. متناسب الطرفين، أي هذا الطرف مثل هذا الطرف، تكتحل بأيّهما شئت. القَيْن: الحدّاد الذي صنعه. الدّرّن: وسخ الحديد، والشّئين: العيب، أي هو مصقول معتدل ليس فيه اعوجاج ولا عيب. يقارن محلّه سواد العين أي عند التّكحلّ به. يفشي: يحدث ويظهر. وإحسان الكحلّ في العين لا يخفى. ينشئ استحسان، أي ينشئ لناظر العين استحسان الكحلّ في العين والإنسان: إنسان العين يغذيه بالكحلّ، والإنسان: السّواد الذي في وسط العين، إذا رأيته رأيت فيه شخصاً، والشخص هو الإنسان، فسُمِّيَ السّواد به. يتحامى: يبعد عنه، يريد أنه يكحلّ العين ولا يقرب من الفم. قوله: «سود»، أي جعل فيه الكحلّ. جاد: أعطاه العين. وسَمَ العين بالكحلّ: أجاد عمله فيها. قلماً ينكح إلا مثنى، أي ينكح عينا واحدة في الغالب. وقد نظم هذا النثر في الثانية والأربعين.

جوده، أي وجود بكحله للعين. ويسمّو: يطلّع للعين، وجعل له الكحلّ غذاء يأخذ ويرتفع به للغير. قرينته: مكحلتها. من طينته: من جنسه. زينته: تزيينه للعين يُطَمَعُ في لينته: أي لا يطمع أن يكون الحديد ليّناً. وكلّ لفظة فسّر بها المروء والإبرة، لها لفظ في ظاهرها غير ما فسّرت به.

فقال لهما القاضي: إِمَّا أَنْ تُبَيِّنَا، وَإِلَّا فَيَبِّئَا، فابْتَدَرَ الْغُلَامُ، وَقَالَ: [المنسرح]

أَعَارَني إِبْرَة لِأَزْفُو أَطْـ
فَانْخَرَمَتْ فِي يَدِي عَلَى خَطَا
فَلَمْ يَرِ الشَّيْخُ أَنْ يُسَامِحَنِي
بَلْ قَالَ هَاتِ إِبْرَة تُمَاثِلْهَا
وَاعْتَنَاقِ مِثْلِي رَهْنًا لَدَيْهِ وَنَا
فَالْعَيْنُ مَزْهَى لِرَهْنِهِ وَيَدِي
فَاسْتَبْرَ بَدَا الشَّرْحُ غَوْرَ مَسْكَنَتِي
مَارَا عَفَاهَا الْبِلَى وَسَوَدَهَا
مِثِّي لَمَّا جَذَبْتُ مِقْوَدَهَا
بِأَزْشَهَا إِذْ رَأَى تَأْوَدَهَا
أَوْ قِيمَة بَغْدَانُ تُجَوِّدَهَا
هِيكْ بِهَا سُبَّة تَزَوِّدَهَا
تَقْصُرُ عَنْ أَنْ تَفُكْ مِرْوَدَهَا
وَازِثْ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ تَعَوِّدَهَا

* * *

تبينا: توضّحًا وتفسّرًا حديثكما المهمّ الملغز. فبيننا: أبعدا، أو ارتفعنا. قوله: «أرفو» أي أخيط، ويروى «لأرفا» يقال: رفأت الثوب أرفؤه ورفوته وأرفوه، والرفو من أدقّ أنواع الخياطة، وهو نسج الخرق في الثوب حتى يعود كأنه لم يكن فيه خرق.

وقال ابن القابلة السبتيّ في غلام رقاء: [مخلع البسيط]

يَا رَافِيَا قَطَعَ كُلَّ ثَوْبٍ
عَسَى بِخَيْطِ الْوَصَالِ تَرْفُو
وقال الحلوانيّ في خياط: [المديد]
رَبِّ خِيَاطٍ فُتِنْتُ بِهِ
لَاعِبٌ بِالْخَيْطِ يَفْتُلُهُ
لَيْتَ أَنِّي كُنْتُهُ فَأَرَى
فَعَلْتُ بِالْثَوْبِ إِبْرَتَهُ
وَجَرَى الْمِقْرَاضِ فِي يَدِهِ
وَيَا رَشَا حَبَّةَ اعْتِمَادِي
مَا قَطَعَ الْهَجْرُ مِنْ فَوَادِي
فَتْنَةً أَوْ هَتْ قُوَى جَلْدِي
أَتَرَاهُ ظَنُّهُ جَسَدِي!
بَيْنَ ذَلِكَ الدُّرِّ وَالْبَرْدِ
فَعَلَ سَهْمَ الشُّوقِ فِي خَلْدِي
جَزَى عَيْنَيْنِهِ عَلَى كَبَدِي

ومن مجون أبي نواس، أنه كان يؤاكل إسماعيل بن أبي سهل، فعرضت له على مائدة رُقاقة في جانبها خُرق قد ضمّ، فرفعها بإحدى يديه ونقّرها بالأخرى، فانفجرت، وقال وهو يضحك: أخبزكم مرفوء؟ فلما خرج قال: [الرمّل]

خَبَزَ إِسْمَاعِيلُ كَالْوَشِّ
عَجَبًا مِنْ أَثَرِ الصَّنْـ
إِنْ رُقَّاءُكَ هَذَا
فَلِإِذَا قَابَلَ بِالنَّضْـ
الْطِفِ الصَّنْعَةِ حَتَّى
ي إِذَا مَا انْشَقَّ يُرْقَا
عَةِ فِيهِ كَيْفَ يَخْفَى
الْطِفِ الْأَمَةِ كَفَا
فَ مِنْ الْخَبْرَةِ نَضْفَا
لَا تَسِرَى الْمِغْرَزَ أَشْفَى

مثل ما جاء من التُّـور ما غادَرَ حَزَقُـا

والأطمار: الثياب الخَلَقَة، واحدها طِمْر. عفاها البلى: غَيَّرَهَا القدم ودرسها، وسَوَّدها بالأوساخ حتى صارت في طبع الثوب، فمتى غسلت لم تزل.

ومما قالت الشعراء في الأطمار مِمَّا يستحسن قول الحمدونيّ في طيلسانٍ وَهَبَهُ لَهُ أحمد بن حرب المهلبيّ: [الخفيف]

يا بن حرب أطلت هَمَي برفوي
فهو في الرّفو آل فرعون في العز

طيلساناً قد كنتُ عنه غنيّاً
ض على النار بكرةً وعشيّاً

وقال أيضاً فيه: [الرمّل]

طَيْلَسَانُ لابن حرب
قد طوى قَزناً فقرناً
لَيْسَ الأيام حَتَّى
غاب تحت الحسن حتى

يتداعى لا مَسَاسَا
وَأَناساً فَأَناسَا
لَمْ تَدْغ فيه لِبَاسَا
لا يُرى إلا قِيَاسَا

وقال فيه أيضاً: [المنسرح]

قل لابن حرب مقالة العاتب
أما رأيت الرفاء يُحزِنني
أفناه جَوْرُ البلى عليه كما

ولستُ فيما أقولُ بالكاذب
برفوه طيلسانك الذّاهِب
أفنى الهوى عُمرَ خالِدِ الكاتِب

وقال فيه أيضاً: [السريع]

إن ابن حرب جادلي كاسياً
انظر إلى كثرة تمزيقه
رفوى له وهو رميمٌ كمن
يصدعه اللَّحْظ بِإِماضِهِ
يُذَكِّرني كثرةً تمزيقه

بطيلسان هَرِمٍ قَشَعِم
كَأَنَّمَا مُزِقَ في مَأْتَم
يبنى بناء فوق مستهدَم
صدع فؤاد العاشق المفرَم
تفرّق الناس عن الموسَم

وقال فيه أيضاً: [الخفيف]

يا بن حرب كسوتني طيلساناً
طال تردّأه إلى الرفو حتّى
فَحَسِبْنَا نسج العناكب قد جئن

ملّ من صحبة الزمان وصدّا
لوبيعثناه وحدهً لَتَهْدَى
إلى ضعف طيلسانك شدا

وقال أيضاً فيه: [السريع]

يا قاتل الله ابن حربٍ لقد
بطيلسانٍ خلْتُ أن البلى
أجد في رفوي له والبلى
إن أتهم الرافى في رفوه
عنيته لما مضى راحلاً:
أطال إتعابي على عمدٍ
يطلبه بالوثر والجقد
يلهوبه في الهزل والجذ
مضى به التمزيق في نجد
تركتنى يا واحدي وخدي

والحمدوني هو إسماعيل بن إبراهيم حمدويه، نُسب إلى جده، وهو من أهل
ميسان، وكان حلو التصرف مليح الافتان، وهو القائل: [السريع]

من كان في الدنيا له شارة
نلحظها من كثبٍ حشرة
فنحن من نظارة أذنى
كأننا لفظ بلا معنى

وقال ابن الرومي في طيلسانه: [الطويل]

ولي طيلسانٍ ناحلٌ غير أنه
وما ذاك إلا أنه متهتك
أراه لضوء الشمس بالعين رؤيةً
شكا ثقل اسم الطيلسان لضعفه
ثبوت لهما الرياح الزعازع
يخلي سبيلَ الريح غير مُنازع
ويمنعني من لمسها بالأصابع
فسميته ساجا فهل ذاك نافع!

وقال ابن سارة في فروة: [الكامل]

أودت بذات يدي فريوة أرنب
يتجشم الرقاء في ترقيعها
لو أن ما أنفقت في ترقيعها
إن قلت: «باسم الله» عند لباسها
كفؤاد عروة في الضنا والرقّة
بعد المشقة في قريب الشقة
يحصى لزد على رمال الرقة
قرأت عليّ «إذا السماء انشقت»

وله فيها أيضاً: [الكامل]

لي فروةٌ وصفي لجائحتي بها
عطلتُ كتب أبي عبيدٍ بالذي
يسطو عليّ الغرم في ترقيعها
فأنا وفروى خوف تمزيقي لها
يأتيك بين مقرطٍ ومشثفٍ
ألقتُ فيها من غريبٍ مصثفٍ
سطو الغرام على فؤاد المدنفٍ
أحكي معاويةً بجنب الأحنفٍ

وله في طيلسانه: [السريع]

وطيلسان هريمٍ يُحتمى
كأن كفيّ إذا انضمتا
عليه أكل الخلّ والبقل
عليه خوف الريح في غلّ

ولبعض أصحابه فيه : [المقارب]

على منكب ابن علي سَمَلْ
إذا غيَّم الجوّ أبصرته
نسوا طيلسان ابن حرب به
تقطّعه لحظات المُقَلْ
رهين الذّبُول بكفّ البَلَلْ
وصاروا به يضربون المَثَلْ

وله في غفارته : [المجث]

لأحمد بن علي
إن هبّ أدنى نسيم
غفارة كالسَّرابِ
تمرّ مرّ السَّحابِ

والشعر في هذا الباب كثير .

وقوله : « انخرمت »، أي انكسرت . مقودها : خيطها . تأوّدُها : انكسارها ، وأصله
الاعوجاج . أعتاق ميلّي : أحبس ميزودي . ناهيك : كافيك ، ومعناه المبالغة ، كأنه بلغ
النهاية في العيب الذي فعل . سُبّة : عيب يُسبّ به . مزهّى : خالية من الكُخل ، وقد مرّه
الرجل مرّها إذا لم يتعهد الكهل ، والمزّهى من النساء : البيضاء البينة الزرق الذي يختصّ
الكحل في زرقها . اسبر : قس . غور : غاية وقدر . ارث : ارحم وتوجع .

فأقبل القاضي على الشيخ ، وقال : إيه ، بغير تمويه ، فقال : [المنسرح]

أقسمت بالمشعر الحرام ومن
لوساعفتني لم يرني
ولا تصدّيت أبغني بدلاً
لكن قوس الخطوب ترشقني
وخبر حالي كخبر حالته
قد عدل الدهر بيننا فأنا
لا هو يستطيع فك مزوده
ولا مجالي لضيق ذات يدي
فهذه قصتي وقصته

ضمّ من الناسكين خيف مني
مزتهنا ميله الذي رهنا
من إبرة غالها ولائنا
بمضميات من هاهنا وهنا
ضراً وبؤساً وعزبة وضئى
نظيره في الشقاء وهو أنا
لما عدا في يدي مزتهنا
فيه اتسع للعفو حين جنى
فأنظر إلينا وبيننا ولنا

إيه : كلمة يُستزاد بها الحديث . والتمويه : الكذب ، وهو في الحديث كالتعمية ، وقد
موّه عليه ، إذا خيل له أنّه على شيء وهو على ضده ، وأصل التمويه الصقل ، كأنّ على
ألفاظه المموّه صقالة ، وهو من لفظ الماء . المشعر : المزدلفة ، وهو جمع ، سُمّي مشعراً

لأنه من علامات الحج، وكلّ علامات الحج مشاعر، والمَشعر والمنسك: موضع ذبح الهذى بمكة المفضل، سُمي مشعراً، لأنه شعر أنه حرام كالبيت. الناسكين: الحجاج الذين يُشعرون الهذى وما يُنحر، أُنسك ونُسك منسكاً ونُسكاً ونُسكاً، إذا ذبح النُسك، وأصلها ذبائح الجاهلية ثم سُميت الأضاحي، والناسك أيضاً: الزاهد. خيف: موضع بمنى. قوله: «ساعفتني»: ساعدتني. تصدّيت: تعرّضت. غالها: أهلكها. الخطوب: الأمور الشداد. ترشقني: تصيبني. بمصميات: بسهام قاتلة. بؤس: شدة حال. ضئى: ضعف ومرض. وهو أنا، أي هو مثلي في ضيق الحال. مجالي: موضع تصرفي. ذات يدي: مالي، وذات اليد ما يملك. العفو: الغفران. جئى: أذنب. قصتي: حديثي، يقول: فانظر إلينا بعين الشفقة والرحمة، وأصلح بيننا بما ننصرف به شاكرين لك، وهب لنا ما تُثني به عليك، وجعل النظر عاملاً في الجميع، لأن من وجوه النظر الإصلاح بينهم والتكرم عليهم.

فَلَمَّا وَعَى الْقَاضِي قَصَصَهُمَا، وَتَبَيَّنَ خِصَاصَتَهُمَا وَتَخَصُّصَهُمَا؛ أَبرَزَ لَهُمَا دِينَاراً مِنْ تَحْتِ مُصَلَّاهُ، وَقَالَ لَهُمَا: اقْطَعَا بِهِ الْخِصَامَ وَأَفْصِلَاةً. فَتَلَقَّاهُ الشَّيْخُ دُونَ الْحَدِّثِ، وَاسْتَخْلَصَهُ عَلَى وَجْهِ الْجِدِّ لَا الْعَبَثِ، وَقَالَ لِلْحَدِّثِ: نِصْفُهُ لِي بِسَهْمِ مَبْرَتِي، وَسَهْمُكَ لِي عَنْ أَزْشِ إِبْرَتِي، وَلَسْتُ عَنْ الْحَقِّ أَمِيلُ، فَقَمَّ وَخَذَ الْمِيلَ. فَعَرَا الْحَدِّثُ لِمَا حَدَّثَ اكْتِثَابً، وَاكْفَهَرَ عَلَى سَمَائِهِ سَحَابً، وَجَمَ لَهُ الْقَاضِي، وَهَيَّجَ أَسْفَهُ عَلَى الدِّينَارِ الْمَاضِي؛ إِلَّا أَنَّهُ جَبَرَ بَالِ الْفَتَى وَبَلْبَالَهُ، بِدُرَيْهِمَاتٍ رَضَخَ بِهَا لَهُ، وَقَالَ لَهُمَا: اجْتَنِبَا الْمَعَامَلَاتِ، وَادْرَأَا الْمُخَاصِمَاتِ، وَلَا تَخْضُرَانِي فِي الْمُحَاكَمَاتِ، فَمَا عِنْدِي كَيْسُ الْغَرَامَاتِ.

فَنَهَضَا مِنْ عِنْدِهِ، فَرَجَحِينَ بِرِفْدِهِ، مُفْصِحِينَ بِحَمْدِهِ، وَالْقَاضِي مَا يَخْبُو صَجَرُهُ، مُذْ بَصُرَ حَجَرُهُ، وَلَا يَنْصُلُ كَمْدُهُ، مُذْ رَشَحَ جَلْمُدُهُ.

قصصهما، أي حديثهما، وهو جمع قصة. خصاصتهما: فقرهما. تخصّصهما: رفعتهما وانقباضهما، وقد تخصّص الرجل، إذا انقبض عن العامة وتشبه بالخاصة، أبرز: أخرج. مصلاة: بساطه الذي يصلّي عليه. أفصلاه: اقطعه وأزيله. استخلصه: حازه لنفسه خالصاً. الجد: التحقيق. العبث: الهزل. سهم: نصيب. مبرتي: إكرامي الذي وصلني به القاضي. أميل: أخرج وأعدّل عنه. عرا: قصد ونزل به. حدث: ظهر. اكتئاب: حزن وهم. وجم: غضب، والوجوم: السكوت على غضب. هيّج: حرّك.

أسفه : حزنه . باله : فكره . بلباله : حزنه ووسواسه ، رضىخ : كثر العطاء . اجتنبا : باعدا .
المعاملات : المعاوضات والعواري . ادركا : ادفعا . كيس : وعاء الدراهم . رفته : عطاؤه .
يخبو ضجره : يسكن غضبه : بض حجره : رشحت كفه . قال الأخطل : [الكامل]

كَزَمَ الْيَدَيْنِ مِنَ الْعَطِيَّةِ مَمْسِكٌ مَا إِنْ تَبَضَّ صَفَّائِهِ بِلَالٍ^(١)
يفصل كمدته : يزول حزنه . الجلمد : الصخر الصلب ، كنى به عن كفه ؛ وأنه بخيل ،
ويد البخيل تشبه بالحجر ، وقال جرير : [البسيط]

كَأَنَّمَا خَلِقْتُ كَفَّاهُ مِنْ حَجَرٍ فَلَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالنَّدَى عَمَلٌ^(٢)
يرى التيمم في بر وفي بحر
وقال ابن عبد ربه : [البسيط]

يَرَاةً غَرَنِي مِنْهَا وَمِيضُ سَنَاءٍ حَتَّى مَدَدْتُ إِلَيْهِ الْكَفَّ مَقْتَبَسًا^(٣)
فصادفت حجراً لو كنت تضربه
كَأَنَّمَا صَيَغَ مِنْ لُؤْمٍ وَمِنْ كَذِبٍ مِنْ لُؤْمِهِ بَعْضُ مُوسَى لَمَّا انْبَجَسَا
فكان هذا له روحاً وذاتاً نفساً

أين هذه الأكف من التي ذكر حجة بن المضرب ، حين قال : [الطويل]

أَنَاسَ إِذَا مَا الدَّهْرَ أَظْلَمَ وَجْهَهُ فَأَيْدِيَهُمْ بِيضٌ وَأَوْجُهُهُمْ غُرٌّ
يصونون أحساباً ومجداً مؤثلاً ببذل أكف دونها المزن والبحر
فلو لامس الصخر الأصم أكفهم

وقال أبو الشيص : [الكامل]

إِنَّ الْأَمَانَ مِنَ الزَّمَانِ وَرَيْبِهِ يَا عَقَبَ شَطَاً بِحَرَكِ الْفِيَاضِ
بحر يلود المعتفون بسنله فغم الجداول مترع الأخواض
لأبي محمد المؤمل راحئاً ملك إلى أعلى العلانهاض
فبد تدفق بالغنى لصديقه ويد على الأعداء سم قاض

وقال أبو تمام : [الطويل]

تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ دَعَاها لِقَبْضٍ لَمْ تَجِبْهُ أَنَاْمَلُهُ^(٤)

(١) البيت في ديوان الأخطل ص ١٥٩ .

(٢) البيتان ليسا في ديوان جرير ، وهما لعمر بن عبد وهيب (الحزين الكنانى) في لسان العرب (حزن) .
وتاج العروس (حزن) .

(٣) الأبيات في العقد الفريد ١٩٥/٦ .

(٤) البيت في ديوان أبي تمام ص ٢٣٢ .

وقال البحرني: [الكامل]

قد قلت للغيث الركام وليج في
لا تعرضن لجعفر متشبهاً
إبراقه، وألخ في إرعاده^(١)
بندی يديه فلست من أنداده
الله شرفه، وأعلى ذكره
ورآه غيث بلاده وعباه

وقال ابن الرومي: [الطويل]

مقبّل ظهر الكف وهاب بطنها
له راحة فيها الحطيم وزمزم
فظاهرها للناس ركن مقبّل
وباطنها عين من الجود عيلم

حتى إذا أفاق من غشيته، أقبل على غاشيته وقال: قد أشرب جسي، ونبأني
حدسي؛ أنهما صاحباً ذهأ، لا خضماً ادعاء، فكيف السبيل إلى سبرهما،
واستنباط سِرهما! فقال له بخير زمرته، وشرارة جمرته: إنه لم يتم استخراج
خبئهما إلا بهما، فقفاهما عوناً يزجعهما إليه، فلما مثلاً بين يديه، قال لهما:
اضدقاني سن بكر كما، ولكما الأمان من تبعه مكركما. فأخجم الحدث واستقال،
وأقدم الشيخ وقال:

قوله: «غشيته»، أي ذهاب عقله بأن يغمى عليه. وغاشيته: زواره ومن يغشى
موضعه. أشرب: دوخل: جسي: إدراكي وفهمي. نبأني: حدثني. وأخبرني. حدسي:
ظني، قال الفراء رحمه الله: حدثت أحدس، إذا قلت في الشيء برأيك. غيره:
حدثت: ظننت ظناً بلغت منه غاية الشيء في عدده أو وزنه، وأصله من قول العرب:
بلغت الحدس، أي الشيء الذي تطلب لحاقه. والذهأ في الرجل: الحذق والتبصر في
الأشياء. لا خضماً ادعاء، أي ليس بينهما ادعاء على الحقيقة فيختصمان فيها. سبرهما:
اختبارهما. استنباط: استخراج. بخير: حاذق. زمرته: جماعته، وجعله شرارة؛ لنفوذ
ذهنه واتقاده، ولذلك يسمى نحريراً، أي ماهراً بالأشياء كلها، كأنه لإدراكه وفهمه
بالأشياء ينحرفها بظنه الصادق. خبئهما: خفي ما عندهما. قفاهما: أتبعهما. والعون:
الشرطي، لأنه يعين من يتصرف له. مثلاً: وقفاً، يقال: مثل الشيء، فهو مائل، إذا قام
وانتصب، وإذا لطيء بالأرض أو ذهب، وهو من الأضداد. سن بكركما: حقيقة
خبركما. والبكر: الفتى من الإبل، وسنه: مبلغ عمره، لأن بالسّن يعرف كم بلغ من

العمر، ولفظ المثل «صدقني سنّ بكرة»، وروى البكري عن ابن الأعرابي أن رجلاً سام رجلاً بَكَراً على أن يشتريه مسناً، فقال البائع: هذا جمل؛ لِبَكْرٍ له، وقال المشتري: هذا بَكْرٌ، فقال البائع: بل هو مسنّ، فبينما هما يتنازعان إذ نفر البَكْرُ، فقال صاحبه: ليسكن نفاره: «هدع هدع»، وهي كلمة من العرب يسكن بها صغار الإبل عند نفارها، ولا تقال للكبّار، فقال المشتري عند ذلك: صدقني سنّ بكرة. تبعه؛ شُرِحت في الصدر. أحجم: تأخّر فزِعاً. أقدم: تقدم متشجّعاً. استقال: طلب الإقالة. [الرجز]

* * *

أنا السُّرُوجِيّ وَهَذَا وَلَدِي والشُّبْلُ فِي الْمَخْبِرِ مِثْلُ الْأَسَدِ
وَمَا تَعَدَّتْ يَدُهُ وَلَا يَدِي فِي إِثْرَةِ يَوْمٍ وَلَا فِي مِرْوَدِ
وَأِنَّمَا الدَّهْرُ الْمُسِيءُ الْمَعْتَدِي مَالُ بَنَّا حَتَّى عَدُونَا نَجْتَدِي
كُلُّ نَدَى الرَّاحَةِ عَذْبُ الْمُرُودِ وَكُلُّ جَفْدِ الْكَفِّ مَغْلُولُ الْيَدِ
بِكُلِّ قَنْ وَبِكُلِّ مَقْصِدِ بِالْجِدِّ إِنْ أَجْدَى وَإِلَّا بِالْجِدِّ
لِنَجْلِبَ الرُّشْحَ إِلَى الْحِظِّ الصَّدَى وَتُنْفِدَ الْعُمْرَ بِعَيْشٍ أَتَكْدِ
وَالْمَوْتُ مِنْ بَعْدُ لَنَا بِالْمَرْصِدِ إِنْ لَمْ يَفْاجِ الْيَوْمَ فَاجِي فِي غَدِ

* * *

الشُّبْلُ: ولد الأسد. المَخْبِرُ: التجربة والخبرة. تعدّت: ظلمت، والمتعدّي: الظالم المجاوز الحدّ في الظلم. مال بنا، أي حطّنا. نجتدي: نسأل الناس الجدا، وهو العطاء. ندّى الراحة: كريم الكفّ. وجفد الكفّ، ضده، وأراد أن يسأل كل كريم سهل العطاء، وكل لئيم صعبه، وأصل الجعودة انقباض الشعر، ثم استعيرت لقبض الكفّ من اللؤم، ومثله مغلول اليد، أي كأنّ يده محبوسة بغلّ للؤمها، والسائل كأنه يحاول بسطها بالجدود فيجدها محبوسة بغلّ اللؤم، وفي الكتاب العزيز: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩] فهذا نهْي عن التبذير.

وقال حبيب في قصيدة يمدح بها حفص بن عمر الأزدي ويذكر الجعودة، وهي: [الطويل]

يَرَى الْوَعْدَ أَخْزَى الْعَارِ إِنْ هُوَ لَمْ تَكُن مواهْبُهُ تَأْتِي مَقْدَمَةَ الْوَعْدِ^(١)
فَلَوْ كَانَ مَا يَعْطِيهِ غِيثاً لَأَمْطَرَتْ سَحَابُهُ مِنْ غَيْرِ بَرْقٍ وَلَا رَعْدِ
مِنَ الْقَوْمِ جَعْدٌ أَبْيَضُ الْوَجْهِ وَالْتَدَى وَلَيْسَ بِنَانٍ يَجْتَدِي مِنْهُ بِالْجَعْدِ
وقال البحتريّ: [الخفيف]

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ١٣٠.

صَنَّتَنِي عَنْ مَعَاشِرٍ لَا أَسْمِي
مَنْ جَمَعَادٍ الْكَفَّ غَيْرَ جَعَادٍ
خَطَرُوا خَطَرَةَ الْجَهَامِ وَسَارُوا
وَقَالَ أَيْضاً فِي نَحْوِهِ: [الوافر]

وَخَلَفَنِي الزَّمَانُ عَلَى أَنْاسٍ
لَهُمْ حُلُلٌ حُسْنٌ بِيضٌ
أَنْاسٌ لَوْ تَأَمَّلْتَهُمْ لَبِيدٌ
وَجُوهُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ حَدِيدٌ^(٢)
وَأَخْلَاقٌ قَبْحَنٌ فَهَنٌ سُودٌ
بَكَى الْخَلْفَ الَّذِي يَشْكُو لَبِيدٌ

قوله «الدد»: ضد الجد، وهو اللهو واللعب، وقال النبي ﷺ: «لست من ددٍ ولا الدد مني»^(٣)، أي لست من باطل ولا الباطل مني أجدي: نفع. الحظ: البخت والنصيب. والصدى: العطشان، وأراد أن حظّه في الدنيا قليل، فهو سعى له ليجلب رزقاً يكثر به حظه. ننفذ: نتمم. أنكد: مشؤوم وكل ما جلب شراً فهو أنكد ونكد. والمرصد: الموضع الذي ترتقب فيه من تريد أخذه، وقد رصدته رصداً ترقبته. يفاج: يأت على غفلة، وأصله فاجاً بالهمز، فسّله.

فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي: لِلَّهِ دَرَكٌ، فَمَا أَغْدَبَ نَفَثَاتِ فَيْكَ، وَوَاهَا لَكَ لَوْلَا خِدَاعُ فَيْكَ، وَإِنِّي لَكَ لِمَنْ الْمُنْذِرِينَ، وَعَلَيْكَ مِنَ الْحَذِيرِينَ، فَلَا تُمَازِرْ بَعْدَهَا الْحَاكِمِينَ، وَاتَّقِ سَطْوَةَ الْمُتَحَكِّمِينَ، فَمَا كُلُّ مُسَيِّطِرٍ يُقِيلُ، وَلَا كُلُّ أَوَانٍ يُسْمَعُ الْقِيلَ.
فَعَاهَدَهُ الشَّيْخُ عَلَى مَشُورَتِهِ، وَالْإِزْتِدَاعِ عَنْ تَلْبِيسِ صُورَتِهِ، وَقَصَلَ عَنْ جَهَّتِهِ، وَالْحَثَرَ يَلْمَعُ مِنْ جَهَّتِهِ.

قال الحارث بن همام: فَلَمْ أَرِ أَغْجَبَ مِنْهَا فِي تَصَاريفِ الْأَسْفَارِ، وَلَا قَرَأْتُ مِثْلَهَا فِي تَصَانِيفِ الْأَسْفَارِ.

قوله: «الله درك»، أي ما أحسن كلامك، والدّر أصله اللبن، وكأنه سمّي بحكاية صوته عند الحلب. والله، أصله القسم، ولا تدخل اللام في القسم إلا على اسم الله تعالى، والتعجب معها لازم، فإذا قال الذي يسمع صوت الحلب لصاحب الناقة: الله

(١) الأبيات في ديوان البحري ص ٨٦.

(٢) ديوان البحري ص ٥٨١.

(٣) رواه الزمخشري في الفائق في غريب الحديث ١/ ٣٦٤، بلفظ: «ما أنا من ددٍ ولا الدد مني» وبنفس اللفظ رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٠٨.

دَرَكَ! فكأنه قال: والله إن دَرَكَ هذا لكثير، ثم استعير للفصيح في كلامه، ولكل من أحسن في شيء، فكأنه قيل: ما أحسن ما جئت به! وقيل: معناه الله اللبّ الذي شربته من أمّك، قال الفرّاء رحمه الله: ربما قالوا: دَرَكَ، ولم يقولوا: لله دَرَكَ، وأنشد: [الخفيف]

دَرَ دَرَ الشَّبَابِ والشَّعَرِ الْأَسَدِ سَوْدِ والضَّامِرَاتِ تحت الرُّجَالِ

قوله: «نفثات»، أي كلمات. وهاأ: عجباً. والمنذر: المعلم بما يخاف. تماكر: تخادع. سطوة: بطشة. المتحكم: الذي يتحكم بما شاء فيُمثّل حكمه. مسيطر: أمير مسلّط. يقيل: يغفر الزلة. أوان: وقت. عاهده: حالفه. مشورته: أخذ رأيه. الارتداع: الكفّ. تلبّيس: تخليط. صورته: قصته. فُصّل: زال الخثر: الخداع. يلمع: يضيء، يريد أنه انفصل عنه وعلى وجهه علامة الغدر، وأن يمينه التي حلف له كاذبة، وأوّل مَنْ نظم في هذا المعنى الشّمّاخ حين قال: [الطويل]

أتّني تميّمَ قَضُها بقَضِيزها تمسّحَ حَوَلي بالبقيع سبأها^(١)
يقولون لي: احلف ولسنُ بحالف أخادعهم عنها لكيما أنالها
ففرّجت همّ النفس عني بحلفه كما شقّت الشقراء عني جلالها

ومن الملح في اليمين الفاجرة، قول ابن الروميّ: [المتقارب]

وإنّي لذو حَلِفٍ كاذبٍ إذا ما استمحتُ وفي المال ضيقُ
وهلّى من جناحٍ على معسر يدافع بالله ما لا يطيقُ
وقال فيه أيضاً: [الوافر]

إذا حلّت على ضيق دُيُوني وبأكرني التّجار وخوفُوني
دفعتهُمُ بمن لو شاء أدّى حقوقهم إليهم منذ حينٍ
ولِدَعِبَل: [الخفيف]

سألوني اليمينَ فارتغتُ عنها كي يغفروا بذلك الارتياح^(٢)
ثم أرسلتها كمنحدر السّينِ لئلا تدلّي من المكان اليفاع
وأنشد أبو عليّ: [الكامل]

لا شيء يدفعُ حقَّ خصمٍ شاغبٍ إلّا كحلف عبيدة بن سَمَيْدَع

(١) الأبيات للشّمّاخ بن ضرار في ديوانه ص ٢٩٠، والبيت الأول في خزانة الأدب ٣/١٩٤، وشرح المفصل ٢/٦٣، والكتاب ١/٣٧٤، ولسان العرب (قضض) (سبل)، وتاج العروس (سبل).

(٢) البيتان في ديوان دَعِبَل بن عليّ الخزاعي ص ١٠٧.

يمضي اليمين على اليمين لجاجة عَضَّ الجموح على اللجام المقديع
 فإذا يذكر حلفه أصغى لها وإذا يذكر بالتقى لم يسمع

قوله : «تصاريف»، أراد التصرّف بالجولان في البلدان . والأسفار : الأول : جمع السفر في البلاد، والثاني : جمع سِفْر، وهو الكتاب، قال الفراء رحمه الله : الأسفار : الكتب العظام . والتصانيف : التأليف المتنوعة، والمصنّف الذي فيه أنواع شتى .

المقامة التاسعة

وهي الإسكندرانية

قال الحارث بن همام: طحا بي مَرَحُ الشَّبَابِ؛ وَهَوَى الاكْتِسَابِ، إِلَى أَنْ جُبْتُ مَا بَيْنَ فَرْغَانَةِ وَغَانَةِ، أَخُوْضُ الْغِمَارِ، لِأَجْنِي الثَّمَارِ، وَأَقْتَحِمَ الْأَخْطَارِ، لِكُنِّي أَذْرِكَ الْأَوْطَارِ، وَكُنْتُ لَقِفْتُ مِنْ أَفْوَاهِ الْعُلَمَاءِ، وَتَقِفْتُ مِنْ وَصَايَا الْحُكَمَاءِ، أَنَّهُ يَلْزُمُ الْأَدِيبَ الْأَرِيبَ، إِذَا دَخَلَ الْبَلَدَ الْغَرِيبَ، أَنْ يَسْتَمِيلَ قَاضِيَةً، وَيَسْتَخْلِصَ مَرَاضِيَةً، لِيَشْتَدَّ ظَهْرُهُ عِنْدَ الْخِصَامِ، وَيَأْمَنَ فِي الْغَزْبَةِ جُورَ الْحُكَامِ؛ فَاتَّخَذْتُ هَذَا الْأَدَبَ أَمَامًا، وَجَعَلْتُهُ لِمَصَالِحِي زِمَامًا، فَمَا دَخَلْتُ مَدِينَةً، وَلَا وَلَجْتُ عَرِيْنَةً، إِلَّا وَامْتَرَجْتُ بِحَاكِمِهَا امْتِزَاجَ الْمَاءِ بِالرَّاحِ، وَتَقَوَّيْتُ بِعَنَائِيَّتِهِ تَقَوِّيَ الْأَجْسَادِ بِالْأَرْوَاحِ.

طحا بك قلبك ووهمك طخوآ وطخياً: ذهب بك، وطحا الله الأرض. ودحاها: بسطها. ابن الأنباري: طحا قلبه في الهوى واللهو، إذا تطاول وتمادى، قال علقمة: [الطويل]

* طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبٌ^(١) *

مرح الشباب: نشاط الفتوة. جُبْتُ: قطعت ومشيت.

[فرغانة]

فرغانة: مدينة في أقصى خراسان، وكان فيها بيت يُسمَّى هيكل الشمس، بناه فارس الملك، وخَرَّبَهُ المَعْتَصِمُ، وبها قُتِلَ قَتِيْبَةُ بن مسلم الباهلي أمير خراسان سنة ثلاث وخمسين، وبينها وبين سَمَرْقَنْدِ ثلاثة وخمسون فرسخاً. قال اليعقوبي: من سَمَرْقَنْدِ إلى أسروشنة خمس مراحل شرقاً، ومن أسروشنة إلى فَرْغَانَةِ مرحلتان، ومدينة فرغانة التي

(١) عجزه:

بُعَيْدُ الشَّبَابِ عَصَرَ حَانَ مَشِيْبُ

والبيت لعلقمة الفحل في ديوانه ص ٣٣، والأضداد ص ١٤٩، وخزانة الأدب ٢٨٩/٤، ولسان العرب (طحا)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٩٩، ووصف المباني ص ٣٥٤.

ينزلها الملك يقال لها كاسان، وهي مدينة جليلة القَدْر، عظيمة الأَمْر، وكلُّ هذه المدن مضافة إلى عمل سَمَرْقند. وكان أنوشروان بنى قَرْعَانة، ونقل إليها من كل بيت قوماً، وسَمَّاهَا أزهر خانة، أي من كل بيت.

[غانة]

وغانة : بلد من بلاد السودان، وإليها ينتهي التجار، والمدخل إليها من سِجْلَمَاسة، ومن سِجْلَمَاسة إليها مسافة ثلاثة أشهر، ومن غانة إلى سِجْلَمَاسة شهر ونصف، ودون ذلك، وسبب ذلك أن الرِّفاق تتجَهَّز إليها من سِجْلَمَاسة بالأمتاع والأثقال، فتباع في غانة بالتَّبَر، فمن سافر إليها بثلاثين جِمَلاً يرجع منها بثلاثة أحمال، أو بحملين : واحد لركوبه، وثان للماء بسبب المفازة التي في طريقها، حدَّثني غيز واحد من تجارها أنهم يقطعون المفازة في ستة عشر يوماً، لا يروُن فيها ماء إلا على ظهور الإبل، فأثمان أحمال الثلاثين جِمَلاً يجتمع فيها من التَّبَر ما يجعل في مِرْوَد واحد، فيطوون المراحل للخِفَّة. وغانة بلد مملكة السودان، وانتشر الإسلام في أهلها، وبها مدارس للعلم، وبها من تجار المغرب كثير يدخلون التجارة فيصيبون الخُضْب والأمن وكثرة المتاجر، فيشترون بها خدماً للتَّسَرِّي، ويقيمون بها عند أميرها في غاية الكرامة، والخدم فيها قد جعل الله فيهن من الخصال الكريمة في خُلُقهن فوق المراد، من ملاسة الأبدان، وتفتق السواد، وحسن العينين، واعتدال الأنوف، وبياض الأسنان، وطيب الروائح.

[السواد والبياض ومما قيل فيه شعراً]

وكان ابن الرومي وصف واحدة منهن بقوله : [مخلع البسيط]

ذَوَاتُ التُّسِيمِ وَالْعَبَقِ
قُلُجِ الشَّفَاهِ الْخَبَائِثِ الْعَرَقِ
صِبْغَةَ حَبِّ الْقُلُوبِ وَالْحَدَقِ
مَنْ تُغْرِهَا كَالْأَلَاءِ النَّسَقِ
لَيْلُ تَعَرَّى دُجَاهٍ عَنْ قَلَقِ
مَنْ قَلْبٍ صَبٌّ وَصَدْرُ ذِي حَقِّ
تَزْدَادُ ضَيْقاً أَنْشَوْتَ الْوَهَقِ
مَوْزَّرَ مَعْجَبٍ وَمَنْتَطَقِ

تَذَكَّرَكَ الْمَسْكُ وَالْغَوَالِي وَالنَدِ
لَيْسَتْ مِنَ الْعُبْسِ الْأَكْفِ وَلَا الـ
أَكْسَبَهَا الْحَبُّ أَنَّهَا صُبِغَتْ
يَفْتَرِ ذَاكَ السَّوَادُ عَنْ يَقَقِ
كَأَنَّهَا وَالْمِزَاحُ يَضْحَكُهَا
لَهَا حِرٌّ يَسْتَعِيرُ وَقَدَّتْهُ
يَزْدَادُ ضَيْقاً عَلَى الْمَرَامِ كَمَا
غَصَنَ مِنَ الْآبَنُوسِ رُكْبَ فِي
وَقَالَ الشَّرِيفُ الرُّضِيُّ : [الطويل]

رَأَيْتُكَ فِي الْعَيْنَيْنِ وَالْقَلْبِ تَوَآمَا^(١)

أَحْبُكَ يَا لَوْنَ السَّوَادِ فَإِنِّي

(١) الأبيات في ديوانه الشريف الرضي ص ٧٥٥.

وما كان سهمُ العين لولا سَوادُها
إذا كنت تهوى الطبى أَلْمَى فلا تَلَمْ
وقال ابن مسلمة : [الوافر]

يكون الخالُ في خَدِّ قبيح
فكيف يُلامُ مشغوفٌ على مَنْ
وله أيضاً : [السيط]

لام العواذلُ في سوداء فاحمةٍ
وهام بالخالِ أقوامٌ وما عَلِمُوا
ولابن رباح : [الوافر]

وسوداء الأديمَ إذا تَبَدَّتْ
رأها ناظري فصَبَا إليها
ولابن رشيق : [مخلع السيط]

دعا بِكِ الحسن فاستجِيبِي
تيهِي على البيضِ واستطِيلِي
ولا يرغِركِ اسودادُ لونِ
فلئنما الثُور عن سوادِ

قال ابن رشيق : أخذته من قول الآخر ، أنشده الجاحظ : [الخفيف]

مشبهاً الشَّبَابِ والمسك تفديهِـ
كيف يهوى الفتى اللبيبِ وصالِـه
من نفسي من الرَّدَى والخطوبِ
بيضُ ، والبيضُ مشبهاتِ المشيبِ

وأخذ بيته الآخر من قول الآخر ، أنشده الجاحظ : [الطويل]

ولأنَّ سواد العين في العين نورُها
فأخذه أيضاً أبو الطيب ، فقال في كافور وأحسن : [الطويل]

فجاءت بنا إنسانَ عينِ زمانه
ولابن الجَهْم : [المتقارب]

وعائب للشمْرِ من جهلِهِ
قولوا له عَنِّي : أما تستحي !
مفضلٌ للبيضِ ذي مخك
من يجعلِ الكافور كالْمسك !

والسابق لهذا المعنى أبو حفص الشَّطرنجِيّ، والناس تَبَعَ له حيث قال: [السريع]

أشْبَهَكَ الْمَسْكُ وَأَشْبَهَتْهُ قائمة في لونه قاعده
لا شَكَّ - إِذْ لَوْكُما وَاحِدُ أنْكُما مِنْ طِينَةٍ وَاحِدِ

على أَنَّ العباس بن الأحنف معاصره، قال: [الطويل]

أَجَبَ النِّسَاءَ السُّودَ مِنْ أَجَلِ تَكْتُمِ ومن أَجْلِهَا أَحْبَبْتُ مَا كَانَ أَسْوَدًا
فَجِئْنِي بِمِثْلِ الْمَسْكِ أَطِيبَ نَكْهَةً وجِئْنِي بِمِثْلِ اللَّيْلِ أَطِيبَ مَرْقَدًا

أخذ بيته الأول من قول ابن الأعرابي: [الوافر]

أَحَبُّ لِحَبِّهَا السُّودَانِ حَتَّى أَحَبُّ لِحَبِّهَا سَوْدَ الْكَلَابِ

وقال ابن الرومي في تفضيل السَّواد على البياض: [المنسرح]

وَبَعْضُ مَا فَضَّلَ السَّوَادَ بِهِ وَالْحَقُّ ذُو سَلَمٍ وَذُو نَفَقِ
أَلَا يَعْيبُ السَّوَادَ خُلُكُهُ وَقَدْ يُعَابُ الْبَيَاضُ بِالْبَهَقِ

وهذه الأقوال كلها على استحسانها اعتذارات واقتدارات من الشعراء على تحسين القبيح، والأمر المجمع عليه تفضيلُ البياض.

قال الجاحظ: العرب تمدح بالبياض، وتهجو بالسَّواد، وربما مدحوا بالسَّواد، ولكن أصل ما يبنون عليه أمرهم ذمّه، وأنشد: [الوافر]

لَهُمْ دِيبَاجَةٌ عُرِفَتْ قَدِيمًا بِيَاضٌ فِي الْوُجُوهِ وَفِي الْجُلُودِ

وأحسن كشاجم فيما قصد إليه بقوله: [المديد]

يَا مَشَبِهَا فِي فَعْلِهِ لَوْنُهُ لَمْ تَعْدُ مَا أَوْجَبَتْ الْقِسْمَةَ^(١)
خُلُقِكَ مِنْ خَلْقِكَ مُسْتَخَرَجٌ وَالظُّلَمُ مُشْتَقٌّ مِنَ الظُّلْمَةِ

قوله: «جبت ما بين فرغانة وغانة»، وما هنا بمعنى الذي، كأنه قال: جبت الذي بين فرغانة التي هي أقصى المشرق، وغانة التي هي أقصى المغرب من البلاد والقفار والبحار لكسب المال، فما هي التي أوجبت لِمَا بين البلدتين ما ذكر أن يعمّ بالمشي، ولو سقطت لم يلزم العموم، وكأنه يشير بهذا التعبير إلى قول حبيب: [الطويل]

سَلِي هَلْ عَمِرْتَ الْقَفَرُ وَهُوَ سَبَاسِبٌ وَغَادَرْتُ رَبْعِي مِنْ رِكَابِي سَبَاسِبًا^(٢)
وَعَزَيْتَ حَتَّى لَمْ أَجِدْ ذَكَرَ مَشْرِقٍ وَشَرَقْتَ حَتَّى قَدْ نَسَبْتَ الْمَغَارِبَا

(١) البيتان في ديوان كشاجم ص ١٧.

(٢) البيتان في ديوان أبي تمام ص ١٧.

قوله : «أخوض الغمار»، أي أدخل المياه الغزيرة فأجوزها. أقتحم الأخطار، أي أترامى في المخاوف. والخطر: الغرر. والأوطار: الحاجات. وقال أبو عمر القسطلي فيما يتعلق بهذا: [الطويل]

تخوَّفني طولَ السَّفار وإنني
دعيني أُرذِ ماءَ المفاوِزِ آجناً
ألم تعلمي أنَّ الثَّواءَ هو النَّوى
وأن خطيرات المهالك ضَمَنُ

لتقبيلِ كفِّ العامريِّ سَفِيرُ
إلى حيث ماء المكرمات نَمِيرُ
وأن بيوتَ العاجزين قُبُورُ
لراكبها أنَّ الجزاءَ خطِيرُ

وقال النابغة الجعدي: [الطويل]

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه
فسِر في بلاد الله والتمس الغنى

شكا الفقر أو لام الصديق فأكثر^(١)
تَعِشْ ذا يسار أو تموت فتُعذَّرَا

وقال ابن سارة: [البسيط]

سافر فإنَّ الفتى من باب مفتحاً
إن شئت خضرتها يا ابن الرِّخاء فكُنْ
ولا يصدُّنك عن أمر تصعِّبه
لا بدَّ أن يقع المطلوب في شَرِّكَ

قُفِّلَ النجاح بمفتاح من السَّفرِ
في طيِّ عمر الفَيافي نائي الحَضَرِ
قد ينبع الكوثر السلسال من حَجَرِ
ولو بنى وكُره في دارة القَمَرِ

[مما قيل في السفر والحض عليه]

ومما ينتظم في باب الحض على السفر وترك العجز قولهم: لا ينبغي للعاقل أن يكون إلا في إحدى المنزلتين، إما في الغاية من طلب الدنيا، وإما في الغاية من تركها، ولا ينبغي للعاقل أن يرى إلا في أحد مكانين، إما مع الملوك مكرماً، وإما مع العباد متبتلاً، ولا يعد الغرم غرمًا إلا إذا ساق غنماً، ولا الغنم غنماً إلا إذا ساق غرمًا؛ ونظم هذا المعري فقال: [الوافر]

ذرِ الدنيا إذا لم تخط فيها
وأصبح واحدَ الرِّجلين إمَّا

وكن فيها كثيراً أو قليلاً^(٢)
مليكاً في العشائر أو أبيعاً

(١) البيت الأول للنابغة الجعدي في ديوانه ص ٧٣، وبلا نسبة في كتاب العين ٣٩٠/٥، والبيت الثاني ليس في ديوان النابغة، وهو لعروة بن الورد في ديوانه ص ٨٩، ولأبي عطاء السندي في الأغاني ٢٤٤/١٧، ولربيعه بن الورد في العقد الفريد ٣١/٣، وبلا نسبة في رصف المباني ص ١٣٣، والمقرب ٢٦٣/١.

(٢) البيتان في سقط الزند ١٣٧١.

الأبيل : الراهب .

وفي كتاب الهند : من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب .

وفي التوراة : ابن آدم ، خُلِقَتْ من الحركة إلى الحركة ، فتحرّك وأنا معك .

وفي بعض الكتب : امدد يدك إلى بابٍ من العمل ؛ أفتح لك باباً من الرزق .

وقالوا : مَنْ ضَعُفَ عن عمله اتّكل على رزق غيره .

وقال عليّ رضي الله عنه : الحرص مقدّمة الكون .

وقال النبي ﷺ لوفد عبد القيس : « ما المروءة فيكم ؟ » قالوا : العفة والجرفة .

ورئي عكرمة وراء نهر بلخ ، فقيل له : ما جاء بك ها هنا ؟ فقال : بناتي .

وقال رجل لمعروف الكرخي : يا أبا محفوظ أتحرك لطلب الرزق أم أجلس ؟ قال :

لا بل تحرك ، فإنه أصلح لك ، فقال : أتقول هذا ؟ قال : وما أنا قلته ولكن الله عز وجل أمر به ، قال لمريم عليها السلام : ﴿ وَهْزِي إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا حَنِينًا ﴾ [مريم : ٢٥] ولو شاء لأنزله عليها .

وأشد الثعاليبي : [الطويل]

ألم تر أن الله أوْحَى لمريم وهْزِي إِلَيْكَ الْجِذْعَ يَسَاقِطُ الرُّطْبُ
ولو شاء أن تجنّيه من غير هَزْها جنّته ، ولكن كلّ شيءٍ له سَبَبُ

وقال موسى بن عمران عليه السلام : لا تلوموا السّفَر ؛ فإنّي أدركت فيه ما لم يدركه أحد ؛ يريد أن الله كلمه فيه .

ونظم هذا المعنى حبيب فقال : [المنسرح]

فإن موسى صلّى على روحه الله صلاةً كثيرة القُدُس^(١)
صار نبياً وعُظُم بُغْيَتُهُ في جذوة للصّلاء والقَبَسِ

قال المأمون : لا شيء ألدّ من السفر في كفاية ؛ لأنك تحلّ كل يوم في محلّة لم تحلّها ، وتعاشر قوماً لم تعاشرهم .

الثعاليبي : من فضائل السفر أن صاحبه يَرى من عجائب الأمصار ، وبدائع الأقطار ، ومحاسن الآثار ، ما يزيده علماً بقدرة الله ، ويدعوه إلى شكر نعمته .

وفي الأثر الصحيح : سافروا تصحّوا وتغنموا .

آخر : السفر يشدّ الأبدان ، وينشط الكسلان ، ويشهي إلى الطعام .

(١) البيتان في ديوان أبي تمام ص ١٧٠ .

آخر: ليس بينك وبين بلد نَسَب، فخير البلاد ما حَمَلَكَ .

قال ابن رشيقي: كتبتُ إلى بعض إخواني: مثل الرجل القاعد - أعزك الله - كمثل الماء الراكد، إن تُركَ تَغَيَّرَ، وإن تحوَّك تَكَدَّرَ، ومثل المسافر كالسحاب الماطر، هؤلاء يَدْعُونَهُ رَحْمَةً، وهؤلاء يَدْعُونَهُ نَقْمَةً، فإذا اتصلت أيامه، ثقل مقامه، وكثر لُؤَامُهُ، فاجمع لنفسك فرجة الغيبة، وفرحة الأوبة، والسلام.

وقال ابن رشيقي: [البسيط]

غَبَّ عَنْ بِلَادِكَ وَازْجُ حَسَنَ مَغْبَةً إِنْ كُنْتَ حَقًّا تَشْتَكِي الْإِفْلَاقَ
فَالْبِدْرُ لَمْ يُجْجِفْ بِهِ إِدْبَارَهُ أَلَا يَسَافِرُ يَطْلُبُ الْإِقْبَالَ
وقال أبو الطَّيِّبِ: [الطويل]

وما بلد الإنسان غير الموافق ولا أهله الأدنُونُ غير الأَصَادِقِ^(١)
وقال البحرِّي: [الخفيف]

وَإِذَا مَا تَنَكَّرْتَ لِي بِلَادُ أَوْ صَدِيقٍ فإِنَّنِي بِالْخِيَارِ^(٢)
وقال أبو الطَّيِّبِ: [الطويل]

إِذَا لَمْ أَجِدْ فِي بِلَدَةٍ مَا أُرِيدُهُ فَعِنْدِي لِأُخْرَى عَزْمَةٌ وَرِكَابُ
وقال إبراهيم بن العباس الصولِّي: [البسيط]

لَا يَمْنَعُنْكَ خَفْضُ الْعَيْشِ فِي دَعَةٍ نَزَوْعُ نَفْسٍ إِلَى أَهْلِ وَأَوْطَانِ^(٣)
تَلَقَّى بِكُلِّ بِلَادٍ إِنْ حَلَلَتْ بِهَا أَهْلًا بِأَهْلٍ وَجِيرَانًا بِجِيرَانِ

أي لا يَمْنَعُنْكَ الشوقُ إلى الوطن في الغربة من الاستمتاع بلذة العيش، فالأرض واحدة، والناس جنس واحد. وفي غير الحماسة: [البسيط]

لَا يَمْنَعُنْكَ خَفْضُ الْعَيْشِ فِي دَعَةٍ مَنْ أَنْ تَبْدَلَ أَوْطَانًا بِأَوْطَانِ

برفع «خفض»، أي لا يَمْنَعُنْكَ عَيْشُكَ الْهَنِيءُ فِي بِلَدِكَ أَنْ تَجُولَ فِي الْبِلَدَانِ، وترى الناس، فتستفيد النزهة والتجربة.

وقالوا: المسافر يسمع العجائب، ويكشف التجارب، ويجلب المكاسب. أوجشْ أهلك إذا كان أنسُكَ في إيحاشهم، واهجر وطنك إذا نبثْ نفسك عنه.

قيل لأعشى بكر: إلى كم ذا الاغتراب؟ أما ترضى بالدعة! قال: لو دامت الشمس عليكم يومين لملمتموها.

(١) البيت في ديوان المتنبي ٣٢٠/٢.

(٢) البيت في ديوان البحرِّي ص ٩٨٧.

(٣) البيتان في ديوان الصولِّي ص ١٥١.

أخذه حبيب فقال : [الطويل]

وطولُ مُقامِ المرءِ في الحيِّ مُخلِقٌ لذيِّباجتنيه فاغْتَرِبْ تتجدِّدُ^(١)
فإنِّي رأيتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ مُحَبَّةً إلى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدِ

وقال الحكماء : لا تُنال الراحة إلا بالتعب ، ولا تدرك الدعة إلا بالتَّصَبُّب . وقال

حبيب : [الطويل]

على أنني لم أحوِ وَفراً مجمُوعاً ففزت به إلا بشمل مبدِّدٍ^(٢)
ولم تُغْطِنِي الأيامُ يوماً مسكناً ألذُّ به إلا بنوم مُشْرِدِ

وقال ابن عبد ربه : هل يجوز في عقل ، أو يمثل في وهم ، أو يصح في قياس ، أن يُخَصَّدَ زرعٌ بغير بذر ، أو يثمر مالٌ بغير طلب ، أو تُجني ثمرة بغير غرس ، أو يُورَى زندٌ بغير قَذح ! وقد يكون الإكداء مع الكَذ ، والخينة مع الغيبة .

وقال الشاعر : [المقارب]

وما زلت أقطعُ عَرْضَ البلادِ من المشرقين إلى المغربين
وأذرعُ الخوفَ تحت الدُّجَى وأستصحبُ الجَدَى والفرقدَيْنِ
وأطوي وأنشرُ ثوبَ الهمومِ إلى أن رجعتُ بخُفِّي حُنَيْنِ

وقال ابن رشيق : [الكامل]

يُغْطَى الفَتَى فينالُ في دَعَا ما لم ينل بالكَدِ والتَّعَبِ
فاطْلُبْ لنفسك فَضْلَ رَاحَتِهَا إذ لَيْسَتْ الأشياءُ بالطَّلَبِ
إن كان لا رزقٌ بلا سببٍ فرجاءُ ربِّك أعظمُ السَّبَبِ

وقال محمد بن يسير : [المنسرح]

قد يُرْزَقُ الخافِضُ المقيمُ وما شدَّ لِعَنَسٍ رَحْلاً ولا قَتَبَا^(٣)
ويحرَمُ المالُ ذو المطية والرَّ حل وَمَنْ لا يزالُ مُغْتَرِبَا

وقال آخر : [البسيط]

قد يُرْزَقُ المرءُ لم تتعب رواحله ويحرَمُ الرُّزْقُ بالأسفار والتَّعَبِ
إنِّي وعمرُك ما أحصى ذَوِي حمقٍ الرزقُ أغدَى بهم من لاصقِ الجَرَبِ

(١) البيتان في ديوان أبي تمام ص ١٠٠ ، ١٠١ .

(٢) البيتان في ديوان أبي تمام ص ١٠٠ .

(٣) البيتان لابن عبد الأسد في الأغاني ٢١ / ٥ .

ولآخر : [الطويل]

ألا ربّ باغي حاجةٍ لا ينالها وآخر قد تُقضى له وهو جالسُ

آخر : [البسيط]

قد يُرزق المرء ، لا من حُسْنِ حيلته ويُصرف الرزق عن ذي الحيلة الداهي
ما مُسني من غنى يَوْمٍ ولا عَدَمٍ إلا وقولي فيه : الحمد لله

آخر : [البسيط]

لو كان باللبّ يزداد اللبيب غنى لكان كلّ لبيب مثل كافور
لكنه الرزق بالقسطاس من حِكَمٍ يَفْصِي اللبيب ، ويعطى كلّ ماخور

ومثل هذا قليل في كثير وإنما يحكم بالأغلب ، والتّجّح مع الطلب أكثر ، والحرمان للعاجز أصحاب ، وشرح حبيب هذا المعنى فقال : [الكامل]

همّ الفتى في الأرض أغصانُ المنى غُرِسَتْ وليست كلّ حين ثورق

أوصى بعضُ الحكماء ابنه وأراد سفرأ ، فقال : إنك تدخل بلداً لا تعرفه ، ولا يعرفك أهله ، فتمسكُ بوصيتي تنقُ بها ؛ عليك بحسن الشّمالك ؛ فإنها تدلّ على الحرّية ، ونقاء الأطراف فإنها تشهد بالملوكية ، ونظافة البزّة فإنها تشهد بالنّشء في النعمة ، وطيب الرائحة فإنها تظهر المروءة ، والأدب الجميل فإنه يُكسب المحبّة ، وليكن عقلك دون دينك ، وقولك دون فعلك ، ولباسك دون قدرك ، والزّم الحياء والأنفّة فإنك إن استحييت من الفظاظّة اجتنبت الخساسة ، وإن أنفّت من الغلبة لم يتقدّمك نظير في مرتبة .

قوله : «لَقِفْتَ» ، أخذت ، واللّقِف : أخذ ما يرمى إليك بيدك . ثَقِفْتَ : قيدت ، ويُمدح الرجل الحازم به فيقال : فلان ثَقِفَ لَقِف . والأريب : العاقل ، وقد أَرَبَ أَرابةً وأَرَباً ، صار أريباً ، والأربية من أربت العقدة أرباً ، شدّتها . يستميل : يستنزل ويدعوه أن يميل إليه . يستخلص مرضيه ، أي يحوزها لنفسه . ومراضيه : ما يُرضي القاضي ويوافقه ، وهو جمع مَرْضاة ، ويقال : صلة الرحم مَرْضاة للربّ ، أي يرضيه برّها ، يقول : العاقل إذا دخل بلدة استعطف قاضيها لنفسه ، بحسن خلقه حتى يخفّ عليه أمره . ليشنّد : ليتقوّى . جَوْر : ظُلم ، إماماً : قُدوة ، زماماً : حبلاً أقودها به . ولجت : دخلت . عرينة : بلدة ، وأصلها بيت الأسد . الراح : اسم الخمر ، وأبهم ، على ابن الرومي ممّ اشتقّ اسمها حين قال : [الكامل]

والله ما أدري لأيةِ علّةٍ يدعونها في الرّاح باسم الرّاح
ألريحها أم رُوحها تحت الحشا أم لارتياح نديمها المرتاح !

وانظر الامتزاج الذي ذكر في الخامسة والأربعين .
عنايته : اعتناؤه به واهتمامه .

فبينما أنا عند حاكم الإسكندرية، في عشيّة عريّة، وقد أخضر مال
الصدقات، ليفضّه على ذوي الفاقات، إذ حلّ شخصٌ عفرية، تغتله امرأةٌ مُضيّة،
فقالَتْ: أيد الله القاضي، وأدام به التراضي، إني امرأة من أكرم جزئومة، وأطهر
أرومة، وأشرف خؤولة وعمومة، ميسمي الصّون، وشيمتي الهون، وخُلقي نغم
العون، وبينني وبيّن جاراتي بون، وكان أبي إذا خطبني بُناة المجد، وأزباب الجدّ،
سكتهم وبكتهم، وعاف وصلّتهم وصلّتهم، واختجّ بأنّه عاهد الله بحلفّة، ألا
يُصاهر غير ذي حِرقة

[الإسكندرية]

مدينة عظيمة من بلاد مصر، بناها الإسكندر ذو القرنين، وهو الذي مشى مشارق
الأرض ومغاربها. قال السديّ: لما سأل أهل الكتاب النبي ﷺ عن ذي القرنين، قال:
سأخبركم كما تجدونه مكتوباً عندكم: إنّ أول أمره أنه غلام من الروم، أُعطي مُلكاً،
فسار حتى أتى ساحل البحر من أرض مصر، فابتنى عندها مدينة يقال لها الإسكندرية.

وقال الهمذانيّ: ذو القرنين ينسب إليه التاريخ قبل الإسلام، ومؤدبه أرسطاطاليس
الحكيم، وكان مُلكه الذي بلغ فيه أقصى المشرق والمغرب خمسة عشر عاماً،
والإسكندرية لما بناها رخمها بالرخام الأبيض جدرها وأرضها، فكان لباسهم فيها السواد
من نصوع بياض الرخام، وإذا كانت ليلة مقمرة يُدخل الخياط الخيط في خرق الإبرة من
بياض رخامها.

وقيل: إنها مكثت سبعين عاماً لا يدخلها أحد إلا وعلى بصره خرقه سوداء من
بياض جصّها ورخامها، ولم يحتج لها في تلك المدة إلى سراج بالليل من ضيائها.
وقيل: كانت ثلاث مدن يحيط بجمعها سور.

قال ابن جبير: ما شهدنا بلداً أوسع مسالك، ولا أعلى بناء، ولا أعتق ولا أحفل
من الإسكندرية، وأسواقها في نهاية الاحتفال ومن أعجب ما في وصفها أن بناءها تحت
الأرض كبنائها فوقها وأعتق، لأنّ الماء إذا جاء من النيل يخترق جميع آبارها وأزقتها
تحت الأرض، فتتصل الآبار بعضها ببعض، ويمد بعضها بعضاً، وعائناً فيها من سواري
الرخام والواحه كبيراً وعلواً واتساقاً حسناً ما لا يتخيل إلا بالوهم؛ حتى إنك تلقى بعض

سواربها يغصّ بها الجوّ صعوداً لا يدري معناها، ولا لأيّ شيء وضعت إلا ما يتحدّث به أنه كان عليها من قديم الزمان مبانٍ للفلاسفة وأهل الرّياسة ومن أعظم عجائبها المنار، آية للمتوسّمين وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا في البحر إلى برّ الإسكندرية، ويظهر على أزيد من سبعين ميلاً، ومبناه في نهاية العتّاقَة والوثاقَة طولاً وعرضاً، يزاحم الجوّ سمواً وارتفاعاً ينحصر عنه الوصف، وينحسر دونه الطّرف، الخبر عنه يضيق، والمشاهدة له تتسع، ذرغنا أحدَ جوانبه الأربع، فألفينا فيه نيفاً وخمسين باعاً، ويذكر أن في طوله أزيد من مائة وخمسين قامة.

وأما داخله فمرأى هائل، اتساعٌ معارج، ومداخل وكثرة مساكن حتى إن الوالج في مسالكه ربّما ضلّ، وفي أعلاه مسجد موصوف بالبركة، يتبرّك الناس بالصلاة فيه، طلعا إليها، وشهدنا من شأن مبناه عجباً لا يستوفيه وصف واصف، والله تعالى لا يخليه من عزة الإسلام.

قوله «عشية عريّة»، أي باردة. يفضّه: يفرّقه. ذوي الفاقات: أهل الفقر والحاجات. عِفْريّة: يقال رجل عِفْريّة وعِفْريّ وعِفْريّ، إذا كان صحيحاً شديداً موثق الخلق، أخذ من عَفَر الأرض، وهو التراب، أي من علّق به عفره بالأرض ومنه ليث عِفْرين، أي ليث ليوث، مُعَفّر لفريسته. قال الخليل: رجل عَفْرٌ بين العفارة، إذا وصِف بالشيطنَة، والعِفْير أيضاً: الظّريف الكيس، ويقال للشيطان: عِفْريت وعِفْريّة، وهم عَفّارية. وقرئ: «قال عِفْريّة من الجنّ»، وفي الحديث: «إن الله ليُبغِض العفريت النَّفْريت»^(١)، قيل هو الجُموع المَنوع.

وقال أبو عثمان التّهدّي: دخل رجل عظيم الجسم على النّبي ﷺ فقال له: متى عهدك بالحمّى. قال: ما أعرفها، قال فبالصّداع، قال: ما أدري ما هو! قال: أفأصبت بمالك؟ قال: لا، قال: أفرزنت بولدك؟ قال: لا، فقال ﷺ: «إن الله يُبغض العفريت النَّفْريت»^(٢)، وهو الذي لا يرزأ في بدنه ولا يصاب في ماله.

وقوله: «تعتله»، أي تسوقه بعنف، وكذلك تدّعه. مُصبية: لها صبيّ. جرثومة: أصل، وكذلك أرومة. ميسمي: علامتي. الصّون: الصيانة والانتقاض. شيمتي: طبيعتي. الهون: الرفق. بون: بُعد. بناء: جمع بان، والمجد: الشرف الضخم، وأصله من الإبل المواجد، وهي التي امتلأت بطونها من الرّعي وعظمت. وأمجدّها راعيها، إذا رعاها بحيث تمجد، ومجدّت وهي تمجد: رعت فامتلات. وحكى الأصمعيّ قال: أتيت

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٩٣/٥، بلفظ: «إن الله يبغض العفريّة النفريّة» أي المنكر الخبيث. وقيل: النفريّة والنفريت: إتياع للنفريّة والنفريت.

(٢) راجع الحاشية السابقة.

شُعبة يوماً؛ وعنده حماد بن سلمة، وهما يتكلمان في حديث فقال شعبة: يا أبا سلمة، هذا الفتى الذي ذكرت لك فقال حماد؛ يا بني كيف تنشد بيت الحطيئة: «أولئك قوم..؟» فابتدأت القصيدة من أولها: [الطويل]

ألا طرقتنا بعد ما هجعت هندُ وقد سِرْنَ خَمْساً واثلاث بها الجدُّ

إلى أن بلغت قوله: [الطويل]

أولئك قومٌ إن بنوا البنى وإن عاهدوا أوفوا وإن عَقَدُوا شَدُّوا^(١)

فقال لي حماد: يا بني إن العرب تقول: بنى يبني بناءً في العمران، ويقولون في الشرف: نبا يُنبو نَبَواً، فأنشد هذا البيت «أحسنوا البنى» عرفت قَدْرَ حماد من ذلك فما كنت أنشد إلا كما لقنني.

قوله: «أرباب الجدِّ». أي أصحاب السعد والمال. والعرب تقول: لفلان جدٌّ من الدُّنيا، أي حظ وبخت، قال امرؤ القيس: [الوافر]

* وقاهم جدُّهم ببني أبيهم^(٢) *

وقال آخر: [الخفيف]

عش بجدٍّ ولا يضرُّكَ نَوُكُ إنما عيشُ مَنْ تَرَى بالجدود^(٣)
وجدَ الرّجل: صار له جدٌّ، وأجدّه الله: جعل له جدًّا، وما كنتَ ذا جدٍّ، ولقد جدِّدتَ جدًّا، ورجل جديد: حَظِيزٌ من الجدِّ والحظِّ.

أبو عبيد قوله: «ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدِّ»، أي ولا ينفع ذا الغنى منك غناه إنما تنفعه طاعته. يعقوب: أي من كان له حظ في الدنيا لم ينفعه ذلك في الآخرة.

بَكَّتْهُمْ: قطع كلامهم وأهانهم. عاف: كره. وضلتهم: اتَّصَلَهُمْ به، والوُضْلة: سبب التواصل، وهي في الآدميين ما يصل واحداً بآخر من حُبٍّ وغيره، والوُضْلة بالفتح: ما جعلته بين عود وعود، أو حبل وحبل، فوصلتُهما به. صلتهم: عطيتهم. حِلْفَة: يمين. يصاهر: يخاتن. حِرْفة: صنعة ومكسب، وهي فِغْلَة من الحُرْف وهو الحرمان،

(١) البيت للحطيئة في ديوانه ص ٤١، ولسان العرب (عقد)، (بنى)، والمخصص ١٦٤/٢، ١٢٢/٥، ١٣٩/١٥، وتهذيب اللغة ١٩٧/١، ٤٩٢/١٥، وتاج العروس (بنى).

(٢) يروى البيت:

رقاهم جدُّهم ببني أبيهم وبالأشقيين ما كان العقابُ

وهو في ديوان امرئ القيس ص ١٣٨، ومقاييس اللغة ٨٣/٤.

(٣) البيت لأبي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي في لسان العرب (عجه)، وتاج العروس (هبتق)، (عجه)، وبلا نسبة في لسان العرب (هبتق).

والمحارف: المحروم، كأنَّ صاحبها منع الرزق، فصار يعالج كسبه.

أبو هريرة رضي الله عنه، قال ﷺ: «خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح»^(١).

سهل بن سعد رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «عمل الأبرار من الرجال الخياطة، ومن النساء الغزل».

فَقَيْضَ الْقَدَرِ لِنَصْبِي وَوَصْبِي، أَنْ حَضَرَ هَذَا الْخُدْعَةَ نَادَى أَبِي، فَأَقْسَمَ بَيْنَ رَهْطِهِ، أَنَّهُ وَفَّقُ شَرْطِهِ، وَأَدْعَى أَنَّهُ طَالَمَا نَظَّمْ دُرَّةً إِلَى دُرَّةٍ، فَبَاعَهُمَا بِبَذْرَةٍ؛ فَاغْتَرَّ أَبِي بِزُخْرِفِ مُحَالِهِ؛ وَزَوَّجَنِيهِ قَبْلَ اخْتِبَارِ حَالِهِ، فَلَمَّا اسْتَخْرَجَنِي مِنْ كِنَاسِي، وَرَحَّلَنِي عَنْ أَنَاسِي، وَنَقَلَنِي إِلَى كِسْرِهِ، وَحَصَّلَنِي تَحْتَ أُسْرِهِ، وَجَدْتُهُ قُعْدَةً جُئِمَةً، وَأَلْفَيْتُهُ ضُجْعَةً نُومَةً. وَكُنْتُ صَحْبَتُهُ بَرِيَّاشَ وَزِيٍّ، وَأَثَاثَ وَرِيٍّ، فَمَا بَرِحَ يَبِيعُهُ فِي سُوقِ الْهَضْمِ، وَيَتْلِفُ ثَمَنَهُ فِي الْخَضْمِ وَالْقَضْمِ، إِلَى أَنْ مَزَّقَ حَالِي بِأُسْرِهِ، وَأَنْفَقَ مَالِي فِي عُسْرِهِ.

قوله: «قَيْض»، أي قَدَرٌ وساق. نَصْبِي: تعبي. وَوَصْبِي: مرضي، ونَصِبَ الرجل نَصْبًا. أَعْيَا من التعب، وَوَصَبَ وَصْبًا: أتعبه المرض، فهو نَصِبٌ وَوَصِبٌ. الْخُدْعَةُ: الكثير الخداع لغيره، وبسكون الدال الذي يخدعه غيره كثيراً؛ التحريك للفاعل والسكون للمفعول فيما يأتي على «فَعْلَةٍ» من الصفات. نادى: مجلس. رهطه: قومه، وهو اسم لجماعة من ثلاثة إلى عشرة، ويجمع أرهط وأراهط. وفق شرطه: أي موافق ما اشترط. نَظَّمْ دُرَّةً، يريد أنه جوهري ينظم سلوك اللؤلؤ. بَذْرَةٍ: عشرة آلاف درهم، وأراد بالدُرَّةِ هنا الكلمة، ويعبَّرُ بها عن الحكمة، قال النبي ﷺ «لَا تَدْعُوا الدُّرَّةَ فِي أَفْوَاهِ الْكِلَابِ»، يعني العلم. اغتر: انخدع، وهو افتعل من الغرور. زخرف محاله: تزيين باطله، وأصل زخرف: زَيْن الشيء بالزخرف وهو الذهب. كِنَاسِي: بيتي وأصله اللَّطْبِي، وهو من قوله تعالى: «الْجَوَارِ الْكُنَّسِ» [التكوير: ١٦] تشبيهاً لها بالطباء على ما ذكره ابن قتيبة؛ ويقال له: كُنَّاسٌ وَمِكْنَسٌ من الكنس، كأنَّ الطَّيْبَةَ قد كُنَسَتْ مِرْقَدَهَا وَوِطْأَتَهَا. رَحَّلَنِي: نقلني وَحَمَلَنِي عَلَى الرَّحْلِ. كِسْرِهِ: بيته، وأصله جانب بيت الشَّعْرِ أو الْخِبَاءِ، لأنَّ جانب الْخِبَاءِ قد انكسر عن يمينه. أُسْرِهِ: حبسه. قُعْدَةً: كثير القعود. جُئِمَةً: كثير الجُثُوم، وهو ملازمة الموضوع. ضُجْعَةً: كثير الاضطجاع، وهو الامتداد على الأرض للنوم. نُومَةً: كثير النوم، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لهم المقت من الله»، وذكر الذي يكثر النوم بالنهار،

ولم يأخذ من الليل شيئاً، وفي حديث آخر: «خير أهل شر الزمان مؤمن نومة»^(١). أبو عبيدة: هو الخامل الذكر الذي لا يعرف الشرّ وأهله، فتريد أنه عاجز قد لازم بيتها، فإن تصرّفت فيه اعترضها ممتدّاً، فلا تجد معه راحة. رياش: ثياب، «فِعال» من الرّيش، لأنها تكسو البدن كما يكسو الرّيش الطائر. زيّ: هيئة حسنة من اللباس. أثاث: متاع. ريّ: حالة حسنة، وأصله الهمز، فسُهل وأدغم ليوافق «زيّاً» قال ابن الأنباريّ: الأثاث: المتاع. والرّوي والرّؤاء: المنظر، وما له رؤاء أي ماله منظر ولا لسان. والحرفان، من رأيت أرى. ما برج: ما زال. الهضم: النقصان. الحضم: الأكل بالضم كله. والقضم: الأكل بأطراف الأسنان. مزق: قطع وأفسد. حالي: غنائي، ويروى «مالي» مكان «حالي»، وما فيه بمعنى الذي كأنه قال: فرّق الذي لي، ورواية ابن ظفر «بالي» بالباء، وقال: البال: الخاطر، وما لهذا الشيء بال، إذا حقّرتّه، والبال كالخلد، تقول خَطَر ببالي، كما تقول: خطر بخُلدي ونفسي، وكأنّ هذا هو الأصل. والبال: الحال أيضاً، ومنه قوله: [الوافر]

* وخالف بال أهل الدار بالي *

عسره، أي فقره.

فلما أنساني طعم الرّاحة، وغادَرَ بَيْتي أنقى مِنَ الرّاحة، قُلْتُ له: يا هَذَا، إِنَّهُ لَا مَخْبَأَ بَعْدَ بُوسٍ، وَلَا عِطْرَ بَعْدَ عَرُوسٍ، فَانْهَضْ لِلْاِكْتِسَابِ بِصِنَاعَتِكَ، وَأَجْنِبْنِي ثَمَرَةَ بَرَاعَتِكَ؛ فَرَعَمَ أَنَّ صِنَاعَتَهُ قَدْ رُمِيتْ بِالْكَسَادِ، لِمَا ظَهَرَ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْفَسَادِ، وَلِي مِنْهُ سُلَالَةٌ، كَأَنَّهُ خِلَالَةٌ، وَكِلَانَا مَا يَنَالُ مَعَهُ شَبَعَةٌ، وَلَا تَرْقَأْ لَهُ مِنَ الطَّوَى دَمْعَةٌ، وَقَدْ قُدْتُهِ إِلَيْكَ، وَأَخْضَرْتُهُ لَدَيْكَ، لَتَعْجُمَ عُودُ دَعْوَاهُ، وَتَحْكُمَ بَيْنَنَا بِمَا أَرَاكَ اللهُ.

فأقبل القاضي عليه، وقال له: قَدْ وَعَيْتُ قَصَصَ عِرْسِكَ، فَبَزِهِنِ الْآنَ عَنْ نَفْسِكَ، وَإِلَّا كَشَفْتُ عَنْ لَبْسِكَ، وَأَمَرْتُ بِحَبْسِكَ؛ فَأَطْرَقَ أَطْرَاقُ الْأَفْعُوَانِ، ثُمَّ شَمَّرَ لِلْحَزْبِ الْعَوَانِ، وقال:

الراحة: القرار والعيش الهنيء، وأراد بأنقى من الراحة خلوّ الكف من الشعر. مخبأ: سِرٌّ. بوس: شدة وفقر. عطر: طيب.

(١) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ١٣١/٥ من حديث علي بلفظ: «أنه ذكر آخر الزمان والفتن، ثم قال: خير أهل ذلك الزمان كل مؤمن نومة».

ولا عِطْرَ بعد عَرُوسٍ، مثل يضرب لتأخير الشيء عن وقت الحاجة إليه، وأصله أن رجلاً تزوج امرأة فوجدها ثَقِيلَةً، فقال لها: أين عِطْرُكِ؟ قالت: خبأته لغير هذا الوقت، فقال لها: لا مخبأ لعطر بعد عروسٍ؛ وبهذا اللفظ روى أبو زيد الأنصاري المثل.

البكري: عَرُوس رجل كانت عنده ابنة عم له، فمات عنها، فتزوجها بعده ابن عم لها آخر، وهي كارهة، وانطلق بها إلى أهلِه وقد زوَّدها طيباً في سَفَطٍ، فمَرَّ بها بقبر عروس، فأقبلت تبكيه وترفع صوتها، وتقول: يا عَرُوسَ الأعراس، ويا شديد الباس؛ مع أشياء لا يعلمها الناس. فانتهرها زوجها، وقال: ما تلك الأشياء؟ فقالت: كان عن المكارم غير نَعَّاس، يُعْمِلُ السيف صبيحة الباس. ثم قالت: يا عروس الأعراس الأزهر، الكريم المحضر، مع أشياء كانت تذكر؛ فازداد زوجها غضباً، وقال: ما تلك الأشياء؟ فقالت: كان عيواً للخنا والمنكر، طيب النكهة غير أبخر، ثم أخذت السَفَطَ وكسرتة على قبر عَرُوس، ثم قالت: لا عطر بعد عروس، فذهب مثلاً. فقال زوجها: ارجعي إلى أهلك، أنت طالق، فقالت: إذاً أنصرف مغتبطة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن عروساً هذا رجل من هذيل، وامراته هُذَلِيَّة اسمها أسماء.

قوله: «براعتك»، أي جودة تدبيرك. سلالة: ولد صغير كما سُلَّ من بطن أمه؛ ولهذا سُمِّيَ ولد الناقة عند التَّناج قبل أن يعلم أذكر هو أم أنثى: سليل، ثم اتسعوا في السلالة فقالوا: فلان كريم السلالة. والخِلالة: عود تُنقَى به الأضراس من الطعام، شَبَّهَتْ ولدها به في رِقَّتِه. ترقأ: تنقطع. الطوى: الجوع، وقال النبي ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيّع من يقوت»^(١). تعجُم: تختبر. دَعَّوَاه: ما ادَّعاه من الصَّنعة، وعجمت العود: عضضته بأسنانك لتعلم قوَّته من ضعفه. وعيت: حَفِظْتَ. قِصَص عرسك: حديث زوجك. بَرِهْن: أَظْهَر حُجَّتَكَ، والبُرهان: الحجة. لَبَسَكَ: تخليطك والتباس أمرك. أطرق: أَمال رأسه إلى الأرض ساكناً. الأفعوان: ذَكَر الأفاعي، وهذا منقول من قول المتلمس:

فأَطْرَقَ إِطْرَاقَ الشَّجَاعِ وَلَوْ رَأَى مَسَاغاً لِنَابِيهِ الشَّجَاعُ لَصَمَّمَا

ووقع لنا في رواية «لناباه»، وهي لغة. شمر: احتزم. العوان: التي قُوتل فيها مرة بعد أخرى، وهي أشد، والمرأة العوان: التي علت في السن ولم تهزم. والعوان: الثيب، كانت ذات زوج أو لم تكن، وعونت المرأة تعويناً، والجمع عُون. [المنسرح]

اسْمَعْ حَدِيثِي فَإِنَّهُ عَجَبٌ يُضْحِكُ مِنْ شَرْحِهِ وَيُسْتَحَبُّ

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة باب ٤٥، وأحمد في المسند ١٦٠/٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥.

أَنَا امْرُؤٌ لَيْسَ فِي خَصَائِصِهِ عَنِيبٌ وَلَا فِي فَخَارِهِ رَيْبٌ
 سَرُوجُ دَارِي الَّتِي وَلِدْتُ بِهَا وَالْأَضْلُ غَسَّانُ حِينَ أَنْتَسِبُ
 وَشُعْلِي الدُّزُسُ، وَالتَّبَخُّرُ فِي الـ عِلْمِ طِلَابِي، وَحَبْذَا الطَّلَبُ
 وَرَأْسُ مَا لِي سَخَرُ الْكَلَامِ الَّذِي مِنْهُ يُصَاغُ الْقَرِيضُ وَالْخُطْبُ
 أَغْرُصُ فِي لُجَّةِ الْبَيَانِ فَأُخـ تَارَ الْأَلَايِ مِنْهَا وَأَنْتَخِبُ
 وَأَجْتَنِي الْيَانِعَ الْجَنِيِّ مِنَ الـ قَوْلِ، وَعَيْرِي لِلْعُودِ يَخْتَطِبُ
 وَأَخْذُ اللَّفْظِ فِضَّةٌ فَإِذَا مَا صُغْتُهُ قِيلَ إِنَّهُ ذَهَبُ
 وَكُنْتُ مِنْ قَبْلُ امْتَرِي نَشْباً بِالْأَدَبِ الْمُتَقَى وَأُخْتَلِبُ
 وَيَمْتَطِي أَخْمَصِي لِحْزَمَتِهِ مَرَاتِباً لَيْسَ فَوْقَهَا رُتَبُ
 وَطَالَمَا زُقْتُ الصَّلَاتِ إِلَى رَبْعِي فَلَمْ أَرْضَ كُلَّ مَنْ يَهَبُ

* * *

قوله: «يُنْتخب»، أي يُبكى، ونحب نحباً: أعلن بالبكاء. خصائصه: فضائله وما يختص به من الأفعال المحمودة. ريب: شكوك. التبخر: التوسع. طلابي: أي طلبي، وإنما هو للعلم، وذكر التبخر والالاء والغوص وغير ذلك مجازاً؛ وقال النبي ﷺ: «ما انتعل رجل قط ولا تحقف ولا لبس ثوباً ليغدو في طلب علم يتعلمه إلا غفر الله له حيث يخطو عتبة بيته». روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من انتعل ليتعلم خيراً غفر الله له قبل أن يخطو».

ابن عباس رضي الله عنهما، قال النبي ﷺ: «الغدو والزواح في تعليم العلم خير عند الله من الجهاد في سبيله».

ابن مسعود رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «مَنْ خَرَجَ يَطْلُبُ بَاباً مِنَ الْعِلْمِ لِيرُدَّ بِهِ ضَلَالاً إِلَى هَدًى، أَوْ بَاطِلاً إِلَى حَقٍّ، كَانَ كَعِبَادَةِ مُتَعَبِدٍ أَرْبَعِينَ سَنَةً».

قوله: «يصاغ»، أي يصنع. القريض: الشعر، أغوص: أغيب في الماء إلى قعره. واللجة: معظم الماء، جعله للبيان مجازاً. الالاء: جمع لؤلؤة أنتخب: أختار. وقال المسيب بن علس في وصف الغائص وانتخابه الدرة وتشبيه المرأة بها: [الكامل]

كَجُمَانَةِ الْبَحْرِ جَاءَ بِهَا غَوَّاصُهَا مِنْ لُجَّةِ الْبَحْرِ^(١)
 نَصَفَ النَّهَارَ الْمَاءَ غَامِرُهُ وَشَرِيكَهُ بِالْغَيْبِ مَا يَدْرِ

(١) البيت الأول في ديوان المسيب بن علس ص ٦٠٩، ومقاييس اللغة ١/ ٤٧٥، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٤٩٥، وأساس البلاغة (جمن)، والبيت الثاني في ديوان المسيب ص ٦١٠، وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٠٣، وديوان الأدب ٢/ ١٢٢، وتاج العروس (نصف)، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٥/ ٤٣٢.

فأصاب مُنْيَتَه فجاء بها صدفيّة كمضيئة الجفّر
يُغطّي بها ثمناً فيمنعها ويقول صاحبه: ألا تشري!
وترى الصّراري يسجدون لها ويضمّها بيديه للنحر

وقال عبد الرحمن بن حسان: [الخفيف]

وهي بيضاء مثل جوهرة الغـ وواصٍ مُيِّزت من جوهري مكنون^(١)

وقال النابغة: [الكامل]

أو درّة صدفيّة غواضها بهجّ متى يرها يهّل ويسجد^(٢)

قوله: «اليانع» أي الناعم. الجنّي: الطري. أمّري نشباً، أي أستخرج مالاً، ومريث
ضرع الناقة: مسحته وحكته ليدّر اللبن. والنّشب، قيل: هو العقار وما لا ينقل، وكأنّ
مالكه قد نشب إليه حيث لا ينتقل به، كالذي ماله الماشية أو الذهب والفضة. المنتقى:
المختار، ويروى «المقتنى»، وهو المكتسب. ويقال: احتلب وحلب حلباً، والحليب:
اللبن، وهو الحلاب، والحلاب أيضاً: الإناء يحلب فيه، وأصله السّيلان. وتحلب
الضّرع: سال وانحلبت عينه: سال دمعها. يمتطي: يركب. أخمصي: باطن قدمي، وهو
ما ضمّر منها وارتفع عن الأرض. لحزّمته: أي لرفعته وشرفه. مراتباً: منازلًا. والمرتبة
منزلة الشرف، من الرّتب وهو ما أشرف من الأرض. والرّتب: جمع رتبة، وهي بمعنى
المرتبة، وأصل الرّتب الدّرج تقطع في الحجر ليصعد بها إلى أعلى الجبل، ومنه رتب
كلامه، إذا أتبع بعضه بعضاً على نظام واعتدال. زُفّت: حُمِلت، من زُفّت العروس إلى
زوجها إذا أهديتها له. الصّلات: العطايا. رُبّعي: منزلي. لم أرض كلّ مَنْ يَهَب، أي لا
أرضى أن أكون تحت منّة كل أحد. [المنسرح]

فاليومَ مَنْ يَغْلِقُ الرّجاء به أكسدُ شيءٍ في سوقه الأدب
لا عِرضُ أبْنائِهِ يُصان ولا يُزقّبُ فيهم إلّا ولا نَسَبُ
كأنّهم في عِراضِهِمْ جَيْفٌ يُبْعَدُ مِنْ نَشْنِهَا وَيُجَنَّبُ

(١) يروى البيت:

وهي زهراء مثل لؤلؤة العفر وواصٍ ميّزت من جوهري مكنون
وهو لأبي دهل الجمحي في ديوانه ص ٦٩، ولسان العرب (خضر)، (سنن)، ولأبي دهل أو لعبد
الرحمن بن حسان في الكامل ص ٣٨٨.

(٢) البيت في ديوان النابغة الذبياني ص ٩٢، ولسان العرب (بهج)، (هلل)، وتاج العروس (بهج)،
وأساس البلاغة (بهج)، وتهذيب اللغة ٣٦٧/٥.

فَحَارَ لُبِّي لِمَا مُنِيتُ بِهِ مِنْ اللَّيَالِي وَصَرَفُهَا عَجَبُ
وَضَاقَ دَزْعِي لِضِيقِ ذَاتِ يَدِي وَسَاوَرَتْنِي الْهُمُومُ وَالْكَرْبُ
وَقَادَنِي دَهْرِي الْمَلِيمُ إِلَى سُلُوكِ مَا يَسْتَشِيئُهُ الْحَسَبُ
فَبِغْتُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لِي سَبْدٌ وَلَا بَتَاتُ إِلَيْهِ أَنْقَلِبُ
وَأَذْنْتُ حَتَّى أَثْقَلْتُ سَالِفَتِي بِحَمَلِ ذَيْنِ مِنْ دُونِهِ الْعَطْبُ
ثُمَّ طَوَيْتُ الْحَتَى عَلَى سَعَبٍ خَمْسًا فَلَمَّا أَمْضُنِي السَّعَبُ
لَمْ أَرَ إِلَّا جِهَازَهَا عَرَضًا أَجُولُ فِي بَيْعِهِ وَأَضْطَرِبُ

* * *

مَنْ يَغْلُقُ: معنى من استفهام. يَرْقُبُ: يَرعى. إِلَ: قرابة، وَإِلَ: بقاء عهد. وسبب: معرفة وصحبه، والسبب: العلم، ومنه: «وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا» [الكهف: ٨٤]؛ وأصله الحبل؛ ثم يُستعمل في كل ما يَرْبُط شيئاً بشيء، من كلام أو غيره. عِرَاصُهُم: مواضعهم، وأصل العِرَاصَةُ، فناء الدار. يقال: لَبَّ الرَّجُلُ يُلَبُّ لِبَابَهُ، ورجل ملْبُوب: موصوف باللبابة، وَلُبُّ كل شيء من الثمار ولبابه: داخله، ولَبَّ كل شيء: خالسه. مُنِيتُ: ابتليت وَقُدِّرَ لي. صَرَفُهَا: تَقْلِبُهَا وتَصَرَّفُهَا بما يكره. دَزْعِي: كناية عن صدري وَخُلُقِي، وأصل الذَّرْعُ كيل الشيء بالذَّرْع؛ ثم صار مثلاً، يقال: ضَاقَ دَزْعِي بكذا إذا لم تحتمله وضَاقَ تَصَرَّفُكَ فيه. ذات يدي، أي مالي. ساوَرَتْنِي: واثبتني. الكرْبُ: الهموم، وكرزها لاختلاف اللفظ. الْمَلِيمُ: الذي أتى بما يُلام عليه. سُلُوكُ: دخول. يَسْتَشِيئُهُ: يستعيبُهُ، والشَّيْنُ: العيب. لَبْدٌ: شيء لا قليل ولا كثير، وأصله الصَّوْفُ، وأكثر ما يستعمل مُزْدَوِجًا مع سَبْدٍ؛ يقال: ما عنده سَبْدٌ ولا لَبْدٌ، أي لا شعر ولا صوف، ويراد بها نفي الإبل والغنم، ثم صار نفيًا لكل شيء من المال. بَتَاتُ: زاد. أَنْقَلِبُ: أَرْجِع.

أَذْنْتُ: أخذت بالذَّيْنِ، وفي حديث عمر: «فَإِذَا نَ مَغْرَضًا»^(١). والسالفة: صفحة العنق، يريد أن هذا الذَّيْنِ لثقله ومقاساة همومه فوق الْعَطْبِ، والعطب: الذي هو الهلاك دونه في الشدة. عائشة رضي الله عنها: قال النبي ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَذِلَّ عَبْدُهُ ابْتَلَاهُ بِالذَّيْنِ وَجَعَلَهُ فِي عَنَقِهِ»، وقال أنس رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالذَّيْنُ فَإِنَّهُ هُمُ بِاللَّيْلِ وَمَذَلَّةٌ بِالنَّهَارِ»، وروى جابر رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «لَا هُمْ إِلَّا هُمُ الذَّيْنُ وَلَا وَجَعٌ إِلَّا وَجَعُ الْعَيْنِ».

الحشى: أسقاط الجَوْفِ. سَعَبٌ: جوع. أَمْضُنِي: أحرقني. جهازها: متاعها الذي

(١) حديث عمر رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ١٤٩/٢.

جاءتني به، والجهاز، متاع البيت، يريد شئوارها، عَرَضاً، أراد «عَرَضاً» فحركه ضرورة، والعرض الأمتعة هنا، أخبرني بهذا مَنْ يوثق به في اللغة: والعَرَض خلاف النقد مشهور في اللغة. وفي العين: العَرَض، بفتح الراء: كثرة المال، فيقول: لَمَّا لم يبقَ لي مالٌ لم أرَ مالاَ إلا جهازها، فيكون على هذا أتم معنى، ويخرج عن الضرورة التي ألزمته ذلك التحريك. أحول: أتصَرَف. اضطرب: أكثر التردد والتصرَف. [المنسرح]

* * *

فَجُلْتُ فِيهِ وَالنَّفْسُ كَارِهَةٌ وَالْعَيْنُ عَبْرَى وَالْقَلْبُ مُكْتَسِبٌ
وَمَا تَجَاوَزْتُ إِذْ عَبَثْتُ بِهِ حَدَّ التَّرَاضِي فَيَخْذُ الْغَضَبُ
فَإِنْ يَكُنْ غَاظَهَا تَوَهُمُهَا أَنْ بَنَانِي بِالنُّظْمِ تَكْتَسِبُ
أَوْ أَتْنِي إِذْ عَزَمْتُ خِطْبَتَهَا زُخْرَفْتُ قَوْلِي لِيَنْجَحَ الْأَرْبُ
فَوَالَّذِي سَارَتْ الرَّفَاقُ إِلَى كَغَبَّتِهِ تَسْتَحْجُثُهَا الثُّجُبُ
مَا الْمَكْرُ بِالْمُحَصِّنَاتِ مِنْ شِيَمِي وَلَا شِعَارِي التَّمْوِيهِ وَالْكَذِبُ
وَلَا يَدِي مُذْ نَشَأْتُ نَيْطَ بِهَا إِلَّا مَوَاضِي الْيِرَاعِ وَالْكَثْبُ
بَلْ فِكْرَتِي تَنْظُمُ الْقَلَائِدَ لَا كَفِّي، وَشِعْرِي الْمُنْظُومُ لَا السُّخْبُ
فَهَذِي الْجِرْفَةُ الْمُشَارُ إِلَى مَا كُنْتُ أَخْوِي بِهَا وَأَجْتَلِبُ
فَأَذُنْ لَشَرْحِي كَمَا أَذْنَتْ لَهَا وَلَا تَرَاقِبْ وَاحْكُمْ بِمَا يَجِبُ

* * *

عَبْرَى: باكية. مكتتب: حزين. عَبَثْتُ: لعبت وتحكمت فيه؛ يقول: ما تصرفت في بيعه إلا برضا منها ومنى. قوله: «تَوَهُمَهَا»، أي ظنها. خطبتها: مراسلتها في النكاح. لينجح الأرب: لتقضى الحاجة. تستحجتها: تستعجلها. الثُّجُب: الإبل الكرام. المكر: الخداع، المحصنات: العفاف. شِيَمِي: طبائعي. شِعَارِي: علامتي: التمويه، تقدم في الثامنة. نَيْطٌ: علق، وناط الشيء نوطاً: علّقه. الْيِرَاع: الأقلام. والمواضي: المسرعة في الكتابة؛ يريد أنه فصيح لا يتوقف قلمه. السُّخْبُ: جمع سخاب، وهي قلادة قرنفل ليس فيها جوهر ولا لؤلؤ. قال ابن ظفر: السُّخْبُ: العقود من اللؤلؤ وغيره، ومن الطيب أيضاً. أَخْوَى: أَخَوَزَ وأجمع.

فَأَذُنْ: اسمع. لا تَرَاقِبْ: لا ترع منا أحداً ولا تؤثره على صاحبه واحكم بيننا بما يجب؛ وأخذ معنى الأبيات المتقدمة من قول ابن هزّمة:

إني امرؤ لا أصوغ الحَلِيَّ تعملُهُ كَفَيَّ لَكِنْ لِسَانِي صَائِغُ الْكَلِمِ

وقال آخر: [الطويل]

وانسي لنظام القلائد للُعلا ولستُ بنظام القلائد للُنخر

قال: فلما أحكَمَ ما شادَهُ، وأكملَ إنشادَهُ، عَطَفَ القَاضِي إلى الفَتاة، بَعْدَ أَنْ شُعِفَ بالأبْيَاتِ، وَقَالَ: أَمَا أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عِنْدَ جَمِيعِ الحُكَّامِ، وَوَلَاةُ الأَحْكَامِ، انْقِرَاضُ جِيلِ الكِرَامِ، وَمِثْلُ الأَيَّامِ إلى اللُّثَامِ، وَأَبْيَ لإِخَالِ بَعْلِكَ صَدُوقاً فِي الكَلَامِ، بَرِيّاً مِنَ المَلَامِ، وَهَذَا هُوَ قَدْ اعْتَرَفَ لَكَ بِالْقَرَضِ، وَصَرَّحَ عَنِ المَخْضِ. وَبَيَّنَّ مُصْداقَ النُّظْمِ، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ مَعْرُوقُ العَظَمِ؛ وإِغْنَاةُ المُعْذِرِ مَلَأَمَةً، وَحَبْسُ المُعْصِرِ مَأَلَمَةً، وَكِتْمَانُ الفَقْرِ زَهَادَةً، وَانْتِظَارُ الفَرَجِ بالصَّبْرِ عِبَادَةً، فَارْجِعِي إلى خِدْرِكَ، وَاعْذُرِي أَبَا عُدْرِكَ، وَتَنْهَيْهِ مِنْ غَرْبِكَ، وَسَلِّمِي لِقَضَاءِ رَبِّكَ. ثُمَّ إِنَّهُ فَرَضَ لَهُمَا فِي الصَّدَقَاتِ حِصَّةً، وَنَاوَلَهُمَا مِنْ دَرَاهِمِهِمَا قَبْضَةً، وَقَالَ لَهُمَا: تَعَلَّلاَ بِهَذِهِ العُلَاقَةِ، وَتَنَذِيَا بِهَذِهِ البَلَالَةِ. وَاضْبِرَا عَلَى كَيْدِ الزَّمانِ وَكَدِّهِ، فَعَسَى اللّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ. فَنهَضَا وَلِلشَيْخِ فَرَحَةً المَظْلُوقِ مِنَ الإِسَارِ، وَهَزَّةَ المُوَسِّرِ بَعْدَ الإِعْسَارِ.

قول: «أحكم»، أي أتقن. شاده: بناه وزينه، وشاد البناء: أطاله وعمله بالشيد، وهو الجص، ويقال: فيه: أشاد، ويقال: شاد عمله بالشيد وأشاده: أطاله، هو الأول، وأشاد الحديث: رفعه، وعطف: ثنى عُثْقَهُ وردها، وكل ما ثنيه من عنق أو جارية أو غود فقد عطفته. شُعِفَ: أعجب. انقراض: انقطاع وهلاك. جيل: صنف، وجيلك: أهل عصرِكَ بَعْلِكَ: زوجك؛ وبَعَلَ الرجل بَعُولَةً: تزوّج. والقَرْض: السلف، أراد به ما أعطته من ثمن جهازها سلفاً. صرّح: بيّن. وصرّح عن المخض، مثل يضرب لسرّ الأمر، إذا انكشف، وقالوا: أمرٌ صُراح، أي منكشف ظاهر، والصريح من اللبن: المحض الخالص الذي لا رَغْوَةَ فيه، قال الشاعر: [الوافر]

* وتحت الرَغْوَةَ اللبن الصَّرِيحُ ^(١) *

(١) صدره:

ولم يخشوا مصالته عليهم

والبيت لنضلة السلمي في لسان العرب (فصح)، ولأبي محجن الثقفي في البيان والتبيين ٣/ ٣٣٨، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في لسان العرب (صول)، وتاج العروس (صول)، ومجالس ثعلب ص ٨، وجمهرة اللغة ص ٥٤٢، ٥٥١.

ثم قالوا: لكل شيء خالص: صريح. وقوله: «بَيْنَ مصداق النظم»، يريد أن نظمه إنما هو للشعر لا للجوهر. معروق: لا لحم على عظمه، أي هو فقير إعنات: مشقة. المعذر: الذي يجهد نفسه في الشيء ثم لا يستطيعه، يقال: قد أعذر، أي قد بَيَّنَّ عذره أنه لا يقدر عليه، وعذر فهو معذر، إذا قَصُرَ في طلب الشيء، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَغْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٩٠]، وقال ابن دريد:

* حكم المعذر غير حكم المعذر *

الملائمة والمأتمنة: اللؤم والإثم. والمعسر: الفقير: والزهادة: قلة الرغبة، قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ جَاعَ واحتاج فكتمه الناس وأنزله بالله، كان حقاً على الله أن يفتح عليه رزق سنة من حلال».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «انتظار الفرج بالصبر عبادة». وقال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «ما صبر أهل بيت على جهد ثلاثاً إلا أتاهم الله عز وجل برزق».

خدرك: بيتك، وأصله السُّتر يكون خَلْفَه الجارية المحجوبة. أبا عذرك: زوجك المفتض لك. نهني: كُفِّي غربك: حدة لسانك. وقيل: معنى «نهني من غربك»، أي غيضي من دموعك، والغرب: فيض الدمع، والأول أشبه. سلّمي: انقادي. قرّض، أي أوجب. حصّة: نصيب. ناولهما: أعطاهما. قبضة: ما أخذت بأطراف أصابعك. العلالة: الشيء القليل. تعلّلا: خُذا منه شيئاً بعد شيء، وكذلك تندياً، وأصل العلالة بقية الماء في الإناء، وبقية اللبن في الضرع بعد الحلب، قال الراجز: [الرجز]

* يرضعها الدرة والعلالة^(١) *

والبلالة: الندى القليل يبُلُّ وجه الأرض. كيد: مكر. كذه: جهده وأنشد أبو مخجن الثقفي: [الطويل]

عسى فرج يأتي به الله إنّه له كلّ يوم في خليقته أمر^(٢)
عسى ما ترى ألا يدوم وأن ترى له فرجاً مما ألحّ به الدهر

(١) يروي الرجز بتمامه:

أحمل أُمّي وهي الحَمّالة ترضعني الدرة والعلالة
ولا يجازي والد فعالة

والرجز بلا نسبة في لسان العرب (علل)، وتاج العروس (علل)، وكتاب العين ٨٨/١.

(٢) البيت الأول، لمحمد بن إسماعيل في حاشية شرح شذور الذهب ص ٣٥١، وبلا نسبة في الدرر ٢/ ١٥٧، وشرح شذور الذهب ص ٣٥١، وشرح ابن عقيل ص ١٦٦، والصاحبي في فقه اللغة ص ١٥٧، والمقاصد النحوية ٢/ ٢١٤، وجمع الهوامع ١/ ١٣١.

إذا اشتدَّ عسرٌ فارحٌ يُسرًا فإنه قَضَى الله أن العسرَ يتبعه اليسرُ

الإسار: الحبل يشدُّ به الأسير. هِزَّة: طرب. الموسر: الغني. الإعسار: الفقر، وسئل حكيم: أي الأشياء أحلى؟ قال: النُصرة على العدو بعد الهزيمة، والاستغناء بعد الحاجة، والغلبة للمتكلم.

قال الراوي: وكُنْتُ عَرَفْتُ أَنَّهُ أَبُو زَيْدٍ سَاعَةً بَزَعَتْ شَمْسُهُ، وَنَزَعَتْ عِرْسُهُ، وَكِدْتُ أَفْصَحُ عَنْ افْتِنَانِهِ؛ وَإِثْمَارِ أَفْنَانِهِ؛ ثُمَّ أَشْفَقْتُ مِنْ عُثُورِ الْقَاضِي عَلَى بُهْتَانِهِ، وَتَزْوِيقِ لِسَانِهِ، فَلَا يَرَى عِنْدَ عِرْفَانِهِ، أَنْ يُرْشَحَهُ لِإِحْسَانِهِ، فَأُخْجِمْتُ عَنْ الْقَوْلِ إِخْجَامَ الْمُرْتَابِ، وَطَوَيْتُ ذِكْرَهُ كَطَيِّ السَّجَلِ لِلْكِتَابِ، إِلَّا أَنِّي قُلْتُ بَعْدَ مَا فَصَّلَ، وَوَصَّلَ إِلَى مَا وَصَلَ: لَوْ أَنَّ لَنَا مَنْ يَنْطَلِقُ فِي أَثَرِهِ، لِأَتَانَا بِفَصِّ خَبْرِهِ، وَبِمَا يُنْشَرُ مِنْ حَبْرِهِ! فَأَتْبَعَهُ الْقَاضِي أَحَدَ أَمْنَائِهِ، وَأَمَرَهُ بِالتَّجَسُّسِ عَنْ أُنْبَاءِهِ، فَمَا لَبِثَ أَنْ رَجَعَ مُتَدَهِّدًا، وَقَهْقَرَ مُقَهِّقًا، فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي: مَهَيْمٌ، يَا أَبَا مَرْيَمَ، فَقَالَ: لَقَدْ عَايَنْتُ عَجَبًا، وَسَمِعْتُ مَا أَنْشَأَ لِي طَرْبًا، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا رَأَيْتُ، وَالَّذِي وَعَيْتُ!

قوله: «بزغت»، أي طلعت. ونزغت: نضرت وقابلته بالشرِّ والذكر القبيح، وأراد أَنَّهُ عَرَفَهُ حِينَ سَاقَتْهُ زَوْجَتُهُ إِلَى الْقَاضِي. أَفْصَحُ: أَبِين. افْتِنَانُهُ: تَنَوُّعُهُ. إِثْمَارُ: إِخْرَاجُ الثمر، وهو حمل كلِّ شجرة. أَفْنَانُهُ: أَغْصَانُهُ. أَشْفَقْتُ: خَافْتُ. عُثُورُ: ظُهُورُ، وَعُثْرٌ عَلَى الْأَمْرِ: أَطْلَعَ عَلَيْهِ. بُهْتَانُهُ: بَاطِلُهُ وَكَذِبُهُ. تَزْوِيقُ: تَزْيِينُ، وَهُوَ مِنَ الزَّوْءِ الَّذِي يَعْرِفُهُ الْعَامَّةُ بِالزَّوْءِ، أَيْ أَنَّهُ تَزْيِينٌ فِي الظَّاهِرِ، وَلَيْسَ لَهُ ثَبَاتٌ. عِرْفَانُهُ: تَقَدُّمُ مَعْرِفَتِهِ. يُرْشَحُهُ: يَهَيِّئُهُ، وَفُلَانٌ يُرْشَحُ لَكَذَا، أَيْ يُؤْخَلُ لَهُ، مِنْ رَشَحَتْ الْأُمُّ وَلَدَهَا بِاللَبَنِ، إِذَا جَعَلَتْهُ فِي فِيهِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ حَتَّى يَقْوَى، وَقِيلَ: التَّرْشِيحُ: التَّرْبِيَةُ، وَقِيلَ: هُوَ تَحْنُ الْأُمِّ عَلَى وَلَدِهَا مِنَ الشَّدَّةِ. أُخْجِمْتُ: تَأَخَّرْتُ. الْمُرْتَابُ: صَاحِبُ الرِّيَّةِ. طَوَيْتُ: سَتَرْتُ. السَّجَلُ: الْوَرَقُ. وَالْكِتَابُ: الْمَكْتُوبُ فِيهَا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَطَيِّ السَّجَلِ لِلْكِتَابِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، قِيلَ: السَّجَلُ: اسْمُ كَاتِبِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقِيلَ: مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ الثَّلَاثَةِ تَرْفَعُ إِلَيْهِ الْحَفَظَةُ أَعْمَالُ الْعِبَادِ كُلِّ خَمِيسٍ وَاثْنَيْنِ. فَصَّلَ: زَالَ وَانْفَصَلَ بِفَصِّ خَبْرِهِ: بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِ. يَنْشَرُ: يَظْهَرُ. حَبْرُهُ: حَسَنُ كَلَامِهِ، وَأَصْلُهُ ثِيَابٌ يَمَانِيَّةٌ مَزِينَةٌ، وَنَشَرُهَا: حَلَّهَا مِنْ طَيِّهَا. التَّجَسُّسُ: الْبَحْثُ. أُنْبَاءُهُ: أَخْبَارُهُ مَا لَبِثَ، أَيْ مَا أَقَامَ، وَالْمَعْنَى مَا أَبْطَأَ شَيْئًا حَتَّى رَجَعَ. مُتَدَهِّدًا: مُتَحَرِّكًا، وَالتَّدَهْدُهُ: قَذْفُكَ الْحَجَرَ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلٍ. قَهْقَرُ: رَجَعَ إِلَى خَلْفٍ. مُقَهِّقًا: مُبَالِغًا فِي الضَّحْكَ، وَالْقَهْقَهةُ: حِكَايَةُ صَوْتِ الضَّاحِكِ.

مهميم : كلمة استفهام، معناها : ما الأمر؟ عاينت : رأيت . أنشأ : أحدث ، وتقديره : سمعت شيئاً أحدث لي ذلك الشيء المسموع الطرب ، ولا يكون «أنشأ» فعلاً لأبي زيد، إنما هو فعل له «ما» من قوله : «ما أنشأ» . وعيت : حفظت .

قال : ولم يزل الشيخ مذخرَج يصفقُ بيديه ، ويخالفُ بين رجلَيْه ، ويُغرِّدُ بملءٍ شِدْقَيْهِ ، ويقول : [مجزوء الرمل]

كَذْتُ أَضْلَى بِبَلِيَّةٍ مِنْ وَقَاحِ شَمْرِيَّةِ
وَأَزُورُ السَّجْنَ لَوْلَا حَاكِمُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ

فَصَحَّحَ الْقَاضِي حَتَّى هَوَتْ دَنِيئَتُهُ ، وَدَوَتْ سَكِينَتُهُ ، فَلَمَّا فَاءَ إِلَى الْوَقَارِ ، وَعَقَّبَ الْاسْتِغْرَابَ بِالْاسْتِغْفَارِ ، قَالَ : اللَّهُمَّ بِحُرْمَةِ عِبَادِكَ الْمُقَرَّبِينَ ، حَرِّمَ حَبْسِي عَلَى الْمَتَأَدِّبِينَ . ثُمَّ قَالَ لَذَلِكَ الْأَمِينِ : عَلَيَّ بِهِ ، فَاَنْطَلِقْ مُجِدًّا فِي طَلَبِهِ . ثُمَّ عَادَ بَعْدَ لَائِهِ ، مُخْبِرًا بِنَائِهِ ، فَقَالَ لَهُ الْقَاضِي : أَمَا إِنَّهُ لَوْ حَضَرَ ، لَكُنْفِي الْحَذَرَ ، ثُمَّ لَأَوَّلَيْتُهُ مَا هُوَ بِهِ أَوْلَى ، وَلَأَرَيْتُهُ أَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الْأُولَى .

قال الحارث بن همام : فَلَمَّا رَأَيْتُ صَغُورَ الْقَاضِي إِلَيْهِ ، وَفَوَتْ ثَمَرَةَ التَّنْبِيهِ عَلَيْهِ ، غَشِيَتْنِي نَدَامَةُ الْفِرْزَدِقِ حِينَ أَبَانَ الثَّوَارَ ، وَالْكَسْعِي لَمَّا اسْتَبَانَ الثَّهَارَ .

يصفقُ بيديه : يضرب بكفيه . يخالف بين رجلَيْه : يعبث بهما في مشيه فيضع كلَّ رِجْلٍ موضع الأخرى ، وهي من أنواع الرقص ؛ أراد أنه يضرب بكفيه ويرقص . يغزُد : يغني . بملءٍ شِدْقَيْهِ ، أي بصوت شديد تمتلئ به أشداقه .

وملء القدح : قدر ما يملؤه . أبو يعقوب : يقال : أعطني ملء القدح ماء ، وأعطني ملأَيْهِ ، وأعطني ثلاثة أملائه .

أضْلَى ببليَّة ، أي قربت أن أحترق بها وأتصلَّى بها ، والبليَّة : المصيبة يبتلى بها ، وَقَاح ، جمع وقاحة ، وهي صلابة الوجه ، وأصلها من الحافر الصُّلْب ، وقال بعضهم في صلابة الوجه : [السريع]

لا يعمل المِبْرَد في وَجْهِه بل وجهه يعمل في المِبْرَدِ

فجعل وجهه لصلابته يؤثر في الحديد . شَمْرِيَّة ، أي شديدة القِحَّة ، قال الأصمعي : سألت أعرابياً ، وقد خرج من الصَّلَاة : ما قرأ الإمام؟ قال : ما أدري إلا أنه وقع بين موسى وفرعون شِمْرِيَّة . هوت : سقطت . دنيئته : قلنسوته ، وهذه اللفظة إنما وقعت في

المقامات بفتح الدال وكسر النون، ودينته بنونين لتوافق «سكينته»، والصحيح حذف نونها الثانية وكسر الأولى، وهي قلنسوة محدّدة الطرف يلبسها القضاة والأكابر، وليست من كلام العرب، إنما هي من الألفاظ المستعملة في العراق، وقد استعملها شعراؤهم، قال ابن لُثْكَ: [البسيط]

نفسى تقيك أبا الهندام يا أملي إنني بكلّ الذي ترضاه لي راضي
ما كان أئرى فقيهاً إذ ظفّرت به فكيف ألبسته دينيّة القاضي

وقال الصابي: [مجزوء الرجز]

وفوقه دينيّة تذهب طوراً وتجي
دوت: زالت وخفيت. سكينته: وقاره، وأصل دوى، في الشيء الذي فيه بلل وندوة، فيجفّ بلله، فاستعاره للسكينة. فاء: رجع. وعقب: أتبع. الاستغراب: كثرة الضحك، حتى تدمع العينان؛ أراد أنه أتبع ضحكه الاستغفار ليكون كفارة له، وهذا الذي حكي عن القاضي يُحكى مثاله عن الحجاج، يقال: إنه كان إذا استغرب ضحكاً يوالي من الاستغفار.

وقال عبد الله بن مسعود: في كتاب الله آيتان ما أصاب عبد ذنباً فقرأهما ثم استغفر الله إلا غفر له الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً...﴾ [آل عمران: ١٣٥]، والثانية قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ...﴾ [النساء: ١١٠] الآية.

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: من قال: «استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه» خمس مرّات، غفر له ولو فرّ من الزحف.

شدّاد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت وأنا عبدك أصبحت على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوء بنعمتك عليّ، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»^(١).

وأصل غفر واستغفر غطّى. قال قطرب: اللهم اغفر لنا ذنوبنا، أي غطّها، من قول العرب: غفرت المتاع في الوعاء أغفره غفراً، أي غطيته. ثعلب: غفّر الرجل في مرضه يغفر غفراً، أي نكس، فكأنّ المريض غطّى عليه. وقال الأصمعي رحمه الله: اللهم اغفر لنا ذنوبنا، أي استرها علينا، ومنه: اصبغ ثوبك، فإنه أغفر للوسخ، أي أستر، وهذه معان متقاربة.

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الدعوات باب ١، والترمذي في الدعوات باب ١٥، والنسائي في الاستعاذة باب ٥٧، ٦٣، وأحمد في المسند ٤/١٢٢، ١٢٥، ورواه الطبراني في الجامع الصغير ١/٥٧.

قوله : «عَلَيَّ بِهِ» ، أي جنّني به . مجدًا : مجتهداً في طلبه . لأَيِّهِ : إبطائه . نأيه : بعده . الحذر : الخوف . أوليته ، بمعنى وليته وأعطيته . أَوَّلَى : أحقّ ، يريد أنه لو رجع إليه كان يصله في المرّة الثانية بما هو خير مما وصله به أوّل مرة . قوله : «صغو» ، أي ميل . قُوت : ذهاب . التنبيه : الإعلام . غشيتني : غطتني . ولحقتني . أبان : طلق . الثّوار : بنت عم الفرزدق وزوجه . استبان : تبيّن .

وقال الشاعر : [الطويل]

لو أنّ صدور الأمر تبرز للفتى كأعقابه لم تُلفه يتندّم^(١)

[الفرزدق وبعض أخباره]

والفرزدق اسمه همام بن غالب بن صعصعة ، دارميّ من أشراف تميم ، والفرزدق لقّب به لجهومة وجهه وغلظه ، والفرزدق : قطعة العجين ، وقيل : الرغيف الضخم .

وخبره مع الثّوار بنت أعين المجاشعيّ ، أنه خطبها رجل من قريش أو من دارم ، فبعثت إلى الفرزدق أن يكون وليّها إذا كان ابن عمها ، فقال : إنّ بالشّأم من هو أقرب إليك مني ولأء ، وأنا حذر من أن يقدم منهم قادم ، فينكر ذلك عليّ ، فاشهدي أنك جعلت أمرك إليّ . فجعلت له أمرها أن يزوّجها ممن يرى ، وأشهدت له بذلك ، فقال لها : أرسلني إلى القوم أزوّجك ممّن خطبك . فلما غصّ مسجد بني مجاشع ببني تميم جاء الفرزدق ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : قد علمتم أن الثّوار ولّنتي أمرها ، وأشهدكم أنّي قد زوّجتها من نفسي ، فنشزت عليه ونافرته من البصرة إلى عبد الله بن الزبير بمكة حين أعيها أمراء البصرة ، أن يطلقوها منه . وأعيها الشهود أن يشهدوا لها اتقاء من شرّه ، فلم يقدر أحد على حملها ، حتى تحمّلها قوم من بني عديّ ، يقال لهم بنو نُسَير إلى مكة ، فصحبتهم الثّوار ، فقال الفرزدق : [الطويل]

وقد سخّطت منّي الثّوار الذي ارتضى به قبلها الأزواجُ ، خاب رجيلها^(٢)
أطاعت بني أمّ التّسَيرِ فأصبحت على شاربٍ ورقاء صعب دُلُولها
وإن امرأ يسعى ليفسد زوجتي كساعٍ إلى أسدِ الشّرى يستبيلها
ومن دون أبوال الأسود بسالةً وبسطة أيدٍ يمنع الضّيم طُولها
وإنّ أمير المؤمنين لعالمٌ بتأويل ما وصّى العباد رسُولها

ثم ارتحل في أثرها حتى وصلا مكة ، فنزلت الثّوار على بنت منظور بن زبّان زوجة

(١) البيت لابن السليمان في شرح ديوان الحماسة للتبريزي ١٣٥/٢ ، وللحماسي في تاج العروس (سند) .

(٢) الأبيات في ديوان الفرزدق ص ٦٠٤ ، ٦٠٥ .

عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، ونزل الفرزدق على ابنه حمزة، وقال: [الكامل]

أصبحتُ قد نزلتُ بحمزة حاجتي إن المنوّه باسمه الموثوق^(١)
بأبي عُمارة خيرَ مَنْ وَطِئَ الحَصَى وجرت له في الصالحين عروقُ
بين الحوارِيّ الأغرِّ وهاشمٍ ثم الخليفةُ بعدُ والصّدِيقُ

فكان كلُّ ما أصلح حمزة بن عبد الله من شأن الفرزدق نهاراً أفسدته بنت منظور ليلاً، حتى غلبت الثَّوار، وقضى ابن الزبير عليه، فقال: [البسيط]

أما البُئُونُ فلم تُقبَلْ شفاعتُهُمْ وشُفِّعَتْ بنتُ منظور بن زَبَانَا^(٢)
ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزرأ مثل الشفيع الذي يأتيك عرياناً

فلما سمع ابن الزبير شعره، توقّف في أمره، فلقيه يوماً بباب المسجد، فضمّه إلى الحائط، حتى كادت تُزهِق نفس الفرزدق. وكان الزبير في غاية من القوّة، ثم هزّه وتركه خائفاً، ثم دخل على الثَّوار، فقال لها: إمّا أن تُتِمِّي زواج ابن عمك وإلا قتلته، وأرحت المسلمين من شرّ لسانه، فقالت له: ولا بدّ أن تقتله؟ قال: ولا بدّ، فعطفها عليه رَجَم القرابة، وقالت: لا والله لا أدعُه للقتل، قد رضيت. فتزوَّجها، فحكم عليه ابن الزبير بمهر مثلها عشرة آلاف درهم، فسأل: هل بمكة أحد يعينه؟ فدلّ على سلم بن زياد، وكان ابن الزبير قد حبّسه، فقال: [الطويل]

دَعِيَ مُغْلِقِي الأبواب دون فعالهم ومُرِّي بمسرّي لي هُبْلَتِ إلى سَلَمِ^(٣)
إلى مَنْ يرى المعروف سهلاً سبيلَه ويفعل أفعال الكرام التي تَنَمِّي

ثم دخل على سَلَم؛ وأنشده القصيدة، فقال: هي لك ومثلها لنفقتك، فقبض عشرين ألفاً، فدفع مهرها، فدخل بها، وأحبها قبل أن تخرج من مكة، ثم خرج بها، وهما عديلان في محمل، وكانت أبدأ تخالفه وتسبّه، لأنها كانت صالحة الدين، وكان هو رديء الدين، زانياً قاذفاً للمحسسات، فكانت تكرهه.

ومن ملح أخبارها أنه راود امرأة شريفة على نفسها، فامتنعت عليه، فتهدّدها بالهجاء، فاستعانت بالثَّوار، فقالت: واعديهِ ليلة؛ ثم أعلميني. ففعلت، وجاءت الثَّوار، ودخلت الحَجَلَة مع المرأة، فلما دخل الفرزدق البيت، أمرت الجارية فأطفأت السراج، وبادر الحَجَلَة والثَّوار فيها، وهو لا يشكّ أنها صاحبة الدار، فواقعها. فلما فرغ قالت: يا عدوّ الله، يا فاسق! فعرفها، وعلم أنه قد خُدِع، فقال لها: وأنت هي! يا سبحان الله! ما أطيبك حراماً، وأبرذك حلالاً! فلم تزل تؤذيه بلسانها حتى أبغضها.

(١) الأبيات في ديوان الفرزدق ص ٥٧٠.

(٢) الأبيات في ديوان الفرزدق ص ٨٧٣.

(٣) البيتان في ديوان الفرزدق ص ٧٧٥.

فحدّث أبو معقل راويته، قال : قال لي الفرزدق يوماً : امض بنا إلى حلقة الحسن،
فإني أريد أن أطلّق الثّوار، فقلت : إني أخاف أن تتبعها نفسك، ويشهد عليك الحسن
وأصحابه، قال : امض بنا، فجنّنا حتى وقفنا على الحسن فقال : كيف أصبحت يا أبا
سعيد؟ قال : بخير، كيف أصبحت يا أبا فراس؟ قال : لتعلمن أن الثّوار طالق مني ثلاثاً،
فقال الحسن وأصحابه : قد سمعنا، قال : فانطلقنا، فقال الفرزدق : يا هذا، إنّ في قلبي
من الثّوار شيئاً، فقلت : قد حدّرتك، فقال : [الوافر]

ندمتُ ندامةَ الكسعيِّ لَمَّا غدت مِنِّي مطلقَةً نَواراً^(١)
وكانتُ جَنَّتِي فخرجتُ منها كآدم حين أخرجهُ الضَّرارُ
ولو أني ملكت يدي ونفسي لأصبح لي على القَدَرِ اختيارُ
وكنت كفاقيء عينيهِ عمداً فأصبح ما يُضيء له نَهَارُ

وتوفي سنة عشر ومائة. وفيها مات جرير وابن سيرين والحسن، فقالت امرأة
بصريّة : كيف يفلح بلد مات فيهباه وشاعراه، وأضافت جريراً إلى البصرة لكثرة قدومه
إليها، ومسكنه باليمامة. وأخباره تطول، وإنما ذكرنا منها ما تعلّق بالثّوار معه.

[الكسعي وقوسه]

وأما الكُسعيّ فرجل منسوب إلى كُسع، قبيلة باليمن، واسمه محارب بن قيس،
وبندامته يُضرب المثل؛ يقال : أندم من الكسعيّ، وقيل : إنه من بني سعد بن ذبيان،
وقيل : اسمه عامر بن الحارث.

ومن حديثه أنه كان يرعى إبلاً بوادٍ كثير العشب والخمط؛ فبينما هو يرعاها بصُر
بَنَبْعَةٍ على صخرة، فقال : ينبغي أن تكون هذه قوساً، فجعل يتعهّدها ويقومها حتى
أدركت، فقطعها، فلما جفّت اتّخذ منها قوساً، وأنشأ يقول : [الرجز]

يا ربِّ وَفَّقني لَنَحْتِ قوسِي فإنّها من لذّتي لنفسي
وأنفع بقوسي ولدي وعريسي أنحتّها صَفراء مثل الوَرسي
* صَلَداء ليست كَقَسِي الثُّكُسي^(٢) *

ثم دهنها وخطمها بوتر، واتّخذ من بُرايتها خمسة أسهم، وجعل يقلّبها في كفه،
ويُنشد : [الرجز]

(١) الأبيات في ديوان الفرزدق ص ٣٦٣.

(٢) الرجز لمحارب بن قيس في لسان العرب (كسع)، وتاج العروس (كسع)، ويروى الشطر الأخير من
الرجز :

هَنُّ وَرَبِّي أَسْهَمَ حَسَانُ يَلْدُ لِلرَّامِي بِهَا الْبَسَانُ
كَأَنَّمَا قَوْمُهَا مِيزَانُ فَأَبْشُرُوا بِالْخَصْبِ يَا صَبِيَانُ
* إن لم يعقني الشُّومُ والجِرْمَانُ ^(١) *

ثم أتى قُتْرَةً على موارد حُمُرٍ، فكمن فيها، فمرَّ به قطعٍ، فرمى غيراً منها بسهم، فأمخطه - أي أنفذه - وجازه، وأصاب الجبل، فأورى ناراً، فظنَّ أنه أخطأه، فأنشأ يقول:

[الرجز]

أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الرَّحْمَنِ مِنْ نَكْدِ الْجَدِّ مَعَا وَالْحَزْمَانِ
مَا لِي رَأَيْتُ السَّهْمَ بَيْنَ الصُّوَانِ يُورِي شَرَاراً مِثْلَ لَوْنِ الْعَفْيَانِ
* فَأَخْلَفَ الْيَوْمَ رَجَاءَ الصُّبْيَانِ ^(٢) *

ثم مرَّ به قطع آخر، فرمى غيراً فأمخطه السهم، فصنع صنيعه الأول، فأنشأ يقول:

[الرجز]

لَا بَارَكَ الرَّحْمَنُ فِي رَمِي الْقُتْرِ أَعُوذُ بِالْخَالِقِ مِنْ شَرِّ الْقَدْرِ
أَمَخِطُ السَّهْمَ لِإِرْهَاقِ الضَّرَرِ أَمْ ذَاكَ مِنْ سُوءِ احْتِيَالٍ وَنَظَرِ
* أَمْ لَيْسَ يَغْنِي حَذَرٌ عَنْهُ قَدَرٌ ^(٣) *

ثم مرَّ به قطع آخر فرمى غيراً، فأمخطه السهم، فصنع صنيعه الأول، فأنشأ يقول:

[الرجز]

مَا بِالْأَسْهَمِي يَوْقِدُ الْحُبَّاجِبَا قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَكُونَ صَائِبَا ^(٤)
فَأَخْطَأَ الْعَيْرَ وَوَلَّى جَانِبَا فَصَارَ رَأْيِي فِيهِ رَأْيَا خَائِبَا

ثم مرَّ به قطع آخر، فرمى غيراً بسهم فأمخطه السهم، وصنع ما صنع أولاً، فأنشأ يقول:

[الرجز]

يَا أَسْفَاً وَالْجَدَّ التَّكْذُ فِي قَوْسٍ صَدَقَ لَمْ تَزَيْنَ بِأَوْذُ
أَخْلَفَ مَا أَرْجُو لِأَهْلِ وَوَلَدُ فِيهَا وَلَمْ يَغْنِ الْجِدَارُ وَالْجَلْدُ
* فَخَابَ ظَنُّ الْأَهْلِ جَمْعاً وَالْوَلَدُ ^(٥) *

ثم مرَّ به قطع آخر، فرمى غيراً بسهم، فأمخطه السهم، وصنع كما صنع أولاً،

(١) الرجز لمحارب بن قيس في لسان العرب (كسع)، وبلا نسبة في تاج العروس (كسع).

(٢) الرجز لمحارب بن قيس الكسعي في لسان العرب (كسع)، وتاج العروس (كسع).

(٣) راجع الحاشية السابقة.

(٤) الرجز للكسعي في لسان العرب (حجب)، (كسع)، وتاج العروس (حجب).

(٥) راجع الحاشية السابقة.

فأنشأ يقول : [الرجز]

أبعد خمس قد حفظتُ عَدَّهَا أحمل قوسي وأريدُ رَدَّهَا
أخزى الإله لينها وشَدَّهَا والله لا تسلم مني بعَدَّهَا
* ولا أرجي ما حييت رَفَدَّهَا^(١) *

ثم أخذ القوس، فكسرها على حجر وبات، فلما أصبح أبصر الأعيار الخمسة مطروحة حوله، فأسف وندم على كسر القوس، وعضَّ على إبهامه فقطعها تلهفًا، وأنشأ يقول : [الوافر]

ندمت ندامةً لو أن نفسي تطاوُعني إذا لقطعتُ خَمْسِي^(٢)
تبين لي سَفَاهُ الرأي مِنِّي لَعمرُ أبيك حين كسرت قَوْسِي

(١) راجع الحاشية السابقة.

(٢) البيتان للكسعي (محارب بن قيس)، في لسان العرب (كسع)، وبلا نسبة في تاج العروس (كسع).

المقامة العاشرة

وتعرف بالرحبية

حكى الحارث بن همام قال: هتَفَ بي دَاعِي الشُّوقِ، إلى رَحْبَةِ مالِك بن طوق؛ فَلَبِيئُهُ مُنْتَبِطِيًا شِمْلَةً، وَمُنْتَضِيًا عَزْمَةً مُشْمَعِلَةً. فَلَمَّا أَلْقَيْتُ بِهَا الْمَرَّاسِي، وَشَدَدْتُ أَمْرَاسِي، وَبَرَزْتُ مِنَ الْحَمَّامِ بَعْدَ سَبْتِ رَاسِي، رَأَيْتُ غُلَامًا أَفْرَغَ فِي قَالِبِ الْجَمَالِ، وَأَلْبَسَ مِنَ الْحُسْنِ حُلَّةَ الْكَمَالِ.

هتف بي، أي دعاني، يقال: هتف بي هتفاً وهتافاً: دعاه، وهتفت الحمامة: مدت صوتها. والشُّوق: تحرُّك الحبِّ، يريد أنْ شوقه إلى الرَّحْبَةِ يهيج عليه حتى سار إليها، وجعل له داعياً مجازاً. والرَّحْبَةُ: مدينة شهيرة من عمالة الفرات، بناها مالك بن طوق، ووليها فنُسبت إليه، وإليها تنسب الثياب الرحبية، وتعرف برحبة الشام، وهي على يسار الطريق هي والزَّرقَة في استقبالك الفرات جاثياً من حرَّان، وهي في آخر ديار ربيعة، وأول بلاد الشام والفرات، بين ديار ربيعة والشَّام، فإذا عبرته صرت في حدَّ الشام.

[مالك بن طوق]

ومالك - كنيته أبو كلثوم - بن مالك بن عتاب بن سعيد بن زهير بن جُشم بن بكر ابن حبيب بن عمرو بن عَنَم بن ثعلب. وقال حبيب يمدحُه ويذكر الرَّحْبَةَ: [الكامل]

يا مالٍ قد علمت ربيعةً أنَّه	ما كان مثلك في الأراقِم أرقم ^(١)
طالت يدي لَمَّا رأيتُك سالماً	وأنيخ عن خَدَى ذاك العِظَلِم
وشممت ترب الرَّحْبَةِ العَبِقَ الثَّرى	وشفى صَدَاي البحر منها الخِضْرِم
كم حلَّ في أكنافها مِنْ معدِم	أمسى بها يأوي إليه المعدِم

وقال فيه: [البسيط]

رأته في النوم عَتَابٌ فقال لها	ذوو الفراسة: هذا صفوة الكرم ^(٢)
--------------------------------	--------------------------------------------

(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٢٦٨.

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٢٧٥.

فجاء والنَّسب الوضَّاح جاء به
 طعَّان عمرو بن كلثوم ونائله
 لو كان يأمل عمرو مثله خلفاً
 كأنه بُهْمَةٌ فِيهِمْ من البُهَمِ
 إنَّ السيورَ التي قُذَّت من الأدمِ
 من صُلْبِهِ لم يجد للموت من ألمِ
 يقول هذا في اتصاله بنسب عمرو بن كلثوم، وأين هذا من قول دعبل يهجوهُ:
 [البسيط]

الناس كلُّهم يعدو لحاجَّتِهِ
 وما لك ظِلٌّ مشغولاً بنسبته
 يروم منها بناء غير مهذوم
 ما بين طَوْقٍ إلى عمرو بن كلثوم
 وكان ملكاً شجاعاً، جواداً ممدوحاً أميراً على الجزيرة مسكن قومه بني ثعلب.

قوله «لَيْتَهُ»، أي أجبته. ممتطياً: راكباً، شِمْلَةً: ناقة سريعة. منتضياً: مجزئاً. عزمة مشمعلَّة، أي عزمة سريعة لا تواني فيها. المراسي: هي محابس السفينة. أمراسي: جبالى، يريد أنه استعدَّ للإقامة وترك السفر، وضرب لذلك المثل باللقاء المراسي وشدَّ الأمراس. برزت: خرجت وظهرت. سَبَّت: حَلَقَ، ومتى دخل أهل المشرق الحمام حلَقوا رؤوسهم. أفرغ: وُضِع ليصنع. والقالب: الذي تطبع فيه الدراهم، وِدْزهم مفرغ، إذا أذيبت فضته وُضِبَتْ في قالبه فيريد أن هذا الغلام لإفراط حسنه أفرغ في قالب الجمال.

[مما قيل في الحسن والجمال]

ونذكر في هذه المقامة من أوصاف الحسن والجمال ما أمكن، ونُضيف إلى ذلك ما قيل في العلمان من الأشعار الجِسان ممَّا يليق بهذا المكان وندهما من كلِّ مقامة يقع فيها ذكر العلمان. قال ابن عبد ربه: الحسن أحمر، وقد تضرب فيه الصَّفرة مع طول المكث في الكِنِّ والتضمُّخ بالطيب كما تضرب في بيضة الأدهي. وقال أعرابي: [البسيط]

وما تطيَّب من صفراء خالية كالعاج صفَّرها الأكنان والطَّيْبُ

وقال آخر: [الرجز]

كأنَّ لون البيض في الأدهي لونك لولا صفرة الجادي^(٢)

يريد أنها تضمُّخ بالجادي، وهو الزعفران، وصفرة النعمة لا تبلغ صفوته. وقالوا: إن الجارية الحسناء تتلون بلون الشمس، فهي بالضَّحَى بيضاء، وبالْعَشَى

(١) الأبيات في ديوان دعبل بن علي ص ١٤٤. (٢) الرجز لأبي النجم في المخصص ١١/ ٢٦١.

صفراء، قال الأعشى: [مجزوء الكامل]

بيضاء ضحوتها وصفاء العشية كالعرارة^(١)
العرار: البهار.

وقال الحريري في الدرة: فأما قولهم في الحسن: أحمر، فمعناه أنه لا يكتسب ما فيه من الجمال إلا بتحمل مشقة يحمرّ منها الوجه، كما قالوا: السّنة الحمراء للمجدبة، وكُنُوا عن الأمر المستصعب بالموت الأحمر، وأما قوله: [الطويل]

هجانٌ عليها حُمرة في بياضِها تروق لها العينان والحسنُ أحمرُ
فإنه عني به الحسن في حمرة اللون مع البياض، دون غيره من الألوان.

وقالوا: في الجارية: جميلة من بعيد، مليحة من قريب، فالجميلة التي تأخذ بصرك جملة، فإذا دنت منك لم تكن كذلك، والمليحة التي كلما كُررت بصرك فيها زادتكَ حسناً.

وقيل: الجميلة السمينة؛ من الجميل، وهو الشحم، والمليحة البيضاء من المُلحة، وهي البياض، والصُّبيحة كذلك من الصبح لبياضه.

وقالوا: إن الوجه الرقيق البشرة الصافي الأديم إذا خجل يحمرّ، وإذا فرق يصفرّ، ومنه قولهم: ديباج الوجه، يريدون تلونه من رفته.

وقال عديّ بن زيد في تلون الوجه: [الخفيف]

حُمرة خلط صفرة في بياضٍ مثل ما حاك حائكٌ ديباجاً

وقال ابن عبد ربه في ذلك: [الكامل]

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقاً ورشاً بتقطيع القلوب رقيقاً
ما إن رأيت ولا سمعتُ بمثله دُرّاً يعود من الحياء عقيقاً
وإذا نظرتُ إلى محاسن وجهه ألفتُ وجهك في سنّاه غريقاً
يا من تقطّع خضره من رقة ما بال قلبك لا يكون رقيقاً!

وأعاد معنى: «دُرّاً يعود من الحياء عقيقاً»، في بيت آخر فقال وأحسن: [الكامل]

كم سوسنٍ لطف الحياء بلونه فأصاره ورداً على وجنّاته

قالت امرأة خالد بن صفوان لخالد: لقد أصبحتَ جميلاً، قال: وكيف ذاك وما فيّ

(١) البيت في ديوان الأعشى ص ٢٠٣، ولسان العرب (عرر)، وفي الديوان واللسان «بيضاء غدوتها» بدل «بيضاء ضحوتها».

رداء الحُسْنِ ولا عموده ولا بُرْنَسَه! قالت: وما ذاك؟ قال: عموده الشُّطاط^(١)، ورداؤه البَيَاض، وبرنسه سَوَاد الشعر.

وقالوا: الحَلَاوَة في العينين، والجمال في الأنف، والحسن في الوجه، والملاحة في الفم.

وقال بعضهم: الظرف في القد، والبراعة في الجيد، والرقة في الأطراف والخضر، والشأن كله في الكلام، والمدار على العقل.

وقال علي بن عبيد الريحاني: الحسن تناسب الصورة، وزينته اعتدال الحركة؛ ثم ما لا يحسن اللسان الترجمة عنه من حفة الروح والقبول.

وسئل عن اختياره من الحُسْن، فقال: أما ما يمكن نعته فَحَلَّتَان وثلاثة بينهما، ليست من صفة اللسان تعجيني صورة أكثر نعتها الملاحة، وبراعة بفصاحة، والخلة الثالثة نسميها مَراح الروح وشكل النَّفْس وملهبة الشوق، وبمقدار تمكّن الثالثة من القلب يستحكم سلطان الهوى على العقل، فهذه زبدة هذا الباب.

وأحسن الحسن، ما لم يُجْلَب بتزيين وتضييق، وتحلية وتزويق، وأطيب الطيب أنفاس عِبْقَة من كبد سليمة، ومزاج معتدل، وثغر نقي، قال امرؤ القيس: [الطويل]

أَمْ تَرَانِي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقاً وَجَدْتُ بِهَا طَيْباً وَإِنْ لَمْ تَطِيبْ^(٢)

ويحكى أن سيبويه كان يقرأ على الخليل بن أحمد منتقياً، لثلاث يشغله بحسنه عن تعليمه. ومعنى «سيبويه» بالفارسية رائحة التفاح، وكان يقال: إنه أطيب الناس رائحة ومع تحفظ الخليل وورعه، فكان إذا استأذن عليه سيبويه يقول: مرحباً بزائر لا يمل.

وكان أبو حاتم السجستاني يختم القرآن في كل أسبوع، ويتصدق كل يوم بدينار، ومع هذا الفضل كان يميل بحبه إلى أبي العباس المبرّد، وكان أبو العباس يلزم حلقة وهو غلام وسيم، فقال فيه: [مجزوء الكامل]

مَاذَا لَقِيتَ الْيَوْمَ مِنْ	مُتَمَجِّنٍ خِثِ الْكَلَامِ
وَقَفَ الْجَمَالَ بِوَجْهِهِ	فَسَمِثَ لَهُ حَدَقُ الْأَنَامِ
حَرَكَائِهِ وَسُكُونَهُ	يُجَنِّى بِهَائِمِ الْأَثَامِ
فَإِذَا خَلَوْتُ بِمَثَلِهِ	وَعَزَمْتُ فِيهِ عَلَى اغْتِرَامِ
لَمْ أَغْدُ أَفْعَالَ الْعَفَا	ف، وَذَاكَ أَكْدُلُ لِلْغَرَامِ
نَفْسِي فَبَدَاؤُكَ يَا أَبَا	عَبَّاسٍ يَا جُلَّ اعْتَصَامِي

(١) الشطاط: الطول وحسن القوام.

(٢) البيت في ديوان امرئ القيس ص ٤١، والأشباه والنظائر ٨/٨٥، ولسان العرب (ندل)، (محل).

فأرحم أخاك فإنه نزر الكرى بادي السقام
وأئله ما دون الحرا م فليس يزغب في الحرام

والولوع في الجمال سجيّة ركبها الله في الأولياء وأكابر العلماء، فمن دُونهم من السُّوق والغوغاء. وعلى قدر ذكاء الأرض يطيب زرعها، وعلى قدر طيب التربة يطيب تبّعها، فمنها العذب والأجاج وما بينهما، وعلى قدر شرف النفس يكون حبّها، فمنه المستحسن ومنه المستقبح. [الطويل]

* وكلّ إناء بالذي فيه ينضخ *

في كتاب الوشاح: العشق إذا تزين بالعفاف فهو معنى شريف، ويتلو قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]؛ فمن اتقى الله فهو خليل.

وذهبت طائفة من المتكلمين البغداديين إلى أن الله تعالى إنما امتحن الناس بالهوى، ليأخذوا أنفسهم بطاعة من يهوونه، وليشقّ عليهم سخطه، ويسرّهم رضاه؛ فيستدلّوا بذلك على قدر طاعة الله تعالى لأنه لا مثّل له ولا نظير، وهو خالقهم غير محتاج إليهم، ورازقهم مبتدئ المنن عليهم، فإذا أوجبوا على أنفسهم طاعة لسواه كان هو تعالى أولى أن يتّبع رضاه.

قالوا: ولا ينبغي للعاقل ولا للجاهل أن ينكر علاقة شخص بشخص، وحينئذٍ شكل إلى شكل، ومؤالفة إلف إلى إلف، فالقلوب صافية قابلة، والعيون إليها ناقلة.

وقالوا: لا عاشق على الأغلب إلا موفور النعماء، مكفّى كد المعيشة؛ لأنه من فراغ نفسه ورقة حاشيته.

وقد قيل: إن جميلاً وبُئينة لو قعدا ليلتين دون غداء وعشاء لبزق كل واحد منهما في وجه صاحبه.

ومن شرط المعشوق أن يكون ممّن يؤيس ويُطمع، ويستتر ويلمع، ويبدو ويُحجب، ويلين ويصعب، ويرضى ويُسخط، ويُقرّب ويشخط، كما قال أبو الطيب: [الكامل]

وأخلى الهوى ما شك في الوصل ربّه في الهجر فهو الدهر يزجو ويتقي^(١)
وبين الرضا والسخط والقرب والتوى مجالاً لدمع المقلّة المترقّق

والحسن أول سعادة المرء، ورائد اليُمْن، وسائق النُجج؛ لأن الله تعالى بلطف الحكمة، وبشرف الإبداع والصنعة، لم يخلق الصورة مختارة الصفات، سليمة من الآفات، إلا عن فضل الاحتفاء، ولم يطابقها من الأخلاق إلا بما يناسب جمالها من

(١) البيتان في ديوان المتنبي ٣٠٤/٢.

العقل والصفاء. وقلما تجد الخلق إلا تبعاً للخلقة، تناسباً يطرده، وأصلاً لا ينعكس، وإجماعاً لا ينفرد، وما خلق الله نبياً قط إلا وقد بهر أهل زمانه بحسنه وإحسانه؛ فإذا نظرته لأول وهلة رأيتهم أحسنهم صورة، وأتقنهم بنية، فهو أولى مرتبة، وأعلى منقبة.

وقال النبي ﷺ: «إن الله لا يعذب حسان الوجوه، سود الحديق».

وورد عليه وفد عبد القيس، وفيه غلام وضيء الوجه، فأقعده وراء ظهره، وقال: إنما أتيت أخي داود من النظر.

وقد أكثر الشعراء في وصف الحسن؛ فمن أحسن ذلك ما قال علي بن بسام؛ وكأنه يصف الفتى الذي ذكره الحريري: [الكامل]

يا مَنْ تسرَّبل بالملاحة وازتدى
فيُرى هلالاً زاهياً ويرى قضيباً
فإذا نهضت ترجرجا وإذا سفر
فترى الجبين كتاج ملك زائنه
ويجول ذاك الرُّشح في أقطاره
الوجه فضي أحاط بوجنتي
وفم عقيقي تضمّن لؤلؤاً
ولأبي إسحاق الخفاجي: [الطويل]

وأغيد أهدى نرجساً من محاجر
وقد ماج من عطفيه ماء شبيبة
تطلع مثل المرح بسطة قامية
ولأبي وكيع: [الكامل]

يا مَنْ إذا لاح محاسن وجهه
إن كان في تغذيب قلبي راحة
ولأبي إسحاق الخفاجي: [الكامل]

يا ربّ وضّاح الجبين كأنما
تغري بطلعته العيون ملاحه
خلعت عليه من الصباح غلالة
ولأبي نواس: [الطويل]

أساء فزادته الإساءة حُظوة
حبيب على ما كان فهو حبيب

يعدّ عليّ الواشيان ذنوبه
ولأبي إسحاق الخفاجي: [الطويل]
تعلقته نَشْوَانٌ من خمر رِيْقَةٍ
ترقرق ماء مُقْلَتَايَ ووجهه
أرق نسيبي فيه رِقَّةٌ حسنه
وطبنا معاً ثغراً وشعراً، كأنما
ومن أين للوجه الجميل ذنوب!
له رشفها دوني، ولي دونها السُّكْرُ
ويذكى على قلبي ووجنته الجَمْرُ
فلم أدر أيّ قبلها منهما السُّخْرُ
له منطقي ثغراً، ولي ثغره شعرُ

* * *

وَقَدْ اعْتَلَقَ شَيْخُ بُرْذِنِهِ، يَدْعِي أَنَّهُ فَتَكَ بَابِنِهِ، وَالْغُلَامَ يُنْكِرُ عِرْفَتَهُ، وَيُكْبِرُ قِرْفَتَهُ، وَالْخِصَامُ بَيْنَهُمْ مُتَطَايِرُ الشَّرَارِ، وَالزَّحَامُ عَلَيْهِمَا يَجْمَعُ بَيْنَ الْأَخْيَارِ وَالْأَشْرَارِ، إِلَى أَنْ تَرَاضِيَا بَعْدَ اشْتِطَاطِ اللَّدْدِ، بِالتَّنَافُرِ إِلَى وَالِي الْبَلَدِ، وَكَانَ مِمَّنْ يُزَنُّ بِالْهَنَاتِ، وَيُغْلَبُ حُبُّ الْبَنِينِ عَلَى الْبَنَاتِ، فَأَسْرَعَا إِلَى نَدْوَتِهِ، كَالسَّلِيكِ فِي عَدْوَتِهِ.

* * *

قوله: «وقد اعتلق شيخ بُرْذِنِهِ»، أي تعلق بكمه وأطراف ثوبه. فَتَكَ: قتل، والفتك: أن تأتي رجلاً آمناً منك وتقتله، أو تكمن له في موضع لا يعرف بك، فإذا أتاكَ قتلته، ثم سُمِّيَ من هجم على الأمور العظام فاتكاً، فإذا أدخلت رجلاً منزلك أو موضعاً لا مغيب له فيه، فقتلته فذلك الغيلة، فإن كان رجلاً يخافك فأمنته وأنسته حتى آمنك، ثم قتلته فذلك الغدر. عِرْفَتَهُ: معرفته. يُكْبِرُ: يراه أمراً كبيراً قِرْفَتَهُ: تهمته، وقد قرفته بذنوب، إذا حملته عليه واتهمته به، وشبه ما يلحق كل واحد منهما من أذى صاحبه بشرر النار اشتطاط اللدد: اشتداد الخصام. التنافر: التحاكم. يزَنُّ: بالهَنَاتِ: يتهم بالقبائح، والهَنَاتِ: الدواهي والهَن والهَنَةُ من الكنايات العامة التي يكنى بها عن كل شيء ولا يقتصر بها على شيء دون شيء.

[بعض أخبار الولاة]

قوله «ويغلب حبُّ البنين على البنات» نذكر هنا من الولاة المتهمين بهذه الهنات ما يليق بالموضع. قال أهل الأخبار: إن القاضي يحيى بن أكثم، كان مشتهراً بحب الغلمان، وإن أهل البصرة رفعوا أمره إلى المأمون قبل اتصّاله به، وقالوا فيه: إنه قد أفسد أولادهم، وظهرت منه الفواحش، وأنه القاتل في صفة الغلمان: [السرّيع]

أربعة تُعَشِّقُ الْحَاظِلَهُمْ فعين من يعشقهم سَاهِرَةٌ

فواحد دنياه في وجهه منافقٌ ليست له آخره
 وآخر دنياه منقوصة من خلفه آخره وإفره
 وثالث فاز بكلتيهما قد جمع الدنيا مع الآخرة
 ورابعٌ قد ضاع ما بينهم ليست له دنيا ولا آخره
 فاستعظمها المأمون وعزله عنهم .

ثم اتصل بعد ذلك يحيى بالمأمون، وناداه، فخرج معه في يوم عيد، وقد ركب الجند أمامه، ويحيى يحادثه ويضحكه، فنظرت إلى غلام أمرد من أولاد الجند في غاية القراءة، عليه ثوب حرير أخضر، ودرع موشاة مزرة بالذهب. فالتفت إلى يحيى، وقال له: ما تقول في هذه البضاعة؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا لقبيح من إمام مثلك مع فقيه مثلي، قال: فمن الذي يقول: [المنسرح]

قاضي يرى الحد في الزناة ولا يرى على من يلوط من باس
 قال: من عليه لعنة الله وغضبه، ابن أبي نعيم، الذي يقول:
 أميرنا يرتشي وحاكمنا يلوط والشرب يسننا راسي

قاضي يرى الحد . . البيت، وبعده: [المنسرح]

لا أحسب الموت ينقضي وعلى الـ أمة وإل لآل عباس
 قال: أو صحيح هذا؟ قال: نعم، قال: يُنفى إلى السند، وإنما ما زحناك، ثم قال
 المأمون في الغلام: [مجزوء الرمل]

أيها الراكب ثوبا هـ حريز وحديد
 جئت للعيد وفي وجـ هـك للأعين عيد
 أنت جندي ولكن فيك للحسن جنود

وفي يحيى يقول ابن أبي نعيم: [الراجز]

يا ليت يحيى لم يلد له أكثمه ولم تطفأ أرض العراق قدمه
 ألوط قاضي في البلاد نعلمه أي دواة لم يلقها قلمه
 * وأي جحر لم يلجه أرقمه *

وهذا كقول الآخر: [الرمل]

* يُدْخِلُ الْأَفْعَى إِلَى خَيْسِ الْأَسَدِ *

ويحيى خُراساني من مَرُو. وبلغ من تحكمه على المأمون أن فرض لأربعمائة غلام

مُزْد، واختارهم حِسان الوجوه يركبون لركوبه، فقال راشد بن إسحاق: [الوافر]

خليلي انظرا متعجبين	لأظرف منظر تَفْلَاه عَيْنِي
لفرض ليس يُقبل فيه إلا	أَسِيلُ الخَدِّ حُلُو المَقْلَتَيْنِ
يقودهم إلى الهيجاء قاضٍ	شديدُ الطَّنْغِ بالرُّمَحِ الرَّدْيَيْنِ
إذا شهدَ الوغى منهم غلامٌ	تَجَدَّلُ للجَبِينِ ولِلْيَدَيْنِ
وبات الشيخُ منحنياً عليه	وَصُدْغَاهُ تحاذِي الرَكْبَتَيْنِ

وقال فيه: [الطويل]

وكنا نرجي أن نرى العذل بيننا	فأعقبناه بعد الرِّجاء قنوطُ
متى تَصْلَحَ الدنيا ويصلح أهلها	إذا كان قاضي المسلمين يَلُوطُ

وكان القاضي أبو القاسم علي بن محمد التنوخي مولعاً بالغللمان، وكان له غلام اسمه نسيم» في نهاية من الحسن، وكان يُؤثره على سائر غلمانِه، ويخصّه بتقريبه واستخذانه، فكتب إليه بعض من يأنسُ به: [الرملي]

هل على مَنْ لأمه مدغمةٌ لا اضطرار الشعر في ميم نسيم

فوقع تحت البيت: نعم، ولم لا!

وستذكر من شعره في هذه المقامة ما يستملح.

وممن كان يميل إلى الغلمان من الأمراء أبو العشائر الحمداني الذي يقول فيه

المتنبى: [الوافر]

فيا بحرَ اليحور ولا أوزي	ويا ملكَ الملوك ولا أحاشي ^(١)
كأنك ناظرٌ في كل قلبٍ	فما يخفى عليك محلُّ غاشٍ

وقال بعض الرواة: دخلت على أبي العشائر أعوده من علّة، فقلت: ما يجد الأمير؟

فأشار إلى غلام قائم بين يديه، كأنّ رضوان قد غفل عنه بأبق من الجنة، ثم أنشأ يقول:

[مخلع البسيط]

أسقّم هذا الغلامُ جسمي	بما بعينيه من سَقَامٍ
فتورُ عينيه من دَلَالٍ	أهدى فتوراً إلى عِظَامِي
وامتزجت روحه بروحي	تمازج الماء بالمدام

ولأبي العشائر: [البسيط]

سطا علينا وَمَنْ حاز الجمال سَطَا ظبي من الجنة الفردوس قد هَبَطَا
له عذاران قد خُطَا بوجنتيه فاستوقفا فوق خديه وما انبَسَطَا
وظل يخطو فكل قال من شَغَفٍ: ياليتّه في سواد الناظرين خَطَا!

ومع هذا الميل، كان نزيه النفس، رفيع الهمة، سليم الناحية، وكان في الجود غاية، وفي الشجاعة نهاية، وفي الشعر آية. وإذا كان المتنبي الذي هو أشعر الناس عند الأكثرية، يقول حين عوتب في آخر أيامه على فتور شعره: قد تجوّزت في شعري، وأعفيت طبعي، واغتنمت الراحة، مذ فارقت آل حمدان، ومنهم الذي يقول - يعني أبا العشائر:

أخا الفوارس لو رأيت مواقف والخيل من تحت الأسنة تَنَحَّطُ
لقرأت منها ما تخط يد الوغى والبيض تُشكّل والأسنة تَنَقُطُ

فهكذا تستعار المعاني البديعة في الألفاظ الرفيعة؛ فما ظنك بمن يُثني عليه المتنبي هذا الثناء!

وممن وصف غلاماً فأحسن، الأمير تميم بن المعزّ صاحب مصر، حيث يقول: [الطويل]

وبات ضجيعي منه أهيف ناعم وأدعجُ وسنانُ وألغسُ أشنبُ
كأن الدجى من لون صدغيه طالع وشمس الضحى في صحن خديه نغربُ
وقال أيضاً: [البسيط]

يا ليلة بات فيها البدر معتنقي وكانت الشمس فيها بعض جلاسي
وبت مستغنياً بالشجر عن قدجي وبالخدود عن الثفاح والآس
وقال أيضاً: [مجزوء الكامل]

ورزّ الخدود أرق من ورزّ الرياض وأنعم
هذا تَشَشُّقُه الأنو فوذا يقبله القم
فإذا عدلت فأفضل الـ وردين ورزّ يُلثم
قوله: «ندوته»، أي مجلسه.

[السُّلَيْك بن السُّلْكَ]

والسليك، هو ابن السُّلْكَ، معروف بأمه، وكانت أمة سوداء شديدة السواد، وكان

هو أسود، وأبوه عمرو بن سنان بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم السعدي التميمي.

وكان يسبق الخيل على رجله، وكان من العدائين ومن رَجَلِي العرب - وهم الذين يسْعَوْنَ على أقدامهم، ويسبقون الخيل، فيستغنون بأرجلهم عنها - وكان من أشجع الناس، وكان لا يُغَيِّرُ إلاَّ وحده، وكان يقال له: الرُّبَال:

وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمرو بن معد يكرب، فقال: أيَّ العرب كان أبغضَ لك أن تلقاه؟ فقال: أمّا من مَعَدَّ فغدّي بن فزارة ومُرّة بن ذبيان وكلاب بن عامر وشيبان بن بكر وشقّ بن عبد القيس والأراقم من تَغْلِب، ثم لم جُلّت بفرسي على مياه سعد ما خفت هَيْجَ أحدٍ؛ ما لم يلقني حُرّاهَا أو عبداها، قال: أما حُرّاهَا فعامر بن الطفيل وعُتَيْبَة بن الحارث بن شهاب، وأما عبداها فعترة الفوارس وسُليّك المقانِب.

وأما عدوّته المذكورة، فيقال: إنه أحاط به عدوّه فنزا نزوة عُدّ فيها أربعاً وعشرون خطوة، وعُدّ أيضاً في نزوة للشَّنْفَرِي إحدى وعشرون خطوة.

ويقال في المثل: أعدى من الشَّنْفَرِي، وأعدى من السليّك.

فأما الشَّنْفَرِي فإنه أغار على بَجيلة مع تَأَبَّط شراً وعمرو بن براق، فرصدتهم بجيلة على الماء، فقال تَأَبَّط شراً: إنّ بالماء رَصْداً، فقالا: ليس عليه أحد، ولا بدّ من وروده، فورد الشَّنْفَرِي ثم عمرو، فقال تَأَبَّط شراً: القوم إنما يريدوني، فلذلك لم يعرضوا لكما، وإذا وردت أنا الماء فسيشذون عليّ، ويأسرونني، فاذهب يا شَّنْفَرِي، كأنك تهرب، وكن في أصل ذلك القرن، فإذا سمعتني أقول: خذوا خذوا، فتعال فأطلقني، وقال لعمرو: إنّي سامرك أن تستأبّر لهم، فلا تبعد ولا تمكّنهم من نفسك. ثم ورد الماء، فشذّوا عليه، وكتفوه، وفعلوا ما أمرهما، فقال: تَأَبَّط شراً: يا معشر بَجيلة، هل لكم في أن تيسروا فداءنا ونستأسر لكم ابن براق؟ قالوا: نعم. فقال يا عمرو: هل لك في أن تستأثر ويباشرونا في الفداء؟ قال: حتى أروّض نفسي شوطاً أو شوطين، فجرى الأوّل كالريح، والثاني كالخيل، ثم أراد أن يجري ثلثاً، فجعل يقع ويقوم فشلاً؛ يُطمعهم بذلك، فقال لهم تَأَبَّط شراً: خذوا خذوا، فأسرعوا إليه بأجمعهم، وهوى الشَّنْفَرِي كالريح فقطع وثاقه، ثم أحضروا ثلاثهم، فنجّوا، فقال تَأَبَّط شراً من قصيدة: [البسيط]

ليلةً صاحوا وأغزوا بي سِراعَهُمْ بالعيكَتَيْنِ لدى عمرو بن بَرّاق^(١)

لا شيء أسرع منّي غير ذِي عُدَرٍ أو ذي جناح بجانب الرّيْدِ خَفّاقٍ

(١) البيتان لتأبط شراً في ديوانه ص ١٣٢. والبيت الأول في لسان العرب (عيك)، ومجمل اللغة ٢/

٤٣٠، وتاج العروس (برق)، (عيك)، وشرح اختيارات المفضل ص ١٠٨، ومعجم البلدان

(العيكتان)، والمرصع ص ١٣٢، ويروى «معدّي بن بَرّاق» بدل «عمرو بن بَرّاق».

فالثلاثة عداؤن، والمثل مقصور على الشَّنْفَرى.

وأما السُّليكَ، فرأته طلائع جيش لبكر بن وائل، جاؤا مجزدين ليُغيروا على تميم، فقالوا: إن عَليم السليكَ بنا أنذر قومه، فبعثوا إليه فارسين على جوادين، فلَمَّا صافحاه خرج يمحَص^(١) كأنه ظبي، فطارده يوماً أجمع، ثم قال: إذا كان الليل أعيأ فتأخذه، ووجدنا أثر بؤله قد خد^(٢) في الأرض، فقالا: قاتله الله! ما أشدَّ متته! فتبعاه ليلتهما: فلما أصبحا وجداه قد عثر بأصل شجرة، فندر منها كمكان قدمه، وسقطت قوسه في جريه فانخطمت، فوجدنا قطعة منها قد ارتزت^(٣) بالأرض، فقالا: ما بعد هذا شيء، والله لا تتبعناه بعد هذا. ومَرَّ السليكَ إلى أهله، فأنذرهم، فكذبوه لبعد الغاية، فقال: [الطويل]

يكذبني العَمْران: عمرو بن جندب وعمرو بن سعد والمكذب أكذب^(٤)
ثكلتكما إن لم أكن قد رأيتكما كراديس يهديها إلى الحي موكب
كراديس فيها الحوقزان وحولَه فوارس همَّام متى يدعُ بركيوا

فصدقه قوم، فنجوا، وكذبه آخرون، فورد عليهم الجيش فاكتسحهم.

ومن شعر السليكَ يرثي فرسه - وكان يقال لها النَحَام - وأنشدها المبرد في باب التشبيه من الكامل: [الوافر]

كَأَنَّ قَوَائِمَ النُّحَامِ لَمَّا تَحْمَلُ صُحْبَتِي أَضْلًا مُحَارُ^(٥)
عَلَى قَزَمَاءَ عَالِيَةِ شَوَاهُ كَأَنَّ بِيَاضَ غَرَّتِهِ خِمَارُ
وَمَا يُذْرِيكَ مَا فَقَرِي إِلَيْهِ إِذَا مَا الْقَوْمُ وَلَّوْا أَوْ أَغَارُوا

(١) يمحَص: يسرع.

(٢) خد في الأرض: شقها.

(٣) ارتزت: أثبتت.

(٤) الأبيات في الأغاني ٣٥٣/٢٠.

(٥) البيت الأول للسليكَ بن السلَكة في ديوانه ص ٢٨، ولسان العرب (حور)، (خرم)، (نحم)، وجمهرة اللغة ص ٥٧٣، وتاج العروس (حور)، (نحم)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٦٦٣. والبيت الثاني لبشر بن أبي خازم في ديوانه ص ٧٧، وللسليكَ بن السلَكة في الكتاب ٢٥٨/٤، ولسان العرب (تاد)، (فرم)، ولتأبط شراً في معجم ما استعجم ٤٩١/٢، وليس في ديوان السليكَ، وبلا نسبة في أدب الكاتب ص ٥٩١، وجمهرة اللغة ص ١٢٣٣، وشرح أبيات سيبويه ٤٣١/٢. ولسان العرب (قرم)، والبيت الثالث للسليكَ بن السلَكة في ديوانه ص ٥٣، ولسان العرب (ركب)، وتاج العروس (ركب)، والكامل ص ٩٧٠، ويروى عجز البيت:

إذا ما الركب في نهب أغاروا

والبيت الرابع للسليكَ بن السلَكة في ديوانه ص ٥٣، والكامل ص ٩٧٠، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٣١٧.

وَيُحْضِرُ فَوْقَ جُهْدِ الْحُضْرِ نَصًّا يَصِيدُكَ نَافِلًا وَالْمَخُ رَاؤُ

أي: يصيد لك. ونافلاً: ثانياً، ورار: ذائب من الهزال؛ وحكاية السُّليكَ، عن أبي عبيدة، وحكاية الشَّنْفَرِي عنه وعن الشَّيْبَانِي؛ وكلتاها على اختصار.

ونزل على جماعة من كنانة ضيفاً، فأكرموه، وجمعوا له إبلاً كثيرة، وأعطوه إياها، وكان قد كبر وشاخ، وذهبت قوته، والتقصَّ عذوه، فقالوا له: إِنَّ رَأَيْتَ أَنْ تَرِينَا مَا بَقِيَ مِنْ عَذُوكَ! قَالَ: نَعَمْ، ابْغُوا لِي أَرْبَعِينَ شَابًا، وَأَتُونِي بِدِرْعٍ ثَقِيلَةٍ عَظِيمَةٍ، فَأَتُوا بِهَا وَاخْتَارُوا مِنْ شَبَانِهِمْ أَرْبَعِينَ أَقْوِيَاءَ عَدَّائِينَ، فَلَبِسَ سُلَيْكَ الدَّرْعَ، ثُمَّ قَالَ لِلشَّيْبَانِ: الْحَقُونِي، ثُمَّ عَدَا عَدَاوًا وَسَطًا، وَعَدَا الشَّيْبَانُ وَرَاءَهُ جَهْدَهُمْ، فَلَمْ يَلْحَقُوهُ حَتَّى غَابَ عَنْهُمْ، ثُمَّ كَرَّ رَاجِعًا حَتَّى عَادَ إِلَى قَوْمِ وَجَدَهُ يَخْطُرُ، وَالدَّرْعَ عَلَيْهِ، وَسَبَقَ الشَّيْبَانُ.

وخرج في ليلة مقمرة يطلب الإغارة، فغلب عليه النوم آخر الليل، فبينما هو ملتف بكساء، جَثَمَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِثْلُهُ، شَدِيدُ الْبَاسِ، عَظِيمُ الْقُوَّةِ، وَأَمْسَكَ عَلَى يَدَيْهِ، وَمَنَعَهُ التَّحَرُّكَ، وَجَعَلَ يَلْمِزُهُ وَيُؤْذِيهِ، وَيَقُولُ لَهُ: اسْتَأَسِرْ يَا خَبِيثَ، فَاجْتَهَدَ سُلَيْكَ حَتَّى خَلَّصَ إِحْدَى يَدَيْهِ، فَضَمَّ الرَّجُلَ إِلَيْهِ ضَمًّا، وَعَصْرَهُ عَصْرَةً، فَضَرَطَ، فَقَالَ لَهُ: أَضَرَطًا وَأَنْتَ الْأَعْلَى! فَأَرْسَلَهَا مِثْلًا، فَلَمَّا تَخَلَّصَ مِنْهُ، قَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا رَجُلٌ افْتَقَرْتُ فَقُلْتُ: لَا خَرَجَنَ وَلَا أَرْجَعَ إِلَى أَهْلِي حَتَّى آتِيَهُمْ وَأَنَا غَنِيٌّ. فَقَالَ لَهُ السُّلَيْكَ: انْطَلِقْ مَعِي، فَاَنْطَلَقَا فَوَجَدَا ثَالِثًا، قَصَّصَهُ قَصَصَهُمَا، فَاصْطَحَبُوا حَتَّى أَتَوْا وَادِيًا لِمُرَادٍ، فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَيْهِ إِذَا فِيهِ نَعَمٌ، قَدْ مَلَأَ نَوَاحِيَهُ مِنْ كَثْرَتِهِ، فَقَالَ لَهُمَا السُّلَيْكَ: كَوْنَا قَرِيبًا مِنِّي حَتَّى آتِيَ الرَّعَاءَ، فَأَعْلَمُ عِلْمَ الْحَيِّ: أَهْوَ قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ؟ فَإِنْ كَانَ قَرِيبًا رَجَعْتُ، وَإِنْ كَانَ بَعِيدًا أَوْحَيْتُ إِلَيْكُمَا بِقَوْلِي فَأَغِيرَا. فَأَتَى الرَّعَاءَ فَاسْتَخْبَرَهُمْ عَنِ الْحَيِّ، فَأَخْبَرُوهُ بِبَعْدِ الْحَيِّ، وَأَنَّهُمْ إِنْ طَلَبُوا لَمْ يَدْرِكُوا، فَقَالَ لِلرَّعَاءِ: أَلَا أَغْنِيْكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى، فَوَفَّعَ صَوْتَهُ فَغَنَى: [البسيط]

يَا صَاحِبِي أَلَا لَا حَيٍّ فِي الْوَادِي سَوَى عَبِيدٍ وَأَمْ بَيْنَ أَذْوَادٍ^(١)

أَتَنْظُرَانِ قَرِيبًا رِيثَ غَفْلَتَيْهِمْ أَمْ تَغْدَوَانِ فِإِنَّ الرِّيحَ لِلْعَادِي

فلما سمعا ذلك أتياه، وطردهوا الإبل فذهبوا بها، ولم يبلغ الصرِيخُ الحيَّ، حتى فاتوا بالإبل.

(١) البيت الأول للسُّليكَ بن السُّلُكَةِ فِي دِيْوَانِهِ ص ٥١، وَلِسَانُ الْعَرَبِ (أما)، وَتَاجُ الْعُرُوسِ (أمو)، وَالْأَغَانِي ٣٩١/١٠، وَالْبَيْتُ الثَّانِي لَتَابِطٍ شَرًّا فِي مِلْحَقِ دِيْوَانِهِ ص ٢٤١، وَلِسَانُ الْعَرَبِ (روح)، وَالتَّنْبِيهِ وَالْإِيضَاح ٢٤٠/١، وَمَجْمَلُ اللُّغَةِ ٤٤١/٢، وَلِلْسُّلَيْكَ بْنِ السُّلُكَةِ فِي دِيْوَانِهِ ص ٥٠، وَالشُّعْرَاءُ ص ٣٧٣، وَجُمُحُورَةُ الْأَمْثَالِ ١٣٠/١، وَعَيُونُ الْأَخْبَارِ ٢٧١/١، وَمَجْمَعُ الْأَمْثَالِ ١١/٢، وَبِلَا نِسْبَةٍ فِي مَقَائِيسِ اللُّغَةِ ٤٦٤/٢.

قال ابن الأعرابي: أم مقلوب آيم، وهم العزّاب، جمع أمة.

وكان السليك من أدلّ الناس بالأرض وأعلمهم بمسالكها، وكان يستودع الماء بيض النعام في الشتاء، ويدفنه في المفاوز العظيمة، فإذا كان الصيف وانقطعت إغارة الخيل أغار على ربيعة، وشرب من ذلك الماء. وكان يقول: اللّهم إني أعوذ بك من الخيبة، وأما الهيبة فلا هيبة.

قوله: «عدّوته»، العدو بالكسر: الحالة، وبالفتح المرة الواحدة، فيريد الحريري، أن إسرعهما إلى الوالي كان كعدوة السليك.

فلَمَّا حَضَرَاهُ، جَدَّدَ الشَّيْخُ دَعْوَاهُ وَاسْتَدْعَى عَدَوَاهُ فَاسْتَنْطَقَ الْغَلَامَ وَقَدْ فَتَنَّهُ بِمَحَاسِنِ غُرَّتِهِ، وَطَرَّ عَقْلَهُ بِتَضْفِيفِ طُرَّتِهِ، فَقَالَ: إِنَّهَا أَفِيكَةُ أَفَاكِ، عَلَى غَيْرِ سَفَاكِ؛ وَعَضِيهَةٌ مُحْتَالٍ، عَلَى مَنْ لَيْسَ بِمُغْتَالٍ. فَقَالَ الْوَالِي لِلشَّيْخِ: إِنَّ شَهِدَ لَكَ عَدْلَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِلَّا فَاسْتَوْفِ مِنْهُ الْيَمِينَ. فَقَالَ الشَّيْخُ: إِنَّهُ جَدَّلُهُ خَاسِيًا، وَأَفَاحَ دَمَهُ خَالِيًا، فَأَتَى لِي شَاهِدٌ، وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّ مُشَاهِدًا! وَلَكِنْ وَلَّنِي تَلْقِيَنُ الْيَمِينَ، لِيَبِينَ لَكَ: أَيُصَدِّقُ أَمْ يَمِينُ! فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ الْمَالِكُ لِدَلِّكَ؛ مَعَ وَجْدِكَ الْمَتَّهَالِكِ، عَلَى ابْنِكَ الْهَالِكِ!

واستدعى عدواه، أي طلب إغائته وأعداه الحاكم: أغائه. استنطق: أمره أن ينطق وقد بيّن هذا الاستنطاق في الرابعة والثلاثين عند شراء الغلام قال: «ثم استنطقته عن اسمه، لا لرغبة في علمه، بل لأنظر أين فصاحته من صباحته، وكيف لهجته من بهجته». وكذلك لم يرد الوالي أن يستنطقه ليقول حجته؛ بل ليعلم حلاوته من صورته التي فتنته. وقد ذكرنا أنّ فائدة الحسن إنما تدور على اللسان.

[إبراهيم النظام]

وهذا الاستنطاق هو الذي ذهب بإبراهيم بن سيار النظام، الذي هو إمام في علم الكلام إلى علاقة غلام؛ وذلك أنه لَقِيَ غلاماً جميل الوجه، مقبول الصورة، فاستحسنه، وتصوّر فيه الصورة الباطنة المناسبة لخلقته الظاهرة، فقال له: يا غلام، إنه لولا ما سبق من قول الحكماء، لما جعلوا السبيل لمثلي إلى مثلك بقولهم: لا ينبغي لأحد أن يصغر عن أن يقول، ولا أن يكبر عن أن يقال له، لَمَّا أَنَسْتُ إِلَى مَخَاطِبَتِكَ، وَلَا انْشَرَحَ صَدْرِي إِلَى مُحَادَثَتِكَ، لَكِنَّهُ سَبَبُ الْإِخَاءِ وَعَقْدُ الْمَوَدَّةِ، وَمَحَلُّكَ مِنْ قَلْبِي مَحَلُّ الرُّوحِ مِنْ جَسَدِ

الجبان، فقال له الغلام - وهو لا يعرفه: لئن قلت ذلك أيها الرجل، لقد قال أستاذنا إبراهيم بن سيار النظام: الطبايع تجاذب ما شاكلها بالمجانسة، وتميل إلى ما قارنها بالموافقة، وكياني مائل إلى كيائك بكلّيتي؛ ولو كان الذي انطوى عليه لك عَرَضاً لم أعتدّ به ودّاً، ولكنه جوهر جسمي، فبقاؤه ببقاء النفس، وعدمه بعدمها، وأقول كما قال الهذلي:

فَتَبَيَّنِي أَنِّي بِكُمْ كَلِفٌ ثُمَّ اصْنَعِي مَا شِئْتَ عَنْ عِلْمٍ^(١)

فقال له النظام: إنما كلمتك بما سمعت، وأنت عندي حسن الصورة غلام، ولولا أنّ محلّك محلّ مقيم ما تعرّضت لك، ثم اعتلقه النظام بعد، وقال فيه جرياً على علمه: [الطويل]

تَوَقَّمْهُ طَرْفِي فَالْمُ خَدُّهُ فَصَارَ مَكَانَ الْوَهْمِ مِنْ نَظْرِي أُثْرُ^(٢)
وَصَافِحِهِ كَفِّي فَالْمُ كَفُّهُ فَمِنْ لَمَسِ كَفِّي فِي أَنَامِلِهِ عَقْرُ
وَمَرَّ بِفِكْرِي خَاطِراً فَجَرَحْتُهُ وَلَمْ أَرْ خَلْقاً قَطَّ يَجْرَحُهُ الْفِكْرُ
وقال فيه أيضاً: [الكامل]

وَإِذْ تَأْمُلُ فِي الزَّجَاجَةِ ظِلَّهُ جَرَحَتْهُ لِحِظَةٌ مَقْلَةُ الظِّلِّ
وقال فيه أيضاً: [الرجز]

أَفْرَغَ مِنْ نَوْرِ سَمَاوِيٍّ مَصَوِّرٍ فِي جِسْمِ إِنْسِيٍّ
وَافْتَقَرَ الْحَسْنَ إِلَى حَسَنِهِ فَجَلَّ عَنْ تَحْدِيدِ كَيْفِيٍّ
وقال فيه: [مجزوء الكامل]

يَا مَشْرِقاً مَلاً الْعِيَوِ نَ فَلَحَظَهَا مَا يَسْتَقِلُّ
أَوْفَى عَلَى شَمْسِ الضُّحَى حَتَّى كَأَنَّ الشَّمْسَ ظِلُّ
أَتَرِيدُ قَتْلِي عَامِداً وَلَقَتْلُ مِثْلِي مَا يَحِلُّ

فصرّف في شعره من صناعته، وأبدع في تخيله ببراعته.

(١) يروى البيت:

فَتَعَلَّمَنِي أَنِّي قَدْ كَلَفْتُ بِكُمْ ثُمَّ أَفْعَلِي مَا شِئْتَ عَنْ عِلْمٍ
وهو لأبي صخر الهذلي في الإنصاف ٢٠٥/١، وشرح أشعار الهذليين ٩٧٥/٢، وشرح المفصل ٨/٧٦.

(٢) الأبيات في أمالي المرتضى ١٨٨/١.

قوله: «غرّته»، أي وجهه. طرّ، أي قطع وأذهب. تصفيف طرّته: شعره المعتدل على جبهته. أفيكة أفاك: كذبة كذاب. سفاك: قتال. عضيهة: بهتان. وباطل. مغتال: قاتل الغيلة. استوف: استكمل. جدله: صرعه وألقاه على الجدالة، وهي الأرض خاسياً: متباعداً ممنوع الكلام، كأنه قهيره ومنعه أن يصيح عند قتله، ولذلك لم يجد عليه شاهداً، وأصله الهمزة فسهله ليوافق «خالياً» إن أخذته من خسأت الكلب، وإن أخذته من خسيّ البصر إذا كلّ، فلا تسهيل فيه، ومعناه قريب من الأول، أي أنه أضعفه بالضرب حتى لم يستطع الكلام ثم قتله. أفاح دمه، بجاء مهملة: أراقه. قال أبو زيد في نوادره: أفحت دمه ففاح فينحا وفيحنا، وأنشد: [الرجز]

نحن قتلنا الملك الجحججاًحاً ولم ندع لسارحٍ مُراحاً
* إلا دياراً أو دماً مُفاحاً^(١) *

وقال أبو حاتم: أراد: ودماً مفاحاً أي مُهراقاً. خالياً: بمعنى «منفرداً». أني، بمعنى كيف. مُشاهد: من شاهد حاله وحضر عليها. ولّني: مكّني. تلقينه: تفهيمه وإلقاءه عليه. يمين: يكذب. وجدك: حزنك. المتهالك: الكثير التفاوت، وتهالكت المرأة عليه: تراخت عليه، وتكاسلت، قلّ الأعشى: [الطويل]

تهالك حتى ينكر المرء عقله وتُسبي الحكيم ذا الحجى بالتقتل^(٢)

فَقَالَ الشَّيْخُ لِلْعَلَامِ: قُلْ: وَالَّذِي زَيْنَ الْجَبَاءَ بِالطَّرَرِ، وَالْعُيُونَ بِالْحَوَرِ، وَالْحَوَاجِبِ بِالْبَلَجِ، وَالْمَبَاسِمَ بِالْفَلَجِ، وَالْجُفُونَ بِالسَّقَمِ، وَالْأَنُوفَ بِالسَّمَمِ، وَالْخُدُودَ بِاللَّهَبِ، وَالنُّغُورَ بِالسَّنَبِ، وَالْبَتَنَانَ بِالتَّرَفِ، وَالْخُصُورَ بِالْهَيْفِ، إِنِّي مَا قَتَلْتُ ابْنَكَ سَهْوَاً وَلَا عَمْداً، وَلَا جَعَلْتُ هَامَتَهُ لِسَيْفِي غَمْداً، وَإِلَّا فَرَمَى اللَّهُ جَفْنِي بِالْعَمَشِ، وَخَذِي بِالنَّمَشِ، وَطَرَّتِي بِالْجَلَجِ، وَظَلَعِي بِالْبَلَجِ، وَوَزَدْتِي بِالْبَهَارِ، وَمِسْكَتِي بِالْبُخَارِ، وَبَذَرِي بِالْمِحَاقِ، وَفَضَّتِي بِالْاخْتِرَاقِ، وَشُعَاعِي بِالْإِظْلَامِ، ودواتي بالأقلام.

(١) الرجز لأبي حرب بن عقيل الأعلم في لسان العرب (فيح)، والتنبيه والإيضاح ٢٦١/١، وتاج العروس (فوح)، ولمزاحم في كتّاب الجيم ٢٤٠/٣، وليس في ديوان مزاحم العقيلي، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٢٦٣/٥، وديوان الأدب ٤١٩/٣، والمخصص ٩٥/٦، وجمهرة اللغة ص ١٨٢.

(٢) البيت في ديوان الأعشى ص ٣٥٣.

قوله: «الذي زين الجباه بالطرر..»، إلى آخر يمينه، إنما ذكر صفات الحسن شيئاً بعد شيء، ليُري هذا الوالي كمال الغلام، فيشتد حبه فيه، فإذا ذكر صفةً من صفاته نبّه الوالي بذكرها على النظر إليها، فوجدوها كما يصف، فهو الآن في هذه اليمين يجلو محاسن الغلام عليه.

الطرر: جمع طرة، وهي اعتدال الشعر على الجبهة، والطرة عندهم أن يقطع للجارية من مقدم ناصيتها حتى لا يبلغ الشعر حاجبيها، فيبقى ما بين شعر ناصيتها وحاجبيها من جبهتها نقياً، والشعر عليها معتدل، كطرة الثوب ثم تسمى الشعور الحسان طرراً.

أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ثلاث فائتات: الشعر الحسن، والوجه الحسن، والصوت الحسن».

عائشة رضي الله عنها، قال رسول الله ﷺ: «ملائكة السماء يسبحون بذوائب النساء وبلحي الرجال، فيقولون: سبحان الذي زين الرجال باللحي، والنساء بالدوائب». قال ﷺ: «إذا أراد أحدكم أن يتزوج المرأة فليسال عن شعرها كما يسأل عن وجهها».

قالوا: الشعر الحسن يزيد الوجه حسناً وجمالاً، وقال ابن صارة - وكأنه وصف طرة هذا الغلام - يصف بها أبا الفضل بن الأعلم، وكان من أجمل الناس وأذكرهم في علم النحو والأدب، وقرأ النحو قبل أن يلتحق، فقال فيه: [الكامل]

أكرم بجعفر اللبيب فإنه	ما زال يوضح مُشكِلاً «الإيضاح»
ماء الجمال بخذه متفرق	فالعين منه تجول في ضَخْضَاح
ما خذه جرحته عيني، أنما	صَبَغَتْ غِلَالَتَهُ دِمَاءُ جِرَاحِي
له زاي زبرجد فبي عسجد	في جوهر في كَوْنٍ في رَاح
ذي طرة سبجية ذي غرة	عاجية كالليل والإضباح
رُشاً له خد البريء ولحظته	أبدأ شريك الموت في الأزواج

[مما قيل في الحسن والجمال]

ونذكر بعد هذا الحور في العينين، وهو شدة بياض البياض وسواد الكحل، وكل ذلك عندهم ممدوح. وقد أكثر الشعراء من وصف ذلك حتى لو تركنا ذكره لشهرته لكان لنا فيه عذر، على أننا نلّم ببعض ما قيل في ذلك، وأما ما يزهّد فيه من ذلك، ويقلّ ذكره في أشعارهم فالزرق؛ على أنه قد جاء في حديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «الزرق في العينين يُمن».

وقال معاوية لضحار العبدِيّ: إنك أحمر، قال: والذهب أحمر، قال: إنك لأزرق، قال: والبازي أزرق.

ولبعض أصحابنا: [الطويل]

أحبك أن قالوا بعينيك زُرْقَةً كذاك عِتاق الطير زُرُق عيونُها

وقال الصنوبري: [المنسرح]

قالوا به زُرْقَةً، فقلت لهم بذاك تمت خصالة البَهْجَةِ
ما كحل العين مثل زُرْقَتها كم بين ياقوتة إلى سَبْجَةِ

وقال آخر: [مخلع البسيط]

ما مثل ذا الظبي في الظباء الأزرق الأزرق القَبَاءِ
يجول في مقلتيه طرفي في زُرْقَةِ الماءِ والسَّمَاءِ
بأبي الشفر ما عليهم من ذلك الثَّور والبَهَاءِ
شُقْرَةٌ شعرٍ على بياض شعاع شمس على هواءِ

وكلّ هذا اعتذار جاء على وَفْق مدح سواد الألوان، ولسواد الألوان في التاسعة فصل مستطرف فقف عليه.

واختلفوا في الحَوْر، فقال أبو عبدة: الحوراء: الشديدة بياض بياض العين في شدة سواد سوادها.

وقال أبو عمرو: الظبية الحوراء: السوداء العين التي ليس في عينها بياض، ولا يكون هذا في الإنسان إنما يكون في الوحوش.

وقال يعقوب: الحور سعة العين وكبر المُقْلَة وكثرة البياض.

وقال قطرب: الحوراء: الحسنّة المحاجر، صغرت العين أم كبرت.

واشتقاق «ح و ر» يدل على صحة قول يعقوب وأبي عبدة؛ لأنهم إنما يوقعونه في الغالب على البياض مثل الدقيق الحواريّ للدرمك الشديد البياض ونحوه، وقلّما يتفق شدة بياض العين إلّا مع شدة سوادها، ألا ترى أن بياضها مع الزَّرَق ليس هناك في النقاء، وقال القاضي التنوخي في أحور: [الكامل]

حَوْرٌ بعينيه أطال تحييري ترك الدموع بخدي المتعصفرِ
غصنٌ تأود فوق غُضنٍ من نقاً ليل تبلّج عن نهار مُسفِرِ
كالشَّمس إلا أنه متنقّس عن مسكة متبسّم عن جوهرِ

والبلّج: أن يكون ما بين الحاجبين نقيًا من الشعر، وهو من علامات السيادة عند

العرب، ويُتمدح به ويُتَمَن بصاحبه، ويتطير بمقرون الحاجبين؛ ويقال: أبلج وأبلد، وهي البلجة والبلدة، قال كثير: [الطويل]

جميل المحيّا أبلجُ الوجه واضح حليم إذا ما زلزلته الزَّلَازِلُ

الفلج: أن يكون بين منابت الأسنان تباعد، وقد فلج ثغره فلجاً، وهو مستحب في الثغر. قال وجيه الدولة: وهو مما يليق بهذا الموضع لذكره أوصافاً ذكرها الحريري رحمه الله هنا: [الطويل]

إذا عدم الرّؤض المنورَ ناظري أرانيه ظبيّ فاتر الطّرف أدعجُ
فصدّغاه ريحاني وعيناه نرجسي ومن ثغره لي أقحوان مفلجُ
وواخرباً من حسن وردٍ بخدّه يُطيف به من عارضيه بنفسجُ

الجفون: أغطية العيون، ثم تسمى العين جفنًا مجازاً.

والسقم: فتور العين، ومن حسن التشبيه في ذلك قول أبي نواس: [الطويل]

فطبّ بحديث من نديم مساعدٍ وساقية بين المراهق والجلم^(١)
ضعيفة كز الطرف تخسبُ أنّها قريبة عهد بالإفاقة من سُقمِ

وقال أيضاً: [البسيط]

وشادنٍ قال لي لما رأى سَقَمِي وضعف جسمي والدّمع الذي انسَجَمَا
أخذتْ دمعك من لفظي، وجسمك من خَصْرِي، وسُقَمَكَ من طرفي الذي سَقِمَا

وقال ابن الرومي: [الكامل]

قلبي من الطرف السقيم سقيمُ لو أنّ من أشكو إليه رحيمُ

وقال ابن الزقاق: [الوافر]

ومقلّة شادنٍ أودتْ بجسمي كأنّ السُقَمَ لي ولها لباسُ
يسلّ اللحظ منها مشرفيّا لقتلي ثم يغمدُ النُعاسُ

ولأبي العلاء بن زهر في مثل ذلك: [البسيط]

يا راشقي بسهام مالها غرضُ إلّا فؤادي وما منها له عَوْضُ
وممرضي بجفونٍ كلّها سَقَمُ صحّت وفي طبعها التمريضُ والمرضُ
امنن ولو بخيالٍ منك يؤنسني فقد يسدّ مسدّ الجوهر العَرْضُ

(١) البيتان في ديوان أبي نواس ص ٣٢.

الشمم: ارتفاع في لين الأنف، وهو من علامات الجمال والسودد، قال الفرزدق:
[البسيط]

بَكْفُهُ خَيْرُ زَانٍ رِيحُهُ عَبِقٌ من كَفَّ أَرْوَعَ فِي عِزِّ نِيْنِهِ شَمَمٌ^(١)
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ فلا يَكْلُمُ إِلَّا حِينَ يَبْسُمُ
وقال آخر: [السريع]

في بَاعِهِ طَوْلٌ وَفِي وَجْهِهِ نورٌ وَفِي الْعَرْنَيْنِ مِنْهُ شَمَمٌ
وقال النابغة: [البسيط]

* شَمَّ الْعَرَانِينَ ضَرَابُونَ لِلْهَامِ^(٢) *

اللهب: اشتعال النار بغير دخان، فشبه الحمرة في الخدّ وضيائه بحمرة النار، وكُنِيَ به أبو لهب لجماله.

وقال ابن وكيع: فجمع السقم والذهب: [مخلع البسيط]

واحْزَنِي مِنْ جَفَوْنَ ظَبِيٍّ أَقَامَ عُذْرِي بِهَا عِذَارُهُ
أَسَقَمَ جَسْمِي بِسَقَمِ طَرْفٍ حَيَّرَنِي فِي الْهَوَى اخْوَارُهُ
عَجِبْتُ مِنْ جَمْرِ وَجَنَّتِيهِ يَحْرِقُنِي دَوْنَهُ اسْتِعَارُهُ
هُوَ اخْتِبَارِي فَأَبْصَرُوهُ شَاهَدُ عَقْلِي الْفَتَى اخْتِيَارُهُ

وله قريب منه: [مخلع البسيط]

(١) البيت الأول للفرزدق في ديوانه ١٧٩/٢، ولسان العرب (خز)، وتاج العروس (خز)، وله أو للحزين الكناني في لسان العرب (جنه)، وتاج العروس (جنه)، ولعمرو بن عبد وهيب (الحزين الكناني) في لسان العرب (حزن)، وتاج العروس (حزن)، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ١٤٠/٢، ومقاييس اللغة ٤٨٢/١، ويروى عجز البيت الثاني:

فَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَبْسُمُ

وهو للحزين الكناني (عمرو بن عبد وهيب) في الأغاني ٢٦٣/١٥، ولسان العرب (حزن)، والمؤتلف والمختلف ص ٨٩، وللفرزدق في ديوانه ١٧٩/٢، وأمالى المرتضى ٦٨/١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٦٢٢، وشرح شواهد المغني ٧٣٢/٢، ومغني اللبيب ٣٢٠/١، والمقاصد النحوية ٥١٣/٢، ٢٧٣/٣، وبلا نسبة في أوضح المسالك ١٤٦/٢، وشرح الأشموني ١٨٣/١، وشرح المفصل ٥٣/٢.

(٢) صدره:

مَسْتَحْقَبِي خَلَقِي الْمَادِّي يَقْدِمُهُمْ

والبيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص ٨٣، ولسان العرب (حقب)، وتاج العروس (حقب)، وكتاب العين ٥٣/٣، وأساس البلاغة (حقب).

وهو على خذّه مُدار
حجّ مدى الدّهرِ واعتمار

كأنّ صدغاً له تراه
بيت من الحسن لي إليه

ولابن الرّفاق: [الرمل]

في الهوى من رمقٍ منذ رمقٍ
عَبَقاً في نَسَقٍ يسبي الحدق
شفقاً في فلقٍ تحت غسقٍ

بأبي من لم يدع لي لحظه
جعلت نكهته في ثغره
ويدت وجلته في خذه

وقال الخفاجي: [السريع]

وروضة تنفج مغطّاراً
وقلب صبّ فيك قد طاراً
رمزاً وسمي الثّبل أشقّاراً
لَحَظْتُهُ أَجْرَحَهُ ثَاراً
وأصبغ الألوان أزهّاراً
كَغَبَةِ حُسْنٍ حَيْثُمَا دَاراً
تسبك منه العين دياراً
تعبد من وجنته نَاراً

يا بانه تهتزّ فينّانة
كم دمع عين فيك قد أجريته
كنتي فسمي قوسه حاجباً
فإن رمى يجرّحني طرفه
فيصبغ الذرّ عقيقاً به
يُديرُ للأعين من وجهه
قد طبع الحسن به درهماً
فلي به عين مجوسية

غيره: [الطويل]

تخلّق إلّا من صدوديّ بالشُّح
متى صار بالقتل القصاص من الجُرح!

وأغيد تدمى وجنتاه من اللّمح
غداً قتلي أن ظلت أجرحُ خذه

الثغور: جمع ثغر وهو السن. وتقدّم الشّب في الثانية.

وقال العباس بن الأحنف في طيب الفم: [الطويل]

وبالراح لما قابلت أوجه الشّرب
وبالراح طعماً من مقبلِك العذب

ذكرتك بالتّفاح لمّا شممتُه
وتذكّرت بالتّفاح منك سوافاً

وقال ديك الجنّ، واسمه عبد السلام: [الكامل]

قبل المذاق بأنه عذب
قبل العيان بأنّه الرّب

بأبي فمّ شهد الضّمير له
كشهادة لله خالصة

وقال أحمد بن محمد الغساني: [المتقارب]

عقول الرجال إذا ما ابتسم

له مبسم برقه خاطف

شهدنا لصانعه بالجحكم
وما ثقبوا إذا فكيف انتظّم!

أنامل الطرف زهرة عجباً
وأقحواناً مفضضاً شنباً

جسمين مستودعين في جسم
ياه يريني مواقع اللثم
أثر فيه كهيئة الختم

يلفنا الشوق من فزق إلى قدم^(١)
مواقع اللثم في داج من الظلم

إذا مسن في أثوابهنّ النواعم^(٢)
كأن التراقي وشحت بالمباسم

فهذه معانٍ مختلفة في أوصاف الثغر كلها حسان.

قوله: «والبنان بالترف»، أي الأصابع باللين والنعمة، وأحسن ما قيل في ذلك قول
النابعة: [الكامل]

بمخضّب رخص كأن بنائه
عنم يكاد من اللطافة يُعقد^(٣)
فهذا تشبيه بديع.

وقال امرؤ القيس: [الطويل]

وتعطو برخص غير شثن كائه
أساريع ظنبي أو مساويك إسجل^(٤)

(١) البيتان في ديوان الشريف الرضي ص ٧٢٣.

(٢) البيتان في ديوان المتنبي ١١١/٢.

(٣) البيت في ديوان النابعة ص ٣٠.

(٤) البيت في ديوان امرئ القيس ص ١٧، وجمهرة اللغة ص ٣٦٣، ٥٤٣، وحاشية يس ٨٥/٢، =

وقال غيره: [السريع]

يَنْدُبُ شَجَوًّا بَيْنَ أَتْرَابٍ^(١)
مِنْ بَيْنِ رَايَاتٍ وَخُجَّابٍ
وَيَلْطُمُ الْوَزْدَ بَعُثَابٍ

يَا قَمْرًا أَبْصَرْتُ فِي مَاتِمٍ
أَبْرَزَهُ الْمَاتِمُ لِي كَارَهَا
يَبْكِي فَيُذِرِي الدُّرَّ مِنْ نَرْجَسٍ

وقال عكاشة: [الكامل]

يَوْمَ الْخَمِيسِ عَشِيَّةً أَضْحَابًا
تَدْعُ الصَّحِيحَ بِعَقْلِهِ مُرْتَابًا
مِنْ فَضَّةٍ قَدْ فُتِّعَتْ غُنَابًا
تُلْقِي عَلَى يَدِهَا الشُّمَالِ حِسَابًا

سَقِيَا لِمَنْزِلِنَا الَّذِي كَانَ بِهِ
إِذْ نَحْنُ نُسْقَاهَا شُمُولًا قَرْقَفًا
مِنْ كَفِّ جَارِيَةٍ كَأَنَّ بَنَانَهَا
وَكَأَنَّ يُمْنَاهَا إِذَا ضَرَبَتْ بِهَا

وقال آخر: [الوافر]

وَبَيْنَ جَفُونِهَا خَزْبُ الْبَسُوسِ
كَمَثَلِ الْخَمْرِ فِي صَافِي الْكُؤُوسِ
مَرْضُوعَةِ الرَّأْسِ بِأَبْنُوسِ

وَحُورَاءِ اللَّوَاخِظِ بَيْنَ قَلْبِي
تَرَى مَاءَ التُّعِيمِ يَجُولُ فِيهَا
كَأَنَّ بَنَانَهَا أَقْلَامَ عَاجٍ

ووصف الخصور بالهيف، وهو الضمر والرقعة، وسنذكر معها ما يستظرف، وقد

تقدم قول ابن عبد ربه: [الكامل]

مَا بَالُ قَلْبِكَ لَا يَكُونُ رَقِيقًا

يَا مَنْ تَقَطَّعَ خَضْرَاهُ مِنْ رِقَّةٍ

وقال ابن الرومي: [مجزوء الكامل]

فَأَثَابَهَا مِنْهُ الدُّمُوعَا
مِنْ ضُمُرِهِ ظَمَأٌ وَجُوعَا

وَهَبْتُ لَهُ عَيْنِي الْهُجُوعَا
ظَبْيِي كَأَنَّ بِخَضْرَاهُ

وقال عبيد الله بن عبد الله: [السريع]

وَالْحَسَنَ أَوْصَافًا وَأَلْوَانًا
كَجَائِعٍ يَحْسُدُ شُبُعَانَا

سَلَمَى وَمَا سَلَمَى تَفُوقُ الْمُئِي
وِشَاحَهَا يَحْسُدُ خَلْخَالَهَا

وقال كشاجم في مقلوبه:

مَشْقَلٍ فَهِيَ عَنْكَ بَوْتُ

مَسَاوِلَةَ الْكَلِّ غَيْرِ بَطْنٍ

= وشرح المفصل ٩٢/٦، ١٤٤/٧، ولسان العرب (سرع)، (سحل)، (شثن)، (ظبا)، والمنصف ٣/٥٨، وتاج العروس (سحل)، (شثن)، (ظبا).

(١) الأبيات لأبي نواس في ديوانه ص ٣٦١.

حُجُولُهَا الدَّهْرَ فِي اضْطِرَابٍ وَوَشَحَهَا كَاطِمٌ صَمُوتٍ

وقال حبيب: [الطويل]

مَهَا الْوَحْشِ إِلَّا أَنْ هَاتَا أَوَانَسَ قَنَا الْخَطَّ إِلَّا أَنْ تَلَكَ ذَوَابِلُ^(١)
مَنْ الْهَيْفَ لَوْ أَنَّ الْخَلَاحِيلَ صُيِّرَتْ لَهَا وَشَحَا جَالَتْ عَلَيْهَا الْخَلَاحِلُ

أَخَذَهُ الْقَاضِي ابْنُ لَبَّالٍ فَقَالَ: [الطويل]

جَلُوتَ لَنَا شَيْئًا مِنَ الدَّرِّ عَاطِلًا بَعِيشِكَ لَمْ جُنَّبَتْهُ الْجِيدُ وَالنُّخْرَا
فَقَالَتْ وَلَمْ تَكْذِبْ خَشِيتُ سَقُوطَهُ وَأُومِتَ إِلَيَّ فِيهَا نَظْمَتُهُ تَغْرَا
كَذَلِكَ إِنْ عَضَّ السَّوَارُ بِمَغْصَمِي وَحَازَرْتُ أَنْ يَدْمِيهِ حَمْلَتُهُ الْخَضْرَا

وَأَكْثَرُ مَا يَذْكُرُونَ الْخَضِرَ بِالرَّقَّةِ مَعَ ذِكْرِ الْكَفَلِ بِالْعِظَمِ، كَمَا قَالَ دِيكَ الْجَنِّ:
[الكامل]

وَتَمَايَلْتُ فَضَحَكْتُ مِنْ أَزْدَافِهَا عَجَبًا، وَلِكِنِّي بِكَيْتُ لَخَضْرِهَا
تَسْقِيكَ كَأْسَ مُدَامَةٍ مِنْ كَفِّهَا وَرَدِيَّةً، وَمُدَامَةٍ مِنْ تَغْرِهَا
وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو حَفْصِ بْنِ عَمْرِ:

مَشَتْ كَالْغَصْنِ يَثْنِيهِ التَّسِيمُ وَيَعْدُوهُ التَّسِيمُ فَيَسْتَقِيمُ
لَهَا رَذْفٌ تَعْلَقُ مِنْ ضَعِيفِ وَذَاكَ الرَّذْفُ لِي وَلَهَا ظَلُومُ
يَعْدُبْنِي إِذَا فَكَّرْتُ فِيهِ وَيَتَعَبُّهَا إِذَا رَامَتْ تَقُومُ
وَمَا حُبِّي لَهَا إِلَّا عَذَابُ عَلَيْهِ مِنْ نَضَارَتِهَا نَعِيمُ

قوله: «سهوًا». أي خطأ. والهامة: الرأس. وإلا فَرَمَى اللَّهُ جَفَنِي بِالْعَمَشِ، إِنَّمَا
ذَكَرَ الْعَمَشَ وَالنَّمَشَ وَمَا بَعْدَهُ لِأَنَّهَا أَضْدَادٌ لَمَّا تَقَدَّمَ، وَعِنْدَ الْإِشَارَةِ لَهَا يَتَبَيَّنُ مِنَ الْغَلَامِ
عِنْدَ الْوَالِي أَضْدَادُهَا، فَيَزِدُّهَا حَسَنًا. [الكامل]

* وَيَضِدُّهَا تَتَبَيَّنُ الْأَشْيَاءُ^(٢) *

وَالْعَمَشُ: انْتِثَارُ شَعْرِ الْعَيْنَيْنِ. وَالنَّمَشُ: أَخْفَى مِنَ الْبَرَشِ. الْجَلَجُ: الصَّلَعُ، وَهُوَ

(١) البيتان في ديوان أبي تمام ص ٢٥٦.

(٢) صدره:

وَنَذِيْمُهُمْ وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ

وَالْبَيْتُ لِلْمَتْنِيِّ فِي دِيْوَانِهِ ٢٢/١.

انحسار الشعر من التزعتين، وفعله جَلَحَ الرجلُ واجْلَحَ، كاسودَّ. والطلع: قد تقدّم في الثانية، وإذا علته خضرة سُمِّيَ بلحاً. والبهار: نرجس المغرب، وهو أصفر، والورد أحمر، فدعا له بعلّة تذهب جمال وجهه وتصفّر حمرة خده. والبخار: كالبخر: الثّثن. والمسكة: أطيّب العطر، فدعا له بتغير الرائحة. وتقدّم أن أطيّب الطيب أنفاس عبقة من كبِدِ سليمة.، وتقدّم في الثانية معنى قوله: «ووردتي بالبهار» منظوماً، وقال الصابي في أبخر: [الكامل]

نطق ابنُ نصرٍ فاستطارت جيفةً في العالمين لنتن فيه الفاسدِ
فكأنَّ أهل الأرض كلَّهُمُ فسّوا متواطئين على اتّفاق واحدٍ

وقالت جنان في أبي نواس: [الخفيف]

فإذا ما أردت أن تحمد اللّ له على ما أعطى وأولاك شُكراً
فليكن ذاك بالضمير فمن سبّ ح بالفسونال إثماً ووزراً

وقال آخر: [السريع]

أهدى زريق قطّة لقمةً قد لأكها في فمهِ الأبخرِ
فبادر القِطَ إلى دَفْنِهَا يحسبها من بعض ما قد خرى

قوله: «ويدري بالمحاق»، المحاق: أن ينمحق ضوء القمر فلا يبقى منه شيء. واحتراق الفضة: اسودادها. وشُعاعي بالظلام، أي صباحة وجهه ووضاءته بسواد اللحية، أي عاجلني الله بالالتحاء، ويريد بهذا كله أن يكسو بياض وجهه سواد الشعر، فيكسد ولا يُلْتَفَتُ إليه.

وقال ابن المعتز في مثل هذا الدعاء: [البسيط]

يا ربّ إن لم يكن في وصلهِ طَمَعٌ وليس لي فرج من طول هجرتهِ
فاشِفِ السقام الذي في طرف مُقْلَتِهِ واستر ملاحه خَدْيِهِ بلحيتهِ

ونقل لفظ احتراق الفضة من قول أبي الحسين الثّغري، وهو من شعراء اليتيمة:

[الرملي]

لي حبيب يزهي بحسنٍ عجيبٍ وبقدّ مثل القضيبي الرطيبِ
أحدقت بالسواد فضة خديّ له، فقد أحرقت سواد القلوبِ

[مما قيل في العذار وفي الالتحاء]

ونذكر هنا ما يليق بهذا الموضع مما قيل في العذار وفي الالتحاء مما مدح به ودّم،

قال ابن عبد ربه: [الكامل]

خَدَّاهُ بِدَمِ الْقُلُوبِ مُضَرَّجًا
مَنْ نَرَجِسُ جَعَلَ النَّجَادَ بِنَفْسِجَا

وقال ابن صارة: [الكامل]

فَقَلُّوْنَا حَذْرًا عَلَيْهِ رِفَاقُ
نَفَضْتُ عَلَيْهِ سَوَادَهَا الْأَخْدَاقُ

وَمَعَذِرِ نَقْشِ الْجَمَالِ بِمَشْكِهِ
لَمَّا تَيَقَّنَ أَنَّ سَيْفَ جَفْوَنِهِ

وَمَعَذِرِ رَقَّتْ حَوَاشِي حَسَنِهِ
لَمْ يَكُنْ عَارِضُهُ السَّوَادُ وَإِنَّمَا

وقال عبد المحسن الصوري: [الوافر]

لَجَرِمٍ سَابِقٍ مِنْ مُقْلَتَيْنِهِ
عَنِ الْأَعْرَاضِ خَضْرَاءَ عَارِضِيهِ
لِقَلْبِي فِي الْخِلَاصِ سَعَى عَلَيْهِ

وَمَعْتَذِرِ الْعِذَارِ إِلَى فَوَادِي
وَكَمْ أَعْرَضْتُ عَنْهُ فَأَعْرَضْتُ بِي
وَلَمَّا قُلْتُ إِنَّ الشَّعْرَ يَسْعَى

وقال أبو القاسم الزاهي: [الكامل]

لَكُنْتُ فِي وَزْرِ مِنَ الْأَوْزَارِ
تَخْطِيطُ لَيْلٍ فِي بَيَاضِ نَهَارِ
سَقَمَ الْقُلُوبِ وَنَزَهَةُ الْأَبْصَارِ

لَوْلَا عِذَارُكَ مَا خَلَعْتُ عِذَارِي
مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ أَعَايِنَ أَوْ أَرَى
حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى عِذَارِكَ فَاغْتَدَى

وللمعتمد بن عباد: [مخلع البسيط]

وَاخْتَلَطَ اللَّيْلُ بِالنَّهَارِ
ذَلِكَ آسِي وَذَا بَهَارِي
إِنْ يَكُ مِنْ رَيْقِهِ عُقَارِي

تَمَّ لَهُ الْحَسَنُ بِالْعِذَارِ
أَخْضَرَ فِي أَبْيَضٍ تَبَدَّى
لَقَدْ حَوَى مَجْلِسِي تَمَامًا

وقال ابن حمدون: [مخلع البسيط]

فَافْتَضَحَ الْآسُ وَالْبَهَارُ
وَاجْتَمَعَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ
عَلَيْهِ مِنْ مُقْلَتِي أَغَارُ

ظَلَّ عَلَى خَدِّهِ الْعِذَارُ
وَأَبْيَضَ هَذَا وَاسْوَدَّ هَذَا
أَغْضُ عَيْنِي عَنْهُ لِأَنِّي

فهذا كله حسن في مدح العذار؛ وإن كان التذير بموت الجمال، فإذا تقوى العذار واسود؛ صاروا إلى نعيه، كما قال أبو بكر البلوي: [السريع]

خَلَوْ مِنَ الْأَكْفَانِ وَالْغَاسِلِ
بِالشَّعْرِ: هَذَا آخِرُ الْبَاطِلِ

انْظُرْ إِلَى مَيِّتٍ وَلَكِنَّهُ
قَدْ كَتَبَ الدَّهْرُ عَلَى خَدِّهِ

وله في ضده: [مجزوء الكامل]

وقللت رسمٌ قد دَثُرَ
زُمَراً مواصلةً زُمَرِ
نِفاقهم عند الكِبَرِ

فأظهر خذك لُبَسَ الجِدَادِ
فأصبح يُنَبِّتُ شوكَ القَتَادِ
ء يُذَرِّكُ بالكُونِ أو بالفَسَادِ!
فأخنى عليك ظهورُ الفَسَادِ

وقال سعيد بن حميد في غلام التحى : [الكامل]

روضُ الشَّبَابِ قليلُ شعرِ العَارِضِ
ذهبت بحسبك ملء كَفِّ القَابِضِ
بعد اللَّذَاذةِ مثلَ خَلِّ الحَامِضِ

وقال علي بن بسام في أخيه جعفر : [البسيط]

أدبرت والدَّهْرَ إقبالاً وإدباراً
تَغْصُ دونك أَسْمَاعٌ وأَبْصَارُ
وللرِّياضِ على خديك أَثْوَارُ
إذا أنت ممتنعٌ، والشَّرْطُ دِينَارُ
كما تُسَوِّدُ بعد المَيِّتِ الدَّارُ

فدع المِكَاسَ فلاتَ حينَ مِكَاسِ
قد سَوِّدُوهُ بحالِكَ الأنفاسِ!
هَيْهَاتَ جاءَ الشعرُ بالإفلاسِ
فاستُبدلتَ جِلْساً من الأحلاسِ
كانت بليثته من الآساسِ

تركته وهو مسوِّدُ الأقطارِ
ليلُ أقام على نُجومٍ أو نَهَارِ

لَمَّا التحى مَنْ قد هَوِيَتْ
عَايِنَتْ من طَلَابِهِ
وكذاك أصحاب السَّحْدِ
وكما قال أبو الحسن بن الحاج :

أبا جعفرٍ مات فيكَ الجمالُ
وقد كان ينبت زهرَ الرِّياضِ
أَبْنِ لي متى كان بدرُ السما
وهل كنت في الملك من عبد شمس

هلاً وأنت بماء وجهك يُسْتَقَى
فالآن حين بدت بخذك لحيَةً
مثل السَّلَافَةِ عاد خمر عصيرها

يا مَنْ نَعْنَتْهُ إِلَيَّ الإخوانُ لحيتهُ
قد كنتَ ممَّنْ يهشُّ الناظرون له
أيامُ وجهك مصقولٌ عوارِضُه
فيا لدهرٍ مضى ما كان أحسنه
حانت منيَّته فاسودَّ عارضُه

وفيه يقول أيضاً : [البسيط]

حانت وفائك يا أبا العباسِ
ما بالُ وجهك بعد كثرة نُورِهِ
أَبْنِ الدَّنَانِيرُ التي عودتها
كانت بخد ثيابه ديباجةً
وكذا البناء فغير مرتفع إذا

وقال مُصعب الماجن : [الكامل]

قد صافحت أقطارَ خذك لحيَةً
فكأنَّ خط الشعر في جَنَبَاتِهِ

وكان لمحمد بن بشر بابان يُدخِل من الأكبر أصحابه، ومن الأصغر أحبابه فجاء يوماً غلامٌ مليح، وأراد الدخول من الأصغر على عادته، فمنع، فجعل يخاصم البواب لإدلاله، فبلغ ذلك ابن بشر، فكتب إليه: [مجزوء الرمل]

قل لمن رامَ بجهل
بعد أن علق في خدي
لينته يدخل إن جا
مدخل الظبي الغرير
مخلاة الشّعير
من الباب الكبير
وقال ابن الأتار: [مخلع البسيط]

لست بصابٍ إلى معذّر
لا أعشق الظبي ذا لجام
أحسن ما فيه أن تراه
بل أنا في حُبّه معذّر
لأنه في الظباء منكّر
بين مهابة وبين جوذّر
ينظر قوله: «لأنه في الظباء منكّر» إلى قول حبيب: [الوافر]

تعشّقتك الكبار يدلّ عندي
وقال آخر: [السريع]

لي في أبي يحيى ومشعوقه
يا ليت شعري قول ذي حيرة
شغل على ذي شغل شاغل
من منهما المفعول والفاعل!
وقال ابن حصين في محبوب صغير: [مجزوء الرمل]

بأبي ظبي صغير السـ
سرّني أن ليس يدري
فهو يدعوني عمّا
ن حازت ثلث سيّني
مذهبي فيه وقّني
وأنا أدعوه بابّني
وللخبز أرزّي: [البسيط]

قالوا عشقت صغيراً قلت أرثع في
ربيع حسن دعاني لاتباع هوى
وقال التّوخي في جسيم: [البسيط]

من أين أستر وجدي وهو منتهك
قالوا عشقت عظيم الجسم قلت لهم
وللفقيه ابن حزم: [الطويل]

وذي عدلٍ فيمن سباني حسنه
يطيل ملامي في الهوى ويقول:

أفي حسن وجهٍ لاح لم تر غيرَه
فقلتُ له: أسرَفْتُ في اللُّومِ ظاهراً
ألم ترَ أنِّي ظاهِرِيٌّ وأنَّني
وأحسنَ حبيبٍ حين قال: [البسيط]

قال الوشاةُ بدا في الخدَّ عارضُه
الحسن منه على ما كنتُ أعهدُه
أحلى وأعذب ما كانت شمائلُه
وصار مَنْ كان يلحى في مودَّتِه
وقال الحلواني: [البسيط]

قالوا التحى فاتحت بالشَّعر بهجَّتِه
خطَّت يدُ الحسن فيه فوق وجنتِه:
وله أيضاً: [الخفيف]

لي حبيبٌ إذا شكوت إليه
لستُ أدعو بالشَّعر غيظاً عليه
غير أنِّي أدعو بقلبٍ قريحٍ
وقال غيره: [مخلع البسيط]

قد حلَّ في سوقك الكساد
كأنما الشَّعر فيه زرعٌ

ولم تدِرِ كَيْفَ الجسم، أنت قتيلُ!
وعندي ردُّ لو أردتَ طويلاً
على ما بدا حتى يقومَ دليلُ!

فقلت لا تنكروا وما ذاك عائبُه^(١)
والشَّعر جزَّز له مَن يطالبُه
إذ لاح عارضُه واخضرَّ شارِبُه
إن سيَّل عني وعنه قال صاحِبُه

فقلت: لولا الدُّجى لم يحسن القمرُ
هذي محاسن - يا أهل الهوى - أخرُ

سامني بالهوى عذاباً شديداً
خيفةً أن يكون حسناً جديداً
أن أراه مثلي مُحبباً عَميذاً

مذ لاح في خدَّك السَّوادُ
والثُّشْفُ منه له حَصَادُ

وقوله: «ودواتي بالأقلام»، أي ابتلاه الله أن يلاط به، قال: الفنجديهي: أنشدني بعض الشعراء بمزوروز لبعضهم: [الوافر]

دوادر الأمير له دواةٌ
يُرى قلم الأمير يغوصُ فيها
كمثل الياسمين بغير صُوفٍ
مغاص عصيدةً في حَلَقِ صوفي

ونقل لفظ الدواة والأقلام من قول ديك الجن؛ وكان يهوى غلاماً من جنص، اسمه بكر، فجلس معه ليلة يتحدث بها حتى غاب القمر، فقام بكر ليمشي، فقال: [الطويل]

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٤٣٢.

دع البدر فليغرُبْ فأنت لنا بدرُ
إذا ما انقضى سحر الذين ببابل
ولو قيل لي قُمْ فادع أحسنَ مَنْ ترى
إذا ما تجلَّى عن محاسنك الشَّعرُ
فأنت لنا سحرٌ وريقُك لي خمرُ
لصحت بأعلى الصَّوت: يا بَكَرُ يا بَكَرُ!

وكان هذا الغلام شديد التَّصاؤُن والتمنع، فاحتال عليه قومٌ من جُمُص، فأخرجوه إلى متنزَّه، فأسكروه وفسقوا به، فبلغ ذلك ديك الجن فقال: [الكامل]

يا بَكَرُ ما فعلت بك الأَظَامُ
يا دارُ ما فعلت بِك الأَيَّامُ
في الدار بعدُ بقية نستمها
أم ليس فيك بقية تُستَمُّ
شغل الظَّلَامُ كراك في أبوابهم
فتفرَّغت لدوائك الأَقلامُ
وله فيه أيضاً: [البسيط]

قولا لبكر بن مهدي إذا اعتكرث
عساكرُ اللَّيْلِ بين الطَّاسِ والجَمِ
ألم أقل لك إنَّ الكِبَرُ نهلكةُ
والبَغْي والعُجْب إفسادُ لأَقْوَامِ
قد كنتَ تفرِّق من سهم تعايُّنه
فصرت غيرَ رَمِيم رقة الرَّامِي
وكنت تفرع من لمسٍ ومن قُبَلِ
فَقَدْ ذللتَ لإسراجِ وإلْجَامِ
إن تَدَمَ فخذاك من ركض فربتما
أمسى وقلبي منك الموجه الدَّامِي

قال أبو علي بن رشيقي: كنت أوصي غلاماً وضيئاً، كان يختلف إليّ، وأحذره من كثرة التخليط، فخرج يوماً في جماعة من أصحابه، فأوقع به، فأخبرت بذلك، فقلت: [السريع]

يا سوء ما جاءت به الحالُ
إن كان ما قالوا كما قالوا
ما أحذق النَّاس بصوغ الخنا
صيغ من الخاتم خَلْخَالُ
وهذا من قول ابن المعتز: [الطويل]

مَضَى خالِدُ والمال تسعون درهماً
وآب ورأس المال ثلث الدَّرَاهِمِ

وهذا المعنى الخبيث يتبين بعقد التسعين والثلاثين في اليد.

وقال ابن رشيقي: [الكامل]

سقطت ثنيتُه فأوجع قلبُه
لسقوطها وجرى عليه عظيمُ
فإذا مررت به فسلَّ فؤاده
عنها وقُلْ صبراً كذاكَ الرِّيمُ
عجباً للؤلؤة هَوَتْ من سِلْكِهَا
والسِّلْك لا واهٍ ولا مفصومُ
أتعدياً يا خطبُ وهو مصونُ
أبدأ بخاتم ربِّه مختومُ

ويستحب لمن وُسم بوسمة الجمال، أن يكون شديد التصاؤن، قليل التبدل، فذلك
أدعى للسلامة، وقد قال ابن وكيع في ذلك: [البيسط]

قالوا عشقت كثير البخل ممتنعاً فقلت: هيهات عنكم غاب أطيبه
لو جادهان، وقلت الجود عادته وإنما عزّ لَمَّا عزّ مطلبه
فإذا تبدل وأجاب كلّ من دعاه صار عرضة للظنون، ونبت عن محاسنه العيون، لأنّ
النفس الحرّة لا تنفك من غيرة، وقد قال العباس بن الأحنف: [الكامل]

يا قوم لم أهجزكم لمالاة منّي ولا لمقالٍ واشٍ حاسد^(١)
لكنني جرّبتكم فوجدتكم لا تصبرون على طعام واحد
وقال أبو الوليد بن حزم: [الكامل]

لما استمالك معشر لم أرضهم والقول فيك كما علمت كثير
داويت دونك مُهجتي فتماسكت من بعد ما كادت إليك تطير
فاذهب فغير جوانحي لك منزل واسمع فغير وفائك المشكور
وله أيضاً: [المقارب]

يقول وقد لمّته في الهوى فلان، وعرضت شيئاً قليلاً:
أتحسدني؟ قلت: لا، والذي أحلك في الحب مرعى وبيلاً
وكيف وقد حلّ ذاك الإزار وقد سلك الناس تلك السبيلاً!
وقال محمد بن السري: [الكامل]

قايسٌ بين جماله وفعله فإذا الملاحه بالخيانة لا تفي
والله لا كلمته ولو أنه كالبدر أو كالشمس أو كالمكتفي
وقال آخر: [الطويل]

أيا حسناً أزرت قبائح فعله عليه كما أرى الكسوف على البدر
لقد فُقت كلّ الناس حسناً وزينةً ولكنما قبّخت ذلك بالغدر
وقال ابن عينة: [الكامل]

ضيعت عهد فتى لعهدك حافظ في حفظه عجب وفي تضييعك
إن تقتليه وتذهبي بفؤاده فبحسن وجهك لا بحسن صنيعك

(١) البيتان في ديوان العباس بن الأحنف ص ١٠٦.

فقال الغلام: الاضطلاء بالبليّة، ولا الإيلاء بهذ الأليّة، والانقياد للقود؛ ولا الحلف بما لم يحلف به أحد. وأبى الشيخ إلاّ تجرّيعه اليمين التي اخترعها، وأمر له جرّعها. ولم يزل التّلاجي بينها يستعر، ومحبّة التّراضي تعرّ، والغلام في ضمن تأبّيه، يخلب قلب الوالي بتلويّه، ويطمعه في أن يلبّيه، إلى أن رآه هواءه على قلبه، وألب بلبّه، فسوّل له الوجد الذي تيمّمه، والطمع الذي توهّمه، أن يخلص الغلام ويستخلصه، وأن يتقّده من جباله الشّيوخ ثم يقتنصه.

قوله: «الاضطلاء»، أي الاتصال والتلبّس. والبليّة، أراد دعوة الباطل التي ادّعى عليه الشيخ. والإيلاء: الحلف: والأليّة: اليمين. والقود: قتل النفس بالنفس، فيقول: الصبر على الضرب أو القتل أهون من هذه اليمين التي لم يحلف بها أحد اخترعها: استنبطها. أمقر: أمر، من المقر؛ وهو الصبر.

وهذه اليمين المخترعة، حكى الأصمعيّ شبهها، فقال: اختصم أعرابيان عند بعض الولاة في دين، فجعل المدعى عليه يحلف بالطلاق والعناق، فقال المدعي: دعني من هذه الأيمان، واحلف بما أقول لك، فقال: ما قولك؟ قال: قل: لا ترك الله لك خفاً يتبع خفاً، ولا ظلفاً يتبع ظلفاً، وحتك من أهلك وولدك، كما يُحات الورق من الشجر؛ إن كان بقي لي هذا الحق قبلك. فأعطاه حقه ولم يحلف له.

وحكى المسعودي أنّ الفضل بن الربيع قال: صار إليّ عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، فقال: إنّ موسى بن عبد الله بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب قد أرادني على بيعته، فأخبرت الرشيد بذلك، فجمع بينهما، فقال الزبير لموسى: سعيتم علينا، وأردتم نقض بيعتنا ودولتنا، فقال له موسى: ومن أنتم! فغلب الرشيد الضحك حتى رفع رأسه إلى السقف لثلا يظهر منه الضحك، ثم قال موسى: يا أمير المؤمنين، هذا المشنع عليّ، خرج مع أخي محمد على جدك المنصور، وهو القاتل [من أبيات]:

قوموا ببيعتمكم نهض بطاعتنا إنّ الخلافة فيكم يا بني الحسن

وليست سعائته حياً لك، ولا مراعاة لدولتك؛ ولكن بغضاً لنا جميعاً أهل البيت، وأنا أستحلفه بيمين، فإن حلف بها أنّي قلت ذلك، فدمي حلال لأمر المؤمنين. فقال له الرشيد: احلف له يا عبد الله، فامتنع، فقال له الفضل: لم تمتنع وقد زعمت أنه قال ما ذكرته؟ قال: فإنني أحلف له، قال موسى: قل: تقلدت الحول والقوة دون حول الله وقوته إلى حولي وقوتي، إن لم يكن ما قلته حقاً. فحلف له، فقال موسى: الله أكبر! حدثني أبي عن أبيه، عن جده، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما حلف أحد بهذه اليمين وهو

كاذب إلا عَجَلَ الله له العقوبة قبل ثلاث»، وها أنذا بين يدي أمير المؤمنين في قبضته، فإن مضت ثلاث ولم يحدث له حادث، فدمي حلال لأمر المؤمنين.

قال الفضل: فوالله ما صلّيت العصر من ذلك اليوم، حتى سمعت الصراخ من داره. فدخلت عليه، فوالله ما كدت أعرفه: لأنه صار كالزّق العظيم، ثم اسودّ حتى صار كالفحم، فعرفت الرشيد في الحين، فما انقضى كلامنا حتى عرفنا أنه قد مات، فبادرت بتعجيله، وتولّيت الصلاة عليه. فلما وُورِيَ في قبره انخسف به، وخرجت رائحة مفرطة الثّن، ومَرَّت أحمال شوك على الطريق، فأمرت بها فطرحت في قبره، فانخسف ثانية، فأمرت بألواح ساج، فطرحت على قبره وألقى التراب عليها، وانصرفْتُ، وأعلمت الرشيد. فأكثر التعجّب، وأحضر موسى؛ فأعطاه ألف دينار، وقال له: لِمَ عدلت عن اليمين المتعارفة عند الناس؟ فقال: أخبرت بالسند المتقدم عن النبي ﷺ أنه قال: «من حلف بيمين كاذبة معجّد الله فيها، استحيا الله من تعجيل عقوبته، ومن حلف بيمين كاذبة نازع الله فيه حوله وقوّته إلا عَجَلَ الله له العقوبة قبل ثلاث».

قوله: «التلاحي»، السّبَاب والتشاتم. عليّ رضي الله عنه، قال النبي ﷺ: «من لاخى الرجال سقطت مروءته وذهبت كرامته، وما زال جبريل ينهاني عن ملاحة الرجال كما ينهاني من عبادة الأوثان»^(١). وفي المثل: من لاحاك فقد عاداك.

يستعر: يتقد. محجّة التراضي: أي طريق الرضا. تَعَزُّ: تصعب. وفي ضمن تأبّيه، أي في أثناء كلامه وامتناعه. يخلِب: يخدع ويأخذ قلبه. تلوّيه: انعطافه يطعمه: يدعوه للطعم. يلبّيه: يجيبه لمراده. وران: غلب وغطى. أبو هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «إذا أذنب العبد نُكت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب صقلت، وإن عاد زادت حتى تعظم في قلبه، فذلك الران»^(٢)، قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المطففين: ١٤].

ألب: أقام. لبّه: عقله: سؤل: زين. الوجد: حرقه القلب. تيمه: عبّده وذلّله، والمتميم: المستعبّد لهواه. توهّمه: ظنه. يستخلصه: يختصه لنفسه. جباله: آلة الصيد. يقتنصه: يصيده؛ يقول: إنّ هذا الغلام في أثناء كلامه بالتمنع وترك الانقياد للشيخ يطمع الوالي في الانقياد له، وإنه إذا دعا لما يريد منه أجابه، وإنما فعل هذا حين رأى إدانة نظر الوالي في وجهه، واستحسانه كلامه، ولو فسّر الوالي حال الغلام بمنظوم لأنشد:

[البسيط]

(١) روى ابن الأثير الجزري، في النهاية في غريب الحديث ٤/٢٤٣، الحديث بلفظ: «نهيت عن ملاحة الرجال».

(٢) أخرجه بنحوه الترمذي في تفسير سورة ٨٣، باب ١، وابن ماجه في الزهد باب ٢٩.

يهدي لك الدر من لفظٍ ومبتسم
يجني الذنوب، وأحنو أن أواخذه
ضربان: منتثر منه ومنظوم
من أجل ذلك قيل الحسن مرخوم

ولأنشد إذا غلب عليه هواه: [البسيط]

مرآك مرآك لا شمس ولا قمر
في ذمة الله قلب أنت ساكنه
وورد خديك لا ورد ولا زهر
إن بنت بان فلا عين ولا أثر
نفسى عليك، فرفقاً أيها القمر
لولا محلّك من قلبي لما أسفت

هذه الأبيات لأبي الوليد بن حزم؛ وقد كرر معنى البيت الأخير فقال: [الكامل]
أذكيّت من قلبي بنأيك لوعة
حتى خشيت على محلّك فيه

ومما يتعلق بهذا المعنى قول الآخر: [الطويل]

ولمّا رماني بالسهم تعمّداً
فقلت له لا ترم قلبي فإئنه
وفيها نصال الهجر حتى امتلا صُدري
مكانك والمرمي أنت ولا تدري

وقال آخر: [الطويل]

حملتك في قلبي فهل أنت عالم
ألا إنّ شخصاً في فؤادي محلّه
بأئك محمول وأنت مُقيم!
وأشتاقه، شخصٌ عليّ كريم

وقال التهامي: [الكامل]

قلبي فداؤك وهو قلب لم يزل
جاورته شرّ الجوار وزرئته
تذكى شهاب الشوق في أنثائه
لمّا حللت فناءه بفنائيه
أخشى عليك وأنت في سودائه
حرق سوي قلبي ودعه فإنني

وقال آخر: [السريع]

أودع فؤادي حرقاً أودع
أمسك سهم اللّحظ أو فارمها
نفسك تؤذى أنت في اضلعي
أنت بما ترى مصابّ معي
مسكنه في ذلك الموضع
موقعها القلب وأنت الذي

فقال للشّئخ: هل لك فيما هو أليق بالأقوى، وأقرب للتقوى! فقال: إلام
تُشير لأتقيّه، ولا أقف لك فيه؟ فقال: أرى أن تُقصر عن القيل والقال، وتقتصر
منه على مائة مثقال، لاتحمل منها بغضاً، وأجتي الباقي لك عرضاً، فقال الشّئخ:

مَا مِنِّي خِلَافَ، فَلَا يَكُنْ لِيَوَغِدِكَ إِخْلَافٌ، فَتَقْدَهُ الْوَالِي عِشْرِينَ، وَوَزَعَ عَلَى وَزَعَتِهِ تَكْمَلَةً خَمْسِينَ. وَرَقَّ قُوبُ الْأَصِيلِ، وَانْقَطَعَ لِأَجْلِهِ صُوبُ التَّخْصِيلِ، فَقَالَ لَهُ: خُذْ مَارَاجَ، وَدَعْ عَنكَ اللَّجَاجَ، وَعَلَيَّ فِي غَدٍ أَنْ أَتَوَصَّلَ، إِلَى أَنْ يَنْضَ لَكَ الْبَاقِي وَيَتَحَصَّلَ، فَقَالَ الشَّيْخُ: أَقْبَلْ مِنْكَ عَلَى أَنْ أَلْزِمَهُ لَيْلَتِي، وَيَرْعَاهُ إِنْسَانٌ مُقْلَتِي، حَتَّى إِذَا أَغْفَى بَعْدَ إِسْفَارِ الصَّبْحِ، بِمَا بَقِيَ مِنْ مَالِ الصُّلْحِ، تَخَلَّصْتُ قَائِبَةً مِنْ قُوبٍ، وَبَرِيءَ بَرَاءَةُ الذُّثْبِ مِنْ دَمِ ابْنِ يَعْقُوبَ، فَقَالَ لَهُ الْوَالِي: مَا أَرَاكَ سُمْتَ شَطَطًا، وَلَا رُمْتَ فَرَطًا.

قال الحارث بن همام: فَلَمَّا رَأَيْتُ حُجَجَ الشَّيْخِ كَالْحُجَجِ السَّرِيحَةِ، عَلِمْتُ أَنَّهُ عَلِمَ السَّرُوجِيَّةَ.

قوله: «أليق» أي أشكل وأصقل. بالأقوى: بصاحب القوة. والذي هو أقرب للتقوى، وهو العفو لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧]. أقتفيه: أتبعه. لا أفف لك فيه، أي لا أتوقَّف فيما تشير به. تُقصر: تكف. عن القيل والقال، أي عن كل كلام. أجتبي: أجمع. عَرَضًا: كل ما ليس فيه روح من الأمتعة غير العين؛ وهو ليس بنقد من السِّلَع التي يُتجر فيها من متاع ورقيق وغير ذلك. أتحمَّل: أضمن، وفلان حميل بكذا، أي ضامن له. إخلاف: كذب وعد. نقده: أعطاه نقداً. وزع: فرق. وزعته: شُرطته الذين يكفون عنه الناس، واحدهم وازع مثل كافر وكفرة، وقد وزعته وزعاً كففته، وأيضاً دفعته. وقال الحسن البصري رحمه الله: لا بد للسلطان من وزعة. الأصيل العشي. وثوبه: ضوء الشمس، وهو في ذلك الوقت رقيق. صُوب: وقع، وصاب السهم صوباً وصيباً: وقع بالرمية، وصاب السحاب الموضع: أمطر. والتحصيل: أن يحصل بقية المال. راج: حضر وتيسر، ويقال: راج الشيء رَوْجاً فهو رائج إذا جاء جاء سريعاً. قوله: «إنسان مقلتي»، أي سواد عيني. يرعاه: يحفظه وينظره. أغفى: أتى بالبقية، والعفاوة: بقية المرق في القدر. تخلَّصت: انفصلت. والقائبة: البيضة. والقُوب: الفرخ، وهذا مثل يضرب للرجلين يفترقان بعد الصَّحبة، وجاء مقلوباً لأن الذي ينفصل ويخرج إما هو الفرخ من البَيْضَة، والقُوب، من تقوُّب الشيء إذا انتشر، ومنه القوباء لداء الجراز. وابن يعقوب هو يوسف عليهما السلام، وبراءة الذُّثْبِ من دمه، هو ما يحكى أن إخوته لما جاءوا أبيهم يبيكون على يوسف، علموا أنه لا يصدِّقهم، فاصطادوا ذئباً فلطَّخوه بدم، وأتوه يبيكون، وقالوا له: هذا الذُّثْبِ قد ضرِّي، أكل أغنامنا وأكل يوسف أخانا، قال لهم: أطلقوه، ودعا الله يعقوب أن ينطقه له، فقال للذُّثْبِ: ادنُ مِنِّي، فجعل يبصبص بذئبه ويدنو منه، حتى وضع خذَّه على فخذ يعقوب، فقال له: لِمَ

أَكَلْتُ ابْنِي، وفجعتني فيه؟ فقال: لا والله يا نبي الله، ما رأيته ولا أكلته، وإنني لغريب في أرضكم اليوم، وصلت من مصر في طلب أخ لي فقدته، فأوثقني هؤلاء وساقوني إليك، فقال لهم يعقوب عليه السلام: الذئب مع أخيه أَوْفَى منكم مع أخيكم.

قوله: «سُمْتُ»: أي كَلَفْتُ. شَطَطًا: شيئاً بعيداً، والشَّطَطُ: مجاوزة القدر.

ورمت فَرَطًا: طلبت شيئاً متفاوتاً، وكيف لم يسمَّه شططا، وقد حرّمه لذة ليلة مع

هذا الغلام أحسن من ليلة الخفاجي حيث يقول: [مخلع البسيط]

وليلة طَلَقَةٍ قَضَيْتَنِي	من موعدٍ للحبيب دِينًا
بثْنَا نَجَرَ الذِيُولَ فِيهَا	والخمر تمشي بنا بالهويْنِي
أرسل في روض وجنتيه	لحظةَ عين تفيض عينًا
كأنما اللحظ كيمياء	تذهب من وجهه لُجَيْنًا
وما توقفت أن طرفا	يقلب عين اللجين عينًا
أو ليلة الآخر حين يقول: [الكامل]	

لَمَّا رَأَى مَنْ ظَلَّتْ فِيهِ مَتِيْمًا	جسمي ضئيلاً والفؤاد مولها
جادت شمائله عليّ بليلة	أهدت إلى الصبّ المعنى ما اشتهى
عانقت فيها البذر ليلة تَمِّه	يا من رأى بدرأ يعانقه السها!

[أحمد بن سريج من أئمة الشافعية]

قوله: «الحجج الشريجية» منسوبة إلى أحمد بن سريج، وهو من كبار أصحاب الشافعي، وكان حسن الاحتجاج، مليح المناظرة.

وقال الفنجدبيهي: الشريجية منسوبة إلى الإمام أبي العباس أحمد بن عمر بن سريج إمام أصحاب الشافعي على الإطلاق، ومن لا نفس ذات دَرٍّ بمثله في الآفاق، حججه في أحكام الشرع أوضح الحجج، وأقواها وأمتنها على مرور الأيام والحجج، وكان يلقب بالبازي الأشهب، وبالشافعي الثاني، لتبحره في استنباط المعاني، من غوامض الأخبار والمثاني، دلالة في فنون العلم متينة، وبراهينه مبنية.

وقال: رأيت في المنام كأننا أمطرنا كبريتاً أحمر، فملأت كمي وحجري وجيبي منه، فعبّر لي أنني أُرزقُ علماً غزيراً كعِزّة الكبريت الأحمر.

وسمع يتمثل بهذه الأبيات: [المقارب]

فلا تحسد الكلب أكلَ العظام	فعند الخراءة ما ترخمه
تراه وشيكاً شكساً إسته	كلوماً جناها عليه فمه
إذا ما أهان امرؤ نفسه	فلا أكرم الله من يكرمه

وكان يناظر محمد بن داود، فقال له ابن داود يوماً وقد أكثر عليه السؤال: أبلغني ربي، فقال له: قد أبلعتك الدجلة والفُرات.

وقال له مرة: أمهلني ساعة، فقال: قد أمهلتك من الساعة إلى أن تقوم الساعة.

وقال له ابن داود يوماً: أكلّمك من الرّجل وتُجيبني من الرأس! فقال له: كذلك البقر إذا حفيث أظلافها، وهنت قُرُونها.

واجتمع أبو العباس بن سُرّيج وأبو بكر بن داود الأصهبانيّ في مجلس عيسى بن الجراح الوزير، فتناظرا في الإيلاء، فقال ابن سُرّيج: أنت بقولك: مَنْ كَثُرَتْ لحظاته، دامت حسراته، أبصرُ منك في الكلام في الإيلاء، فقال له ابن داود: لئن قلتَ ذلك، فإني أقول: [الطويل]

أنزّه في روض المحاسن مقلّتي	وأمنع نفسي أن تنال مُحَرّماً
وأحمل من ثقل الهوى ما لو أنّه	يُصبّ على الصّخر الأصمّ تهديماً
ويَنطِقُ طرفي عن مترجم خاطري	فلولا اختلاسي رَدّه لتكلّماً
رأيتُ الهوى دعوى من الناس كلّهم	فلسْتُ أرى حبّاً صحيحاً مسلماً

وقال له ابن سُرّيج: بم تفتخر؟ ولو شئت قلت: [الكامل]

ومُسايرٍ بالغُنج من لَحَظَاتِهِ	قد بُتْ أَمْنَعُهُ لَذِيذِ سِنَائِهِ
أصبُو لِحُسْنِ كلامه وحديثه	وأكرّر اللّحَظّات في وجَنَائِهِ
حتّى إذا ما الصّبحُ لاح عموده	ولّى بِخاتم ربّه وبِراتِهِ

فقال له أبو بكر: أصلح الله الوزير! يحفظ عليه ما قال، حتى يقيم عليه شاهدين عدلين، أنه ولّى بخاتم ربه وبراءته، فقال له ابن سُرّيج: فيلزماني في هذا ما يلزمك في قولك: [الطويل]

* وأمنع نفسي أن تنال مُحَرّماً *

فضحك الوزير، وقال: لقد جمعتما ظَرْفاً ولطفاً وعِلْماً وفَهْماً.

اشتملت هذه الحكاية على أنّ هذين الرجلين العالمين على اشتغارهما بالعلم والفضل والدين كانا يرتاحان إلى التعشّق على سبيل التظرف والتزام التعقّف على ما يليق ويشكل بمنصبهما؛ وإذا كان التعشّق بشرط العفاف، فإنّما يزيد الرّجل الفاضل رقة طبع، وحلاوة شمائل.

وقال ابن سُرّيج في مَرَضه الذي مات فيه: أُرِيتُ في المنام البارحة كأنّ قائلاً يقول: هذا ربُّك يخاطبك، فسمعتة يقول: ماذا أجبت المرسلين؟ فقلت: بالإيمان والتّصديق، قال: فقيل: ماذا أجبت المرسلين؟ فوقّع في نفسي أنه يُراد مني زيادة في الجواب،

فقلت: بالإيمان والتصديق، غير أنا قد أصبنا من هذه الذنوب، فقال: أما إني سأعفركم لك.

وثوَّقِيَ لخمس مضيّن من جمادى الأولى سنة ست وثلمائة، وبلغ سنه سبعا وخمسين سنة وستة أشهر، ودفن في حجرة، بسويقة غالب ببغداد رحمة الله عليه.

[من شعر النسيب]

ونذكر الآن من نفيس الشعر المضمّن «مَنْ ظَفَرَ من محبوبه بمراده من الوصال، ثم عَفَّ عما يخلّ بأهل الجلال»، قال إدريس بن اليمان: [البسيط]

من الغرام ولا ما كابدت كَيْدِي
يسطّعه من حُرْقٍ في الدَّمْعِ مَتَّقِدِ
معطّلاً جِيْدَهُ إِلَّا مِنْ الْعَيْدِ
من ذلك الشَّنْبِ المعسولِ والبردِ
وصيّرته يدُ الصُّهْبَاءِ طَوْعَ يَدِي
فقال: كَفُّكَ عندي أَفْضَلُ الوُسْدِ
وبتُ ظَمَانٍ لم أُضْدِرْ ولم أُردِ
والأفق محلولك الأرجاء من حَسَدِ
أما دَرَى اللَّيْلِ أن البدر في عَضْدِي!

لم تدر ما خلّدت عيناك في خَلْدِي
أفديك من زائرٍ رام الدنوّ فلم
خاف العيون، فوافاني على عَجَلِ
عاطيته الكأس فاستحيث مدامتها
حتى إذا غازلت أجفائه سِنَّةُ
أردت توسيده خَدَيِ وقلّ له
فبات في حرم، لا غدر يُزْعِجُهُ
بدرُ ألمٍ وبدرُ التَّمِّ منمحق
تحيّر الليل فيه، أين مطلعه

وقال الرّماديّ: [السريع]

على رقيب غيرِ وُسْنَانِ
وقتاً ومن راحة نَدْمَانِي
كأنّه أحشاء ظَمَانِ
طلاً على وَرْدٍ وَسَوْسَانِ
أفودَ لي من ألف شَيْطَانِ
فبت في جئةِ رَضْوَانِ
يُجاهرُ اللّهَ بعصيانِ

وليلةٍ راقبتُ فيها الهوى
والراح ما تنزل عن راحتي
وربّ يوم قيظة منضج
أبررَ من خديهِ لي رشحه
وكان في تحليل أزراره
فتحت الجئة من جَنِيهِ
مروءة في الحبّ تنهي بأن

وقال سعيد بن حميد: [الخفيف]

أهيف الكَشْحِ، مُثَقِّلُ الأردافِ
ق فأخفى الهوى وليس بخَافِي
تُ على بذله بقاء التَّصَافِي

زائرُ زارنا على غير وعدِ
غالب الخوف حين غلبه الشُّو
غضّ طرفي عنه تقى الله واختز

ثم ولي والخوف قد هَزَّ عِظْفَيْهِ هـ، ولم تَخُلْ من لباسِ الْعَفَافِ
وقال بعض الطالبيين: [الطويل]

رموني وإياها بشنعاء هم بها أحقُّ، أَدال الله منهم وَعَجَّلاً
بأمرٍ تركناه وربِّ محمدٍ جميعاً، فإِما عِفَّةٌ أو تَجْمُلاً

وسنزيد ما يستحسن في العفاف وضده في الثانية عشر.
قوله: «عَلِمَ السَّرُوجِيَّةُ»، أي مشهورها. والعَلَمُ: الجبل.

فَلَبِثْتُ إِلَى أَنْ زَهَرَتْ نَجُومُ الظَّلَامِ، وَانْتَثَرَتْ عُقُودُ الزُّحَامِ، ثُمَّ قَصَدْتُ فِنَاءَ
الْوَالِي، فَإِذَا الشَّيْخُ لِفَتَى كَالِي، فَنَشَدْتُهُ اللَّهَ: أَهْوَأُ زَيْدٌ؟ فَقَالَ: إِي وَمُجِلُّ
الصَّيْدِ! فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا الْغُلَامُ، الَّذِي هَفَّتْ لَهُ الْأَحْلَامُ، قَالَ: هُوَ فِي النَّسَبِ
فَرْخِي، وَفِي الْمُكْتَسَبِ فَحِي، قُلْتُ: فَهَلَّا اكْتَفَيْتَ بِمَحَاسِنِ فِطْرَتِهِ، وَكَفَيْتَ الْوَالِي
الْإِفْتِنَاءَ بِطُرَّتِهِ! فَقَالَ: لَوْ لَمْ تُبْرِزْ جِبْهَتَهُ السَّيْنَ، لَمَّا قَنَقَشْتُ الْخُمْسِينَ، ثُمَّ قَالَ:
بِتِ اللَّيْلَةِ عِنْدِي لِنُطْفِئَ نَارَ الْجَوَى، وَنَدِيلَ الْهَوَى مِنَ النَّوَى، فَقَدْ أَجْمَعْتُ عَلَى
أَنْ أُنْسَلَ بِسُخْرَةٍ، وَأُضْلِيَ قَلْبَ الْوَالِي نَارَ حَسْرَةٍ.

لبثت: أقمت. عقود: جمع عقد، أراد ما يعقد من جموع الناس في الزحام.
انتثرت: افترقت. زهرت: أضاءت. الفناء: ما حول الدار. ناشدته: سأله. هفت، أي
طارت. الأحلام: العقول. فطرته: خلقته. تبرز: تظهر. والطرة: قد تقدمت، وشبهه
اعتدال الشعر على الجبهة بشكل السين على السطر، وأخذه من قول التهامي: [البسيط]

يَا رَبِّ مَعْنَى بَعِيدِ الشَّأْنِ نَسْلُكُهُ فِي سَلَكٍ لَفْظٍ قَرِيبِ الْفَهْمِ مُخْتَصِرِ
لَفْظٌ يَكُونُ لِعَقْدِ الْقَوْلِ وَاسِطَةً مَا بَيْنَ مَنْزِلَةِ الْإِسْهَابِ وَالْخَصْرِ
إِنْ الْكِتَابَةُ صَارَتْ تَحْتَ أَنْمَلِهِ وَالْجُودُ فَالْتَقِيَا مِنْهُ عَلَى قَدْرِ
تَرَدُّ أَقْلَامِهِ الْأَرْمَاحِ صَاغِرَةً عَكْسًا، كَعَكْسِ شُعَاعِ الشَّمْسِ لِلْقَمَرِ
وَفِي كِتَابِكَ فَاعِذُ مَنْ يَهِيمُ بِهِ مِنَ الْمَحَاسِنِ مَا فِي أَحْسَنِ الصُّوَرِ
الطُّرْسُ كَالْخَدِّ وَالنُّونَاتُ دَائِرَةٌ مِثْلَ الْحَوَاجِبِ وَالسَّيْنَاتُ كَالطُّرَرِ

ومن ملح الخبز أرزِي: [الرمل]

وبنفسِي من إِذَا خَمَشْتُهُ نَشَرَ الْوَرْدُ عَلَيْهِ وَرَقَهُ

وَإِذَا مَسَّتْ يَدِي طَرَّتَهُ أَفْلَتَتْ مِنْهُ فَعَادَتْ حَلَقَهُ

أخذها من حكاية لعمر بن أبي ربيعة؛ حَدَّثَ المَغِيرَةُ بن عبد الرحمن، قال: حَجَجْتُ مع أَبِي وأنا غلام، عَلَيَّ جُمَّةٌ، فَجِئْتُ عَمَرَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَجَلَسْتُ عِنْدَهُ، فَجَعَلَ يَمْدُ الْخُضْلَةَ من شعري ثم يرسلها، فترجع على ما كانت عليه، ويقول: واشباباه! حتى فعل ذلك مراراً، ثم قال لي: يا ابن أخي، قد سمعتني أقول في شعري: قالت وقلت . . . وكلّ مملوكٍ لي حرّ إن كنتُ كشفت عن فَرْجِ امرأةٍ حرامٍ قطّ، فسألت عن رقيقه، فقبل لي: أما في الحوك فسبعون سوى غيرهم.

وساير عمر عروة بن الزبير يحدثه، فقال: وأين زين المواكب؟ - يعني ابنه محمداً، وكان يُعرف بذلك لجماله - فقال عروة: هو أمامك، فركد يطلبه، فقال له عروة: يا أبا الخطّاب، أولسنا أكفاء كراماً لمحدثك! قال: بلى، بأبي أنت وأمي، ولكنني مغزى بهذا الجمال حيث كان، ثم التفت إليه، وقال: [البسيط]

إِنِّي امْرُؤٌ مُوَلِّعٌ بِالْحَسَنِ أَتْبَعُهُ لَا حَظَّ لِي فِيهِ إِلَّا لَذَّةُ النَّظَرِ

أخذه العباس بن الأحنف، فقال: [البسيط]

أَتَأَذْنُونَ لَصَبٍّ فِي زِيَارَتِكُمْ فَعِنْدَكُمْ شَهَوَاتُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ
لَا يَضْمُرُ السُّوءُ إِنْ طَالَتْ إِقَامَتُهُ عَفُ الضَّمِيرِ وَلَكِنْ فَاسِقُ النَّظَرِ

[مما قيل في حلق الشعر]

ومما يتعلق بذكر الشعر حِلاقه، والشعر فيه كثير؛ فَلَمْ مِنْهُ بِالْيَسِيرِ.

وأول من قرّع هذا الباب - فيما يذكر - القائل: [الخفيف]

حَلَقُوا رَأْسَهُ لِيَكْسُوهُ قُبْحاً خِيفَةُ مِنْهُمْ عَلَيْهِ وَشُحّاً
كَانَ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ لَيْلاً وَصُبْحاً فَمَحُوا لَيْلَهُ وَأَبْقَوْهُ صُبْحاً

وقال أبو العباس القُرَيْعِي: [الرملي]

كَانَ إِلَّا قَمَرًا تَحْتَ دُجَى فَانْجَلَى اللَّيْلُ وَلَا حَ الْقَمَرُ
أَوْ كَزَهْرٍ فِي كِمَامٍ كَامِنٍ شَقِيقَتْ عَنْهُ فَتَمَّ الزَّهْرُ

وقال أبو العباس بن حَيَّون: [الكامل]

حَلَقُواكَ فِي تَغْيِيرِ حَسَنِكَ رَغْبَةً فَازْدَادَ حَسْنُكَ بِهَجَةٍ وَضِيَاءٍ
كَالْخَمْرِ فَضَّ خَتَامَهُ فَتَشَعَّشَعَتْ وَالشَّمْعُ قَطُّ دُبَالُهُ فَأَضَاءَ



قوله: «قنفشت»، أي أخذت بسرعة، تقول: قفشت الشيء، قفشا إذا جمعت عليه

كفك بسرعة، وقد انقفشت العنكبوت، إذا دخلت حُجْرَهَا.

قوله: «الجوى»، أي مرض القلب. نُذِيل: نعوض، والإدالة: أن يكون الشيء لك مرة ولغيرك أخرى وهي من الدولة. النوى: البعد أو يريد: هلم لنجدد المودة في هذه الليلة، ويكون ذلك عوضاً من طول الفراق، فقد عذمت على أن أنسل بالسحر وأفر، والإنسال: الخروج مستخفياً. أضلي قلب الوالي: أجعله متحرّقاً بالتحسر والتفجع.

قال: فَقَضَيْتُ اللَّيْلَةَ مَعَهُ فِي سَمَرٍ، آتَقَ مِنْ حَدِيقَةِ زَهْرٍ، وَخَمِيلَةِ شَجَرٍ، حَتَّى إِذَا لَأَلَا الْأَفُقَ ذَنْبُ السَّرْحَانِ، وَأَنَّ انْبِلَاجَ الْفَجْرِ وَحَانٌ، رَكِبَ مَتْنُ الطَّرِيقِ، وَأَذَاقَ الْوَالِيَّ عَذَابَ الْحَرِيقِ، وَسَلَّمْ إِلَيَّ سَاعَةَ الْفِرَاقِ، رُفْعَةً مُحْكَمَةَ الْإِلْصَاقِ، وَقَالَ: ادْفَعْهَا إِلَى الْوَالِي إِذَا سُلِبَ الْقَرَارُ، وَتَحَقَّقَ مِنَّا الْفِرَارُ؛ فَفَضَضْتُهَا فِعْلَ الْمُتَمَلِّسِ، مِنْ مِثْلِ صَحِيفَةِ الْمُتَمَلِّسِ.

قَضَيْتُ: أتممت. سَمَرٌ: حديث بالليل يُسَمَرُ عليه. آتَقَ: أحسن. حديقة: بستان، ولا تكون إلا تحت حائط أو زَرْب. زَهْرٌ: تَوْر. خميلة: روضة فيها شجر. لألَا: لمع وأضاء. الأفق: جهات السماء. ذَنْبُ السَّرْحَانِ، هو الفجر الكاذب، وهو ضوء يظهر قبل الفجر دقيق متصعد إلى السماء. والسَّرْحَانِ: الذئب، شبه ضوءه بذئبه. آن: حَانَ وَقُرْب. انبلاج الفجر: ظهور ضوئه. متن: ظهر. الحريق: سلم: ترك. محكمة الإلصاق: متقنة الطي. القرار: السكينة، يريد أن الوالي إذا أخبر بهربنا ذهب عقله، فجعل يتململ ولا يقر. فضضتها: كسرت ختامها.

[المتلمس وصحيفته]

والمتلمس، شاعر مشهور، اسمه جرير بن عبد المسيح، وسُمِّي المتلمس بقوله: [الطويل]

فهذا أوانُ العِرضِ جُنَّ ذِبَابُهُ زَنَابِيرُهُ وَالْأَزْرَقُ الْمُتَمَلِّسُ^(١)

وهو مأخوذ من تلمس الرجل الحاجة، إذا طلبها سراً من غيره، وأصل ذلك من التلمس باليد، كالذي يلمس بيده في الظلام مواضع خفية يطلب منها شيئاً ضاع منه، أو كلمس الأعمى شيئاً بيده.

(١) البيت للمتلمس في ديوانه ص ١٢٣، والاشتقاق ص ٣١٧، وجمهرة اللغة ص ٧٤٧، وخزانة الأدب ١٨٥/٤، ١٨٦، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٦٦٢، ولسان العرب (لمس)، (عرض)، ويلا نسبة في خزانة الأدب ٥٤٦/٦، والخصائص ٣٧٧/٢، وسر صناعة الإعراب ٥١٠/٢، ويروى «حي ذبابه» بدل «جُنَّ ذبابه».

ومن كلام عامتنا: فلان يثلمس، بسكون التاء، أي يدخل بين الناس باستخفاء ولا يُشعر به.

والمثلمس أحد الثلاثة الذين اتفق العلماء على أنهم أشعر المقلين في الجاهلية، وهم: المثلمس والمسيب بن علس وخصين بن الحمام.

والمثلمس، بالميم قبل اللام، هو المتخلص الذي يطلب السلامة والخلاص بسهولة، وقد أملس إذا خرج من بين القوم هارباً وهم لا يشعرون، وقد أملس الشيء، إذا سقط من يدك ولم تشعر به لملاسته.

والصحيفة: الكتاب. وقصتها أن المثلمس وطرفة كانا يتنادمان مع عمرو بن هند ملك الحيرة - وكان سيئ الخلق شديده، وهو الذي حرّق من تميم مائة رجل، فهجوه، فقال فيه المثلمس - وكان طرده لشيء بلغه عنه: [الكامل]

أطردتني حذر الهجاء ولا
وأللات والأنصاب لا تئل^(١)
أي لا تنجو.

وقال فيه أيضاً: [الكامل]

إن الخيانة والمغالة والخنا
ملك يلعب أمه وقطينها
فإذا حلت ودون بيتي غاوة
والغدر نتركه ببلدة مفسد^(٢)
رخو المفاصل أئره كالمبرد
فأبرق بأرضك ما بدا لك وارعد

وقال طرفة: [الوافر]

فليت لنا مكان الملك عمرو
لعمرك إن قابوس بن هند
رغوئاً حول قبتنا تخور^(٣)
ليخلط ملكه نوك كثير

في أبيات شهرتها تنبي وتغني عن ذكرها؛ فاستحيا أن يقتلها بحضرته، وبينهما إدلال المنادمة، فكتب لهما بصحيفتين، وختمها لئلا يعلم ما فيهما - هو أول من ختم الكتاب - وقال لهما: اذهبا إلى عاملي بالبحرين، فقد أمرته أن يصلكما بجوائز. فذهبا

(١) البيت للمثلمس الضبيعي في ديوانه ص ٤٢، ومعجم البلدان (اللات)، والأغاني ٢٤/٢٥١، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٦٣٠، والاشتقاق ص ٥٤٣.

(٢) الأبيات في ديوان المثلمس ص ١٤٧، والبيت الثالث في لسان العرب (عصد)، (غوي)، وتاج العروس (عصد)، (غوي)، وإصلاح المنطق ص ١٩٣، وهو بلا نسبة في المخصص ١٤/٢٢٨.

(٣) البيتان لطرفة بن العبد في ديوانه ص ٤٨، والبيت الأول في لسان العرب (رغث)، (خور)، وتاج العروس (رغث)، ومقاييس اللغة ٢/٤١٦، وتهذيب اللغة ٨/٩٠، والمخصص ٧/٤٩، ١٧٨، ومجمل اللغة ٢/٣٩٩، وأساس البلاغة (رغث).

فمرًا بطريقهما بشيخ يحدث ويأكل من خبز بيده، ويتناول القمل من ثيابه ويقصعه، فقال المتلمس: ما رأيت شيخاً كالיום أحرق من هذا! فقال الشيخ: ما رأيت من حُمقى! أخرج الداء، وأكل الدَّواء، وأقتل الأعداء. ويروى: أقتل عدوًا، وأدخل طبيبًا، وأخرج خبيثًا، أحرق والله مني مَنْ يحمل حتفه بيده.

فاستراب المتلمس بقوله، وطلع عليهما غلام من أهل الحيرة من كتاب العرب، فقال له المتلمس: أقرأ يا غلام؟ قال: نعم، فكف الصحيفة فإذا فيها: فإذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حيًا: فقال لطرفة: ادفع إليه صحيفتك، فإن فيها مثل هذا، فقال طرفة: كلا لم يكن ليبتريء عليّ - وكان غرًا صغير السن - فحذف المتلمس بصحيفته في نهر الحيرة، وقال: [الطويل]

قذفتُ بها في الثُّني من جنب كافرٍ كذلك أقنُو كل فظٍ مضلِّل^(١)
رضيت لها بالماء لَمَّا رأيتها يجولُ بها التَّيار في كل جَدولٍ

وأخذ نحو الشام وقال: [الكامل]

ألقي الصحيفة كيف يخفّف رَحْلَه والزَّاد حتى نعلَه ألقاهَا^(٢)

أراد: أنه تخفف للفرار، فألقى ما لا يُثقل، وما لا بدّ للسفر منه.

وقال حين نجا: [الكامل]

مَنْ مبلغ السَّعراء عن أخويهم خبراً فتصدَّقهم بذاك الأنفس^(٣)
أودى الذي علق الصحيفة منهما ونجا - جدار حبايه - المتلمس

(١) يروى البيت الأول:

وألقيتها في الشني من جنب كافرٍ كذلك أقنُو كل فظٍ مضلِّل
وهو في ديوان المتلمس ص ٦٥، ولسان العرب (كفر)، (قنا)، وتهذيب اللغة ٣١٤/٩، ٣١٧، والمخصص ٧٤/١١، وتاج العروس (كفر)، (قنا)، وكتاب الجيم ١٢٢/٣، والبيت بلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٧٨٧، وكتاب العين ٣٥٧/٥.

(٢) البيت للمتلمس في ملحق ديوانه ص ٣٢٧، وشرح شواهد المغني ٣٧٠/١، ولأبي (أو لابن) مروان النحوي في خزانة الأدب ٢١/٣، ٢٤، والدرر ١١٣/٤، وشرح التصريح ١٤١/٢، والكتاب ١/٩٧، والمقاصد النحوية ١٣٤/٤، ولمروان بن سعيد في معجم الأدباء ١٤٦/١٩، وبلا نسبة في أسرار العربية ص ٢٦٩، وأوضح المسالك ٣٦٥/٣، والجني الداني ص ٥٤٧، ٥٥٣، وخزانة الأدب ٤٧٢/٩، والدرر ١٤٠/٦، وشرح أبيات سيبويه ٤١١/١، وشرح عمدة الحافظ ص ٦١٤، ورصف المباني ص ١٨٢، وشرح الأشموني ٢٨٩/٢، وشرح قطر الندى ص ٣٠٤، وشرح المفصل ١٩/٨، ومغني اللبيب ٢٤/١، وجمع الهوامع ٢٤/٢، ٣٦.

(٣) الأبيات في ديوان المتلمس ص ١٨٦، والبيت الثالث في لسان العرب (نقرس)، (أبي)، وتهذيب اللغة ٣٩٥/٩، وتاج العروس (نقرس).

أَلْقِي الصَّحِيفَةَ، لَا أَبَا لَكَ إِنَّمَا يُخْشَى عَلَيْكَ مِنَ الْحَبَاءِ النَّفْسُ
وَأَمَّا طَرْفَةُ فَوَصَلَ إِلَى الْبَحْرَيْنِ، فَلَمَّا قَرَأَ الْعَامِلَ صَحِيفَتَهُ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْمُتَمَلِّسِ
فَأَخْبَرَهُ بِفِرَارِهِ، عَفَا عَنْهُ لَصُدْقِهِ وَرِعَايَتِهِ لَطَائِعِ الْمَلِكِ حَيْثُ لَمْ يَفْكِهِ.
وَقِيلَ: إِنَّهُ سَجَنَهُ، وَبَعَثَ إِلَى عَمْرِو بْنِ هِنْدَ، وَقَالَ لَهُ: مَا كُنْتَ لَا قُتْلَ طَرْفَةَ،
وَأَعَادِي قَبِيلَتِهِ، فَإِذَا أَرَدْتَ قَتْلَهُ، فَابْعَثْ إِلَيْهِ مَنْ يَقْتُلُهُ. فَفَعَلَ وَخُيِّرَ فِي قَتْلِهِ؛ فَاخْتَارَ أَنْ
يُسْقَى الْخَمْرَ، وَيُقَصَّدَ أَكْحَلُهُ؛ فَفَعِلَ بِهِ ذَلِكَ حَتَّى مَاتَ نَزْفًا، وَدُفِنَ بِهَجْرٍ. وَقِيلَ فِي قَتْلِهِ
غَيْرَ ذَلِكَ.

وقال البحرني يصدّق ما تقدم: [الكامل]

ولقد سكنتُ إلى الصدود من النَّوَى وَالشَّرِيَّ أَرْيَّ عِنْدَ طَعْمِ الْحَنْظَلِ^(١)
وكذاك طَرْفَةُ حِينَ أَوْجَسَ ضَرْبَةً فِي الرَّأْسِ هَانَ عَلَيْهِ قُضْدُ الْأَكْحَلِ

وقال: وهو في السجن يخاطب قومه: [السريع]

أَسْلَمَنِي قَوْمِي وَلَمْ يَغْضُبُوا لِسُوءَةِ حَلَّتْ بِهِمْ فَادْحَةٌ^(٢)
كُلَّ خَلِيلٍ كُنْتُ خَالَتُهُ لَا تَرْكَ اللَّهُ لَهُ وَاضِحَةٌ
كُلَّهُمْ أَرَوْغُ مِنْ ثَعْلَبٍ مَا أَشَبَّهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ!

وقال يخاطب عمرو بن هند في السجن: [الطويل]

أَبَا مَنْذِرٍ كَانَتْ غُرُورًا صَحِيفَتِي وَلَمْ أُعْطِكُمْ بِالطُّوْعِ مَالِي وَلَا عِزُّضِي^(٣)
أَبَا مَنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقَ بَعْضُنَا حَتَائِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وَقَتْلٍ وَهُوَ ابْنُ عَشْرِينَ سَنَةً، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: أَشْعَرُ النَّاسِ ابْنُ الْعَشْرَيْنِ وَتَعْنِيهِ، إِلَّا
أَنَّ أَبَا الْعَبَّاسِ أَنْشَدَ لِأَخْتِهِ تَرْثِيهِ: [الطويل]

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعَشْرِينَ جِجَّةً فَلَمَّا تَوَفَّيْ وَاسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمًا^(٤)

(١) البيتان في ديوان البحرني ص ١٧٤٣.

(٢) الأبيات لطرفة بن العبد في ديوانه ص ١٥، والبيت الثاني في مجمع الأمثال ٣١٧/١، وديوان الأدب ٢٣١/٣، وتاج العروس (روغ)، وبلا نسبة في لسان العرب (وضح)، ومقاييس اللغة ١١٩/٦، وتهذيب اللغة ١٥٧/٥، والبيت الثالث في تمثال الأمثال ٥٥٠/٢، وجمهرة الأمثال ٢٤٧/٢، وجمهرة اللغة ص ٢٧٥، والحيوان ٣٠٢/٦، والفاخر ص ٣١٦، وفصل المقال ص ٢٢٧.

(٣) البيتان لطرفة بن العبد في ديوانه ص ٦٦، والبيت الأول في لسان العرب (غرر)، والبيت الثاني في الدرر ٦٧/٣، والكتاب ٣٤٨/١، ولسان العرب (حزن)، وجمع الهوامع ١٩٠/١، وتاج العروس (حزن)، وهو بلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٢٧٣، وشرح المفصل ١١٨/١، والمقتضب ٢٢٤/٣.

(٤) البيتان في الكامل للمبرد ٢٥٨/١.

فَجَعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهُ عَلَى خَيْرِ حَالٍ، لَا وَلِيداً وَلَا قَحْماً^(١)
وهلك المتلمس في الجاهلية يُبْصَرَى.

فَإِذَا فِيهَا مَكْتُوبٌ: [الطويل]

قُلْ لِيَوَالٍ غَادَرْتُهُ بَغْدَ بَيْنِي
سَلَبَ الشَّيْخُ مَالَهُ، وَفَنَاءَهُ
جَادَ بِالْعَيْنِ حِينَ أَعْمَى هَوَاهُ
خَفَضَ الْحُزْنَ يَا مُعْنَى فَمَا يُجَدُ
وَلَيْسَ جَلُّ مَا عَرَاكَ كَمَا جَدُ
فَقَدْ اغْتَضَبَ مِنْهُ فَهَمًّا وَحَزَمًا
فَاغْصِ مِنْ بَعْدِهَا الْمَطَامِعَ وَاعْلَمْ
لَا وَلَا كُلُّ طَائِرٍ يَلْجُ الْفَـ
وَلَكُمْ مَنْ سَعَى لِيَصْطَادَ فَاصْطَـ

سَادِمًا نَادِمًا يَعْضُ الْيَدَيْنِ
لُبُّهُ، فَاضْطَلَى لَطَى حَسْرَتَيْنِ
عَيْنُهُ فَاثْنَى بِلَا عَيْنَيْنِ
يَدِي طَلَابُ الْآثَارِ مِنْ بَعْدِ عَيْنِ
لِلَّذِي الْمُسْلِمِينَ رَزَّ الْحُسَيْنِ
وَاللَّسِيبُ الْأَرِيبُ يَبْغِي دَيْنِ
أَنْ صَيْدَ الظُّبَاءِ لَيْسَ بِهِنِ
نَخٌّ وَلَوْ كَانَ مُخَدَّقًا بِاللُّجَيْنِ
يَدٌ وَلَمْ يَلْقَ غَيْرَ خُفِّي حُنَيْنِ

قوله: «غادرته»، أي تركته. يعضّ اليدين: تندمًا. سادماً. متغيّراً، والسادم: المتغيّر العقل من الغمّ، من قولهم: ماء سديم، ومياه سديم وأسدام، أي متغيّرة، وقيل: السديم: الحزين الذي لا يطيق ذهاباً ولا مجيئاً، من قولهم: بعير مسدّم، إذا منع من الضراب، فكأنّ الحزين منع من الذهاب والمجيء، فيقول: تركته يعضّ يديه تندمًا وتلهفًا. اللطى: لهب النار، وقد لظت النار: علًا لهبها؛ فيريد أنّ الشيخ أخذ ماله والفتى عقله، فاحترق بنار فجعتين جاد: سمح. العين: الذهب. هواه: تعشقه وميله: انثنى. رجع. بلا عينين، أي بغير مال ولا بصر. خفض: سكن. معنّى: معذب. يجدي: ينفع، والعين ها هنا: الشخص.

[قصة المثل: طلب أثراً بعد عين]

وقولهم: طلب أثراً بعد عين، كأن رجلاً تمكّن من عدوّه أو من صيد ليرميّه، فتراخى عنه حتّى فاته، ثم شدّ في طلبه بعد القوّت؛ وأوّل مَنْ قال ذلك مالك بن عمرو العامريّ؛ وكان بعض ملوك غسان أخذه وأخاه سماكاً بسبب قتيل كان له في عمالته،

(١) القحمة الرجل المتناهي سناً.

فحبسهما زماناً، ثم قال لهما: إني قاتلُ أحدكما، فجعل كل واحد منهما يقول: اقتلني مكان أخي، فقتلَ سماكاً وخليَ مالكا، فقال سِماك حين ظن أنه مقتول: [المتقارب]

وأقسم لو قتلوا مالكا لكنك لهم حية راصدة^(١)
برأس سبيل على مرقب ويوماً على طرقي واردة
أأم سماك فلا تجزعي فللموت مائلاً الوالدة

وانصرف مالك إلى قومه، فلبث فيهم زماناً. ثم إن ركبا مروا بهم وأحدهم يغني بهذا البيت: [المتقارب]

* وأقسم لو قتلوا مالكا *

فسمعت بذلك أم سماك، فقالت: يا مالك، قبَّح الله الحياة بعد سماك! أخرج في طلب ثار أخيك، فخرج فلقي قاتل أخيه في ناس من قومه، فقال: من أحسن لي الجمل الأحمر! فعرفوه، فقالوا له: لك مائة من الإبل، وكف عنه، فقال: لا أطلب أثراً بعد عين، فذهبت مثلاً، ثم حمل على قاتل أخيه فقتله.

قوله: «جَلَّ»، أي عظم. عراك: قصدك. رزء الحسين: المصاب بقتله حين قتل بكر بلاء.

وحديثه أن معاوية لما مات أرسل إليه أهل الكوفة أن قد حبسنا أنفسنا على بيعتك. وطُوب بالمدينة أن يبايع يزيد، فخرج إلى مكة، وأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة وقال له: إن كان حقاً ما كتبوا به، فعرفني الحق بك.

فخرج من مكة للنصف من رمضان، وقدم [الكوفة] لخمس خلون من شوال، وأميرها النعمان بن بشير، فدخل مستتراً، فبايعه من أهلها ثمانية عشر ألفاً. فكتبه بذلك. فلما هم بالخروج لقيه ابن عباس رضي الله عنهما، فقال له: يا ابن عم، أهل العراق أهل غدر، وإنما يدعونك للحرب، فقال له: يا ابن عم، كتب إلي مسلم باجتماع أهل الكوفة علي، فقال له: قد جرت بهم، وهم أصحاب أبيك وأخيك. وقتلتك غداً مع أميرهم، إذا بلغ ابن زياد خبرك استفزهم، فكان الذين كتبوا إليك أشد عليك عن عدوك، فإن أبيت إلا الخروج فلا تخرجن بنسائك وولدك معك، فإني لخائف أن تقتل كما قتل عثمان، ونساؤه وولده ينظرون إليه. فرد عليه: لأن أقتل بموضع كذا، أحب إلي من أن أستحل بمكة.

(١) الأبيات لسماك بن عمرو العاملي في لسان العرب (لوم)، وخزانة الأدب ٥٣٤/٩.

ويروي صدر البيت الأول:

فأقسم لو قتلوا خالداً

واتصل الخبر ببزید، فكتب إلى عبید الله بن زياد بتوليته الكوفة. فخرج مسرعاً، فدخلها في حشمه وهو ملثم، والناس يتوقعون قدوم الحسين، فجعل عبید الله بن زياد يسلم على الناس، والناس يقولون: وعليك السلام يا ابن رسول الله، قدمت خير مقدم، حتى انتهى إلى القصر.

فحسر اللثام، ففتح له النعمان الباب، وتنادي الناس: ابن مزجانة، فحصبوه بالحصباء، فقاتهم. ووضع الرصد في طلب مسلم، فصاح مسلم: يا منصور - وكان شعارهم - فاجتمع له في ساعة واحدة ثمانية عشر ألفاً. فأحاطوا بالقصر فقاتلوا ابن زياد، فلم يمس المساء ومعه مائة رجل. فلما رأى تفرقهم سار نحو أبواب كندة، فبلغ الباب ومعه ثلاثة، فخرج وليس معه أحد، فبقي حائراً لا يدري أين يتوجه، فنزل من على فرسه، ودخل أحد أزقة الكوفة، فانتهى إلى باب مولاة لمحمد بن الأشعث، فاستسقاها فسقته، وأعلمها حاله، فرقت له، فأوته وأعلمت محمد بن الأشعث بمكانه، فمشى إلى ابن زياد، فأعلمه، فوجه معه سبعين رجلاً، فاقتحموا عليه، فقاتلهم مسلم، وأمنه محمد بن الأشعث، وحمله إلى ابن زياد فضرب عنقه، وبعث برأسه إلى يزيد بن معاوية، فصلب جثته.

وانتهى الأمر إلى الحسين، وقد بلغ القادسيّة، فهم بالرجوع، فقال له إخوة مسلم: لا نرجع أو نقتل، أو نأخذ بثأرنا، فقال الحسين: لا خير في العيش بعدكم، فسار حتى لقي خيلاً لابن زياد، وعليها عمر بن سعد بن أبي وقاص، فعدل إلى كربلاء، وهو في نحو خمسمائة فارس، فلما كثرت العساكر أيقن أنه لا محيص له، فقال: اللهم اخكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا، ثم هم يقاتلوننا! ثم خطب قومه فقال: يا عباد الله، اتقوا الله، وكونوا من الدنيا على حذر، فإن الدنيا لو بقيت على أحد، أو بقي عليها أحد، لكانت الأنبياء أحق بها وبالبقاء، غير أن الله خلقها للفناء، فجديدها بال، ونعميها مضمحل، وسرورها مكفهز، والدار قلعة، والمنزل تلعة^(١)؛ فتزودوا فإن خير الزاد التقوى، واتقوا الله لعلكم تفلحون.

ثم قاتل حتى قُتل رضي الله عنه وفيه ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة؛ وتولى قتله سنان بن أنس النخعي، واحترأ رأسه، وانطلق به مسرعاً إلى ابن زياد، وهو يقول: [الرجز]

أوقر ركابي فضةً وذهباً إني قتلت الملك المحجّباً
* قتلتُ خير الناس أمّا وأباً *

وبعث معه الرأس إلى يزيد بن معاوية، وعنده أبو بزة، فجعل ينكت بالقضيب على فيه، وهو يقول: [الطويل]

(١) التلعة: مجرى الماء من أعلى بطون الأرض.

نفلق هاماً من رجالِ أعزّة علينا، وهم كانوا أعقّ وأظلماً^(١)

فقال له أبو بركة: ارفع قضيبك عن فمه، فلقد رأيتُ رسول الله ﷺ يلثمُه.

وقتل يوم عاشوراء سنة إحدى وستين، وقتل معه سبعة وثمانون، منهم عليّ ابنه الأكبر، ومن ولد أخيه الحسن عبد الله والقاسم وأبو بكر، ومن إخوته العباس وعبد الله وجعفر ومحمد وعثمان بنو عليّ، ومن بني عمّه جعفر ومحمد وعون أبناء عبد الله بن جعفر. ومن ولد عقيل عبد الله وعبد الرحمن وجعفر، ودفنهم أهل القادسية بعد قتلهم بيوم، وقتلوا هم من أصحاب عمر بن سعد ثمانية وثمانين.

قوله: «اعتضت»: اقتلعت من العوض. يبغي ذين: يطلب هذين. الطّباء: الغزلان. يلج: يدخل. محدّقاً باللّجين، أي محلّقاً بالفضة، والصائد يفرّق حول الفخ حبّ القمح وشبهه، فيلقطه الطائر حتى يتوصّل إلى ما نُصب له فيقع، فقال: ما كلُّ طائر يُخدع، ولو خلّق له الفخ بحبّ اللّجين بدلاً من القمح، وإني من هذا الصنف.

قوله: «ولكم من سعى ليصطاد فاصطيد»، من قول الصابي: [الرجز]

يا قمرأ كالخشف في نظريته وكالقضيب اللذن في نضريته
خلتكَ صيداً كان في قبضتي فصرتُ من صيدي في قبضته

والسابق له كعب بن زهير في قوله: [البسيط]

طاف الرّماة بصيدٍ راعهم فإذا بعض الرّماة بنبل الصيد مقتول^(٢)

[قصة المثل: رجع بخفي حنين]

وخفّاً حنين، يضرب بهما المثل للخائب الخاسر، واختلف في حنين، فقال يعقوب: إنه كان رجلاً مُدعياً، فجاء إلى عبد المطلب، وعليه خُفّان، فقال: يا عمّ إني من ولد هاشم، فأنعم النّظر فيه، وقال: لا وعظام هاشم، ما أرى فيك شمائل هاشم، فارجع خائباً خاسراً.

وقيل: كان رجلاً مغنياً، فدعاه قوم من أهل الكوفة. ليطربهم في نزهة، فخرجوا به إلى الصحراء، فضربوه وسلبوا ثيابه، وتركوا عليه خُفيّة؛ فلما رجع إلى زوجته - وكانت تنتظر رجوعه على عادته بما يفضل من أطعمة النزهة - ورأته على تلك الحالة قالت لكل من سألها: رجع حنين بخفيّة.

(١) البيت للحصين بن الحمام في المفضليات ١٢. (٢) البيت ليس في ديوان كعب بن زهير.

وقيل: إنه كان صانعاً، فساومه أعرابي بخُفَيْن، وماكسه حتى أخرجه. فلما ارتحل الأعرابي، أخذ حنين إحدى الخفين فوضعها على الطريق، ثم مشى وألقى الأخرى في موضع آخر على الطريق، وكمن له، فلما مرَّ الأعرابي بالخُف قال: ما أشبه هذه بخُف حنين؛ ولو كان معها الأخرى لأخذتها. فلما انتهى إلى الأخرى، نَدِم على ترك الأولى، فأناخ راحلته، وأخذها ورجع إلى الأولى؛ فلما غاب عمَد حنين إلى راحلته بما عليها فركبها، ومضى بها، ورجع الأعرابي إلى قومه بخُفَيْن، فكان إذا سئل عن حاله قال: رجعت بخُفَي حنين فصار مثلاً.

وقيل: كان حنين لصاً حقيراً فأخذَ وُصْلِب، فجاءته أمه وعليه خُفَان فانتزعتهما ورجعت، فقيل: رجعت بخُفَيْن حنين، أي رضيت منه بذلك.

فَتَبَصَّرْ وَلَا تَشِمْ كُلَّ بَرْقٍ رَبِّ بَرْقٍ فِيهِ صَوَاعِقُ حَيْنِ
وَاغْضُضِ الطَّرْفَ تَسْتَرِخْ مِنْ غَرَامٍ تَكْتَسِي فِيهِ ثُوبٌ ذُلٌّ وَشَيْنِ
فِبِلَاءِ الْفَتَى اتَّبَاعُ هَوَى النَّفْ سِ وَبَذَرُ الْهَوَى طُمُوحُ عَيْنِ
قال الراوي: فَمَزَّقْتُ رُفْعَتَهُ شَذَرَ مَذَرَ، وَلَمْ أَبْلُ أَعْدَلَ أَمْ عَذَرَ.

قوله «تبصر»: أي أحسن النظر. حَيْن: هلاك. والصاعقة: نار ترسل مع الرعد والبَرْق، وجمعها صواعق، وصعق الرجل إذا أصابته، وصعق إذا مات، وقيس تقول: صاعقة، وبنو تميم صاقعة؛ وقد صعق. غرام: عذاب الحب. شَيْن: عيب. والبَذَر: زرع الحب في الأرض.

طموح: ارتفاع يريد أن أصل العشق مداومة النظر، ألمٌ فيه بقول عيسى عليه السلام: «لا يزنني فرجك ما غضضت بصرَكَ»؛ وقد تقدّم: من كثرت لحظاته دامت حسراته.

وقال سابق البربري في اتباع الهوى: [الطويل]

وهجر الهوى للمرء فاعلم سعادة وطول الهوى زين على القلب رائن
فكن دافناً للشر بالخير تسترخ من الشر إن الخير للشر دافن

وقال آخر: [الطويل]

إذا أنت لم تعص الهوى قاذك الهوى إلى كل ما فيه عليك مقال

وقال المتنبي: [الطويل]

عناء به مات المحبّون مِنْ قَبْلُ^(١)
نذيرٌ إلى مَنْ ظَنَّ أَنَّ الهوى سَهْلُ
إذا نزلت في قلبه رَحَلَ الْعَقْلُ

عريزٌ أَسَى مَنْ ذَاوَهُ الْأَعْيُنُ الثُّجْلُ
فَمَنْ شَاءَ فَلْيَنْظُرْ إِلَيَّ فَمَنْظَرِي
وما هي إِلَّا لَحْظَةٌ بَعْدَ لَحْظَةٍ

وقال ابن زيدون: [البسيط]

محضُ العيان الَّذِي يُغْنِي عَنْ الْخَبَرِ^(٢)
كَأَنَّهَا وَالرَّدى جَاءَ عَلَى قَدَرٍ
إن الحوار لمفهومٍ مِنَ الْحَوَرِ

مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ عَنْ حَالِي فَشَاهِدُهُ
أَمَّا الضُّعْفَى فَجَنَّتْهُ نَظْرَةٌ عَنَّنُ
فَهَمْتُ مَعْنَى الْهَوَى مِنْ وَخِي طَرَفِكَ لِي

وقال العباس بن الأحنف: [الكامل]

تأتي به وتسوقه الأقدارُ^(٣)
جاءت أمورٌ لا تُسْطَاقُ كِبَارُ

الْحَبِّ أَوَّلُ مَا يَكُونُ لَجَاجَةٌ
حتى إذا اقْتَحَمَ الْفَتَى لَجَجَ الْهَوَى

فهذا كله يبيّن بيت الحريري.

قوله: «مزقت»: قطعت. شَذَر مَذَر: قَطَعاً متفرقة في كلّ جهة، وأصل الشَذَر قطع الذهب، ومَذَر اتباع لها.
لم أَبْل: أي لم أَبال. عدل: لام. عذر: قَبِل العذر.

(١) الأبيات في ديوان المتنبي ٣/ ١٨٠.

(٢) الأبيات في ديوان ابن زيدون ص ٢٥١.

(٣) البيتان في ديوان العباس بن الأحنف ص ١١٦.

المقامة الحادية عشرة

وهي الساوية

حَدَّث الْحَارِثُ بْنُ هَمَامٍ، قَالَ: أَتَيْتُ مِنْ قَلْبِي الْقَسَاوَةَ، حِينَ حَلَلْتُ سَاوَةَ، فَأَخَذْتُ بِالْخَبَرِ الْمَأْثُورِ، فِي مُدَاوَيْتِهَا بَزِيَارَةَ الْقُبُورِ. فَلَمَّا صِرْتُ إِلَى مَحَلَّةِ الْأَمْوَاتِ، وَكَيْفَاتِ الرُّفَاتِ، رَأَيْتُ جَمْعاً عَلَى قَبْرِ يُخْفَرُ، وَمَجْتَمُوعٍ يُقْبَرُ، فَأَنْحَزْتُ إِلَيْهِمْ مُتَفَكِّراً فِي الْمَالِ، مُتَذَكِّراً مَنْ دَرَجَ مِنَ الْآلِ. فَلَمَّا أَلْخَدُوا الْمَيِّتَ، وَقَاتَ قَوْلُ لَيْتَ، أَشْرَفَ شَيْخٌ مِنْ رِبَاوَةَ، مَتَخَضِّراً بِهَرَاوَةَ، وَقَدْ لَفَعَ وَجْهَهُ بِرِدَائِهِ، وَنَكَرَ شَخْصَهُ لِدَهَائِهِ.

الحادية عشرة، تبنى على الفتح كبناء أحد عشر. آتست: أدركت وأحسست. الْقَسَاوَةُ: غِلِظُ الْقَلْبِ. وَقَلْبٌ قَاسٍ وَقَسِيٌّ، أَيْ صَلْبٌ، وَقُلُوبٌ قَاسِيَةٌ وَقَسِيَّةٌ؛ وَهَمَا عَنِ السَّكَاثِيِّ وَالْفَرَّاءِ لَغْتَانِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ. أَبُو عُبَيْدَةَ: الْقَاسِيَةُ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْقَسْوَةِ، وَالْقَسِيَّةُ الَّتِي لَيْسَتْ خَالِصَةً الْإِيمَانِ، كَالدَّرْهِمِ الْقَسِيِّ وَهُوَ الَّذِي خَالِطَهُ غَشٌّ مِنْ نَحَاسٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَقَدْ قَسَا الْقَلْبُ يَقْسُو قَسَاوَةً، وَقَسَاءً: صَلْبٌ. سَاوَةُ: بَلَدٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّيِّ اثْنَانِ وَعِشْرُونَ فَرَسَخاً، وَهِيَ فِي الطَّرِيقِ مَا بَيْنَ هَمْدَانَ وَالرَّيِّ.

الخبر المأثور، أي المحدث به، وهو قوله ﷺ: «عُودُوا الْمَرْضَى، وَاحْضَرُوا الْمَقَابِرَ، فَإِنَّهَا تَرْهَدُ فِي الدُّنْيَا، وَتَذْكُرُ الْآخِرَةَ»^(١). وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، ثُمَّ بَدَأَ لِي فُزُورُهَا، فَإِنَّهَا تَرْقُقُ الْقَلْبَ، وَتَدْمَعُ الْعَيْنَ، وَتَذْكُرُ الْآخِرَةَ»^(٢).

(١) أخرجه البخاري في المرض باب ٤، وأحمد في المسند ٢٣/٣، ٣١، ٤٨، ٣٩٤، ٤٠٦.
(٢) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه مسلم في الجنائز حديث ١٠٦، والأصاحي باب ٣٧، وأبو داود في الجنائز باب ٧٧، والأشربة باب ١٧، والترمذي في الجنائز باب ٧، والنسائي في الجنائز باب =

وسأل رجل عائشة رضي الله عنها، فقال: يا أم المؤمنين، إن لي داءً فهل عندك دواؤه؟ قالت: وما داؤك؟ قال: القسوة، قالت: بشّ الذاء داؤك. عُذِ المرضى، وأشهد الجنائز، وتوقّع الموت.

وقيل لعلّي رضي الله عنه: ما شأنك جاورت المقبرة! قال: إني أجدهم خيرَ جيران صدق، يكفون الألسنة، ويذكرون الآخرة.

وكانت عجوز في عبد القيس متعبدة، فإذا جاء الليل تحزّمت، ثم قامت إلى المحراب، فإذا جاء النهار خرجت إلى المقبرة؛ فعوتبت في إتيان القبور، فقالت: إن القلب القاسي إذا جفا لم يلبّنه إلا رسوم البلى، وإني لآتي القبور؛ فكأنني أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها، وكأنني أنظر إلى تلك الوجوه المتعفّرة، وإلى تلك الأجسام المتغيّرة، وإلى تلك الأكفان الدّسمة.

وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى المقبرة؛ فلمّا نظر إلى القوم بكى، ثم أقبل عليّ فقال: يا ميمون، هذه قبور آبائي بني أميّة كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشتهم؛ أما تراهم صرعى قد خلت من قبلهم المثلات، واستحكم فيهم البلى، وأصابت الهموم في أبدانهم مقيلاً، ثم بكى وقال: والله لا أعلم أحداً أنعم ممّن صار إلى هذه القبور وقد أمّن من عذاب الله.

استنشد المتوكل أبا الحسن عليّ بن محمد بن موسى بن جعفر بن عليّ بن الحسين، فقال: إني لقليل الرواية في الشعر، فقال: لا بُدّ، فأنشده: [البسيط]

بأثوا على قُللِ الأجبال تحرسُهُم	غُلِبَ الرجال فلم تنفعهُم القُللُ
واستنزلُوا بعد عزٍّ عن معاقِلِهِم	وأودعُوا حُفراً، يا بئس ما نزلُوا!
ناداهُم صارخ من بعد ما دُفِنُوا:	أين الأسرّة والتيجان والحُللُ؟
أين الوجوه التي كانت منعمّة	من دونها تُضرب الأستار والكِللُ!
فأفصحَ القبرُ عنهم حين سِيلَ بِهِم:	تلك الوجوه عليها الدودُ يفتلُ
قَدْ طالما أكلُوا دهرًا وما شربوا	فأصبحوا بعد طولِ الأكل قد أُكِلُوا

قال عمر: لو أنشد شعراً في أوصاف آبائه وبني عمّه ملوك بني أميّة وانحطاطهم من عزّ المملكة إلى ذل المقبرة، لم يكن إلا هذا الشعر.

أبو الحسن القلويّ كان قد سعي به إلى المتوكل، وقيل له إن في بيته سلاحاً وكتباً وغير ذلك، فوجّه إليه بعدة من الأتراك، فهجموا عليه على غفلة ممّن في داره، فوجدوه

في بيت مغلقٍ عليه وحده، وعليه مسح شعر، ولا بساط في البيت إلا الرَّمْل والحصى، وعلى رأسه ملخفة صوف متوجهاً إلى ربه، يترنم بالقرآن، فمثل بين يدي المتوكل على حاله، والمتوكل يشرب وفي يده كأس، فلما رآه عظمه وأجلسه إلى جنبه. وعلم أنه لا يوجد عنده شيء مما قيل، فناوله، فقال: يا أمير المؤمنين، ما خامر لحمي ولا دمعي قط فأعفني منه، فأعفاه، ثم قال: أنشدني شعراً أستحسنه، فأنشده الأبيات المتقدمة، فاشفق من حضر عليه من المتوكل. فوالله لقد بكى المتوكل بكاءً طويلاً، وبكى من حضر، وقال: يا أبا الحسن، أعليك دين؟ قال: أربعة آلاف درهم، فدفعت إليه، وردَّ إلى منزله مكرماً، وقال: ما يقول ولد أبيك في العباس بن عبد المطلب! قال: وما يقولون يا أمير المؤمنين في رجل افترض الله طاعته على بنيه! فأمر له بمائة ألف درهم، وإنما أراد طاعة الله على بنيه فعرض.

وقال سابق البربري في المعارض: [الطويل]

تعاون على الخيرات تظفر ولا تكن	على الإثم والعدوان ممن يعاون ^(١)
وداهن إذا ما خفت يوماً مسلطاً	عليك، ولا يحتال من لا يدهن
ولا تك ذا لونين يبدي بشاشة	وفي صدره صب من الغل كامن

رجعت إلى عرض المقامة.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فجلس إلى قبر، وكنت أدنى القوم منه، فبكى وبكى، فقال: ما يبكيكم؟ قلنا: بكاؤك، قال: هذا قبر أُمي آمنه، استأذنت ربي في زيارتها، فأذن لي^(٢). فاستأذنته في أن أستغفر لها، فأبى عليّ، فأدركني ما يدرك الولد من الرقة.

وكان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبيل لحيته، فسئل عن ذلك، ف قيل له: تذكر الجنة والنار ولا تبكي، وتبكي إذا وقفت على قبر! فقال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر، وإن لم ينج منه فما بعده أشد»^(٣).

(١) يروى صدر البيت الثالث:

ولا تك ذا وجهين يُبدي بشاشة

وهو لسابق البربري في أساس البلاغة (ضبيب)، وبلا نسبة في تاج العروس (ضبيب)، وكتاب العين ١٤/٧.

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز حديث ١٠٥، ١٠٦، وأبو داود في الجنائز باب ٧٧، والنسائي في الجنائز باب ١٠١، وابن ماجه في الجنائز باب ٤٨، وأحمد في المسند ٤٤١/٢، ٣٥٦/٥.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٥، وابن ماجه في الزهد باب ٢٢.

والمقصود من زيارة القبور الاعتبار للزائر والانتفاع بدعائه للمزور، ولا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت.

وكان رجل يشهد الجنائز، فإذا أمسى وقف على المقابر، فقال: أنس الله وحشتكم، ورحم الله غربتكم، وتجاوز الله عن سيئاتكم، وقَبِلَ الله حسناتكم؛ لا يزيد على هذا شيئاً. قال: فأمسيث ليلة ولم أذُعْ، فبينما أنا نائم إذا خَلَقَ كثير قد جاؤوني، فقلت: مَنْ أنتم؟ قالوا نحن أهل المقابر، قلت: ما حاجتكم؟ قالوا: إنَّك كنت عودتنا هديةً عند انصرافك إلى أهلِكَ، قلت: وما هي؟ قالوا: الدعوات التي كنت تدعو، قلت: فإني أعود لذلك؛ فما تركتها بعد ذلك.

قوله: محلَّة الأموات، هي المقابر التي يحلُّون بها. كفات: قبور وأوعية وكَفَت الشيء: ضُمَّمَتْه وقبضَتْه، وكفات الشيء: ما ضمه وستره، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥ - ٢٦] قيل: كفات الأحياء بيوتهم، وكفات الأموات قبورهم. والرفات: العظام البالية، وقال ابن المعتز في مقبرة: [الطويل]

وسكَّان دارٍ لا تزاوَرُ بينهم على قرب بعضٍ في التجاوُر من بَعْضٍ^(١)
كأنَّ خواتيماً من الطَّين فوقهم فليس لها حتَّى القيامة من فضٍّ

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: [البسيط]

انظر لنفسك يا مسكين في مهلٍ ما دام ينفعك التفكير والنَّظَرُ
قف بالمقابر وانظر إن وقفت بها لله دَرْكٌ ماذا تَسْتُرُ الحُفَرُ!
ففيهم لك يا مغرور موعظةٌ وفيهم لك يا مغترَّ معتَبَرُ!

وقال مالك بن دينار: مررت بالمقابر، فأنشدت أقول: [المقارب]

أتيتُ القبور فناديتُها فأين المعظَّم والمُخْتَقَرُ؟
وأين المدلُّ بسلطانِه وأين المزكِّي إذا ما افْتَحَرَ؟
فثوديت مِنْ بينهم: لا رأى شخوصاً لهم ولا من أَثَرُ!
تفانوا جميعاً فلا مخبرٌ وماتوا جميعاً ومات الخَبَرُ
فيا سائلي عن أناسٍ مضوا أمالكَ فيما ترى مُغْتَبَرُ!
تروح وتغدو بناتُ الثرى وتمحى محاسنُ تِلْكَ الصُّوَرُ!

ومما وجد على قبر مكتوباً: [المقارب]

تُناجيك أجداتٌ وهنَّ سكوت وسكَّانها تَحْتَ الثُّراب خفوت

(١) البيتان في ديوان ابن المعتز ص ٢٥، ٢٦.

أيا جامع الدنيا لغير بلاغةٍ لمن تجمع الدنيا وأنت تموت؟
ومما وجد على قبر مكتوباً: [البسيط]

إن الحبيب من الأحباب مختلسٌ لا يمنع الموت بواب ولا حرسٌ
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها يا مَنْ يُعدّ عليه اللفظ والنفس؟
لا يرخم الموت ذا جاء لعزته ولا الذي كان منه العلم يُقتبسُ
قد كان قَصْرُك معموراً له شرفٌ فقُبْرُك اليوم في الأجداث مُنْدَرِسُ
ووجد على قبر مكتوباً: [الوافر]

وقفت على الأحبة حين صُفْتُ قبورهم كأفراس الرّهان
فلما أن بكيتُ وفاض دمعِي رأيت عيناى بيْنَهُم مكاني

قال أعرابي: مَنْ خاف الموت بادر الفوت، ومن لم يجمع النفس عن الشهوات بادرت به إلى الهلكات، والجنة والنار أمامك.

مرض أعرابي فقيل له: إنك تموت، قال: وإذا مت فإلى أين أذهب؟ قالوا: إلى الله، قال: فما كراحتي أن أذهب إلى مَنْ لم أر الخير إلّا منه!

وقال أعرابي: ما بقاء عمر تقطعه الساعات، وسلامة بدنٍ معرض للآفات! ولقد عجبت للمؤمن كيف يكره الموت وهو ينقله إلى الثواب الذي أحيا له ليله، وأظماً له نهاره!

وقال آخر: مَنْ كانت مطيئاه الليل والنهار، سارا به وإن لم يسِرْ، وبلغا به وإن لم يبلغ.

آخر: تصرّف الليل والنهار، لا تبقى معه الأعمار، ولا لأحدٍ فيه الخيار.

قوله: مجنوز، أي ميّت؛ وحكى ابن سيّده قول بعضهم: جنزت الميت إذا سترته بالكفن. وقال الحسن - لما أنذر بجنائز النوار امرأة الفرزدق - للمنذر بها: إذا جنزتموها فأذنوني بالجنائز، والجنائز من جنزت وهي بالفتح الميت، وبالكسر النعش، وقيل معناهما واحد، وهو الميت والمختار الكسر. يُقْبَر: يدفن. انحزت: ملت. المأل: المرجع. مذكراً: متذكراً. درج: هلك. الآل: الأهل. ألدوا: دفنوا وألقوه في اللحد، وهو حفير في جانب القبر، وكان رسول الله ﷺ إذا دخل المقبرة يقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون»^(١).

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه مسلم في الطهارة حديث ٣٩، والجنائز حديث ١٠٣، ١٠٤، وأبو داود في الجنائز باب ٧٩، والنسائي في الطهارة باب ١٠٩، والجنائز باب ١٠٣، وابن ماجه في =

وكان عليّ رضي الله عنه إذا دخلها يقول: السّلام عليكم يا أهل الديار الموحشة والمنازل المقفرة، من المؤمنين والمؤمنات. اللهم اغفر لنا ولهم، واعفُ عَنَّا وعنهم. ثم يقول: الحمد لله الذي جعل الأرض كِفَاتاً، أحياءً وأمواتاً، منها خُلِقْنَا، وإليها معادُنَا، وعليها محشرنا، طوبى لمن ذكر المعاد، وقَنَعَ بالكفاف ورضي عن الله.

وكان الحسنُ البصري رحمه الله إذا دخل قال: اللهم ربّ الأجساد البالية، والعظام النّجسة، التي خرجت من الدنيا وهي بك مؤمنة، أدخل عليها رَوْحاً منك وسلاماً منا.

قوله: «أشرف»: أي طلع. والزّباوة: الكُذبة. متخصّر: أي جاعلها مما يلي خَصْره. هراوة: عصا. لفع: غَطى. نكّر: غيّر هيئته. لدهائه: لمكره.

فقال: لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ، فاذْكُرُوا أَيُّهَا الْعَافِلُونَ، وَشَمِّرُوا أَيُّهَا الْمُقَصِّرُونَ، وَأَحْسِنُوا النَّظَرَ أَيُّهَا الْمُتَبَصِّرُونَ. مَا لَكُمْ لَا يَخَزُنْكُمْ ذَفْنُ الْأَثَرِ، وَلَا يَهُولُكُمْ هَيْلُ الثَّرَابِ، وَلَا تَغْبُثُونَ بِنَوَازِلِ الْأَحْدَاثِ، وَلَا تَسْتَعِدُّونَ لِنُزُولِ الْأَجْدَاثِ، وَلَا تَسْتَعْبِرُونَ لِعَيْنِ تَذَمُّعٍ، وَلَا تَغْتَبِرُونَ بِنَغْيِ يُسْمَعٍ، وَلَا تَرْتَاعُونَ لِأَلْفِ يُفْقَدُ، وَلَا تَلْتَاعُونَ لِمَنَاحَةِ تُغْقَدُ، يُشَيِّعُ أَحَدَكُمْ نَعَشُ الْمَيِّتِ، وَقَلْبُهُ تَلْقَاءُ الْبَيْتِ، وَيَشْهَدُ مُوَارَاةَ نَسِيهِ، وَفِكْرُهُ فِي اسْتِخْلَاصِ نَصِيهِ، وَيُخْلِي بَيْنَ وَدُودِهِ وَدُودِهِ، ثُمَّ يَخْلُو بِمَزْمَرِهِ وَعُودِهِ.

ويقال: قصر فهو مقصّر، إذا ترك الشيء وهو قادر عليه وشمر: اجتهد. والمتبصّر: الناظر في الشيء على وجه التفهّم، فقد يصيب وقد يخطئ، ولذلك قالوا: أحسنوا النظر. الأثراب: الأصحاب المتقاربون في الموالد، كأنهم قُطِعوا من تربة واحدة، وأكثر ما يقع للنساء، وإذا مات للإنسان صاحبٌ على سِتّه كان أَوْقَعَ لحزنه، فلذا نبّه بالثّرْب، قال الألبيري: [المتقارب]

فإنّ الردى غلّ أهل التقى	فلم يبق إلا الغشوم العتيد
وأودى بكلّ خليل ودود	فأين، ولا أين، خلّ ودود!
وكن من أخي ثقة قد لحدت	فلله ما غيّبته اللّحود
وأثكلني الأنس ثكل اللّدات	فصرت كأن غريب وحيد

وكم من شقي يُواري الترابَ وكم من سعيد يُواري الصَّعيد!
 قوله: «يهولكم»، أي يفزعكم، والهيل: الصب الكثير من أعلي إلى أسفل، في
 مثل كذس الرمل، وعند صب التراب على الميت تطير القلوب إشفاقاً، وتسيل العيون
 رحمة، قال أبو العتاهية: [الوافر]

بكيثُك يا أخي بدمع عيني فلم يُغنِ البكاء عليك شيئاً
 كفى حزنأً بدفنك ثم أني نفضتُ تراب قبرك من بدئنا
 وكانت في حياتك لي عظامٌ وأنت اليوم أوعظُ منك حياً

أبو علي الرازي: مررت بصبيان في طريق الشام يلعبون بالتراب، وقد ارتفع الغبار،
 فقلت: مهلا، قد غبرتم، فقال صبي منهم: يا شيخ: أين تغر إذا هيل عليك التراب في
 القبر، فغشي علي، فأفقت والصبي قاعد عند رأسي مع الصبيان ييكون، فقلت له: عندك
 حيلة في الفرار من التراب؟ قال: أنا لا أعلم، ولكن سل غيري، فقلت: ومن غيرك؟
 قال: عقلك. تعبتون: تبالون وتهتمون. والنوازل: جمع نازلة، وهي المصيبة.
 الأحداث: ما يحدث على الإنسان من الخير والشر. والأجداث، بالجيم: القبور،
 واحدها جدث وجدف. تستعبرون: تبكون. تعتبرون: تتعظون وتروثه عبرة. والنغي:
 ذكر موت الإنسان، وكانت العرب إذا مات منها سيد ركب رجل فرسه، ومشى في
 الأحياء، فيقول: نعاء فلاناً، والناعي: المخبر بموت الرجل، وقد نعاء نعيأ. ترتاعون:
 تخافون. إلف: صاحب، وهو في الأصل مصدر ألفت الشيء إلفاً، فسمي به، ويقال في
 معناه: أليف. تلتاعون: تحترقون من الحزن، واللوعة: حرقة من الهم. المناحة: اجتماع
 النساء للبكاء على الميت. تعقد: تجمع وتؤلف. وقلبه تلقاء البيت، أي قلبه مستقبل
 لبيت الميت، يفكر فيما ترك ليرثه. مؤازاة: دفن، وقد واره، إذا ستره. استخلاص:
 تحصيل. ودوده الأول: محبوبه الذي يودّه، ودوده الثاني: جمع دودة، والواو للعطف.

وقال سابق البربري في معنى ما تقدم: [البسيط]

نلهو ونأمل أياماً تُعدّ لنا سريعة المَرّ تطوينا ونطويها
 كم من عزيز سيلقى بعد عزّته ذلاً، وضاحكة يوماً سنّبكيها
 وللحتوف تربّي كل مرضعة وللحساب برّى الأرواح بارِها
 لا تبرح النفس تنعى وهي سالمة حتى يقوم بنادي القوم ناعيها
 ولن تزال طوال الدهر ظاعنةً حتى تقيم بوادٍ غير واديها
 أموالنا لذوي الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال آخر: [البسيط]

اعمل وأنت من الدنيا على حذر واعلم بأنك بعد الموت مبعوث

واعلم بأنك ما قدّمت من عملٍ يُخصى عليك، وما خلّفت مَوروثُ
وقال الحسن: ابن آدم! أنت أسير الدنيا، رضيت من لذاتها بما ينقضي، ومن
نعيمها بما يمضي، ومن مَلِكها بما ينفد، تجمع لنفسك الأوزار، ولأهلك الأموال، فإذا
مِتَّ حملت أوزارك إلى قبرك، وتركت أموالك لأهلك. أخذه أبو العتاهية فقال: [البسيط]

أَبَقَيْتَ مَالَك مِيراثاً لوارثه يَأْتِي شَعْرِي مَا أَبْقَى لَكَ الْمَالُ
الْقَوْمَ بَعْدَكَ فِي حَالِ تَسْرُؤِهِمْ فكيف بعدهم دارث بك الحال!
مَلُّوا الْبُكَاءَ فَمَا يَبْكِيكَ مِنْ أَحَدٍ واستحكم القيلُ في الميراثِ والقَالُ
وقال ابن عبد ربه: [الوافر]

أَيَا مَنْ عِنْدَهُ أَمَلٌ طَوِيلٌ يُوَدِّيهِ إِلَى أَجَلٍ قَصِيرٍ
أَتَفْرَحُ وَالْمَنِيَّةُ كُلُّ يَوْمٍ تُرِيكَ مَكَانَ قَبْرِكَ فِي الْقُبُورِ
هِيَ الدُّنْيَا فَإِنْ سَرَّتْكَ يَوْمًا فَإِنَّ الْحُزْنَ عَاقِبَةُ السُّرُورِ
سَتُسَلِّبُ كُلَّ مَا جُمِعَتْ فِيهَا كَعَارِيَةٍ تُرَدُّ إِلَى الْمَعِيرِ
وقال جبلة بن الحويرث: [البسيط]

يَا قَلْبُ إِنَّكَ فِي الْأَحْيَاءِ مَغْرُورٌ فاذكر وهل ينفعنك اليَوْمُ تَذْكِيرٌ^(١)
تَرِيدُ أَمْرًا وَلَا تَذَرِي: أَعَاجِلُهُ خَيْرٌ لِنَفْسِكَ أَمْ مَا فِيهِ تَأْخِيرُ!
فَاسْتَقْدِرِ اللَّهَ خَيْرًا وَارْضَيْنَ بِهِ فبينما العسرُ إذ دارث مياسيرُ
وبينما المرءُ فِي الْأَحْيَاءِ مُغْتَبِطًا إذ صار في الرّمسِ تعفوه الأعاصيرُ
يَبْكِي الْغَرِيبَ عَلَيْهِ لَيْسَ يَعْرِفُهُ وذو قرابته في الحيِّ مَسْرُورُ
حَتَّى كَانَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَذْكُرُهُ والدُّهْرُ أَيَّتَمَّا حِينَ دَهَارِيرُ
وذاك آخر عهدٍ من أخيك إذا بالموت ضُمَّنهُ اللَّحْدَ الْخَنَاسِيرُ

طَالَمَا أُسِيئْتُ عَلَى انْتِلَامِ الْحَبَةِ، وَتَنَاسَيْتُمْ اخْتِرَامَ الْأَحْبَةِ، وَاسْتَكَنْتُمْ لَاغْتَرَاضِ
الْعُسْرَةِ، وَاسْتَهْتَنْتُمْ بَانْقِرَاضِ الْأَسْرَةِ، وَضَحِكْتُمْ عِنْدَ الدَّفْنِ، وَلَا ضَحِكْتُمْ سَاعَةَ
الزَّفَنِ، وَتَبَخَّرْتُمْ خَلْفَ الْجَنَائِزِ، وَلَا تَبَخَّرْتُمْ يَوْمَ قَبْضِ الْجَوَائِزِ، وَأَعْرَضْتُمْ عَنِ

(١) البيت الأول بلا نسبة في تاج العروس (أذذ)، وفيه «إنك من أسماء» بدل إنك في «الأحياء»، والبيت
الثالث لحريث بن جبلة أو لعثير بن لبيد في الدرر ٣/ ١٠٠، ١١٨، وشرح شواهد المغني ١/ ٢٤٤،
ولسان العرب (دهز)، وبلا نسبة في جواهر الأدب ص ٢٩٤، وخزانة الأدب ٧/ ٦٠، ودرة الغواص
ص ٧٣، والكتاب ٣/ ٥٢٨، ومجالس ثعلب ١/ ٢٦٥، ومغني اللبيب ١/ ٨٣.

تَعْدِيدِ الثَّوَادِبِ، إِلَى إِعْدَادِ الْمَادِبِ، وَعَنْ تَحْرِقِ الثَّوَاكِلِ؛ إِلَى التَّائِقِ فِي الْمَاكِلِ، لَا تَبَالُونَ بِمَنْ هُوَ بَالٌ، وَلَا تُخْطِرُونَ ذِكْرَ الْمَوْتِ بِبَالٍ، حَتَّى كَأَنَّكُمْ قَدْ عَلِقْتُمْ مِنَ الْجِمَامِ بِزِمَامٍ، أَوْ حَصَلْتُمْ مِنَ الزَّمَانِ عَلَى أَمَانٍ، أَوْ وَثِقْتُمْ بِسَلَامَةِ الدَّاتِ، أَوْ تَحَقَّقْتُمْ مُسَالَمَةَ هَادِمِ اللَّذَاتِ؛ كَلَّا سَاءَ مَا تَتَوَهَّمُونَ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ!

قوله: «أسيتم»، أي حزنتم: انشلام: انكسار ونقصان. اخترام: هلاك، يقول: إذا انتقص لكم من المال أدنى شيء حزنتم عليه، ولا تحزنون على نقص أحبابكم. أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «مَنْ أَضْبَحَ حَزِينًا عَلَى الدُّنْيَا، أَصْبَحَ سَاخِطًا عَلَى اللَّهِ».

قوله: «استكنتم»، ذللتهم، واستكان، استفعل من لفظ الكين، وهو لحم باطن الفرج. اعتراض العسرة: ظهور الفقر. انقراض الأسرة: موت القرابة الزفن: الرقص. ضحكتم عند الدفن، جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَرِهَ لَكُمْ الْعَبَثَ فِي الصَّلَاةِ، وَالرَّفَثَ فِي الصِّيَامِ، وَالضَّحْكَ فِي الْجَنَائِزِ». ورأى ابن مسعود رضي الله عنه رجلاً يضحك في جنازة، فقال: تضحك وأنت في جنازة! والله لا أكلّمك أبداً.

ونظر عبد الله بن ثعلبة إلى رجل يضحك في جنازة مستغرباً، فقال: أتضحك ولعلّك قد أخذت أكفانك من القصار!

وفي الحديث «كثرة الضحك تميم القلب وتذهب بهاء المؤمن»^(١).

قوله: «تبخرتم»، أي تعظمتتم وأظهرتم الإعجاب في مشيكم. الجوائز: الصلوات وهم يظهرون في أحسن الثياب عند الملوك ليكثر لهم العطاء.

أعرضتم: تنحيتم، وهو من العرض، كأنك إذا لقيت من تكره استقبلته بعرضك، أي بجانبك. النوادب: النوائج اللواتي يندبُن الميت أي يبكيه، فيقول: أعرضتم عن الباقيات حين عدّدن خصال الميت المحموده، ولم تفكر في تلك الحال. إعداد، أي استعداد. المآدب: المطاعم للأعراس. تحرق: توجع. الثواكل: الفاقات لأحبابهن. التائق: التحسين، وقد تائق في الشيء، إذا احتفل فيه فأعجب به كل من رآه. بال: دارس متغير، يريد الميت. ببال: بفكر وخاطر. الجمام: الموت، وأصله القدر. وهو من حَمَ، أي قَدَرَ، وذات الشيء نفسه وحقيقته. مسالمة: متاركة ومصالحة.

(١) أخرجه الترمذي في الزهد باب ٢، وابن ماجه في الزهد باب ١٩، وأحمد في المسند ٣١٠/٢.

أبو هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله: «أكثرُوا ذكرَ هاذمِ اللذاتِ، قالوا: وما هاذمِ اللذاتِ؟ قال: الموت»^(١).

وقال الألبيري في معنى ما تقدّم: [المنسرح]

كم آمنٍ للمنون لاه	عن الرّدى بات مطمئناً
صبّحه وافدُ المنيّا	فعاين الموت حين عثّا
حتى إذا ما قضى بكاه	حميمه معولاً مُريراً
واروه في لحده وسنّوا	عليه قيد التراب سنّا
وانتهبوا ماله وشنّوا الـ	غارات فيما حواه سنّا
لمثل هذا فكن معدّا	ما قد أعد الهداة منّا
وارتقب الموت فهو حثم	يخترم الطفل والمسنّا

قوله: كلا، زجر، أي ليس الأمر كما ظننتم.

ثم أنشد: [المنسرح]

أيا من يدّعي الفهم	إلى كم يا أخا الوهم
تعبّي الذنب والذم	وتخطي الخطأ الجم
أما بأن لك العيب!	أما أنذرك الشيب!
وما في نضح ريب	ولا سمعك قد صم
أما نادى بك الموت	أما سمعك الصّوت!
أما تخشى من القوت	فتختاط وتهتم
فكم تسدّر في السهو	وتختال من الزهو
وتنصب إلى اللهو	كأن الموت ما عم

قوله: [المنسرح]

أيا من يدّعي الفهم إلى كم يا أخا الوهم
يسمى هذا من أنواع الشعر المسمط، أي المفضل، مأخوذ من السّط وهو سلك
الجوهر المفضل بالزمرّد والذهب وغير ذلك. الوهم: الغلط. الجم: الكثير، وعلى

(١) أخرجه الترمذي في القيامة باب ٢٦، والزهد باب ٤، والنسائي في الجنائز باب ٣، وابن ماجه في الزهد باب ٣١، وأحمد في المسند ٢/٢٩٣، والطبراني في الجامع الصغير ٩٠/١.

قوله: «وتخطي الخطأ الجم»، ذكر الحريري في الدرّة أنّ قول الخواص: «أخطأ لمن يأتي بالذنب متعمداً تحريف للفظ والمعنى، ولا يقال: أخطأ إلا لمن لم يتعمد الفعل ولمن اجتهد»، فلم يوافق الصواب لقوله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر»^(١) وإنما أوجب له الأجر على اجتجاهه في إصابة الحق الذي هو نوع من أنواع العبادة، لا عن الخطأ الذي يكفي صاحبه أن يُعذر فيه ويرفع مأثم عنه، و [اسم] الفاعل من هذا النوع: مخطيء، والاسم الخطأ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَا﴾ [النساء: ٩٢] وأما المتعمد، فيقال فيه: خطيء فهو خاطيء، والمصدر الخطء، قال الله تعالى: ﴿إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيراً﴾ [الإسراء: ٣١]، والاسم منه الخطيئة، ويقع على الصغيرة، قال الله تعالى: ﴿أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] إخباراً عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وعلى الكبيرة كقوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ [البقرة: ٨١] الآية: قال أبو محمد الحريري: ولي في تضمين هاتين اللفظتين وتخصيص معنيهما المتنافيين: [البسيط]

لا تخطون إلى خطء ولا خطأ من بغد ما الشيب في فؤدك قد وخطأ
فأني عذر لمن شابت مفارقته إذا جرى في ميادين الهوى وخطأ
وهذه التفرقة منه مستحسنة، وكذا يقع في أكثر كلامهم، وأما على القطع فلا، لأنه قد حكى الزجاج وقطرب وابن دريد في الجمهرة أنّ العرب تقول: خطئت الشيء أخطؤه خطأ، وخطئني وأخطأته خطأ في معنى واحد، قال: [الكامل]

والناس يلحون الأمير إذا هُمّو خطئوا الصواب ولا يلام المرشد^(٢)
أما: حرف استفتاح وإخبار. بان: ظهر. أما أنذرك الشيب، سيأتي مستوفياً.
وقال في الشيب الفقيه الزاهد أبو عمران رحمه الله: [الكامل]

ذهب الشباب بجهله وبعاره وأتى المشيب بحلمه ووقاره
شتان بين مبعّد من ربّه بغروره ومبشّر بجواره
ما زلت أمرح بالشباب جهالة كالطّرف يمرح معجباً بعذاره
وسحبت أثواب البطالة لاهياً وجررت من بطر فضول إزاره
حتى تقلص ظله فتكشفت عورائه وبدأ قبيح عواره

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الاعتصام باب ٢٠، ٢١، ومسلم في الأفضية حديث ١٥، وأبو داود في الأفضية باب ٢، والنسائي في الأحكام باب ٢، والقضاة باب ٣، وابن ماجه في الأحكام باب ٣، وأحمد في المسند ١٩٨/٤، ٢٠٤، ٢٠٥.

(٢) البيت بلا نسبة في لسان العرب (أمر)، وتاج العروس (أمر).

لم أحظ مته بطائل غير الأسي وتنذم مني على أوزاره
والآن قد خط المشيب بمفرقي بمواعظ والحق في تذكاره
والنفس تركب غيها لا ترعوي عنه ولا تُضغي إلى إنذاره
لهفي على عُمرٍ يمرّ مضياً محصى عليّ بليله ونهاره

كان شاباً في بني إسرائيل عبّد الله عشرين سنة، وعصاه عشرين سنة، قنطر يوماً في المرأة، فرأى الشيب في لحيته، فسأه ذلك فقال: إلهي أطعك عشرين سنة، وعصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أنقبلني؟ فسمع صوتاً من زاوية البيت: أحببتنا فأحبيناك، وتركنا فتركناك، وعصيتنا فأهلناك؛ فإن رجعت إلينا قبلناك.

قال ابن وضاح: إذا بلغ الرجل أربعين سنة ولم يتب، مسح إبليس على وجهه، وقال: بأبي وجه لا يفلح أبداً! وأنشدوا: [الكامل]

وإذا مضى للمرء من أعوامه خَمْسُونَ وَهُوَ إِلَى التَّقِي لَمْ يَجْنَحْ
ركدث عليه المخزيات وقلن قَدْ أَرْضَيْنَا فَأَقَمَ لَذَا لَا تَبْرَحْ
وإذا رأى إبليس عُزّة وجهه حيّاً وقال: فديت من لم يفلح
وقال آخر: [الوافر]

تُلاحِظُنِي المنيّة من قريب وتلحظني ملاحظة الرقيب
وتنشر لي كتاباً فيه طي بخط الدهر أسطره مشيبي
كتاب في معانيه غموض تلوح لكلّ أبواب مُنيب
أزال الله يا صاحبي شبابي فعوّضت البغيض من الحبيب
وبدلت التكاسل من نشاطي ومن حسن النضارة بالشحوب
كذاك الشمس يعلوها اصفرار إذا جنحت ومالت للغروب
وهذا القدر كافٍ هنا في ذكر الشيب.

وقوله: «ريب»، شك. أما أسمعك الصوت، الصوت هنا: النياحة على الميت. والفوت: بُغْد الشيء. الاحتياط، من الحوطة، وهي الوقاية. تسدّر: تتبختر. تختال: تتكبر. الزهو: الكبر. عمّ: شمل.

ولأبي العتاهية في معناه: [السريع]

حتى متى ذو التّيه في تيهه أصلحه الله وعافاه!
يتيه أهل التّيه من جهلهم وهم يموثون وإن تاهوا
من طلب العزّ ليبقى به فإن عزّ المرء تَقَوّاه

لم يعتصم بالله من خلقه من ليس يرجوه ويخشاه
ولمحمد بن حازم: [الطويل]
فيا شامخاً أقصر عنانك مقصراً فإن مطايا الدهر تكبو وتعثر
ستقرع سناً أو تعض ندامة يدبك إذا خان الزمان وتبصر
ويلقاك رشد بعد غيك واعظ ولكئه يلقاتك والأمر مدبر
[الهمز]

* * *

وحثام تجافيك وإبطاء تلافيك
طباعاً جمعت فيك عيوباً شملها انضم
إذا أسخطت مولاك فمات قلقت من ذاك
وإن أخفقت مسعاك تلطيت من الهمة
وإن لآخ لك النقص من الأصفى تهتشت
وإن مر بك النقص تغامت ولا غم
نعاصي الناصح البز وتعتاص وتزور
وتنقاد لمن غر ومن مان ومن نم

* * *

قوله: «تجافيك»، أي تباعدك من فعل الخير. إبطاء: تأخر. تلافيك: تداركك. طباعاً: أخلاقاً؛ يريد أن أخلاقك قد جمعت فيك عيوباً انضم عليك شملها. أخفقت: خاب. مسعاك: طلبك ومشيك في اكتساب الرزق. تلطيت: احترقت واشتعلت، وهو تفعلت، من اللظى. الأصفر: الدينار، ونقشه الكتاب الذي فيه. تهتشت: تخفت وتهتز طرباً. تغامت: أظهرت الغم. ولا غم، أي ليس عندك غم على الحقيقة. كان أبو الدرداء رضي الله عنه إذا رأى جنازة قال: اغدي فلانا رائحون، أو روعي فلانا غادون.

أبو عمرو بن العلاء قال: جلست إلى جرير وهو يملي على كاتبه: [الكامل]
* ودع أمانة حان منك رحيل^(١) *

(١) عجزه:

إن السوداع إلى الحبيب قليل

والبيت في ديوان جرير ص ٤٧٢.

ثم طلعت جنازة فأمسك، وقال شَيْبَتْنِي هذه الجنازة، فقلت: فَلَمْ تُسَابِ النَّاسَ؟
قال: يبدؤوني، ثم لا أعفو، وأعتدي ولا أبتدي، ثم أنشأ يقول: [الوافر]

تروُّعنا الجناز مَقْبَلَاتٍ ونلهُو حين تذهب مدبراتِ
كروعة هجمة لمغار ذئبٍ فلما غاب عادت راتعاتِ
وقال آخر: [الكامل]

وتعدُّ كثرة من يموت تعجِّباً عما قريب سوف تدخل في العدِّ
وأراك تحملهم ولست تردِّهم وكأنني بك قد حُمِلْتُ ولا تُردِّ

قوله: «تعاصي الناصح البر»، أي تعاصي مَنْ ينصحك ويبرِّك. تعاص: تتصعب،
وهو «تفتعل» من العصيان، على القلب. تزور: تنقبض. غر: خدع. مان: كذب، ونم:
مشى بالنيمة.

[الهج]

وتَسْعَى فِي هَوَى النَّفْسِ وَتَحْتَالُ عَلَى الْفَلَسِ
وَتُنْسَى ظُلْمَةَ الرَّئْسِ وَلَا تَذْكُرُ مَائِثَمَ
وَلَوْ لَاحَظَكَ الْحَظُّ لَمَا طَاحَ بِكَ اللَّحْظُ
وَلَا كُنْتَ إِذَا الْوَغْظُ جَلَا الْأَخْزَانَ تَغْتَمُ
سُتْذِرِي الدَّمَ لَا الدَّمَغَ إِذَا عَايَنْتِ ذَا جَمْعِ
يَقِي فِي عَرْصَةِ الْجَمْعِ وَلَا خِصَالٍ وَلَا عَمِّ
كَأَنِّي بِكَ تَنْحَطُّ إِلَى اللَّخْدِ وَتَنْعَطُّ
وَقَدْ أَسْلَمَكَ الرَّهْطُ إِلَى أَضْيَقٍ مِنْ سَمِّ

الرئس: القبر. لاحظك الحظ: نظرك السعد. طاح بك: أذهبك وأهلكك،
واللحظ: النظر بمؤخر العين، وقد لحظه لحظاً ولاحظته ملاحظة، وكله من اللحاظ،
وهو طرف العين مما يلي الصدغ. وجلا: كشف. تذرِي: تصب وتربل متفرقاً.
أنس رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «يَأْيُهَا النَّاسُ ابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فْتَبَاكُوا»،
فإن أهل النار يكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول، حتى تنقطع
الدموع فتسيل الدماء، فلو أن السفن أجريت في دموعهم لجرت^(١).

(١) أخرجه ابن ماجه الإقامة باب ١٧٦، والزهد باب ١٩.

لا جَمْع، أي لا قَبِيل ولا عَشِير يَحْمِيكَ ولا يَمْنَعُكَ يوم القيامة. يَقي: يَمْنَع.
عَرِصَة الجمع: موضع اجتماع الناس في الحشر. تَنَحَّطُ تنزل. اللَّحْد: حَفِير في جانب
القبر. وتَنَغُّطُ: تَنَضُّمٌ وتَنَقُّصٌ، يقال: غَطَطْتُهُ في الماء إذا أَغْرَقْتُهُ فيه وَغَمَسْتَهُ. أَسْلَمَكَ
الرَّهْطُ: تَزَكَّكَ قَوْمَكَ. سَمَ: عَيْنُ الإِبْرَةِ، يريد ضيقَ القبر على الميت. وقال رسول الله
ﷺ: «إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً لَوْ نَجَا مِنْهَا أَحَدٌ لَنَجَا مِنْهَا سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ».

وعن أنس رضي الله عنه، قال: توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ، فتبعها رسول الله
ﷺ، فسَاءَنا حاله، فلما انتهينا إلى القبر فدخله، التمع وجهه صفرة، فلما خرج أسفر
وجهه، قلنا: يا رسول الله، رأينا منك شأناً فِمَ ذلك؟ قال: «ذَكَرْتُ ضَغْطَةَ بَنْتِي وَشِدَّةَ
عَذَابِ الْقَبْرِ فَأَتَيْتُ فَأَخْبَرْتُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ خَفَّفَ عَنْهَا، وَلَقَدْ ضَغَطْتُ ضَغْطَةً سَمِعَ
صَوْتَهَا مَا بَيْنَ الْخَافِقَيْنِ». [الهِج]

* * *

هَئَاكَ الْجِسْمُ مَمْدُودٌ	لَيْسَتْ أَكْلَهُ الدُّودُ
إِلَى أَنْ يَنْخَرَّ الْعُودُ	وَيُمْسِي الْعَظْمُ قَذَرَمٌ
وَمِنْ بَغْدٍ فَلَا بُدَّ	مِنَ الْعَرَضِ إِذَا اغْتَدَّ
صِرَاطُ جِسْرُهُ مُدٌّ	عَلَى الثَّارِ لِمَنْ قَذَامٌ
فَكَمْ مِنْ مُرْشِدٍ ضَلَّ	وَمِنْ ذِي عِزَّةٍ ذَلَّ
وَكَمْ مِنْ عَالِمٍ زَلَّ	وَقَالَ الْخَطْبُ قَذَطَمٌ
فَبَادَزَ إِلَيْهَا الْعُمُرُ	لِمَا يَخْلُو بِهِ الْمُرُ
فَقَدْ كَادَ يَهِيَ الْعُمُرُ	وَمَا أَقْلَعَتْ عَنْ دَمٍ

* * *

قوله: «يَنْخَرُ»، أي يبلى، والعود: تابوت الميت. رَمَ: بَلَى: قال الفنجديهي: إلى
أَنْ يَنْخَرِ الْعُودُ، أي إلى أَنْ يَبْلَى الْجِسْمُ النَّاعِمُ الَّذِي هُوَ مِثْلُ الْقَضِيبِ، وَقَالَ الْأَلْبِيرِيُّ:
[الطويل]

كَأَنِّي بِنَفْسِي وَهِيَ فِي السَّكَرَاتِ	تَعَالَيْجُ أَنْ تَرْقِيَ إِلَى اللَّهَوَاتِ
وَقَدْ رَمَ رَحْلِي وَاسْتَقَلَّتْ رِكَائِبِي	وَقَدْ أَذْنَتْنِي بِالرَّحِيلِ حُدَاتِي
إِلَى مَنْزِلٍ فِيهِ عَذَابٌ وَرَحْمَةٌ	وَكَمْ فِيهِ مِنْ زَجَرٍ لَنَا وَعِظَاتِ
وَمِنْ أَعْيُنٍ سَالَتْ عَلَى وَجَنَاتِهَا	وَمِنْ أَوْجِهٍ فِي الثَّرْبِ مُنْعَفِرَاتِ
وَمَنْ وَارِدٍ فِيهِ عَلَى مَا يَسْرُهُ	وَمَنْ وَارِدٍ فِيهِ عَلَى الْحَسَرَاتِ

قوله: «اعْتَدَ» أي استعدَّ، روى أبو بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «يُحْمَلُ

الناس يوم القيامة على الصراط فيتقادع بهم جَنَّبْنَا الصُّرَاطَ تَقَادُعَ الفَرَّاشِ فِي النَّارِ، فَيَنْجِي
الله برحمته مَنْ يَشَاءُ^(١). التَّقَادُعُ: التَّهَافُتُ، كَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقْدَعُ صَاحِبَهُ كَيْ يَسْبِقَهُ.
والجسر: بناء على النار يُجَازِ عليه من جهة إلى أخرى. وأم: قصد. مُرشد: هادٍ. ضلّ:
تَحَيَّرَ. الحُطْبُ: الأمر الشديد. طمّ: عظم. العُمر: الجاهل بالأُمور. والذي يحلو به
المَرّ: هو التوبة والأعمال الصالحة التي يصلح بها ما فسد. يهي: يضعف. أَقْلَعَتْ عن
ذمّ، أي رجعت عن أمر مذموم، وقال ابن عبد ربه: [البسيط]

بادِرْ إِلَى التَّوْبَةِ الْخُلُصَاءِ مُجْتَهِدًا وَالْمَوْتُ وَيَحْكُ لِمَ يَمْدُدُ إِلَيْكَ يَدَا
وَارْقُبْ مِنَ اللَّهِ وَعَدًا لَيْسَ يُخْلِفُهُ لَا بَدَلَ لِمَنْ أَنْجَازَ مَا وَعَدَا

* * *

وَلَا تَرْكَنْ إِلَى الدَّهْرِ وَإِنْ لَأَنْ وَإِنْ سَـ____رُ
فَتُلْفَى كَمَنْ اغْتَرَّ بِأَفْعَى تَنُفُّكَ السَّمُ
وَحَفُضٌ مِنْ تَرَاقِيكَ فَإِنَّ الْمَوْتَ لِأَقْيِكَ
وَسَارٍ فِي تَرَاقِيكَ وَمَا يَنْكُلُ إِنْ هَمَّ
وَجَانِبَ صَعَرِ الْخَدِّ إِذَا سَاعَدَكَ الْجَدُّ
وَرُمَّ اللَّفْظُ إِنْ نَدَّ فَمَا أَسْعَدَ مَنْ رَمَّ
وَتَفُسَّ عَنْ أَخِي الْبَثِّ وَصَدَّقْهُ إِذَا نَثَّ
وَرُمَّ الْعَمَلُ الرَّثِّ فَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَمَّ

* * *

قوله: «لا تركن»: تقول: ركنت إلى فلان، إذا اتَّخَذْتَهُ رَكْنًا تَلَجَأُ إِلَيْهِ، تَلْفَى:
تَوَجَّدَ. اغْتَرَّ: انخدع. تنفث: تبصق عند لَذْعِهَا. حَفُضٌ: سَكَنٌ. تَرَاقِيكَ ارتفاعك
وتكبرك. سارٍ: ماشٍ. والتراقي: العَظْمَانِ المَعْوْجَانِ على الصدر. ينكل: يضعف
وينقطع. إِنْ هَمَّ: إِنْ أَرَادَكَ وَهَمَّ بِكَ، وفي معنى هذا قول أبي نواس - قال غانم الوراق:
دخلت عليه قبل وفاته بيوم فقال لي: أمعك ألواحك؟ قلت: نعم، قال: اكتب:
[الخفيف]

دَبَّ فِي السَّقَامِ سُفْلًا وَعَلَوًا وَأَرَانِي أَمُوتُ عُضْوًا فَعُضْوَا
لَيْسَ تَمْضِي مِنْ لِحْظَةٍ لِي إِلَّا نَقَضْتَنِي بِمَرِّهَا بِي جُزْوََا
ذَهَبَتْ جِدَّتِي بِطَاعَةِ نَفْسِي وَتَذَكَّرْتُ طَاعَةَ اللَّهِ نِضْوَا
قَدْ أَسَانَا كُلَّ الْإِسَاءَةِ فَالَلَّ هَمَّ صَفْحًا عَنَّا وَغَفْرًا وَعَفْوَا

قوله: «نَفْس»، أي وسَّع نَفْسَه، كأنه خُنِقَ فضايق نَفْسَه، فأمر بحلِّه. أخي البث: صاحب الحزن. نَتَّ: نطق وكشف له سره. رم: أصلح، وقد رمنت الشيء رمًا أصلحته. الرث: الخلق.

وَرِشَ مَنْ رِيشُهُ انْحَصَصَ	بِمَاعَمٍّ وَمَا خَصَصَ
وَلَا تَأْسَ عَلَى النُّقْصِ	وَلَا تَخْرِضَ عَلَى اللَّمِّ
وَعَادِ الْخُلُقَ الرَّذْلُ	وَعَوِّذْ كَفَّكَ الْبِذْلُ
وَلَا تَسْتَمِعِ الْعَذْلُ	وَتَزْهَهَا عَنِ الضُّمِّ
وَزَوِّدْ نَفْسَكَ الْخَيْرَ	وَدَغْ مَا يُغْقِبُ الضُّمِيرَ
وَهَيِّءْ مَرْكَبَ السَّيْرِ	وَخَفْ مِنْ لُجَّةِ الْيَمِّ
بِذَا أُوصِيَتْ يَا صَاحِ	وَقَدْ بُخْتُ كَمَنْ بَاخَ
فَطَوَّبَى لِفَتَى رَاخَ	بِأَذَابِي يَأْتُمُّ

* * *

رش: اجعل له ريشاً. انحصص: نتف ريشه، تقول: رشت الرجل، أي أعنته وأغنيته. بما عمّ وما خصص، أي بما كثر من العطيّة وقلّ. تأس: تحزن: على النقص، أي على النقصان في الصدقة والمعروف، ولا تكن أيضاً حريصاً على جمعه ومنعه فمن احتاج إليه، واللمّ: جَمَعَ المال، ولممت الشيء لماً. الرذل: الرديء، يريد: عاد أخلاق البخل، أو الخلق السوء.

عائشه رضي الله عنها، قال النبي ﷺ: «ما من مسيء إلا وله توبة، إلا صاحب سوء الخلق لأنه لا يتوب من ذنب إلا عاد في شر منه». والبذل: العطاء، وبذلت الشيء بذلاً، أي أبحتّه عن طيب نفس. والعذل: اللوم، أي. من لامك على العطاء لا تسمعه وأعط، وأحسن ما قيل في ردّ العذل على كثرته قول زهير: [الطويل]

وَأُبَيِّضَ فَيَاضٍ نَدَاهُ غَمَامَةٌ	عَلَى مُعْتَفِيهِ مَا تُغَبِّ فَوَاضِلُهُ ^(١)
بَكَرَتْ إِلَيْهِ غَدْوَةٌ فَرَأَيْتُهُ	قَعُوداً إِلَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَاذِلُهُ
يَفْدِينَهُ طَوْرًا، وَطَوْرًا يَلْمَنُهُ	وَأَغْيَا فَمَا يَدْرِينِ أَيْنَ مَخَاتِلُهُ

(١) البيت الأول في ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١٣٩، وفيه «يداه غمامة» بدل «نداه غمامة»، والجنى الداني ص ٤٤١، وبلا نسبة في لسان العرب (غيب)، وتاج العروس (غيب)، (فضل)، والبيت الثاني في ديوان زهير ص ١٤٠، وفيه «بكرة فوجدته» بدل «غدوة فرأيت»، والأضداد ص ٤٢، ١٩٥، وشرح شواهد المغني ٩٤١/٢، ولسان العرب (حرم)، وتاج العروس (صرم)، وبلا نسبة في مغني اللبيب ٦٥٢/٢.

فأقصرن فيه عن كريم مرزٍ صبورٍ على الأمر الذي هو فاعله
 قوله «نَزَّهَهَا»، أي باعدها. عن الضم، أي عن ضم الأصابع على ما في الكف،
 يقول: ابسُطْ كَفَّكَ بالعطية ولا تقبضها على ما فيها شُحًا، قال ابن عبد ربّه: [البسيط]
 يا قابضَ الكفِّ لا زالت مقبضةً فما أناملُها للناس أَرْزَاقُ
 وغب إذا شئت حق لا تُرى أبداً فما لفقدك في الأحشاء إحراقُ
 كأنه قَلَبَ بيت ابن دُرَيْدٍ في رجل من أهل البصرة: [الكامل]

يا مَنْ يَقْبَلُ كَفَّ كُلِّ مَمْخَرِقٍ هذا ابنُ يحيى ليس بالمخراقي
 قَبِلَ أَنَامِلَهُ فَلَسَنَ أَنَامِلًا لَكُنَّهْنُ مَفَاتِحُ الْأَرْزَاقِ
 أخذه ابن دُرَيْدٍ من إبراهيم بن العباس الصولي يمدح الفضل بن سهل: [المتقارب]
 لِفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ يَدٌ تَقَاصَرَ عَنْهَا الْمَثَلُ
 فَبَسَطَتْهَا لِلْغَنَى وَسَطَوْتُهَا لِلْأَجَلِ
 وَبَاطَتْهَا لِلْئَدَى وَظَاهَرَهَا لِلْقَبِيلِ
 وسرقه ابن الرومي فقال: [الكامل]
 أَصْبَحْتُ بَيْنَ خِصَاصَةٍ وَمِثْلَةٍ وَالْحَرُّ بَيْنَهُمَا يَمُوتُ ذَلِيلًا
 فَاْمِذْدُ إِلَيَّ يَدًا تَعُودُ بَطْنُهَا بِذُلِّ النِّوَالِ وَظَهَرُهَا التَّقْبِيلُ
 وقال ابن عبد ربّه: [الطويل]

وَمَا خُلِقَتْ كَفَّاهُ إِلَّا لِأَرْبَعٍ عَقَائِلُ لَمْ يَعْقِلْ لَهَنَ ثَوَانِي
 لِتَقْبِيلِ أَفْوَاهِ، وَإِعْطَاءِ نَائِلِ، وَتَقْلِيلِ هَنْدِي وَحَبْسِ عَنَانِي

قوله: «وَدَغَ ما يعقب الضير»، أي دع عنك شيئاً يجيئك في أثره ضرر. المركب
 هنا: السفينة. واليم: البحر. واللجة: معظم الماء، وجعل الميت كالمسافر، وضرب
 له البحر مثلاً لكثرة ما يرى من الأهوال، فأمره بالاستعداد لذلك. يا صاح: يا
 صاحب. بُحْتُ. نطق، يريد أن كل ما قدّم من الوصية إنما هو على وجه النصح،
 كما وصّني هو بها قبل ذلك، وأراد بقوله: «صاح» كل من يسمع وصيئته، لا صاحباً
 معيّناً. طوبى: شجرة في الجنة، وهي، عندهم «فُغْلَى» من الطيب. يأتّم: يقتدى بها
 في الظاهر، يريد أنه من اقتدى بهذه الوصية فطوبى له، وهو يريد: من حصل آداب
 المقامات كلها رأس.

ثُمَّ حَسَرَ رُذْنَهُ عَنْ سَاعِدِ شَدِيدِ الْأَمْرِ، قَدْ شَدَّ عَلَيْهِ جَبَائِرُ الْمَكْرِ لَا الْكُسْرِ،

مُعَرَّضاً للاستِمَاحَةِ، فِي مَعْرِضِ الْوَقَاحَةِ، فَاخْتَلَبَ بِهِ أَوْلِيكَ الْمَلَأَ، حَتَّى أَنْزَعَ كُمَهُ
وَمَلَأَ؛ ثُمَّ انْحَدَرَ مِنَ الرُّبُوعَةِ، جَذِلاً بِالْحَبُوعَةِ.

قال الراوي: فَجَاذَبْتُهُ مِنْ وَرَائِهِ، حَاشِيَةً رِدَائِهِ، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ مُسْتَسْلِماً،
وَوَاجَهَنِي مُسْلِماً، فَإِذَا هُوَ شَيْخُنَا أَبُو زَيْدٍ بَعِيْنُهُ وَمِيْنُهُ، فَقُلْتُ لَهُ: [الهزج]

إِلَى كَمْ يَا أَبَا زَيْدٍ أَفَانِيُكَ فِي الْكَيْدِ
لِيَنْحَاشَ لَكَ الصَّيِّدُ وَلَا تَغْبِ بِمَنْ ذَمِّ

قوله: «حسر»، أي كشف. ردنه: كُمه. الأسر: الخُلُقَة، ومنه قوله تعالى: «وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ» [الإنسان: ٢٨]، أي خلَقهم، وهو من الإِسَارِ، وهو القِد الذي يشد به الأسير، فَشُرْكُ الجِلْد هي الإِسَار - ويراد بها في الخُلُقَة العَصَب - التي يشتد بها الجسد وتلتصم بها الأغضاء، وإليها حُكِم حركة البدن من القيام والقعود، فسبحان الذي أنشأ الخليقة كيف شاء! الاستِمَاحَة: الطلب، استفعالة، من مَاحَ الرجل يميحه إذا أعطاه، وأصل ذلك من المائح، وهو النازل في قَعْرِ البئر ليغرف ماءها ويفرقه على دلاء المستقين، وقد مَاحَ البئر مِيحاً. الوقاحة: ترك الحياء وصلابة الوجه، من الحافر الوقاح وهو الصليب. ومعرضها: موضع عَرَضها ونشرها، وإن كسرت الميم وفتحت الراء فهو ثوبيد الوقاحة، لبسه لأنَّ المِعْرَض الثوب الذي تُعْرَض فيه الجارية للبيع، والوقاحة: إظهار ذراعه صحيحاً مشدوداً عليه بخزق، ليوهم مَنْ رآه أنه مكسور. اختلب: خدع، واحتلب بالحاء: حلب ما عندهم كما تُحَلَب الشاة. المَلَأ: الجماعة. أترع: ملأ. انحدر: هبط، والرُّبُوعَة، لغة في الرُّبَاوَة التي تَقْدُمُ. جَذِلاً: مسروراً. الحبوة: العطية. جاذبته: نازعته. ميْنه: كذبه، أفانينك: أنواع كذبك وحيلك. ينحاش: ينضم ويجتمع، وحُشِت الصيد أحوشه، إذا جئته من حوَالِه لتصرفه إلى الحباله. لا تعبأ، أي لا تبالي، من عبأت الحلم للجهل، والخيَل للحزب إذا أَعَدَدته، وإذا لم يبال بالشيء لم يستعد له.

فَأَجَابَ مِنْ غَيْرِ اسْتِحْيَاءٍ، وَلَا ارْتِيَاءٍ، وَقَالَ: [الهزج]

تَبَصَّرْ وَدَعْ اللَّوْمَ وَقُلْ لِي هَلْ تَرَى الْيَوْمَ
فَتَى لَا يَقْمُرُ الْقَوْمُ مَتَى مَا دَسْنُتُهُ تَمَّ!

فَقُلْتُ لَهُ: بُعْدًا لَكَ يَا شَيْخَ النَّارِ، وَزَامِلَةَ الْعَارِ، فَمَا مِثْلُكَ فِي طُلَاوَةِ
عَلَانِيَتِكَ، وَخُبْنِ نِيَّتِكَ، إِلَّا مِثْلُ رَوْثٍ مُقَضَّضٍ، أَوْ كَنِيفٍ مُبْيَضِّ.

ثُمَّ تَفَرَّقْنَا، فَانْطَلَقْتُ ذَاتَ الْيَمِينِ، وَانْطَلَقَ ذَاتَ الشَّامَلِ، وَنَاوَحْتُ مَهَبَ
الْجَنُوبِ، وَنَاوَحَ مَهَبَ الشَّامَلِ.

ارتبأ: إبطاء، وهو «افتعال» من رؤية القلب، التي معناها التدبّر والتفكّر، وأصل
بابه الهمزة، فنقلها لمكان همزة اللّام؛ يقول: أجاب من غير فكرة. يُمَر: يغلب،
وتقول: قامرتُ الرجلَ قِمَاراً فقمَرْتُهُ أَقْمَرَهُ، أي غلبته. دَسْتَه، أي حيلته، والدَّسْتُ: الذي
يكون لك فيه الغلب في الشطرنج، تقول: الدَّسْتُ لي، والدَّسْتُ عليّ. ومن ألفاظ عامّة
المشرق أن يقول الرجل لصاحبه: هلَمْ نأخذ دسّاً. تَمّ: كمل. قوله: «زاملّة»، أي
حاملة، والزاملّة: الدابة يحمل عليها. طُلاوة علانيتك، أي حسن ظاهرك. خبت نيتك:
فساد باطنك، وفي معنى هذا قال لقمان لابنه: احذر واحدة - وهي أهلٌ للحذر: إياك أن
ترى أنك تخشى الله وقلبك فاجر؛ يحذّره من الرياء، وفي الحديث: «من أصلح سريرته
أصلح الله علانيته».

وقيل لرجلٍ مُراءٍ: ما أحسن صلاتك! قال: ومع هذا فإنني صائم! قال الشاعر:
[الرمّل]

وَإِذَا أَظْهَرْتَ شَيْئاً حَسَناً فليكن أحسن منه ما يَسُرُ
فمُسِرَّ الخير موسومٌ به ومُسِرَّ الشرِّ موسومٌ بشرِّ
وقال محمود الوراق لابن أخيه: [الوافر]

تصوِّف كي يقال له أَمِينٌ وما معنى التصوِّف والأمانة
ولم يُردِ الإلهَ به ولكن أراد به الطريقَ إلى الخِيانة
وقال فيه أيضاً: [الكامل]

شَمَّرَ ثِيَابَكَ واستعدَّ لقائلٍ واحكك جبينك للقضاة بشومٍ
وعليك بالفُتُوّي فاجلس عنده حتى تصيب وديعةً ليتيمٍ
وقال الأبيّض الألبيري: [الكامل]

أهلَ الرياء لبستمُ ناموسكم كالذئب يُصبح في الظلام العائمُ
فملكتم الدنيا بمذهب مالكٍ وقسمتمُ الأموال بآبن القاسمِ
وركبتمُ شُهَبَ البغالِ بأشهبٍ وبأصبغ صبغت لكم في العالمِ
وقال آخر: [الكامل]

لا شيء أخسر صفقةً من عالم لعبت به الدنيا مع الجهالِ

فغداً يفرّق دينه أيدي سَبَا ويُديله حرصاً لجمع المالِ
 لا خير في كسبِ الحرامِ وقلّما يُزجى الخلاص لكاسبٍ لحلالِ
 فخذِ الكفاف ولا تكن ذا فضلةٍ فالفضل تُسألُ عنه أيّ سؤالِ

قوله: «مفضّض»، مطليّ بالفضة. والكنيف: المستراح. ذات: جهة وناحية.
 ناوخت: قابلت. مهبّ: ناحية هبوبها. الجنوب: الريح القبليّة. والشمال [مقابل]
 الجنوبية.

المقامة الثانية عشرة

وهي الممشقية

حكى الحارث بن همام قال: شَخَصْتُ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى الْغَوَاطِ، وَأَنَا ذُو جُرْدٍ مَرْبُوطَةٍ، وَجِدَّةٌ مَغْبُوطَةٌ، يُلْهِيَنِي خُلُو الدَّرْعِ، وَيَزْدَهِيَنِي حُفُولُ الضَّرْعِ. فَلَمَّا بَلَغْتُهَا بَعْدَ شِقِّ النَّفْسِ، وَإِنْصَاءِ الْعَنْسِ، أَلْفَيْتُهَا كَمَا تَصِفُ الْأَلْسُنُ، وَفِيهَا مَا تَسْتَهِي الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ، فَشَكَرْتُ يَدَ النَّوَى، وَجَرَيْتُ طَلْقاً مَعَ الْهَوَى، وَطَفَقْتُ أَلْفُضُّ فِيهَا خُتُومَ الشَّهَوَاتِ، وَأَجْتَنِي قُطُوفَ اللَّذَاتِ، إِلَى أَنْ شَرَعَ سَفَرٌ فِي الْإِعْرَاقِ، وَقَدْ أَشْفَقْتُ مِنَ الْإِعْرَاقِ، فَعَادَنِي عِيدُ مَن تَذْكَارُ الْوُطَنِ، وَالْحَنِينِ إِلَى الْعَطَنِ، فَقَوَّضْتُ خِيَامَ الْغَيْبَةِ، وَأَسْرَجْتُ جَوَادَ الْأُوبَةِ.

* * *

[غوطة دمشق]

شَخَصْتُ، أَي خَرَجْتُ. الْغَوَاطُ: مَوْضِعٌ بِالشَّامِ خَصِيبٌ بِخَارِجِ دِمَشْقَ، قَالِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَتَفْتَحُ عَلَيْكُمْ الشَّامَ فَعَلَيْكُمْ بِمَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا دِمَشْقُ، هِيَ خَيْرُ مَدَائِنِ الشَّامِ وَفَسْطَاطُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَرْضٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهَا الْغَوَاطُ»^(١). قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: أَحْسَنُ أَنْهَارِ الدُّنْيَا ثَلَاثَةٌ أَنْهَارٌ: الْغَوَاطُ، وَسَمَرْقَنْدُ، وَنَهْرُ الْأَبْلَةِ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْبَصْرَةِ، وَحَشُوشُهَا ثَلَاثَةٌ: عُمَانُ، وَأَرْدَبِيلُ، وَهَيْتُ. وَسُمِّيَتْ دِمَشْقُ بِاسْمِ صَاحِبِهَا الَّذِي بَنَاهَا، وَهِيَ إِرْمُ ذَاتِ الْعِمَادِ.

وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ: مَدِينَةُ دِمَشْقُ جَلِيلَةٌ الْقَدِيمَةُ، وَهِيَ مَدِينَةُ الشَّامِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، وَلَيْسَ لَهَا نَظِيرٌ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الشَّامِ فِي أَنْهَارِهَا وَبَسَاتِينِهَا، وَبَلَاتِينِهَا وَكَثْرَةِ عِمَارَتِهَا. وَافْتَتِحَتْ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَنَةَ أَرْبَعٍ عَشْرَةَ.

وَقَالَ شَيْخُنَا ابْنُ جَبْرِ: مَدِينَةُ دِمَشْقُ هِيَ جَنَّةُ الْمَشْرِقِ، وَمَطْلَعُ حَسَنَةِ الْمُونِقِ، وَعُرُوسُ الْمَدَنِ. قَدْ تَحَلَّتْ بِأَزَاهِيرِ الرِّيَاحِينَ، وَتَجَلَّتْ فِي حُلُلِ سِنْدَسِيَّةٍ مِنَ الْبَسَاتِينِ، وَحَلَّتْ مِنْ مَوْضِعِ الْحَسَنِ بِمَكَانٍ مَكِينٍ، وَتَجَلَّتْ فِي مَنْصَتِهَا بِأَجْنَلِ تَبْرِيسَ، وَتَشَوَّفَتْ بِلَانَ

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي الْمُسْنَدِ بَابِ ٨.

آوى الله المسيح وأمه منها إلى ربوة ذات قرار ومعين. ظلٌ ظليل، وماء سلسبيل، ينساب انسياب الأرقام بكل سبيل، ورياض تُخفي النفوس بنسيمها العليل، تبرز لناظرها بمجتنى صقيل، وتناديهم: ألا هلموا إلى معرّس للحسن ومقيل، وقد سثمت أرضها كثرة المياه حتى اشتاقت إلى الظما، فتكاد تناديك بها الصمّ الصلاب: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]. قد أهدت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الأكمام للزهر، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر، فكل موقع لحظته بجهاتها الأربع، نصرته اليانة قيد النظر، ولقد صدق القائلون عنها: إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك منها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تُسامتها وتحاذيها.

وقال فيها البحرّي: [البسيط]

إذا أُرِدْتُ مَلَأْتُ الطَّرْفَ مِنْ بَلَدٍ	مستحسن، وزمان يُشْبِهُ الْبَلَدَا ^(١)
يُمَسِّي السَّحَابَ عَلَى أَجْبَالِهَا فِرْقًا	وَيُضْبِحُ النَّبْتُ فِي صَحْرَائِهَا بَدَا
فَلَسْتُ تُبْصِرُ إِلَّا وَاكِفًا خَضَلًا	أَوْ يَانَعًا خَضِرًا، أَوْ طَائِرًا غَرْدَا
كَأَنَّمَا الْقَيْظُ وَلَّى بَعْدَ وَقْدَتِهِ	أَوْ الرَّبِيعُ دَنَا مِنْ بَعْدِ مَا بَعْدَا

* * *

قوله: «جُرْد»، أي خيل قصيرة شعر الجسد. جِدَّة: غنى. مغبوبة: محسودة، أراد مغبوط عليها مالُكها، فقلب. يُلْهِيَنِي: يدعوني إلى اللهو. حُلُوُ الدَّرْع: فراغ البال والصدر من الهم، يزدهيني: يحملني على الزهو. حُقُولُ الضَّرْع: كثرة المال، والضَّرْع للبقرة والشاة بمنزلة الثدي للمرأة، وحُقُوله: امتلاؤه باللبن. شَقٌّ: مشقة. إنصاء: إهزال. والعنس: الناقة القوية. أَلْفَيْتُهَا: وجدتها التوى: البعد والانتقال من بلدٍ إلى بلد، وأراد أنه شكر سفره. ويد التوى: النعمة التي أنعم بها عليه، بأن أوصله إلى الغوطة. الهوى: ما تَهَوَّاه النفس وتشتهيه. طفقت: أخذت. أفضّ: أكسر. ختوم: ربوط؛ يريد أن شهوته التي كانت قد شُدَّت ورُبِطت أخذ يكسر ختومها ويسرحها في المأكَل والمشارب واللذات. أجتني: أجمع. جناة قطوف: ما يجنى من الثمار، وجعله للذات اتساعاً. شَرَعَ: أخذ وابتدأ. من شرعت الذابة في الماء، إذا دخلته لتشرب سَفَرَ: مسافرون، الإغراق: المشي إلى العراق، أشفقت: خَفَّت الإغراق: الفقر من أجل الزاد والمأكَل، وكأنه غرق في ذلك، فهو يرجع إلى الفرق والإغراق: المبالغة في الشيء، يقال: أغرق الرجل في القول والرمي بالقوس، إذا بالغ فيهما.

عادني: زارني. عيد: شوق، وكل ما تذكرته واشتقت إليه فهو عيد، كأنه عاد إلى قلبه بعد نسيانه، ونقل لفظ الشاعر: [الخفيف]

عاد قلبي من الطويلة عيداً واعترايني من حُبِّها تَسْهيداً^(١)
ابن الأنباري، العيد هنا: الوقت الذي يعود فيه الحزن والشوق، وقال تأبط شراً:
[البسيط]

يا عيد ما لك من شوق وإِراقٍ ومَرَّ طيفٍ على الأهوال طَرَاقٍ
العيد: ما يعتاد من الحزن والشوق، ومعنى «يا لك من شوق»: ما أعظمك من
شوق. الحنين: الشوق. العَطَن: مبارك الإبل حول الماء، وأراد به بلده. قَوَّضت:
هدمت. خيام: بيوت. الأوبة: الرجوع، وأراد قطعت أسباب الإقامة.

وَلَمَّا تَاهَبَتِ الرِّفَاقُ، وَاسْتَتَبَّ الِاتِّفَاقُ، أَلْحَنَّا مِنَ الْمَسِيرِ، دُونَ اسْتِضْحَابِ
الْخَفِيرِ، فَرُدْنَاهُ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ، وَأَعْمَلْنَا فِي تَخْصِيلِهِ أَلْفَ حِيلَةٍ، فَأَعْوَزَ وَجْدَانُهُ فِي
الْأَحْيَاءِ، حَتَّى خِلْنَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْأَحْيَاءِ، فَحَارَتْ لِعَوْزِهِ عُزُومُ السَّيَّارَةِ، وَانْتَدَوْا
بِبَابِ جَيْرُونٍ لِلِاسْتِخَارَةِ؛ فَمَا زَالُوا بَيْنَ عَقْدٍ وَحَلٍّ، وَشَزْرٍ وَسَخْلٍ، إِلَى أَنْ نَفِدَ
التَّاجِي، وَقَنَطَ الرَّاجِي.

وَكَانَ حِذَّتْهُمْ شَخْصٌ مِيسَمُهُ مِيسَمُ الشُّبَّانِ، وَلَبُوسُهُ لُبُوسُ الرُّهْبَانِ، وَبِيَدِهِ
سُبْحَةُ النَّسْوَانِ، وَفِي عَيْنَيْهِ تَرْجَمَةُ النَّسْوَانِ، وَقَدْ قَتِدَ لِحْظَهُ بِالْجَمْعِ، وَأَرْهَفَ أُذُنَهُ
لِاسْتِرَاقِ السَّمْعِ. فَلَمَّا أَتَى انْكِفَاؤُهُمْ، وَقَدْ بَرَحَ لَهُ خَفَاؤُهُمْ، قَالَ لَهُمْ: يَا قَوْمَ
لِيُفْرِخْ كَرْبُكُمْ، وَلِيَأْمَنْ سِرْبُكُمْ، فَسَآخَفُكُمْ بِمَا يَسْرُو رَوْعُكُمْ، وَيَبْدُو طَوْعُكُمْ.

استتب: نهياً وأقام. ألحنا: خفنا. الخفير: المجير، وهو الذي تمشي الرفاق في
ذمته، وتسميه العامة الغفير. ردناه: طلبناه. أعوز: عدم. الأحياء الأول: القبائل،
والثاني ضد الموتى. حالت: تغيرت. لعوزه: لفقده. عزوم: جمع عزم، وهو الجذ.
السيارة: الرفقة، وهي فعالة من السير. انتدوا: اجتمعوا.

[باب جيرون]

باب جيرون، من أبواب جامع دمشق، وجيرون هذا هو جيرون بن سعد بن عاد،
وهو الذي بنى دمشق، ونقل إليها الرُّخام، وسماها إرم، وعلى هذا نقلة الأخبار؛ وأنَّ

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (عود)، (طول)، وتاج العروس (عود)، وتهذيب اللغة ١٣٢/٣.

إرم ذات العماد هي دمشق، يقال: إنه كان فيها أربعمائة ألف عمود. وقد تقدّم أيضاً أن دمشق سمّيت باسم بانيها، وهو دماشق بن نمروذ بن كنعان، وقيل: بانيها دمشق بن عامر بن لَمَك بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

قال اليعقوبي: جامع دمشق ليس في الإسلام أحسن منه، بناه الوليد بن عبد الملك في خلافته بالرّخام والذهب سنة ثمان وثمانين، مفروش بالرّخام الأبيض المختم بالأزرق، وسقفه لا خشب فيه، مذهب كلّه، ومناثره ثلاث: واحدة في مؤخر المسجد، مذهب كلّها من أعلاها إلى أسفلها.

وذكر شيخنا ابن جبير في وصف هذا الجامع ووصف دمشق غرائب لا يتسع لها هذا الكتاب، فلنلّم هنا ببعض ما وصف في هذا الجامع؛ لنفّي بشرطنا. قال: هذا الجامع من أشهر جوامع الإسلام حسناً وإتقان بناء، وغرابة صنعة، واحتفال تنميق وتزيين، ومن عجيب شأنه أنه لا يَلْمُ به نسج العنكبوت، ولا تَلْمُ به الطير المعروفة بالخطاف، انتدب لبنائه الوليد، ووجه إلى ملك الروم بالقسطنطينية يأمره بأشخاص اثني عشر ألف صانع من بلاده، وتقدّم إليه بالوعيد في ذلك إن توقّف [عنه]، فامثل أمره مدّعناً، وشرع في بنائه، وبلغت الغاية في التأنق فيه، وأُنزلت جدره كلها بفصوص الذهب المعروفة بالفُسَيْفَسَاء، وخلطت بها أنواع من الأصبغة الغريبة، قد مثلت أشجاراً، وفرّعت أغصاناً منظومة بالفصوص ببديع الصنعة المعجزة وصف كلّ واصف، فجاء يُغشي العيون وميضاً وبصيصاً. وبلغت النفقة فيه أحد عشر ألف دينار ومائتي ألف دينار.

وكان أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه صالح النصارى لما دخلها، بأن أخذ نصف الكنيسة الشرقي، فصيّره مسجداً، وبقي النصف الغربي للنصارى. فأخذه الوليد، وأدخله في الجامع بعد أن رغب إليهم أن يعرضهم عنه، فأبوا، فأخذه قهراً. وكانوا يزعمون أنّ مَنْ يهدم كنيستهم يُجَنّ، فبادر الوليد، وقال: أنا أول مَنْ يُجَنّ في الله، وبدأ الهدم بيده، فبادر المسلمون، فأكملوا هدمها. ثم أرضاهم عمر بن عبد العزيز في خلافته عن الكنيسة بمال عظيم.

وطول هذا الجامع من الغرب إلى الشرق: ذرعه مائتا خطوة، وهما ثلثمائة ذراع، وذرعه في السعة من القبلة إلى الشمال مائة وخمس وثلاثون خطوة، وهي مائتا ذراع، وتكسيه بالمرجع المغربي أربعة وعشرون مرجعاً، وهو تكسير مسجد النبي ﷺ؛ غير أنّ طوله من القبلة إلى الشمال، وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاث، مستطيلة من المشرق إلى المغرب، سعة كلّ بلاطة منها ثمان عشرة خطوة، وقامت البلاطات على ثمانية وستين عموداً، منها ثمانية أرجل تتخللها اثنتان مرخمة ملصقة بالجدار الذي يلي الصخرة، وأربع أرجل مرخمة أبدع ترخيم، مرصعة بفصوص من الرّخام ملوّنة، قد نظمت خواتيم، وصوّرت محاريب وأشكالاً غريبة قائمة في البلاط الأوسط، دور كلّ رجل منها اثنان

وسبعون شبراً، ويستدير بالصحن بلاط من ثلاث جهاته، سعتة عشر خطاً، وعدد قوائمه سبع وأربعون، منها أربع عشرة رجلاً، والباقي سوار، وسقف الجامع كله من خارج ألواح رصاص. وأعظم ما فيه قبة الرصاص المتصلة بالمحراب، وهي سامية في الهواء، عظيمة الاستدارة، وقد استقل بها هيكل عظيم، هو عماد لها يتصل من المحراب إلى الصحن والقبة، قد أغصت بالهواء، فإذا استقبلتها رأيت مرأى هائلاً، ومن أي جهة استقبلت البلد ترى القبة في الهواء، كأنها معلقة في الجوّ، وعدد شمسياتها الزجاجية المذهبة الملونة أربع وسبعون، فإذا قابلتها الشمس واتصل شعاعها بها انعكس الشعاع إلى كلّ لون منها، واتصل ذلك بالجدار القبلي، ويتصل بالأبصار منها أشعة ملونة هائلة لا تبلغ العبارة تصوّرها، ومحرابه من أعجب المحاريب الإسلامية حسناً وغرابة صنعة يتقد ذهاباً كلّها، وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجداره، تحفها سويريات مفتولات قتل الأسورة، فإنها مخروطة، بعضها أحمر، كأنها مرجان لم يُر شيء أجمل منها.

وفيه ثلاث مقاصير: مقصورة معاوية، وهي أول مقصورة وضعت في الإسلام، طولها أربعة وأربعون شبراً، وعرضها نصف الطول. ويلها بجهة الغرب المقصورة التي أحدثت عند زيادة الكنيسة فيه، وهي أكبر. والثالثة بالجانب الغربي، يجتمع الحنفية فيها للتدريس.

وله أربعة أبواب: باب قبلي يعرف بباب الزيادة، وباب شمالي يعرف بباب الناطفيين، وباب غربي يعرف بباب البريد، وباب شرقي يعرف بباب جيرون، وهو أعظمها.

وله وللغربي دهاليز متسعة يفضي كل دهليز منها إلى باب عظيم كانت كلها مداخل للكنيسة، فبقيت على حالها.

ثم ذكر في الصحن عجائب من الأبنية والقباب والصوامع الثلاث والمياه المدبرة فيه ما يطول وصفه واختصاره. قال: وهذا الصّحن من أجمل المناظر وأحسنها، وفيه مجتمع أهل البلد ومتفرّجهم ومتزّههم، كل عشية تراهم فيه ذاهبين وراجعين من باب جيرون إلى باب البريد، لا يزالون على هذه الحالة إلى انقضاء صلاة العشاء الأخيرة، منهم من يتحدث مع صاحبه، ومنهم من يقرأ، فهذا دأبهم أبداً بالعشي والغداة، وأكثر الاحتفال بالعشي، [فيخيّل لمبصر ذلك أنها ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم لما يرى من احتفال الناس واجتماعهم، لا يزالون على ذلك كل يوم]، وأهل البطالة يسمونهم الحرائين.

وللجامع أربع سقايات في كل جهة سقاية. وأعظمها سقاية باب جيرون.

وذكر أنّ حول باب جيرون من الأبنية الغربية ما يطول وصفه، وذكر باب جيرون فقال: يخرج من دهليزه إلى بلاط طويل عريض له خمسة أبواب مقووسة، لها ستة أعمدة

في جهة اليسار، منه مشهد كبير كان فيه رأس الحسين رضي الله عنه، قبل أن يُنقل إلى القاهرة، وبإزائه مسجد صغير لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وقد انتظمت أمام البلاط أدراج ينحدر عليها إلى الدهليز، وهي كالخندق العظيم تتصل إلى باب عظيم الارتفاع ينحسر الطرف دونه سموًا، قد حَفَّتْه أعمدة كالجدوع طولاً، وكالأطواد ضخامة، وبجانبَي الدهليز أعمدة قامت عليها شوارع مستديرة، فيها حَوَانِيت العطارين وغيرهم، وعليها شوارع مستطيلة فيها الحجر والبيوت للكرء مشرفة على الدهاليز، وفوقها سطح بيت فيه سُكَّان الحجر والبيوت، وفي وسط الدهليز حَوْض كبير مستدير من الرخام، عليه قبة تَقْلُها أعمدة من الرخام. وفي وسط الحوض أنبوب صُفْر يزجج الماء بقوة، فيرتفع في الهواء أزيد من القامة، وحوله أنابيب صغار ترمي الماء علوًا، فيخرج منها كقضبَان اللجين، فكأنها أغصان تلك الدوحة المائية، ومنظرها أبدع من أن يوصف، وعن يمين الخارج من باب جيرون في جدار البلاط الذي أمامه شبه غرفة، بها هيئة طاقٍ كبير مستدير، فيه طيقان من صفر وقد فَتَحَتْ أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار، ودبرت تدبيراً هندسياً، فعند انقضاء ساعة من النهار، تسقط صَنَجَتَان من صُفْر من فمي بازَيْن من صُفْر قائمين على طاستين من صفر مثقوبتين، فتبصر البازيين يمدَانِ أعناقهما للصنَجَتَيْن إلى الطَّاسَتَيْن، ويقذفانها بسرعة، بتدبير عجيب تتخيَّله الأوهام سحرًا، فعند وقوعهما يُسمع لهما دوي، فيعودان من الأثقاب إلى داخل الجدار إلى الغرفة، ويتعلَّق الباب تلك الساعة بلوْح أصفر، فلا يزال كذلك حتى تنقضي الساعات، فتغلق الأبواب كلها، ثم تعود إلى حَالَتِهَا الأولى. ولها بالليل تدبير آخر، وذلك أَنَّ في القوس المنعطف على الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخزَّمة، في كلِّ دائرة زجاجة. وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة، فإذا انقضت عمَّ الزَّجَاجَة ضوء المصباح، وأفاض على الدائرة شعاعاً، فلاحَت دائرة محمرة، ثم ينتقل إلى الأخرى، حتى تنقضي ساعات الليل، وقد وكلَّ بها مَنْ يدير شأنها، فيعيد فتح الأبواب، ويسرح الصَّنَج إلى موضعه وهي التي تسمى الميقات..

ثم ذكر في باب جيرون، وفي الجامع وفي خارج البلد عجائب ليست من شرطنا، وإنما ذكرنا منها ما دعت إليه الحاجة من ذكر باب جيرون.

قوله: «الاستخارة» أي طلب الخيرة، واستخرت الله: سألته أن يهب لي الخيرة. شُور: عقد. سَخَل: حلّ، وشزرت: الحبل شزراً شددت فتله، وسحلت النُّسج سَخلاً أفردت سُدها ولم تفتله. نفذ: تم وفرغ. التناجي: التحدُّث سِرّاً. قَنَط: يشس الراجي: الطامع. حِذَنهم: قريباً منهم، تقول: داري حِنوه وحذوته وحذته، أي حذاه. ميسمه: علامته. وأصل الميسم المؤسّم، لأنه من وسمت الشيء، فقلبت الواو ياء لسكونها وكسر ما قبلها. كبوسة: ثيابه. الزَّهْبَان: العباد. والترهُّب: ترك النساء. سُبْحَة: خيط ينظم فيه

خرز يعدّ به التسبيح، وكانت لأبي هريرة رضي الله عنه سُبُحة من النوى المجزّعة، وهو الذي حُكَّ حتى اختلف لونه. وفرغ من سبحته، أي من صلاته وما يتبعها من الذُكر. ترجمة: علامة. الثَّشوان: السَّكران. قَيَّدَ لحظه: ربط نظره، أي شخص فيهم. أرهف: أخذ. آن: حان وقرب، ويروى «ناء» مقلوب «آن». انكفاؤهم: انقلابهم ورجوعهم. برّح: انكشف. خفاؤهم: سرهم.

ليُفرِّخَ كركبكم: ليُزولَ ويسكن، ومثّل العرب: أفرخ رَوْعك، ومعناه: انجلى وانكشف كما ينكشف ما في البيضة إذا انشق عن القَرخ. وقيل: معنى أفرخ، ذهب. وقال الفارسيّ في التذكرة: معنى أفرخ رَوْعك: صار له فرخ، وإذا أفرخ الطائر طار، لأنه فارق الحِضْن، وهذا قول حسن.

وقال عروة بن مضرّس: أتيت النبي ﷺ بجمع قبل أن يصليّ الصبح، فقلت: يا رسول الله، طويت الجبلين، ولقيت شدة، فقال: «أفرخ رَوْعك، مَنْ أدرك إفاضتنا هذه فقد أدرك الحج»: وقال الأخطل يصف الثور والكلاب: [الكامل]

حتى إذا ما الثَّور أفرخ رَوْعَه وأفاق أقبل نحوها بتدْمُرٍ^(١)
أضماً وهزّ لهنّ رَوْقي رأسه إذ قد أتيح لهنّ موتٌ أحمرٌ

فقوله: «أفاق» بعد «أفرخ رَوْعَه» يدلّ على أنه أراد ذهب فزعه وزال ويتدّمّر، يحضّ نفسه على الإقدام، يقال: ذمرت إذا حضضته. وأضماً، أي غضبان، والموت الأحمر مذكور في المقامة بعد هذه. قوله: «كركبكم» أي همكم سركم، أي جمعكم، أي تأمنوا في نفوسكم. سأخبركم: سأجبركم. يَسْرُو: يكشف ويزيل. رَوْعكم: فزعكم. يبدو: يظهر. طوعكم: منقاداً لكم، وأراد سأجبركم بشيء يزيل عنكم الفزع، ويكون منقاداً لكم، وذلك الشيء هو الكلمات التي يأتي بها.

قال الراوي: فاستطلعنا منه طلع الخفارة، وأسنينا له الجعالة عن السفارة، فرعّم أنّها كلمات لقنّها في المنام، ليخترس بها من كيد الأنام، فجعل بعضنا يومض إلى بعض، ويُقلّب طرفيه بين لحظٍ وغَضٍّ، وتبين له أنّا استضعفنا الخبر، واستشعرنا الخور، فقال: ما بالكم اتخذتم جدّي عبثاً؛ وجعلتم تيري حَبثاً! ولطالما واللّه جُبْتُ مخاوف الأقطار، ولَجْتُ مقاحم الأخطار، فغنيّت بها عن مُصاحبة خفير، واستصحب خفير. ثمّ إنّي سأفني ما رابكم، وأستسلّ الحذر الذي

نَابِكُمْ، بَأْنَ أَوَافِقُكُمْ فِي الْبَدَاوَةِ، وَأَرَاْفِقُكُمْ فِي السَّمََاوَةِ، فَإِنْ صَدَقَكُمْ وَغَدِي،
فَأَجِدُوا سَعْدِي، وَأَسْعِدُوا جَدِّي. وَإِنْ كَذَبَكُمْ فَمِي، فَمَزُقُوا أَدْمِي، وَأَرِيقُوا دَمِي.
قال الحارث بن همام: فَأَلْهَمْنَا تَصْدِيقَ رُؤْيَاهُ، وَتَحْقِيقَ مَا رَوَاهُ، فَنَزَعْنَا عَنْ
مَجَادِلَتِهِ، وَاسْتَهَمْنَا عَلَى مُعَادِلَتِهِ، وَقَصَمْنَا بِقَوْلِهِ عُرَى الرِّبَاثِ، وَالْغَيْنَا اتِّقَاءَ الْعَابِثِ
وَالْعَائِثِ.

استطلعنا منه طُلُوعُ الْخَفَارَةِ، أَيِ اسْتَخْبَرْنَاهُ عَنْ خَبَرِ الْإِجَارَةِ، قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ:
مَعْنَى السُّفَارَةِ فِي كَلَامِهِمُ الْإِصْلَاحَ، وَالسَّفِيرَ: الْمَصْلَحَ.

قال الشاعر: [الوافر]

وَمَا أَدْعُ السُّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِي وَمَا أَمْشِي بِغَشٍّ إِنْ مَشَيْتُ

وَأَسْنِينَا لَهُ الْجِعَالَةُ عَنِ السُّفَارَةِ، أَيِ كَثَرْنَا لَهُ الْعَطَاءَ لِيَدُلَّنَا عَلَى الْمَجِيرِ، وَأَنْ يَكُونَ
رَسُولاً بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ. وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ السُّفَارَةُ فِعَالَةً، مِنْ لَفْظِ السَّفِيرِ، فَيَكُونُ اسْمًا لِلْجِرْفَةِ
كَالنَّجَارَةِ وَالْخِيَاطَةِ. لُقْنَهَا: حَفَظَهَا. لِيَحْتَرَسَ، لِيَمْتَنِعَ يَوْمَضٍ: يَشِيرُ. لَحَظَ: نَظَرَ بِطَرَفِ
عَيْنِهِ. غَضَضَ: كَسَرَ النَّظَرَ؛ أَيِ جَعَلُوا يَتَغَامَزُونَ عَلَيْهِ اسْتِضْعَافًا لَخَبْرِهِ. اسْتَشْعَرْنَا الْخَوْرَ،
أَيِ ظَهَرَ عَلَيْنَا الْفَزَعُ وَالضَّعْفُ مِنْ كَلَامِهِ. الْعَبَثُ: اللَّعِبُ. تَبَرِّي: ذَهَبِي، وَالتَّبِيرُ: كُلُّ مَا
لَمْ يَصْنَعْ مِنَ الْجَوَاهِرِ مِنْ نُحَاسٍ وَغَيْرِهِ. حَبَثًا: فَاسِدًا. جُبْتُ: قَطَعْتُ. مَخَافُ: مَوَاضِعُ
الْخَوْفِ الْأَقْطَارُ: نَوَاحِي الْأَرْضِ. وَلَجْتُ: دَخَلْتُ. مَقَاحِمُ: مَهَالِكُ، وَالْفُخْمَةُ الْأَمْرُ
الْعَظِيمُ لَا يَرْكَبُهُ أَحَدٌ لَهْوَلِهِ. الْأَخْطَارُ: جَمْعُ خَطَرٍ، وَهُوَ الْغَرَرُ. جَفِيرُ: جُعبَةُ السَّهَامِ.
رَابِكُمْ: شَكَّكُمْ، أَسْتَسِيلُ: أَزِيلُ. الْحَذَرُ: الْخَوْفُ. نَابِكُمْ: قَصَدَكُمْ. أَوَافِقُكُمْ:
أَسَاعِدُكُمْ وَأَمْشِي مَعَكُمْ مَصَاحِبًا لَكُمْ. أَرَاْفِقُكُمْ: أَسَافِرُ مَعَكُمْ، وَالرَّفِيقُ: الصَّاحِبُ فِي
السَّفَرِ. السَّمََاوَةُ: مَفَازَةٌ بَيْنَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ، وَسَمَاوَةٌ كُلُّ شَيْءٍ شَخْصِهِ، وَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ
السَّمََاوَةُ لِأَنَّهَا مَنَازِلُ ثُمُودَ، وَفِيهَا إِلَى الْآنَ أَشْخَاصُ مَنَازِلِهِمْ وَأَثَارُهُمْ. أَجْدَوْهُ: رَدَوْهُ ذَا
جَدٍّ، وَهُوَ السَّعْدُ وَالْحِظُّ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ يَقُولُ: إِنْ كَانَ سَعْدِي قَلِيلًا فَأَجْدَوْهُ، أَيِ كَثُرُوا
حِظَّهُ بِعَظِيمَتِكُمْ حَتَّى يَعُودَ صَاحِبُهُ كَثِيرَ السَّعْدِ، وَكَذَلِكَ يَقْدَرُ: أَسْعِدُوا جَدِّي، فَيُرِيدُ: إِنْ
صَدَقْتَكُمْ وَعَدِي، وَسَلَمْتُمْ، فَهَبُوا لِي مِنْ أَمْوَالِكُمْ مَا يَتَقَوَّى بِهِ سَعْدِي الضَّعِيفُ، وَيَكْثُرُ
حِظِّي الْقَلِيلُ. وَيَقَالُ أَيْضًا: أَجَدَّ الشَّيْءُ إِذَا صَبَّرَهُ جَدِيدًا. مَزُقُوا: قَطَعُوا. أَدْمِي: جِلْدِي.
أَرِيقُوا: صَبَّوْا.

أَلْهَمْنَا، أَيِ أَلْقَى فِي قُلُوبِنَا. نَزَعْنَا: أَقْلَعْنَا. مُجَادَلَتُهُ: مَخَالَفَتُهُ. اسْتَهَمْنَا: ضَرْبْنَا
السَّهَامَ وَتَخَاطَرْنَا عَلَى مَنْ يَرْكَبُ مَعَهُ رَفِيقًا. وَمُعَادِلَتُهُ: الرُّكُوبُ مَعَهُ فِي الْمَحْمَلِ، وَهُوَ أَنْ
يَرْكَبُ هَذَا فِي الْأَيْمَنِ، وَهَذَا فِي الْأَيْسَرِ، مَأْخُودَةً مِنَ الْعِذْلِ.

ونذكر هنا حكاية مضحكة تزيد المعادلة بياناً، كان المعتصم يأنس بعلي بن الجنيّد الإسكاف، وكان عجيب الصورة والحديث، فقال المعتصم لابن حماد: اذهب إلى ابن الجنيّد، وقل له: يتهياً ليزاملني، فأناه فقال له: تهباً لمزاملة أمير المؤمنين، فإنّ مزاملة الخلفاء كبيرة، فقال: كيف أتهباً لها؟ أصيب رأساً غير رأسي! أشتري لحية غير لحيتي! قال ابن حماد: شروطها الامتناع عن الحديث والمذاكرة والمنادمة، وألاً تبصق ولا تسعل ولا تمخط ولا تتنحج، وأن تتقدّم في الركوب إشفاقاً عليه من الميل، وأن يتقدّمك في النزول، فمتى لم يفعل هذا المعادل كان ومثقلة الرصاص التي تعدل بها القبة واحداً، فقال لابن حماد: اذهب قل له ما يراملك إلا من أمه زانية. فرجع إلى المعتصم وأعلمه، فضحك وقال: عليّ به، فلما جاء قال: يا عليّ، أبعث إليك أن تزاملني فلا تفعل! فقال له: إن رسولك هذا الأرعن جاءني بشروط حسّان السامي وخالويه الحاكمي، فقال: لا تبصق ولا تعطس، وجعل يقرقع بصاداته، وهذا لا أقدر عليه؛ فإنّ رضيت أن أزاملك، فإذا جاءني الفسّاء والضراط فسوت وضرطت، وإلا فليس بيني وبينك عمل. فضحك المعتصم حتى فحص برجليه، وقال: نعم زاملني على هذه الشروط، فسار ساعة فلمّا توسط البرّ، قال: يا أمير المؤمنين، قد حضر ذلك المتسامح، قال: ذلك إليك، قال: يحضر ابن حماد، فحضر، فناوله كمّه، وقال أجد في كمّي ديبب شيء، فانظر ما هو، فأدخل رأسه فشَم رائحة الكنيف، فقال: ما أرى شيئاً، ولكني أعلم أن في جوف ثيابك كنيفاً، والضّحك قد ذهب بالمعتصم كلّ مذهب، وابن الجنيّد يفسو فسّاء متّصلاً، ويقول لابن حماد: قلت: لي: لا تسعل أو لا تمخط، فخرّيت عليك، ثم قال: قد نصّجت القدر، وأريد أخرى، فأخرج المعتصم رأسه من العماريّة حين كثر عليه الضحك، وصاح: ويلك يا غلام، الأرض: الساعة أموت!

قوله: «فصمنا»، أي قطعنا وحللنا والعرا: عيون من شريط أو غيره يُشدّ بها فم الخُزج أو العذل، واحدها عروة. والزبائث: العلّق، واحدها ربيّة، وهو ما يثبّت الإنسان ويحبسه عن أمر يريده، وقد ربّثك عن الأمر ربّثاً، وتربّثت أنا تربّثاً، إذا تثبّطت. ألعينا: أطرّخنا. اتقاء: خوف. العابث: الذي يعبث بأموالهم من أهل الشر فيفسدها، والعاث: المفسد، ويقال: عبّث بفتح الباء عبّثاً: وبكسرهما عبثاً: لعب واستخف، وعاث عبثاً: أفسد.

ولمّا عكمت الرّحال، وأزف التّرحال، استنزلنا كليمات الرّاقية، لنجعلها الواقية الباقية، فقال: ليقرأ كلّ منكم أم القرآن، كلّما أظّل الملوّن. ثم ليقلّ بلسان خاضع، وصوت خاشع: اللّهُمّ يا مِحييّ الرّفات، ويا دافع الآفات، ويا وافي المخافات، ويا كريم المكافاة، ويا مؤلّ العفّاة، ويا وليّ العفو والمعافة، صلّ

عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ أَنْبِيَائِكَ، وَمُبْلَغِ أَنْبِيَائِكَ، وَعَلَى مَصَابِيحِ أَسْرَتِهِ، وَمَفَاتِيحِ نُصْرَتِهِ،
وَأَعْذَنِي مِنْ نَزَعَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَنَزَوَاتِ السُّلَاطِينِ، وَإِغْنَاتِ الْبَاغِينَ، وَمَعَانَاةِ
الطَّاعِينَ، وَعُدْوَانِ الْمَعَادِينَ، وَغَلَبِ الْغَالِبِينَ، وَسَلْبِ السَّالِبِينَ، وَحِيلِ الْمُحْتَالِينَ،
وَعِجْلِ الْمُغْتَالِينَ، وَأَجْزَنِ اللَّهِ مِنْ جَوْرِ الْمَجَاوِرِينَ، وَمُجَاوَرَةِ الْجَائِرِينَ، وَسَطَوَةِ
الْجَبَّارِينَ، وَكُفِّ عَنِّي أَكْفَ الضَّائِمِينَ، وَأَخْرِجْنِي مِنْ ظُلُمَاتِ الظَّالِمِينَ، وَأَدْخِلْنِي
بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ.

عُكِمَتِ الرِّحَالُ، أَي شَدَّتِ الْأَحْمَالُ بِالْعِكَامِ، وَالْعِكَامُ مَا يَشُدُّ بِهِ فَمِ الْعِكْمُ وَهُوَ
الْعِذْلُ. وَقِيلَ: إِنَّ أَصْلَ الْعِكَامِ كِمَامَةٍ تَرْبِطُ عَلَى فَمِ الْبَعِيرِ، وَمِثْلُهُ اللَّجَامُ، يُسْتَعَارُ لِمَا
يَشُدُّ بِهِ الْمَتَاعُ وَيُقَالُ: عَكِمْتَ الْمَتَاعَ عِكْمًا شَدَّدْتَهُ فِي الْعِكْمِ، أَوْ شَدَّدْتَهُ بِالْعِكَامِ،
وَعَكِمْتَ الْبَعِيرَ شَدَّدْتَ عَلَيْهِ الْعِكْمَ، أَوْ رَبَطْتَ الْعِكَامَ عَلَى فَمِهِ، وَأَعَكِمْتَكَ أَعْنَتَكَ.
أَرْف: دَنَا وَقُرْبٌ. اسْتَنْزَلْنَا: طَلَبْنَا مِنْهُ أَنْزَالَهَا، أَي تَلَفَّفْنَا بِهِ لِيَذْكُرَهَا الرَّاقِيَةُ: الرَفِيعَةُ، مِنْ
رَقِيٍّ فِي الدَّرَجَةِ، أَوْ الْمَعْوِذَةُ لَنَا، مِنْ رَقِيَّتِ الْمَرِيضِ، وَهُوَ أَشْبَهُ لِمَوَافَقَتِهَا لِمَعْنَى الْوَاقِيَةِ،
وَهِيَ الْكَافِيَةُ، لِمَا يَخَافُ مِنَ الشَّرِّ، أَظْلَمَ الْأَمْرُ: قَرُبَ وَدَنَا وَكَأَنَّهُ أَلْقَى عَلَيْكَ ظِلَّهُ.
الْمَلُوانُ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالْخَاضِعُ: الذَّلِيلُ، وَخَضَعَ خُضُوعًا: أَقَرَّ بِالذَّلِّ. وَالْخَاشِعُ:
الْمُتَوَاضِعُ، وَخَشَعَ خُشُوعًا: خَفَضَ صَوْتَهُ، وَرَمَى بِبَصَرِهِ إِلَى الْأَرْضِ، وَالْخُضُوعُ قَرِيبٌ
مِنْهُ، إِلَّا أَنَّ أَكْثَرَ مَا يَسْتَعْمَلُ الْخُشُوعُ فِي الصَّوْتِ وَالْخُضُوعُ فِي الْأَعْنَاقِ. الرُّفَاتُ: الْعِظَامُ
الْبَالِيَةُ الْآفَاتُ: الْمَضَرَّاتُ. الْمَكْفَاةُ: الْمَجَازَاةُ. مَوْتَلٌ: مَلْجَأٌ. الْعَفَاةُ: جَمْعُ عَافٍ، وَهُوَ
سَائِلُ الْعَفْوِ وَلِيَّ الْعَفْوِ: صَاحِبُ الْمَنْفَعَةِ. وَالْمَعَاةُ: الْمَبَاعِدَةُ مِنَ الضَّرَرِ، وَقَدْ عَافَاهُ مِمَّا
يَكْرَهُ وَأَعْفَاهُ. أَنْبَائِكَ: أَخْبَارُكَ، وَالنَّبَأُ الْخَبِيرُ. أَسْرَتِهِ: رَهْطُهُ، وَأَرَادَ بِالصَّابِيحِ
الْمَهَاجِرِينَ، وَبِالْمَفَاتِيحِ الْأَنْصَارَ. أَعْذَنِي: أَجْرَنِي التَّزَعَاتُ: الْإِفْسَادُ، نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنَ
الْقَوْمِ، أَي أَفْسَدَ ذَاتَ بَيْنِهِمْ، وَالشَّيْطَانُ: الْبَعِيدُ مِنَ الْخَيْرِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: دَارُ شَطُونٍ، أَي
بَعِيدَةٌ، وَنَوَى شَطُونٌ.

قال النابغة: [الوافر]

* نَأْتُ بَسُوعَادَ عَنكَ نَوَى شَطُونٌ * (١)

(١) عجزه:

فبانت زلفها رهيبي

والبيت للنابغة الذبياني ص ٢١٨، ولسان العرب (شطن)، ومقاييس اللغة ٣/ ١٨٤، ولزياد بن مغوية
في تاج العروس (نبح)، وبلا نسبة في مجمل اللغة ٣/ ١٥٦.

وقال نابغة بني شيبان: [الوافر]

فَأُضْحِتْ بِغَدَمَا وَصَلْتُ بَدَارِ شَطُونٍ لَا تُعَادُ وَلَا تُعَوِّدُ

نَزَوَات: وثوب، وقد نزا نزواً ونزواً، إذا وثب، ونزا على الشيء، ارتفع. إعنات: مشقة. الباغين: المتعدين، وقد بغى عليه بغياً: تعدى عليه. معانة: معالجة ومقاساة. الطاغين: المسرفين في الظلم والمعاصي، والعادين: المتجاوزين الحد في الظلم. غِيل: جمع غيلة، وهي الهلاك. والمغتال: المهلك أجزني: أمني. سطوة: بطش وتهديد. الضائمين: المذلين.

اللَّهُمَّ حُطِنِي فِي ثَرْبَتِي، وَغُرْبَتِي وَغَيْبَتِي، وَأَوْبَتِي وَنَجْعَتِي، وَرَجْعَتِي، وَتَصَرُّفِي وَمُنْصَرَفِي، وَتَقْلَبِي وَمُنْقَلَبِي. وَاحْفَظْنِي فِي نَفْسِي، وَنَفَائِسِي، وَعِرْضِي وَعَرَضِي، وَعَدْدِي وَعُدْدِي، وَسَكْنِي وَمَسْكْنِي، وَحَوْلِي وَحَالِي، وَمَالِي وَمَالِي، وَلَا تُلْحِقْ بِي تَغْيِيرًا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ مُغْيِيرًا، وَاجْعَلْ لِي مِنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا، اللَّهُمَّ اخْرُسْنِي بِعَيْنِكَ وَعَوْنِكَ، وَاخْصُصْنِي بِأَمْنِكَ وَمَنْكَ، وَتَوَلَّنِي بِاخْتِيَارِكَ وَخَيْرِكَ. وَلَا تَكِلْنِي إِلَى كَلَاءَةٍ غَيْرِكَ، وَهَبْ لِي عَافِيَةً غَيْرَ عَافِيَةٍ، وَارْزُقْنِي رِفَاهِيَّةً غَيْرَ وَاهِيَةٍ. وَاكْفِنِي مَخَاشِي الْأَوَاءِ، وَاكْنُفْنِي بِغَوَاشِي الْأَلَاءِ، وَلَا تُظْفِرْ بِي الْأَعْدَاءَ، إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ.

قوله: «اللهم حطني في تربتي»، أي احفظني في بلدي. أوبتي: رجعتي. نجعتي: سفري في طلب الرزق. نفائسي: كرائم مالي. عرضي: نفسي وعرضي: مالي. عددي: أهلي. عددي: آلاتي، وما أستعده. سكني: أهلي. حولي: قوتي. حالي: بالي. مالي: مرجعي. منك: إحسانك. تولني: كن لي ولياً. تكلني: تخوطني. كلاءة: حراسة. وعافية: عيش سالم من الآفات.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: ذكر رسول الله ﷺ البلاء وما أعد الله لصاحبه من الثواب إذا صبر، وذكر العافية وما أعد الله لصاحبها من الثواب إذا شكر، فقلت: يا رسول الله، أعافى فأشكر، أحب إلي من أن أبتلى فأصبر، فقال رسول الله ﷺ: نحب معك العافية. غير عافية، أي غير دراسة. رفاهية: غنى متسع. واهية: ناقصة ضعيفة. مخاشي: ما يخشى ويخاف. الأواء: الشدة. اكنفي: استرني. غواشي: أي ما يتغشى به، أي يتغطى. الألاء: النعم.

ثُمَّ أَطْرَقَ لَا يُدِيرُ لِحْطَاءً، وَلَا يُحِيرُ لَفْظًا، حَتَّى قُلْنَا: قَدْ أَبْلَسَتْهُ خَشْيَةٌ، أَوْ آخَرَسَتْهُ غَشْيَةٌ. ثُمَّ أَقْنَعَ رَأْسَهُ، وَصَعَدَ أَنْفَاسُهُ وَقَالَ:

أَقْسِمُ بِالسَّمَاءِ ذَاتِ الْأَبْرَاجِ، وَالْأَرْضِ ذَاتِ الْفِجَاجِ، وَالْمَاءِ الثَّجَاجِ، وَالسَّرَاجِ
الْوَهَّاجِ، وَالْبَحْرِ الْفَجَّاجِ، وَالْهَوَاءِ الْعَجَّاجِ، إِنَّهَا لِمَنْ أَيْمَنَ الْعَوْدَ، وَأَغْنَى عَنْكُمْ
مِنْ لَابِسي الْخَوْذِ، مَنْ دَرَسَهَا عِنْدَ ابْتِسَامِ الْفَلَقِ، لَمْ يُشْفِقْ مِنْ خُطْبِ إِلَى الشَّفَقِ،
وَمَنْ نَاجَى بِهَا طَلِيعَةَ الْغَسَقِ، أَمِنَ لَيْلَتُهُ مِنَ السَّرَقِ.
قال: فَتَلَقَّيْنَاهَا حَتَّى أَتَقَنَّاهَا، وَتَدَارَسْنَاهَا، لَكَيْلًا لَا نَنْسَاهَا.

أَطْرَقَ، أَي نَظَرَ إِلَى الْأَرْضِ سَاكِنًا، وَقَدْ فَسَّرَ قَوْلَهُ: «أَطْرَقَ» بِقَوْلِهِ: «لَا يَدِيرُ
لِحِظًا، وَلَا يُجِيرُ لِفِظًا»، فَيَدِيرُ لِحِظًا يُجِيلُ نَظَرَهُ فِي الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ، وَيُجِيرُ لِفِظًا: يَرُدُّ
كَلَامًا، وَالْغَشِيَّةُ: أَنْ يُغَشَى عَلَى عَقْلِهِ. أَقْنَعَ: رَفَعَ. صَعِدَ: جَعَلَهَا تَصْعَدُ، أَي تَرْتَفِعُ.
الأَبْرَاجِ، أَي مَنَازِلِ الْقَمَرِ. الْفِجَاجِ، أَي الْمَسَالِكِ، وَاحِدُهَا: فِجٌّ، وَالْفَجُّ الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ
فِي الْجَبَلِ، وَقِيلَ: هُوَ الْمَتَسِعُ بَيْنَ مَرْتَفِعَيْنِ، وَقِيلَ: هُوَ الْفَتْحُ بَيْنَ الشَّيْثَيْنِ: الثَّجَاجِ:
السَّيَالُ الْكَثِيرُ الصَّبِّ. السَّرَاجِ: الشَّمْسُ. الْوَهَّاجِ: الْوَقَادُ الْمَتَلَأِلُ، وَهُوَ مِنْ وَهَجِ النَّارِ،
وَهُوَ اتِّقَادُهَا وَخَرُّهَا، الْعَجَّاجِ: الْمَصَوِّتُ لاضْطِرَابِ أَمْوَاجِهِ. الْهَوَاءُ: مَا بَيْنَ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ. وَالْعَجَّاجِ: الْغُبَارُ. وَالْعَوْدُ: الرَّقَى. أَغْنَى: أَجْزَأَ وَأَكْفَى، وَالْغِنَى الْكَفَايَةُ،
وَأَغْنَى فَلَانٌ مَغْنَى فَلَانٌ، أَي كَفَاهُ الْحُضُورُ وَقَامَ مَقَامَهُ. وَالْحَوْذُ، بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ الدَّزَعُ،
وَيَنْقُطُ الْحَاءُ بِيضِ السَّلَاحِ. ابْتِسَامُ الْفَلَقِ: ظُهُورُ الْفَجْرِ. يَشْفِقُ: يَخَافُ. خُطْبُ: أَمْرٌ
شَدِيدٌ. الشَّفَقُ: الْحَمْرَةُ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ. نَاجَى: تَكَلَّمَ بِهَا سِرًّا، طَلِيعَةُ الْغَسَقِ، أَوَّلُ
طُلُوعِ الظَّلَامِ. تَلَقَّيْنَاهَا، أَي فَهَمْنَاهَا. أَتَقَنَّاهَا: أَخَكَمْنَاهَا. تَدَارَسْنَاهَا، الدَّرْسُ فِي كَلَامِهِمْ
الرِّيَاضَةُ وَالتَّذَلُّيلُ، وَطَرِيقُ مَدْرُوسٍ: كَثُرَ مَشَى النَّاسِ فِيهِ، فَذَلَّلُوهُ وَأَثَرُوا فِيهِ، فَمَعْنَى
دَرَسَ الْقُرْآنَ أَوْ الدِّعَاءَ، ذَلَّلَ لِسَانَهُ وَرَاضَهُ.

[بعض الأدعية الماثورة]

ونصل هذا الدعاء الذي ذكر أنه مستجاب وصدق إذا صحب الدعاء به الإخلاص،
والتضرع بأدعية ينتفع بها إن شاء الله تعالى.

كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً قال: «اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة
في الحضر. اللهم إني أعوذ بك من وُعْثاء السفر، وكآبة المنقلب، ومن الحور بعد
الكور، ومن سوء المنظر في الأهل والمال والولد»^(١).

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه مسلم في الحج حديث ٤٢٥، ٤٢٦، وأبو داود في الجهاد باب ٧٢، والترمذي في الدعوات باب ٤١، والنسائي في الاستعاذة باب ٤١، ٤٣، وابن ماجه في الدعاء باب ٢٠، والدارمي في الاستئذان باب ٤٢، ومالك في الاستئذان حديث ٣٤، وأحمد في المسند ٢٥٦/١، ٣٠٠، ١٥٠/٢، ٤٣٣، ٤٠١، ٨٢/٥، ٨٣.

وقالت أم سلمة رضي الله عنها: مَنْ خرج في طاعة الله تعالى فقال: اللهم إني لم أخرج أشيراً ولا بطراً، ولا رياء، ولا سمعة، ولكني خرجت ابتغاء مرضاتك، واتقاء سخطك، فأسألك بحقك على جميع خلقك أن ترزقني من الخير أكثر مما أرجو، وتصرف عني من الشر أكثر مما أخاف. . استجيب له بإذن الله تعالى^(١).

وقالوا: كلمات الفرج عند الكرب: لا إله إلا الله الحليم الكريم، وسبحان الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين.

قال جعفر بن محمد لسفيان الثوري: إذا كثرت همومك فأكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ وإذا درت عليك النعم فأكثر من الحمد لله العالمين، وإذا أبطأ عليك الرزق فأكثر من الاستغفار.

ومن قال في ليل أو نهار: اللهم ربّي لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، أعلم أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها. إن ربي على صراط مستقيم. . . لم يضره شيء.

ومن قال: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم؛ ليلاً أو نهاراً أمن مما يخاف.

ومن قال: سبحان الله وبحمده، ولا حول ولا قوة إلا بالله ثلاث مرات بعد صلاة الصبح أمن من كل غم وجذام وبرص وفالج.

ومن قال: باسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ما شاء الله كل نعمة من الله، ما شاء الله الخير كله بيد الله، ما شاء الله لا يضر السوء إلا الله، من قالها إذا أصبح أمن من الحرق والعرق.

ومن دخل على سلطان يخاف سطوته فقال: الله أعز وأكبر مما أخاف وأحذر، اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم. كن لي جاراً من عبدك فلان، وجوره وأشياعه وأتباعه. تبارك اسمك وجل ثناؤك. وعز جارك. ولا إله غيرك ثلاث مرات أمن من شره.

وقال المنصور للربيع: عليّ جعفر، قتلتني الله إن لم أقتله! فلما مثل بين يديه حرك شفتيه، ثم قوب وسلم فقال: لا سلم الله عليك يا عدو الله، تعمل عليّ الغوائل في ملكي قتلتني الله إن لم أقتلك! فقال: يا أمير المؤمنين إن سليمان أعطى فشكر، وإن أيوب ابتلى فصبر، وإن يوسف ظلم فغفر، عليهم السلام. وأنت على أثر منهم، وأحق من تأسى بهم. فنكس المنصور رأسه ملياً ثم رفع رأسه. وقال: إني أبا عبد الله، فأنت القريب

(١) أخرجه ابن ماجه في المساجد باب ١٤، وأحمد في المسند ٢١/٣.

الْقَرَابَةِ، وَأَنْتَ ذُو الرَّحْمِ الْوَاشِحَةِ. وَالسَّلِيمِ النَّاحِيَةِ، وَالْقَلِيلِ الْغَائِلَةِ. ثُمَّ صَافَحَهُ بِيَمِينِهِ، وَعَانَقَهُ بِشِمَالِهِ، وَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى فِرَاشِهِ، وَأَقْبَلَ يَسَائِلُهُ وَيَحَادِثُهُ، ثُمَّ قَالَ: عَجَّلُوا لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ إِذَنْهُ وَجَائِزَتَهُ وَكَسَوْتَهُ. فَلَمَّا خَرَجَ أَمْسَكَهُ الرَّبِيعُ وَقَالَ لَهُ: رَأَيْتَكَ قَدْ حَرَكْتَ شَفَتَيْكَ فَانْجَلَى الْأَمْرُ، وَأَنَا خَادِمُ السُّلْطَانِ، وَلَا غَتَى لِي عَنْهُ، فَعَلَّمَنِي إِيَّاهُ، فَقَالَ: نَعَمْ، قُلْتُ: اللَّهُمَّ احْرُسْنِي بَعِينِكَ الَّتِي لَا تَنَامُ، وَاكْنُفْنِي بِحِفْظِكَ الَّذِي لَا يَرَامُ، لَا أَهْلِكَ وَأَنْتَ رَجَائِي، فَكَمْ مِنْ نِعْمَةٍ أَنْعَمْتَهَا عَلَيَّ قُلٌّ عِنْدَهَا شُكْرِي فَلَمْ تَحْرَمْنِي، وَكَمْ مِنْ بَلِيَّةٍ ابْتَلَيْتَ بِهَا قُلٌّ عِنْدَهَا صَبْرِي فَلَمْ تَخْذَلْنِي. اللَّهُمَّ بِكَ أَدْرَأُ فِي نَحْرِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ.

وَمِنْ قَالَ إِذَا سَمِعَ الْمُؤَذِّنَ: رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا، غَفَرْتَ لَهُ ذُنُوبَهُ.

وَمِنْ دَعَاءِ الْأَعْرَابِ: قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا مِنْ قَوْمٍ أَشْبَهَ بِالسَّلَفِ مِنَ الْأَعْرَابِ لَوْلَا جَفَاءُ فِيهِمْ.

وَقَالَ: غَيِّلَانِ إِذَا أُرِدْتَ أَنْ تَسْمَعَ الدَّعَاءَ فَاسْمَعْ دَعَاءَ الْأَعْرَابِ.

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ إِيَّاكَ مَعَ كَثْرَةِ ذُنُوبِي لَلْؤُمِّ، وَإِنْ تَرَكِي الْأَسْتَغْفَارَ مَعَ مَعْرِفَتِي سَعَةَ رَحْمَتِكَ لَعَجِزُ، إِلَهِي كَمْ تَتَحَبَّبُ إِلَيَّ بِرَحْمَتِكَ وَأَنْتَ غَنِي عَنِّي، وَكَمْ أَتَبَغُّضُ إِلَيْكَ بِذُنُوبِي وَأَنَا فَقِيرٌ إِلَيْكَ: يَا مَنْ إِذَا وَعَدَ وَفَّى، وَإِذَا أَوْعَدَ عَفَا، أَدْخَلَ عَظِيمَ جُزْئِي فِي عَظِيمِ عَفْوِكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

قَالَ: وَسَمِعْتُ آخَرَ يَقُولُ فِي دَعَائِهِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَمَلِ الْخَائِفِينَ، وَخَوْفِ الْعَامِلِينَ، حَتَّى أَتَنَعَّمَ بِتَرْكِ النِّعَمِ طَمَعًا فِيمَا وَعَدْتَ، وَخَوْفًا مِمَّا أَوْعَدْتَ. اللَّهُمَّ أَعِزَّنِي مِنْ سَطَوَاتِكَ، وَأَجْزِنِي مِنْ نَقَمَاتِكَ.

قَالَ: وَدَعْتُ أَعْرَابِيَّةً لَابِنَ لَهَا خَرَجَ مَسَافِرًا، فَقَالَتْ: كَانَ اللَّهُ صَاحِبَكَ فِي السَّفَرِ، وَخَلِيفَتَكَ فِي أَهْلِكَ، وَانْجَحْ طَلَبَتَكَ، امْشِ مَصَاحِبًا مَكْلُوءًا، لَا أَشْمَتَ اللَّهُ بِكَ عَدُوًّا، وَلَا أَرَى فِيكَ لِمَحَبَّتِكَ سَوْءًا.

وَهَذَا الْبَابُ كَثِيرٌ، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْأَدْعِيَةِ مَا جُرَّبَ وَاسْتُحْسِنَ، وَاللَّهُ يَنْفَعُ بِهَا آمِينَ.
قَالَ أَعْرَابِيٌّ يَصِفُ دَعْوَةً: [الطويل]

وسارية لم تسر في الليل تبتغي	محلاً ولم يقطع بها البيد قاطع
سرت حيث لم تسر الزكاب ولم تنخ	لوزد ولم يقصر لها القيد مانع
تحل وراء الليل والليل ساقط	بأوراقه فيه سمير وهاجع
تفتح أبواب السماء لوفدها	إذا قرع الأبواب منهن قارع
إذا وفدت لم يردد الله وفدها	على أهلها، والله راء وسامع

وإني لأرجو الله حتى كأني أرى بجميل الظن ما الله صانع

ثم سِرنا نُزجي الحُمُولاتِ، بالدُعوتِ، لا بالحدّاة، وبِحِمى الحُمُولاتِ، بالكلماتِ لا بالكُمّاء، وصاحبنا يتعهّدنا بالعشي والغداة، ولا يستنجز مِنّا العِداتِ، حتى إذا عايّنا أطلال عانة، قال لنا: الإعانة الإعانة، فأحضرناه المعلوم والمكتوم، وأريّناه المَعكُومَ والمختوم، وقُلنا له: اقض ما أنت قاض، فما تجدُ فينا غير راض، فما استخفه سوى الخفِّ والهَيْن، ولا حلّي بعَيْنِهِ غيرُ الحَلّي والعَيْن. فاختَمَل مِنهُما وقْرهُ، وناء بما يسُد فقره، ثم خالَسنا مُخالَسَ الطَّرارِ، وانصَلت مِنّا انصِلاتِ الفِرارِ فأوحشنا فِراقه، وأذهشنا امتراقه، ولم نزل نَنشدُه بكلِّ نادٍ، ونَسْتَخبرُ عَنْهُ كُلَّ مُغَوٍ وَهَادٍ، إلى أن قيل: إنه مُدَّ دَخَلَ عانة، ما زایل الحانة.

قوله: «نزجي»، أي نسوق. الحُمُولات، بفتح الحاء: الإبل، وبضمّها الأحمال. الحدّاة: خدّمة الإبل، بمنزلة المكارين للدواب. نحمي: نمنع الكماء: الشجعان. يتعهّدنا: يتفَقّدنا. يستنجز: يطلب إحضار ما وعد به عانة، بعين غير منقوطة: قرية بالجزيرة كثيرة الأعناب.

وقال امرؤ القيس: [الكامل]

* مِنْ خَمِرِ عَانَةٍ أَوْ كُرُومِ شِبَامٍ *^(١)

وأطلالها: آثارها، يريد أنه لما أشرف على عانة، قال لهم: أعطوني ما أستعين به. المعلوم: الظاهر. والمكتوم: المستور. والمعكوم: المَجعُول في عَكْم، قال يعقوب: العَكْم: نَمَطُ تجعل فيه المرأة ذخيرتها، أو يكون المعكوم المشدود بالعِكام، وقد تقدّم أنفاً، والمختوم: المطبوع عليه، يريد: أريّناه أنواع أموالنا. استخفّ: استحقّر. الخِفّ: الخفيف. الهَيْن: الهين. حَلّي: حَسُن. الحَلّي: ما يتحلّى به النّساء. والعَيْن: الذهب والفضة، يريد أنه استحقّر الخفيف القَدْر الهَيْن القيمة، مثل الإمتاع، وشبهها فتركها، وأعجبه الحَلّي والذهب فحملهما، أو يكون معنى «استخفّ» وجده خفيفاً، والخِفّ والهَيْن، يريد الخفيف عليه حملة، الهَيْن عليه نقله؛ يريد الذهب والجوهر، ويكون قوله

(١) صدره:

أَفَقَّ كَلُونِ دَمِ الْغَزَالِ مَعْتَقُ

والبيت في ديوان امرئ القيس ص ١١٥، وهو بلا نسبة في مقاييس اللغة ١/١٤٨.

«حَلِيَّ بَعِينَهُ» وما بعده مفسراً ومؤكداً لاستخفّ وما بعده، وهذا أشبه من الأول.

وفره: حِمْلُهُ. ناء: نهض بثقل. خالسنا: سارقنا وتسلل عثاً. الطَّرَار: الذي يشقّ الجيوب ويستخرج ما فيها، والطَّر: القطع، وقد طر طراً، وطُرّة الشعر منه، لأنها مقطوعة من جملته، مفصولة عنه. والمنتَهز الذي يخطف من يدك الشيء بسرعة. انصلت: انسلّ ولم يشعر به. والانصلات: سقوط السيف من الغمد. والفرار، وهو الزاووق، ويسمى الزئبق، سمي فراراً لأنه سريع السيلان لا يستقرّ في موضع، والفرار من كثر فراره. أوحشنا: أذهب أنسنا أدهشنا: حيرنا. امترقه: خروجه مسرعاً، ومُرَق السهم: خوج من القوس، ومن الرمية. ننشده: نطلبه مغوٍ وهادٍ: مضلّ ومرشد. الحانة: بغير نقط: بيت الخمار أو حانوته، والهان والحانة هي الدسكرة التي ذكر، وقال ابن شهيد فيه: [الكامل]

يا رب حانٍ قد أدرت بديره	خَمِر الصُّبَا مُزَجَّتْ بِصَفْوِ حُمُورِهِ
في فتية جعلوا الزقاق تكاءهُم	متصارعين تخشعاً لكثيره
يُهدى إلينا الراح كُلُّ معصفر	كالخشف خَفَرَهُ التِّمَاحُ خَفِيره
والى عليّ بِطَرْفِهِ وبكفّه	فأمال من رأسي لَعَبٌ كبيره
وترنم الناقوس عند صلاتهم	ففتحتُ مِنْ عَيْنِي لرجع هديره

زايل: فاروق

فأغراني خُبْتُ هَذَا الْقَوْلَ بِسَبْكِهِ، والانسلال فيما لَسْتُ مِنْ سِلْكِهِ، فأدُلجْتُ إلى الدسكرة، في هيئة مُنْكَرَةٍ، فإذا الشَّيْخُ فِي حُلَّةٍ مُمَصَّرَةٍ، بَيْنَ دِنَانٍ وَمِعَصَّرَةٍ، وَحَوْلَهُ سُقَاةٌ تَبْهَرُ، وَشُمُوعٌ تَزْهَرُ، وَأَسْ وَعَبْهَرُ، وَمِزْمَارٌ وَمِزْهَرُ، وَهُوَ تَارَةٌ يَسْتَبْدِلُ الدَّنَانِ، وَطَوْرًا يَسْتَنْطِقُ الْعِيدَانِ، وَذَفْعَةً يَسْتَنْشِقُ الرِّيحَانَ، وَأُخْرَى يُعَاوِلُ الْغِزْلَانَ. فَلَمَّا عَثَرْتُ عَلَى لَبْسِهِ، وَتَفَاوَيْتُ بَيْنَ يَوْمِهِ مِنْ أَمْسِهِ، قُلْتُ لَهُ: أَوْلَى لَكَ يَا مُلْعُونُ، أَنْتِيتَ يَوْمَ جَيُّوْنَ! فَضَحِكَ مُسْتَعْرِباً ثُمَّ أَنْشَدَ مِطْرِباً:

أغراني: حَثْنِي. سَبْكِهِ: تجريبه. الانسلال: الدخول. سلكه: شكله، وانسلكت حبة اللؤلؤ: جرت في السلك، وهو خيط النظام. أدُلجْتُ: مشيت بالليل. الدسكرة، بناء كالقصر حوله بيوت يسكنها الخمار والحشم، قال الجعدي: [المتقارب]

ودسكرة صوت أبوابها	كصوت المواتح بالحواب
سبقَتْ صياح فراريجهَا	وصوت نواقيس لم تضرب

بريّة ذي عتبٍ شارفٍ وصهباء كالمسك لم تقطّب

المواتح: البكرات، والهبّاب: اسم ماء الفراريج: الديوك عتب: أوتار، وشارف: اسم العود، شبهه بالشارف من الإبل، لأنها أغنّ صوتاً وأطربه، قال متمم: [الطويل]

إذا شارف منهمن قامت فرجعت حنيناً فأبكي شجوها البرك أجمعاً^(١)

ممصرة: مصبوغة بالمصرة، وهي العصفرة قبل أن يوضع فيه الخل، فلونها أصفر، فإذا وُضع فيها الخل أحمر ما يصبغ به وسُمي معصراً. والحلة: ثوبان: إزار ورداء، وسُميت حلة، لأنها تحلّ على لابسها كما يحلّ الرجل على الأرض دنان: جمع دَن، وهو نوع من الخوابي طويل الأسفل ضيقه، ويسمى الراقود.

وهذه الحالة التي وجدَ عليها الحريري السَّروجي بعد ذلك الترهّب الذي كان عليه في أول المقامة لها نظائر لرجال مشاهير بالعلم والفصل.

[في مجالس الشراب]

حكى الثعالبي في يتيّمته، وقد ذكر القاضي التنوخي فقال: هو أبو القاسم علي بن محمد بن داود بن فهم، من أعيان أهل العلم والأدب، وأفراد ذوي الكرم وحسن الشيم، وكان كما قرأت في فصل للمصاحب: إن أردت فإني سُبّحة ناسك، أو أحببت فإني تفاحة فاتك، أو اقترحت فإني مدرعة راهب، أو اخترت فإني نخبة شارب.

وكان تقلّد قضاء البصرة والأهواز بضع سنين، وكان المهلبى وغيره من وزراء العراق يميلون إليه جداً، ويعدّونه ريحانة الندماء، وتاريخ الظرفاء، يعاشرون منه مَنْ تطيب عشرته، وتلين قشرته، وتكرم أخلاقه، وتحسن أخباره، وتسير أشعاره؛ ناظمة حاشيتي البر والبحر، وناحيتي الشرق والغرب. وكان من جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبى، ويجمعون إليه في الأسبوع ليلتين، على أطراح الحشمة والتبسّط في القصف والخلاعة، منهم ابن قريعة وابن معروف والقاضي التنوخي وغيرهم، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها، وكذلك كان المهلبى، وإذا تكمل الأنس، وطاب المجلس، ولذّ السماع، وأخذ الطرب فيهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعُقار، وتقلّبوا في أعطاف العيش، بين الخفة والطيش، ووضع بين يدي كلّ واحد منهم طست من ذهب من ألف مثال مملوء شراباً، فيغمس فيه لحيته، بل ينقعها حتى تشرب أكثره، ويرش بعضهم بعضاً، ويرقصون بأجمعهم، وعليهم مصبغات الثياب، ومخاتق البرم، ويقولون كلما يكثر شربهم هرهر، وفيهم يقول السري: [المنسرح]

(١) البيت لمتمم بن نويرة في ديوانه ص ١١٧، ولسان العرب (برك)، وتاج العروس (برك)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٣٢٥.

مجالسُ ترقصُ القضاةَ بها إذا انتشوا في مخانقِ البَرَم
وإذا أصبحوا عادوا لعادتهم في الترهّب والتوقّر والتحفظ وأبهّة القضاة وحشمة
المشايخ الكبراء.

وقال في ابن معروف: كان كما قرأته في فصل للصاحب: شجرة فضل عودها
أدب، وأغصانها علم، وثمرها عقل، وعزوقها شرف؛ تسقيها سماء الحرّية، وتغذوها
أرض المروّة، وفيه يقول الصابي: [البسيط]

أقسمت بالله ما يرجى لمعروف في الحادثات سوى القاضي ابن معروف
ومن شعر ابن معروف: [الكامل]

لو كنت تدري ما الذي صنع الهوى والشوق في الجسم التحيل البالي
لهجرت هجري واجتنبت تجنّبي ووصلت من بعد النعيم وصالي
وقال القاضي التنوخي في غلام جسيم: [الوافر]

له في كل عضوٍ دغصٌ زملٍ ثقیل الجسم ذو روحٍ خفيفٍ
أعشق لا عشقت أخا نحولٍ كأنني لست ذا الخلق الطّريف
إذا لمسته كفي لم تلامس سوى جلدٍ على عظمٍ ضعيفٍ

شرب المأمون وعبد الله بن طاهر، ويحيى بن أكثم القاضي، فتعامل المأمون وابن
طاهر على سُكرٍ يحيى فغمّزاً به الساقى، فأسكره، وكان بين أيديهم رِزْم من ورد
وريحان، فأمر المأمون، فشق له قبرٌ في الرِّزْم وضُيّر فيه. وعمل بيتي شعر، ودعا قينة
فجلست عند رأسه، وغتت بهما وهما:

ناديته وهو حيّ لا حراكَ به مكفّن في ثيابٍ من رياحينٍ
فقلت: قم، قال: رجلي لا تطاوعني فقلت: خذ، قال: كفي لا تواتيني
فانتبه يحيى لرنة العود فقال: [البسيط]

يا سيدي وأميرَ الناس كلّهم قد جَار في حكمه مَنْ كان يسقيني
إنني غفلتُ عن السّاقى فصيّرنِي كما تراني سليبَ العقل والدين
لا أستطيع نهوضاً قد وهى قدمي ولا أجيب لداعٍ حين يدعوني
فانظر لنفسك في قاضٍ يكون لكم إنني غدوتُ دفيناً في الرياحين

والحالة التي وصف بها أبو زيد خلعت الأمين عن الملك، ونقلته إلى المأمون.
قال الربيع: قعد الأمين يوماً للناس وعليه طيلسان أزرق، وتحتة لبْد أبيض، فوقَّع على

ثمانمائة قصّة، فلقد أصاب فما أخطأ، وأسرع فما أبطأ، ثم قال: يا ربيعُ أتراني لا أحسن التدبير والسياسة، ولكنني وجدتُ شَمَّ الآس، وشرب الكأس، والاستلقاء من غير نعاس، أشهى إليّ. وكذلك خلعت قبله الوليد بن يزيد، وبعده المتوكل وغيرهم من الخلفاء والأمراء، ممّن آثر راحة النفس على تعب السياسة.

قوله: «تبهر» أي تسقيه بالبهار، وهو شبه الإبريق، وقيل: تبهر، تغلب العقول بحسنها، يقال: بهر بهراً، إذا غلبه، وبهر القمر السماء: ملأها بنوره تزهّر: تضيء. شموع: مصابيح الشمع. آس: ريحان. عبهر: نرجس، وقيل: ياسمين، قال عليّ رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «شُموا النرجس ولو في اليوم مرّة واحدة، ولو في الشهر مرّة واحدة، ولو في الدهر مرّة واحدة، فإنّ في القلب حبةً من الجنون والجذام والبرص، لا يقلعها إلا شَم النرجس».

وقال عليّ رضي الله عنه: حَبّاني النبيّ ﷺ بالورد، وقال: «أما إنه سيّد ريحان الجنة بعد الآس».

وقال أردشير بن بابك: الورد دُرّ أبيض، وياقوت أحمر، على كراسيّ زبرجد أخضر، بوسطه شذور من ذهب أصفر، له رقة الخمر، ونفحات العطر.

[مما قيل في الأزهار شعراً]

ونذكر هنا طرفاً من المنظوم في الأزهار يليق الموضع بحول الله تعالى، قال محمد بن عبد الله بن طاهر ملماً بقول أردشير: [البسيط]

كأنهنّ يواقيتُ يُطيف بها زُمرد وسطه شذر من الذهب
فاشرب على منظر مستظرفٍ حَسَنٍ من خمرة مُزجّت كالجمر في اللهب
وللمعتمد بن عباد: [السريع]

كأنما ياسميئنا الغضُّ كواكب في السماء تبيّضُ
والطرُق الحمز في جوانبه كنهْدِ عذراء مَسّه عَضُّ
ولأبي الفضل الميكالي:

وما ضمّ شمل الأنس يوماً كنرجسٍ يقوم بعذر اللهو عن خالِع العُذرِ
فأحداقه أحداق تبرٍ وساقه كقامة ساقٍ في غلاله الخُضرِ
ولعُضد الدولة: [البسيط]

يا طيبَ رائحةٍ من نفحة الخيرِ إذا تمزق جلبابُ الدِّياجيرِ
كأنما رُشّ بالما ورد واعتبقث به دواخن نَدّ عند تبخيرِ
كأن أوراقه في القَدّ أجنحةً حمراً وصفراً وبيض من زنابيرِ

ولعليّ بن بسام: [البسيط]

أما ترى الوزدَ يدعو للوزود على حمراء صافية في لونها صَهَبُ
مَدهنٌ من يواقيت مرَّكبةً على الزبرجدِ في أفواهاها ذهبُ
وقال آخر: [المنسرح]

نرجسة عينها محبرةً لم تكتحل قط آفة الغمض
باكرها الطلّ فهي باهتة تنظر فعل السماء في الأرض
وللأسعد بن بليط: [السريع]

بنفسجٍ باتت أكف الصبا تنثره في زرقية لا تُحَدُ
كأنما قُطَّ بمنثوره رؤوس أفلام من الالازورد
وقال آخر في نور الباقلآ: [البسيط]

نؤارة الباقلاً إذا راق منظرها تحكي الفراشة تنقيطاً وثريشا
كأنما هي ما حول الذبالة إذ مدّت جناحاً مكان الكف مرقوشا
والباب كثير.

قوله: «مزهر» عود الغناء. يَسْتَبْزِل: يستسقي منها شرباً، والمبْزَل الثقب في جانب الخاية تجري منه الخمر صافية، ويبقى العكر في قعرها، قال الأخطل: [البسيط]

لما أتوها بمصباح ومبزلهم سارت إليهم سنور الأبجل الضاري^(١)
تدمى إذا طعنوا فيها بجائفة وفي الزجاج عتيق غير مسطار
أراد أن الخمر خرجت خروج الدم من الأبجل، وهو عرق.

وقال ابن حصين: [السريع]

حجبت عنها الذن فاستعبرت جرياً كما قوس إحليل
كأنها في الكأس منصبة خيط من الفضة مفتول
وقال آخر في قمع الشراب: [المتقارب]

ولما رأى الناس فضل المدام وخافوا على جُزْمِها أن يسيلاً

(١) البيت الأول في ديوان الأخطل ص ٨٢، والكتاب ٥٠/٤، ولسان العرب (سور)، (ضرا)، والبيت الثاني في ديوان الأخطل ص ٢٢، ولسان العرب (صطر)، (مصطر)، والمخصص ٧٥/١١، وفي الديوان: «غير مصطار» بدل «غير مسطار».

تواخؤا إلى شربها بينهم سبيلَ حفاظِ فكنت السَّيِّلا
 قوله : «يستنطق»، يأمر بضربها ليُسمع صوتها يستنشق : يَشَمَّ يغازل : يلاعب .
 عَثَرَتْ : اطلَّعت ، وأعثرت في معناه . لَبَّسَه : تخليطه . تَفَاوَتْ : تباعد . أولى لك : كلمة
 تهديد معناها : قد وليك الشرَّ فاحذر . والملعون : المطرود ، ولعنه الله : طرده ،
 والاستغراب : الضحك الكثير .

ومما يوافق شعره وحاله قول البيغاء : [الخفيف]

غاذني بالصُّبُوح قبل الصُّبَاحِ	واجر في حلبة الصُّبا والمِراحِ
عاصِنيها كالجلنار إذا ما	كُلَّلْتُ من حبابها بالأقاحِ
في اختصاصِ التفاح بالطيب والخُمِ	رّة لا في كثافة التَّفاحِ
خَدَمْتُها الأجسام بالطبع لَمّا	شاهدت قُزْبَها من الأرواحِ
فتدارك بها حُشاشة نفسي	أو فحرّك بها سكونَ ارتياحي
بين وردين من بَنانٍ وخُدِّ	وشرابين من رُضابٍ وراحِ
ونشيد مُسْتَنْبِطٍ من حديثٍ	وغناء يُغْنِي عن الاقتراحِ
فألذّ الحياة ما خالط العا	قل فيها فسادَه بصلاحِ

وله أيضاً في مثله : [الخفيف]

زَمَنُ الورد أشرف الأزمانِ	وأوانُ الربيع خير أوانِ
أشرفُ الزهر زارَ في أشرف الدهرِ	رَقِصْلٍ فيه أشرف الإخوانِ
وأدراها عَذراء وانتَهز الـ	إمكان من قبل عائق الإمكانِ
في كؤوسٍ كأنها زَهر الخُشْدِ	خاشٍ ضَمَّتْ شقائق النعمانِ
واختدعها عند النُزال بألفا	ظ المثاني ومطربات الأغاني

وقال [ابن] وكيع في الخشخاش : [الوافر]

وخشخاشٍ كأنّا منه نفري	قميص زبرجدٍ عن جِسْمِ دُرٍّ
كأقداحٍ من البلّور صينث	بأغشيةٍ من الديباج خضرِ

وقال آخر في شقائق النعمان : [المقارب]

كأنّ الشقائق إذا برزت	غلالةٍ دُرٍّ وثوباً أحمر
قصاع من الجمر مشبوبةٌ	بأوساطها لَمَعَ من حُمَمٍ

* * *

لَزِمْتُ السُّفَارَ وَجُبْتُ الْقَفَارَ	وَعِفْتُ النُّفَارَ لأَجْنِي الْقَرَحَ
-----------------------------------------	----------------------------------------

وَحُضْتُ السُّيُولَ وَرُضْتُ الْخِيُولَ لَجَرِّ ذِيُولِ الصُّبَا وَالْمَرَخِ
وَمِطْتُ الْوَقَارَ وَبَغْتُ الْعَقَارَ لِحَسْوِ الْعُقَارِ وَرَشْفِ الْقَدَحِ
وَلَوْلَا الطَّمَاخُ إِلَى شُرْبِ رَاخِ لَمَا كَانَ بَاخٌ فَمِي بِالْمُلُخِ

* * *

قوله: «السفار»: مصدر سافرت. جُئْتُ: قطعت. عَفْتُ: كرهت خضت: جرت ومشيت فيها. رُضْتُ: ذَلَّت وركبت. المَرَح: النشاط والعجب. مِطْتُ: نَحَّيْتُ وأزلت، ويقال: ماط وأماط: باعد، وأيضاً باعد غيره، والأصمعي يقول: ماط هو، وأماط غيره. العَقَار: المال الثابت الذي لا يُنْقَل. حَسَوُ: شرب. الْعُقَار: الخمر. رَشَف: مَصَّ الطَّمَاخ: ارتفاع النظر. باخ: تكلَّم والمُلُخ: الكلام الحلو، يريد أنه فعل ما ذكر ليرتاح ويشرب الخمر.

* * *

[مما قيل في الخمر والشراب]

ذكر أبو محمد الحريري في هذا الموضع من المقامات أوصاف الخمر وفضلها ومنافعها، وذهابها بالهموم والأسقام، وذكر أنها من أفضل الأشياء وأن بيع أشرف الأعلاق فيها سداد، وأن ترك الإصغاء فيها إلى العَدَل رشاد؛ وأن كمال لذتها مع السَّقَاة الحسان، والتطريب بأنواع الغناء والألحان، إلى غير ذلك مما أشار إليه، ونِيه عليه، وأنا أسوق هنا في وصف الخمر فصلاً من كلام الحكماء والأدباء وسائر الأفاضل من الملوك ومهرة الشعراء، جريا معه في أغراضه، حسبما فعلناه في العاشرة في أوصاف الغلمان، وفي الحادية عشرة في فضائل أهل الأديان وأكثر اعتمادي في هذا الفصل على اختيارات انتقيتها من كتاب قطب السرور، وضممت إليها ما يلائمها من غيره، وهو فصل بديع في بابها.

ذكر مؤلفه في منافع الخمر وفضائلها قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧] وقال تعالى في الجنة: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: ١٥، ١٦] فلم يذكر الماء واللبن إلا بالسَّلامَة من التغير، والعسل إلا بأنه مُصَفًّى، وجعل الخمر لَذَّةً لِلشَّارِبِينَ، فكان هذا من التفضيل. وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ [الواقعة: ١٨، ١٩]، فنفى عنها عيوب خمر الدنيا، وهي ذهاب العقل بالسكر والصداع بالخُّمار وذهاب المال، كما قال تعالى في فاكهتها: ﴿لَا مَقْطُوعَةَ وَلَا مَمْنُوعَةَ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]، فنفى عنها عيوب فاكهة الدنيا التي تأتي في وقت وتنقطع

في آخر وتمنع إلا بالثمن، وقال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧].

وأما ما ذكره تعالى من أن فيها منافع للناس، فإن منافعها لا تحصى كثرة، فمن منافعها ما يصيب الناس من أثمانها، ولو لم تعصر الأعناب لبارت على أهلها ومنها صلاح الجسم لأنها تروق الدم وتفتق اللسان، وتزيد في الهمة، وتهون الرزية، وتمد في الأمنية، قال جالينوس: الخمر تدز الدم وتصفى اللون، وتقوي المنعة، وتبعث النشاط. وقال أفلاطون: إنما كان النبيذ يثمر السرور، ويولد الضحك، ويطيب النفس لشبهه بالدم، وأنه يفعل في الجسد إذا اعتدل فعله، لأنه أحمر حار رطب والدم أحمر حار رطب، فإذا صح جوهره، وتمت أجزاؤه ولد في النفس السرور والضحك والنشاط.

الحارث بن كلدة. طبيب العرب: الطلاء^(١) مصلحة للبدن ومطوية للنفس، تفتح له العروق أفواهاها، كما تفتح الفراخ أفواهاها للطعام.

بعث قيصر إلى قس بن ساعدة، فسأله: أي الأشربة أفضل؟ فقال: ما صفا في العين، ولذ على الذوق، وطابت رائحته في الأنف من شراب الكرم، قال: ما تقول في مطبوخه؟ قال: مرعى ولا كالسعدان، قال: فما تقول في نبيذ الزبيب؟ قال: ميت أخبي، وفيه بعض المنفعة، وما يكاد يخيا من مات مرة، قال: ما تقول في نبيذ العسل؟ قال: نغم شراب الشيخ للإبردة^(٢) والمعدة الفاسدة.

قال: فنيبذ التمر؟ قال: أوساخ تدعو إليها ضرورات تُدَمِّعُ عاقبتها في الأبدان، قال: فما الذي يذهب بالهموم عند الشراب؟ قال: جوهر فيه لا تبلغه عقول العباد، قال: فما أصلح أوقات الشراب؟ قال: أول النهار، ألا ترى أن الدواء يبكر به، والمسافر يذلج لحاجته! لأن العقول أول النهار أذكى والفطن أصح، قال: فمن أي شيء يكون الخمار؟ قال: من ضعف قوة الجوارح عن جذب ما يصعد إلى الدماغ من البخار حتى يفشيهِ الهواء قليلاً قليلاً، قال: فالصرف أفضل أم الممزوج؟ قال: الصرف سلطان جائر، والممزوج سلطان عادل، والعادل مصلح، والجائر مفسد، قال: أفتشربه أنت؟ قال: نعم، ولا أبلغ ما يغير عقلي، قال: ولم؟ قال: أصونه لسؤال مثلك.

أمر الوليد بن يزيد بحمل ابن شراعة من الكوفة، فلما قدم عليه، قال: يا بن شراعة، والله ما أرسلت إليك، أسألك عن كتاب الله ولا عن سنة نبيه، قال: يا أمير المؤمنين لو سألتني عنهما لوجدتني جماراً، قال: أرسلت إليك أسألك عن القهوة، قال: دققانها الحكيم وطبيبها الرفيق العليم، فاسأل عما بدا لك، قال: فأخبرني عن الماء،

(١) الطلاء: من أسماء الخمر.

(٢) الإبردة، بكسر الهمزة والراء: علة من غلبة البرد والرطوبة.

قال: لا بدّ لي منه والكلب والحمار شركائي فيه، قال: فما تقول في اللبن، قال: ما رأيته إلا استحييتُ من أمي لطول ما أرضعتني إياه، قال: فالسويق؟ قال: شراب المحرور والعجلان والمسافر، قال: فنبذ الزبيب؟ قال: سريع الامتلاء، سريع الانفشاش، قال: فما تقول في نبذ الزبيب؟ قال: حومة حاموا بها على الشراب، فلم يصيبوه، قال: فما تقول في الخمر؟ قال: تلك صديقة رُوحِي، جلتْ عن المثل، تلك التي تزيد النفس إشراقاً، قال: فأنت يابن شراعة صديقي، اجلس، أيّ الطعام أحبّ إليك؟ قال: يا أمير المؤمنين، ليس لصاحب الشراب على الطعام حكم، غير أنّ أنفعه أდسّمه وأشهأه أمرؤه، قال: فأني المجالس أحبّ إليك أن يكونَ شربنا فيه؟ قال: ما لم تخفِ الشمسُ أن تحرقه، أو السماء أن تغرقه، ولا تشرب إلا على وجه السماء، فوالله يا أمير المؤمنين ما نادم الناس أصبح من وجهها، قال: فابرز بنا. فلم يرَ بعد ذلك يشرب إلا تحت السماء.

كان أبو للسائب فقيهاً ورعاً ظريفاً فسأله بعضُ المجان، فقال: يا أبا السائب ما تقول في نبذ الجرّ؟ قال: اشربه حتى تُجرّ قال: فنبذ الدنّ، قال: اشربه حتى تجنّ، قال: فالداذي؟^(١) قال: أحلى من العسل الماذي، قال: فنبذ الزبيب والعسل؟ فرفع يديه، وقال: العظمة لله، قال: فما تقول في الخمر؟ قال: لا أشربها قال: ولم؟ قال: أخاف ألا أؤدّي شكرها فتزع مني.

قيل لأبي نواس: صف لنا الأشرية، قال: أمّا الماء فيعظم خطره بقدر تعزّزه، وأمّا السويق فبلغة العجلان، ورويّ الظمآن، وأمّا العسل فنبيل المنظر، سخيّف المخبر، وأمّا الخمر فهي شقيقة الروح وصديقة النفس ما ارتضعت ممزوجةً، وصرفها غير مأمون على نهك البدن وغرس السقم المؤدّي إلى العطب.

قالت الهند: إنّ الشراب مبارك، يزيد في الدّم بحرارته، ويكسر البلغم بحدته، ويشهي الطعام بلطافته، وأمّا السكر فمحرم في كلّ ملّة، وسبيل من سُبُل الضلالة، واسم من أسماء الوسوسة، قبيح الأفعال، مذموم الأحوال.

وقالت الحكماء: من فضائل الشراب؛ أنّ كل مشروب وإن راق وصفا وحلا وعُذّب، فأولّه طيب، ثم يعود في نقصان حتى يعود مكروهاً إلا الشراب، فإنك كلما ازدددت منه ازدددت فيه رغبةً وحباً، وكان أوسطه إليك أعجب، وآخره أطرب، حتى إذا سرا في العروق برقته، وعمّ البدن بلطافته، ودبّ في الأعضاء والمفاصل ديبب النمل في نفا الرمل، وخادع عقلك فامتلاّت بهجة وسروراً، وعدت ملكاً محبوراً، تضرب في الخلافة بأوفر سهم، ثم أسلمك إلى النّوم الذي هو حياتك وصحتك، فاجتذبت النفس ما

(١) الداذي: شراب معروف بكثرة إسكاره.

شاكلها من لطيفه، وأخذ كل عضو قوته من كثيفه، ثم لا يزال الهواء يخرج بالأنفاس متصعداً ببخاره، ويجذب ما تحت الدماغ من أستاره، فحينئذ تهب بجذل ونشاط، كأنما أنشيطت من رباط، وذلك تقدير العزيز العليم.

وقالوا: الشراب مصباح الظلام، وشفاء الأسقام، وإذا تمشى في عظامك جعلك خالي الذرع؛ فسيح الباع، رخى البال، قليل الاشتغال، رخب الهمة، واسع النعمة، فهو أخو الصبوة، وقسيم الشهوة، ولو لم يكن من مننه عليك إلا أنه إذا مزجته بروحك، وخلطته بدمك، بغض إليك الحرص ونصبه، والشرة وتعبه، وحبب إليك المروءة والسماح، وحسن لك الفكاهة والمزاح.

وقالوا: الشراب يلذ لك في السفر كلذته في الحضر، ويطيب استعماله في الصحو، كما يطيب في المطر؛ فهو أصل اللذات الذي عليه تتفرع، وعنصرها الذي عنه تنبع، وبه تتصل، وإليه ترجع، يردّ الشيوخ في طمع الشبان، ويدعو الشبان إلى نشاط النشوان، وقال أبو نواس في ذلك: [السريع]

ما العيش إلا في جنون الضبا فإن تولّى فجنون المدام
راخ إذا ما الشيخ وآلى بها خمساً تردى برداء الغلام

فلله در من استنبطه ودل عليه، وسقياً لمن بحث عنه واهتدى إليه، ماذا أثار وأي شيء أظهر!

قالوا: ومدار قوامه على اثني عشر شيئاً: المواد الثلاث، والقوى الأربع، والحواس الخمس. فالثلاث: هي نسيم الهواء، وعذوبة الماء، ومألوف الأهواء والأربع هي القوة الجاذبة التي تطيب الطعام وتبرده، والماسكة التي تمسكه وتجذبه، والهاضمة التي تهديه وتنضجه، والدافعة التي تدفع إلى كل عضو سهمه من جوهره، فتخرج عنه ثقله، والحواس الخمس: البصر والسمع والشم والذوق واللمس. وكل شيء من ذلك تدخله الزيادة والنقص فلا يستغني عما يقويه في حال ضعفه، ويصفيه من أوساخه، فلم يجد أهل التجارب الماضون لذلك سبباً أبين أثراً، ولا أخف محملاً، ولا ألطف ديباً في الأبدان من ماء الكرم، فاستعملوه لذلك استعمالاً دائماً، فهو ريحانة النفس وترياقها، فيشرب في كل حين، وينفع كل حاسة، وتحيد عنه النوازل والأحزان، وحقّ للنفس أن تألفه، وللطبيعة أن تلائمها؛ إذ كان حبيبها وشقيق روحها، فتراه يحدث في النفس الشجاعة والتكرم والأناة والتحلّم.

ومن علامات الكرم إذا أخذ فيه الشراب الاستحياء والتودد واللهو والسرور والبذل لما في يديه، وكسوة جلسه من أنفاس ثيابه، وإذا بلغ المدى في شربها توسد يساره، ونام حميداً كريماً.

ومن علامات اللثيم المماراة والسفة، وقتل الشارب والتلفت إلى العريدة وشدة

الغضب، وربما بكى وعوى غواء الذئب، وتَبَّحْ نُبَّاح الكلاب، فشَرَّب الماء يحرم مع مثل هذا، فكيف الشراب! .

ومن فضائله أنه يلائم الطبائع المعتادة في كل زمان من فصول السنة، يشربه المحرور ممزوجاً فيبرده، والمقرور صِرْفاً فيسخِّنه، واليابس معتدلاً فيرطبه، والمرطوب صِرْفاً فيجففه، فمن شربه في الصيف فيستحب له أن يشربه على خضرة الجنان وتحت الظلال، وعلى المياه وعلى الورد والياسمين والبنفسج والآس والسفرجل والتفاح. وإن كان في الشتاء، فبخلاف ذلك، من الجلوس في الأكنان واستعمال الكوانين، ولبس الأحمر والممشق^(١) وشَمَّ قَتِيت المسك والعنبر والمرزنجوش^(٢).

وأما الربيع والخريف فبين ذلك، لأخذهما من رطوبة الشتاء وحرارة الصيف وإذا اجتمع مع الشراب نغم وألحان على صنوف الملاهي والعيدان، تعاوننا على إذهاب الغموم والأحزان، فلله دُرٌّ من استنبطه، ماذا أثار وعلى أي شيء دلَّ! .

ولم يكن الشراب أغلب شيء على العقول، وأقربه للقلوب، وألطف محلا في النفوس، وأشدَّ ملاءمةً للأجسام، وأجمعه لمحمود الخلال حتى لا تقاربه لذة، ولا تساويه شهوة، ولا تعدله خصلة من خصال المسرات - لما حملت الأشراف وذوي العقول أنفسهم على معاقرة، لا يردِّهم ما ينالهم فيه عن معاودته، من شنيع الأقوال ولوم العذال، فيما أنفقوا عليه من الذخائر، وبذلوا من الأموال.

كان بالبصرة رجل ذو ضياع فأنفق ماله في الشراب، فباع ضيعته، فلما تمَّ البيع قال له المشتري: تأتيني بالعشي، أدفع لك المال، وأشاهدك، فقال: لو كنت ممن يرى بالعشي ما بعث الضيعة.

قال محمود بن الحسن الكاتب: بعث داري فأصابني مثل هذا، فقلت: [مجزوء الكامل]

أَتَلَفْتُ مَالِي فِي الْعُقَارِ	وَحَرَجْتُ فِيهَا عَنْ وَقَارِي
حَتَّى إِذَا كُتِبَ الْكِتَابُ	بِوَجَائِي رَسَلِ التَّجَارِ
قَالُوا: الشَّهَادَةُ بِالْعَشِيِّ وَنَحْ	نُ فِي صَدْرِ التَّهَارِ
فَأَجَبْتَهُمْ زُذُّوا الْكِتَابَ	بِوَلَا تَعْنُوا بِأَنْتَظَارِي
لَوْ كُنْتُ أَظْهَرُ بِالْعَشِيِّ لَمْ	أَسْمَحْتُ بِبَيْعِ دَارِي
وقال ابن الرومي: [الخفيف]	

أَنَا أَهْوَى ذَاتَ الْخُمَارِ عَلَى الْجِنِّ	بِوَذَاتِ الْوِشَاحِ وَالذَّمْلَجَيْنِ
-----------------------------------------------	----------------------------------------

(١) الممشق: أي المصبوغ.

(٢) المرزنجوش، وقيل: المردقوش، معرب مردكوش: هو الزعفران.

وأرى في التَّبِيدِ رأيَ صوابٍ
وإذا ما الغناء خاض ذوو الألبـ
كُلُّما جاءت الرِّخَائِصُ فيه
وقال العَطَوِيُّ : [مجزوء الخفيف]

جَارَةٌ لِي أَجَارَهَا السـ
فهي بين النساءِ كالـ
سَأَلْتَنِي هَلْ النَّبِيـ
قُلْتُ : إِي وَالَّذِي يُرِيـ
فأشربيه فإن فيـ
يُنْبِثُ الورد في ربا
ولبعض المتقدمين : [البسيط]

من ذا يحرم ماء المَزْنِ خالطُهُ
إنِّي لأكره تشديد الرِّوَاةِ لَنَا
وقال ابن الرومي : [الطويل]

أَحَلَّ الْعِرَاقِيُّ النَّبِيدَ وَشَرِبَهُ
وقال الحجازي الشرابان واحدٌ
سَأَخَذَ مِنْ قَوْلَيْهِمَا طَرَفَيْهِمَا

خرج الحسن بن هانئ، ومعه مُطِيطٌ صاحبه، حتى أتيا دَيْرَ خَمَارٍ، فقال الحسن لمطيط : ادخل بنا نَتَمَاجِنُ على هذا الخَمَارِ، فدخلَا فسلَّما، فردَّ عليهما السلام، فقال له الحسن : أعندك خمر عتيقة [يا خمار].

قال : عندي منها أجناس، فأَيُّ جنس تريد؟ قال : التي يقول فيها الشاعر : [الخفيف]

حُجِبَتْ خَيْفَةٌ وَصِيئَتْ فَجَاءَتْ
وَكأنَّ الْأَكْفَ تَصْبِغُ مِنْ ضَوْ
كَجَلَاءِ الْعَرُوسِ بَعْدَ الصَّيَانِ
ءَ سَنَاهَا بِالْوَرَسِ وَالرَّعْفَرَانِ

فملاً له الخَمَارُ قَدْحاً من خمرة صفراء، كأنها ذهب محللول، فشربه الحسن، وقال : أحسن من هذا أريد، فقال له الخَمَارُ : من أَيُّ جنس تريد؟ قال : التي يقول فيها الشاعر : [الخفيف]

رَفَّقَتْهَا أَيْدِي الْهَوَاجِرِ حَتَّى
فَهِى كَالنُّورِ فِي الْإِنَاءِ وَكَالنَّ
صَيَّرَتْ جِسْمَهَا كَجِسْمِ الْهَوَاءِ
رِ إِذَا مَا تَصِيرُ فِي الْأَحْشَاءِ

فملاً له الخَمَارُ قَدْحاً من خمرة كأنها العقيق، فشربه، وقال: ارفع من هذا أريد، قال: أي نوع تريد؟ قال: التي يقول فيها الشاعر: [الكامل]

فإذا حَسَا مِنْهَا الْوَضِيعُ ثَلَاثَةً سَمَحَ الْوَضِيعُ كَفْعَلُ ذِي الْقَدْرِ
فِي لَوْنِ مَاءِ الْمِزْنِ إِلَّا أَنَّهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ كَوَاقِدِ الْجَمْرِ

فملاً له الخَمَارُ قَدْحاً من خمرة بيضاء، كأنها ماء المزن، فشرب الحسن، وقال للخَمَار: أتعرفني؟ قال: إي والله يا سيدي، أنا أعرفُ الناس بك، قال: فمن أنا؟ قال: أنت الذي يَسْكُرُ من غيرِ وَزْنٍ، فضحك الحسن، وقال لمطيط: ادفع إليه ما معك من الثَّقَّة، فأعطاه مائة درهم وانصرف.

وقال أبو عثمان الناجم: دخلتُ على أبي العباس عبد الله بن المعتز، وهو مخمور طيب النفس، فقال: يا أبا عثمان، أنشدني ما شئت حتى أعارضك بأحسن منه أو مثله، فأنشدته لأبي نواس: [البيسط]

وعاشق دَنَفٍ نَبَهْتُهُ سَحَرَاً فقام للزَّاح والتذكار مصطبحا
ودارتِ الخمر من صَهْبَاءِ صَافِيَةٍ فما احتسَى قَدْحاً حتى بكى فَرَحَاً
ففكر ساعة، وضحك وقال: [البيسط]

وقهوة كشعاع الشمس صافية مثل السَّراب ترى في قعره شَبَحا
إذا تعاطيتَهَا لم تَذِرِ من لَطْفٍ راحاً بلا قَدَحٍ أعطيتْ أم قَدْحَاً
وقالوا: ما ذَرَارِيعُ الْخَزْ وَالسُّمُورُ بأدفاً من الشراب للمصرور والمقرور.

وقال بعضهم: كنت في منتزه لي، وإذا شيخ منبَخ على غَلْوَةٍ معه صبي في يوم بارد، فكنت أسمع الصبي يقول للشيخ: أعطني فَرْوَتِي، فيناوله شيئاً لا أتبيّنه، فبعثت غلامي ينظر إليه. فإذا عند الشيخ قَيْئَنَةٌ، كلما طلب الصبي فَرْوَتَهُ سقاه قَدْحاً.

قال: وأنشدوا للهُذْهِدِ الْأَصْبَهَانِي: [السريع]

إنَّا أناسٌ حَسَنُ دِينِنَا لبيعنا الآجَلَ بِالْعَاجِلِ
إذا شربْنَا خَمْسَةً خَمْسَةً فقد لبسنا الْفَرْوَةَ من دَاخِلِ
وقال عمرو الضبابي: [الرجز]

أَعْدَدْتُ لَلَّيْلِ إذا اللَّيْلُ بَرَدَ خَابِئَتَيْنِ من طِلاءٍ قد رَكَدَ
* فتطرد الهَمُّ وتكفيك الصَّرَدُ *

وقال آخر: [الطويل]

إذا هَبَّتِ الْأَرْوَاحُ فَاجْعَلِ دُثَارَهَا إذا التحف الْأَقْوَامُ دُكْنَ الْمَطَارِفِ

ثلاثة أرطالٍ شراباً معتقاً تكن آمناً منها ولست بخائف
فإن دثار المرء من تحت جلده أخف وأدنى من دثار الملاجف

قال الجاحظ : جلست عجوّز من العرب إلى فتیان يشربون، فسقوة قدحاً فطابت نفسها، ثم سقوها آخر فاحمر وجهها وضحكت، ثم سقوها قدحاً ثالثاً، فقالت : خبروني عن نسائكم بالعراق، أيشربن من هذا الشراب؟ قالوا : نعم، قالت : زئبن ورب الكعبة، والله لا يدري أحدكم من أبوه.

وسقي أعرابي قدحاً من شراب، ولم يكن يعرفه، فحرّكته الأريحية، فسألوه عنها، فقال : والله ما أدري ما هي ! غير أنني أراكم تحببون إليّ وأراني أسرّ بكم، وما وهب إليّ أحد منكم شيئاً.

ومرّ أعرابي يقوم يشربون، فدعوه، فنزله وعقل بغيره. وشرب معهم، فلما أخذ منه الشراب، قام إلى بغيره فنحّره، وشوى لهم من كبده وسنامه، ثم رفع عقيرته يتغنّى : [الوافر]

عللاني إنما الدُّنيا علل واسقياني، عللاً بعد نهل
بادراً باللهو يوماً صالحاً ودعاني من عتاب وعذل
وانشلا ما اغبر من قدركما واسقياني أبعد الله الجمل

وقال إسحاق الموصلي : سقيت أعرابياً نبيداً، فقال : ما على هذا شيء، يطيب النفس، ويطرد الحزن، ويمني الخير، ويعد الغنى، ثم أنشأ يقول : [الوافر]

ألا خذها كماء السزغفران زمتها بالثحول يد الزمان
تصوغ إذا علاها الماء طوفاً من الياقوت فصل بالجمان
وتترك من أراد الشرب منها صحيح الجسم منكسر اللسان
كأن الشمس طالعة بكفي إذا أخذت زجاجتها بناني

ومرّ الفرزدق بالحكم بن المنذر بن الجارود؛ فاستسقاءه ماء، فقال : هلاً لبناً يا أبا فراس؟ قال : ذلك إليك، فملاً له عساً من خمر، وأمر فحلبت عليه لقحة، فصعدت الرغوة فوق الشراب، وأتاه به، فشربه حتى صك بالعن جبهته، وانتفخت أوداجه، واحمرت عيناه، فمسح سبّاله، وقال : جزاك الله خيراً، فإنك ما زلت تخفي الصدقات ونعمًا هي !

ودخل الأخطل على عبد الملك، فقال : ليت شعري، ما يعجبك من إدمان الخمر، وأولها التقطيب والكراهة، وآخرها السكر والسفاهة! فقال : ولكن بينهما حالة ما يسرني بها ملكك، هذا نظم الشاعر، فقال : [الخفيف]

إن يكن أول المدام كريهاً ويكن آخر المدام صداعاً

فلها بين ذا وذاك هناةٌ وضفُّها بالسُرور لَنْ يُسْتَطَاعَا
وأشدَّ ابن قتيبة لأبي محجن الثقفي: [الطويل]

إذ متُّ فادفني إلى جنب كرمه تروِّي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفني بالفلاة فلأنني أخاف إذا ما متُّ ألا أذوقها

قال: فأخبرني مَنْ رأى قبره بأرمينية، أنه بين شجرات الكروم، والفتيان يشربون عندها، وينشدون شعره، وإذا جاء قدحه صبَّوه على قبره.

ومنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهل الشام شرب الخمر. فقال شاعرهم: [الطويل]

ألم تر أنَّ الذَّهرَ يعثرُ بالقَتَى ولا يملك الإنسانُ صَرْفَ المقاديرِ
صبرْتُ ولم أجزعُ وقد مات إخوتي وما أنا عن شُرْبِ المُدام بصابرِ
رماها أمير المؤمنين بحتفها فخلَّاتها يَبكون حَوْلَ المعاصرِ

ورأى ذؤيب السلمي خمرأ أهراقها السلطان، فقال: [الخفيف]

يا لقومي لِمَا أتى السلطانُ لا يكن للذي أهانوا هوانُ
سكبوا في التراب من حَلَبِ الكُرُو مِ عُقاراً كَأَنَّها الزعفرانُ
سكبت في مكان نحسٍ لقد صا دف سَعَدَ السُّعود ذاك المكانُ
كيف صبري عن بعض نفسي وهل نص بر عن بعض نفسه إنسانُ!

ولمَّا انهمك الوليد بن يزيد في الشَّراب والتبذُّل مع الندماء، اجتمع وجوه بني أمية، فلاموه وعقُّوه، فقال لهم اسمعوا ما عندي: [الخفيف]

أشهد الله والملائكة الأب رار والعابدین أهل الصَّلاحِ
أنني أشتهي السماع وشرب الرَّا ح والعَضُّ في الخدودِ الملاحِ
والنَّدِيم الكَرِيم والخادم الفَّا رة يسعی عليَّ بالأقْداحِ
وظريف الحديث والكاعب الطَّفُّف لة ترتج في سُموط الوِشاحِ

انصرفوا، فيشسوا منه، فدبرُوا في إفساد دولته.

ودخل على المأمون عمرو بن مسعدة ورجلٌ من الفقهاء، وبين يَدَيْهِ جام زجاج فيه رطل شراب، فمدَّ به يده المأمون إلى الرجل، فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما شربتها ناشئاً فلا تسقنيها شيخاً، فردَّ يده إلى عمرو، فأخذها منه، وقال: الله يا أمير المؤمنين، إني أليْتُ في الكعبة ألا أشربها؛ ففكر طويلاً والكأس في يد عمرو، ثم قال: [الكامل]

رُداً عليَّ الكأس إنكما لا تعلمان الكأس ما تُجدي
لو دُقَّتْما ما ذُقْتُ ما مزجتُ إلا بدمعكما من الوَجْدِ

ما مثل نعمائها إذا اشتملت
خوفتماني الله ربكمَا
إن كنتما لا تشربان معي
إلا اشتمال فم على خدّ
وكخيفتيه رجأؤه عندي
خوف العقاب شربتها وحدي

وقال الحسن بن هانئ وهو الإمام في الخمریات : [السيط]

ساع بكأس إلى ناس على طرب
قامت تريني، وأمر الليل مجتمع
كأن صغرى وكبرى من فواقعها
كلاهما عجب في منظر عجب
صبحاً تولد بين الماء والعنب
حصباء درّ على أرض من الذهب
وله أيضاً : [الكامل]

قال ابغني المصباح قلت له اتد
فسكبت منها في الزجاج شربة
من قهوة جاءتك قبل مزاجها
حسبي وحسبك ضوءها مصباحا
كانت له حتى الصّباح صباحا
عطّلاً فالبسها المزاج وشاحا
أهدت إليك بريحها تفاحا
فأزالهن وأثبت الأرواحا
شقّ البزّال فوآدها فكأنّها
فأنتك في صور تداولها البلى
وقال ابن المعتز : [الطويل]

ونار قدخناها سراعاً بسخرة
يجول حباب الماء في جنباتها
وقال ابن وكيع : [الطويل]

وصفراء من ماء الكروم كأنها
كأن الحباب المستدير بطوقها
الطوق : حاشية الكأس .

وقال ابن المعتز في الحباب وتشبيهه له أحسن من تشبيهه بجميعة : [مجزوء الكامل]

أسقي مخدرة الدنيا
راحاً تخال حبابها
وقال الحسن : [مجزوء الرمل]

بنت عشر لم تعاین
ثم سحّت فأدارث
كاقتران الدرّ بالدرّ
فإذا ما اعترضته السد
غير نار الشمس نارا
فوقها طوقاً فدّاراً
صغاراً وكباراً
عين من حيث استداراً

خَلَّتْهُ فِي جَنَّبَاتِ الْكَاسِ وَأَسْ وَأَوَاتٍ صَغَارَا
وله أيضاً في مثل ذلك: [مجزوء الكامل]

وَالْكَاسُ أَهْوَاهَا وَإِنْ رُزِيتَ بَلَّغَ الْمَعَاشَ وَقَلَلْتَ فَضْلِي
ذَخِرْتَ لِأَدَمَ قَبْلَ خَلْقِهِ فَتَقَدَّمَتْهُ بِخَطْوَةِ الْقَبْلِ
فَأَتَاكَ شَيْءٌ لَا تَلَامِسُهُ إِلَّا بِحَسَنِ غَرِيْزَةِ الْعَقْلِ
فَإِذَا عَلَاهَا الْمَاءُ أَلْبَسَهَا نَمْشاً كَمَثَلِ خِلَاجِ الْحَجْلِ
حَتَّى إِذَا سَكَنْتَ جَوَانِحُهَا كَتَبْتَ بِمِثْلِ أَكَارِعِ النَّمْلِ
خَطَّيْنِ مِنْ شَتَى وَمَجْتَمِعِ غُفْلٍ مِنَ الْإِعْجَامِ وَالشَّكْلِ
وقال ابن المعتز: [البسيط]

كَأَنَّ فِي كَأْسِهَا وَالْمَاءُ يَقْرَعُهَا أَكَارِعُ النَّمْلِ أَوْ نَقْشُ الْخَوَاتِيمِ
وقال حبيب: [الكامل]

صَعِبَتْ وَرَاضُ الْمَرْجِ سَيِّئُ خَلْقِهَا فَتَعَلَّمْتُ مِنْ حُسْنِ خُلُقِ الْمَاءِ^(١)
خَرْقَاءُ يَلْعَبُ بِالْعُقُولِ حَبَابِهَا كِتْلَاعُ الْأَفْعَالِ بِالْأَسْمَاءِ
وَضَعِيفَةٌ إِذَا أَصَابَتْ فُرْصَةً قَتَلَتْ، كَذَلِكَ فُذْرَةُ الضَّعْفَاءِ
وَكَأَنَّ بِهَجَّتِهَا وَبِهَجَّةِ كَأْسِهَا نَارٌ وَنُورٌ قُيِّدَا بِوَعَاءِ
أَوْ دُرَّةٌ بِيضَاءٍ بَكْرٌ أَطْبَقَتْ حَبْلًا عَلَى يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءِ
وقال ابن البَّال: [الكامل]

وَمَدَامَةٍ لِبَسْتَ غِلَالَةَ نَرْجِسٍ وَتَنَفَسْتُ فِي الْكَاسِ أَيَّ تَنَفَسِ
بَاكِرْتُهَا وَالْوَرْدُ يَوْقُظُهُ النَّدَى وَتَبَلَّ خَدَيْهِ عَيُونُ النَّرْجِسِ
وَالشَّمْسُ تَنْظُرُ مِنْ وَرَاءِ غِمَامَةٍ لِبَسْتَ مِنَ الْكَافُورِ أَحْسَنَ مَلْبَسِ
نَبَّهْتُهَا بِيَدِ الْمَزَاجِ فَأَصْبَحَتْ تَرْتُّو إِلَيَّ بِأَعْيُنٍ لَمْ تَنْعَسِ
وَتَوَزَّدَتْ حَتَّى تَوَقَّدَ كَأْسُهَا فَحَسَبْتُهَا فِي الْكَفِّ جَذْوَةَ مَقْبَسِ
[مجزوء المتقارب]

وَلَا كَسَانَ سَرَاقٍ دَهَائِي الرِّفَاقِ
لِأَرْضِ السَّرَاقِ بِحَمْلِ الشُّبَّخِ

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٣٨.

فَلَا تَغْضَبَنَّ	وَلَا تَغْجَبَنَّ
وَلَا تَغْتَبَنَّ	فَعُذِّرِي وَضَخ
وَلَا تَغْجَبَنَّ	لِشَّيْخِ أَبْن
بِمَغْنَى أَغْن	وَدَنْ طَفَخ
فَإِنَّ الْمُدَامَ	تَقْوَى الْعِظَامَ
وَتَشْفِي السَّقَامَ	وَتُنْفِي التَّرَحَّ

* * *

قوله : «دهائي»، أي تشيطني ومكري، السَّبَح، جمع سبحة، وقد تقدمت تصخين : ترفعن صوتك بالصياح . تعتبن : تلومن، وضخ : ظهر، أبْن : أقام . مغنى : منزل، أغن : كثير الأشجار، فإذا هَبَّتِ الريح فيها سمعت لها عُثَّة، ومن هذا قولهم : رَوْضَةٌ غَنَاء، لأن صوت الريح يخرج من بين أشجارها، وعشبتها أغن .

ومن فسرها بأن الذباب يغني فيها، فهو صحيح في المعنى فاسد في التصريف، لأن يغني أصله (غ ن ي) وأغن أصله (غ ن ن) فيريد بالمغنى الأغن منزلاً كثير الأشجار . وفسره بعضهم كثير الأهل، والأول أولى .

طفح : امتلأ خمرأ، المُدَام : الخمر، وقوله : «تقوى العظام، وتسفي السقام» وقد تجاوز هنا قوم حتى جعلوها من العاهات ؛ قال الأقيشر - ويروي لأبي نواس : [الطويل]

وَمَقْعَدِ قَوْمٍ قَدْ مَشَى مِنْ شَرَابِنَا	وَأَعْمَى سَقِينَاهُ ثَلَاثًا فَأَبْصَرَ
كُمَيْتٍ كَأَنَّ الْعَنْبِرَ الْوَرْدَ رِيحُهَا	إِذَا شَمَّهَا الْحَانِي مِنَ الذَّنْ كَبَّرَا
تَوَقَّدُ فِي أَيْدِي السَّقَاةِ كَوْوَسَهَا	إِذَا مَا رَأَاهَا صَائِمُ الْقَوْمِ أَفْطَرَا

وقال آخر : [الطويل]

أبا هاشم هل لي سبيل إلى التي أرى شربةً منها قواماً لأخْذِبِ
وقوله : «وتنفي الترح»، أي تزيل الحزن .

وقال الحسن بن هانئ في أن الخمر تزيل الحزن والهَم : [البسيط]

دَغْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللُّومَ إِغْرَاءُ	وَدَاوَنِي بِالَّتِي مِنْهَا بَيَ الدَّاءُ
صَفْرَاءُ لَا تَنْزِلُ الْأَحْزَانَ سَاخَتْهَا	لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَاءُ
قَامَتْ بِإِبْرِيْقِهَا وَاللَّيْلُ مَعْتَكِرٌ	فَظُلٌّ مِنْ وَجْهٍ فِي الْبَيْتِ لِأَلَاءِ
وَأَرْسَلَتْ مِنْ فَمِ الْإِبْرِيْقِ صَافِيَةً	كَأَنَّمَا أَخَذَهَا بِالْعَقْلِ إِعْفَاءُ
رَقَّتْ عَنِ الْمَاءِ حَتَّى لَا يَلِائِمُهَا	لَطَافَةٌ وَجَفَاءُ عَنْ شَكْلِهَا الْمَاءُ

فلو مَزَجْتَ بها نوراً لمازجها
وقال البحرّي: [الكامل]

فاشرب على زهر الرياض يشوبه
من قهوة تنسي الهموم وتبعث
يخفي الزجاجة لونها، فكأثها
وقال حبيب: [الكامل]

بمدامة يغدو الفتى لكووسها
راخ إذا ما الراح كُنْ مطيها
عنبتة ذهبية سبكت لها
[مجزوء المقارب]

وَأَضَفَى الشُّرُوزَ
أَمَاطَ سُتُورَ الْـ
وَأَخْلَى الْغَرَامَ
أَزَالَ اكْتِنَامَ الْـ
فَبُخِ بِهَهْوَكَ
فَرَزْنَدُ أَسَاكَ
وَذَاوَا الْكُلُومِ
بِبُنْتِ الْكُورِ
وَحُصَّ الْغُبُوقُ
بَلَاءَ الْمَشُوقِ
إِذَا مَا الْوَقُوزُ
حَايَا وَاطَّرَحَ
إِذَا الْمَسْنَتَهُامُ
هَوَى وَافْتَضَخَ
وَيَرُذُ حَشَاكَ
بِهِ قَذَقْدَخَ
وَسَلَّ الْهُمُومِ
مِ الْتِي تُفْتَرَحَ
بِسَاقٍ يَسُوقُ
إِذَا مَا طَمَخَ

قوله: «أماط»، أي أزال، أطرح: رمى بها، وهذا منتزع من قول علي بن الخليل:
[مجزوء الكامل]

لا تَكُمُلِ اللَّذَاتِ
هَتَكَ السُّتُورِ فَإِنَّمَا الْـ
إِلَّا بِالْقِيَانِ وَبِالْخُمُورِ
لِذَاتِ فِي هَتَكَ السُّتُورِ

(١) الأبيات في ديوان البحرّي ص ٦.

(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٣.

فدع العواذل لا يقـ فن عليك من دُون الصَّدُورِ
واعلم بأنك راجعٌ حقاً إلى ربِّ غفورٍ

قوله: «الغرام»، شدة الحب، المستهام: الذي حمله الحب على أن يهيم، أي يذهب ولا يدري أين يتوجه. افتضح: اشتهر، يقول: أصفى ما يكون السرور إذا أزال الوقور ثياب الحياء واطرحها عنه، وأحلى ما يكون العشق إذا أزال العاشق الكتم وشهر نفسه به، ومن هذا قول أبي نواس: [الطويل]

ألا فاسقني خَمراً وقُلْ لي هي الخمرُ ولا تسقني سِراً إذا أمكنَ الجهرُ
ويُحْ باسم مَنْ تهوى ودَغني من الكنى فلا خَيْرَ في اللذات من دونها سترُ

قوله: «زند أساك»، الزند: الذي يقدح به النار، والأسى: الحزن، يقول: يرد قلبك بذكر من تهوى، فإنك إن رمت كتمه قدح به زند حزنك.

ونحو هذا ما يحكى أن أبا الفضل الدارمي، كان له هوى بغلام، فإذا رآه أنكر حبه، والغلام يعرف شدة وجده به، فدمعت يوماً عينا أبي الفضل، فقال له الغلام: دمعك شاهد عليك، فقال: [الطويل]

وهَبْنِي قد أنكرتُ حُبَّكَ جَمَلَةً وآليت أني لا أروم محطَّها
فمن أين لي في الحب جرح شهادة سقامي أملاها، ودَمعي خَطَّها!
وقال المتنبي: [البسيط]

وكتام الحب يوم البين منهتكُ وصاحب الذم لا تخفى سرائره^(١)
والشعر في هذا كثير، وكله تبع لقول العباس بن الأحنف: [الخفيف]

لا جَزَى الله دمعَ عَيْنِي خَيْراً وجزى الله كلَّ خير لسانِي
نَمَّ دمعِي فليس يَكُتُمُ شيئاً ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طيُّ فاستدلوا عليه بالعنوان

أما الاشتهار الذي ذكر فإنما يأخذ به أهل التماجن ومن لا بال له، وأما أهل المروءات والتصاون، فغايتهم إعلام المحبوب بشأنهم، وكتمه عن الناس، وذلك شديد، ولا يقوم به إلا من كمل عقله، وأما أن يكتمه عن محبوبه كحكاية أبي الفضل، فأشدُّ أحوال هذا الباب أن يكون لمحبوبك أصحاب يألفهم ويألفونه، فيعلمون بشأنك كما فعل أبو الأصبع بن رشيد المرتكي، أنشدنيه الفقيه أبو الحسن بن زرقون: [المقارب]

أبا قاسم إن قَسَمْتَ الهوى كؤوساً فحظِّي أوفى الكؤوس

وبين جُفونك با قاتلي وبين فؤادي حَرْبُ البسوس
ويئن الجوانح نارُ الجوى كما قد سمعت بنار المجوس
أسارقك اللحظ في خَفِيَّةٍ كما يتناول قَيْدُ الشَّموس
فمهما بدوثٌ ومهما رنوثٌ فشغل العيون وشغل النفوس
سُررت به بين أصحابه فحدُّوا اللحاظ وهزُّوا الرؤوس
وهذا على خطرة فَدَّةٍ فكيف لو أني نويت الجلوس

قوله : «داو الكلوم»، يريد جراح قلبه من أنكاد الدهر، ولذلك اتبعه، بـ«سَلَّ الهموم»، لأنه في معنى «داو الكلوم»، وهذا كقول العطوي :

أعجبتن أن أناخ بي الدهر فخاصمته إلى الأقداح
لا تزداد الهموم أنشبن أظفا رأ حداداً بشرب ماء قَراح
أحمد الله صارت الكأس تأسو دون إخواني الثقات جراجي

قوله : «تقترح» تمنى. الغبوق : شرب العشي، والمسوق : المحب، وطمح : ارتفع بالنظر، يقول : خُصَّ شرابك بالعشي مع غلام حَسَنٍ يسقيك ويبيت معك على شرابك، ويكون لإفراط حسنه، يجلب عذاب العاشق إذا نظره.

ومما قيل في السقاة ووصف الخمر من الشعر المستحسن قول أبي نواس :

[الطويل]

إذا عَبَّ فيها شارب القوم خلته يقبِّل في داج من الليل كوكبا
ترى حيثما كانت من البيت مَشْرِقاً وما لم تكن فيه من البيت مَغْرِباً
يدور بها ساقٍ أغنَّ ترى له على مُستدار الخدَّ صُدْغاً معقرباً
سقاني ومثاني بعينيه منيةً فكانت إلى نفسي الذُّ وأعجباً
وقال ابن الرومي فأحسن : [الكامل]

ومهفهف كَمَلَتْ محاسنُه حتى تجاوز مُنْيَةَ النَّفسِ
تصبو الكؤوس إلى مرَاشِفِه وتضج في يده من الخبسِ
أبصرته والكأس بين فمٍ منه وبين أناملِ خَمْسِ
فكأنها وكأنَّ شاربَها قمر يقبِّل عارض الشمسِ

وقال ابن المعتز : [البيط]

ظبيُّ مُخَلَّى من الأحزان أودعني ما يعلم الله من حُزْنٍ ومن قَلَقِ
كأنه وكأن الكأس في يده هلال أول شهر غاب في شَفَقِ

وقال أيضاً : [الكامل]

يا حسن أحمد غادياً أمسِ بمدامة صفراء كالورس
وكان كفيه تقسم في أقداحنا قطعاً من الشمسِ

ولأبي طالب الرِّفاء في معنى آخر : [الطويل]

لها في كفّ شاربها شعاعٌ تطرّف منه مبيضُ البَنانِ
ولأبي بكر الخالدي : [البيط]

تومي إليك بأطراف مطرّفة فيها خضابان للعُئاب والعنب

فهذا في انتقال حُمرتها لأصابع حابسها ، فإذا انتقلت لخدّ شاربها حدث للشعراء في ذلك معنى بديع صنع البديع يسمّى المطابقة ، وهو الوصف بالغروب والطلوع وقال في ذلك الطليق المرواني : [الرملي]

أصبحت شمساً وفوه مغرباً ويدُ الساقبي المحيّي مشرقاً
فإذا ما غربت في فمه أطلعت في الخدّ منه شفقا
ولأبي مطروح بن فتوح : [الكامل]

صهباء تغرب إن بدت من كفّه في فيه ثم تلوح في وجنّاته
وقال غيره : [السريع]

بَذرُ بدا يشرب شمساً بدت وجدها في الحسن من جدّه
تغرب في فيه ولكّنها من بعد ذا تطلع في خدّه
وقال آخر : [السريع]

أقول والكأس على فيه وقد صوّبها كالكوكب الصائبِ
ذا كوكب يغرب في كوكبٍ ويُلِي عَلى الطّالِعِ والغاربِ!

رجعنا إلى ذكر السقاة - قال ابن المعتز : [الطويل]

تدور علينا الكأس من كفّ شادين له لحظ عين يشتكي السقم مدنفُ
كان سلاف الخمر من ماء خدّه وعنقودها من شعره الجغد يُقَطَفُ

وقال أبو بكر الخالدي : [البيط]

أهلاً بشمس مُدام مِنْ يَدَي قَمَرٍ تكامل الحسنُ فيه فهو تيّاهُ
كان حمرتها إذ قام يمزجُها من خدّه اغتصرت أو من ثناياهُ
في وجه قُلْ وريحانٍ تراح له مِنّا قلوبٌ وأبصارٌ ونهواهُ

بنفسج، وجَنِّي الورد خَدَّاهُ

ولابن الرِّقَاق: [الطويل]

تلاًلأ منها مثل ضوءِ جبِينِه
وثُنَّى بأخرى من رحيقِ جفونِه
تريك قطاف الورد في غيرِ جِينِه
والثُم من خذِيه ما في يمينِه

النُّرجس الغضَّ عيناه وطُرَّتُه

وساق يحثُّ الكأسَ وَهِي كَأثْمَا
سقاني بها صرف الحُمَيَّا عَشِيَّةً
هضيم الحشا ذو وَجَنَّةٍ عِنْدَ مِيَّةٍ
فأشرب مِنْ يميناه ما فوق خَدَه

وقال الخوارزمي: [الطويل]

شمال وأنهار ودهر مَحْرَمُ
وكنز مجوسي وفتنة مسلم
على عينه من شرط يحيى بن أَكْثَمُ

وصفراء كالدينار بنتُ ثلاثةِ
مَسْرَّةٍ محزونٍ وعذر مُعْزِيْدٍ
بدور بها ظبي تدور عُيوننا

وقال ابن المعتز: [الخفيف]

أتلُفت ما لَهُم نفوس كرامُ
وهو سحر وما سواه كلامُ
ح كما تاح في الغُصُون الحمامُ
ألفات بين السُّطور قيامُ

ونداماي في شباب وشيب
بين أقداحهم حديث نضيرُ
وغناء يستعجل الرِّاح بالراءِ
وكان السقاة بين الندامى

[المتقارب]

بِصَّوْتِ تَمِيْدُ
لَهُ إِنَّ صَدَخُ
الَّذِي لَا يُبِيحُ
إِذَا مَاسَمَخُ
وَلَوْ بِالْمُحَالِ
وَحُذِّمَاصْلَخُ
إِذَا مَآ أَبَاكَ
وَصِذَمَنْ سَنَخُ
وَنَافِ الْبَخِيلِ
وَوَالِ الْمَمْنِخُ
أَمَامَ الذَّهَابِ

وَشَادِ يُشِيْدُ
جِبَالُ السَّحْذِيْدِ
وَعَاصِ النَّصِيخِ
وَصَالِ الْمَلِيخِ
وَجُلُ فِي الْمِحَالِ
وَدَغِ مَا يُقَالِ
وَقَسَارِ أَبَاكَ
وَمُذِ الشُّبَاكَ
وَصَافِ الْخَلِيلِ
وَأَوَّلِ الْجَمِيلِ
وَلُذِ بِالْمَتَابِ

فَمَنْ ذُو بَابٍ كَرِيمٍ فَتَخ

قوله: «شاد»، أي مغنٍّ، يُشيد: يتقن غناءه ويحكمه. تميد: تميل. صدح: رفع صوته بالغناء، والصداح: الصوت الشديد، يقول: وأحضر الخمر مغنياً تميل الجبال لحسن غنائه، وهذا مثل ما حكى المنجم، قال: حكى لي أن إبراهيم بن المهدي، كان أحسن الناس غناء ببهان، وذلك أنني كنت أراه في مجالس الخلفاء مثل المأمون والمعتصم يُغني المغنون، فإذا ابتدأ هو لم يبق أحد من الغلمان والمتصرفين وأصحاب الصناعات والمهن الصغار والكبار، إلا وقد ترك ما في يده، وصار بأقرب موضع يمكنه أن يسمعه، فلا يزال مصغياً إليه، لا هياً عما كان فيه ما دام يغني، فإذا أمسك وغنى غيره رجعوا إلى أشغالهم، ولا برهان أقوى من شهادة الفطرة، واتفاق الطباع على الميل إليه مع اختلافها في غير ذلك.

وقال منصور بن المهدي: غنى أخي إبراهيم الأمين يوماً فقال: [المقارب]

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها
لكي يعلم الناس أنني امرؤ أتيت الفتوة من بابها

وكان الأمين مشرفاً على حمر الوحش، وهو مخمور، وكان من عادته ألا يشرب وهو مخمور، فاستوى جالساً وطرب، وقال: أحسنت والله يا عم، وأحييت لي طرباً، وغنى يومئذ على أشد طبقة ينتهي إليها، وما سمعت مثله قط وقد رأيت منه شيئاً عجيباً، لو حدثت به ما صدقته، كان إذا ابتدأ يغني أصغت الوحش، ومدت أعناقها، ولم تزل تدنو منه، حتى تضع رؤوسها على الدكان الذي كنا عليه، فإذا سكنت نفر عتاً، حتى تنتهي إلى أبعد غاية يمكنها التباعد فيها عتاً، وجعل الأمين يعجب من ذلك.

قوله: «بيح»، أي يجعله له مباحاً، يقول: أعص من يعذلك في وصل المليح متى سمح بوصله.

وكان أعرابي قد طال تعشقه لجارية، ف قيل له: ما كنت صانعاً لو ظفرت به، ولا يرا كما غير الله؟ قال: إذا والله لا أجعله أهون الناظرين، لكنني كنت أفعل بها ما كنت أفعله بحضرة أهلها، شكوى وحديث عذب، وإعراض عما يسخط الرب، ويقطع الحب، فإن تلقى وصل المليح، إذا سمح بمثل هذا فعصيان النصيح واجب، وأكثر الناس يرى أن الظفر بالمعشوق يسقط نصف عشقه، وأن النكاح يفسد الحب:

وقال المأمون: [مجزوء الكامل]

ما الحب إلا قبلة وغمز كف وعَضْد
وكتب فيها رقي أنفذ من نفث العُقْد

مَنْ لَمْ يَكُنْ ذَا حُبِّهِ فَلِئِمَّا يَبْغِي الْوَلَدُ
مَا الْحُبَّ إِلَّا هَكَذَا إِنْ تُكِّحَ الْحُبَّ فَسَدَ

وقال حبيب في نقيضه وأجاد: [الطويل]

وَقَالَتْ نِكَاحُ الْحُبِّ يَفْسِدُ شَكْلَهُ وَكَمْ نَكَحُوا حُبًّا وَلَيْسَ بِفَاسِدٍ!

وقالت أم الضحاك المحاربية: [الوافر]

شَفَاءُ الْحُبِّ تَقْبِيلٌ وَضَمٌّ وَرَهْزٌ تَمْهُلُ الْعَيْنَانِ مِنْهُ
وَأَخَذَ بِالْمَنَاكِبِ وَالْقُرُونِ

وقال الحسن: [الوافر]

إِذَا هَجَعَ النَّيَامُ فَخَلَّ عَنِي وَعَمَّنْ كَانَ أَیْصَلِحُ لِلدَّيْبِ
فَلِئَنِّي عَالِمٌ فَطَنَ أَرِيبٌ وَلَمْ يَخْبِرْكَ مِثْلُ فَتْنِ أَرِيبٍ
أَلَذُّ الْفَعْلِ تَأْخُذُهُ سُرُورًا بِمَنْحِ الْحُبِّ أَوْ مَنَعِ الرَّقِيبِ

وبعد هذا ما يقبح ذكره، وشعر الحسن يكثر في هذا الباب.

وقال ابن الأَبَار رحمه الله - وذكر أنه فعل بمحبوبه وبرقيقه: [الخفيف]

فَوَثَبْنَا عَلَى الْغَزَالِ وَثَوْبًا وَدَبَبْنَا عَلَى الرَّقِيبِ دَبِيبًا
فَهَلْ أَبْصَرْتَ أَوْ سَمِعْتَ بَصْبٌ نَاكَ مَحْبُوبِهِ وَنَاكَ الرَّقِيبَا!

وقال ابن بَسَام: لقد ظَرَفَ ابن الأَبَار، واستهتر ما شاء وقدر، وأظنه لو قَدَّرَ عَلَى إبليس الَّذِي تَوَلَّى لَهُ هَذَا الْمَذْهَبَ لَدَبَّ عَلَيْهِ.

وابن المعتز كَتَى وَلَمْ يَصْرَحْ، فَقَالَ: [البسيط]

فَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكَرُهُ فَظَنُّ خَيْرًا وَلَا تَسْأَلُ عَنِ الْخَبِيرِ
أَيْنَ مَا قَدَمْنَاهُ لَابِنِ الْآبَارِ مِنْ قَوْلِ الْآخِرِ فِي ضِدِّهِ: [مجزوء الكامل]

وَمُنَّعِمُ غَضِّ الْقِطَافِ عَذِبَ لَمَاءُ لَلَارْتِشَافِ
فَوَرَدَتْ جَنَّةُ نَحْرِهِ وَنَعِيمُهَا دُونَ اقْتِطَافِ
وَعَصِيْتُ سُلْطَانِ الْهَوَى وَأَطَعْتُ سُلْطَانَ الْعَفَافِ

وقال ابن الأَبَار أَيْضًا: [الكامل]

وَمَعْرِضٌ بِالْغَصْنِ فِي حَرَكَاتِهِ تَسَلُّ الْقُلُوبِ الْعَفْوُ مِنْ لِحْظَاتِهِ
عَاطِيَّتُهُ كَأَسَا كَأَنَّ سُلَاقَهَا مِنْ رِيقِهِ الْمَعْسُولِ أَوْ وَجَنَاتِهِ
وَأَطَعْتُ سُلْطَانَ الْعَفَافِ تَكْرَمًا

وقال الشريف الرضي فأحسن : [السيط]

بِثْنًا ضَجِيعَيْنِ فِي ثَوْبِي هَوَى وَتَقَى
وَبَات بَارِقَ ذَاكَ الثُّغْرَ يَوْضَحُ لِي
وَبَاتت الرِّيحُ كَالْغَيْرَى تَجَاذِبُنَا
وَأَكْتَم الصَّبْحَ عَنْهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ
فَقَمْتُ أَنْفَضُ بُزْدًا مَا تَعْلَقُهُ
وقال ابن فرج الجاني : [الوافر]

وَمَا الشَّيْطَانُ فِيهَا بِالْمُطَاعِ
دِيَاغِي اللَّيْلِ سَافِرَةٌ الْقِنَاعِ
إِلَى فِتْنِ الْقُلُوبِ لَنَا دَوَاعِ
لَأَجْرِي فِي الْعَقَافِ عَلَى طَبَاعِي
سَوَى نَظَرٍ وَشَمٍّ مِنْ مَتَاعِ
فَاتَّخَذَ الرِّيَاضَ مِنَ الْمَرَاعِي
وطائعة الوصال صددت عنها
بدت بالليل سافرة فباتت
وما من لحظة إلا وفيها
فملكت الهوى جمحات شوقي
كذاك الروض ما فيه لمثلي
ولست من السوائم مهملات
وقال أيضاً فأحسن : [الوافر]

بِأَيُّهِمَا أَنَا فِي الشُّكْرِ بَادِي
سَرَى لِي فَازْدَهَى أَمَلِي، وَلَكِنْ
وَمَا فِي النَّوْمِ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ
كَأَنَّهُ لِمَا عَفَّ فِي الْيَقِظَةِ جَرَى عَلَى عَادَتِهِ فِي النَّوْمِ، وَهَذَا مِنْ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ : [الطويل]

يَرُدُّ يَدَا عَنْ ثَوْبِهَا وَهَوَا قَادِر
وَيَعْصِي الْهَوَى فِي طَيْفِهَا وَهُوَ رَاقِدٌ
وهذا أملك شهوة من التهامي، وإن كان قد أحسن حيث يقول : [السيط]

إِنِّي لِأَصْرَفُ طَرْفِي عَنْ مُحَاسِنِهَا
وَلَا أَهَمُّ وَلِي نَفْسٌ تَنَازَعُنِي
وقال ابن طباطبا : [الكامل]

يَقْظَاتِهِ وَمَنَاوَهُ شَرَعٌ
إِنْ هَمَّ فِي حُلْمٍ بِفَاحِشَةٍ
أَخَذَهُ السَّرِي، فَكُتِبَ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ، وَكَانَ اتِّهَمُهُ بِغِلَامٍ بَعَثَهُ إِلَيْهِ : [الوافر]

أَبَا بَكْرٍ أَسَاتِ الظَّنِّ فَيَمُنْ
وَخَفْتُ عَلَيْهِ فِي الْخَلَوَاتِ مِثِّي
سَجِيئُهُ التَّمَنُّعِ وَالْخِلَافِ
وَلَمْ يَكْ بَيْنَنَا حَالٌ تُخَافُ

جفوتُ من الصُّبا ما ليس يُجفَى وعفت من الهوى ما لا يعافُ
فلو أني هَمَمْتُ بقبح فعل لدى الإغفاء أيقظني العَفافُ
قوله: «جُلْ»، تصرف، المَحَال: المَكْر. لُذ: تعلق وتستر. المَحَال: الباطل، وما
لا يمكن ثبوته، ودع ما يقال، أي لا تلتفت إلى مَنْ ينقصك باتباع لذاتك، وخذ ما
يوافقك ويصلح بك.

وهذا رأي من اشتهر بالمجون كالحسن في قوله: [الكامل]

دَغْ عنك ما جدّوا به وتبَطَّل وإذا لقيت أخا الحقيقة فاهزِلِ
لا تركبَنَّ من الذنوب خسيّسها واعمد إذا قاربتها للأنبِلِ
وخطيئة تغلو على مُنتامِها يأتيك آخرها بطعم الأوّلِ
حَلَلْتُ لا حرج علي حرامها ولزّما حللت غير مُحلّلِ
وقال ابن وكيع: [الكامل]

لا تقبلنَّ من الرشيد كلامه وإذا دعاك أخو العَوَاية فاقْبَلِ
ودع الترقب والتجمل للورى فالعيش ليس يطيب للمتجملِ
وقال أيضاً: [الكامل]

فارقتُ بعدك عِفْتي ووقاري وخلعت في طرق المجون عِذاري
لا تأمرني بالتستّر في الهوى فالعيش أجمع في ركوب العارِ
لا تكثرنَّ عَلَيَّ إن أخا الحِجَا برِّمُ يقرب الصناحب المكثارِ

قوله: «أباك»، أي تمنع منك، سنح: تيسر، يقال: سنح الشيء سنوحاً، إذا تيسر
صاف الخليل، أي أخلص الودّ لصاحب، ناف: باعد. أوّل الجميل: ألصق المعروف
بمن يستحقه، وقد أولاني فلان المعروف: ألصقه بي، وجعله بينه وبينني، وقيل معنى
«أولاني» مَلَكْنِي، من قولهم: هذا وليّ المرأة، أي مالك أمرها. وقيل: معناه عضدني به
وقوّاني، من قولهم: بنو فلان ولّاءة على بني فلان، أي يعينونهم ويعضدونهم، وقيل:
أولاني: أنعم عليّ، من الألاء، وهي النعم، واحداها إلنيّ وألنيّ، والأصل وليّ ووليّ،
أبدل من الواو المكسورة همزة، على حدّ «إساد» وأبدل من الواو المفتوحة همزة على حدّ
أحد وامرأة أناة، والِ المُنْح: تابع العطايا، أمام الذهاب: قدّام الموت، يقول: إذا شخت
وأيقنت الموت، فاضرب باب التوبة، فإنه يُفْتَحْ لك إذ كلّ كريم بابهُ يفتح.

ابن عباس، قال رسول الله ﷺ: «إن المصلي يقرع باب الملك، وإنه من يداوم قرع الباب
يوشك أن يفتح له»، والله تعالى أكرم الكرماء، وبابه باب التوبة. وقال الألبيري: [الوافر]

فلازم قَرَعَ باب التوبة دأباً فإن لزومه سبب الدخول

فقلتُ له: بَخِ بَخِ لِرِوَايَتِكَ، وَأَفِّ وَتَفِّ لِعَوَايَتِكَ، فَبِاللهِ مِنْ أَيِّ الْأَعْيَاصِ عَيْصِكَ، فَقَدْ أَغْضَلَنِي عَوِيصُكَ؟ فقال: مَا أَحْبُّ أَنْ أَفْصَحَ عَنِّي، وَلَكِنْ سَأَكْنِي... [مجزوء الخفيف]

أَنَا أَطْرُوفَةُ الزَّمَانِ	نِ وَأَغْجُوبَةُ الْأَمْنِ
وَأَنَا الْحَوْلُ الَّذِي أَحْمِ	تَالُ فِي الْعُرْبِ وَالْعَجَمِ
غَيْرَ أَنِّي ابْنُ حَاجَةٍ	هَاضَةُ الدَّهْرِ فَاهْتَضَمِ
وَأَبُو صِبْنِيَّةٍ بَدَا	مِثْلَ لَحْمٍ عَلَى وَضَمِ
وَأَخُو الْعَيْلَةِ الْمَغْمِ	يَلُ إِذَا اخْتَالَ لَمْ يُلَمِ

قوله: «بخ بخ»، أي عجب عجب وتثقل وتخفف، وهي كلمة تقال عند الإعجاب بالشيء. أف وتَفِّ، الأصمعي: الأف وَسَخِ الأذان، والتَفِّ: وَسَخِ الأظفار، ثم استعمل ذلك عند كل شيء يُضَجَّر منه.

وقال غيره: الأف: القلَّة، مأخوذ من الأفَف وهو القلة ثم نُسِقَ التَفِّ عليه. ومعناه كمعناه، ويقال: لمن يُدْعَى عليه بالخيبة: أَفٌ وَتَفٌّ لك. وقال ابن الأنباري: إذا أفردت أف، ففيها عشرة أوجه: فتح الفاء، وكسرها وضمها على قياس مُدٍّ؛ وثلاثتها بالتنوين على قياس وَيْلٍ، فنصبه على الدَّعاء، ورفعها بالابتداء، وخفضه على التشبيه بالأصوات كمة وصة، وأف كقد، وأفي بضم الهمزة منصوب على الدعاء، وأفي بإضافته إلى نفسه، وأف بضم الهمزة وسكون الفاء تشبيهاً بالأدوات، نحو: هل ويل.

غوايتك: ضلالتك. الأعياص: الأصول، والعيص: بيت الأسد، ويريد: مِنْ أَيِّ القبائل والبلاد. أغضلني: صُعب عَلَيَّ، عَوِيصُكَ: صُعبُ أَمْرِكَ ومشكله. أفصح: أبين. أكني أوري، أي أدلّ على نفسي بكلام خفي. أطروفة: غريبة. الحول: الكثير الحيلة، هاضه: كسره. اهتضم: ظلم ونقص، الوضم أطروفة خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم. والعيلة: الفقر، وعال الرّجل يعيل عيلة، إذا افتقر، قال الله تعالى: ﴿وإن خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال الشاعر: [الوافر]

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل^(١)
والمعيل: الكثير العيال، وقد أعال يعيل.

(١) البيت لأحيحة بن الجلاح في لسان العرب (عيل)، وجمهرة اللغة ص ٥٩، ٥٧١، وتاج العروس (عيل)، وجمهرة أشعار العرب ص ٦٥٩، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ٩٥٢.

[مما قيل في الخضاب]

قوله: «الريب»، أي لريبة. مسود وجه الشيب، نبّه به على قوله في أوّل المقامة: «ميسمه ميسم الشبان» يريد أنّه خضب شبيهه وتشبهه بالفتيان، والخضاب مباح والتدليس مكروه، قال النبي ﷺ: «غَيَّرُوا هَذَا الشَّيْبَ»^(١).

وكان أبو بكر رضي الله عنه يخضب لحناء والكتّم، وجاء النهي عن الخضاب بالسواد، وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنّه قال: «يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بهذا السّواد كحواصل الحمام، ولا يربحون رائحة الجنة»^(٢).

ومن كلام المولدين: الخضاب تذكرة الشباب.

الخضاب أحد الشبائين.

وقال مالك بن أسماء بن خارجة لجارية له: قومي اخضبي رأسي ولحيتي، فقالت:

دعني، فقد عييت مما أرقّعك، فقال: [البسيط]

عَيَّرْتَنِي خَلَقاً أَبْلَيْتُ جِدَّتَهُ وهل رأيتَ جديداً لم يَعُدْ خَلَقاً!

وقال آخر: [البسيط]

أليس عندك شكرٌ لَلَّتِي جعلت ما أبيضُ من قادماتِ الرّأسِ كالْحَمَمِ
وجددتُ منك ما قد كان أخلقه طولُ الزمانِ وصرفِ الدَّهْرِ والقِدَمِ

وقال آخر: [الوافر]

وقائلةٌ تقولُ وقد رأيتُني ترقّع عارِضايَ من القَتِيرِ
عليك الخضبُ علّك أن تُدَانِي إلى بيضٍ ترى منهن حُورِ
فقلتُ لها: المشيبُ نذيرُ عمري ولستُ مسوداً وجه التّذيرِ

وقال عبدان الأصبهاني: [الخفيف]

في مشيبي شماتةٌ لَعَدَاتِي وهو ناعٌ مُنْغَصٌ لِحْيَاتِي
ويعيبُ الخضابُ قومٌ وفيه لسيّ أُنْسٍ إلى حضورِ وفَاتِي
لا ومن يعلم السرائر مُني ما تطلّبتُ خَلّةَ الغانياتِ
إنما رُمْتُ أن يغيبَ عَنِّي ما ترينيه كلَّ يوم مراتي
وهو ناعٌ إليّ نفسي ومن ذا سرّه أن يرى وجوه التّعاة!

وقال آخر: [الكامل]

بكرت تحسّن لي سوادَ خضابي لو كان ذلك يعيدُني لشبابي

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٢٤٧، ٣٣٨.

(٢) أخرجه أبو داود في الترجل باب ٢٠، والنسائي في الزينة باب ١٥، وأحمد في المسند ١/ ٢٧٣.

وإذا أديمُ الوجْه أخلقه اليلَى
ماذا الَّذي يبدي عليك خضابه
وقال ابن عبد ربّه : [الوافر]

إذا فصل الخضاب بكى عليه
كأن حمامةً ببيضاءَ ظَلَّتْ
وقال ابن الرومي : [الكامل]

يأتيها الرجل المسود شعره
أقصر فلو سودت كل حمامة
وأملح منه قول الآخر : [الكامل]

قالت خَضِبَتِ الشَّيْبَ ثم أتيتنا
فأجبْتُها لم أختضب لك إنما
وما أحسن ما قال ابن هانيء الأندلسي : [الكامل]

بنتم فلولا أن أغيرَ لَمَتي
لخضبت شيباً في مفارق لَمَتي
وخضبتُ مبيضَ الحداد عليكم
وإذا أردتَ على المشيب وفادةً
فلتأخذن من الزمان حمامةً

قال الزَّاوي : فَعَرَفْتُ حِينَنِي أَنَّهُ أَبُو زَيْدُ دُو الرِّيبِ وَالْعَيْبِ ، وَمُسَوَّدَ وَجْهِ الشَّيْبِ ،
وَسَاءَ نِي عُظْمُ تَمَرْدِهِ ، وَقُبْحُ تَوَرُّدِهِ ، فَقُلْتُ لَهُ بِلِسَانِ الْأَنَفَةِ ، وَإِذْ لَالِ الْمَعْرِفَةِ : أَلَمْ يَأْنِ لَكَ
يَا شَيْخَنَا أَنْ تُفْلِعَ عَنِ الْحَنَّا ! فَتَضَجَّرَ وَزَمَجَّرَ ، وَتَنَكَّرَ وَفَكَرَّرَ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّهَا لَيْلَةٌ مِرَاحَ لَا
تَلَاحَ ، وَنُهْرَةٌ شُرْبِ رَاحَ لَا كِفَاحَ . فَعَدَّ عَمَّا بَدَأَ ، إِلَى أَنْ نَتَلَقَى غَدًا ، فَفَارَقْتُهُ فَرَقًا مِنْ
عَزِيدَتِهِ ، لَا تَعْلَقًا بِعِدَّتِهِ ، وَبِثُّ لَيْلَتِي لِأَسَا جِدَادِ النَّدَمِ ، عَلَى نَقْلِي خُطَا الْقَدَمِ ، إِلَى ابْنَةِ
الْكُزَمِ لَا الْكُزَمِ ، وَعَاهَدَتِ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَلَّا أَخْضُرَ بَعْدَهَا حَانَةَ نَبَازٍ ، وَلَوْ أُعْطِيتُ
مُلْكُ بَغْدَادَ ، وَأَلَّا أَشْهَدَ مِعْصَرَةَ الشَّرَابِ ، وَلَوْ رُدَّ عَلَيَّ عَصْرُ الشَّبَابِ .

ثُمَّ إِنَّا رَحَلْنَا الْعَيْسَ ، وَقَتَّ التَّغْلِيْسَ ، وَخَلَيْنَا بَيْنَ الشَّيْخَيْنِ وَابْلِيسَ .

قوله : «تمرده» ، تشييطنه ، وتمرد إذا كثر شره ، والمريد : الخبيث الذي لا يطاق

مكره تورده: إتيانه بما لا يحل، وأصل التورّد قصد الماء. الأنفّه: الغضب يأنّ: يحين ويقرب. الخنا: الفساد. تضجّر. اشتد غضبه. زمجر: تكلم بما لا يفهم. تنكّر: تغيّر عليّ، ونكر نفسه كأنه لا يعرفني. مراح: طرب ونشاط. تلاح: مشاتمة. نُهزة: فرصة وغنيمة. كفاح: قتال. فَعَدّ: اصرف واترك. فَرَقًا: فزعًا. عَزِيدته: شره وشغبه. الحداد: ثياب الحزن. الخطأ: جمع خُطوة، وهي ما بين القدمين. نبّاذ: خمار. عَضُر: زمان. رَحَلنا العيس: جعلنا على الإبل رحالها. التَغليس: الخروج في الغلّس، وهي الظلمة التي بين طلوع الفجر والشمس.

وأظن أنه بنى هذه المقامة على حكاية لأبي دلّامة، حكى الأصهباني أنّ موسى بن داود الهاشمي عزم على الحج، فقال لأبي دلّامة: اخجّ معي ولك عشرة آلاف درهم، فقال: هاتها، فدفعها إليه، فأخذها وهرب إلى السواد، وجعل ينفقها هنالك في شرب الخمر، فطلبه موسى فلم يقدّر عليه، وخشي فوّت الحجّ، وخرج. فلما شارف القادسية إذا هو بأبي دلّامة خارج من قرية إلى أخرى وهو سكران، فأمر بأخذه وتقييده، وطُرح في محمل بين يديه، فلما سار غير بعيد أقبل على موسى ونادى: [الكامل]

يأتيها الناس قولوا أجمعون معاً:	صلّى الإله على موسى بن داود
كأنّ ديباجتيّ خديّه من ذهب	إذا بدالك في أثوابه السّود
إنّي أعوذ بدّاود وأعظمه	من أن أكلف حجّاً يا بن داود
خُبرت أن طريق الحجّ معطشة	من الشّراب وما شربي بتضريد
والله ما فيّ من أجر فتطلبه	ولا الثناء على ديني بمحمود

فقال موسى: ألقوه عن المحمل، لعنه الله، فألقني وعاد إلى موضعه بالسّواد حتى أنفق المال.

وقال آخر: [الوافر]

ألم ترني وبشاراً حَجَجْنَا	وكان الحجّ من خير التّجارة
خرجنا طالبين سفرٍ بعيد	فمال بنا الطريق إلى زّارة
فآب النّاس قد حجوا وبرّوا	وأبنا موقرين من الخسارة

وقال أبو نواس في الحجّ: [السيط]

وقائل: هل تريد الحجّ قلت له:	نعم، إذا فنيّت لذات بغداد
وكيف بالحجّ لي ما دمت منعمساً	في بيت قوادة أو بيت نبّاذ!

قوله: «وخلينا بين الشيخين أبي زيد وإبليس» من قول الحسن: [السريع]

بتّ وإبليس إلى الصبح في	كلّ الذي يؤثمني خُصمي
-------------------------	-----------------------

وانظر هذا في الثامنة والأربعين، والله أعلم.

المقامة الثالثة عشرة

وتعرف بالبغدادية

حدث الحارث بن همام، قال: ندوت بضواحي الزوراء، مع مشيخة من الشعراء، لا يغلّق لهم مزار بغير، ولا يجري معهم مزار في مضمار، فأفضنا في حديث يفضح الأزهار، إلى أن نصّنا النهار. فلما غاض دُرُّ الأفكار، وصبت النفوس إلى الأوكار، لمحنّا عجوزاً ثقل من البغد، وتحضر إحصار الجرد، وقد استتلت صبية أنحف من المغازل، وأضعف من الجوازِل، فما كذبت إذ رأتنا، أن عرّتنا، حتى إذا ما حضرتنا قالت:

* * *

ندوت، أي خرجت، ويقال: نَدَتِ الإبل تندّ وإذا خرجت من المشرب ترعى فيما قرب منه، وهو الذي قصد، لأنه أراد أنه خرج مع أصحابه خارج البلد يستريحون ثم يرجعون. والضواحي: المواضع البارزة للشمس.

* * *

[الزوراء]

والزوراء، هي في الجانب الشرقي من بغداد، وسميت زوراء لازورار قبلتها، أي لانحرافها. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تكون مدينة بين الفرات ودجلة يكون فيها ملك بني العباس، وهي الزوراء يكون فيها حرب مفضعة تُسبى فيها النساء، وتذبح فيها الرجال كما يُذبح الغنم».

والزوراء هي بغداد، ويقال لها الزوراء، ومدينة السلام، ومدينة المنصور، وبغداد وبغداد وبغدان وبغدام وبغداد - عن الفراء.

وبعضهم يقول: تفسيره بستان رجل، فبغ بستان، وداد رجل. وقيل: بغ صنم، وداد عطية وإنما اختلفت العرب في لفظها إذ لم تكن من كلامها، ولا اشتقاق لها من لغتها، وأشهر لغاتها بغداد، بدالين وبغدان، بالنون. وكان الأصمعي رحمه الله لا يقول ببغداد، وإنما يقول مدينة السلام، لأن بغ عندهم اسم صنم، وداد عطية بالفارسية فكانها

عطية الصم. وبنائها المنصور، وبعث رجالاً يطلبون له موضعاً يبني فيه مدينة، فطلبوا فلم يجدوا، حتى جاء ينزل فنزل على البر الذي في الصّراة، فقال: هذا موضع أرضاه، تأتية الميرة من الفرات ودجلة والصّراة، فوجّه حينئذ الصّناع من الشام والموصل والكوفة وواسط والبصرة، فابتدئت سنة خمس وأربعين ومائة.

وقال محمد بن أبي سهل: لمّا أراد المنصور بناء بغداد، أمرني أن أخذ الطالع، فأخذنا طالعها، فكان المشتري، فأخبرته بما تدلّ عليه النجوم من طول بنائها وكثرة عمارتها، ثم قلت: وخلة أخرى يا أمير المؤمنين، نجدها على ما تدلّ عليه النجوم... لا يموت فيها خليفة، فرأيته يتبسّم، وقال: الحمد لله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وقيل لرجل: كيف رأيت بغداد؟ فقال: الأرض كلها بادية وبغداد حاضرتها.

ابن جبیر: بغداد هي المدينة العتيقة، ولم تزل حاضرة الخلافة العباسية وقد ذهب رسمها ووسمها، وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث عليها، والتفات أعين النواصب إليها كالطلل الدارس، والأثر الطامس، أو تمثال الخيال الشاخص، فلا حسن فيها يستوقف البصر، ويستدعي من المستوفز العفلة والنظر، إلا دجلتها التي بين الشرقية والغربية منها كالمرآة المجلوة بين صفحتين، أو العقد المنتظم بلبتين، فهي تردّها فلا تظماً، وتطلع [منها] في مرآة صقيلة فلا تصدأ. والهواء المنتظم يتولد بين هوائها ومائها، فهي معروفة بفتن الهوى، إلا أن يغصم الله منها. وكنا سمعنا أن هواء بغداد يُنبِت السرور في النفس، ويبعث دائماً على الانبساط والأنس، فلا تكاد تجد فيها إلا جذلان طرباً، وإن كان نازح الدار مغترباً، حتى حللت بقرية وزيран، وهي على مرحلة منها، فلما نفختنا نوافح هوائها، ونقعنا الغلة ببرد مائها، أحسّنا من أنفسنا على حال وحشة الانفراد دواعي من الإطراب، واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحه الغياب بالإياب، وهفت بنا محركات من الأنس ذكرّتنا معاهد الأحباب في عصر الشباب، هذا للغريب النازح الوطن، فكيف الوافد فيها على أهل وسكن! [الطويل]

سقى الله باب الطاق صوب غمامة ورده إلى الأوطان كل غريب

وبغداد جانبان: شرقي وغربي ودجلة بينهما. فأما الجانب الغربي فقد عمّه الخراب، واستولى عليه، وهو كان المعمور أولاً، ولكنه مع خرابه يحتوي على سبع عشرة مجلّه، كلّ واحدة منها مدينة مستقلة، لها الحمامان والثلاثة، وصلاة الجمعة في ثمان منها، وأكبرها القرية، وهي على شطّ دجلة ومقربة من الجسر، ثم الكرخ، وهي مدينة مشهورة، ثم مجلّة باب البصرة، وهي مدينة بها جامع المنصور، وهو كبير عتيق البنيان، ثم الشارع وهي مدينة، وهذه الأربع أكبر المجلات، والوسيلة بين دجلة وبين نهر يتفرّع من الفرات، وينصب في دجلة، يجيء فيها جميع المدائن التي يسبقها الفرات. وعلى بابها نهر آخر منه ينصب في دجلة.

ومنها العتّابية، وهي مدينة يصنع فيها الثّياب العتّابية، وهي حرير وقطن مختلفات الألوان، وأسماء سائر المحلّات يطول ذكرها، وأمّا الشرقيّة فهي محدثة وهي حفيلة الأسوار، عظيمة الترتيب، تشمل من الخلق على بشر كثير لا يحصيهم، إلا الذي أحصى كلّ شيء عدداً. وبالشرقيّ محلة الرّصافة، وبها كان باب الطّاق المشهور على الشطّ، وبإزائها محلّة كبيرة تعرف بقبر أبي حنيفة رحمه الله، فيها قبة سامية في الهواء بيضاء، فيها قبر الإمام أبي حنيفة، وبالقرب منها قبر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله.

وحمامات بغداد لا تحصى، أخبرني بعض أسيّاخها، أن فيها اليوم ألفي حمام، وأكثرها مطلّية بالقار، مسطّحة به، فيخيّل للناظر فيها أنها رخام أسود صقيل، وأكثر حمامات هذه الجهة على هذه الصفة، لكثرة القار عندهم، وشأنه عجيب، لأنّه منبّع عين بين البصرة والكوفة، يصير القار في جوانبها كالصلصال، فيجرف ويجلب، وقد انعقد فسبحان خالقه!

وببغداد من المدارس نحو الثلاثين، ما منها مدرسة إلا كالقصر العظيم، وأعظمها النظاميّة. وبساتين بغداد وحدائقها بالغريّة، ومنها تجلب الفواكه للشرقيّة، والعادة أبداً أن يكون بين الشرقيّة والغريّة جسران لجواز النّاس، ومع ذلك فمن يعبر بينهما من النّاس في الزوارق لا يحصى، وذلك لكثرة النّاس، وزوارقها لا تحصى، والنّاس ليلاً ونهاراً من معاينة العبور فيها في نزهة متصلة رجالاً ونساء.

وبالجملة فشأن هذه البلدة أعظم من أن يُوصف، وأين هي اليوم مما كانت عليه! هي اليوم داخلة تحت قول حبيب: [الكامل]

* لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ *^(١)

ثم ذكر ابن جبّير أهلها فذمّهم بكلّ عيب؛ من الكبرياء وبيع الربا، ثم استثنى فقهاءها ووعاظها.

[مما قيل في الشعر والشعراء]

قوله: «مع مشيخه من الشعراء»، قال الخليل في مدح الشعراء: هم أمراء الكلام يصرفونه أنّى شاؤوا وجائز لهم ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى، وتقبيده ومدّ مقصوره وقصر ممدوده، والجمع بين لغاته والتفريق بين صفاته.

وسئل غيرهم عنهم، فقال: ما ظنّك بقوم الاقتصاد محمود إلا منهم، والكذب مذموم إلا بينهم!

(١) عجزه:

خفّ الهوى وتولّت الأوطار

والبيت في ديوان أبي تمام ص ١٤٤.

وقال آخر: إياكم والشاعر، فإنه يطلب على الكذب مثوبة، ويقرع جليسه بأدنى كلمه.

وقال بعض الظرفاء يذمهم: [السريع]

الكلبُ والشاعر في رتبةٍ ياليت أني لم أكنُ شاعرًا!
هل هو إلا باسِطُ كفه يستمطر الواردَ والصادِرَا
والله لولا حُرُقاتُ الهوى ما كنتُ إلا رَجُلًا تاجِرَا

وقال ابن الرومي: [الطويل]

يقولون ما لا يفعلون مسبّةً من الله مسبوبٌ بها الشعراءُ
وقال أيضاً: [الكامل]

للناس فيما يكلفون مغارمَ عند الكرام لها قضاء ذمامِ
ومغارم الشعراء في أشعارهم إنفاق أعمارٍ وهَجْرُ مَنامِ
وجفاء لذاتٍ، وهجر مكاسبٍ لو خولفت حُرستُ من الإعدامِ
وتشاغلٌ عن ذكر ربٍّ لم يزل حسنَ الصنائع، سابغُ الإنعامِ

قوله: «مبار»، أي معارض. مضمار: طلق. مमार: مجادل. أفضنا: اندفعنا. يفضح: يكشف غيوبها. شبه الجماعات في الآداب بالخيال الجياد في الطلق لا يلحق غبارها من يجاريها، وجعل حديثهم بحسن تفننه يفضح الأزهار متى قرن بها.

[مجالس الشعراء]

ونجعل تفسيراً لهذا المجلس الموصوف باجتماع الشعراء ما حدث به دُغبل أنه اجتمع هو ومسلم بن الوليد وأبو الشَّيص وأبو نُوَّاس، وهؤلاء مشيخة شعراء عصرهم، فقال لهم أبو نواس: إن مجلسنا هذا قد اشتهر باجتماعنا فيه، ولهذا اليوم ما بعده فليأت كل امرئ منكم بأحسن ما قال فلينشده، فأنشد أبو الشَّيص: [الكامل]

وَقَفَّ الهوى بي حيثُ أنتَ فليس لي متأخراً عنه ولا متقدِّمُ
أجدُ الملامّة في هوائِكَ لذيدةً حُبّاً لذكرِكَ فَلْيَلْمَنِي اللُّؤْمُ
أشبهتُ أعدائي، فصرتُ أحبُّهم إذ كان حظِّي منك حظِّي منهم
وأهنتُني فأهنتُ نفسي صاغراً ما من يهونُ عليكِ ممن يُكرِّمُ

فجعل أبو نواس يغجب من حسن الشعر، حتى ما كاد ينقضي عجه.

ثم أنشد مسلم أبياتاً منها: [الطويل]

فأقسم أنسي الدّاعيات إلى الصبَا فقد فجأتها العين والستر واقعُ

فغَطَّتْ بِأَيْدِيهَا ثَمَارَ نَحْوِهَا كَأَيْدِي الْأَسَاوِي أَثْقَلَتْهَا الْجَوَامِغُ
قال دعبل: فقال لي أبو نواس: هات أبا عليّ وكأنني بك قد جئت بأمّ القلادة.. لا
تعجبي يا سلم، فأنشدته: [الكامل]

أَيْنَ الشَّبَابِ وَأَيَّةَ سَلَكَا أَمْ أَيْنَ يُطْلَبُ؛ ضَلُّ أَمْ هَلَكَا
لا تعجبي يا سَلَمَ من رجلٍ ضَحِكَ المَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى
يا ليت شعري كيف صَبْرُكَمَا يا صاحبي إِذَا دَمِي سُفِكََا
لا تطلبا بظُلَامَتِي أَحَدَا قلبي وطَرْفِي فِي دَمِي اشْتَرَكَا
ثم سأله أن ينشدنا فأنشد: [البسيط]

لا تَبْكُ لَيْلَى وَلَا تَرْكُنْ إِلَى هِنْدٍ واشربْ على الوزد من حمراء كالوزدِ
كأساً إِذَا انحدرتْ فِي حَلْقِ شَارِبِهَا وجذتْ حُمُرَتَهَا فِي الْعَيْنِ وَالْخَدِّ
فَالْخَمْرُ ياقوتَةٌ، وَالْكَأْسُ لؤلؤةٌ فِي كَفٍّ جاريةٌ ممشوقة القَدِّ
تَسْقِيكَ مِنْ عَيْنِهَا خَمْرًا وَمِنْ يَدِهَا خَمْرًا، فَمَا لَكَ مِنْ سُكْرَيْنِ مِنْ بُدِّ
لي سكرتان وللندمان واحدةٌ شيء خُصِصَتْ بِهِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَخَدِي

فلما بَلَغَ هَذَا الْبَيْتَ، قاموا فسجدوا له، فقال: أفعلتموها! والله لا أكلمكم ثلاثاً ولا
ثلاثاً ولا ثلاثاً! ثم قال: تسعة في هجر الإخوان كثير، وفي بعضها استصلاح للفساد،
وعقوبة على الهفوة..، ثم التفت إلينا وقال: أعلمتم أن حكيماً عتب على حكيم، فكتب
المعتوبُ عليه إلى العاتب: يا أخي، إن أيام العمر أقلُّ من تحمّل الهجر، نظم ذلك
الشاعر فقال: [مجزوء الكامل]

الْعَمْرُ أَقْصَرُ مَدَّةٍ مَنْ أَنْ يَمْحَقَ بِالْعَتَابِ
أَوْ أَنْ يَكْذُرَ مَا صَفَا مِنْهُ بِهِجْرٍ وَاجْتِنَابِ
وقال ابن طاهر: [الطويل]

إِلَى كَمْ يَكُونُ الصَّدُّ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَلَمْ لَا تَمْلَيْنِ الْقَطِيعَةَ وَالْهَجْرَا!
رَوَيْدُكَ إِنَّ الدَّهْرَ فِيهِ بَقِيَّةٌ لَتَفْرِيقِ ذَاتِ الْبَيْنِ فانتظري الدهر!
وقال آخر: [الكامل]

ولقد علمت فلا تكن متجنياً أَنْ الصَّدُودُ هُوَ الْفِرَاقُ الْأَوَّلُ
حَسْبُ الْأَحِبَّةِ أَنْ يَفْرُقَ بَيْنَهُم رَيْبُ الزَّمَانِ فَمَا لَنَا نَسْتَعْجِلُ!
وقال القاضي عبد الوهاب: [المنسرح]
لا تتعجل قطيعتي فكفى يوماً بهذا الدهر بيننا مقطّع

عَمَّا قَرِيبٍ تَجِيءُ فُورِقْتَنَا ثَمَّتْ لَا مُلْتَقَى وَلَا مَجْمَعٌ
وأخذه الكل من جميل: [الكامل]

ولعلَّ أيامَ الحياة قليلةٌ فعلامٌ يكثُرُ عَثْبُنا وَيَطُولُ!

قوله: «نصفنا»، أي بلغنا نصفه. غاض: جَفَّ. دَرَّ الأفكار: كلامها، والدَّرَّ: اللَّبَنَ، استعارة لما يتولد من الذهن. صَبَتْ: مالت. الأوكار: البيوت هنا. لمحنا: أبصرنا. تُخْفِرُ: تجري. الجُرد: الخيل القصيرة الشعر. استلت: جعلتهم تَلُوها يتبعونها. أنحف: أقلَّ لحمًا. الجوازل: فراخ الحمام، واحدها جَوْزُل. عزتنا: قصدتنا.

حَيَّا اللَّهُ الْمَعَارِفَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَارِفٌ؛ اَعْلَمُوا يَا مَالَ الْأَمِلِ، وَثِمَالَ الْأَرَامِلِ، أَنِّي مِنْ سَرَوَاتِ الْقَبَائِلِ، وَسَرِيَّاتِ الْعَقَائِلِ، لَمْ يَزَلْ أَهْلِي وَبَغْلِي يَحْلُونُ الصَّدْرَ، وَيَسِيرُونَ الْقَلْبَ، وَيُمِطُونَ الظَّهْرَ. وَيُولُونَ الْيَدَ. فَلَمَّا أَرَادَى الدَّهْرُ الْأَعْضَادَ، وَفَجَعَ بِالْجَوَارِحِ الْأَكْبَادَ، وَانْقَلَبَ ظَهْرًا لِبَطْنٍ، نَبَا النَّاطِرُ، وَجَفَا الْحَاجِبُ، وَذَهَبَتِ الْعَيْنُ، وَفُقِدَتِ الرَّاحَةُ، وَصَلَدَ الزُّنْدُ، وَوَهَنَتِ الْيَمِينُ، وَضَاعَ الْيَسَارُ، وَبَانَتْ الْمَرَافِقُ، وَلَمْ يَبْقَ لَنَا ثَنِيَّةٌ وَلَا نَابٌ، فَمِذَّ اغْبَرَّ الْعَيْشُ الْأَخْضَرَ، وَازْوَرَّ الْمَحْبُوبُ الْأَضْفَرُ؛ وَأَسْوَدَ يَوْمِي الْأَبْيَضَ، وَأَبْيَضَ فَوْدِي الْأَسْوَدَ، حَتَّى رَأَى لَنَا الْعَدُوَّ الْأَزْرَقُ، فَحَبَّذَا الْمَوْتَ الْأَحْمَرَ. وَتَلَوِي مَنْ تَرَوْنَ غَيْثَهُ فُرَارُهُ، وَتَرْجَمَانُهُ أَضْفَرَارُهُ، قُضِيَ بَغْيُهُ أَحَدَهُمْ ثُرْدَةٌ، وَقُصَارَى أُمْنِيَّتِهِ بُرْدَةٌ. وَكُنْتُ أَلَيْتُ إِلَّا أَبْدُلَ الْحُرَّ إِلَّا لِلْحُرِّ، وَلَوْ أَنِّي مِتُّ مِنَ الضَّرِّ. وَقَدْ نَاجَتْنِي الْقُرُونَةُ، بَأَنْ تَوْجَدَ عِنْدَكُمْ الْمَعُونَةُ، وَأَدْنَتْنِي فِرَاسَةُ الْحَوْبَاءِ، بِأَنْكُمْ يَنَابِيعُ الْحَبَاءِ، فَنَضَّرَ اللَّهُ أَمْرًا أَبْرَ قَسَمِي، وَصَدَّقَ تَوَسُّمِي، وَنَظَرَ إِلَيَّ بِعَيْنٍ يُقْذِيهَا الْجُمُودَ، وَيُقْذِيهَا الْجُودَ.

للعارف الأول: الوجوه، واحدها معروف. قال الشاعر: [الكامل]

متلثمين على معارفنا نشني لهنَّ حواشي العصب

وإن لم يكن معارف، أي وإن كنت لا أعرفهم. مَالٌ: مرجع، وقد آل يؤول أولاً ومآلاً، إذا رجع. والأمل: الراجي. وثِمَالٌ: غياث وملجأ. الأرامِل: المساكين، يعقوب: هنَّ جماعة الرجال والنساء، ويقال لهم: أرامِل، وإن لم يكن فيهم نساء. ويقال: جاءت أزملة من رجال ونساء محتاجين، ويقال للرجال الضعفاء لمحتاجين:

أرْملة، وإن لم يكن فيهم نساء. وأرمل القوم: فَنِي زادُهُم، وواحد الأرامِل أرْمَل وأرْملة، وإنما قيل للفاقد زوجها: أرْملة، لأنَّ أمرها يؤول إلى الضيعة والحاجة. سَرَوَات: سادات، واحدها سراة، والسَّريُّ: السيّد الكبير ذو المروءة، والسرو: المروءة، وقد سَرى سَرواً وسَرو سَراوةً: جمع السخا والفضل، قال امرؤ القيس: [الكامل]

* وَلَهَا عَلَيْهِ سَراوَةٌ الْفَضْل *^(١)

وأنشد يعقوب: [الكامل]

إن السريّ هو السريّ بنفسه وابن السريّ إذا سرى أسراهما^(٢)

قال ثعلب: السريّ في كلامهم: الرفيع، مأخوذ من السَّراة، وسراة كلّ شيء: أعلاه، وسريات: سيدات. العقائل: كرائم النساء، تريد أن أباهأ وأمها من السَّادات. البعل: الزوج، وبعل الرجل بُعولة: تزوّج. الصدر: مقدّم المجلس. القلب: قلب العسكر، والعسكر خمسة أقسام: مقدّمة، وساقة، وميمنة، وميسرة، وقَلْب، وهو محلّ الملوك، أرادت أن قرابتها منهم. يُمَطُّون: يَهْبُونَ. الظَّهر: الإبل بأوقارها، وأمطاء: أعطاه دابة يركب مطاها، أي ظهرها. يُؤلُون اليَد: يهبون النعمة. أردى: أهلك. الأعضاء: جمع عَضُد وهو غليظ الذراع الذي بين المرفق والمنكب. فجع: أحزن، وجاء بفجعية، وهي الرزية يتفجّع عليها الجوارح: عوامل الجسد كاليد والرجل والعين، تريد أنَّ الدهر إذا أهلك أهلها فكأنه قطع جوارحها فتعطّلت منفعتها. انقلب: تحوّل. ظهر البطن: كناية عن الخلاف، أي بعد أن كان مستقيماً انقلب. نبا: ارتفع ولم يستقرّ. الناظر: مَنْ ينظرُ عليها. الحاجب: من يحجبها ويسترها. والعين: الذهب. الراحة: الدّعة والسكون. صُلِد: لم يور نارا، وأرادت انقطاع الخير عنها. وهنت: استرخت. اليمين: القوّة. بانّت: ذهبت وبَعُدّت. المرافق: مَنْ كان يرتفق بحياته ومنفعته، والمرافق: كلّ ما ارتفقت به من مال وغيره. ثنية: صغيرة من الإبل. وناب: مسنة.

وهذا الكلام كلّهُ استعارة كما تقدّم في الإبرة والمزود، لكنّه كني هنا بالجوارح والأعضاء عمّن كان يستعين به من القرابة على الدهر، ومعاني الأعضاء بيّنة إلا الراحة،

(١) يروى البيت بتمامه:

فلها مقلّذها ومقلّثها ولها عليه سرارة الفضل

وهو في ديوان امرئ القيس ص ٢٣٨، ولسان العرب (سرر)، وتهذيب اللغة ٢٨٨/١٢، وتاج العروس (سرر).

(٢) يروى البيت:

تلقى السريّ من الرجال بنفسه وابن السريّ إذا سرا أسراهما

وهو بلا نسبة في لسان العرب (سرا)، وتهذيب اللغة ٥٣/١٣، والمخصص ٦٠/١٥، وديوان الأدب ٧٤/٤، وتاج العروس (سرو).

فإنها بطن الكفّ: والزند: طرف عظم الساعد، والثنية والتاب صريحتان، ونبا الناظر: لم ينم، وجفا الحاجب: لم يرسل الجفن على العين فتنام، كما قال بشار: [الوافر]

نَبَتْ عيني عَنِ التَّغْمِيضِ حَتَّى كَأَنَّ جَفُونَهَا عَنْهَا قِصَارٌ^(١)
وقال التهامي: [الكامل]

قَصُرَتْ جَفُونِي أَمْ تَبَاعَدَ بَيْنَهَا أَمْ صَوَّرَتْ عيني بِلَا أَشْفَارٍ^(٢)
قوله: «اغبر»، أي علته غبرة. والأخضر: الناعم. ازور: انقبض. الأصفر، هو الدينار. القود: ناحية الرأس بين الأذن والجبهة، وهذا من قول أعرابي ذكر مصيبتها فقال: مصيبة والله تركت سود الرؤوس بيضاً، وبيض الوجوه سوداً، وهونت المصائب بعدها.
وقال عبد الله بن الزبير الأسدي: [الوافر]

رَمَى الحَدَثَانِ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ بِمَقْدَارِ سَمَذَنٍ لَهُ شُمُودَا^(٣)
فَرَدَّ شَعُورَهُنَّ السُّودَ بِيضاً وَرَدَّ وَجُوهَهُنَّ الْبَيْضَ سَوْدَا
وقال التهامي: [البسيط]

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مِنَّا بَيْضَ أَوْجِهِنَا وَلَا تَسَوِّدُ بَيْضَ الْعِذْرِ وَاللِّمَمِ
وَكَانَ حَالَهُمَا فِي الْحَكَمِ وَاحِدَةً لَوْ احْتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكَمِ
قوله: «رثى» بكى وأشفق. العدو الأزرق: أراد الروم وهم أعداء العرب. والموت الأحمر: الشديد، ومنه الحُسن أحمر، أي مَنْ أَحَبَّ الحُسْنَ احْتَمَلَ المشقة. وفي الحديث: كُنَّا إِذَا احْمَرَّ الْبَاسُ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فلم يكن أحدٌ أقربَ إلى العدو منه^(٤)، فمعناه اشتد، وقيل: معنى الموت الأحمر: القتل، وقد قال الأخطل: [الكامل]

* أَنْ قَدْ أُتِيحَ لَهُنَّ مَوْتُ أَحْمَرُ *^(٥)

(١) البيت في ديوان بشار بن برد ٢٤٩/٣، ولسان العرب (نزا). ويروى «جفت عيني» بدل «نبت عيني».

(٢) البيت في ديوان التهامي ص ٣٠.

(٣) البيتان لعبد الله بن الزبير في ملحق ديوانه ص ١٤٣، ١٤٤، وتخليص الشواهد ص ٤٤٣، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ٩٤١، والمقاصد النحوية ٤١٧/٢، ولأيمن بن خريم في ديوانه ص ١٢٦، ولفضالة بن شريك في عيون الأخبار ٧٦/٣، ومعجم الشعراء ص ٣٠٩، وللكميت بن معروف في ديوانه ص ١٩١. وذيل الأمالي ص ١١٥، وبلا نسبة في شرح الأشموني ١٥٩/١ (البيت الثاني فقط)، وشرح ابن عقيل ص ٢١٧، ولسان العرب (سمد).

(٤) أخرجه مسلم في الجهاد حديث ٧٩.

(٥) صدره:

أَضْمَأَ وَهَزَّ لَهُنَّ رُئُوحِي رَأْسَهُ

والبيت في ديوانه الأخطل ص ٢٣١.

يريد قتل الثور الكلاب، وتقدّم في المقامة قبل هذه، فلما فيه من الدم سُمّي أحمر، وهو الأظهر من مقصد الحريري، لأنه علّق غيره من الصفات باللون مثل العدو الأزرق، والزوم زرق العيون، فكَذلك الموت الأحمر.

أبو عبدة: الموت الأحمر أن يتغيّر بَصَرُ الرجل من الهول، فيرى الدنيا في عينيه حمراء ورداء، والموت الأغبر: هو الموت جوعاً، لأنه يغيّر في عينيه كل شيء، والموت الأسود هو الموت في غَمّة الماء، والموت الأبيض هو موت العافية، قال الخطابي: الموت الأبيض، أي فجأة، لأنه يأخذ الإنسان ببياض لونه.

قوله: «تَلَوِي»، أي خَلَفِي وإلى جانبي. عينه: شخصه. فُراهِ: معرفته، أي شخصه يعرفكم بحاله، والعرب تقول: عينه فراهِ للشئ تعرفه إذا أبصرته، والفَرّ في البهائم. كشف أسنانها حتى يعرف ما لها من السنّ. ووقع في المقامات فُراهِ بضم الفاء، وكذا في نوادر أبي عليّ، ووقع في النسخ العِتاق من الأمثال لأبي عبيد: فُراهِ، بكسر الفاء، وأنشد أبو عليّ: [الرجز]

* هو الحبيب عينه فُراهِه *^(١)

وفسره فقال: نظرك إليه بُغْنِيكَ عن فَرّه لتخبّره، وهما لغتان: فُراهِه وفُراهِه. قوله: «ترجمانه» المتكلم عنه، يريد أن صفرة لونه تخبّرك أنّه جائع. فُصوى: غاية. بُغية: طلب. وقصارى أمنيته، أي منتهى ما يتمناه وغايته. بُزده: ثوب، أي أقصى ما يُطلب ما يأكل وغاية ما يتمنى ما يلبس. أليت: حَلَفْتُ. أبذل الحرّ: أهين الخدّ، الحرّ: الكثير المروءة: ناجثني: حدّثني. القُرّونة: النفس. المعونة: ما يستعان به، آذنتني: أعلمتني. فِراسة الحوّاء: فطنة النفس. الينابيع: جمع يَنْبُوع، وهو ما يخرج من الماء وينبع. الجبّاء: العطاء. أبرّ: راعى وأكرم. توسّمي: نظري وظنّي. يُقذّيها: يجعل فيها القذى، والجمود: الشحّ.

وقال بعضهم في ذم التشكيّ إلى المخلوق: [الرجز]

لا أَشْتَكِي ضُرِّي إِلَى النَّاسِ	س وَهُمْ مَنْ أَغْلَمُ
إِنْ إِلَهًا مَسَّرَ بِالضُّرِّ	جَوَادُ مَنْعِعِمُ
أَشْكُو الَّذِي يَرْحَمُنِي	إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ

الكستجيّ، قال: أملتُ حتى لم يبق في منزلي إلا جارية، فدخلت دار المتوكل، فلم أزل متفكّراً، فحضرني بيتان، فأخذت قصبةً، وكتبت على الحائط الذي كنت إلى جانبه: [الرجز]

(١) الرجز بلا نسبة في مقاييس اللغة ٤/٤٣٩، برواية:

هو الجواد عيُّه فُراهِه

الرَّزْقُ مَقْسُومٌ فَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ يَأْتِي بِأَسْبَابٍ وَمِنْ غَيْرِ سَبَبٍ
فَاسْتَزِرْ زِيَّ اللَّهِ فَفِي اللَّهِ غِنَى اللَّهُ خَيْرُ لَكَ مِنْ أَبِي حَدَبٍ

فركب المتوكل في ذلك اليوم، وجعل يطوف على الحجر، ومعه الفتح بن خاقان، حتى وقف على البيتين، وقال: مَنْ كتب هذا؟ وقرأهما الفتح له، فاستحسهما، وقال: مَنْ كان في هذه الحجرة؟ فقبل: الكستجي، فقال: أغفلنا وأسانا إليه، فأمر لي ببذرتين. وقال محمد بن مخلد الكاتب: لزمْتُ أبا الحسن عليَّ بن محمد بن الفرات. أغدو وأروح إلى بابه، لا أحظى بباطل، ولا أصل إلى تصريف ولا نائل، حتى كرهت نفسي، فرأيت هاتفاً في المنام يقولُ لي: [الرجز]

يَأْيُهَا الْمَكْثَرُ فِي الْمَطَالِبِ: اهْجُزْ تَصَارِيفَ الْمُئَيَّ الْكُؤَاذِبِ
إِذَا أَتَى وَقْتُ الْقَضَاءِ الْغَالِبِ بَادِرْتُ الْحَاجَةَ كَفِ الطَّالِبِ

فتركت المسير إليه، فلم يمض لي أسبوع حتى تقلَّد حامد بن العباس الوزارة، فقلَّدني كتابته، فثابت حالي.

* * *

قال الحارث بن هَمَام: فَهِمْنَا لِبِرَاعَةِ عِبَارَتِهَا، وَمُلِحَ اسْتِعَارَتِهَا، وَقُلْنَا لَهَا: قَدْ فَتَنَ كَلَامُكَ، فَكَيْفَ إلْحَامُكَ! فقالت: أَفَجَرُ الصُّخْرُ، وَلَا فَخْرُ، فقلنا: إِنْ جَعَلْتَنَا مِنْ رُؤَاتِكَ، لَمْ نَبْخُلْ بِمَوَاسَاتِكَ، فقالت: لَأَرِيَنَّكُمْ أَوَّلًا شِعَارِي، ثُمَّ لَأَرُوِيَنَّكُمْ أَشْعَارِي. فَأَبْرَزْتَ رُذُنَ دِرْعِ دَرِيْسٍ، وَبَرَزْتَ بَرَزَةَ عَجُوزٍ دَرْدَبِيْسٍ، وَأَنْشَدْتَ تَقُولُ: [السريع]

أَشْكُو إِلَى اللَّهِ اشْتِكَاءَ الْمَرِيضِ رَبِّ الزَّمَانِ الْمُتَعَدِّيِ الْبَغِيضِ
يَا قَوْمِ إِنِّي مِنْ أَنْاسٍ غَشُوءَا دَهْرًا وَجَفْنُ الدَّهْرِ عَنْهُمْ غَضِيضُ
فَخَارَهُمْ لَيْسَ لَهُ دَافِعُ وَصِيَّتُهُمْ بَيْنَ الْوَرَى مُسْتَفِيضُ
كَانُوا إِذَا مَا نَجْعَةً أَعْوَزَتْ فِي السَّنَةِ الشَّهْبَاءِ رَوْضًا أَزِيضُ
تُشَبُّ لِلْسَّارِينِ نِيرَانُهُمْ وَيُطْعَمُونَ الضَّيْفَ لِحْمًا غَرِيضُ
مَا بَاتَ جَارٌ لَهُمْ سَاغِبًا وَلَا لِرُؤُوعٍ قَالَ: حَالُ الْجَرِيضِ

* * *

قوله «همنا»، أي تحيرنا. البراعة: الفصاحة. عبارتها: سياق كلامها. ملح استعارتها، يريد ما استعارته من تسمية الأشخاص بأسماء الأعضاء. إلحامك: نسجك الشعر. يفجر الصخر، أي يخرج من الحجر الماء، ومن البخيل العطاء. مواساتك:

صِلْتِكَ، وأصلها أن تجعل صاحبك أسوة نفسك. شعاري: ثوبي اللاصق بجسمي، سُمِّي شعاراً لأنه يلي شعر الجسد، والظَّهَار: الثَّوب الذي يظهر للعيون، والدُّثَار: الثوب الذي بينهما. رُذُن: كم. درع: قميص. دريس: خلق. برزت: ظهرت. دَرْدَبِيس: داهية. ريب: جور. غَثُوا: أقاموا. غَضِيض: منكسر. صِيَتَهُم: ذكرهم الحسن، وهو من الصوت، فلما كسرت الصاد أُصِيرَ على وزن الذكر ومعناه، وانقلبت واوه ياء. مستفيض: متحدَّث به مشهور. نُجْعة: مرعى. أعوزت: فقدت. الشهباء: التي أجذبت فلا مطرَ فيها، ولا عُشْب. والرَّوْض: الموضع الكثير العشب. أريض: متسع. تشب: توقد. للسايرين: للماشين بالليل: غريض: طري. ساغباً: جائعاً. الرَّوْع: الفرع. الجريض: الغَض بالريق عند الموت. حال: منع، أي لا يقول جارهم حال الموت دون الأمن.

* * *

[قصة المثل: حال الجريض دون القريض]

ووفد عبيد بن الأبرص على النعمان الأكبر، وهو ابن الشقيقة وباني الخورنق، فامتدحه فوصله وأكرمه، وكان له يوم نعيم ويوم يؤس في السنة، فورد عليه في يوم يؤسه، فقال له: ما أخرجك، ثكلتك أمك! فقال: حضور أجلي، وانقطاع أُملي؛ وكان مَنْ لَقِيَهُ يوم يؤسه لم يخلِّصه من الموت شيء، فاستنشه: [مخلع البسيط]

* أَقْفَرٌ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ *^(١)

فقال له: حال الجريض دون القريض، فعزم عليه أن ينشد، فأنشده: [مخلع البسيط]

أَقْفَرٌ مِنْ أَهْلِهِ عَبِيدٌ فَاَلْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ^(٢)

ثم قال له: اختر، إن شئت أخرجت نفسك من الأكحل، وإن شئت من الأبجل، وإن شئت من الوريد، فقال عبيد: [السريع]

خَيْرَتَنِي بَيْنَ سَحَابَاتِ عَادٍ فَرَدْتُ مِنْ بؤْسِكَ شَرَّ الْمَرَادِ

(١) عجزه:

فالقطبيات فالذنوب

والبيت لعبيد بن الأبرص في ديوانه ص ٢٣، وجمهرة اللغة ص ٢٨٤، وخزانة الأدب ٢/٢١٨، ولسان العرب (ذنب)، (لجب)، (رمل)، (هزل)، (قطم)، وبلا نسبة في رصف المباني ص ٤٣٥، وتاج العروس (قطب).

(٢) البيت في ديوان عبيد بن الأبرص ص ٤٥، وكتاب العين ٥/١٥١، ومقاييس اللغة ٤/١٨١، وأساس البلاغة (يداً)، وجمهرة الأمثال ١/٣٥٩، والفاخر ص ٢٥١، ولسان العرب (قفر)، وبلا نسبة في كتاب العين ٢/٢١٨.

وكان قتل النعمان لعبيد سبب قطعه يوم يؤسه ، فلم يفعله بعد . [السريع]

فغِيضَتْ مِنْهُمْ صُرُوفُ الرَّدَى	بحارَ جُودٍ لَمْ نَخْلُهَا تَفِيضُ
وَأودَعَتْ مِنْهُمْ بطونُ الثَّرَى	أشدَّ التَّحَامِي وَأُسَاءَ المَرِيضُ
فمحملي بعد المطايا المطا	وموطني بعد البقاع الحضيضُ
وأفرخي ما تأتلي تشتكي	ويؤسأ له في كل يوم وميضُ
إذا دَعَا القَانَتْ في ليلِهِ	مولاه نَادَوْه بدمعِ يَفِيضُ
يا رَازِقَ النَّعَابِ في عُشِّهِ	وجابرَ العَظَمِ الكَسِيرِ المَهِيْضُ
أَتِخْ لَنَا اللّهُمَّ مَنْ عِرْضُهُ	مِنْ دَنَسِ الدَّمِ نَقِيَّ رَحِيضُ
يطفئ نارَ الجُوعِ عَنَّا ولو	بمَذْقَةٍ مِنْ حَازِرٍ أَوْ مَخِيضُ
فهل فَتَى يَكشِفُ مَا نَابَهُمْ	وَيَغْنَمُ الشُّكْرَ الطَوِيلَ العَرِيضُ
فو الذي تَعَثُّو النَّوَاصِي لَهُ	يومَ وجوهِ الجَمْعِ سَوْدٌ وَبِيضُ
لولاَهُمْ لَمْ تَبْدُ لِي صَفْحَةٌ	ولا تَصْدِيْتُ لِنَظْمِ القَرِيضُ

قوله: «غِيضَتْ»، أي أذهبت. والصروف: الطواري تُصْرِفُكَ من حالٍ إلى حالٍ. لم أَخْلُهَا: لم أحسبها. أودَعَتْ: ضمنت. الثرى: التراب. التحامي: الحماية والمنعة، وتحاميته: تباعدت منه وتمنعت عليه. أساء: أطباء: المطايا: الإبل. المطا: الظهر. محملي: ما أحمل عليه أثقاله. تقول: صرْتُ أحمَلُ على ظهري بعد أن كان محملي ظهور الإبل. اليفاع: الارتفاع من الأرض. الحضيض: أسفل الجبل. ما تأتلي: تقصّر. يؤسأ: ضرأ. وميض: لمعان. القانت: العابد، والقنوت. طول القيام: يفيض: يملأ العين حتى تفيض بالدمع. النعاب: فرخ الغراب، اختصه من الطير لأنهم يزعمون أنه يخرج من بيضته أبيض الزغب، فيراه الذكر فيسترب فيضرب أثناءه، وينقرها حتى تفرّ طائرة فيطير خلفها ويتركه، فيقيض الله له ذباباً يطيرُ حول عينيه، فيفتح منقاره ليشردّها، فتدخل في حلقة، فيتغذى بها حتى يسودّ ريشه، فيحتذّ يرجع إليه أبواه، فيكملان تربيته. ويا رازق النعاب، من دعاء داود عليه السلام. المهيض: الذي انكسر بعد الجبر. أتخ: قدر. رحيض: مغسول. مذقة: جُرعة. حازر. لبن حامض شديد الحموضة. والمخيض: اللبن يُمزَجُ بالماء، ويحرك، والمخض التحريك ليخرج زبده، وإذا طال مكث المخيض واشتدّت حموضته سمي حازراً. نابهم: نزل بهم. العريض: الواسع العرض. تعنو: تذّل. النواصي: شعر مقدّم الرأس. صفحة: ناحية العنق. تصدّيت: تعرّضت. القريض الشعر.

قال الراوي: فوالله لقد صدّعتُ بأبياتها أعشار القلوب، واستخرجتُ خبايا

الجيوب، حتى مآحها من دينه الامتياح، وارتاح ليرفدها من لم نخله يرتاح، فلما افعو عم جيبها تبرا، وأولاهها كل منا برا، تولت يتلوها الأصاغر، وفوها بالشكر فاجر، فاشرأت الجماعة بعد ممرها، إلى سبرها، لتبلو مواقع برها. فكفلت لهم باستنباط السر المرموز، ونهضت أقفو أثر العجوز، حتى انتهيت إلى سوق مختصة بالأنام، مختصة بالزحام، فانغمست في العمار، واملست من الصبية الأعمار، ثم عاجت بخلو بال، إلى مسجد خال، فأماطت الحلباب، ونفضت النقاب، وأنا ألمحها من خصائص الباب، وأرقب ما سبدي من العجائب.

* * *

قوله : «صدعت» : شقت : أعشار : قطع : خبايا : ما خبيء فيها من الدراهم . مآحها : أعطائها . دينه : عادته . الامتياح : طلب المعروف ، يريد مشيخة الشعراء الذين قد مر ذكرهم ، وعيش الشعراء إنما هو من الاستجداء والطلب ، ومعلوم أنه من كانت عادته أن يأخذ لا يعطي في الغالب شيئا ، ولذلك قال : من لم نخله يرتاح ، أي من لم نحسب أنه يهتز للعطاء ، وقد ارتاح ، إذا اهتز للكرم والعطاء ولذلك قال حبيب : [الكامل]

لم يخلق الرحمن أحق لحية من سائل يرجو التدى من سائل
وقال آخر : [الطويل]

لموت الفتى خير من الفقر للفتى وللموت خير من سؤال بخيل
لعمرك ما شيء لوجهك قيمة فلا تلق مخلوقاً بوجه ذليل
ولا تسألن من كان يسأل مرة فللموت خير من سؤال سؤول

وحدث عيسى بن عمر النحوي ، قال : قدمت من سفر ، فدخل علي ذو الرمة الشاعر ، فعرضت عليه أن أعطيه شيئا ، فقال : أنا وأنت نأخذ ولا نعطى . ومدح أبو الشمقمق مزوان بن أبي حفصة فقال له : يا أبا الشمقمق ، أنت شاعر وأنا شاعر ، وغايتنا جميعا السؤال .

وكان بشار يعطيه في كل سنة مائتي درهم ، فأتاه مرة ، فقال : هلم الجزية يا أبا معاذ ، فقال : ويحك ! أجزية هي ؟ قال : هو ما تسمع ، فقال له بشار يمازحه : أنت أفصح مني ؟ قال : لا ، قال : فأعلم ؟ قال : لا ، قال : فأشعر ؟ قال : لا ، قال : فلم أعطيك ؟ قال : لثلا أهجوك ، قال : إن هجوتني هجوتك ، قال أبو الشمقمق : أو كذا هو ؟ اسمع : [الرجز]

إني إذا ما شاعر هجائي أدخلت في إست أمه علانية

بشار يا بشار . . . وأراد أن يقول : يابن الزانية ، فأمسك بشار بفمه ، وقال : أراد والله

أن يشتَمَنِي. ثم دفع إليه مائتي درهم، وقال: لا تسمعن منك هذا الصبيان.
ولقيتُ بسِجْلَمَاسَة شاعرَها وعينها الحاج أمدحتر، وكان له شعر رائق، فحدّثت عنه
أنه قصده يوماً فتى شاعر يستجديه بشعر، فوقع الحَاج تحت شعره: [الرجز]

نحنُ بزاةُ النَّاسِ لا نصادُ مَنْ كان ذا فهمٍ بنا يَضْطَاطُ
ثم كتب له، قطعة من شعره، وقال له: اقصد بها فلاناً فإنه يصكُ بما يرضيك،
فعلم المقصود بالشعر بنية الحاج، فوصله بما أرضاه.

وعد أبو نواس أبا الطفيل الشاعر وعداً فألخ عليه، فقال: [الطويل]

وأخرسَ ولاجٍ وغادٍ ورائح رجاءَ نَوَالٍ لو يُعَانُ بـجود
وإني وإياه كعريانٍ يصطلي من الطَّلِّ ناراً غير ذات وقود
زَوَيْتُ له وجهاً قَطُوباً عن الندى وألبستُه من وعده بوعيد
فإن كنت لاعن سوء فعلك مُقْلِعاً فدونك فاستظهر بنعل حديد
فعندي مَطْلٌ لا يطير غرابه مطير ولا يدعى له بوليد
قوله: «افعوعم»، امتلاً، وافعوعلُ بينت للمبالغة. تبرأ: ذهباً. أولاهها: أعطاه.
البز: الإكرام. فاغر: منفتح. اشرأبت: تطلعت، وتقول: أشرأب الرجل، إذا مدَّ عنقه
لينظر. سبرها: اختبارها. تبلو تختبر، يريد أن الجماعة أرادت أن تعرف: هل أوقعت
إكرامها فيمن يستحقه أم لا. كفلت ضمنت. استنباط: استخراج. المرموز: المخفي.
نهضت: تقدّمت للمشى أقفو: أتبع. مغتصّة: ممتلئة. انغمست: غابت ودخلت.
الغمار: كثرة الخلق وجماعتهم التي تغمر الأرض، أي تغطيها، ورده ابن الأنباري وجعله
من خطأ العامة، وقال: إنما تقول العرب دخل في خُمار الناس، بالخاء، وهو جمعهم،
إذا استتر بهم، ومنه الخُمار لتغطية الرأس، ومنه الخمر. وقال يعقوب: هو كلّ ما استتر
به الإنسان من شجر أو غيره، فإن كان من شجر خاصّة فهو الضّراء، وحكى بعضهم
غُماراً، جعله من غمر الماء الشيء، إذا غطاه. قوله: املست: انفلتت بسهولة،
والاملاس: أن يسقط الشيء من يدك ولا تشعر به. الأغمار: الجهال. عاجت: مالت.
بخلو بال، أي خالية منفردة. أماطت: أزال. الجلباب: ثوب أوسع من الخمار يتجلبب
به، أي يلتف فيه والجلباب كالملحفة للمرأة والرداء للرجل. نضت: نحت وجردت:
النقاب: ما يغطى به الوجه المحها: أنظرها. خصاص: فُرج، يريد به من شقوق الباب.

فلما انسزت أهبةُ الحَفَر، ورأيتُ مُحِيّاً أبي زيدٍ قد سَفَر، فهممتُ بأن أهجم
عليه، على ما أجري إليه، فاسلّقتي اسلنقاء المتمرّدين. ثم رفع عقيرة المغرّدين،
واندفعَ يُنْشِدُ: [المجث]

يا ليت شعري أذْهري أحاط علماً بَقْذري
 وهل ذَرَى كُئْتُهُ غوري في الحَذَعِ أم لَيْسَ يَذْري
 كم قد قَمَزْتُ بَنِيهِ بحيلتي وبمُكْري
 وكم برزتُ بعرف عليهمُ وبنُكْري
 أصاد قوماً بوعظ وآخرين بشُغْري
 وأستفزُ بخل عقلاً وعقلاً بِخُمر
 وتارة أنا صَخْرُ وتارة أخذتُ صخر
 ولو سَلَكْتُ سبيلاً مألوفةً طول عمري
 لخاب قَدْجِي وَقَدْجِي ودام عُسْري وخُسْري
 فقل لمن لام: هذا عُذْري فدونك عُذْري

* * *

انسَرَتْ: زالت، ويروى: بفصل سرت عن إن، ومعناه إن أزالته بالهمزة - والمنفصل فعل العجوز، والمتصل فعل الأهبة، وهي العُدَّة؛ يريد لما أن زالت عنها هيئة لباسها التي استترت بها عنا كان الخَفَر وهو الحياء يمنعها أن تكشف وجهها حتى نعرفها. محياً: وجه سفر: انكشف. أهجم: أخذه على غفلة. أعثفه: أقْبَح فعله. اسلنقي: صار على ظهره. المتمردين: الشياطين ومن لا يرحى صلاحه. عقيرة: صوت. المغردين. المطربين بالغناء، والعقيرة بمعنى معقورة، أي جارحة مقطوعة. كان رجل قطعت إحدى رجله فرفعها ووضعها على الأخرى. ورفع صوته فقبل لكل مَنْ رفع صوته: قد رفع عقيرته.

قوله: «يا ليت شعري» معناه: ليت درأيتي وفطنتي، ومعنى الشاعر في كلامهم الفطن العالم، وسُمِّي شاعراً، لأنه يفطن لما لا يفطن له غيره. وأجاز الفراء: ليت شعري أباك ما صنع، على معنى: ليتني أعلم أباك ما صنع، وأنشد: [الخفيف]

ليت شعري مسافر بن أبي عم برو وليت يقولها المحزون^(١)
 ومعناه ليتني أعلم مسافراً.

وقال آخر: [الخفيف]

خَمَّر الشيبُ لِمَمَّتِي تخميراً وحداً بي إلى القبور البَعِيرَا
 ليت شعري إذا القيامة قامت ودُعِي بالحساب أين المَصِيرَا

(١) البيت لأبي طالب في الاشتقاق، ص ١٦٦، وخزانة الأدب ١٠/٣٦٣، وبلا نسبة في الكتاب ٣/٢٦١، ولسان العرب (شعر).

قال ثعلب: المصير منصوب بشغري، أي ليتني أعلم المصير أين هو، والبعير منصوب بحداء، أي وحدا الشيب البعير إلى القبور بي. كنه: حقيقة. غوري: آخر أمري، وأصل الغور: قعر الحرجة والمنخفض من الأرض. قمرت: غلبت وخدعت. مكري: خداعي. أستفز: أستخف وأخدع، واستفز من كذا: أخرجه منه، والخل كناية عن الشر، والخمر كناية عن الخير، هذا على مذهب العرب. وكانت الخمر أجلاً ما عندهم، ويقولون: ما عنده خل ولا خمر، أي ما عنده شر ولا خير، وإذا فسدت الخمر عندهم صارت خلًا، وقد قال في الغازة: [مجزوء الوافر]

وما شيء إذا فسدًا تحول غيُّه رشداً
يريد أن الخمر إذا فسدت، صارت خلًا، فبعد أن كانت حراماً رجعت حلالاً، وزال تأثيرها في العقول.

صخر: هو ابن الشريد، وأخته الخنساء، فأراد أنه مرّة رجل، ومرّة، أخرى امرأة. ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة لعنوا في السماء: رجل خلقه الله ذكراً فتأنث، وامرأة خلقها الله أنثى فتذكرت، تشبّه بالرجال. والذي يضل الأعمى، ورجل حصور؛ ولم يجعل الله حصوراً إلا يحيى بن زكريا عليهما السلام».

وأما صخر، فهو ابن عمرو بن الحارث بن الشريد بن رباح، من بني سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان. وكان في جماله أجمل رجل في العرب، وسنذكر لمعة من أخبار صخر وأخته الخنساء في المقامة الأربعين إن شاء الله تعالى.

سلكت سبيلاً: دخلت طريقاً. مألوفة: مركوبة ملتزمة قذحي: سهمي. قذحي: ضربتي بالزئد. عسري: فقري. خسري: ضد ربحي، والخسر: النقص، يريد: لو مشيت على طريقه واحدة أبداً لخسرت وخبت. دونك، أي خذ.

قال الحارث بن همام: فلما ظهرت على جليّة أمره، وبديعة إمره، ومآ زخرف في شغره من عذره، علمت أن شيطانه المرید، لا يسمعُ التفنيد، ولا يفعل إلا ما يريد. فنيت إلى أصحابي عياني، وأبشّتهم ما أثبتته عياني، فوجّموا لضبعة الجوائز، وتعاهدوا على محرمة العجائز.

جليّة: ظاهرة. بديعة: غريبة. إمره: دهائه وعجبه. زخرف: زين. المرید: العاري من الخير إنما هو شر كله. التفنيد: اللوم، وفندت فعله، إذا عبته. ثنيت: عطف، وتقول: جاء ثانياً عنانه، إذا بلغ مراده ولم يجهد نفسه. أبشّتهم: أخبرتهم: أثبتته. عياني: معايتني. وجّموا: غضبوا. الجوائز: العطايا. تعاهدوا: تحالفوا. محرمة: منع وحرمان.

المقامة الرابعة عشرة

وهي المكيّة

حكى الحارث بن همام، قال: نهضتُ مِنْ مَدِينَةِ السَّلَامِ، لِحَجَّةِ الْإِسْلَامِ، فَلَمَّا قَضَيْتُ بِعَوْنِ اللَّهِ التَّفَثَ، وَاسْتَبَحْتُ الطَّيْبَ وَالرَّفَثَ، صَادَفَ مَوْسِمُ الْخَيْفِ، مَعْمَعَانُ الصَّيْفِ، فَاسْتَظْهَرْتُ لِلضَّرُورَةِ؛ بِمَا يَقِي حَرَّ الظَّهِيرَةِ، فَبَيْنَا أَنَا تَحْتَ طِرَافٍ، مَعَ رُقُقَةِ ظِرَافٍ، وَقَدْ حَمِيَ وَطِيسُ الْحَصْبَاءِ، وَأَغْشَى الْهَجِيرُ عَيْنَ الْحَرْبَاءِ، إِذْ هَجَمَ عَلَيْنَا شَيْخٌ مُتَسَعِّعٌ، يَتْلُوهُ فَتَى مَتَرَعِرٌّ، فَسَلَّمَ الشَّيْخُ تَسْلِيمَ أَدِيبٍ أَرِيبٍ، وَخَاوَرَ مُحَاوَرَةً قَرِيبَ لَا غَرِيبٍ، فَأَعْجَبْنَا بِمَا نَثَرْنَا مِنْ سَمَطِهِ؛ وَعَجَبْنَا مِنْ انْبِسَاطِهِ قَبْلَ بَسْطِهِ، وَقُلْنَا لَهُ: مَا أَنْتَ! وَكَيْفَ وَلَجْتَ وَمَا اسْتَأَذَنْتَ!

نهضت، أي تقدّمت، وسَمِّي النهوض تقدّماً لسرعة الحركة، وسَمِّي المنصور بغدادَ مَدِينَةِ السَّلَامِ، لِأَنَّهُ دَجَلَةٌ يُقَالُ لَهَا وَادِي السَّلَامِ، وَنَهْرُ السَّلَامِ، وَأَضَافَ الْحُجَّةَ إِلَى الْإِسْلَامِ لِأَنَّهَا أَحَدُ أَرْكَانِهِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَنِي الْإِسْلَامَ عَلَى خَمْسٍ»^(١)، وَالْحِجَّ أَحَدُهَا. التَّفَثُ: مَا يَلْزِمُ الْحَاجَّ مِنْ تَرْكِ الطَّيْبِ وَجِلَاقِ الشَّعْرِ. وَالرَّفَثُ: النِّكَاحُ. اسْتَظْهَرْتُ: اسْتَحْلَلْتُ. الْمَوْسِمُ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يَجْتَمِعُ فِيهِ النَّاسُ مِنْ عِيدٍ أَوْ سَوْقٍ. الْخَيْفُ: مَوْضِعُ بِمَكَّةَ. مَعْمَعَانُ: شِدَّةُ الْحَرِّ. اسْتَظْهَرْتُ: اسْتَعْدَدْتُ، تَقُولُ: قَدْ اسْتَظْهَرَ لِلشَّيْءِ بِكَذَا إِذَا اسْتَعَدَّ لَهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنْفًا لِلْحَسَنِ: [الطَوِيل]

* فدونك فاستظهر بنعل حديد *

يَقِي: يَمْنَعُ. الظَّهِيرَةُ: حَرٌّ نِصْفِ النَّهَارِ، فَيَقُولُ: بِسَبَبِ ضَرُورَةِ الْحَرِّ جَعَلْتُ عَلَى نَفْسِي سِتْرًا يَمْنَعُنِي حَرَّ الشَّمْسِ. طِرَافٌ: قَبَّةٌ مِنْ جِلْدٍ. ظِرَافٌ: جَمْعُ ظَرِيفٍ، وَهُوَ النَّبِيلُ الْمَهْذَبُ. حَمِيَ وَطِيسُ الْحَصْبَاءِ: اشْتَدَّ حَرُّ الْجَنَادِلِ لِمَنْ وَطَّئَهَا، وَأَصْلُ الْوَطِيسِ التَّنُورُ يَحْمَى فَيُطْبَخُ فِيهِ. أَعْشَى: أَعْمَى. الْهَجِيرُ: حَرٌّ نِصْفِ النَّهَارِ. الْحَرْبَاءُ: دَوِيبَةُ

(١) أخرجه البخاري في الإيمان باب ١، ٢، وتفسير سورة ٢، باب ٣٠، ومسلم في الإيمان حديث ١٩، ٢٢، والترمذي في الإيمان باب ٣، والنسائي في الإيمان باب ١٣.

تستقبل الشمس وتدور معها، وانظرها في المقامة السادسة والثلاثين، وقال المعري: [الكامل]

وهجيرة كالهَجْر موج سَرابها كالبحر ليس لمائه من طُخْلِبِ^(١)
أوفي بها الحزباء عودِي منبر للظُّهر إلا أنه لم يخطِبِ
فكأنه رام الكلام ومُسّه عِي فأسعده لسانُ الجندُبِ
وقال أيضاً في نحوه: [الطويل]

وساحرة الأقطار يجنى سرابها فتصلب حرباء برياً على جذع^(٢)

قوله: «هجم» أي دخل على غفلة. متسع: هَرِم متقارب الخطو. مترعرع: شاب متزايد، وترعرع الغلام، أي أخذ في الزيادة في طوله وخليقته، والزعرع: الشباب. أريب: عاقل. حاور: راجع الكلام. نثر من سمطه، أبدى من كلامه، وأصل السَّمَط خيط الجوهر. انبساطه: دالته، وهذا الكلام أصله في البساط، تقول: بسطته فانبسط، فلا يكون الانبساط مطاوعاً إلا بعد الشروع في البسط، يقول: فهذا الشيخ انبسط علينا قبل أن نبسطه، أي دلّ علينا قبل أن نجعل له السبيل في ذلك. ومما يستحسن من المنظوم هنا قول ابن كناسة: [المنسرح]

فِي انقباض وحشمة فإذا لاقيتُ أهل الوفاء والكَرَمِ
أرسلتُ نفسي على سجيّتها فقلت ما قلت غير محتشم

قال إسحاق الموصلي: أنشدني ابنُ كناسة هذين البيتين، فقلت له: وددت أني سبقتك إليهما وينقص من عمري ستان. ولجت: دخلت.

فقال: أما أنا فعاف، وطالب إسعاف، وسِرُّ ضُرِّي غير خاف، والنَّظْرُ إليّ شفيع لي كاف، وأما الانسياب، الذي علق به الارتياب، فما هو بعُجاب، إذ ما على الكرماء من حجاب، فسألناه: أتى اهتدى إلينا، وثم استدلّ علينا؟ فقال: إنَّ للكرام نشرأ تنمُّ به نفحاته، وتُرشد إلى روضة فوحاته، فاستدللت بتأرج عَرْفُكُم، عَلى تبلُّج عَرْفِكُم، وبشَّرتي تَضوُّع رندكُم بحسن المنقلبِ مِنْ عندكُم. فاستخبرناه حينئذ عن لُبائِه، لتتكفَّل بإعانيه.

عاف: طالب معروف. إسعاف: قضاء حاجتي. الشفيع: الطالب لغيره، يقول:

(١) الأبيات في سقط الزند ص ١١٣٢.

(٢) البيت في سقط الزند ص ١٣٥١.

لست أحتاج إليكم مع ظهور سرّي لشفيح، لأن نظركم إليّ يغني عن الشفيح. كاف: مغن عن غيره. الانسياب: الدخول بسهولة، وقد تقدّم أصله في الأولى. الارتياب: الشكّ والإنكار. عجاب: مبالغة في عجب. أتى: كيف. تُشراً تَنُمُّ به نفحاته: طيباً تفوح روائحه وأنفاسه. ترشد: تدلّ وتهدي. فُوحاته: روائحه العطرية. والعرف: الرائحة الطيبة، وتأرجحها: تحركها، وتأرج الطيب: فاح. تبلّج: ظهور. عرفكم: معروفكم؛ ولاحظ الحريري في هذا قول العزّجي: [المنسرح]

يوم يقول الرسول قد أذنت فأت على غير رقبة فلج^(١)
أقبلت أهوى إلى رحالهم أهدي إليها بريحها الأرج

قالوا: ويستدل بالطيب على الملوكية في المواطن التي يكون الناس فيها غير معروفين؛ فمن ذلك الحمّام ومعرك الحرب، ومثل هذا الموطن الذي ذكر الحريري في الحج إذا حلّ، قالوا: والطيب دليل لا يكذب ونمّام لا يفسد، والطيب: غذاء الروح، والنفحات الذكية: نشاط النفس، فهو طَبّ وطيب، وقال ابن البوّاب: [الطويل]

إذا أبصرتك العين من بُغد غاية فأوقعتُ شكاً فيك أثبتك القلب
ولو أنّ ركباً يَمُمُّوك لقادهم نسيّمك حتى يستدلّ بك الركب
وقال السري الموصلي: [البيسط]

حليّهُ وثناياه وعنبرهُ كلّ ينم عليه أو يراقبهُ
فلست أدري إذا ما سار في أفق شمائل الأفق أذكى أم جنائهُ
وقال ابن سكرة: [البيسط]

أهلاً وسهلاً بمن زارت بلا عِدّة تحت الظلام ولم تحذر من العَسَسِ
تسترت بالدجى عمداً فما استترت وناب إشراقها ليلاً عن القَبَسِ
ولو طواها الدجى عني لأظهرها برق اللّثاث وعطر النّحر والنفسِ
وأخذه المعتمد بن عباد فقال: [الرجز]

ثلاثة منعثنّا من زيارتها خوفُ الوشاة، وخوف الحاسد الحنّيق
ضوء الجبين ووسواس الحلي وما تحوي معاطفها من عنبر عبيق
هب الجبين بفضل الكمّ تستره والحليّ تنزعه، ما حيلة العرق!

فقال: إنّ لي ماربأ، ولفتاي مطلباً، فقلنا: كلاً المرامين سيُفصى، وكلاً كما

سوف يرضى، ولكن الكبير الكبير، فقلنا: أجل، ومن دَحَى السَّبع الغُبر، ثم وثب للمقال، كالمُنشَط من العِقال، وأنشد: [مجزوء الرجز]

بَغْدَ الْوَجَى وَالْتَّعَبِ	إِنِّي امْرُؤٌ أَبْدَعَ بِي
يَقْضُرُ عَنْهَا خَبِي	وَشَقَّتِي شَاسِعَةً
مَطْبُوعَةً مِنْ ذَهَبِ	وَمَا مَعِيَ خَزْدَلَةٌ
وَحَيْرَتِي تَلْعَبُ بِي	فَحِيلَتِي مُنْسَدَّةٌ
خِفْتُ دَوَاعِي الْعَطَبِ	إِنْ ارْتَحَلْتُ رَاجِلًا
قَةِ ضَاقَ مَذْهَبِي	وَأِنْ تَخَلَّفْتُ عَنِ الرُّفِ
وَعَبْرَتِي فِي صَبَبِ	فَزَفَرَتِي فِي صُعْدِ
اجِي وَمَزَمَى الطَّلَبِ	وَأَنْتُمْ مُنْتَجِعِ الرَّ
وَلَا أَنْهَلَ السُّحْبِ	لِهَاجِكُمْ مِنْهَلَّةٌ
وَوَفَرُكُمْ فِي حَرَبِ	وَجَارُكُمْ فِي حَرَمِ
فَخَافَ نَابِ الثُّوبِ	مَا لَازِمُ رَتَاعٍ بِكُمْ

قوله: «ماربأ»، أي حاجة. المرامين: المطالبين. الكبير الكبير، أي قدموا الأكبر. ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «أمرني جبريل عليه السلام أن أقدم الأكبر».

أجل: نعم. دحا: بسط. السبع الغبر: الأرضين. المنشط: المحلول. عقال: قيد البعير، وعَقَدَتِه بأنشطة، أي عقده عقدة تنحل بجذبة أو بجذبتين، وقولهم: بثر نُشُوط، إذا كان دلوها يخرج بجذبة أو جذبتين، وتسمى عامُتنا عقدة الأنشطة اللخ. أبدع بي: أي عطبت ناقتي، يقال: أبدع بالرجل إذ كلت إبله أو عطبت. وفي الحديث: إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: احملني فإني أبدع بي، فقال النبي ﷺ: «ما عندي ما أحملك عليه ولكن اذهب إلى فلان فقل له يحملك»، فأتاه فحمله فرجع إليه فأخبره، فقال النبي ﷺ: «مَنْ ذَلْ عَلَى خَيْرِ قَلْعٍ أَجْرُ فَاعِلِهِ»^(١). قوله: «الوجى»: وجع الحافر من الحَقَى. شَقَّتِي شَاسِعَةً: سَفَرَتِي بعيدة. خَبِي: مشيتي، وخَبِبُ الفرس خَبِيًا، وهو ضرب من العدو دون الإسراع. الخردل: حب معروف في نهاية الصُغُر. مطبوعة: مصنوعة. منسدة: منغلقة. العطب: الهلاك. تخلفت: تأخرت. مذهبي: طريقي. زفرتي في صُعْد: نفسي في

(١) أخرجه مسلم في الإمارة حديث ١٣٣، وأبو داود في الأدب باب ١١٥، والترمذي في العلم باب ١٤، وأحمد في المسند ٤/١٢٠، ٥/٢٧٤، ٣٥٧.

ارتفاع. عبرتي في صَبَب: دمعي في انحدار. المنتجع: الموضع الخصب الذي يُتَجَع للمرعى، يقول: موضعكم خصب وأنتم كرام فمن طلب منكم رزقه وجده. لهاكم: عطاياكم. منهلة: منصبة. لاذ: تستر ولجأ. مرتاع: خائف. والثوب: جمع نائبة على غير قياس، وهي الداهية، وجعل لها ناباً مجازاً وجنس به، وأصل الناب للسبع.

* * *

[الرجز]

ولا اسْتَدْرُ آمَلْ	جَبَاكُمْ فَمَا حُيِي
فَانْعَطِفُوا فِي قِصَّتِي	وَأَخْسِنُوا مُنْقَلَبِي
فَلَوْ بَلَّوْتُمْ عَيْشَتِي	فِي مَطْعَمِي وَمَشْرِبِي
لَسَاءَكُمْ ضُرِّي الَّذِي	أَسْلَمَنِي لِلْكَرْبِ
وَلَوْ خَبِرْتُمْ حَسْبِي	وَنَسْبِي وَمَذْهَبِي
وَمَا خَوْتُ مَغْرَفَتِي	مِنَ الْعُلُومِ الثُّخْبِ
لَمَا اعْتَرَّتْكُمْ شُبْهَةٌ	فِي أَنْ دَائِي أَدْبِي
فَلَيْتَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ	أُزْضِعْتُ ثُلْثِي الْأَدْبِ
فَقَدْ دَهَانِي شُؤْمُهُ	وَعَقَّنِي فِيهِ أَبِي

* * *

استدّر: طلب الدّر وهو اللبن. أمل: راج. جباءكم: عطاءكم. انعطفوا: ميلوا. منقلبي: مرجعي، يقول: عساكم أن تشفقوا عليّ وتميل قلوبكم بالرحمة إليّ حتى يحسن منقلبي من عندكم. بلوتم: جرّبتهم. أسلمني: تركني. الكرب: الهموم. خبرتم: اخترتم. حسبي: شرفي. والحسب آباء أشراف بحسب أو أفعال كريمة. مذهبي: طريقتي. خوت: جمعت. الثُّخْب المختارة. اعترتكم قصدتكم. شبهة: شكٌ وحيرة. دهاني: أهلكني وضررتني. شؤمه: نحسه. عقني قطعني وأساء إليّ بتعليمه، فهو يتطير بأدبه.

[الأدب]

والتطير بالأدب مذهب قديم متداول، وقد أشار إليه ابن قتيبة في صدر أدبه: وقال عمر بن شبة: من أعجب العجب ثلاثة مقارنة لثلاثة: الحرّفة للأدباء، وتباعد المال عن الظرفاء، وإقبال الدنيا على التوكل.

وقيل للحسن البصري رحمه الله: لِمَ صارت الحرفة مقرونة مع العلم، والثروة مقرونة مع الجهل؟ فقال: ليس كما قلتم، ولكن طلبتم قليلاً في قليل فأعجزكم، طلبتم

المال وهو قليل في أهل العلم وهم قليل، ولو نظرتهم إلى مَنْ تحارَف من أهل الجهل لوجدتهم أكثر؛ وقال الحمدوني: [البسيط]

ما ازددت من أدبي حرفاً أُسرَّ به إلا تزيّدت حرفاً تحته شومُ
كذا المقدم في حذق بصنعتِه أنى توجه فيها فهو محرومُ
وقال أبو إسحاق الصّابي: [الطويل]

إذا جمعت بين امرأين صناعةً فأحببت أن تدري الذي هو أحذقُ
فلا تتفقد منهما غيرَ ما جرث به لهما الأرزاق حين تفرّقُ
فحيث يكون الثّقص فالرزق واسعُ وحيث يكون الفضل فالرزق ضيّقُ
أخذه عبد الملك بن وهب، فقال: [الطويل]

يعزّ على العلياء أني خاملُ وإن أبصرت مني خمودَ شهابِ
وحيث ترى زند النجابة واريأ فثمّ ترى زند السّعادة كابي
وقال أبو إسحاق الصّابي: [البسيط]

قد كنت أعجب من مالي وكثرته وكيف تغفل عنه جرّفة الأدب
حتى اثنت وهي كالغضبى تلاحظني شزراً فلم تبق لي شيئاً من النّشبِ
واستيقنت أنها كانت على غلظ فاستدرّكته وأفضت بي إلى الحَرَبِ
الضّب والنون قد يُرجى اجتماعهما وليس يُرجى اجتماع المال والأدبِ

وقال عليّ بن بسام يزني عبد الله بن المعتز، على ما كان بينهما من العداوة: [البسيط]

لله درك من مَيت بمضيعة ناهيك في العلم والأدب والحسبِ
ما فيه «لو» ولا «ليت» فتنقصه وإنما أدركته حرفة الأدبِ

وكان ابن المعتز قام على المقتدر، فلما ظفر به أمرَ قُرُمي في صهريج فيه ماء في شدة البرد فمات. ومن عجائب الدنيا أن أباه المعتز لما خلع عن الملك أدخل حماماً، وأغلق عليه فمات من حرّه.

وكما نفّوا أن يجتمع المال والفهم في الغالب، كذلك نفّوا أن تجتمع النجابة في الولد والوالد في الغالب، قال الشاعر: [المقارب]

إذا أطلع الدهر حُرّاً لبيباً فكُن في ابنه سيئاً الاعتقادِ
فلست ترى من نجيب نجيباً وهل تلد الثّار غير الرّمادِ!

ولما أوجع الفقر والحرمان القاضي عبد الوهاب لأجل أدبه على ما شرطوا في

الأدب، تمئى الكفاف ولزوم العلم إلى الممات، فقال : [البسيط]

يا لَهْفَ نفسي على شيئين لو جُمعا عندي لكنت إذا من أفضل البشر
كفاف عيش كفاني ذلّ مسألة وخدمة العلم حتى ينقضي عمري
فلما فتح عليه باب الرزق مات، على ما يأتي ذكره، فسبحان من أنقذ حكمه في
خلقه كيف شاء!

فقلنا له : أما أنت فقد صرّحت أبياتك بفاقتك، وعطيت ناقتك، وسئمطيك ما
يوصلك إلى بلدك، فما مأزبة ولديك؟ فقال له : قُم يا بُني كما قام أبوك، وفهُ بما في
نفسك لا فضّ فوك. فنهض نهوض البطل للبراز، وأضلت لساناً كالغضب الجراز،
وأنشأ يقول : [المجث]

يا سادة في المعالي	لَهُمْ مَبَانٍ مَشِيدَة
وَمَنْ إِذَا تَابَ خَطْبٌ	قَامُوا بِدَفْعِ الْمَكِيدَة
وَمَنْ يَهُونُ عَلَيْهِمْ	بِذُلِّ الْكِنُوزِ الْعَتِيدَة
أريدُ منكم شواء	وَجَزْدَقَا وَعَصِيدَة
فإن غلا قرقاق	بِه تَوَارَى الشَّهِيدَة
أو لم يكن ذا ولا وذا	فَشَبَعَة مِنْ ثَرِيدَة
فإن تعدّذن طرا	فَعَجْوَة وَنَهِيدَة
فأحضروا ما تسئى	وَلَوْ شَطَى مِنْ قَدِيدَة
ورؤجوه فننفسى	لَمَا يَرُوجُ مُرِيدَة
والزاد لا بدّ منه	لرحلة لي بعيدَة
وأنثم خير رهط	تُدْعَوْنَ عِنْدَ الشَّدِيدَة
أيديكم كل يوم	لَهَا أَيَادٍ جَدِيدَة
ورأحكم وإصلاّت	شَمَلِ الصُّلَاتِ الْمُقِيدَة
وبغيتي قي مطاوي	مَاتَزْفُدُونَ زَهِيدَة
وفي أجر وعقبى	تَنَفِّيسِ كَرِيمِي حَمِيدَة
ولي نثائج فكير	يَفْضُخْنَ كُلَّ قَصِيدَة

قوله : «صرّحت» بينت . فاقتك : ففرك، وتصريح أبياتاته بعطب ناقتة هو قوله ، «أبدع

بي» المتقدم، وفي معناه: أن أعرابية خرجت إلى الحج، فلما كانت ببعض الطريق عَطِبَتْ ناقتها، فرفعت يديها إلى السماء وقالت: يا رَبِّ أَخْرِجْنِي من بيتي إلى بيتك، فلا بيتي ولا بيتك! قوله: «نمطيك» نعطيك مَطِيَّة. مأرية: حاجة. فُهُ: تكلُّم. فَض: كسر. نهض: تقدَّم. أَضَلَّت: جَرَّد. العضب: الجُرَّاز: السيف القاطع. مَشِيْدَة: مرتفعة. ناب خطب: قصد أمر شديد. والمكيدة، هي الكيد، وكل ما يكاد به فهو مكيدة. وقاموا بدفعها: اقتدروا عليها، يقول: إذا قَصِدُوا بأمر عظيم وكِيدُوا به اقتدروا على دفع الكيد واكتفوا بمن يريد ضَرَّهم. العتيدة: الحاضرة المذخورة. رُقَاق: خبز رقيق. توأري: تغطى. الشَّهيدة: الشاة المشوية، وقُلَّمَا يُوَكَّل لحمها إلا بالرقاق، وربما سَمُوا الهريسة شهيدة، وأنشدوا في ذلك: [الطويل]

هَلَمُوا إِلَى مِنْ عُدْبَتْ طَوْلَ لَيْلِهَا بِأَضْيَقِ سَجْنٍ فِي الْجَحِيمِ تَسْعُرُ
وَقَدْ جَلَدُوهَا الْحَذَّ وَهِيَ بَرِيَّةٌ فَسَيَرُوا إِلَى دَفْنِ الشَّهِيدَةِ تُؤْجِرُوا

وقيل: الشهيدة الدُّجاجة المحشوة، وقيل: السمكة المحشوة. طَرًّا: جميعاً. عجوة: نوع من التمر الطيب. والتَّهيدة: الزَّبدَة، والتمر بالزُّبد شيء يلذ عندهم أكله. تستنى: حضر. شَطَى: قطعة. رَوَّجوه: عَجَّلُوهُ. ولا بدُّ منه، أي قد وجب عليكم فالتزموه لي، تقول: لا بدُّ من كذا، معناه قد ألزمتُه نفسي وجعلته واجباً عليّ، من قول العرب: قد أبدَّ الرَّجُلُ القوم، وأبدَّ الرامي الوحش، إذا ألزَمَهُمُ الحَتَف، قال أبو ذؤيب: [الكامل]

فأَبْدَهُنَّ حُشُوفَهُنَّ فَهَارِبٌ بِذَمَائِكِهْ أَوْ بَارَكُ مَتَجَعُّجُ^(١)

قوله: «أيادٍ»: أي نعم. راحكُم: أكفكم. واصلات شَمْل الصَّلَات: أي تُؤَلَّف وتصل متفرق العطايا والفوائد. بغيتي: إرادتي. مطاوي ما ترفدون. مطاوي الثوب: معاطفه وما يطوى منه. وتُرفدون: تعطون، وتقدير البيت: بغيتي زهيدة أي قليلة في مطاوي عطاياكم، أي ما طلبته منكم قليل في أثناء ما تهبون. قوله: «وفي أجر»: عن أنس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَطْعَمَ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ طَعَاماً وَافَقَ بِهِ شَهْوَتَهُ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ». وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص «مَنْ أَطْعَمَ أَخَاهُ خَبِزاً حَتَّى يَشْبِعَهُ وَسَقَاهُ مَاءً يَرْوِيهِ أَبْعَدَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ سَبْعَ خَنَادِقَ». تنفيس: تفريح وترويح، يقول: عاقبة تفريح همي لمن فرَّجه محمودة للأجر الذي فيها، والثناء بشعري عليه، وعلى هذا رتب: «ولي نتائج فكر»: وهي أشعاره الحسان. يفضحن: يَشْهَرْنَ عُنُوبَهُنَّ، يقول: إذا أنشدت شعري افتضحت قصائد الشعراء وتنقصت.

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص ٣٤، ولسان الغوب (بدد)، (جمع)، (ذمي)، ومقاييس اللغة ١/١٧٦، ٤١٦، وكتاب العين ١/٦٨، وأساس البلاغة ذمي، وتهذيب اللغة ١/٦٩، ٧٨/١٤، ٢٦/١٥، وتاج العروس (بدد)، (جمع)، (ذمي)، وبلاغة نسبة في المخصص ٣/٢٣، ٨٠.

قال الحارث بن همام: فلَمَّا رَأَيْنَا الشُّبْلَ يُشْبِهُ الْأَسَدَ، أَرْحَلْنَا الْوَالِدَ وَزَوْدَنَا الْوَلَدَ، فَقَابِلَا الصَّنْعَ بِشُكْرِ نَشْرٍ أَرْدَيْتُهُ، وَأَدْيَا بِهِ دَيْتَهُ. وَلَمَّا عَزَمَا عَلَى الْإِنْطِلَاقِ. وَعَقَّدَا لِلرَّحْلَةِ حُبَّكَ النَّطَاقِ، قُلْتُ لِلشَّيْخِ: هَلْ ضَاهَتْ عِدَّتُنَا عِدَّةَ يَعْقُوبَ، أَوْ هَلْ بَقِيَتْ حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ! فَقَالَ: حَاشَ لِلَّهِ وَكَلَاءً، بَلْ جَلَّ مَعْرُوفُكُمْ وَجَلَّى، فَقُلْتُ لَهُ: فَدَيْنًا كَمَا دَيْنَاكَ، وَأَفْدَنًا كَمَا أَفْدَنَاكَ أَيْنَ الدَّوْنِيرةِ، فَقَدْ مَلَكَتِنَا الْحَيْرَةَ!.

الشُّبْلُ: ولد الأسد. أرحلناه: أعطيناه راحلة يركبها. الصنع: الفعل الجميل. نَشْرًا أَرْدَيْتُهُ: استعارة لنشر الشكر. أدْيَا: أعطَيْنا. دَيْتُهُ: حقُّه، يقول: جعلنا شكرهما حقًّا لبرتنا ومكافأةً لصلتنا، وكأنَّ المال الموهوب قد استهلكه الآخذ له، فإن شكر عليه فالشُّكر للواهب هُوَ دِيَّةٌ ماله الهالك. وإنما أراد قول النبي ﷺ: «مَنْ نَشَرَ مَعْرُوفًا فَقَدْ شَكَرَهُ، وَمَنْ سَتَرَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ».

[مما قيل في الشكر]

وفي حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَعْطَى شَيْئًا فَوَجَدَ فَلْيَجْرِ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيُتِّنْ بِهِ، فَإِنْ أَتَى عَلَيْهِ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَإِنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ».

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: «مَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ أَتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافُوهُ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدَكُمْ فَلْيَدْعُ لَهُ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ كَافَاهُ».

وقالوا: إِذَا قَصُرَتْ يَدَاكَ عَنِ الْمَكَافَاةِ فَلْيُطَلِّ لِسَانَكَ بِالشُّكْرِ.

وما أحسن قول حبيب في نشر الشكر وذم ستره. [الكامل]

لِلنَّارِ نَارُ الشُّوقِ فِي كَبَدِ الْفَتَى	وَالْبَيْنُ يُوقِدُهُ هَوًى مَسْمُومٌ
خَيْرٌ لَهُ مَنْ أَنْ يَخَامِرَ قَلْبَهُ	وَهَوَاهُ مَعْرُوفٌ أَمْرٌ مَكْتُمٌ
سَرَقَ الصَّنِيعَةَ فَاسْتَمَرَّ مُلْعَنًا	يَدْعُو عَلَيْهِ النَّائِلُ الْمَظْلُومُ
أَوْقَنْعُ الْمَعْرُوفِ وَهُوَ كَأَنَّهُ	قَمَرُ الدَّجَى إِنِّي إِذَا لِلنَّيْمِ
مُثِيرٌ مِنَ الْمَالِ الَّذِي مَلَكَتَنِي	أَعْنَاقُهُ وَمَنِ الْوَفَاءُ عَدِيمٌ
فَارَوْحُ فِي بُرْدَيْنِ لَمْ يَسْحَبْنِهُمَا	قَبْلِي فَتَى وَهُمَا الْغِنَى وَاللَّوْمُ

ومن ملح الأعراب؛ أن أعرابياً لصاً أخذه الحجاج، فضربه سبعمائة سوط، وهو يقول عند كل سوط: شكرًا يا رب، فقيل له: والله ما يمنع الحجاج من تركك إلا كثرة شكرك، أما سمعت الله يقول: ﴿لَنْ شُكِرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]! فأنشأ الأعرابي يقول: [الرجز]

يا رب لا شكر فلا تزذني أسأت في شكرك فاعف عني

باعد ثواب الشاكرين مني

ومرّ بشار برجل قد رمحته بغلة فسقط مكسوراً، وهو يقول: الحمد لله والشكر لله، فقال: استزده يزدك من هذه النعم.

وسياتي نوع آخر من الشعر في الشكر بحول الله تعالى.

قوله: «حُبُّكَ النِّطَاقُ»: النِّطَاق والمنطقة: ما يُشَدُّ على وسطك كالحزام. والحُبُّك: خيوط أو شَرَك يُشَدُّ بها النِّطَاق، وأراد أنهما تحزّما للارتحال، ويقال: حبكت الشيء حَبْكَاً: شدّدته، واحتبكت إزارى: شدّدته. والمحبوك: المفتول، وحبكته: شدّدته، قتله، والحُبُّك: الطرائق في السماء من أثر الغيم، والحُبُّك أيضاً: التكسير الذي يكون في الرمل والشعر والماء.

ضاهت: شابته. عدتنا: ما وعدناك به من الرّاحلة، ولابنك من الزاد.

[قصة المثل: مواعيد عرقوب]

عرقوب: رجل من العماليق يضرب به المثل في إخلاف الوعد، وقصّته أنّه أتاه أخ له يسأله شيئاً، فقال له: إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعتها، فلما أطلعت أتاه فقال له: دعها حتى تصير بلحاً، فلما أبلحت أتاه، فقال له: دعها حتى تصير زهواً، فلما أزهرت قال له: دعها حتى تصير رطباً، فلما أرطبت قال له: دغها حتى تصير تمرّاً، فلما أثمرت عمّد إليها عرقوب من الليل فجدها، ولم يعطه شيئاً.

وقيل: عرقوب هو ابن سعد بن زيد مناة بن تميم، ويقول بنو سعد: هو مثا.

وقيل: هو من الأوس والخزرج، قال علقمة: [الطويل]

وقد وعدتك موعداً لَوَ وَفَّتْ به كَمَوْعِدِ عَرَقُوبِ أَخَاهُ بَيْشَرِبِ^(١)

(١) يروى البيت:

وعذت وكان الخلف منك سجيّة مواعيد عرقوب أخاه بيشرب

وينسب البيت لأكثر من شاعر، فهو لابن عبيد الأشجعي في خزانة الأدب ٥٨/١، وللأشجعي في لسان العرب (ترب)، (عرقب). ولعلقمة في جمهرة اللغة ص ١١٢٣، وللشماخ في ملحق ديوانه ص ٤٣٠، وشرح أبيات سيبويه ٣٤٣/١، وللشماخ أو للأشجعي في الدرر ٣٤٥/٥، وشرح المفصل (بروايتين مختلفتين في الصدر)، وبلا نسبة في جمهرة اللغة ص ١٧٣، ٢٥٣، ١١٩٨، وشرح قطر الندى ص ٢٦١، والكتاب ٢٧٢/١، والمقرب ١/٣١١.

وقال كعب بن زهير: [البسيط]

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً
وما مواعيدها إلا الأباطيل^(١)

وقال عبد الله بن عمر: خلف الوعد ثلث التفاق. وحاجة نفس يعقوب: خشية العين على بنيه حين أمرهم أن يتفرقوا على الأبواب، ولا يدخلوا من باب واحد، لأنهم كانوا في غاية الجمال وكمال الخلق، وقال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ [يوسف: ٦٨]، وأراد الحريري: هل بقيت لك حاجة لم تقضها؟ فقال: حاش لله، أي، معاذ الله.

ابن الأنباري قولهم: حاشي فلاناً، معناه أستثنيه، وأخرجه من المذكورين الفراء: هو من حاشيت أحاشي، ويقال: قام القوم حاشي عبد الله بالنصب والخفض، وحاشي للعبد الله، وحاش وحشى، وخفض ما بعدها بإضمار اللام لكثرة صحتها حاشي، كأنها ظاهرة، أو تقول: أضيفت حاشي إلى عبد الله، لأنه أشبه الاسم لما يأت معه فاعل.

كلاً: معناها الزجر، أي ليس الأمر كما تظن. جُلّ: عظم. وهو من الجليل، والجليل هو العظيم ويكون في غير هذا اليسير وهو من الأضداد، جلى: سبق معروفكم كل معروف، والمجلّي من الخيل: السابق.

دناً: جازتاً أين الدويرة؟ سألته أين تسكن من البلاد، ملكتنا: غلبتنا، يقول: قد التبس علينا أمرك وتحيرنا فيه.

فَتَنْفُسُ تَنْفُسٍ مِنْ أَدَّكَرَ أَوْطَانَهُ، وَأَنْشُدْ وَالشَّهِيْقُ يُلْعِمُ لِسَانَهُ: [مجزوء الرمل]

سَرُوجِ دَارِي وَلَكِنْ	كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَيْهَا
وَقَدْ أَنْصَحَ الْأَعْدَاءِي	بِهَا وَأَخْنَأَ عَلَيْهَا
فَوَالَّتِي سِرْتُ أَبْغِي	حَطَّ الذُّنُوبُ لَدَيْهَا
مَا رَاقَ ظَرْفِي شَيْءٌ	مِذْ غِيبَتْ عَنْ طَرْفِهَا

ثم غرورقت عيناه بالدموع، وأذنت مداً بالهموع، فكرة أن يستوكفها، ولم يملك أن يكفكفها، فقطع إنشاده المستحلي، وأوجز في الوداع وولّى.

(١) البيت في ديوان كعب بن زهير ص ٨، ولسلك العرب (عرقب)، وجمهرة اللغة ص ١١٢٣، ١١٩٨، وكتاب العين ٢/٢٩٦، وتاج العروس (عرقب)، (بطل).

تنفّس: رذذ النفس إلى الجوف بصوت ورفعها إلى صدره، والتنفّس: ضدّ الشهيق، وهو رذّ النفس إلى الجوف بصوت، يلغثم: يلوي ويعقل، ويقال: سأله عن كذا فما تلغثم، أي ما توقّف ولا تلبّث ولا أبطأ، فإذا ذكرت للغريب بلدّه وهو على بعد منه تنفّس وتلهّف. أناخ: أقام ونزل. أخنوا: أفسدوا، وأتوا على خرابها. والتي يبغي حطّ الذنوب إليها هي مكة. حطّ: إلقاء وإنزال. لديها: عندها، أي إذا حجّ ودعا الله حطّ ذنوبه عنه.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «من حجّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(١).

راق: أعجب. طرفيها: جهتيها. اغرورقت: امتلأت. أذنت: أعلمت. الهموع: السيلان، يستوكفها: يستدرّها ويجريها، يكفكفها: يردها، المستحلي: المستعذب. أوجز: اختصر.

[مما قيل في الحنين إلى الأوطان]

ومما ينتظم بهذا الموضع من ذكر الأوطان والتشوق إليها قوله رفاعة بن عاصم الفقعسي، وأنشدها البكري لامرأة من طيء: [الطويل]

ألمّ تعلّمي يا داراً بلجّاءً أنني إذا أخصبت أو كان جدياً جنائبها^(٢)
أحبّ بلاد الله منابيين منعج إليّ وسلمى أن يصوب سحابها
بلاداً بها نيطت عليّ ثمائي وأول أرض مسّ جلدي ترائبها

قال عليّ بن عبد الكريم النصيبيني: أتاني ابن الرومي بقصيدته التي يمدح فيها سليمان بن عبد الله بن طاهر، وقال لي: أنصفيني وقل الحقّ: أيّما أحسن قولني في الوطن: [الطويل]

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، أخرجه البخاري في الحج باب ٤، والمحصر باب ٩، ١٠، ومسلم في الحج حديث ٤٣٨، والترمذي في الحج باب ٢، والنسائي في الحج باب ٤، وابن ماجه في المناسك باب ٣، والدارمي في المناسك باب ٧، وأحمد في المسند ٢/٢٢٩، ٢٤٨، ٤١٠، ٤٨٤، ٤٩٤.

(٢) يروي البيت الثالث:

بلاد بها عتق التشباب تميمتي وأزل أرض مسّ جلدي ترائبها
والبيت ليرقاع بن قيس الأسدي في لسان العرب (نوط)، (تمم)، وتاج العروس (نوط)، (تمم)،
ولأحد الأعراب في الكامل ص ٨٤٢، ١٣٢٠، ومعجم البلدان (منعج)، ولامرأة من طيء في سمط
اللاّلي ص ٢٧٢، وبلا نسية في لسان العرب (عق)، وتهذيب اللغة ١/٥٩، وتاج العروس (فأس)،
(عق)، وينسب البيت كذلك إلى رفاعة بن قيس، ولأبي النصير الأسدي، انظر سمط اللاّلي ص
٢٧٢، ٢٧٣، الهامش، والكامل ص ٨٤٤، ١٣٢٠، الهامش.

ولي وطنٌ آليت ألا أبيعَه وألا أرى غيري له الدهرَ مالكا
عهدت به شزخ الشباب ونعمة كنعمة قوم أصبحوا في ظلالِكا
وَحَبَّبَ أوطان الرجال إليهم مآربُ قضأها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهم عهدَ الصبأ فيها فحنوا لذلكا
أو قول الأعرابي: أحب بلاد الله... الأبيات، فقلت: بل قولك لأنه ذكر الوطن
ومحبته، وأنت ذكرت حب الوطن والعلّة في ذلك.

وقال ابن الرومي يتشوّق إلى بغداد: [الكامل]

بلدٌ صحبت به الشبيبة والصبأ ولبستُ ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثل في الضمير رأيتُه وعليه أغصان الشباب تميد
أخذه من قول أعرابي يتشوق إلى بلده: [الطويل]

ذكرتُ بلادي فاستهلّت مدايمِي بشوقٍ إلى عهد الصبأ المتقادم
حننتُ إلى ربع به اخضرَ شاربي وقُطِعَ عَنِّي قَبْلَ عَقْدِ الثَّمانِمِ
وقال إسحاق الموصلي: [الطويل]

أتبكي على بغداد وهي قريبةٌ فكيف إذا ما ازددت عنها غداً بُغداً
لعمرك ما فارقتُ بغداد عن قلِي لو أنا وجدنا من فراق لها بُداً
كفى حزناً أن رحت لم أستطع لها وداعاً ولم أحدث لساكنها عهدا
وأنشدني أن شيخنا أبو بكر السّلامي وكان يزعم أنهما لأخي الحريري، وقد أحسن
قائلهما كائناً من كان: [البسيط]

طيب الهواء ببغدادٍ يؤرقني شوقاً إليها وإن عاقت مقاديرُ
فكيف أصبرُ عنها اليوم إذ جمعتُ طيب الهواءين: ممدود ومقصورُ

المقامة الخامسة عشرة

وهي الفرضية

أخبر الحارث بن همام قال: أرقْتُ ذات ليلة حالكة الجلباب. هامية الرِّباب، ولا أرق صبَّ طُرْدَ عن الباب، ومُني بصدِّ الأحباب، فلم تزل الأفكارُ يهجنَ همِّي، ويُجلنَ في الوسوسِ وهمي، حتى تمئيتُ لمِضضِ ماءِ أنيث، أن أُرزقَ سَميراً من الفضلاء، ليَقْصُرَ طُولُ لَيْلَتِي اللَّيلاء، فما انقضتْ مُنْيَتِي، ولا أغمضتْ مُقْلَتِي، حتى قرع الباب قارعاً، له صوتٌ خاشعٌ، فقلتُ في نفسي: لعلَّ غَرَسَ التَّمْنِي قد أثمرَ، وَلَيْلَ الحظِّ قد أقمَرَ، فنهضتُ إليه عَجْلاً، وقلتُ من الطارقِ الآن! فقال: غريبُ أجنَّةِ الليل، وغشيهُ السَّيْلُ، وَيَبْتَغِي الإيواءَ لا غيرَ، وإذا أسحرَ قَدَمُ السيرِ.

أرقت: سهرت ولم أنم، وفي حديث زيد بن ثابت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أرقاً أصابني، فقال: «قل اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون، وأنت حي قيوم، لا تأخذك سنة ولا نوم، يا حي يا قيوم، أهدثني ليلي، وأنم عيني». فقلتها فأذهب الله عني ما كنت أجده.

حالكة الجلباب: سوداء الثوب، هامية الرِّباب: سائلة السحاب؛ يريد أن الليلة مظلمة ممطرة، صبَّ: عاشق. طرد: نفى. مُني ابتلى. صدَّ: هجر. الأفكار: أحاديث النفس. يهجن: يحرّكن. ويجلن: يصرفن والوسوس الفكر المقلقة، وهمي: بالي وخاطري، وقال ابن شهيد في نحو هذه الليلة: [الكامل]

ولربَّ ليلٍ للهموم تسدّلت	أستاره فمحا الضياء بستره
كالبحر يضرب موجّه في موجّه	صعبٌ على العُبار وجه عبوره
طاولته من عزمتي بتصبّر	أثبت همّي في قرارة كوره
وبراحة من همّتي ذو كره	عمدْتُ تذاكرني بطبع ذكيره
فردّ إذا انبعثت دياجي جُنْحه	هولاً عليّ خبطت في ديجوره
حتى بدا عبد العزيز لناظري	أملّي، فمزقتُ الدُّجى عن نوره

وليلة الحريري ضد ليلة ابن رشيق في قوله : [الطويل]

ومن حسنات الدهر عندي ليلة من العمر لم تترك لأيامنا دُنيا
خلوينا ننفي القذى عن عيوننا بلؤلؤة مملوءة ذهباً
وملأنا لتقبيل الخدود ولثمها كميل جياح الطير تلتقط الحبا

قوله : «تمنيت» . ابن الأنباري : في معناه قدرت وأحببت أن يصير إليّ ، وهو من
المنى وهو القدر ، يقال : منى الله لك ما تحبه يَمْنِيهِ منياً ، أي: قدره لك . لمضض ، أي
لحرقه ، عاينت : شأهت ، ويروى «عانيت» أي قاسيت ، سميراً : صاحباً يُسمر معه
يقصر : يردها قصيرةً بأنسه وحديثه . الليلاء : الشديدة الطويلة السواد ، ولابن الزقاق في
مثل هذا السمير : [الخفيف]

رب ليلٍ أتجفّت فيه بأنسي من سمير زفّ الحديث عروسا
فاجتنينا مما يحدث زهراً واغتبقنا من خلّقه خندريساً
وانثنى الليل يفضل الصبح حسناً والدراري يفضلن فيه الشموسا
ولئن كان لم يحلّ عن دجاء فلقد عاد فحمه أبنوسا

قوله : «أغمضت مقلتي» ، نامت عيني . قرع : ضرب . خاشع : لين . أثمر : طلع
ثمره ، الحظ : البخت . أقر : صار قمر ، يقول : لعلّ : بختي قد زال نحسه وأقبل سعده إذ
وجدت ما تمنيت ، نهضت : تقدمت . الطارق : الآتي بالليل أجنه : ستره . غشيه : غطاه ،
الإيواء مصدر آويت الرجل ، إذا أنزلته على نفسك وضممته ، وتقول : أويته وآويت بمعنى
واحد . أسحر : دخل في وقت السحر ، يريد أنه لا يطلب غير المبيت وينصرف في السحر .

قال : فلما دلّ شعاعه على شمسهِ ، ونَمَ عُنوانه بِسرِّ طَرَبِهِ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ
مُسامرته غنم ، ومُساهرته نَعَم ، ففتحت الباب بابتسام ، وقلتُ ادخلوها بِسلام ،
فدخلَ شخص قد حنّى الدهر صَغَدَتُهُ ، وبَلَّلَ القَطَرُ بُزْدَتَهُ ، فحياً بلسانٍ عَضِبٍ ،
وبيان عَدَبٍ ، ثم شكرَ عَلَى تَلْبِيَةِ صَوْتِهِ ، واغْتَدَرَ مِنَ الطَّرُوقِ فِي غَيْرِ وَقْتِهِ ، فدانيتهُ
المُضْبَاحَ المَتَّقِدَ ، وتأمَّلْتُه تأمُّلَ المُنْتَقِدِ ، فألفيتهُ شَيْخَنَا أَبُو زَيْدٍ بِلا رَيْبٍ ؛ ولا رَجِمَ
غَيْبٍ ، فأَحْلَلْتُهُ محلّاً مَن أَظْفَرَنِي بِقُصُوى الطَّلَبِ . ونَقَلَنِي من وَقْدِ الكُرْبِ ، إلى رُوحِ
الطَّرَبِ ، ثُمَّ أَخذ يشكو الأَيْنَ وَأَخذتُ في كَيْفَ وأَيْنَ . فقال : أبلغني رَيْقِي ، فقد
أتعبني طريقي ، فظننتُهُ مستبطناً للِسَعْبِ ، متكاسلاً لهذا السَّبَبِ ، فأخضرتُهُ ما يُخَضِّرُ
للضيفِ المفاجيء ، في الليل الدَّاجي .

الشعاع: ما يبدو لك من الشمس إذا ظهرت كالخيال، نم: أفسى السر: والطرس: الكتاب. العنوان: ما يكتب على ظهره، يريد أن كلام الطارق تدل على مراده. والمسامرة. هي المساهرة. غُثم: غنيمه، نعم: نعمة. بسلام، أي بسلامة وأمن. قوله: «صعدته»، الصاعدة: الريح الطويل، وكني به عن القامة. برذته: ثوبه. غضب: قاطع. تلبية: قلبي له: لبيك. الطروق: المجيء بالليل. دانيته: قربت منه، تأملته: نظرتة المنتقد: المعجب للدراهم، أي نظرتة بعين المباحثة، ألفتته: وجدته، ريب: شك. رجم الغيب: رمى الظن. أظفرتني: ملكتني. قُضوى: غاية. هي مؤنث الأقصى أي الأبعد. وقَدْ الكرب. حرقة الهموم: روح الطرب: راحة السرور. الأين: التعب كيف: سؤال عن حال. وأين: سؤال عن مكان، أي سألته كيف حالك، ومن أين جئت. أبلغني ريقى، أي لا تكثر عليّ السؤال فيجعلني جوابك عن بلع ريقى. السَّغب: الجوع، وقد سَغَب وسَغِب جاع. الدَّاجي: المظلم.

فانقبض انقباض المحتشم، وأعرض إعراض البشم، فسوَّ ظناً بامتناعه، وأحفظني حوول طباعه، حتى كدت أغلظ له في الكلام، وألسعه بحمة الملام، فتبين من لمحات ناظري، ما خامر خاطري، فقال: يا ضعيف الثقة، بأهل المقه، عد عما أخطرتك بالك، واستمع إلي لا أبالك! فقلت: هات، يا أخا الثرعات، فقال: اعلم أنني بث البارحة حليف إفلاس، ونجى وسواس، فلما قضى الليل نحيه، وغوره الصبح شهبه، غدوت وقت الإشراق، إلى بعض الأسواق؛ مُتَصَدِّياً لَصِيدٍ يَسْنَحُ أو حُرَّ يَسْمَحُ، فلحظت بها تماًراً قد حسن تصفيفه، وأحسن إليه مصيفه، فجمع على التحقيق، صفاء الرحيق، وقنوء العقيق، وقبالتة ليلاً قد برز كالإبريز الأصفر، وانجلي في اللون المزعفر، فهو يثني على طاهيه، بلسان تناهيه، ويصوب رأي مشتريه، ولو نقد حبة القلب فيه

المحتشم: المستحي هنا. أعرض: نحى وجهه. وتحقيقه: ولَّى عرضه، أي جانبه. البشم: الكسل من الشَّبَع وقد بشم بشماً: مرض من كثرة الأكل. سوَّ ظناً: أساء ظني، وظناً المنسوب على التميز فاعل في المعنى، من باب تفقاً شحماً. أحفظني: أغضبني. حوول طباعه: تغيّر أخلاقه. حمة الملام: سم العتاب. ألسعه: أقرصه بلساني، ولسعته العقرب: ضربته بإبرتها.

لمحات ناظري، أي خطرات عيني، خامر خاطري، خالط فكري المقه: الحب. عد، أي اصرفه عن نفسك، الثرعات: العجائب، وأيضاً الأباطيل، وأصلها الطرق الصغار المتشعبة عن الطريق الأعظم. حليف إفلاس: ملازم فقر. نجى: محدث. ولما كانت الوسواس تشغل بال الإنسان وتجعله يتحدث وحده جعل نفسه محدثاً لها. قضى نحيه:

تمّ وانقضى، وقضى الرجل نحبه: مات، والنحب: النذر. وغور: غيب. شبهه: نجومه. والإشراق: الارتفاع الشمس وصفاءها الأسواق: جمع سوق وسميت سوقاً، لأن الأشياء تساق إليها، وتساق منها، أو لأن سوق الناس تكثر فيها. والسوق: جمع ساق، والسوق بالفتح: مصدر سقت، وبالضم الاسم، متصدياً: متعرضاً.

يسنح: يعرض من جهة اليمين ويزاد بياناً عند ذكر السانح والبارح، يسمح: يجود، لحظت: نظرت، ولحظت: أضيّق عيني، أي أبصرت بضيق عيني. تصفيفه، أي جعله صفّاً واحداً، وصففت الشيء: جعلته صفّاً واحداً مضموماً.

المصيف: زمن الصيف. الرحيق: الخمر، قنوء: حمرة. العقيق: خرز أحمر.

عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «تختموا بخواتيم العقيق فإنه لا يصيب أحدكم غم ما دام عليه ذلك» واللّبأ: أول ما يحلب من اللبن وهو لم ينضج. برز: ظهر. الأبريز: الذهب الخالص. المزعفر: المصبوغ بالزعفران.

ويروى: «المعصفر»، وهو المصبوغ بالعصفر، وطاهيه: طابخة: تناهيه غايته وكماله، يقول: هذا اللّبأ بحسن صنعته وجودة طبخه كأنه يثني للمشتريين على طابخه وإن لم يكن له لسان، فكماله في الحسن وجودته في الصنعة قام له مقام اللسان، ويسمى هذا الكلام بلسان الحال قال الشاعر: [الكامل]

ولسان نعمتك التي قلذتني
وقال المتنبي: [المنسرح]

نُشد أثوابنا مدائحَه
إذا مررنا على الأصمّ بها
أخذه من قول نصيب: [الطويل]

فعاجوا فائنوا بالذي أنت أهله
وقال أبو العتاهية: [المتقارب]

أيا عجباً كيف يعصي الإلّ
وفي كلّ شيء له آية
ولله في كلّ تسكينه
ه أم كيف يجحده الجاحد! (٣)
تدلّ على أنه واحد
وتحرّكة في الوري شاهد

(١) البيتان في ديوان المتنبي ٤/ ٢٦٥.

(٢) البيت لنصيب في ديوانه ص ٥٩، والأغاني ٣١٧/١، وأمالى المرتضى ٦١/١، وخزانة الأدب ٥/ ٢٩٦، وشرح شذور الذهب ص ٣٨، والشعر والشعراء ٤١٨/١، ولسان العرب (حدث).

(٣) الأبيات في ديوان أبي العتاهية ص ١٠٤، وتاج العروس (عنه).

وقال الفضل بن عيسى الرقاشي: سَلَّ الأرضَ: من غرس أشجارك، وشق أنهارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حواراً، أجابتك اعتباراً.

ومنه سؤال العرب للمنازل الخالية والديار الدارسة، وقال شاعرهم: [الطويل]

وأجهشتُ للتوبادِ حين رأيتُه وكَبَّرَ للرحمن حين رآني
وأذريت دمع العين لما رأيته ونادى بأعلى صوته فدعاني
فقلت له أين الذين عهدتهم حواليك في أمن وخصب زمان!
فقال مضوا واستودعوني ديارهم ومن ذا الذي يبقي على الحدثان!

التوباد: جبل بني عامر، وجوابه لهذا الشاعر بالمعنى، فجعله لفظياً مجازاً، وهذه الحالة الدالة التي سماها الجاحظ في أقسام البيان النُّصبة، قال الجاحظ: جمع أصناف الدلالة على المعاني من لفظ أو غيره خمسة لا تنقص ولا تزيد، أولها اللفظ ثم الإشارة، ثم العقد، ثم الخط، ثم النُّصبة، والعقد: أخذ العدد في الأصابع. قوله: «نقد»، أي أعطى نقداً، وهو المال الحاضر، حبة القلب: سواده.

فأسرتني الشهوة بأشطانها، وأسلمتني العيمة إلى سلطانها، فَبَقِيْتُ أَحْيَرَ مِنْ صَبٍّ، وأذهل من صَبٍّ، لا وَجَدَ يُوصِلُنِي إِلَى نَيْلِ المُرَادِ، وَلَذَّةِ الازدِادِ، ولا قَدَمٌ يُطَاوِعُنِي عَلَى الذَّهَابِ، مع حُرْقَةِ الالْتِهَابِ، لكن حَدَانِي القَرَمُ وَسَوْرَتُهُ، والسَّعْبُ وفُوزَتُهُ، عَلَى أَنْ أَتَجْعَلَ كُلَّ أَرْضٍ، وَأَقْتَنَعَ مِنَ الْوَرْدِ بَيْرُضٍ، فَلَمْ أَزَلْ سَحَابَةً ذَلِكَ النَّهَارِ، أَذْلِي دُلُوبِي إِلَى الْأَنْهَارِ، وهي لَا تَرْجِعُ بَيْلَةً، وَلَا تَجْلُبُ نَقْعَ غُلَّةٍ، إِلَى أَنْ صَفَتِ الشَّمْسُ لِلْغُرُوبِ، وَضَعَفَتِ النَّفْسُ مِنَ اللُّغُوبِ، فَرَحْتُ بِكَيْدِ حَرَّى، وَانْتَشَيْتُ أَقْدَمُ رَجُلًا وَأَوْخَرُ أُخْرَى.

أسرتني: ربطتني كالأسير. أشطانها: حبالها. أسلمتني: تركتني. العيمة: شهوة اللب. وسلطانها: قدرتها وغلبتها، يريد أن الشهوة إلى اللب أقرته حتى تركته مستسلماً لا يملك نفسه.

[الضب]

الضَبُّ: يشبه الحرذون، وهو جِرْذُون الصَّحْرَاءِ وإذا فارق جحره لم يهتد إليه فيتحير. فيجعل حجراً عند جحره، واقفاً ليهتدى به، فإذا أزاله الصائد تحير، فجاء فأخذه، وربما قتله بذلك الحجر، قال الشاعر: [الوافر]

وإن الضب ذو ذهبي ومكرٍ كما اليربوع والذئب اللعين
يرى مِرْذاته من رأس ميلٍ ويأمن سيل بارقة هتونٍ
يُدخل عقرباً تحت الذنابي رواغ الفهد من أسدٍ كمينٍ

جعل الذئب لعيناً، لأنَّ من رآه صاح عليه. ومرداته: حجره، والعقرب يعدّه الضب للصائد إن أدخل يده في حجره، وأخذ بذنبه، لسعته العقرب، وربما أكل العقارب وترك منها واحداً في باب حجره للصائد، قال الشاعر: [الطويل]

وأخذع من ضبٍ إذا جاء حارِشٍ أعدّ له عند الذنابة عقرباً^(١)
والضب، أي وصف بالضلال وقالوا في بيت المتنبي: [الطويل]

لقد لعبَ البينُ المشت بها وبني وزودني في السير ما زود الضباً^(٢)
أراد أنه زودني الضلال عن وطني، الذي خرجت منه، فما أوفق للعود إليه، والاجتماع مع الحبيب.

وقال الواحدي يقول: جعل البين زادي زاد الضب، والضب لا يتزود في المفازة، ومعناه: فارقت الحبيب من غير وداع ولا اللقاء يكون لي زادا على البعد. ويقال أيضاً: أخذع من ضب، وذلك أنه يطمع الصائد في نفسه، فإذا حنق عليه خدع في حجره، ومنه أخذ معنى الخداع.

ويقال فيه: إنه أعق من ضب، وذلك أنه يأكل أولاده، ويكنى أبا الحسل ويسمى ولده الحسل، وأمثال العرب به كثيرة. ويزعمون أنه كان حكماً في الدواب في الزمان، الذي كانت فيه الحيوان تتكلم. وعنه يروون: في بيته يؤتى الحكم، يعني نفسه. وفيه خواص ليست في الحيوان، تزعم العرب أنه لا يشرب الماء، وإذا أخذه العطش صعد ربوة واستقبل الريح، وأنه طويل العمر. ويقولون: إنه أحيا من ضب، يريدون أن حياته لا تكاد تنقضي، وأنه لا يسقط له سن، وأنه أطول الدواب دماً، وإذا ذبح يبقى زماناً، وحيث يموت، وأن له ذكرين ولأنثاء فرجين.

«أذهل من ضب»: أي أشغل قلباً من عاشق، ووساوس العشق أفضت ببعض العشاق إلى الجنون، وجد: غنى، وقد وجدت وجداً، أي كثر مالي والازدراء: كثرة الأكل، وزردت الطعام وازدردته إذا ابتلعت، الألتها: اشتغال نار الجوع. حداني: ساقني، القرم: شهوة اللحم، وأراد به شهوة الأكل. سَوْرته: شدته. وفورة السغب:

(١) البيت بلا نسبة في تاج العروس (خدع).

(٢) البيت في ديوان المتنبي ٦٠/١.

غليان الجوع. أنتجع: أمشي في طلب ما آكل، والورد: الحظ من الماء. والبرض: قليل الماء. سحابة ذلك النهار، أي طوال ذلك النهار، كما تقول: بياض يومي، أي يومي كله، أي لم يزل طول يومه يستجدي فلم يُعط شيئاً. نقع غلة: إرواء عطش صفت: مالت. اللُغوب: الفشل. حَرَى: ملتهبة، انتنيت: رجعت.

[المقامة المجاعة]

أطال أبو محمد هذه المقامة حتى كادت تثقل على السامع، وللبديع فيما يتعلق بمعناها مقامة بتراء فلو زيد في البديعية وقصر في الحرية لاعتدلتا. وها أنا أذكر البديعية هنا بجملتها؛ لرشاقتها وخفتها.

قال عيسى بن هشام: كنت ببغداد عام المجاعة، فدفعت إلى جماعة قد نظمهم سلك الثريا، وكلهم يطلب شيئاً، وفيهم ذو لثغ في لسانه وفلج في أسنانه فقال: ما خطبك؟ فقلت: حالات لا يفلح صاحبهما، فقير كذه الجوع، وغريب ليس يمكنه الرجوع، فقال، أي الثلمتين تريد سدها؟ فقلت: الجوع يا سيدي، وقد بلغ مني مبلغه فقال: ما تقول في رغيف، على خِوان نظيف، ونقل قطيف، على لون لطيف، وخردل حرّيف، إلى شواء ضفيف، يقربه إليك من لا يماطلك بوعد، ولا يعذبك بصدّ. [ثم يعلّك بعد ذلك بأقداح ذهبية، من راح عنبيّة]، أذاك أحب إليك أم أوساط محشوة وأكواب مملوءة، وأنقال معدّدة، وفرش منضدة، [وأنوار مُجوّدة] ومُطَرَّبٌ مُجِيدٌ، له من الغزال عين وجيد، فإن لم ترد هذا ولا ذلك، فما تقول في لحم طيري، وسمك بحري، وباذنجان مقلي، وراح نقّي، وتَفَاح جنّي، ومضطجع وطّي، على حذاء نهر جارٍ، وبركة ذات ثرثار.

فقلت: أنا عبد الثلاثة، فقال: وأنا خادمها لو حضرت، فقلت من أيّ الحجرات أنت؟ فقال: [الكامل]

من ربعة الإسكندريّة من نُبعة فيهم زكيّة
سَخَفَ الزّمان وأهلُه فركبْتُ من سَخفي مَطيّة

وبينما أنا أسعى وأقعد، وأهْبُ وأركد؛ إذ قابلني شيخ يتأوّه آهة الثُّكلان، وعيناه تُهْمِلان، فما شغلني ما أنا فيه من داء الذّيب، والخَوَى المذِيب، عَنْ تعاطي مداخلته، والطَّمَع في مخالّته، فقلت له: يا هذا، إنَّ لُبكائنك سرّاً، ووراء تحرّرك لشراً، فأطْلِغني على بُرْحائك، واتخذني من نصحاك، فإنك ستجد مني طبّاً آسياً، أو عوناً مواسياً، فقال: والله ما تأوّه من عيشٍ فاتٍ، ولا من دهرٍ افتاتٍ، بل لانقراض العلم ودروسه، وأقول أقماره وشموسه، فقلت: وأيّ حادثة نجمت، وقضيّة

استعجمت حتى هاجت لك الأسف، على فقد من سلف. فأبرز رقعة من كمه، وأقسم بأبيه وأمه، لقد أنزلها بأعلام المدارس، فما امتازوا عن الأعلام الدّوَارِس، واستنطق لها أحبارَ المحابر، فخرسوا ولا خرسَ سَكَان المقابر، فقلت: أرينها فلعلّي أغني فيها، فقال: ما أبعدت في المرام؛ فربّ رمية من غير رام، ثم ناولنيها، فإذا المكتوب فيها:

قوله: «أسعى»، أي أمشي مسرعاً، أهب وأركد: أتحرك وأسكن، أراد أجري وأقف، وأصل الهبوب والركود للريح، يتأوه: يتوجّع ويقول: آه، وهو قول الحزين. آهة الشكّان: توجّع الفاقد لأحبابه. تهملان: تسيلان، وداء الذئب: هو الجوع، والذئب أصبر السباع على الجوع وأعفها، وإذا افترس شاة أكل منها شبعة وترك سائرهما ولم يرجع إليها، وعافه إن أروح^(١) الخوى: خلّو الجوف من الطعام. المذيب: المذهب اللحم والقوى. التعاطي: تناول ما لا تحبّ. ومداخلته: معرفة سرّه. مخاتلته: مخادعته. تحرّكك: توجّعك، والبُرْحاء: الشدة والمشقة. طبّاً: حاذقاً. آسيا: طبيباً. مواسياً: معيناً، والمواساة تكون بالنفس أو بالمال، ويشاكل كلامه قول الشاعر: [الطويل]

ولا بدّ من شكوى إلى ذي مروءة يؤاسيك أو يسليك أو يتوجّع^(٢)

افتات: ظلم وجاوز الحدّ. انقراض: انقطاع. دروسه: محوه. أفول: مغيب، وكنى بالأقمار والشموس عن مشاهير العلماء، وبأفولهم عن هلاكهم، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «موت العالم مصيبة لا تجبر، وتُلْمَة لا تسدّ، ونجم طمس، وموت قبيلة أيسر من موت عالم»^(٣)، حادثة: نازلة وأمر حدّث، نجمت: ظهرت. قضية: قصّة، استعجمت: أشكلت. هاجت: حركت. الأسف: الحزن. سلف: مات وذهب. أعلام: مشاهير، وأصلها الجبال يُستدلّ بها على مجاهيل الأرض. المدارس: جمع مدرّسة، وهي المحاضر التي يدرس فيها العلم. امتازوا: افترقوا. والأعلام الدّوَارِس: الجبال المقفرة الخالية من الأشجار والعمران. استنطق: استخبر، وسألهم أن ينطقوا ويحيبوا عنها. أحبار: علماء. خرسوا: سكتوا. أغني: أقرب وأنفع. المرام: الطلب.

(١) أروح: أي أصبحت له رائحة.

(٢) البيت بلا نسبة في تاج العروس (وجع).

(٣) أخرجه بنحوه الدارمي في المقدمة باب ٣٢. بلفظ: «موت العالم ثلثة في الإسلام».

[قصة المثل: رَبُّ رَمِيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ]

رَبُّ رَمِيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ، أَيُّ قَدْ يَصِيبُ الْغَرَضَ مَنْ لَيْسَ لَهُ عِلْمٌ بِالرَّمَايَةِ، وَهُوَ مِثْلُ، قَالَه حَكِيمُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثِ الْمَنْقَرِيِّ، وَكَانَ حَكِيمٌ مِنْ أَزْمَى النَّاسِ، فَأَقْسَمَ يَوْمًا لَيَعْقِرَنَّ وَلَا بَدْءَ، فَخَرَجَ وَمَعَهُ قَوْسُهُ فَرَمَى وَلَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا، فَبَاتَ لَيْلَهُ بِأَسْوَأِ حَالٍ، وَفَعَلَ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَالثَّلَاثِ كَذَلِكَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ لِقَوْمِهِ: مَا أَنْتُمْ صَانِعُونَ، فَإِنِّي قَاتِلُ الْيَوْمِ نَفْسِي إِنْ لَمْ أَعْقِرِ الْيَوْمَ مِهَاءً؟ فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ: يَا أَبَتُ احْمِلْنِي مَعَكَ، أَزِفْكَ، فَقَالَ: وَمَا أَحْمِلُ مِنْ رَعِشٍ وَهَلٍ، جَبَانٍ فَشَلٍ، فَانْطَلَقَا فَإِذَا هُمَا بِمِهَاءٍ فَرَمَاهَا فَأَخْطَاهَا، ثُمَّ مَرَّتْ بِهِ أُخْرَى، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ مَطْعَمٌ: يَا أَبَتُ نَاوِلْنِي الْقَوْسَ، فَغَضِبَ أَبُوهُ وَهَمَّ أَنْ يَعْطُوهُ بِهَا، فَقَالَ لَهُ مَطْعَمٌ: أَحْمَدُ بِحَمْدِكَ، فَإِنْ سَهَمِي سَهْمُكَ، فَتَنَاوَلَهُ الْقَوْسَ، فَرَمَى مَطْعَمٌ فَلَمْ يَخْطِئْ، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ حَكِيمٌ: رَبُّ رَمِيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ، وَقَالَ: [الوافر]

رَمَاهَا مَطْعَمٌ مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ بِمَنْ الْقَوْسَ لَمْ يَخْطِئْ صَلَاهَا
وَكَانَ أَبُوهُ قَدْ آلَى عَلَيْهَا فَلَمْ تَبْرُرْ أَلَيْتَهُ مَهَاهَا

[الخفيف]

أَيُّهَا الْعَالَمُ الْفَقِيهُ الَّذِي فَاءَ قَدْ ذَكَاءُ فَمَالُهُ مِنْ شَبِيهِ
أَفْتِنَا فِي قَضِيَّةٍ حَادَةٍ عَنْهَا كُلُّ قَاضٍ وَحَارَ كُلُّ فَقِيهِ
رَجُلٌ مَاتَ عَنْ أَخٍ مُسْلِمٍ حُرٍّ تَقِيٍّ مِنْ أُمِّهِ وَأَبِيهِ
وَلَهُ زَوْجَةٌ لَهَا أُيُّهَا الْجَدُّ بُرْأُ أَخٍ خَالِصٌ بِلا تَمَوِيهِ
فَحُوثٌ فَرَضُهَا وَحَارَ أَخُوهَا مَا تَبَقَّى بِالْإِرْثِ دُونَ أَخِيهِ
فَاشْفِنَا بِالْجَوَابِ عَمَّا سَأَلْنَا فَهُوَ نَصٌّ لَا خُلْفَ يَوْجَدُ فِيهِ

فَلَمَّا قَرَأَتْ شِعْرَهَا، وَلَمَحَتْ سِرَّهَا، قُلْتُ لَهُ: عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطَتْ، وَعِنْدَ ابْنِ بَجْدَتِيهَا حَطَطَتْ، إِلَّا أَنِّي مُضْطَرُّمُ الْأَحْشَاءِ، مُضْطَرٌّ إِلَى الْعِشَاءِ؛ فَأَكْرِمْ مِثْوَايَ، ثُمَّ اسْتَمَعَ فَتَوَايَ؛ فَقَالَ: لَقَدْ أَنْصَفْتَ فِي الْأَشْرَاطِ؛ وَتَجَافَيْتَ عَنِ الْاِشْتِطَاطِ؛ فَصِرَ مَعِيَ إِلَى مَرْبَعِي لِنَظْفَرٍ بِمَا تَبَغَّيَ، وَتَنَقَّلَبَ كَمَا يَنْبَغِي. قَالَ: فَصَاحِبْتُهُ إِلَى دَرَاهِ، كَمَا حَكَّمَ اللَّهُ. فَأَدْخَلَنِي بَيْتًا أَحْرَجَ مِنَ التَّابُوتِ، وَأَوْهَنَ مِنْ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، إِلَّا أَنَّهُ جَبَرَ ضَيْقَ رُبْعِهِ، بِتَوْسِعةِ ذُرْعِهِ، فَحَكَّمَنِي فِي الْقِرَى، وَمَطَايِبَ مَا يَشْتَرَى؛ فَقُلْتُ: أَرِيدُ أَزْهَى رَاكِبٍ عَلَى أَشْهَى مَرْكُوبٍ، وَأَنْفَعِ صَاحِبٍ مَعَ أَضَرِّ مَضْخُوبٍ.

قوله: «فاق»، أي فضل. ذكاء: حدة ذهن. حاد: مال.

قوله: «رجل مات عن أخ...»، البيت.

فائدة ذكر الأخ، إثبات النسب، لأن الأجنبي لا يرث، وفائدة ذكر المسلم أن أهل دينين لا يتوارثان، وفائدة ذكر الحر أن العبد لا يرث الحر، وأما التقى، فما لقيت من أشياخنا من نبه عليه، حتى حدثني به الفقيه أبو العباس الليثي، عرف بالحضار، فقال فائدة لطيفة، وهي التحرز من قاتل العمد، لأنه لا يرث وليه، فأراد أن موجبات التوارث قد كملت لهذا الوارث، ومع هذا لم يرث أخاه.

والجبر: العالم. تمويه: شك وكذب. حوث: حازت. الإرث: لغة في الوزث، وهو بالهمز بدل من الواو. لمحت: أي نظرت، واللمحة نظرة غير متمكنة. ابن بجدها: عالم سرها، ويقال: بجد في المكان إذا أقام به، والمقيم بالموضع عالم به. وقيل: أصله من قولهم: فلان من أهل التجد، أي من أهل البادية، وهم العلماء باللسان على ما وضع. حططت: نزلت، والخبير، عالم الخبر، وهذه أمثال للعالم بحقيقة الشيء. مضطرم: متقد. مثوأي: منزلي، وأكرمت مثوى الضيف، إذا أحسنت نزلته ووطأت له. فتوأي: ما أفتيك به. الاشتراط والشرط بمعنى. تجافيت: تباعدت. الاشتطاط: مجاوزة الحد. مربعي: منزلي. تظفر: تفوز، وأصله من الظفر، كأنه إذا ظفر بشيء أنشأ أظفاره فيه. تنقلب: ترجع. ذراه: منزله، وكل ما كان من حائط وشبهه ذرى. أخرج: أضيّق. أوهن: أضعف. جبر: أصلح. توسعة ذرعه: سعة خلقه واحتماله. القري: طعام الضيف. مطايب: جمع طيب، على غير قياس. أزهى: أعجب، والزهو الكبر، وكانوا يصفون التمرة على اللبأ عند بيعه، فيريد بالراكب التمر والمركوب اللبأ؛ لأنهم يشقون التمرة ويغترفون بنصفها من القدح الذي فيه اللبأ. ويريد: بأنفع صاحب التمر، وبأضّر مصحوب اللبأ، وهذا يوافق قول الأعرابي: [الطويل]

ألا ليت لي خبزاً من التمر واللبأ وخيلاً من البرني فرسانها الزبد

فأطلب فيما بينهن شهادة بموت كريم لا يعدّ له لحد

والبرني من أفضل التمر، وقال صحرار الكلبي: [المقارب]

أكلت الضباب فما عفثها وإنني لأهوى قديد الغنم

وركبت زبداً على تمرة فنعم الطعام ونعم الأدم

والعرب تقول: على التمرة مثلها زبداً، وقيل في تفسيره بالعكس، لأن الأطباء يقولون: إن التمر مضر سريع العفن، يولد السّداد^(١)، ويقولون أيضاً: إنه حارّ رطب ملين للبطن يولد المني، فيقابل ضرره نفعه، وكفى لنا أنه قوت يكفي معه بأدنى الطعام، وفيه قوة زائدة، وبالجمله فاللفظ مشكل، وما وجدت من يحقّقه.

(١) السداد: داء يسد الأنف، ويمنع نسيم الريح.

وَيُسْتَمْلَحُ مِنْ كَلَامِ الْحَرِيرِيِّ أَنَّهُ أَرَادَ بِالرَّاكِبِ وَبِأَنْفَعِ صَاحِبِ التَّمْرِ، لِأَنَّهُ قَدَّمَهُ فِي التَّفْسِيرِ حِينَ قَالَ: لَعَلَّكَ تَعْنِي ابْنَةُ نُحَيْلَةَ، مَعَ لَبِّا سَخِيلَةَ، وَلَيْسَ فِي الْأَبْيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ شَاهِدٌ عَلَى اللَّبِّاءِ، لِأَنَّ حَكْمَ الزَّيْدِ لِلزَّوْجَةِ، وَتَعْلُقُهُ بِالتَّمْرَةِ غَيْرُ حَكْمِ اللَّبِّاءِ، فَبِالْحَرَى يَقْرُنُ اللَّبِّاءُ بِالتَّمْرِ إِذَا شَقَّتْ، وَجَعَلَهُ أَضَرَّ مَصْحُوبٍ لِأَنَّهُ لَبْنٌ لَمْ يَنْضَجْ، وَالنَّارُ تَقْطَعُ بَعْضَ ضَرَرِهِ.

وَقَالَ الْفَنَجْدِيهَيَّ: أَزْهَى رَاكِبِ التَّمْرِ، أَيُّ أَحْسَنَ مَنَظَرًا وَأَكْثَرَ حِمْرَةً، وَأَشْهَى مَرْكُوبِ اللَّبِّاءِ وَجَعَلَ التَّمْرَ رَاكِبًا وَاللَّبِّاءَ مَرْكُوبًا، لِأَنَّ التَّمْرَ يُجْتَنَى مِنْ رُؤُوسِ النَّخْلِ، فَهُوَ كَالرَّاكِبِ، وَلِأَنَّ اللَّبَّاءَ يَضَعُ ثَمَرَاتَ فَوْقِ اللَّبِّاءِ وَالرَّائِبِ، لِيَزِيدَ رَغْبَةَ الْمُشْتَرِي فِيهِ. وَجَعَلَ التَّمْرَ أَنْفَعَ صَاحِبٍ، لِاِكْتِفَاءِ الْعَرَبِ بِهِ عَنْ جَمِيعِ الْمَطْعُومَاتِ، حَتَّى يَبْقَى أَحَدُهُمْ دَهْرًا لَا يَأْكُلُ إِلَّا التَّمْرَ، وَلَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ، وَجَعَلَ اللَّبِّاءَ أَضَرَّ مَصْحُوبٍ، لِأَنَّهُ يُولَدُ الصَّفَرَاءَ.

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا: إِنَّا كُنَّا آلَ مُحَمَّدٍ ﷺ نَمَكْتُ شَهْرًا لَا نَسْتَوْقِدُ نَارًا؛ إِنْ هُوَ إِلَّا الْأَسْوَدَانِ: الْمَاءُ وَالتَّمْرُ^(١).

وَقَالَ ﷺ: «بَيْتٌ لَا تَمُرُ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ»^(٢).

وَالْعَرَبُ تَسْتَحْسِنُ أَكْلَ الزَّيْدِ مَعَ التَّمْرِ، قَالَ سَفِيَانُ الثَّوْرِيِّ: مَا رَأَيْتُ أَحْسَنَ مِنْ زَبْدَةٍ عَلَى إِزَادَةٍ.

وَقَالَ مَعَاوِيَةُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ: أَيُّ اللَّقْمَةِ أَطْيَبُ؟ قَالَ: تَعْضُوضَةٌ عَلَيْهَا مِثْلُهَا زَبْدًا، وَالْإِرَادُ نَوْعَ مِنَ التَّمْرِ، وَالتَّعْضُوضُ ثَمَرُ أَسْوَدٍ.

وَقَالُوا: مَا أَكَلْنَا ثَمَرًا أَحْمَدَ مِنَ التَّعْضُوضِ، أَيُّ أَشَدَّ حَلَاوَةً، وَتَأْوَهُ زَائِدَةٌ.

* * *

فَأَفْكَرَ سَاعَةً طَوِيلَةً، ثُمَّ قَالَ: لَعَلَّكَ تَعْنِي بِنْتُ نُحَيْلَةَ، مَعَ لَبِّا سَخِيلَةَ، فَقُلْتُ: إِنَاهُمَا عَنِيتَ، وَلَأَجْلُهُمَا تَعَنَيْتَ، فَنَهَضَ نَشِيطًا، ثُمَّ رَبَضَ مُسْتَشِيطًا، وَقَالَ: أَعْلَمُ أَصْلَحَكَ اللَّهُ، أَنَّ الصَّدْقَ نِبَاهَةٌ، وَالْكَذْبَ عَاهَةٌ؛ فَلَا يَحْمِلُكَ الْجُوعُ الَّذِي هُوَ شِعَارُ الْأَنْبِيَاءِ، وَحِلْيَةُ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى أَنْ تَلْحَقَ بِمَنْ مَانَ، وَتَتَخَلَّقَ بِالْخُلُقِ الَّذِي يَجَانِبُ الْإِيمَانَ، فَقَدْ تَجُوعَ الْحَرَّةُ وَلَا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا، وَتَأْبَى الدُّنْيَةَ وَلَوْ اضْطُرَّتْ

(١) رَوَى بِطَرَقٍ وَأَسَانِيدَ مُتَعَدِّدَةً، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْهَبَةِ بَابَ ١، وَالرَّقَاقُ بَابَ ١٧، وَالْأَطْعَمَةُ بَابَ ٦، ٤١، وَمُسْلِمٌ فِي الزَّهْدِ حَدِيثَ ١٠، ١٢، وَأَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ ١/١٦٤، ٤/١٩، ٥/٤٢٩، ٦/١٠٨، ١٨٢، ٢٣٧.

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الْأَشْرِبَةِ حَدِيثَ ١٥٣، وَأَبُو دَاوُدَ فِي الْأَطْعَمَةِ بَابَ ٤١، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْأَطْعَمَةِ بَابَ ١٧، وَابْنُ مَاجَةٍ فِي الْأَطْعَمَةِ بَابَ ٣٨، وَالدَّارِمِيُّ فِي الْأَطْعَمَةِ بَابَ ٢٦، وَأَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ ٦/١٧٩.

إليها. ثم إني لست لك بزبون، وَلَا أَغْضِي عَلَى صَفْقَةِ مَغْبُون، وها أنا قد أُنْذِرُكَ قبل أن ينهتِكَ السُّتْرُ، وينعقد فيما بيننا الوِثْرُ، فلا تُلْغِ تدبِّرَ الإنذار، وحذارٍ من المكاذبة حذار.

قوله: «سخيلة»، السَّخِيلَة: ولد الشاة ذكراً كان أو أنثى. تعنيت: تعبت. وقال أعرابي: أنا أَشْتَهِي ثريدة ذَكْنَاءَ من الفلفل، رَقْطَاءَ من الحمص، ذات جناحين من اللحم، لها جناحان من الفواق، فأضرب فيها كما يضرب وليّ السوء في مال اليتيم. وقال رجل لأعرابي: ما يسرني لو بثّ ضيفاً لك، قال: لو بثّ ضيفاً لي أصبحت أبطن من أهلك قبل أن تلدك بساعة.

قيل لأشعب: ما تقول في ثريدة مغمورة بالسمن، مشقفة باللحم؟ قال: فأضرب كم؟ قالوا: تأكلها من غير ضرب. قال: هذا ما لا يكون، ولكن لم أضرب أو أتقدم على بصيرة؟.

وقيل لمزبد - وقد أكل طعاماً كظّه: قته، فقال: وما فيه! خبز نقّي، ولحم جدي طريّ، امرأته طالق لو وجدت قيثاً لأكلته.

قوله: «نهض»، تقدّم للمشي. نشيطاً: أي خفيفاً، وهي من الأنشطة. ربض: نزل. مستشيطاً: شديد الغضب. نباحة: رفعة. عاهة: آفة وعيب. شعار: علامة، وشعار المؤمنين في الحرب «لا إله إلا الله»، أي علامتهم، والأنبياء عليهم السلام منزّهون عن شهوات المطاعم.

أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «نور الحكمة الجوع والتباعد من الله الشّبع، والقربة إليه حبّ المساكين والدنو منهم. لا تشبعوا فتطفثوا نور الحكمة من قلوبكم، ومنّ بات يصلي في خفة من الطعام، بات حور العين حوله حتى يصبح».

أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: دخلت على النبي ﷺ فقلت: «ما أحوجك إلى الجلوس؟ قال: الجوع، فبكيت، فقال: لا تبك، فإن شدة القيامة لا تصيب الجائع إذا ما احتسب».

قوله: «حلية»: صفة يتحلّون بها. وتتخلّق: تتطّيع. يجانب: يباعد. وأشار لقوله ﷺ، قيل: أكون المؤمن كذاباً؟ قال: لا.

عمر رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغ صريح الإيمان عبدٌ حتى يدع المزاح والكذب والمراء، وإن كان محقاً»^(١).

(١) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٧، والترمذي في البر باب ٥٨، وابن ماجه في المقدمة باب ٧.

وقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: اتقوا الكذب، فإن الكذب يجانب الإيمان.

[قصة المثل: تجوع الحرة ولا تأكل ثدييها]

قوله: «تجوع الحرة ولا تأكل ثدييها»، أي لا ترضع لبنها بالأجرة، ثم تأكلها، وهو مثل يضرب للذي لا يمنعه من صيانتها شدة فقره، وهذا المثل للحارث بن سليل الأسدي، وكان خطب إلى علقمة بن خصفة الطائي - وكان شيخاً فقال علقمة لامرأته: اختبري ما عند ابنتك، فقالت: أي بنية، أي الرجال أحب إليك؟ الكهل الجحجاح الواصل الميآح، أم الفتى الوضاح، الذهول الطمّاح؟ قالت: بل الفتى، قالت: إن الفتى يُغيرك، وإن الشيخ يعيرك، قالت: يا أمّاه إن الفتى شديد الحجاب، كثير العتاب، يا أمّاه أخشى من الشيخ أن يدنس ثيابي ويبلّي شبابي، ويُشمت بي أترابي. فلم تزل أمّها بها حتى غلبتها على رأيها. فتزوّجها الحارث، ثم ارتحل بها إلى أهله، وإنه لجالس ذات يوم بفناء قُبته، وهي إلى جانبه إذ أقبل شباب من بني أسد يعتلجون، فتنفست الصُعداء ثم بكت، فقال لها: ما يبكيك؟ قالت: ما لي وللشيوخ، الناهضين كالفروخ، من كل حوقل فنيخ، فقال: ثكلتك أمك! تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها، ثم قال: وأبيك لرُب غارة شهدتها، وسيّة أردفتها، وخمرة شربتها، فالحقي بأهلك، فلا حاجة لي فيك.

قولها: «الجحجاح»: السيد السمع. والميآح: الكثير المعروف، ويُغيرك يتزوّج عليك، ويُعيرك: يميرك، ويعتلجون: يتصارعون. والحوقل: اللسن، والفنيخ: الضعيف الرّخو. وقول العامة: لا تأكل ثدييها، أي لا تأكل لحم الثدي خطأ لا وجه له، ويجوز على حذف مضاف تقديره أجر ثدييها أو ثمنهما، أو يكون على المجاز، كأنها إذا أكلت أجرهما فقد أكلتهما، ونحوه قول الشاعر: [الطويل]

إذا صب ما في القُعب فاعلم بأنه دم الشَّيخ فاشرب من دم الشَّيخ أودعاً
يريد رجلاً أخذاً إبلاً في دية أبيه، فيقول له: إذا شربت لبنها فكأنك تشرب دم أبيك.

قوله: «وتأبى الدنية ولو اضطرت إليها»: أي تتمنّع من إتيان الفعل الدنيء، ولو ألجئت إليه. والزُّبُون: الذي يغلب في المعاملات، فَعُول بمعنى مفعول، لأنه بزین أي يدفع عن استكمال حقه.

أغضى: أسدل جفني، أي لا أسكت لك على الخداع. أنذرتك: نبهتك. ينهتك: ينقطع. الوثر: العداوة، وقيل: الفرد، فيكون معنى: «ينعقد بيننا الوثر»، أي يرتبط. وثري بوترك، أي شخصي بشخصك في هذه المعاملة، أو عند المضاربة معك إن خدعتني. تُلغ: تترك. الإنذار: التحذير. حَذَار، أي اخذر وخف.

فقلت: وَالَّذِي حَرَّمَ أَكْلَ الرِّبَا، وَأَحَلَ أَكْلَ اللَّبَاءِ، مَا فَهْتُ بِزورٍ، وَلَا دَلَيْتُكَ بِغُرُورٍ، وَسْتَخْبِرُ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ، وَتَحْمَدُ بَذْلَ اللَّبَاءِ وَالتَّمْرِ. فَهَشَّ هَشَاشَةً الْمَضْدُوقِ، وَانْطَلَقَ مُغَدًّا إِلَى السُّوقِ، فَمَا كَانَ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ أَقْبَلَ بِهِمَا يَذْلَحُ، وَوَجْهَهُ مِنَ التَّعَبِ يَكْلَحُ، فَوَضَعَهُمَا لَدَيَّ، وَضَعَ الْمَمْتَنُّ عَلَيَّ، وَقَالَ: اضْرِبِ الْجَيْشَ بِالْجَيْشِ، تَحْظَ بِلَذَّةِ الْعَيْشِ. فَحَسَرْتُ عَنْ سَاعِدِ النَّهْمِ، وَحَمَلْتُ حِمْلَةَ الْفِيلِ الْمَلْتَهُمْ، وَهُوَ يَلْحَظُنِي كَمَا يَلْحَظُ الْحَنِقُ، وَيَوْدُ مِنَ الْغَيْظِ لَوْ اخْتَنَقَ، حَتَّى إِذَا هَلَقَمَتِ النَّوْعَيْنِ، وَغَادَرْتُهُمَا أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ، أَفَرَدْتُ خَيْرَةً فِي إِظْلَالِ الْبَيَاتِ، وَفِكْرَةٍ فِي جَوَابِ الْأَبْيَاتِ، فَمَا لَبِثَ أَنْ قَامَ، وَأَخْضَرَ الدَّوَاةَ وَالْأَقْلَامَ، وَقَالَ: قَدْ مَلَأْتُ الْجِرَابَ، فَأَمْلِ الْجَوَابَ، وَإِلَّا فَتَهَيَّأْ إِنْ نَكَلْتُ، لَاغْتِرَامِ مَا أَكَلْتُ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا عِنْدِ إِلَّا التَّحْقِيقُ، فَاکْتُبِ الْجَوَابَ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقَ.

* * *

الربا: البيع الفاسد.

ابن عباس رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَكَلَ دِرْهَمًا مِنْ رِبَا، فَهُوَ مِثْلُ ثَلَاثِ وَثَلَاثِينَ زَنِيَةً، وَمَنْ نَبَتَ لَحْمَهُ مِنَ السُّحْتِ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ»^(١).

فُهِتْ: نطقت. زور: باطل. دَلَيْتُكَ بغرور: يريد أنه لم يعرِّر به بل صدَّقه. سَتَنْخَبِرُ: سَتَجَرِّبُ. هَشَّ: اهْتَزَّ. الْمَضْدُوقُ: الذي أَخْبِرَ بِالْصَّدَقِ. مَغْدًا: مُسْرِعًا، وَقَدْ أَغْدَى إِغْدَاذًا، إِذَا أَسْرَعَ. يَذْلَحُ: يَتَشَاوَلُ فِي الْمَشْيِ، وَدَلَحَتِ الدَّابَّةُ بِالْحَمَلِ دَلُوحًا، وَالسَّحَابُ بِالْمَاءِ. نَهَضَتْ بِهِ ثَقِيلًا. يَكْلَحُ: يَعْيشُ. الْمَمْتَنُّ: الْمُتَفَضَّلُ. اضْرِبِ الْجَيْشَ بِالْجَيْشِ، أَيِ اخْلُطْهُمَا عِنْدَ أَكْلِكَ لِهَمَّا. تَحْظُ: تَسْعُدُ، حَسَرْتُ عَنْ سَاعِدِ، أَيِ شَمَرْتُ عَنْ ذِرَاعِ. النَّهْمُ: الْكَثِيرُ الشَّهْوَةِ وَالْحَرَصِ عَلَى الْأَكْلِ. الْمَلْتَهُمْ: الْمَبْتَلَعُ لَمَّا وَجَدَ. يَلْحَظُنِي: يَنْظُرُنِي بِطَرَفِ عَيْنِهِ. الْحَنِقُ: الْمَغْتَاطُ. وَحَنَقَ حَنَقًا: اشْتَدَّ غَيْظُهُ. هَلَقَمَتِ: ابْتَلَعَتْ بِسُرْعَةٍ. غَادَرْتُهُمَا: تَرَكْتُهُمَا أَثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ، أَيِ بَعْدَ أَنْ كَانَ الطَّعَامُ مَرِيئًا ابْتَلَعْتَهُ فَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ أَثَرِهِ الْإِنَاءِ.

* * *

[ما شهر من مغربات الزرد]^(٢)

ويليق بهذا الموضع أن نذكر فيه ما شهر من مغربات الزرد، قال الشاعر في أكل: [الوافر]

(١) أخرجه بنحوه الترمذي في الجمعة باب ٧٩، والدارمي في الرقاق باب ٦٠، وأحمد في المسند ٣/ ٣٩٩، ٣٢١.

(٢) الزرد: أي سرعة ابتلاع الطعام.

فتضرب خُمسَ كَفْكَ في ثريدٍ يَلْقَمُ منك منكمش الذَهَابِ
كَأَن دَوِيَّه في الحلق لما يُهمهمُ صوتُ رعدٍ أو سحابِ
وقال آخر: [الطويل]

إذا غرَّد العصفور طار فؤاده وليث حديد الناب عند الثرائدِ
وقال آخر: [السريع]

لم تر عيني آكلا مثله يضرب باليسرى معاً واليمينِ
تلعب بالقضعة أطرافه لعب أخى الشطرنج بالشاهينِ

فمن مشاهير أهل الزرد هلال بن أسعر المازني، وهو من شعراء الدولة الأموية، ذكر الأصبهاني أنه كان عظيم الخلق شديداً قوياً.

قال أبو عمرو بن العلاء: لم أكن أراه حياً، بل رأيته ميتاً، فما رأيت على سرير أطول منه.

قال هلال: جعتُ مرّة، ومعني بعير لي، فنحرته فأكلته إلا ما جعلته منه على ظهري، ثم أردت جماع امرأتي، فلم أقدر، فقالت: كيف تصل إليّ وبيننا بعير!

وحدث شيخ من بني مازن، قال: أتاني هلال، فأكل جميع ما في بيتنا، فبعثنا إلى الجيران نستقرض الخبز منهم، فلما رأى اختلافنا، قال: كأنكم أرسلتم إلى الجيران: عندكم سويق؟^(١) فأتيته بجراب طويل فيه سويق وبرنية^(٢) فيها نبيذ، فصب السويق كله، وصب النبيذ، وازدرد الكل.

ومر على رجل من بني مازن بالبصرة، ومعه زورق رطب، قد ساقها من بُستانه، فجلس على زورقٍ منها صغير، مغطى ببارية^(٣) فقال: أكل من رطبك؟ قال: نعم، قال: ما يكفيني؟ قال: ما يكفيك، فجلس على الزورق يأكل التمر إلى أن اكتفى، فسَلَت البارية فإذا الزورق مملوء نوى.

وقال صدقة بن عبد الله المازني: أولم عليّ أبي لما تزوّجت، فعملنا عشر جفان ثريداً من جزور، فكان أول من جاءنا هلال، فقدّمت إليه جفنةً فأكلها، ثم أخرى حتى أتى على عشر جفان، ثم استسقى، فأتى بقرية من نبيذ، فوضع طرفها في شذقه، فأفرغها في جوفه، ثم خرج، فاستأنفنا عمَل الطعام، ومن أعجب ما أكله مائتا رغيف بمكوك^(٤) بلح.

وكانت شبعة تكفيه لخمسة أيام. وكان لا يقاومه أحد في النجدة.

(١) السويق: دقيق الحنطة.

(٢) البرنية: إناء من الخزف.

(٣) البارية: الحصر المنسوج، جمعه بوارى.

(٤) المكوك: مكيال يسع صاعاً ونصف.

ومنهم سليمان بن عبد الملك، ذكر المسعودي أن شِبعه^(١) كانت كل يوم مائة رطل بالعراقي، وكان ربما أتاها الطَّبَّاخون بَسْفَافِيد فيها الدجاج، وعليه جَبَّة الوشي، فبحرصه على الطعام، كان يدخل يده في كُمِّه ثم يقبض على الدجاجة، وهي حارّة فيفصلها.

قال الأصمعيّ: ذكرت ذلك للرّشيد، فقال: قاتلك الله! ما أعرفك بأخبارهم! لقد كنت أرى الدَّسَم في أكمام جبابه، ولا أدري ما سببه، حتى حدّثتني. وكساني منها جَبَّة.

وخرج يوماً من الحمام وقد اشتد جوعه [فاستعجل الطعام ولم يكن فرغ منه] فأمر أن يقدّم ما لحق من الشواء، ولم يكن فرغ من الطعام شيء، فقدّم إليه عشرون خروفاً، فأكل أجوافها مع أربعين رُقاقة، ثم قدّم الطعام، فأكل مع ندمائه كأنه لم يأكل.

قال الشمردل وكيل عمرو بن العاص رضي الله عنه لما قدم سليمان الطائف، دخل بستانيّ هو وعمر بن عبد العزيز، وأيوب ابنه، فجال في البستان ساعة، ثم قال: ناهيك بمالكم هذا مالاً! ثم ألقي صدره على غصن شجرة، وقال: ويلك يا شمردل! عندك شيء تطعمني؟ فقلت: بلى عندي جدّي، كانت تغدو عليه بقرة وتروح [عليه] أخرى، قال: عَجِّل به ويحك! فأتيته به كأنه عُكَّة سمن، فأكله وما دعا عمر ولا ابنه حتى إذا بقي الفخذ قال: هلّم أبا حفص، قال: إني صائم، فأتى عليه، ثم قال: ويلك أعندك شيء؟ فقلت: سبع دجاجات هنديات كأنهن رِثْلان النعام^(٢)، قال: عَجِّل بهنّ، فأتيته بهنّ، فكان يأخذ برجل الدجاجة فيلقي عظامها فيه، فلما فرغ منهّن قال: ويلك! أعندك شيء؟ فقلت: حريرة^(٣) كأنها قُرَاضة ذهب، فقال: عَجِّلها، فأتيته بها، فجعل يشربها شرباً، فلما فرغ تجشّأ فكأنما صاح في جُبّ، ثم قال: يا غلام أفرغت من غدائي؟ قال: نعم فقدّم إليه ثمانين قدرأ، فأكثر ما أكل من قِذر ثلاث لقمات، وأقل ما أكل لقمة، ثم مسح يده واستلقى على فراشه، وأذن للناس، وصُفّت الموائد، فأكل معهم فما أنكرت من أكله شيئاً. وسبب وفاته أنّ نصرانياً أتى بزنبيل مملوء بيضاً، وآخر مملوء تيناً، فقال: قَشِّروا، فجعل يأكل بيضة وتينة، حتى أكل الزنبيلين، ثم أتوه بقُضعة مملوءة محاسبكر، فأكله فأتيخِم، فمات.

ومنهم عمرو بن معد يكرب، دخل على عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فقال: مِن أين أقبلت يا أبا ثور؟ فقال: من عند سيّد بني مخزوم، أعظمها هامّة، وأقلها ملامّة، وأفضلها حلماً، وأقدمها سلماً، قال: مَنْ هو؟ قال: سيف الله وسيف رسوله خالد بن الوليد، قال: فأَي شيء صنعت عنده؟ قال: أتيته زائراً فدعا لي بقُعْب وفرس وثور، فقال له عمر: وأبيك إن في هذا لشبعاً، قال: لي أو لك؟ قال: لي ولك، قال:

(١) شبعه من الطعام: أي ما يكفيه منه ليشبع.

(٢) رِثْلان النعام: أي فرخ النعام.

(٣) الحريرة: دقيق يطبخ بلبن وسمن.

بلى، فما تقول يا أمير المؤمنين، إني لأكل الجذع من الإبل، أنتقيه عظماً عظماً، وأشرب الشن^(١) من اللبن رائباً^(٢) أو صريفاً^(٣).

قوله: «أقردت». سكت وخضعت. ما لبث: ما تمهل. الجراب: وعاء الزاد، وأراد بطنه. أمل، يقال: أمليت عليه إذا ألقيت عليه ما يكتب، وأمللت لغة، وقيل: الأصل أمللت، فأبدل من اللام ياء. نكلت: انقطعت.

[الخفيف]

قل لِمَنْ يَلْغِزُ الْمَسَائِلَ إِنِّي	كاشفُ سِرِّهَا الَّذِي تَخْفِيهِ
إِنَّ ذَا الْمَيْتِ الَّذِي قَدَّمَ الشَّرَّ	عَ أَخَا عِزْسِهِ عَلَى ابْنِ أَبِيهِ
رَجُلٌ زَوْجُ ابْنِهِ عَنْ رِضَاةِ	بِحِمَاةٍ لَهُ، وَلَا عَزْوٍ فِيهِ
ثُمَّ مَاتَ ابْنُهُ وَقَدْ عَلِقَتْ مِنْهُ	لَهُ فَجَاءَتْ بِابْنِ يَسْرَ دَوِيهِ
فَهُوَ ابْنُ ابْنِهِ بِغَيْرِ مَرَاءٍ	وَأَخُو عِزْسِهِ بِلا تَمَوِيهِ
وَإِبْنُ الْإِبْنِ الصَّرِيحُ أَذْنَى إِلَى	الْجَدِّ وَأُولَى بِإِرْتِهِ مِنْ أَخِيهِ
فَلِذَا حِينَ مَاتَ أَوْجِبَ لِلزُّو	جَةِ ثُمَّنَ التَّرَاثِ تَسْتَوْفِيهِ
وَحَوَى ابْنُ ابْنِهِ الَّذِي هُوَ فِي الْأَصْد	لِ أَخُوها مِنْ أُمِّها بِأَقِيهِ
وَتَخَلَّى الْأَخَ الشَّقِيقَ مِنَ الْإِزْ	ثِ وَقَلْنَا يَكْفِيكَ أَنْ تَبْكِيهِ
هَاكَ مِنِّْي الْفُتْيَا الَّتِي يَحْتَذِيهَا	كُلُّ قَاضٍ يَقْضِي وَكُلُّ فَقِيهِ

لا عَزْوٌ: لا عجب. علقت: حملت. ذويه: قرابته، وأضاف «ذوي» إلى المضمَر، وهي لغة قليلة، ومنعها بعضهم، وجوزها جماعة من أئمة اللغة. وقال أبو عليّ الفارسيّ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَذَوِيهِ، حَمَلُوا «ذَوِي» عَلَى الْأَصْحَابِ.

الأزهريّ: سمعت غير واحدٍ من العرب، يقول: كُنَّا مع ذوي عمرو، يعني مع أصحاب عمرو، وهو كثير في كلام قيس ومن جاورهم.

وقال الحريريّ في الدرة: ويقولون: رأيت الأمير وذويه، فيهمون فيه، لأنّ العرب لم تنطق بذِي، الَّذِي بمعنى صاحب إلاّ مضافاً إلى اسم جنس، كقولك: ذو مال وذو

(١) الشن: القربة.

(٢) اللبن الرائب: أي اللبن الممخوض.

(٣) اللبن الصريف: أي اللبن ساعة يحلب.

نوال، فأما إضافته إلى الأعلام أو إلى أسماء الصفات المشتقة من الأفعال فلم تُسمع بحال، ولهذا لَحَنَ من قال: صلى الله على محمد وذويه، وكما لم يقولوا: ذو أبي ولا ذو أمي، واقتصروا على إضافته إلى الجنس، ولهذا لم يرفع السببي، لأنه ليس بمشتق [من فعل]، فلا يقال: مررت برجل ذي مال أخوه؛ وتصحيحه ذو مال أخوه، لأن النكرة تختص بأن توصف بالجملة.

قوله: «مراء» جدال. تمويه: كذب. الصريح: الخالص. أدنى: أقرب. التراث: المال الموروث. حوى: حاز. تخلى: خرج بلا شيء. هاك: خذ. يحتذيها: يتبعها ويعمل بها.

وتقريب هذا اللغز أن تقول: رجل وابنه وامرأة وابنتها، تزوج الرجل البنت، والابن الأم، فمات الابن، وقد حملت منه الأم، فوضعت غلاماً، فكان للرجل ابن ابنة، ولزوجته أخاً لأم، ثم مات الرجل وترك أخاً فورثت زوجته الثمن، وأخوها من أمها الباقي، لأنه ابن ابن الميت، وهو يحجب الأخ، كما كان يحجبه الابن لو كان حياً.

ومثله قوله الآخر: [الطويل]

وقائلة أوص الغداة فإني	أرى الموت قد حطت لديك ركائبه
فقلت وقد راع الفؤاد مقالها	وضاقت به خوف الحمام مذهبها
لك الثمن إن حانت وفاتي فريضة	وسائر ما يبقى فصنوك صاحبه

جوابه: [الطويل]

تعلم فإن العلم أكبر ملبس	لمن شرفت أخلاقه ومذاهبه
حليلة هذا أمها زوجة ابنه	فذلك والإلغاز جم عجائبه
فإن ابنه صنو لزوجته ومن	يقر بعرف العلم تعلو مراتبه
فميراثها ثمن وللصنو ما بقي	كذلك يقضي من تعالت مناقبه

والمتقدم للسؤال في هذه المسألة عبد الملك بن مروان، وذلك أنه وقف به رجل، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا تزوجت امرأة، وزوجت ابني من أمها، فامددا بشيء نستعين به. فقال له: إن أخبرتني كيف يُدعى ابن كل واحد منكما لابن صاحبه، فأنا أرفدك، وإلا فلا أعطيك شيئاً. فقال له الرجل: فسَلْ عن ذلك كاتبك وصاحب شُرطتك، فإن أجاباك، فما تعطيه لي، فادفعه إليهما، وإلا فأنا أعذر. فسألها فلم يعرفا ذلك، فابتدر رجل من آخر الصفوف، وقال له: رأيت إن أخبرتك، أعطيني ما ذكرت للسائل؟ فقال له: نعم، فقال ابن الأب عم ابن الابن وابن الابن خال ابن الأب، فوصله.

فهذا أخف أمراً في الظاهر من التوارث الذي فرض الحريري، وأشكل في المعنى.

قال: فلما أثبتَّ الجوابَ، واستثبتَّ منه الصَّوابَ، قال لي: أَهْلَكَ وَاللَّيْلَ،
فشمِّرِ الدُّبْلَ، وبادرِ السَّيْلَ، فقلت: إني بدارِ غُرْبَةٍ، وفي إيوائي أَفْضَلُ قُرْبَةٍ، لا
سِيَّما وَقَدْ أَغْدَفَ جُنْحُ الظَّلَامِ، وَسَبَّحَ الرِّغْدُ فِي الْغَمَامِ، فقال: اغْرُبْ عَافَاكَ اللَّهُ
إِلَى حَيْثُ شِيتَ، وَلَا تَطْمَعْ فِي أَنْ تَبِيتَ، فقلت: وَلَمْ ذَاكَ، مَعَ خُلُوءِ ذَرَاكَ؟
قال: لِأَنِّي أَنْعَمْتُ النَّظَرَ، فِي التَّقَامِكِ مَا حَضَرَ، حَتَّى لَمْ تَبْقَ وَلَمْ تَذَرِ،
فَرَأَيْتُكَ لَا تَنْظُرُ فِي مَضْلَحَتِكَ، وَلَا تَرَاعِي حِفْظَ صِحَّتِكَ، وَمَنْ أَمَعْنَ فِيمَا أَمَعَنْتَ،
وَتَبَطَّنَ مَا تَبَطَّنْتَ، لَمْ يَكْذُ يُخْلَصُ مِنْ كِطْطَةِ مُذْنِفَةٍ، أَوْ هَيْضَةِ مُتْلِفَةٍ، فَدَعْنِي بِاللَّهِ
كِفَافاً، وَاخْرُجْ عَنِّي مَا دُمْتُ مَعَاوَى، فوالذي يحيي ويميت، مَا لَكَ عِنْدِي مَبِيتٌ.
فلَمَّا سَمِعْتُ أَلَيْتَهُ، وَبَلَوْتُ بَلِيَّتَهُ، خَرَجْتُ مِنْ بَيْتِهِ بِالرَّغَمِ، وَتَزَوَّدَ الْغَمُّ،
تَجَوَّدَنِي السَّمَاءُ، وَتَخَبَّطُ بِي الظُّلَمَاءُ، وَتَنْبَحِنِي الْكِلَابُ، وَتَتَقَاذِفُ بِي الْأَبْوَابُ،
حَتَّى سَاقَنِي إِلَيْكَ لُطْفُ الْقَضَاءِ، فَشَكَرْتُ لِيده الْبَيضاء!

* * *

قوله: «أُثْبِتُ» صَحَّحَ. استثبتَّ، أي وجده ثابتاً. أَهْلَكَ وَاللَّيْلَ، كلامٌ للعرب، كأنه
قال: بادِرْ أَهْلَكَ قَبْلَ اللَّيْلِ، وتحقيقُ المعنى في ذلك أَنَّهُ عَطَفَ اللَّيْلَ عَلَى الْأَهْلِ،
وجعلهما مبادرين، ومعنى المبادرة مسابقتك الشيء، كقولك: بادرت زيداً المنزلَ كأنني
سابقته إليه، وكأَنَّ اللَّيْلَ وَالرَّجُلَ الْمُخَاطَبَ يَتَسَابِقَانِ إِلَى أَهْلِ الرَّجُلِ، فَأَمَرَهُ الْأَمْرُ أَنْ
يَسَاقَ اللَّيْلُ إِلَيْهِمْ، لِيَكُونَ عِنْدَهُمْ قَبْلَ اللَّيْلِ. شَمَّرَ الذِّلَّ، أي ارفع ساقَكَ، واستعدَّ
للمشي. إيوائي: ضَمِي. قُرْبَةٍ: مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ مِنْ أَعْمَالِ الْبَرِّ. أَغْدَفَ: أَسْبَلَ وَأَرْسَلَ، وَمِنْهُ
قول عترة: [الكامل]

إِنْ تُغْدِفِي دُونِي الْقِنَاعَ فَلِإِنِّي طَبُّ بِأَخَذِ الْفَارَسِ الْمَتَلَمِّمِ^(١)
وإنما قيل للغراب غُذاف لسبوغ ريشه.
وقال رؤبة يخاطب أخاه: [الرجز]

* نُبِّتَ مِنْ جَنَاحِكَ الْغُدَافِي *^(٢)

(١) البيت لعنترة في ديوانه ص ٢٠٥، ولسان العرب (طبيب)، (قنع)، (غدف)، (لأم)، وتاج العروس (طبيب)،
(غدف)، وكتاب العين ٣٩٤/٤، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٤/١٤٤، وجمهرة اللغة ص ٦٦٩.

(٢) يروي الرجز:

خَلِيقَتُ مِنْ جَنَاحِكَ الْغُدَافِي مِنْ الْقِدَامِي لَا مِنْ الْخَوَافِي
وهو لرؤبة في ديوانه ص ١٠٠، ولسان العرب (غدف)، (قدم)، وتهذيب اللغة ٨/٧٦، ٩/٤٨،
وتاج العروس (غدف)، (قدم)، وبلا نسبة في كتاب العين ٤/٣٩٤.

جُنَحَ الظلام: ميله، وجَنَحَ الليل جنوحاً، وأجنح: مال، وهو من الجناح وكان الطائر إذا عدل عن طريق طيرانه، فيرجع يطير إلى جهة جناحه، قيل له: جَنَحَ، ثم استعير في الليل وغيره، كما قيل: نَكَبَ عن طريقه، هي من المنكب، كأنه قال: مال بمشيه إلى جهة مَنَكِبِهِ.

سَبَّحَ: صوت. الغمام: السحاب. اغْرُبَ: غب وابتعد. ذَرَاكَ: منزلك. أنعمت: بالغت. تراعي: تحفظ. أمعن: كثر، وتقول: أمعن لي بحقي: اعترف به وأظهره، مأخوذ من الماء المعين، وهو الجاري الظاهر.

الفراء: المعين من الماعون، أو مفعول من العيون.

تبطن: ملأ بطنه. كِطَّة: امتلاء البطن. مدنف: ممرضة. هيضة: انطلاق البطن بالقيء والإسهال. كفافاً: مسالمة، أي كف عني شرك وخيرك. معافى: سالماً من الآفات.

أليته: يمينه. بلوت: خبرت وشاهدت. الرِّغم: الذل. تجودني: تمطرني والسماء: المطر هنا.

وتذكرت بهذه الحالة خروج السَّلامِي من دار الشريف الرضي في عشية مطرة، فأعطاه كساء استتر به، فلما وصل إلى منزله كتب إليه بقصيدة:

منها: [الكامل]

ودَّعْتُ دَارَكَ والسماء تجودني
ما كنت إلا جنةً فارقْتُها
ورأيت غاليةً الطريق ومِسْكُهُ
وحمي كساؤك لا عدت مُعِيرَةً
فوليت يا بحر السماحة كُسوتي
فوصلت أشكر ذا وأشكو ذا وبالـ
وقال آخر فأحسن: [الكامل]

وغمامة نثرث دموعاً عندما
تهدي السقوف جمانها متفرقاً
وقال ابن شهيد فأحسن: [الطويل]

ومرتجز ألقى بذی الأثل كَلْكَلاً
سعى في قياد الرِّيح يسمح للصبأ
وما زال يروي التُّرب حتى كسا الرُّبأ
وحطَّ بجرعاء الأبارق ما حَطَّأ
فألقت على غُبر التُّلاع به مِرْطَأ
درايك، والغيطان من نسجه بسطأ

وَعَثْتُ لَهُ رِيحٌ تَسَاقِطُ قَطْرُهُ كما نثرت حسناء عن جِيدِها سِمَطًا
 قوله: «تخبط» أي تجعلني أمشي فيها على غير هدى. تتقاذف: تترامى وتتطارح،
 وجعل الأبواب يرميه بعضها على بعض، لِمَا كان يقرعها ولا تفتح له.
 لطف القضاء، أي رفق قدر الله وقضائه. يده البيضاء: نعمته الكريمة، وتقول:
 لفلان علي يد بيضاء أي نعمة، وجمعها أياد.

[شكر النعمة ومما قيل فيها]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «من أهدى إلى قوم نعمة فلم يشكروها له استجيب له فيهم».

قال عبد الله بن المبارك: أقبل نصر بن سيار: فقال: اللهم إني أهديت إلى بئس نعمة فلم يعد لي بشكرها، فاجعل موتهم قتلاً بالسيف. فبلغني أنه قتل منهم سبعون رجلاً.

وقال أبو نواس وأتى بمعنى بديع: [الكامل]

قد قلت للعباس معتذراً	من ضعف شكره ومعتزفاً
أنت امرؤ جَلَلْتَنِي نِعْماً	أوهت قُوى شكري فقد ضَعُفاً
فإليك بعد اليوم تَقْدِمةٌ	لا قشك بالتصريح مكتنفاً
لا تحدثن إلي عارفة	حتى أقوم بشكر ما سلفاً

اعترضه الناشئ في معناه فقال: [الكامل]

إن أنست لم تحدث إلي يداً	حتى أقوم بشكر ما سلفاً
لم أحظ منك بنائل أبداً	ورجعت بالحرمان منصرفاً

وقال طريح: [الطويل]

طلبت ابتغاء الشكر فيما صنعت بي	فقصرت مغلوباً وإني لشاكِرُ
وقد كنت تعطيني الجزيل بدايةً	وإني لما استكثرت منك لحاقِرُ
فأرجع مغبوطاً وترجع بالثي	لها أول في المكرمات وآخرُ

وقال آخر: [الطويل]

رهنت يدي بالشكر في شكر برّه	وما فوق شكري للشكور مَزِيدُ
ولو أن شيئاً استطاع استطعته	ولكن ما لا استطاع شديدُ

وقال إبراهيم بن العباس الصولي: [المتقارب]

فلو كان للشكر شخص يبينُ	إذا ما تأمله الناظرُ
-------------------------	----------------------

لمثلثه لك حتى تراه فتعلم إنني امرؤ شاكر
وهذا الباب من الشكر وإن وفّيناه حقه هنا يأتي متفرقاً في الكتاب.

ولمّا ذكر البطنة وخطرها، وأنها أوجبّت عليه خروجه من منزل ضيفه على الحالة التي وصف، أردنا أن نصلها بما يشاكلها.

ومما جاء في ذم البطنة من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يشتري غلاماً وضع بين يديه تمرّاً، فإن أكل كثيراً قال: «رُدّوه، فإن كثرة الأكل من الشؤم».

وقيل للتُسْتَرِي: الرجل يأكل في اليوم مرة؟ قال: أكل الصديقين، قيل: فمرتين؟ قال: أكل المؤمنين. قيل: فثلاثاً؟ قال: قل لأهلك يبنوا لك مغلفاً.

ويقبح أن يكون الرجل وصافاً لبطنه وفَرْجِه، وإن من المروءة أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهي،

وقال عمرو بن العاص لمعاوية رضي الله عنهما يوم الحكمين: أكثروا الطعام، فوالله ما بطن قوم قط إلا فقدوا بعض عقولهم، وما مضت عزيمة رجل بات بطيئاً.

وقال بعض الحكماء: لكل شيء صداً وصداً القلوب شيع البطون.

عزم المعتصم يوماً على الاصطباح، وأمر ندماء أن يطبخ كل واحدٍ منهم قدرّاً، فدخل عليه غلام ابن أبي دواد، فقال المعتصم: الساعة يأتي ابن أبي دواد، فيقول: فلان الهاشمي، وفلان القرشي والأنصاري، فيقطعنا بحوائجه عما عزمنا عليه، وأنا أشهدكم أنني لا أمضي له يومي هذا حاجة، فلم يتم الكلام إلا والحاجب يستأذن به، فقال لجلسائه: كيف ترون؟ فقالوا: لا تأذن له، فقال: سواة لكم! الحمى سنة أهون عليّ من ذلك، ودخل فما هو إلا أن سلّم وجلس وتكلم حتى ضحك المعتصم، وسفر وجهه إليه، ثم قال: يا أبا عبد الله، لقد طبخ كل واحد من هؤلاء قدرّاً، وقد جعلناك حكماً في طبخها، قال: فليحضر كل واحد قدره وأكل، ثم أحكم فيها. فوضعت بين يديه، فأكل من أول قدر أكلاً كثيراً، فقال المعتصم: هذا ظلم، قال: وكيف ذاك؟ قال: لأنني أراك أمعنت في هذا اللون، وستحكم لصاحبه، فقال: عليّ أن أكل من القدر كلّها مثله، قال: شأنك، فأكل ثم قال: أمّا هذه فقد أجاد طبّاخها، إذ قلل خلّها وكثّر زيتها، ثم أكل من كل قدر كذلك، ووصف القُدور كلّها بصفات حسنة سرّبها أصحابها، ثم قدّم الطعام، فأكل مع القوم كما أكلوا، أنظف أكل وأحسنه، وهو يحدثهم بأخبار الأكلة في صدر الإسلام، كمعاوية وعبد الله بن زياد، والحجاج وسليمان بن عبد الملك. وعن أكلة دهره مثل ميسرة التمار، ودورق القصاب، وحاتم الكيال، وإسحاق الحمّامي.

فلما رفعت الموائد قال له المعتصم، وقد أطربه حديثه: ألك حاجة يا أبا عبد الله؟ قال: رجل من أهل بيتك، وطئه الدهر، وغير حاله، قال: ومن هو؟ قال: سليمان بن عبد الله، قال: قدّر له ما يصلحه، قال: خمسون ألفاً، قال: قد أنفذت ذلك له، قال: ولي حاجة أخرى، ثم ذكر ثلاث عشرة حاجة لا يرده عن شيء منها، ثم قام خطيباً، فقال: عمرك الله يا أمير المؤمنين طويلاً فبعمرك تُخَصِّبُ جنّات رعيّتك، ويلين عيشهم، وتنمو أموالهم، ولا زلت ممّتعاً بالكرامة والسلامة، مدفوعاً عنك حوادث الأيام وغيرها، ثم انصرف. فقال المعتصم: هذا والله يتزين الملك بمثله، ويبتهج بقربه، أما رأيتم كيف دخل، وكيف تكلم، وكيف أكل، ثم انبسط في الكلام، وكيف طاب به أكلنا، ما يرّد هذا عن حاجته إلا لثيم الأصل، والله لو سألتني في مجلسي هذا ما قيمته عشرة آلاف ما رددته عنها، وأنا أعلم أنه يكسبني في الدنيا حمداً، وفي الآخرة ثواباً.

وفيه يقول أبو تمام: [الوافر]

لقد أنست مساوى كل دهرٍ محاسنُ أحمد بن أبي دؤاد^(١)

وهذه الحكاية تنتظم في حكايات أهل الزرد المتقدمين في المقامة، وقد احتوت على رجال موصوفين بذلك، ختمنا بها الباب.

فقلتُ له: أحبّ بلقائك المتاح، إلى قلبي المرتاح، ثم أخذ يفتن في حكاياته، ويشمط مضحكاته بمبكياته، إلى أن عطس أنف الصباح، وهتف داعي الفلاح، فتأهب لإجابة الداعي، ثم عطف إلى وداعي، فعقته عن الانبعاث، وقلت: الضيافة ثلاث، فناشد وخرج، ثم أم المخرج، وأنشد إذ عرج: [الخفيف]

لا تَزُرْ مَنْ تَجِبُ في كل شهرٍ غيرِ يومٍ ولا تزده عليه
فاجتلاء الهلال في الشهرِ يومٌ ثم لا تنظرُ الغيُونُ إليه

قال الحارث بن همام: فودّعته بقلب دامي الفرح، ووددت لو أن ليّلتني بطيئة الصبح.

قوله: «أحبّ»، تعجب معناه: ما أحبّ لقاءك إلى قلبي. المتاح: المقدّر، والمرتاح: المهتزّ طرباً. يفتن: ينوّع. ويشمط: يخلط. أنفه: أوله، وجعل للصباح أنفاً عاطساً مجازاً لما كان يدفع ظلمة الليل. هتف: صاح. داعي الفلاح، هو المؤذن.

والفلاح: البقاء. تأهب: استعد. عُقته: حبسته. الانبعاث: التهوض.

وذكر أَنَّ الضيافة ثلاث: لأنه جاء في حديث أبي شريح الخُزاعي رضي الله عنه أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»^(١). وجائزته يوم وليلة، والضيافة ثلاث، ولا يحلُّ له أن يثوى عنده حتى يخرجه، فما أنفق عليه بعد ثلاث فهو صدقة.

أبو عبيدة: جائزته يوم وليلة، أي يعطي الضيف بعد إكرامه ثلاثة أيام ما يجوز به يوماً وليلة، يقال: أسف بجائزة وجيزة، وجوزة، أي قدر ما يجوز به المسافر من منهل إلى منهل.

ومن ملح باب الضيافة، قال المبرد: أضاف رجلٌ رجلاً فأطال المقام حتى كرهه، فقال الرجل لامرأته: كيف لنا أن نعلم مقدار مُقامه؟ فقالت له: ألق بيننا شراً حتى نتحاكم إليه، ففعل، فقالت المرأة للضيف: بالذي يبارك لك في غدوك غداً، أئنا أظلم؟ فقال: والذي يبارك لي في مقامي عنديكم شهراً ما أعلم.

ونزل بصريّ على مدنيّ، وكان صديقاً له، فألحَّ عليه في الجلوس، فقال المدنيّ لامرأته: إذا كان غداً فإنني أقول لضيفنا: كم ذراع يقفز فأقفز، فإذا قفز فأغلقني الباب خلفه، فلمّا كان من الغد، قال له المدنيّ: كم قفزك يا أبا فلان؟ قال: جيّد، فعرض عليه أن يقفز معه، فأجابه، فوثب المدنيّ من داره إلى خارج أذرعاً، وقال للضيف: ثب أنت، فوثب الضيف إلى داخل الدار ذراعين، فقال له: وثبت أنا إلى خارج الدار أذرعاً، وأنت إلى داخلها ذراعين، فقال الضيف: ذراعان من الدار خير من أربع إلى «برّا».

الأزهريّ: برّا مولدة.

قوله: «ناشد» خلّف. حرّج: وكّد يمينه، أي لا يقيم، والحرّج: الإثم.

ابن الأنباري: تحرّج فلان عن كذا، أي تديّن وضيق على نفسه، والحرّج عندهم الضيق. أمّ: قصد. عرّج: التوى عن الباب منصرفاً. اجتلاء: نظو.

القرّح: الجرح، وأنشد الثعالبي في هذا المعنى، فقال: [الطويل]

عليك بإقلال الزيارة إنَّها إذا كثرت كانت إلى الهجر مسلّكا
فإنني رأيت الغيث يسأم دائماً ويُسأل بالأيدي إذا هو أمسكا

(١) روي بطرق وأسانيد متعددة، وأخرجه البخاري في الأدب باب ٣١، ٨٥، والرقاق باب ٢٣، ومسلم في اللقطة حديث ١٤، والإيمان حديث ٧٤، ٧٥، ٧٧، وأبو داود في الأطعمة باب ٥، والترمذي في البر باب ٤٣، والقيامة باب ٥٠، وابن ماجه في الأدب باب ٥، والدارمي في الأطعمة باب ١١، ومالك في صفة النبي ص حديث ٢٢، وأحمد في المسند ١٧٤/٢، ٢٦٧، ٢٦٩، ٤٣٣، ٤٦٣، ٧٦/٣، ٣١/٤، ٤١٢/٥، ٦٩/٦، ٣٨٤، ٣٨٥.

وقال رسول الله ﷺ: «زُرْغَبًا تَزِدُّدَ حَبًّا»^(١).

نظمه الشاعر فقال: [الطويل]

إذا شئت أن تُثْقَلَى فزر متواتراً وإن شئت أن تزداد حباً فزُرْ غِبًّا
وقالوا: قلة الزيارة أمان من الملالة.

وقالوا في ضده: ترك الزيارة سبب القطيعة.

وقال عليّ رضي الله عنه: الصبر من كرم الطبيعة، والمنّ مفسدة الصنوعة، وترك التعاهد للصديق يكون داعية القطيعة.

وقال عبد الصمد بن المعذل في ضدّ هذا: وأن يحافظ على الصداقة بظهر الغيب، ويمدح إبراهيم بن الحسن: [البسيط]

يا مَنْ فدت نفسه نفسي وقد جعلت له وقاء لمن يخشى وأخشاه
أبلغ أخاك وإن شطَّ المَزَار به إنّي وإن كنت لا ألقاه ألقاه
وإنّ طرفي موصول برؤيتيه وإن تباعد عن مثواي مثواه
الله يعلم أنني لست أذكره وكيف يذكره مَنْ ليس ينساه
لا شيء مما نرى إلا له شبهة وما لكم آل إبراهيم أشباه
عذراً فهل حسن لم يُنمِ حسنٌ وهل فتى عدلت جدواه جدواه
قال أبو العتاهية: [الكامل]

أقلل زيارتك الصديق ولا تُطلِّ لصديقه فيلج في هجرانه^(٢)
إنّ الصديق يلج في غشيانته وكأنه متبرّم بمكانه
حتى تراه بعد طول سُروره رجلٌ تُنقّص واستُخفَّ بشأنه
وإذا تولّى عن صيانة نفسه

وإفراط البرّ بالصاحب داع إلى كثرة الإخجال، ومانع من العودة بعد الانفصال.

وكتب ابن عمار إلى ابن زريق، وقد عتب عليه، أن اجتاز ببلده ولم يلقه هذه

الآيات: [البسيط]

لم يلو عنك عناني سلوةً خطرث ولا فؤادي ولا سمعي ولا بصري
لكن عدتني عنكم خجلةً عرّضت كفاني العذر منها بيتٌ معتذر

(١) رواه الزمخشري في الفائق في غريب الحديث ٤١٧/٢، وابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٣/٣٣٦.

(٢) الآيات في ديوان أبي العتاهية ص ٣٣٢.

لو اختصرتُم من الإحسان رُزْتُكُم والعذبُ يهَجُر للإفراط في الخَصْرِ
 ضَمَّن ابنُ عمار هذا البيت أحسن تضمين، وهو للمعرِّي، وما قيل في العجز عن
 الشكر أحسن منه، والإقلال يمنع تلاقي الأحياء، ويحطُّ من همم ذوي الأحساب، فإنه
 إذا لم يكن عندك ما تقدِّم بين يدي ضيفك أو زائرك تمثَّيت إذا حلَّ بك ألا تراه.

وقال حبيب: [الطويل]

وسَيَّانٍ عندي صادفوا لي مطمَعاً أعاب به أو صادفوا لي مَقْتَلَاً

وقال ابن الجَدِّ: [الطويل]

وإنني لصبُّ بالتلاقي وإنما يصد فؤادي عن معاذ يرك العسر
 أذوب حياء من زيارة صاحب إذا لم يساعدني على بَرِّه الوفُرُ
 وفي المقامة التي تلي هذه فنُّ ثانٍ من الزيارة، تقف عليه إن شاء الله تعالى.

المقامة السادسة عشرة

وتعرف بالمغربية

حكى الحارث بن همام، قال: شَهِدْتُ صَلَاةَ الْمَغْرِبِ، فِي بَعْضِ مَسَاجِدِ الْمَغْرِبِ، فَلَمَّا أَدَّيْتُهَا بِفَضْلِهَا، وَشَفَعْتُهَا بِنَفْلِهَا، أَخَذَ طَرْفِي رَفَقَةً قَدْ انْتَبَذُوا نَاجِيَةً، وَامْتَازُوا صَفْوَةً صَافِيَةً، وَهُمْ يَتَعَاطُونَ كَأْسَ الْمُنَافَةِ، وَيَقْتَدِحُونَ زِنَادَ الْمُبَاحَثَةِ، فَرَعَبْتُ فِي مُحَادَثَتِهِمْ، لِكَلِمَةٍ تَسْتَفَادُ، أَوْ أَدَبٍ يُسْتَزَادُ، فَسَعَيْتُ إِلَيْهِمْ، سَعْيَ الْمُتَطَفِّلِ عَلَيْهِمْ.

أَدَّيْتُهَا: تَمَمْتُهَا، شَفَعْتُهَا: زَوَّجْتُهَا، يَرِيدُ أَنَّهُ صَلَّى الْفَرِيصَةَ، ثُمَّ صَلَّى النَّافِلَةَ بِفَضْلِهَا، يَرِيدُ أَنَّهُ صَلَّاهَا فِي الْجَمَاعَةِ، وَهِيَ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ الْفَذِّ. انْتَبَذُوا: انْفَرَدُوا، وَصَارُوا إِلَى جِهَةٍ وَزَاوِيَةٍ مِنَ الْمَسْجِدِ. وَامْتَازُوا: انْفَصَلُوا. صَفْوَةٌ: خِيَارٌ. يَتَعَاطُونَ: يَعْطِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا. الْمُنَافَةُ: الْمُحَادَاثَةُ. يَقْتَدِحُونَ، أَيِ يَضْرِبُونَهَا وَيَسْتَخْرِجُونَ نَازَهَا. الْمُبَاحَثَةُ: الْمُنَازَعَةُ فِي الْعِلْمِ.

[في معنى التطفل]

الْمُتَطَفِّلُ: الْآتِي إِلَى الطَّعَامِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُدْعَى، وَهُوَ الْوَارِثُ^(١) عِنْدَ الْعَرَبِ. وَتَطَفَّلَ: تَشَبَّهَ بِطَفِيلِ الْعَرَائِسِ، وَهُوَ طُفِيلُ بَنِ دَلَالِ الدَّارِمِيِّ، يَسْمَى طَفِيلَ الْأَعْرَاسِ، وَطُفِيلِ الْعَرَائِسِ، لِكثَرَةِ دَوْرَانِهِ عَلَى حُضُورِهَا، وَمُشَاهَدَتِهِ لَهَا، وَالْأَكْلِ مِنْهَا، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُدْعَى إِلَيْهِ، وَاسْمُهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الطُّفْلِ، وَهُوَ إِقْبَالُ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ. أَبُو عَمْرٍو: الطُّفْلُ: الظُّلْمَةُ.

ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: وَيُقَالُ لِلطُّفِيلِ اللَّعْمُوزُ، وَالْجَمْعُ اللَّعَامِيظُ. وَطُفِيلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ غَطَفَانَ، كَانَ يَأْتِي الْأَعْرَاسَ وَلَمْ يُدْعَ. وَمَسْكَنُهُ بِالْكُوفَةِ، وَكَانَ يَقُولُ: وَدِدْتُ أَنْ الْكُوفَةَ بَرَكَةٌ مُصْهَرَجَةٌ، فَلَا يَخْفَى عَلَيَّ فِيهَا دَخَانٌ، فَتُسَبُّ إِلَيْهِ كُلُّ

(١) الْوَارِثُ: هُوَ الْوَاغِلُ.

من يتطفّل، نسبةً مذهب لا نسب، والتطفّل من أخلاق اللثام، وسجايا الأوغاد، ومنهي عنه في الشرع.

ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ دُعِيَ فلم يُجب فقد عصى الله ورسوله، ومن دخل على غير دَعْوَى دخل سارقاً وخرج مُغَيَّراً»^(١).

عائشة رضي الله عنها: قال النبي ﷺ: «من دخل على قوم لطعام لم يدع فأكل دخل فاسقاً، وأكل حراماً».

[من أخبار المتطفلين]

ونسوق هنا فصلاً للطفيليين، يكون في هذه المقامة بمنزلة فضل الأكلة في المقامة التي قبل هذه لأن حالتيهما متقاربة.

فمن ذلك ما يحكى عن بشار الطفيليّ أنه قال: رحلت يوماً إلى البصرة، فلما دخلتها قيل لي: إنّ هنا عريقاً للطفيليين يَبْرُهُم، ويكسوهم ويرشدهم إلى الأعمال ويقاسمهم. فسرت إليه فبرّني وكساني، وقمت عنده ثلاثة أيام، وله جماعة يصيرون إليه بالزلات^(٢) فيأخذ النصف، ويعطيهم النصف، فوجهني معهم في اليوم الرابع، فحصلت في وليمة، فأكلت وأزللت معي شيئاً كثيراً وجنته به، فأخذ النصف، وأعطاني النصف، فبعت ما وقع لي بدراهم، فلم أزل على هذه الحالة أياماً، ثم دخلت يوماً على عرس جليل، فأكلت وخرجت بزلةً حسنة، فلقيني إنسان فاشتراها بدينار، فأخذته وكتمته، وكتمت أمرها. فدعا جماعة من الطفيليين، فقال: إنّ هذا البغداديّ قد خان، فظنّ أنّي لا أعلم ما فعل، فاصفعوه وعرفوه ما كتمتنا، فأجلسوني شئت أم أبيت، وما زالوا يصفعونني واحداً بعد واحد، فيصفعني الأول منهم، ويشمّ يدي، ويقول: أكل مضيرة^(٣)، ويصفعني الآخر ويشمّ يدي، ويقول: أكل كذا، ويصفعني الآخر، حتى ذكروا كلّ شيء أكلته، ما غلطوا بشيء منه، ثم صفعني شيخٌ منهم صفةً عظيمة، وقال: باع الزلة بدينار، وصفعني آخر، وقال: هات الدينار، فدفعته إليه، وجردّني الثياب التي أعطانها، وقال: اخرج يا خائن في غير حفظ الله. فخرجت إلى بغداد، وحلفت ألا أقيم ببلد فيه طفيلية يعلمون الغيب.

ونريد هنا أن نذكر بعض ما اشتهر من حكايات طفيلية البصرة، إذ هم أحذق خلق الله في باب التطفيل:

(١) أخرجه بنحوه الترمذي في الصوم باب ٦٤، وأبو داود في الأطعمة باب ١.

(٢) الزلة: اسم لما تحمل من مائدة صديقك أو قريبك.

(٣) المضيرة: هي مرقّة تطبخ باللبن.

بعث المأمون في طَلَب عشرة من زناذقة البَصرة، فَجُمِعُوا فرآهم طُفيلي، فمضى معهم، فأدخلوا في سفينة، فدخل معهم، وجيء بالقيود، فَقَيَّدَ معهم، فقال أحدهم: يا طُفيلي إلي هنا، فأقبل عليهم فقال: فديتكم، أي شيء أنتم؟ فقالوا له: بل أنت، مَنْ أنت؟ وهل أنت من أصحابنا؟ قال: والله ما أعرفكم، غير أنني طفيلي، خرجت من منزلي، فرأيت منظراً جميلاً، ونعمة ظاهرة، فقلت: شيوخ وكهول وشبان، ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع، فدخلت وسطكم كأني أحكم إلى هذا الزورق، فرأيت قد فُرش ومُهد، ورأيت سُفراً^(١) مملوءة فقلت: نزهة إلى بعض البساتين والقصور، إن هذا اليوم يوم مبارك، فزدت ابتهاجاً، فجاء هذا الموكل بكم فقَيَّدَكم، فطار عقلي فما الخبر؟ فضحكوا وفرحوا به، وقالوا له: قد حصلت في الإحصاء، نحن مانيّة على مذهب ماني، القائل بالنور والظلمة، نسير إلى المأمون، فيسألنا عن مذهبنا، ويدعونا إلى التوبة. ويظهر لنا صورة ماني، ويأمرنا أن نثقل عليها، ونبرأ منها، فمن فعل نجاً، وإلا قُتل، فإذا دعيت فأخبره باعتقادك، وللطفيلي مداخلات وأخبار فاقطع سفرنا بها. فكان ذلك. فلما دخلوا على المأمون، دَعَاهم بأسمائهم وامتحنهم فأمرَ عليهم بالسيف، وتأخر الطفيلي وقد استوعب العدة، فسأل المُوكِّلِينَ بهم، فقالوا: وجدناه معهم، فجئنا به، فقال له: ما خبرك؟ فقال له: يا أمير المؤمنين، امرأته طالق إن كنت أعرف من أقوالهم شيئاً، إنما أنا رجل طفيلي، ثم قص قصته معهم.

فضحك المأمون كثيراً، ثم أظهر الصورة، فلعنها وبرىء منها، ثم قال: اعطوها لي حتى أسلح عليها، والله ما أدري ما ماني! أنصراني أم يهودي أم مسلم؟ فقال المأمون: يؤدّب على فرط جهله وتطفيله ومخاطرته بنفسه، فقال: يا أمير المؤمنين بحياتك، إن كنت ولا بدّ عازماً، فاجعل السَّيَّاط كلّها على بطني، فهو الذي حملني على هذا العَرَر. فعاد إلى الضحك، فاستوبه منه إبراهيم بن المهدي بحديث في تطفيله يذكر في خبر إسحاق الموصلي، فوهبه له، وأجاز الطفيلي بجائزة سنّية.

كان إبراهيم بن المدبر عاملاً على البَصرة، وكان له سبعة ندماء لا يأنسُ بغيرهم، وكل واحد منهم منفرد بعلم من العلوم. وكان طفيلي يعرف بابن دَرَّاج، من أكمل الناس أدباً، وأخفهم روحاً وأشدّهم في كلّ مليحة افتناناً. فاحتال ودخل في جملة الندماء، فخرج إبراهيم، فرآه فقال لحاجبه: قل لهذا الرجل، ألك حاجة؟ فسقط في يد الحاجب، وعلم أنّ الحيلة تمّت عليه، وأنه لا يرضي ابن المدبر من عقوبته إلا بقتله، فمرّ يجر رجليه، فقال له: يقول لك الأستاذ: ألك حاجة؟ فقال: قل له: لا، فأدخله عليه، فقال: فأني شيء أدخلك! أنت طفيلي؟ فقال: نعم أصلحك الله! فقال: إن الطفيلي يحتمل على دخوله على الناس بخصال، منها أن يكون لاعباً للشطرنج أو بالترّد، أو ضارباً بالعود، أو

بالطنبور، فقال: أَيْدِكَ اللهُ، إنا لما ذُكرت في الطبقة العليا، فقال لبعض الندماء: لابعه بالشطرنج، قال: أعزَّكَ اللهُ. فإن قُمِزْتَ^(١)؟ قال: أخرجناك، قال: وإن قَمِرت، قال: أعطيناك ألف درهم، فقال: أحضرها فإن في حضورها قوةً للنفس، فلعبا بالشطرنج، فغلب الطفيلي، ومدَّ يده لأخذ الدراهم، فقال الحاجب: أعزَّكَ اللهُ، ذكر أنه في الطبقة العليا، وإن فلاناً غلامك يغلبه، فأخضر الغلام فغلبه؛ فقالوا له: انصرف، فقال: أحضروا النرد، فلوغب به فغَلَبَ، فقال الحاجب: لكن برأينا فلان يغلبه، فأحضر البواب فغلبه، فقيل له: اخرج، قال: فالعود؟ فأعْطِي عوداً، فضرب فأصاب، وغنى فأطرب، فقال الحاجب: يا سيدي إن في جوارنا شيخاً يعلم القيان، هو أحسنُ منه، فأحضر إليه، فكان أطيّب منه، فقيل له: اخرج، فقال: فالطنبور؟ فَضْرَبَ ضرباً لم يَرُ أحسنُ منه، فقال الحاجب: إن فلاناً المحتكر أطيّب منه، فأحضر فكان أحذقُ منه، فقال ابنُ المدبّر: قد تقصّينا لك بكلّ جهد، فأبَتْ حرفتك إلا طَرَحَكَ، فقال: يا سيدي، بقيتُ معي فائدة حسنة، فقال: وما هي؟ قال: تأمر أن يحضر قوس بندق مع خمسين بندقاً من رصاص، ويقام هذا الحاجب فأرميه في دُبُرِهِ، فإن أخطأته بواحدة، فاضرب عنقي، فضجّ الحاجب. ووجد ابن المدبّر شفاء نفسه في عقوبته، فأمر بخشيتين، وشدّ الحاجب فوقهما. وأعْطِي القوس، فإرمه بخمسين بندقاً، فما أخطأ دُبُرَهُ بواحدةٍ منها.

وحلّ الحاجب وهو يتأوّه لما به، فقال له الطفيلي: يا صفعان، هل على باب الأمير من يحسن مثل هذا؟ فقال له الحاجب: يا قَرْنان إذا كان البُرجاس^(٢) استي فلا يحسن أحسد مثلك.

قال: وذهب الضحك بابن المدبّر هو وأصحابه كلّ مذهب، ثم أعطاه ألف درهم وانصرف.

صحب طفيلي رجلاً في سفر، فلما نزلوا ببعض المنازل، قال له الرجل: خذْ درهماً وامشي فاشتر لنا لحماً. فقال له الطفيلي: قم أنت، والله إنّي لتعيب، فاشتر أنت. فمضى الرَّجُل، فاشتره، ثم قال له الرجل: قم فاطبخه، فقال: لا أحسن، فقام الرجل، فطبخه، ثم قال الرَّجُل للطفيلي: قم فائرد، فقال: والله إنّي لكسلان، فتردَّ الرَّجُل، ثم قال له: قم فاغترف، قال: أخشى أن ينقلب على ثيابي، فغرف الرجل حتى ارتوى الثريد، فقال له: قم الآن فكل، قال: نعم إلى متى هذا الخلاف! قد والله استحييت من كثرة خلافك. وتقدّم فأكل.

وقال طفيل العرائس: ليس في الأرض أكرم من ثلاثة أعواد: عصا موسى عليه السلام، وخوان الطعام، ومِنبر الخليفة.

(٢) البرجاس: ما يوضع على رأس الرمح.

(١) قُمِزْتَ: غُلِبْتَ.

ومن وصيَّته لأصحابه: إذا دخلتم عرساً، فلا تلتفتوا إلى الملاهي، وتخيَّروا المجالس، وإن كان العرس كثير الزحام، فليمض أحدكم ولا ينظر في عيون الناس، ليظنَّ أهل الرجل أنه من أهل المرأة، وأهل المرأة أنه من أهل الرجل، وإن كان البواب فظاً وقحاً، فليبدأ به فليأمره ولينَه من غير عُنف، ولكن بين النصيحة والإدلال.

وقال بُنان الطفيلي: التمكن على المائدة خير من ثلاثة ألوان.

وسئل بنان: هل تحفظ من كتاب الله تعالى شيئاً؟ قال: نعم، آية. قيل: وما هي؟ قال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢] قيل: أت حفظ شيئاً من الشعر؟ قال: بيتاً واحداً، قيل: ما هو؟ قال: [البسيط]

نزوركم لا نكافئكم بجفوتكم إن الكريم إذا ما لم يُرز زارا
وبعده: [البسيط]

يُقرب الشوق داراً وهي نازحة من عالج الشوق لم يستبعد الدار^(١)
وقال أبو الورد المحامي في طفيلي: [الوافر]

طفيلي يؤم الخبز أنى يراه ولو يراه على يَفَاع
ولا يروي من الأخبار إلا: «أجيب ولو دعيت إلى كراع»
وقال طفيلي أيضاً: [الخفيف]

نحن قوم إذا دعينا أجبنا ومتى ننس يدعنا التطفيل
ونقل علنا دعينا فجبنا وأتانا فلم يجذنا الرسول
وأقبل طفيلي إلى طعام لم يُدع إليه، فقال صاحب الطعام: من دعاك؟ فأنشده:
[السريع]

دعوت نفسي حين لم تدعني فالحمد لي لا لك في الدعوة
وكان ذا أحسن من موعدي مُخلفه يدعو إلى الجفوة
ودخل طفيلي في صنيع رجل من القبط، فقال له: من أرسل إليك؟ فأنشأ يقول:
[البسيط]

أزورك لا أكافيك بجفوتكم إن المحب إذا ما لم يُرز زارا
فقال: «زر زارا»، ليس ندري من هو؟ أخرج من بيتي!

وقال آخر في طفيلي كوفي: [الطويل]
رَزَعْنَا فلما سلم الله زرعنا وأوفى عليه منجل لحصاد

بُلِينَا بِكَوْفِي حَلِيفَ مَجَاعَةٍ أَضَرَّ عَلَيْنَا مِنْ دَبِي وَجَرَادٍ
وَحَدَّثَ آدَمَ الطَّوِيلُ، قَالَ: دَخَلَ حَانُوتِي غَرِيبٌ يَأْكُلُ شَيْئاً مِنَ الطَّعَامِ فَتَقَدَّمَ سَائِلٌ،
فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَكْثَرَ تَرَدُّدِكَ إِلَيَّ! فَقَالَ الْغَرِيبُ الَّذِي فِي الْحَانُوتِ: لَعَلَّهُ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:
[السريع]

لَوْ طَبَخْتَ قَدْرَ بِمَظْمُورَةٍ أَوْفَى ذُرّاً قَصِرَ بِأَعْلَى الثُّغُورِ
وَكُنْتُ بِالصَّيْنِ لَوَافِيئَهَا يَا عَالَمَ الْغَيْبِ بِمَا فِي الْقُدُورِ!
حَكَى الْمِرْدُ قَالَ: كَانَ بِالْبَصْرَةِ طِفْلِيٌّ مَشْهُورٌ، وَكَانَ ذَا أَدَبٍ وَظَرْفٍ، فَمَرَّ بِسَكَّةِ
التَّخَعِّعِ بِالْبَصْرَةِ عَلَى قَوْمٍ عِنْدَهُمْ وَلِيمَةٌ، فَاقْتَحَمَ عَلَيْهِمْ، وَأَخَذَ مَجْلِسَهُ مَعَ مَنْ دُعِيَ،
فَأَنْكَرَهُ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ فَقَالُوا لَهُ: لَوْ تَأْتَيْتَ أَوْ صَبَرْتَ يَا هَذَا قَبْلَ الدَّخُولِ حَتَّى يُوْذَنَ لَكَ،
كَانَ أَحْسَنَ لَأَدَبِكَ، وَأَعْظَمَ لِقَدْرِكَ، وَأَجَلَ لِمَرْوَعَتِكَ؛ فَقَالَ: إِنَّمَا اتَّخَذْتُ الْبُيُوتَ لِيَدْخُلَ
فِيهَا، وَوُضِعَتِ الْمَوَائِدُ لِيُؤْكَلَ عَلَيْهَا، وَالْحَشْمَةُ قَطِيعَةٌ، وَأَطْرَاحُهَا صَلَةٌ.
وَجَاءَ فِي الْآثَارِ: صَلِّ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ مَنَعَكَ، وَأَحْسِنْ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ.
وَأَنْشَدَ: [الخفيف]

كُلَّ يَوْمٍ أَدُورُ فِي عَرِصَةِ الدَّاءِ رَأَيْتُ الْفُتَّارَ شَمَّ الذَّبَابِ
فَإِذَا مَا رَأَيْتَ آثَارَ عَرِيسٍ أَوْ دَخَاناً أَوْ دَعْوَةَ الْأَصْحَابِ
لَمْ أَعْرِجْ دُونَ التَّقَحُّمِ لَا أَرَى هَبْ شَتْمًا أَوْ لَكْزَةَ الْبُؤَابِ
مُسْتَهِينًا بِمَنْ دَخَلَتْ عَلَيْهِ غَيْرَ مُسْتَأْذِنٍ وَلَا هَيَّابِ
ذَاكَ أَهْنًا مِنَ التَّكَلُّفِ وَالْعُزْرِ مَ وَشْتَمَ الْبَقَالَ وَالْقَصَابِ
كَانَ بِالْبَصْرَةِ طِفْلِيٌّ يَكْنَى أَبَا سَلَمَةَ، وَكَانَ إِذَا بَلَغَهُ خَيْرٌ وَلِيمَةٌ، لَبَسَ لُبْسَ الْقَضَاةِ،
وَأَخَذَ ابْنَيْهِ مَعَهُ، عَلَيْهِمَا الْقَلَانِسُ الطُّوَالُ وَالطِّيَالِسَةُ، فَيَتَقَدَّمُ أَحَدُهُمَا فَيَدُقُّ الْبَابَ، وَيَقُولُ:
افْتَحْ يَا غَلَامُ لِأَبِي سَلَمَةَ، ثُمَّ لَا يَلْبَثُ حَتَّى يُلْحِقَهُ الْآخَرُ، فَيَقُولُ: افْتَحْ وَبِلَكَ! قَدْ جَاءَ أَبُو
سَلَمَةَ، وَيَتْلُوهُمَا، فَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُمُ الْبُؤَابُ فَتَحَ لَهُمْ، وَإِنْ عَرَفَهُمْ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ، وَمَعَ كُلِّ
وَاحِدٍ مِنْهُمَا فَهْرٌ مَدُورٌ يَسْمُونَهُ كَيْسَانٌ، فَيَنْتَظِرُونَ مَنْ دُعِيَ، فَإِذَا جَاءَ وَفَتَحَ لَهُ طَرَحُوا الْفَهْرَ
فِي الْعَتَبَةِ، حَيْثُ يَدُورُ الْبَابُ، فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى إِغْلَاقِهِ فَيَهْجُمُونَ وَيَدْخُلُونَ.

فَأَكَلَ أَبُو سَلَمَةَ يَوْمًا عَلَى بَعْضِ الْمَوَائِدِ لَقْمَةً حَارَّةً مِنَ الْفُلُوجِ، وَبَلَغَهَا بِشَدَّةِ
حَرَارَتِهَا، فَتَجَمَّعَتْ أَحْشَاؤُهُ، فَمَاتَ عَلَى الْمَائِدَةِ، فَقَالَ عَبْدُ الصَّمَدِ بْنِ الْمَعْدِلِ يَرِثِيهِ:
[البسيط]

أَحْزَانُ نَفْسِي عَنِّي غَيْرَ مَنْصَرَمَةٍ وَأَدْمَعِي مِنْ جَفُونِ الْعَيْنِ مَنْسَجَمَةٍ
عَلَى صَدِيقٍ وَمَوْلَى لِي فُجِيعَتْ بِهِ مَا إِنْ لَهُ فِي جَمِيعِ الصَّالِحِينَ لَمَةٌ
كَمْ جَفْنَةٌ مِثْلَ دُورِ الْحَوْضِ مَتْرَعَةٌ كَوُمَاءُ جَاءَ بِهَا طَبَاخُهَا رَذْمَةٌ

قد كللتها شحوم من قليتها
ومن سنام جزور عبطة سنمة
غيبت عنها فلم تعلم لها خبراً
لهفي عليك وعولي يا أبا عليمه
ولو تكون لها حياً لما بعدت
يوماً عليك ولو في جاحم خطمة
قد كنت أعلم أن الأكل يقتله
لكنني كنت أخشى ذاك من تخمة
إذا تعمم في شبليه ثم غدا
فإن حوزة من يأتيه مصطلمه

* * *

وقلت لهم: أقبِلُونْ نزيلاً يَطْلُبُ جَنَى الْأَسْمَارِ، لَا جَنَى الثَّمَارِ، وَيَبْغِي مَلَحَ
الْحَوَارِ، لَا مَلَحَاءَ الْحَوَارِ، فَحَلُّوا لِي الْحُبَا، وَقَالُوا: مَرْحَباً مَرْحَباً، فَلَمْ أَجْلِسْ إِلَّا
لَمَحَةً بَارِقٍ خَاطِفٍ، أَوْ نُغْبَةً طَائِرٍ خَائِفٍ، حَتَّى غَشِيْنَا جَوَابٌ، عَلَى عَاتِقِهِ جَرَابٌ،
فَحَيَّانَا بِالْكَلِمَتَيْنِ، وَحَيَّا الْمَسْجِدَ بِالتَّسْلِيمَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أُولِي الْأَلْبَابِ، وَالْفَضْلِ
اللُّبَابِ، أَمَا تَعْلَمُونَ أَنَّ أَنْفَسَ الْقُرْبَاتِ، تَنْفِيسُ الْكُرْبَاتِ، وَأَمْتَنَ أَسْبَابِ النُّجَاةِ،
مَوَاسَاةُ ذَوِي الْحَاجَاتِ. وَإِنِّي وَمَنْ أَحْلَنِي سَاحَتَكُمْ، وَأَنَاحَ لِي اسْتِمَاحَتَكُمْ، لَشَرِيدُ
مَحَلٍّ قَاصٍ، وَبَرِيدُ صَبِيَّةٍ خَاصٍ، فَهَلْ فِي الْجَمَاعَةِ، مَنْ يَفْتَأُ عَنَّا حُمِيًّا الْمَجَاعَةِ؟
فَقَالُوا لَهُ: يَا هَذَا، إِنَّكَ حَضَرْتَ بَعْدَ الْعِشَاءِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا فَضْلَاتُ الْعِشَاءِ، فَإِنْ
كَنتَ بِهَا قَنُوعاً، فَمَا تَحْدُ فِينَا مَنُوعاً، فَقَالَ: إِنَّ أَخَا الشَّدَائِدِ، لِيَقْنَعُ بِلُفَظَاتِ
الْمَوَائِدِ، وَنِفَاضَاتِ الْمَزَاوِدِ. فَأَمَرَ كُلُّ مِنْهُمْ عَبْدَهُ، أَنْ يُزَوِّدَهُ مَا عِنْدَهُ.

* * *

قوله: «نزيلاً» أي ضيفاً. الأسمار: المذاكرة بالليل. وجئناها: ما يُجَنَّى من
فوائدها. يبغي: يطلب. ملح الحوار: مليح الكلام، والحوار: مراجعة القول. ملحاء
الحوار: لحم سنام الفصيل. الحبا: جمع حبه، وكانت العرب ليس لها في البوادي
حيطان تستند إليها في مجتمعهم، فكان الرجل يقيم ركبته في جلوسه، فيضع عليها أو
يدير بهما ثوباً، ويعقد عليهما يديه، ويستريح إليها، ويقوم ذلك له مقام الاستناد، فيقال
لذلك العقد: الحبة، فأراد أنهم حلوا له الحبا إكراماً له. لمحة بارق: لمعة برق.
خاطف: يخطف العين بسرعة فيمنعها النظر. نغبة: جزعة. غشينا: دخل علينا فجأة.
جواب: قطاع للأرض بمشيه. العاتق: ما بين المنكب والعنق. جراب: وعاء للخبز
الكلمتين: سلام عليكم. التسليمتين: سلامه عند الدخول وسلامه من الركعتين. وتحية
المسجد: أن يركع الداخل فيه ركعتين، وقيل: التسليمتين تسليمه من صلاة المغرب
وتسليمه من الركعتين اللتين بعدها. الألباب: الأذهان اللباب: الخالص. أنفس: أرفع.

القُرْبَات: ما يُتَقَرَّبُ به إلى الله عز وجل، واحدها قُرْبَةٌ. الكُرْبَات: الهموم. تنفيسها: تفريجها وإزالتها. أمتن: أقوى وأغلظ. النجاة: التخلص. مُواساة: جعلك لهم أسوة نفسك. ساحتكم: موضعكم. أتاح: قدر. استماحتكم: اجتدأكم والطلب منك. شريد: منفر، والشريد: الهارب. قاص: بعيد. بريد: رسول. خماص: جياح. يَفْتَأ: يكسر. حُمِيًّا المجاعة: جَذَه الجوع. فضلات: بقايا لُفَاطَات: ما يُلْفِظ منها، أي يُطرح. نُفَاضَات: ما يُنْقَضُ من بقية الزاد.

ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل ما يسقط من الخوان نفى عنه الفقر، وعن ولده الحمق». والمزاود: أوعية الزاد.

فَأَعْجَبَهُ الصَّنْعُ، وَشَكَرَ عَلَيْهِ، وَجَلَسَ يَرْقُبُ مَا يُحْمَلُ إِلَيْهِ، وَثَبُّنَا نَحْنُ إِلَى اسْتِثَارَةِ مُلْحِ الْأَدَبِ وَعُيُونِهِ، وَاسْتِنْبَاطِ مَعِينِهِ مِنْ عُيُونِهِ، إِلَى أَنْ جُلْنَا فَمَا لَا يَسْتَحِيلُ بِالْانْعِكَاسِ، كَقَوْلِكَ: سَاكِبُ كَأْسٍ. فِتْدَاعِينَا إِلَى أَنْ نَسْتَنْتِجَ لَهُ الْأَفْكَارَ، وَنَفْتَرِعَ مِنْهُ الْأَبْكَارَ، عَلَى أَنْ يَنْظُمَ الْبَادِي ثَلَاثَ جَمَانَاتٍ فِي عَقْدِهِ، ثُمَّ تَتَدَرَّجُ الزِّيَادَاتُ مِنْ بَعْدِهِ، فَيَرْبُّعُ ذُو مِيمَنَتِهِ فِي نَظْمِهِ، وَيَسْبِغُ صَاحِبُ مِيسَرَتِهِ عَلَى رَغْمِهِ.

قال الراوي: وكنا قد انتظمنا عِدَّةَ كَأْصَابِ الْكَفِّ، وَتَأَلَّفْنَا أُلْفَةَ أَصْحَابِ الْكَهْفِ.

الصنع: الجميل. وقوله: «وجلس يرقب»، وقال قبل هذا: «فلم أجلس إلا لمحة بارق»، وقال في الثامنة والعشرين، «وجلس حتى خُتِمَ نَظْمُ التَّأْذِينَ» وأكثر ما صرف الجلوس في مقاماته من قيام.

وقال في الدِّرَّة: «يقولون للقائم: اجلس، والاختيار على ما حكاه الخليل، أن يقال لمن كان قائماً: اقعُد، ولمن كان نائماً أو ساجداً: اجلس. وَعَلَّلَ بعضهم هذا الاختيار بأنَّ القعود هو الانتقال من عُلُوٍّ إِلَى سَفَلٍ، ولهذا قيل لمن أصيب برجلة: مُقْعَدٌ، وإنَّ الجلوس من سَفَلٍ إِلَى عُلُوٍّ، ومنه قول عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: [الكامل]

قُلْ لِلْفِرْزَدَقِ وَالسَّفَاهَةِ كَاسِمِهَا إِنْ كُنْتَ تَارَكَ مَا أَمَرْتُكَ فَاجْلِسْ
أَيِّ اقْصِدْ نَجْدًا.

وكان عمر والياً على المدينة فقال للفرزدق: إن كنت تلزم العفاف، وإلا فاخرج إلى

نجد.

وحكى أبو عبد الله بن خالويه: قال دخلتُ على سيف الدولة بن حَمْدان يوماً، فلما مَثَلْتُ بين يديه قال: اقعد، ولم يقل: اجلس، فتبينت بذلك اعتلاقه بأهداب الأدب وإطلاعه على أسرار كلام العرب.

والذي نظر هو الوجه، ولهذا جعله على الاختيار، ولم يجعله من اللحن، إلا أنه لقرب المعنيين، يجوز أن يكون قد استعمل جلس في المقامات، من القيام.

يرقب: ينظر ويحرس ثبنا: رجعنا. استشارة: استخراج. مُلح: ما يتلمح به من الكلام. عيونه: محتاره. استنباط: استخراج. معينه: ماؤه الصافي عيونه: جمع عين الماء. وكنى بالمعين والعين عن الكلام والقلوب، جُلْنَا: تصرفنا. يستحيل. يتغير الانعكاس: قراءة اللفظة من آخرها. ساكب: صاب. تداعينا: دعا بعضنا بعضاً. نستنتج: نستدعي منها التناج وهو الولد الأفكار: جمع فُكْر، وجعل ما يبيده الفكر من الكلام نتاجاً له نفتزع: نفتض. حُمانات: جمع حُمانة، وهي حبة تعمل من فضة كالدرّة، تتدرّج: تمشى. يربّع: يصنع أربع جمانات. ذو، بمعنى صاحب. يسبّع: يصنع سبعا رَغْمه: إكراهه وإذلاله. انتظمتنا: اجتمعنا. تألفنا: تصاحبنا وانضمّ بعضنا إلى بعض، ومنه ألفت الكتاب. والألفة: الصلابة والاجتماع. والكهف: الغار وأصحابه قصتهم معروفة.

[قصة أهل الكهف]

قال ابنُ عباس في قوله عز وجلّ: ﴿مَا يَظُنُّهُمْ إِلَّا لِقِيلٌ﴾ [الكهف: ٢٢] أنا من أولئك القليل، وهم مكسلمينا ويمليخا، وهو المبعوث بالورق إلى المدينة، ومرطونس وسارينوس ويوانس وكفشطيوس وقطينوسيسوس، وهو الراعي، والكلب اسمه قَظْمِير وهو أنمردون الكروي وفوق القلطي.

وقال أبو شبل: بلغني أنّ من كتب هذه الأسماء في شيء ووضعه في الحريق سكن الحريق.

وذكر الطبري أنهم كانوا في أيام الطوائف على دين عيسى ابن مريم، وكانوا في حكم ملك للروم يُسمّى دقيانوس يعبد الأصنام، فبلغه عن الفتية مخالفتهم لدينه، فطلبهم فهربوا منه، فاجتازوا براعي غنم، فأتبعهم بكلبه، فعلموه دينهم، وصاروا إلى ربّهم، فأوَاهم الليل إلى كهف، فقالوا: نبئت هنا الليلة ثم نصبح فنرى رأيّنّا، فضرَب الله على آذانهم فناموا، وتبعهم الملك فوجدهم في الكهف، فلم يُطق أحدٌ منهم دخوله، فبنى عليهم باب الكهف، ففتح الرّعاء بطول الزمان، فأقاموا فيه ما ذكر الله تعالى، ثم أحياهم الله تعالى بعد ثلاثمائة وتسع، فشكّروا: هل ناموا يوماً واحداً أو بعضه؟ ثم مسّهم الجوع،

فبعثوا أحدهم بورقٍ يشتري لهم طعاماً، ووَصَّوه أن يحترز حتى لا يشعر بهم أحد، فبدلَ عليهم فَيَحْمَلُوا إلى الملك الذي فرُّوا منه أمس فيما ظنوا، فيرجعهم أو يرجعوا إلى دينه، فلمَّا أتى باب المدينة، أنكر أن تكون هي التي خرج منها أمس في ظنه لأنها تغيَّرت بمرور بعد زمان عليها، فأنكر أهلها. ثم أخرج الدراهم ليشتري طعاماً، فقال له البائع: من أين لك هذه الدراهم؟ وأمسه، فقال: خرجتُ أمس مع أصحاب لي فازين من هذا الملك ودينه، فبتنا في كهفٍ، وأصبحنا اليوم، فأرسلوني لأشتري لهم طعاماً، فاستُرَ علينا، فحملة الرجل إلى ملك المدينة يسمع منه، وكان ملكاً صالحاً، نقصَّ عليه القصة، فركب الملك في جملة من الناس ليطلعوا على أمرهم، فدخل على أصحابه، فوجدهم قد عادوا إلى نومهم، فضرب الله على أذنه معهم، فدخل النَّاس فوجدوا أجساماً لا ينكرون منها شيئاً، وكأنهم مستيقظون يكلمونهم، غير أنها بغير أرواح، فقال لهم الملك: هذه آية الله إليكم، فبنوا عليهم مسجداً يصلون فيه.

* * *

فابْتَدَرَ لِعِظَمِ مِخْنَتِي، صَاحِبُ مِئْمَنَتِي، وقال: لَمْ أَخَافْ وَقَالَ مُيَامِنُهُ: كَبَّرَ رَجَاءَ أَجْرِ رَبِّكَ. وَقَالَ الَّذِي يَلِيهِ: مَنْ يَرُبُّ إِذَا بَرَّ يَنْمُ. وَقَالَ الْآخَرُ: سَكَّتْ كُلُّ مَنْ نَمَّ لَكَ تَكْسٍ.

وَأَفْضَتِ النَّوْبَةُ إِلَيَّ، وَقَدْ تَعَيَّنَ نَظْمُ السُّمُطِ السَّبَاعِيِّ عَلَيَّ فَلَمْ يَزَلْ فِكْرِي يَصُوعُ وَيَكْسِرُ، وَيُفْزِرُ وَيَغْسِرُ، وَفِي ضِمْنِ ذَلِكَ أَسْتَطْعِمُ، فَلَا أَجِدُ مَنْ يُطْعِمُ، إِلَى أَنْ رَكَدَ النَّسِيمُ، وَخَضَّحَصَ التَّسْلِيمُ، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي: لَوْ حَضَرَ السَّرُوجِيُّ هَذَا الْمَقَامَ، لَشَفَى الدَّاءَ الْعَقَامَ، فَقَالُوا: لَوْ نَزَلْتَ هَذِهِ بِإِيَّاسٍ، لِأَمْسَكَ عَلَى يَاسٍ. وَجَعَلْنَا نُفِيضُ فِي اسْتِضْعَابِهَا، وَاسْتِغْلَاقِ بَابِهَا، وَذَلِكَ الزَّوْرُ الْمُعْتَرِي يَلْحَظُنَا لِحَظِ الْمَزْدَرِيِّ، وَيُوَلِّفُ الدَّرَرَ وَنَحْنُ لَا نَذَرِي.

* * *

قوله: «لعظم محنتي» لعظم بليتي.

* * *

لَمْ: من اللوم. مَلَّ: من الملل. كَبَّرَهُ: عَظَّمَ الكبير، وقَدَّمَهُ على نفسه. يَرْبُ: يَصْلَحُ. بَرَّ: أَكْرَمَ. يَنْمُ: يَزِيدُ خَيْرُهُ، وترتفع منزلته ونَمَى الشَّيْءُ يَنْمِي وَيَنْمُو نَمَاءً، وَنَمَوُا وَنَمَيْتُ: زَادَ، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: نَمَيْتُ. حَدِيثُ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ أُنْمِيهِ، إِذَا بَلَغَتْهُ عَلَى وَجْهِ الْإِصْلَاحِ وَطَلَبِ الْخَيْرِ، وَفِي

الحديث: «قال خيراً أو نَمَى خيراً»^(١) أي أبلغ خيراً، أو رفعه، وكلُّ شيء رفعته .
 فقد نَمِيَّتْهُ . ورواية ابن ظَفَر: «مَنْ يَرْبَ إِذَا بَرَّ يَنْمَ»، أي إذا كان البرّ من الناس
 يمشي بالنميمة فمن يرب فعلاً جميلاً ويصلحه .
 تَكْسُ: تكن كَيْساً، والكَيْس: الناقد في أموره، وقيل العاقل . أفضت: وصلت .
 الثُّوبَة: الدولة . السُّمُط: الخيط يُعقد فيه اللؤلؤ .
 يَصُوغ: يصنع . يُثْرِى وَيَغْسُر، أي يستغني ويفتقر، أي يكثر الكلام مرّةً ويقلل أخرى .
 وفي ضمن ذلك، أي في أثنائه وفي مدته . أَسْتَطِعِم: أطلب طعاماً، هذا أصله،
 وتقول: أطمعت القاريء إذا وَقَفَ ففتحت عليه وأفتيته . واستطعم هو، إذا استدعي
 ذلك . عليّ رضي الله عنه: إذا استطعم الإمام فأطعموه، أي إذا أُرْتِجَ عليه فافتحوا له .
 ركذ النسيم: سكنت الريح، يعني كلامه حصحص: تبيّن . التسليم: الانقياد، أي
 انقدت للعجز عن الإتيان بها .
 المقام: الموقف . المُعَام: الشديد الذي لا يؤثّر فيه الدواء، بمنزلة الرجم العقيم،
 التي لا تؤثر فيها النطفة فلا تلد .
 إياس، تقدّم ذكره . واليأس: ضدّ الطمع .

ولما ذكر هنا إياساً ويأساً، نذكر فصلاً ذكره في الدرة على اللفظتين، قال:
 ويقولون: أشرف فلان على الإياس من طلبه، فيهمون كما وهم أبو سعيد السكّري، وكان
 من جلة النحويين، وأعلام العلماء المذكورين، فقال: إن إياساً سُمّي بالمصدر، من
 أيس، وليس كذلك - وإنما إياس عند المحققين مصدر آسَيْتُهُ، أي أعطيته، والمصدر منه
 الأوس، ومنه المواساة، فكانهم سمّوا إياساً بمعنى تسميتهم عطاء . ووجه الكلام أن
 يقال: أشرف على اليأس، لأنّ أصل الفعل منه يئس على فعل، قال الله تعالى: ﴿قَعِذْ
 يَسُوءًا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يئِسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [المتحنة: ١٣] فأما أيس بتقديم
 الهمزة فمقلوب من يئس واستدلّ شيخنا أبو القاسم بن المفضل النحوي على صحة ذلك
 بأن لفظة يئس، تساوي لفظة اليأس، الذي هو الأصل في نظم الصيغة، فتكون الياء
 مبدوءاً بها والهمزة مثنيّ بها بخلاف تنزلهما في أيس، فلهذا حكم على أيس أنها مقلوبة
 من يئس، والمقلوب لا يتصرف تصرّف الأصل ولا يكون له مصدر .

نفيض: نندفع بالكلام . المعترّي: القاصد . يلحظنا: ينظرنا بطرف عينه . استحقاراً
 منه لنا . المزدري: المحتقر . يؤلف: يجمع . الدّرر: جواهر الكلام .

(١) أخرجه البخاري في الصلح باب ٢، ومسلم في البر حديث ١٠٠، وأبو داود في الأدب باب ٥٠،
 والترمذي في البر باب ٢٦، وأحمد في المسند ٤٠٣/٦، ٤٠٤ .

فلَمَّا عثر على افتضاحنا، ونضوبِ ضَحْضَاحِنَا، قال: يا قومِ إِنَّ من العَنَاءِ
العَظِيمِ، استيلادَ العَقِيمِ، والاستشفَاءِ بالسَّقِيمِ، وفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ. ثُمَّ أَقْبَلَ
عَلَيَّ، وَقَالَ: سَأُنُوبُ مَنَابِكَ، وَأُكْفِيكَ مَا نَابَكَ؛ فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَنْثُرَ، وَلَا تَغْثُرَ، فَقُلْ
مَخَاطِبَا لِمَنْ ذَمَّ الْبُخْلَ، وَأَكْثَرَ الْعَذْلَ: لُذْ بِكُلِّ مُؤْمِلٍ، إِذَا لَمْ يَمَلِكْ بَذْلَ وَإِنْ
أُخْبِتَ أَنْ تُنْظِمَ، فَقُلْ لِلَّذِي تُعْظِمُ: [مجزوء الرجز]

أَسْ أَزْمَ—لَا إِذَا عَرَا	وَأَزَعَ إِذَا أَلَمَ—رُءَا سَا
أَسْنِذْ أَخَا نَبَاهَةٍ	أَبْنُ إِخْوَاءَ دَنْسَا
اسْلُ جَنَابَ غَاشِمٍ	مَشَاغِبٍ إِنْ جَلَسَا
اسْرِ إِذَا هَبَّ مَرَأُ	وَأَزِمَ بِهِ إِذَا رَسَا
اسْكُنْ تَقَوَّ فَعَسَى	يُسْعِفُ وَفَتْ نَكَسَا

* * *

عثر: أطلع. افتضاحنا: اشتهارنا بالعجز. نضوب ضحضاحنا: جفوف مائتا القليل.
الاستيلاد: طلب الولد، يقول: إِنَّ من تعب النفس طلب فائدة من ذهن كليل وقريحة
جامدة. نابك: نزل بك. تنثر: تقول نثراً. لُذْ: استتر به والجا إليه. مؤمل: مرجو لفعل
الخير. لَمْ: جَمَعَ المال. بَذْلَ: تَكَرَّم على غيره، وهذا اللفظ من المعكوس في النثر
بديع، فما ظنك بهذا النظم الرفيع الذي أَرَدَفَه عليه، فإنه من أشرف حسناته، رحمه الله!
قوله: «أَسْ» أعط، والأوس: العطية. أرملا: فقيراً أفنى زاده. عرا: قصد. ارع:
احفظ الصحبة. أسا: أتى بسوء، وأصله الهمز أساء فسهل الهمزة، يقول: إِنْ قَصَدَكَ فَقِيرُ
فَصَلِّهِ، وَإِنْ أَخْطَأَ عَلَيْكَ صَاحِبٌ فَلَا تَقْطَعْهُ، وارع حق الصحبة، ويقال: المرء بالهمز،
والمر بلا همز، وبترك الهمز يستقيم الانعكاس في بيت الحريري، ويقال: المرة، قال
دعبل: [البسيط]

واحفظ عشيرتك الأدنىين إِنَّ لَهُمْ حَقًّا يَفْرُقُ بَيْنَ الزَّوْجِ وَالْمِرَّةِ^(١)

وهذا البيت الذي فسرناه وما بعده من الأبيات تقرؤه إن شئت من أوله، وإن شئت
من آخره. وجعل هذا التَّمْطِ في عكس الحروف توطئة لما يذكر في المقامة بعد هذا في
الرسالة القهقرية، من عكس ألفاظها، من أولها إلى آخرها إلا أَنَّ ذلك العكس بالألفاظ
وهذا بالحروف، وكلاهما غاية في بابه، وإنما يذكر الأدباء هذا استملاحاً في كلامهم،
وامتحاناً لخواطِرهم.

* * *

[أمثلة من التصحيف وقلب الكلام]

ونريد أن نذكر هنا فصلاً مما يوافقه أو يقاربه على ما شرطناه؛ فمن ذلك أن بعض الأدباء اتهم صاحباً له بسعاية في جانبه فكتب إليه في المجلس: ساءك نم، فنظره الذي وشى به، فكتب إليه: صحّفه واقلب، فهو والله ما نطق به على لسانك، من بغيك وعدوانك، وهو مقلوب مصحف: منك أتيت، فتضحكا وتصافيا.

وكتب بعضهم إلى خازن السلطان: [السريع]

قد أَقْبَلَ الشهرُ وإقبالُهُ يأتي بما أجرى تَرْزِيْبُهُ
فوجه البرِّ ومقلوبه يَجْزِيْكَ عن بَرِّكَ مقلوبُهُ

وكتب بعض الظرفاء إلى صاحب له وهو مقلوب مصحف: ظبي شراب خشن. فإذا قرأته على الولاء من آخره بعد القلب والتصحيف جاء منه: حُسْن شراب طيّب.

ومن أنواع المعميات التصحيف، ومثاله: أنّ إبراهيم بن المهدي كتب إلى إسحاق الموصلي: لا يرتج مثل الأسّة، فكتب إليه إسحاق. لا يرتج جميل إلا بثينة.

وقال أبو الجهم بن الأنباري للحسن بن وهب: ما تصحيف: كلني يمينك فبعني بحبتين، فقال: كل شيء منك في عيني حسن.

وغاب صديق عن صديق له، فلمّا لقيه قال له: عنّ تعبي، فجأوبه: زرعنا يزداد حباً، فالأول قال: غبت عني، والثاني قال: زرغباً تزداد حباً.

وذكر في بعض مجالس الأدب التصحيف، فقال فتى شاب: أنا ابن بجدته، فقال بعضهم: ما تصحيف: نصحت فحشي، فقال: تصحيف حسن، فاستغرب إسراعه، فاتهمه شاعر من بلنسية، فقال: ما تصحيف بلنسية؟ فأطرق ساعة، ثم قال: أربعة أشهر، فقال له البلنسي: صدق ظني إنك تنتحل ما تقول ويحك! والفتى يضحك، فقال له: اشعر، فإنك شاعر، فقال: وأي نسبة بين أربعة أشهر وبلنسية؟ فقام وهو يقول: هو ذاك؛ ثم تنبه بعد انصراف الفتى بعض مَنْ حضر، فنظر فإذا أربعة أشهر ثلاث سنة، وهو تصحيف بلنسية، فخجل المنازع، ومضى إلى دار الفتى معتذراً.

كتب بعض وزراء ابن عبّاد إليه يتسخط الإخوان هذا البيت: [الكامل]

وإذا صفا لك من زمانك واحدٌ فهو المراد، وأين ذاك الواحد!

فوقع في الكتاب: وأين ذاك الواحد؟ صحف تعرف: فلمّا قرأه الوزير طار سروراً، ومثل بالبساط فلثمه بين يديه، وإنما صحف، وأين، فجاء منه: وأنت، فردّ عليه من كلامه أبلغ جواب.

ومن ملح ابن عبّاد في التصحيف، أنه خرج في جملة وزرائه الأدباء، فاجتازوا

بإشبيلية بالموضع الذي يباع فيه الجير والجبس، فلقِيَ هناك جارية من أحسن الناس وأقلهم حياءً. فأقبل ابن عباد على ابن عمار، وقال: يا ابن عمار الجيارين، فقال ابنُ عمار: يا مولاي والجباسين، فعلم مَنْ حضر أنهما لم يريدَا أن يعرف كل واحد منهما صاحبه بما ذكر، فبحثوا عن مرادهما، فلم يعرفوه، فسألوا: ابن عمار، فقال له ابنُ عباد: لا تبعها منهم إلا غالية. ثم إن ابن عمار أخبرهم أنَّ ابن عباد أعجبه حسن الجارية، وعابها بقلّة الحياء، فصَحَّف «الجيارين»، فجاء منه «الحيازين» وصَحَّفَت أنا «الجباسين»، فجاء منه «الخناسين»، فاستغربوا حضور أذهانهما وحسن كنايتهما.

أين هذه الأذهان من رجل مغفل، كان له ابنُ يُسمَّى حسناً مسافراً، فاستفتح المصحف يتفأل له في القدوم، فخرج له «وَحُسْن مآب»، فترك التيامن بهذا اللفظ لماب الفتى سالماً، وقال: تصحيف «حسن مآب»: «حسن مات»، فاستدعى أم الفتى وخدمه، ونعاه لهنّ فأقمن مناحةً، وجاء الجيران والقراة يتطلعون حادثتهم، فهو يخبرهم بما تصحّف له، والفتى داخل قد أقبل في أغبط حال وأسرّها، فاستحمق وصار مثلاً.

قوله: «أسند» أضفه إليك وقربه منك. نباهة: رفعة. أبْن: باعد. دنس: عيب. يقول: صاحب مَنْ يشرفك بذكره الجميل، وباعد من يدنس عِرْضك وتعايب به.

[مما قيل في الصديق]

وقد قيل: الصاحب رُفعة في الثوب، فلينظر الإنسان ما يرقّع به ثوبه.

قال ابن رشيق: [المنسرح]

أصبح ذوي القَدْرِ واستعدّ بهم	وعَدَّ عن كلّ ساقط سَفِلَة
فصاحبُ المرء شاهدٌ ثِقَة	يقضي به غائباً عليه ولَه
ورُفعة الثوب حين تَلَبَّسُه	شهرة أو تكون مشتكلة

وفي الحديث: «الأنفس أجناد مجنّدة، وإنها لتشام في الهوى كما تشام الخيل فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»^(١).

ونظم هذا الحديث أبو نواس فقال: [البسيط]

إنّ القلوب لأجنادٌ مُجَنَّدَة لله في الأرض بالأهواء تعترفُ^(٢)

(١) أخرجه بلفظ: «الأرواح جنود مجنّدة»: البخاري في الأنبياء باب ٢، ومسلم في البر حديث ١٥٩، ١٦٠، وأبو داود في الأدب باب ١٦، وأحمد في المسند ٢/٢٩٥، ٥٢٧، ٥٣٧.

(٢) البيتان في ديوان أبي نواس ص ٤٠٨.

فما تعارف منها فهو مؤتلفٌ وما تناكر منها فهو مختلفٌ
وقال طرفه - أو عدي بن زيد: [الطويل]

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه وقال أبو العتاهية: [الرجز]

أصحب ذوي الفضل وأهل الدين فالمرء منسوب إلى القرين
وقال الخالدي: [الكامل]

وإذا أزدت ترى فضيلة صاحب فانظر بعين البحث من ندمائه
فالمرء مطوي على علاته وطى الكتاب وصحبه عنوانه
ومما يروى لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: [الهمزج]

فلا تضحَب أخا السوء وإيـاك وإيـاه^(١)
فكم من جاهل أودى حليماً حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه
وفي الناس من الناس مقاييس وأشباه
وفي العين غنى للعين من أن تنطق أفواه
وللقلب على القلب وقال ابن رشيـق: [مجزوء الكامل]

اختر لنفسك من تعا دي كاختيارك من تصادق
إن العدو أخو الصديق وإن تخالفت الطرائق

قوله: «اسل جناب غاشم» يريد جانب منزل ظالم، ولا تقر به. وسلوث يتعدى بعن
وبنفسه، تقول: سلوث عنه، وسلوته وسليته.

وقال الأسود بن يعفر: [الطويل]

فأقسمت لا أشريه حتى يملني بشيء ولا أسليه حتى يفارقا^(٢)

(١) البيت الأول بلا نسبة في الدرر ٣/١٢٠، وجمع الهوامع ١٧/١.

(٢) يروى البيت:

فأليست لا أشريه حتى أمله بشيء ولا أملاه حتى يفارقا

وهو للأسود بن يعفر في ديوانه ص ٥٣، والأزمنة والأمكنة ٢٥٧/١، والمحتسب ١٥٧/١، وتاج
العروس (سلي)، ونوادر أبي زيد ص ٤٤، وبلا نسبة في شرح شواهد الشافعية ص ٤٤١.

قوله: «مُشاغب» مسارع للشر. هبّ: تحرك. مراء: جدال، ومعنى «اسرّ» اكشف وأزّل، يقول: إذا تعلّق بك وهبّ عليك جدال من صاحب فاكشفه عن نفسك بالمناصحة، وباعد المراء. وتقول: سرّيت الثوب عني، وسريته، إذا كشفته، قال ابن هرمة: [الطويل]

* سرى ثوبه عني السرى المتخايل^(١) *

ومنه سُرّي عن الرجل أي كشف عنه ما كان يجده من الغم والغضب، وقد يكون معنى «اسرّ» باعد وفارق من السُرّي، وهو سير الليل، فيقول: فارق موضع الجدال وباعده. رسا: ثبت، أي إذا سكن الخلاف بين القوم فازم أنت به واركه، ويروى: «اسرّ» بالضم، أي كن سرياً، أي سيداً ذا مروءة، إذا هاج الجدال بين القوم فباعده.

وقال سابق البريري: [البيط]

لا تنفعن لجوجاً حين تزجره إنّ اللّجوج له في المال إغراء
وأغض في حسن عفو عن نوادره فالحرّ فيه عن الآفات إغضاء

[المراء والجدال]

والمراء مدافعة الحق وترك الانقياد، لما ظهر منه، وقد يستعمل بمعنى الجدال، فمن جادل ليظهر باطلاً فجداله محظور.

وفي الحديث: «من ترك الجدال مُحِقّاً بنى الله له بيتاً في الجنة»^(٢).

وقال ميمون بن مهران: لا تمار من هو أعلم منك إنه يختزن عنك علمه ولم تضره شيئاً.

وقال لقمان لابنه: من لا يملك لسانه يندم، ومعنى يكثر المراء يُشتم، ومن يدخل مداخل السوء يتهم. يا بني لا تمار العلماء فيمقتوك.

وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن وقال بلال بن مسعدة: إذا رأيت الرجل لجوجاً ماريأً معجباً بنفسه فقد تمت خسارته.

(١) يروى البيت بتمامه:

سرى ثوبه عنك الصبا المتخايلُ وودّع للبين الخليط المتزائلُ

وهو في ديوان ابن هرمة ص ١٦٦، ولسان العرب (خيل)، (سرا)، وتهذيب اللغة ٥٤/١٣، ومقاييس اللغة ٣/١٥٤، وتاج العروس (خيل)، (سرو).

(٢) أخرجه بنحوه أبو داود في السنة باب ٤.

ولمسعر بن كدام يخاطب ابنه: [الكامل]

إني منحتك يا كدام نصيحتي فاسمع لقول أبي، عليك شفيق^(١)
أما المزاحاة والمراء فدعهما خلُقان لا أرضاهما لصديق
إني بلوثتهما فلم أخترهما لمجاور جارٍ ولا لرفيق
قوله: «اسكن» الزم السكون والوقار. تقوّ: أراد تتقوى، يسعف: يساعد ويوافق.
نكس: قصر بك، يقول: لا تبادر إلى الجدال، والزم السكون، حتى يتقوى نظرك،
ويظهر لك صوابك، فعسى يوافقك على الإصابة بحسن التدبير وقت كان يصرفك عن
الصواب، لو التزمت الجدال.

ومن أعاجيب ابن الرومي قوله في ذم الجدال: [الكامل]

لأولي الجدال إذا غدوا لجدالهم حجج تضل عن الهدى وتجور
وهن كآنية الزجاج تصادمث فهوت وكل مكاسر مكسور
فالقائل المقتول ثم لوفيه ولضعفه، والأسر المأسور

وقال من شعر يمازح صديقاً له: [السريع]

لكن في الشيخ غريزية يخاصم الله بها في القدر
ما كان لم كان وما لم يكن لم يكن فهو كئيل البشر

قال: فلما سحرنا بآياته، وحسرنّا ببُعْدِ غَايَاتِهِ، مدّخناه حتى استغفَى،
ومَنّخناه إلى أن استكفَى.

ثم سَمَرَ ثِيَابَهُ، وَازْدَقَرَ جِرَابَهُ، وَنَهَضَ يُنْشِدُ: [الكامل]

لله درّ عصّابة صدق النقال مَقَالاً
فأقروا الأنام فضائلاً مأثورة، وفواضلاً
حاورتهم فوجذت سخا بأن لديهم باقلاً
وحللت فيهم سائلاً فلقيت جوداً سائلاً
أقسمت، لو كان الكبرا مُحياً، لكأثوا وإبلاً

قوله: «سحرنا» تركنا مسحورين. بآياته. بعجائبه، يقال: إن فلاناً آية من الآيات،

(١) الأبيات في حماسة البحري ص ٥٣.

أي عجب من العجائب. حسرنا: قطعنا وأكلنا. والغاية: الطَّلَق، يريد أنا كلنا في الغايات التي جرى فيها لبعدها؛ ويريد اتساعه في الكلام.

استعفى: قال: عافوني منه. منحناه: أعطيناه. استكفى: قال: يكفيني. ازدفر: حمله على ظهره، والزفر الجملُ على الظهر. جرابه: وعاء خبزه. عصابة: جماعة. صدق المقال، أي صادقين في قولهم، وصدق جمع صدوق، وعدل عن صدوق على جهة المبالغة في صدقة. مقالوا: ملوكاً. فاقوا: فضلوا، وزادوا عليهم. فضائلاً: جمع فضيلة، وهي ما تفضل به غيرك من الأفعال المحمودة مأثورة: متحدث بها.

فواضلاً: عطايا وأيادي، الواحدة فضيلة، وفواضل المال: ما يأتيك من مرافقتك وعكسه.

ومن كلام العرب: إذا عذب المالَ قلتَ فواضله، أي قلَّ انتفاع ربِّ الإبل بلبنها إذا بعدت، قال الشاعر:

سأبغيك مالاً بالمدينة إنني أرى عازبَ الأموال قلتَ فواضله^(١)
قوله: «حاورتهم» خاطبتهم.

* * *

[سحبان وائل]

سحبان فصيح العرب، وهو سحبان بن زفر بن إياس بن عبد شمس الوائلي من وائل باهلة، وكان من فصحاء العرب وبلغائها، وبه يضرب المثل في البيان والفصاحة، فيقال: أفصح من سحبان.

ودخل عند معاوية وعنده خطباء القبائل، فلما رأوه خرجوا لعلمهم بقصورهم عنه، فقال: [الطويل]

لَقَدْ عَلِمَ الْحَيَّ الْيَمَانُونَ أَنَّنِي إِذَا قُلْتُ أَمَّا بَعْدُ أَنَّنِي خَطِيبُهَا^(٢)

فقال له معاوية: اخطب، فقال: انظروا لي عصاً، فقالوا: وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين؟ قال: وما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربّه! فأخذه في يده، فتكلّم من الظهر إلى أن كادت صلاة العصر تفوت، ما تنحنج ولا سعل، ولا توقّف ولا ابتدأ في معنى، فخرج منه وقد بقيت عليه فيه بقية، ولا مال عن الجنس الذي يخطب فيه، فقال معاوية: الصلاة! فقال: الصلاة أمامك، ألسنا في تحميد وتمجيد، وعظة وتنبيه،

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (فضل)، وتهذيب اللغة ٤١/١٢.

(٢) البيت لسحبان وائل في خزانة الأدب ٣٦٩/١٠، ٣٧٢، وبلا نسبة في تخلص الشواهد ص ٢٤٨، وخزانة الأدب ٣١٥/١، ٣٧/١١، ولسان العرب (سحب).

ووعده ووعد! فقال له معاوية: أنت أخطب العرب، فقال: العرب وحدها! بل أخطب
الإنس والجن، فقال له معاوية: كذلك أنت.

وهو أول من قال: أما بعد، وأول من آمن بالبعث من الجاهلية، وأول من توكأ
على عصا، وعُمر مائة وثمانين سنة، وهو القائل يمدح طلحة بن عبيد الله، وهو طلحة
الطلحات الخزاعي فقال فيه: [مجزوء الكامل]

يا طَلَحَ أَكْرَمَ مَنْ مَشَى حَسْباً وَأَعْطَاهُمْ لِتَالِدٍ^(١)
مَنْكَ الْعَطَايَا فاعْطِنِي وَعَلَيَّ مَدْحُكَ فِي الْمَشَاهِدِ

فقال له طلحة: احتكم، فقال: بِرِذْوَنِكَ الْوَرْدُ، وفصرك بِزَرْئِجٍ، وغلأمك الخباز،
وعشرة آلاف درهم، فقال له: أَفْ أَفْ لَكَ! لَمْ تَسْأَلْنِي عَلَى قَدْرِي، إنما سألتني على
قَدْرِكَ وَقَدَّرَ بَاهِلَةٌ، والله لو سألتني كُلَّ قَصْرِ لِي وعبد ودابة لأعطيتك.

[باقل]

قوله: «باقلا»، هو من إياد، قيل من بني مازن. وقال حُميد الأرقط في وصف
ضيف أكثر من الطعام: [الطويل]

أَتَانَا وَمَا دَانَاهُ سَحْبَانٌ وَائِلٌ بَيَاناً وَعِلْماً بِالَّذِي هُوَ قَائِلٌ^(٢)
فَمَا زَالَ عَنْهُ اللَّفْمُ حَتَّى كَأَنَّهُ مِنَ الْعِيِّ لَمَّا أَنْ تَكَلَّمَ بِاقِلٌ

والعرب تقول: إِنَّهُ لِأَعْيَا مِنْ بَاقِلٍ، ومن عَيْهِ أَنَّهُ اشْتَرَى ظَبِيّاً، فحمله على عُنُقِهِ،
فَسُئِلَ عَنْ ثَمَنِهِ، فَحَلَّ عَنْهُ يَدَيْهِ وَفَتَحَ أَصَابِعَهُ، وَأَشَارَ بِهَا - وَأَخْرَجَ لِسَانَهُ - يريد أنه بأحد
عشر درهماً، ولم يَلْهَمْ أَنْ يَخْبِرَ عَنْ سُومِهِ بِلِسَانِهِ - وَلَمَّا غُيِّرَ بِاقِلٌ بِفَعْلِهِ قَالَ: [المتقارب]

يَلْسُومُونَ فِي عَيْهِ بِاقِلاً كَأَنَّ الْحِمَاةَ لَمْ تُخْلَقِ
فَلَا تَكْثُرُوا الْعَتَبَ فِي عَيْهِ فَلَلْعَيِّ أَجْمَلُ بِالْأُمُوقِ
خُرُوجَ اللِّسَانِ وَفَتْحَ الْبَنَانِ أَخْفَ عَلَيْنَا مِنَ الْمَنْطِقِ

الأموق: الأحمق. قوله: «حللت» نزلت. سائلاً: طالباً معروفاًهم جوداً: كرمأ.
سائلاً: جارياً. حياً: مطراً كثيراً.

وَالْوَابِلُ: أَشَدُّ الْمَطَرِ، يريد أنهم كانوا يزدون عليهم في الفضل.

(١) البيتان لسحبان بن وائل الباهلي في لسان العرب (طلح)، والتنبيه والإيضاح ٢٥٦/١ (البيت الأول فقط)، وتاج العروس (طلح).

(٢) البيتان لحُميد الأرقط في لسان العرب (بقل)، وتهذيب اللغة ١٧٢/٩، وتاج العروس (بقل).

ثُمَّ خَطَا قَيْدَ رُمَحَيْنِ، وَعَادَ مُسْتَعِيدًا مِنَ الْحَيْنِ، وَقَالَ: يَا عِزُّ مِنْ عَدِمِ الْآلِ،
وَكُنْزٌ مِنْ سُلْبِ الْمَالِ، إِنَّ الْغَاسِقَ قَدْ وَقَبَ، وَوَجْهَ الْمَحْجَّةِ قَدْ انْتَقَبَ، وَبَيْنِي وَبَيْنَ
كِنْيَ لَيْلٍ دَامِسٍ، وَطَرِيقٍ طَامِسٍ، فَهَلْ مِنْ مِضْبَاحٍ يُؤْمِنُنِي الْعِثَارَ وَيُبَيِّنُ لِي الْآثَارَ؟

* * *

خطا: مشى ونقل خطاه. قيد: قُدر. مستعيداً: مستجيراً. الحين: الموت. عديم
الآل: فقد الأهل، يقول: أنتم عزٌ لمن فقد أهله، وكُنْزٌ لِمَنْ أَخَذَ مَالَهُ. الغاسق: القمر.
عائشة رضي الله عنها قالت: نظر النبي ﷺ إلى القمر، فقال: «يا عائشة استعيذي
بالله مِنْ شَرِّ هَذَا، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ»^(١)، يعني مِنْ شَرِّهِ إِذَا كَسَفَ. ووقب
القمر: يقبُ وقوباً: دخل في الظلام الذي يكسفه، وكلُّ ما غاب فقد وَقَبَ. المحجّة:
الطريق. انتقب: استتر، وجعل من الظلام نقاباً. وكُنْيَ: منزلي. دامس: مظلم. طامس:
دارس؛ لأن الظلامَ لَمَّا غَطَاهُ كَأَنَّهُ مَحَاهُ. الآثار: الطرق التي أثر فيها المشي.

* * *

[مما قيل في الشمع]

قال الصابي في شمعة، وذكر هذا المعنى: [البسيط]

وليلةٍ من محاق الشَّهر مُدْجِنةٍ لا النجمُ يهدي السُّرى فيها ولا القمرُ
كلَّفت نفسي بها الإدلاجَ ممْتَطِياً عزمًا، هو الصَّرام الصَّمْصامة الذَّكْرُ
إلى حبيبٍ له في النَّفس منزلة ما حلَّها قَبْلَهُ سَمْعٌ ولا بَصَرُ
ولا دليل سوى هيفاء مخطِفةٍ تَهْدِي الرُّكَّابَ وَجُنْحَ اللَّيْلِ مَعْتَكِرُ
غصن من الذَّهب الإبريز أثمر في أعلاه ياقوتة صفراء تستعرُ
تأتيك ليلاً كما يأتي المريبُ فإنَّ لاح الصَّبَّاح طوتها دُونَهَا الْجَدْرُ
وقال آخر في مثله: [الطويل]

لنا شمعة نيطت ذراها بشعلة كَحَقَّةٍ تَبْرُ عُلْقَتْ بِلِسَانِهَا
إذا عَثَرَ الساري بذيلٍ من الدُّجا نحرنا له قلب الدَّجَى بِسَنَانِهَا
تفك قيود اللَّيْلِ عن كل زائرٍ فتجري بها الرُّجُلَانِ مَلءُ عِنَانِهَا
إذا ما أَحْسَتْ بالصباح تمارضت كَنَرَجَسَةٍ قَدْ أَذْبَلَتْ بِمَكَانِهَا
تموت إذا ما قَبِلَتْ خدَّ حائطٍ فتثبَّتْ خِلا فَوْقَهُ مِنْ دُخَانِهَا

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورتي ١١٣ و ١١٤، باب ١، وأحمد في المسند ٦/٦١، ٢٠٦، ٢١٥،

كَأَنَّ الْجِرَادَ امْتَصَّ جَوْهَرَ رُوحِهَا وَلَمْ يَمْتَنِعْ مِنْهَا سَوِيدَا جَنَانِهَا
وَقَالَ التَّمَرِّي: [الْمُقَارِب]

وَلَمَّا دَجَا اللَّيْلُ مَزَقَتْهُ بِرُوحٍ يَنْحُفُ جِثْمَانُهَا
بِشَّمْعٍ أَعِيرَ قَدُودَ الرِّمَاحِ يَحَاكِي ذَرَاهَا وَأَلْوَانِهَا
غُصُونٍ مِنَ التَّبَرِّ قَدْ رَكَّبَتْ لَهِيْبًا يَزِينُ أَفْنَانِهَا
فِيَا حَسَنَ أَرْوَاحِهَا فِي الدَّجَى وَقَدْ أَكَلَتْ فِيهِ أَبْدَانِهَا

قَالَ: فَلَمَّا جِيءَ بِالْمَلْتَمَسِ، وَجَلَّى الْوُجُوهَ ضَوْءُ الْقَبَسِ، رَأَيْتُ صَاحِبَ صَيْدِنَا، هُوَ أَبُو زَيْدِنَا.

فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي: هَذَا الَّذِي أَشْرْتُ إِلَى أَنَّهُ إِذَا نَطَقَ أَصَابَ، وَإِنْ اسْتُمْطِرَ صَابَ.

فَأَتَلَعُوا نَحْوَهُ الْأَغْنَاقَ، وَأَخَذُوا بِهِ الْأَحْدَاقَ، وَسَلَّوْهُ أَنْ يُسَامِرَهُمْ لَيْلَتُهُ، عَلَى أَنْ يَجْبُرُوا عَيْلَتَهُ. فَقَالَ: حُبًّا لِمَا أَحْبَبْتُمْ، وَرُحْبًا بِكُمْ إِذْ رَحَّبْتُمْ، غَيْرَ أَنِّي قَصَدْتُكُمْ وَأَطْفَالِي يَتَضَوَّرُونَ مِنَ الْجُوعِ، وَيَدْعُونَ لِي بِوَشْكِ الرُّجُوعِ، وَإِنْ اسْتَرَأْتُونِي خَامَرَهُمُ الطَّيْشُ، وَلَمْ يَصْفُ لَهُمُ الْعَيْشُ، فَدَعُونِي لِأَذْهَبَ فَاسِدًا مَخْمَصَتَهُمْ، وَأَسِيغَ غُصَّتَهُمْ، ثُمَّ أَنْقِلِبَ إِلَيْكُمْ عَلَى الْأَثَرِ، مُتَاهِبًا لِلْسَّمْرِ إِلَى السَّحَرِ.

فَقُلْنَا لِأَحَدِ الْعِلْمَةِ: اتَّبِعْهُ إِلَى فِتْنَتِهِ، لِيَكُونَ أَسْرَعَ لِفَيْتَنَتِهِ، فَاَنْطَلَقَ مَعَهُ مُضْطَبِنًا جِرَابَهُ، وَمُحْتَجِحًا إِيَابَهُ.

قَوْلُهُ: «الْمَلْتَمَسُ»، أَيِ الْمَطْلُوبِ وَهُوَ الْمَضْبَاحُ، وَالْقَبَسُ ضَوْءُهُ. جَلَا: كَشَفَ. صَاحِبُ صَيْدِنَا، أَيِ الَّذِي اصْطَادَ أَمْوَالَنَا. اسْتُمْطِرَ: سُئِلَ الْمَطَرُ. صَابَ: وَقَعَ وَقَعًا شَدِيدًا، وَكُنِيَ بِالْمَطَرِ الصَّوْبُ عَنِ الْعِلْمِ الْكَثِيرِ. أَتَلَعُوا: مَدَّوْا، وَأَتَلَعَ الرَّجُلُ: نَصَبَ عُنُقَهُ وَمَدَّهَا، وَتَطَاوَلَ لِيَنْظُرَ شَيْئًا. أَحَدَقُوا: حَلَقُوا وَأَحَاطُوا، وَالْأَحْدَاقُ: سَوَادُ الْعَيْنِ الْأَعْظَمِ. عَيْلَتُهُ: فَقَرُهُ يَتَضَوَّرُونَ. يَصِيحُونَ. ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: وَقَوْلُهُمْ: تَرَكْتَهُ يَتَضَوَّرَ، مَعْنَاهُ يَظْهَرُ الضَّرُّ الَّذِي وَقَعَ بِهِ بِالتَّقْلُقِ وَالْاضْطِرَابِ وَالصِّيَاحِ، فَيَتَضَوَّرُ، يَتَفَعَّلُ مِنَ الضُّوْرِ، وَالضُّوْرُ بِمَعْنَى الضَّيْرِ، وَيُقَالُ: ضَرَّنِي يَضُرُّنِي ضَرًّا، وَضَارَنِي يَضِيرُنِي وَيَضُورُنِي ضَيْرًا وَضُورًا

بمعنى. وشك: سرعة. استراثوني: استبطوني. خامرهم: خالطهم. الطيش: الخفة وذهاب العقل من الجوع. أسد مخمصتهم: أزيل جوعهم. والغصة: ما يُخَنَّق به وإساعتها: تسهيلها حتى تبتلع. انقلب على الأثر، أي في الحين وفي الطريق الذي أمضى فيه. أرجع: أمشي على أثري فيه مسرعاً، قبل أن يمشي غيري فيغيره، فهذا معنى أنقلب على الأثر. متأهباً: مستعداً. فيثته: رجوعه. مضطرباً: حاملاً على ضيقه وهو خضره. محثحثاً: معجلاً. إياه: رجوعه.

فأبطأ بظناً جاوز حدّه، ثم عاد الغلام وحده، فقلنا له: ما عندك من الحديث عن الخبيث؟

فقال: أخذني في طرقٍ مُنْعِيَةٍ، وسُبلٍ مُشْعَبَةٍ، حتّى أفضينا إلى دُوَيْرَةِ خَرِبَةٍ، فقال: ها هنا مُناخِي، ووكُرُ أفرَاحِي. ثم استفتح بابهُ، واختلج مِنِّي جِرابُهُ، وقال: لَعَمْرِي، لَقَدْ خَفَقْتُ عَنِّي، واستوجبتُ الحُسْنَى مِنِّي، فهَاكَ نصيحةٌ هي من نفائس النَّصَائِحِ، ومغَارِسِ الْمَصَالِحِ، وأنشد: [المقارب]

إذا ما حَوَيْتَ جَنَى نَخْلَةٍ	فلا تَقْرَبْنِهَا إِلَى قَابِلِ
وَأَما سَقَطَتْ عَلَى بَيْدَرِ	فَحَوِّصِلْ مِنَ السُّبُلِ الْحَاصِلِ
وَلَا تَلْبِثَنَّ إِذَا مَا لَقِطْتَ	فَتَنْشَبَ فِي كِفَّةِ الْحَابِلِ
وَلَا تُوَعِّلَنَّ إِذَا مَا سَبَخَتْ	فَإِنَّ السَّلَامَةَ فِي السَّاحِلِ
وَخَاطِبَ بَهَاتٍ، وَجَاوِبَ بِسَوْفَ	وَبِعَ آجِلًا مِنْكَ بِالْعَاجِلِ
وَلَا تُكْثِرَنَّ عَلَى صَاحِبِ	فَمَا مِلَّ قَطُّ سِوَى الْوَاصِلِ

الخبيث، قال أبو الهيثم: الخبيث: الذكر من الشياطين وجمعه خُبث. أبو عبيدة: الخبيث: ذو الخُبث في تفسيره. متشعبة: متفرقة، وتشعب الطريق: خرجت منه شعب إلى كل جهة، أي طرق آخر، فأراد أنه خلط عليه بحيث لا يهتدى إلى منزله، فكان يخرج من طريق إلى طريق. أفضينا: وصلنا، وهو من الفضاء. مناخي: منزلي، وأصله موضع إناخة البعير. وكر أفراحي: عش أولادي. استفتح: ضرب وقال: افتحوا الباب. اختلج: أخذ بسرعة. جرابه: وعاء زاده. الحسنى: الفعل الحسن. هاك: خذ الثقاس: الذخائر: الرقاع. مغارس: مواضع يُغرس فيها. المصالح: جمع مصلحة، مفعلة من الصلاح. حويت: جمعت وحزت. جنى نخلة: هو التمر. بيدر: أندر الزرع، يسمى بالشام أندر، وبالعراق بيدر. حوِّصِلْ: اجعل في حوصلتك وهي للطائر في الأصل.

كُفَّة: شبكة. الحابل: الصائد. تُوْغِلُنْ: تكثُرْنَ الدخول. سَبَحَتْ: عَمَتْ. السَّاحِل: ما وَلِيَ الماء من الأرض، وهو فاعل بمعنى مفعول، لأنَّ الماء سحله أي قشره وأخذ عشبه، كما تُسَحِّل الحديدَ بالمبرد، أي تبرّد بالمبرد، والسُّحَالَة: ما سَقَطَ من المسحول.

وخطب بهات: عكس قول صاحب، وقد أهدى إليه العميري قاضي قزوين هدية وكتب معها: [الخفيف]

العميري عبد كافي الكفاة ومن اعتد في وجوه القضاة
خدم المجلس الرفيع بكتب مُفَعَّمَاتٍ من حسناتها مترعات
فوقع تحتها: [الخفيف]

قد قبلنا من الجميع كتاباً ورددنا الوقتها الباقيات
لستُ أستغنم الكثير فطبعي قول خذ، ليس مذهبي قول هات
قوله: «آجلاً» ضد عاجل. وقوله: «ولا تكثرن على صاحب»، أي لا تكثر من الزيارة وأقللها خشية الملل. وروى قدامة بن جعفر أنَّ رجلاً كتب إلى آخر: إن رأيت أن تحدد لي موعداً لزيارتك أتوقّته إلى وقت رؤيتك فيؤنسني إلى حين، فافعل.
فأجابه الآخر: أخاف أن أعدك وعداً يعرض دون الوفاء به ما لا أملك دفعه، فتكون الحسرة أعظم من الفرقة.

فأجابه: إنما أسر بموعدهك، وأكون جذلاً بانتظارك، فإن عاق عائق عن إنجاز وعدك، كنت قد ربحت السرور لما أحبه، وأصبحت أجري على الحسرة بما حرمته.

[مما قيل في الزيارة والزوار]

ولبعضهم: [الطويل]

أتى زائراً من غير وعدٍ وقال لي أجلك عن تعذيب قلبك بالوعد
ومما جاء في قصر الزيارة قول أبي الشيص: [السريع]
يا حَبْذا الزُّور الذي زارا كأنه مقتبس ناراً
نفسي فداءً لك من زائر ما حلّ حتى قيل قد سارا
مرّ بباب الدار فاجتازها ياليتّه لو دخل الدارا!

وأشد الحاتمي والوكيعي لجحظة: [الوافر]

يأبى من زارني مكتماً خائفاً من كل حس جزعاً
حذراً دلّ عليه نوره كيف يخفى الليل بداراً طلعاً
رصد الخلوة حتى أمكنت ورعى السامر حتى هجعا

كابد الأهوال في زورته
وقال العباس بن الأحف: [الخفيف]

سألونا عن حالنا كيف أنتم
ما أناخوا حتى ارتحلنا فما نف
وقال محمد بن أمية الكاتب: [الخفيف]

يا فراقاً أتى بعقب فراق
حين حطت ركابهم لتلاق
إن نفسي بالشام إذ أتت فيها
أشتهي أن ترى فؤادي فتذري
واتفاقاً جرى بغير اتفاق
زمت العيس منهم لانطلاق
ليس نفسي نفسي التي بالعراق
كيف وجدي بهم وكيف احتراقي

[طيف الخيال]

ومن الزوار طيف الخيال، وهو في الشعر الجاهلي والمولّد كثير، وسنذكر منه شيئاً
يُسْتَحْسَن إن شاء الله تعالى، قال قيس بن الخطيم. [الكامل]

أتى سربت وكنت غير سروب
ما تمنعي يقظي فقد تؤتينه
وقال أبو الفرج الكاتب: [الوافر]

خيالك كان أعرف بالعرام
فلو يستطيع حين حضرت نومي
وقال المرتضى: [الوافر]

وزور زارني والليل داج
يريني أنه ثانٍ وسادي
نعمتُ بباطل، ويود قلبي
وقال أيضاً: [المقارب]

وزور تخطى جنوب الملاء
فناديت: أهلاً بذا الزائر

(١) البيتان لقيس بن الخطيم في ديوانه ص ٥٥، والبيت الأول في لسان العرب (سرب)، والتنبيه والإيضاح ٩٣/١، وجمهرة اللغة ص ٣٠٩، وأما القالي ٢٧٣/٢، وتاج العروس (سرب). وأما المرتضى ٣٩٣/١، وسمط اللآلي ص ٥٢٤، وبلا نسبة في مقاييس اللغة ١٥٦/٣، ومجمل اللغة ١٣٧/٣.

أتاني هدوء وعين الرقيب
بمطروفة بالكري الغامر
وأحب به يسعف الهاجعين
وتحرّمه مقلّة الساهر
وعهدي بتمويه عين المحب
تنم على قلبه الطائر
فلما التقينا برغم الرفا
دموه قلبي على ناظري

قال الرضي: قلت هذه الأبيات سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وتداول أهل الأدب إنشادها، واستغربوا هذا المعنى، وشهدوا أنه مخترع لم يسمع، فلما تصفحت ديوان شعر أبي سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، وجدت يخطه في الجزء الثاني من شعره: [الخفيف]

إن طيف الخيال زار طروقاً
والمطايا بين القنان وشغب
زارني واصلأ على غير وغد
وانثنى هاجراً على غير ذنب
كان قلبي إليه رائد عيني
فعلى العين مئة للقلب
كان عندي أن الغرور لطرّفي
فإذا ذلك الغرور لقلبي

فلا أدري: هل قصد نظمها حتى لا يخلي شعره من هذا المعنى، أو أنسي سماعه مني، وقذف به خاطره، وكثيراً ما يلحق الشعراء ذلك، فيتواردون في بعض المعاني المسبوق إليها، وقد كانوا سمعوها فأنسوها؛ والخواطر مشتركة، والمعاني معترضة لكل خاطر، وكيفما جرى الأمر فالعنصر واحد.

ثم قال: اخزنها في تامورك، واقتد بها في أمورك، وبأدز إلى صخبك، في كلاءة ربك، فإذا بلغتم، فأبلغهم تحيتي، وأتل عليهم وصيتي، وقُلْ لَهُمْ عَنِّي: إِنَّ السَّهْرَ فِي الْخُرَافَاتِ، لِمَنْ أَعْظَمَ الْآقَاتِ، وَلَسْتُ أُلْغِي اخْتِرَاسِي، وَلَا أَجْلُبُ الْهُوسَ إِلَى رَاسِي.

قال الراوي: فلما وقفنا على فحوى شعره، وأطلعنا على نُكْرِهِ وَمَكْرِهِ، تلاومنا على تركه، والاغترار بإفكه.

ثُمَّ تَفَرَّقْنَا بوجوهٍ بَاسِرَةٍ، وَصَفَقَةَ خَاسِرَةٍ.

قوله: «اخزنها في تامورك»، أي اجعلها في قلبك، والتامور: حجاب القلب، وقيل: دم القلب. كلاءة: حفظ وكلاءة يكلؤه: حفظه.

الخرافات: أحاديث اللهو والأباطيل، قال الخليل: الخرافة الحديث المستملح في

الكذب. أبو عبيدة: كان خرافة رجلاً صالحاً سبَّته الجنّ، فرأى منهم عجائب فحدّث بها، فيقال في كلّ حديث يُستغَرَّب: كأنه حديث خُرافة.

ألغى: أترك. احتراسي: تحفظي. الهوس: يبس الرأس، يتولّد من كثرة السهر. فُخوى: معنى. نُكره: منكره ودهائه. تلاومنا: لام بعضنا بعضاً. الاغترار: الانخداع. إفكه: كذبه. باسرة: عابسة، وبسر وجهه بسوراً: عبّسه. وصفقة خاسرة، أي تجارة ومبايعة ناقصة.



المقامة السابعة عشرة

الفهقرية

حدث الحارث بن همام قال: لحظتُ في بعض مطارح البين، ومطامح العين، فتيةً عليهم سيما الحجا، وطلاوة نجوم الدجى. وهم في مماراة مُشتدة الهبوب، ومباراةٍ مشتطة الألهوب، فهزني لقصديهم هوى المحاضرة، واستجلاء جنى المناظرة. فلما التحقت برمطهم، وانتظمت في سيمطهم، قالوا: أأنت ميم يبلَى في الهينجاء، ويلقى دلوهُ في الدلاء؟ فقلت: بل أنا من نظارة الحرب، لا من أبناء الطغن والضرب. فأضربوا عن حجاجي، وأفاضوا في التحاجي.

لحظت: نظرت. مطارح: جمع مطرح، وهو الموضع تطرح فيه نفسك، أي ترميها فيه. البين: الفراق، فريد بمطارح البين البلاد التي طرحه فيها البين ورماه إليها. ومطامح العين: المواضع الحسان التي تطمح فيها العين بالنظر، أي ترتفع إليها. سيما الحجا: علامة العقل، والسّيما من وسمت الشيء وسمّاً إذا علمته، وأصله «وسمى»، فحوّلت الواو من موضع الفاء إلى العين. فصار سيومي، فقلت الواو ياء لكسرة ما قبلها. طلاوة: حسن. الدجا: الظلمة. المماراة: الخصام. مشتدة: كبيرة الحركة. والشذ: الجري. الهبوب: مجيء الريح: مباراة: معارضة. مشتطة: ممتدة متجاوزة الحد. الألهوب: الجري الشديد، فأراد أن حركة الكلام بينهم في المناظرة شديدة. والمحاضرة: مجالسة العلماء. مناظرة: سؤال العالم لتعلم حسن نظره وقدر معرفته. جناها: فوائدها. رهطهم: جماعتهم. انتظمت في سيمطهم، أي جلست بينهم. يبلَى في الهينجاء: يقاتل في الحروب. النظارة: القوم يقعدون في موضع مرتفع من الأرض ينظرون منه القتال ولا يشهدونه، فأراد أنني ممن يحضر معكم للاستماع، لا للمناظرة. الحجاج: مصدر حاجة، تقول: حاجت فلاناً إذا أوردت عليه الحجة وأوردها عليك، فإن غلبته قلت: حججته. أفاضوا في الأحاجي: اندفعوا في الألغاز.

وكان في بُخْبُوخَةِ خَلْقَتِهِمْ، وَإِخْلِيلِ رُفْقَتِهِمْ، شَيْخٌ قَدْ بَرَثَهُ الْهُمُومُ، وَلَوْحَتُهُ السُّمُومُ، حَتَّى عَادَ أَنْحَلَ مِنْ قَلَمٍ، وَأَفْحَلَ مِنْ جَلَمٍ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يُبْدِي الْعُجَابَ، إِذَا

أجاب، وَيُنْسِي سَخْبَانَ، كُلَّمَا أَبَانَ. فَأُعْجِبْتُ بِمَا أُوتِي مِنَ الإِصَابَةِ، وَالتَّبْرِيزِ عَلَى
تِلْكَ الْعِصَابَةِ، وَمَا زَالَ يَفْضَحُ كُلَّ مَعْمَى، وَيُضْمِنِي فِي كُلِّ مَرْمَى، إِلَى أَنْ خَلَّتِ
الْجِعَابُ، وَتَفِدَ السُّؤَالُ وَالْجَوَابُ.

فَلَمَّا رَأَى إِنْفَاضَ الْقَوْمِ، وَاضْطِرَّازَهُمْ إِلَى الصُّومِ، عَرَّضَ بِالْمَطَارَحَةِ، وَاسْتَأَذَنَ
فِي الْمَفَاتِحَةِ.

فَقَالُوا لَهُ: حَبِّدَا، وَمَنْ لَنَا بِذَا!

بُخْبُوحَةٌ: وَسَطٌ. إِكْلِيلٌ: دَائِرَةٌ، وَأَصْلُهَا عَصَابَةٌ مَكْلَلَةٌ بِالْدَرِّ وَالْيَاقُوتِ، تَعْتَمِدُ عَلَى
رُؤُوسِ الْمُلُوكِ. رَفَقَتُهُمْ: جَمَاعَتُهُمْ. بَرْتُهُ: أَذْهَبْتُ لَحْمَهُ. لَوْحَتُهُ: غَيْرَتُهُ وَأَضْمَرْتُ
جِسْمَهُ. السَّمُومُ: الرِّيحُ الْحَارَّةُ. أَقْحَلُ: أَيْسَ.

جَلَمٌ: مَقْصَصٌ، وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمَلُ مَثْنً، يُقَالُ: جَلَمَانِ، وَالْعَجَبُ مِنْ أَبِي مُحَمَّدٍ يَقُولُ
فِي الدَّرَّةِ: وَيَقُولُونَ: قَرَضْتُ بِالْمَقْرَاضِ، وَقَصَصْتُ بِالْمَقْصَصِ فِيهِمُونَ، كَمَا وَهَمَ بَعْضُ
الْمُحَدِّثِينَ حِينَ قَالَ فِي صِفَةِ مَزْنُونٍ بِالْقِيَادَةِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أْبَدَعَ فِي الْإِجَادَةِ: [السَّريِع]

إِذَا حَبِيبٌ صَدَّ عَنْ إِلْفِهِ تِيهًا وَأَعْيَا كُلَّ رَوَاضٍ

أُلْفَ فِيمَا بَيْنَ شَخْصِيهِمَا كَأَنَّهُ مَسْمَارُ مَقْرَاضٍ

قَالَ: وَالصُّوَابُ أَنْ يُقَالَ: مَقْرَاضَانِ وَمَقْصَصَانِ وَجَلَمَانِ، لِأَنَّهُمَا اثْنَانِ.

فَمَا مَنَعَهُ غَيْرُهُ أَبَاحَهُ هُنَا لِنَفْسِهِ، فَقَالَ: أَقْحَلُ مِنْ جَلَمٍ، وَلَا نَقُولُ كَمَا قَالَ: إِنَّهُ
وَهُمْ، بَلْ نَقُولُ: إِنَّهَا لُغَةٌ قَلِيلَةٌ.

قَالَ يَعْقُوبُ: وَالْجَلَمُ الَّذِي يُجَزَّ بِهِ، وَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ فِي مُفْرَدٍ مَقْرَاضٍ:

فَعَلَيْكَ مَا اسْطَعْتَ الظُّهُورَ بِلَمَّتِي وَعَلَيَّ أَنْ أَلْقَاكَ بِالْمَقْرَاضِ

وَقَالَ الرَّاجِزُ فِي مُفْرَدٍ الْجَلَمِ: [الرَّجَزُ]

* وَجَلَمٌ كَرِيشَةُ الْوَقَاقِ *

وَالْوَقَاقُ: الْخَطَافُ، وَالْجِسْمُ التَّحِيلُ يَشَبَّهُ بِالْقَلَمِ وَالْجَلَمِ، وَقَلْبُ الشَّاعِرِ التَّشْبِيهِ

وَالْغَزْرُ بِالْقَلَمِ، فَقَالَ: [الْمُقَارِبُ]

ضئيل الرِّوَاءِ كَثِيرُ الْعَنَاءِ مِنْ الْبَحْرِ فِي الْمَنْصَبِ الْأَخْضَرِ

كَمَثَلِ أَخِي الْعَشَقِ فِي شَخْصِهِ وَفِي لَوْنِهِ مِنْ بَنِي الْأَضْفَرِ

وَقَالَ ابْنُ أَبِي لُبَابَةَ فِي جَلَمٍ: [الْوَافِر]

وَمَعْتَنِقَيْنِ مَا أَتَاهُمَا بِعَشَقٍ وَإِنْ وَصَفَا بِضَمٍّ وَاعْتَنَاقَ

لعمرو أبيك ما اجتمعنا لمعنى سوى معنى القطيعة والفراق
وتقدم في الثانية من أبيات المعاني فيه: [البسيط]

ارعت مراتع مدرها على وهن صنوين إن أفردا لم يرعيا أبدا
أبان: بَيَّن. التبريز: الظهور والخروج قبلهم.

العصابة: الجماعة. يفضح: يشهر عيبه. معنى: مستور. يصمي: يصيب المقتل.
خلت الجعاب: أي أفرغ الكلام، والجعبة: وعاء السهام، فكنى بها عن القلوب،
وبالسهام عن الكلام الذي يصدر عنها.
الإنفاض: قناء الزاد، وقد أنفض القوم، وأراد نفاد ما عندهم من العلم. الصوم:
السكوت والإمساك عن الكلام.

المطارحة، أصلها في الغناء، وهو ما يأخذه المتعلم عن المعلم وعرض بها، أي
ذكرها. المفاتحة: استفتاح الكلام.

فقال: أتعرفون رسالة أرضها سماؤها، وصُبْحُهَا مساؤها، نُسِجَتْ عَلَى
مِنَوَالَيْنِ، وَتَجَلَّتْ فِي لَوْنَيْنِ، وَصَلَّتْ إِلَى جِهَتَيْنِ، وَبَدَتْ ذَاتَ وَجْهَيْنِ، إِنْ بَزَعْتَ
مِنْ مَشْرِقِهَا، فَتَاهِيكَ بِرَوْنِقِهَا، وَإِنْ طَلَعْتَ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَيَا لِعَجَبِهَا!

قال: فكان القوم رُموًا بالضماتِ، أَوْ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْإِنْصَاتِ. فما نَبَسَ
مِنْهُمْ إِنْسَانٌ، وَلَا فَاةَ لِأَحَدِهِمْ لِسَانٌ، فَحِينَ رَأَاهُمْ بُكْمًا كَالْأَنْعَامِ، وَصُمُوتًا
كَالْأَصْنَامِ، قَالَ لَهُمْ: قَدْ أَجَلْتُكُمْ أَجَلَ الْعِدَّةِ، وَأَزَحَيْتُ لَكُمْ طَوْلَ الْمَدَّةِ، ثُمَّ هَا هُنَا
مَجْمَعُ الشَّمْلِ، وَمَوْقِفُ الْفَضْلِ، فَإِنْ سَمَحْتَ خَوَاطِرُكُمْ مَذْحَنًا، وَإِنْ صَلَدَتْ
زَنَادُكُمْ قَدَحَنًا، فَقَالُوا لَهُ: وَاللَّهِ مَا لَنَا فِي لُجَّةِ هَذَا الْبَحْرِ مَسْبَحٌ، وَلَا فِي سَاحِلِهِ
مَسْرَحٌ، فَأَرَخَ أَفْكَارَنَا مِنَ الْكَدِّ، وَهَنِيءَ الْعَطِيَّةِ بِالنَّقْدِ، وَاتَّخِذْنَا إِخْوَانًا، يَشُبُّونَ إِذَا
وُثِّبَتْ، وَيُثْبِتُونَ مَتَى اسْتَبَّتْ.

فأطرق ساعةً، ثم قال: سَمِعَا لَكُمْ وَطَاعَةً، فَاسْتَمْلُوا مِنِّي، وَانْقُلُوا عَنِّي...

أرضها سماؤها: يريد أعلاها أسفلها. صبحها مساؤها: أولها آخرها. المنوال:
خشبة الحائك، أراد أنها نسجت من الطرفين، لأنك تبتدئها بالقراءة إن شئت من أولها،
وإن شئت من آخرها.

بَزَعْتَ: طلعت. ناهيك: كافيك.

رونقها: حسنها، والرؤنق: صفاء الوجه وحسنه ونعمته.

الصمات: السكوت، والإنصات مثله. نبس: تكلم. الأنعام: المواشي.

أجلتكم: أخرتكم والعدة هنا: عدة الموت، لأنها أطول العدد، ألا ترى أنه أرخى لهم طول المدة؛ والطول: الحبل. والشمل: الاجتماع. الفضل: القضاء، يقول: قد طوّلت لكم الأمد لتستخبروا هذه الرسالة، وفي هذا الموضع يكون اجتماعنا ويفصل فيه بين العارف وضده.

خواطركم: أذهانكم. صلّدت: شحت. قدحنا: ضربنا زند النار، يقول: إن عرفتموها مدحناكم وإن جهلتموها عرّفناها لكم، وجعل صلود الزند كناية عن جمود القرائح.

لجة: معظم الماء. منسج: موضع يسبح فيه، أي يعام. منسج: موضع يسرح فيه، أي يمشي ويتصرف. الكد: الجهد والتعب. هنيء: طيب. النقد: حضور المال. يثبون: يقومون لقيامك. يثبون: يهبون الثواب. استثبت: طلبت الثواب. استملوا: اكتبوا.

الإنسانُ صنِيعَةُ الإِخْسانِ، وربُّ الجميلِ فَعَلُ النَّذْبِ، وَشِيمَةُ الحُرِّ ذَخِيرَةُ الحَمْدِ، وَكَسْبُ الشُّكْرِ اسْتِثْمَارُ السَّعَادَةِ، وَعُتْوَانُ الكَرَمِ تَبَاشِيرُ البِشْرِ، واسْتِعْمَالُ المُدَارَاةِ يُوجِبُ المُصَافَاةَ، وَعَقْدُ المحَبَّةِ يَفْتَضِي التُّضَخَ، وَصِدْقُ الحَدِيثِ حِلْيَةُ اللِّسَانِ، وَفَصَاحَةُ التُّطْقِ سِخْرُ الأَلْبَابِ، وَشَرَكُ الهَوَى آفَةُ النُّفُوسِ، وَمَلَلُ الخَلَائِقِ شَيْنُ الخَلَائِقِ، وَسُوءُ الطَّمَعِ يَبَايِنُ الوَرَعَ، وَالتَّزَامُ الحِزَامَةُ زِمَامُ السَّلَامَةِ، وَتَطَلُّبُ المَثَالِبِ، شَرُّ المَعَايِبِ، وَتَتَبُّعُ العَثَرَاتِ، يُذْخِصُ المَوَدَّاتِ، وَخُلُوصُ النِّيَّةِ، خُلَاصَةُ العَطِيَّةِ. وَتَهْنِئَةُ التَّوَالِ ثَمَنُ السُّؤَالِ، وَتَكْلُفُ الكُلْفِ، يُسَهِّلُ الخَلْفَ، وَتَيَقُّنُ المَعُونَةِ يُسَنِّي المَوْثُونَ، وَفَضْلُ الصَّدْرِ، سَعَةُ الصَّدْرِ، وَزِينَةُ الرُّعَاةِ، مَقْتُ السَّعَاةِ، وَجِزَاءُ المَدَائِحِ، بَثُّ المَنَائِحِ، وَمَهْرُ الوَسَائِلِ، تَشْفِيعُ المَسَائِلِ، وَمَجْلَبَةُ الغَوَايَةِ، اسْتِغْرَاقُ الغَايَةِ، وَتَجَاوُزُ الحَدِّ يَكُلُّ الحَدَّ.

صنِيعَة: ما يصطنعه الإنسان لغيره من الخير، يريد أن الإنسان أهل الإحسان، وإن عكست قلت: الإحسان صنِيعَة الإنسان، أي إصلاح الإحسان وتتميمه من صنع مَنْ يوصف بالإنسانية وقد تقدّم: [المتقارب]

* وما فيهم مَنْ يربِّ الصَّنِيع *

وقال أعرابي لعبد الملك بن مروان: [الطويل]

يرب الذي يأتي من الخير إنه إذا فعل المعروف زاد وتمما

وليس كبانٍ حين تمّ بناؤه تتبّعه بالنقض حتى تهدّما
فمعنى يربّ، هو قوله: زاد وتّمّا.

الثّدب: السّيد الخفيف: شيمة: طبيعة. الذخيرة: الشيء الرفيع من مالٍ أو غيره، والادخار كالاقتناء. استثمار: تناول الثمر: عنوان: دليل: تباشير: أوائل، وتباشير الصبح: طرائق ضوئه في الليل؛ ويقال للطواق التي تراها على وجه الأرض من آثار الرياح: التّباشير. البشر: طلاقة الوجه. المداراة: خداع القلوب بلطف الكلام، ومداراة الناس: معاملتهم بما يحبّون. المصافاة: إخلاص الصّحبة. عقدها: ربطها. يقتضي: يتضمّن. حلية: زينة. الألباب: العقول. الهوى: ما يهواه الإنسان ويميل إليه. آفة: داء. الخلائق: الناس. شين: عيب. الخلائق: الطبائع، يقول: الملل في الناس يعيب أخلاقهم. سوء الطمع: كثرة الحرص. تباين: تباعد. الورع: الكف عما فيه إثم، وقد ورّع الرجل يَرَع ورعاً ورِعةً؛ إذا كفّ عما لا يحلّ، والورع بفتح الراء: الجبان، وقد ورّع وورّع، وقال عروة بن أذينة في ذمّ الطمع: [البسيط]

لقد علمت وخيرُ القول أصدقه بأنّ رزقي وإن لم آت يأتيني
أسعى له فيعنيني تطلّبه وإن قعدت أتانِي لا يعنيني
لا خير في طمع يَدني إلى طَبَع وعقة من قوام العيش تكفيني^(١)
وأنشد الحريري البيت الأول في الدرة: [البسيط]

لقد علمت وما الإسراف من خُلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتيني^(٢)
قال: فيروي أكثرهم «الإسراف» بالسين المهملة، وروى بعضهم بالشين المعجمة، ليكون معناه التطلّع إلى الشيء والاستشراف إليه.

[عروة بن أذينة وهشام بن عبد الملك]

قال: ولهذا البيت حكاية تحثّ على استشعار اليقين، وإعلاق الأمل بالخالق دون

(١) البيت الثالث، لثابت بن قطنه في لسان العرب (طبع)، وتاج العروس (غفف)، وأمالِي المرتضى ١/ ٤٠٨، وله أو لعروة بن أذينة في تاج العروس (طبع)، والبيت في ديوان عروة بن أذينة ص ٣٨٦، وهو بلا نسبة في لسان العرب (غفف)، ومجمل اللغة ٥/ ٤، ومقاييس اللغة ٣٧٥/ ٤، والمخصص ٦٩/ ٣، ٢٨٨/ ١٢، وديوان الأدب ٢٦/ ٣، وأساس البلاغة (غفف).

(٢) يروي البيت:

لقد علمت وما الإسراف من طمعي أنّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
وهو لعروة بن أذينة في ديوانه ص ٣٢٧، والأغاني ٣٣٢/ ١٨. وبلا نسبة في لسان العرب (شرف) وتاج العروس (شرف).

المخلوقين، فحليته بها تحليلية لعاطله، ومنبهة على صدق قائله؛ وهو ما رويته من عدة طرق: أن عروة هذا وفد على هشام بن عبد الملك في جماعة من الشعراء، فلما دخل عليه عروة قال له ألسنت القائل:

لقد علمت وخير القول أصدقه... الأبيات.

وأراك قد جئت تضرب من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق! فقال له: لقد وعظت يا أمير المؤمنين فبالغت في الوعظ، وأذكرت ما أنسانيه الدهر. وخرج من فوره إلى راحلته فركبها، ثم نصّها نحو الحجاز.

فمكث هشام يومه غافلاً عنه، فلما كان من الليل تعاز^(١) على فراشه، فذكره فقال: رجل من قريش قال حكمة، ووفد إليّ اليوم، فجبّهته ورددته عن حاجته! وهو مع هذا شاعر، لا آمن ما يقول. فلما أصبح سأل عنه، فأخبر بانصرافه، قال: لا جرم، ليُعلم أنّ الرزق سيأتيه، ثم دعا بمولّى له، فأعطاه ألفي دينار، وقال: الحق بهذا، أين أدركته فأعطيه إياها.

قال: فلم يدركه إلا وقد دخل بيته، فقال: أبلغ أمير المؤمنين السلام وقل له كيف رأيت!

قوله: «الحزامة»: جودة الرأي، والحازم: الجامع لرأيه، المحكم لأموره وأصل الحزم الجمع والشّد، ومنه الحزمة، وحزمت المتاع جمعته وشددته، ومنه الحزام لأنه يُشدّ به وقد حَزَمَ الرجل: صار حازماً. الزّمام: مقوّد البعير.

المثالب: المساوي، وثلبه: ذكره بسوء. التّطلب: البحث، يريد أن البحث عن عيوب الناس من أكبر العيوب، قال رجل للمستورد الخارجي: أريد غلاماً عتيباً، قال: التمسه بفضل معاييب فيه.

وكان يقول: أوّل ما يدلّ على عائب الناس معرفته بالعيوب.

ومعاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم، أو كذت تفسدهم»^(٢).

أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله بها: «مرّ المسيح صلوات الله عليه بقوم من اليهود، فقالوا له شرّ، فقال خيراً، فقليل له في ذلك، فقال: كلّ ينفق مما عنده».

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب باب ٣٧.

(١) تعازّ على فراشه: أي تقلّب على فراشه في النوم.

وكتب الشافعي رضي الله عنه لصديق له: [الطويل]

لئن ساءني أن نلتني بمساءة لقد سَرَنِي أَنِّي خُطِرْتُ بِبَالِكَ^(١)
وأتى الشافعي رضي الله عنه مسجداً، فصادف قوماً يغتابونه، فسَدَّ الباب وقال:
[الطويل]

هنيئاً مريئاً غيرَ داءٍ مخامرٍ لعزّة من أعراضنا ما استحلّت^(٢)
وقال الشاعر: [السريع]

ثالبني عمرو وثالبته فأتَمَّ المثلوب والثالبُ
قلت له خيراً وقال الخنئى كلُّ على صاحبه كاذبُ
قوله: «العثرات»، السقطات. يُدحَض: يبطل، يريد أن البحث عن عيوب الصاحب يُبطل مودّته.

أبو بُزْدَة الأسلمي رضي الله عنه: خطب رسول الله ﷺ فقال: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تَذْمُوا النَّاسَ ولا تَعَيِّرُوهُمْ، ولا تَتَّبِعُوا عوراتهم، فإنه من يلتمس عورة أخيه تَتَّبِعَ الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه في بطن بيته»^(٣).
وقال سابق البربري: [الوافر]

إذا ما كنت طالب كلِّ ذنبٍ ولم تحُلِّلْ أخاك عن العِتَابِ
تُباعِدْ مَنْ تباعد بعد قربٍ وصارَ بك الزَّمانُ إلى اجْتِنَابِ
وقال عبد الله بن جعفر: عليك بصحبة من إن صحبته زانك، وإن غبت عنه صانك، وإن احتجت إليه مانك، وإن رأى منك خلّة سدها، أو حسنة عدّها.
وقال الحسن بن وهب: من حَقُوق المودّة أخذ عفو الإخوان والإغضاء عن تقصير إن كان.

وقيل: خيرُ الإخوان من إذا نسيت ذنبك لم يقرعك به، ومعروف عندك لم يمن عليك به.

وقال الشاعر: [الطويل]

إذا شئت أن تدعى كريماً مهذباً سئياً سرّياً ماجداً فطناً حُرّاً
إذا ما بدت من صاحبٍ لك زلةً فكُنْ أَنْتَ مُحْتَالاً لزلّته عُذْراً

(١) البيت لابن الدمينه في ديوانه ص ١٧.

(٢) البيت لكثير عزة في ديوانه ص ١٠٠، وكتاب العين ٤/٢٦٣، ومقاييس اللغة ٢/٢١٦، والأغاني ٩/٣٨، وأمالى القالي ٢/١٠٩، وتزيين الأسواق ١/١٢٢، وبلا نسبة في تهذيب اللغة ٧/٣٧٦.

(٣) أخرجه الترمذي في البر باب ٨٣، وأبو داود في الأدب باب ٣٥، ٣٧.

قوله: «خلوص النية»، صفاؤها، أي من أخلص لك النية؛ فكأنه قد أعطاك خالص ماله، والخلاصة: ما خُلصَ من الشيء وصفاً.

النوال: العطاء. الكَلَف: المشقات. يسْئِي. يسْهَل. المؤنة: خدمة الضيف وما ينْفَق عليه، يقول: من تيقن أن الله يُعينه على البرّ أو ما ينويه من الحقوق، سهّل عليه تكلف المؤن؛ وهو من قول النبي ﷺ: «إِنَّ الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»^(١).

وقال ﷺ: «من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه فإن لم يقم بتلك النعمة عَرَّض النعمة للزوال».

وأما معكوس ما قبله، وهو تيقن الخلف يسهل الكلف، فمن قوله ﷺ: «من أيقن بالخلف جاد بالعطية».

قال محمود الورّاق: [البسيط]

مَنْ ظَنَّ بالله خيراً جاد مبتدئاً والبخل من سوء ظنّ المرء بالله

قالوا: للمعروف ثلاث خصال: تعجيله وتيسيره وستره، فمن أخلّ بواحدة منها، فقد بَخَسَ المعروف حقّه، وسقط منه الشكر.

قوله: «الفضل»، هو الزيادة على قدر الحاجة. الصُّدْر: هو المتقدم في الأمور، مثل الوالي وسيد القوم، يقول: مَنْ يتصدّر لأمر الناس، ففضله وشرّفه سعة خلقه.

الرّعاة: الولاة. مقت السُّعاة: بغض العمّال الذين يجمعون الزكاة. والسُّعاة أيضاً المشاؤون بالنميمة للملوك، فيقول: زين الملوك بغض العمال الذين جرت العادة في قديم الزمان وحديثه بظلمهم الناس، فإذا أبغضوهم بحثوا على أعمالهم الفاسدة، فخافوهم فعدلوا، وأما بغض المشائين النميمة للملوك فواجب، لقول النبي ﷺ «لعن الله المثلّب». قيل: وَمَنْ المثلّب يا رسول الله؟ قال: «الذي يَسْعَى بصاحبه إلى سلطان، فيهلك نفسه وصاحبه وسلطان»^(٢).

قوله: «بثّ»، أي نشر. المنائح: العطايا، يقول: جزاء المدح بذل المال، وأصل المنائح بذل فوائد الأموال لا الأموال.

مهر: حقّ، الوسائل، القُرب، والوسيلة ما تجعله سبباً بينك وبين مَنْ تريد الوصول إليه مثل الشقيق والهدية في قضاء حاجتك.

المسائل: جمع مسألة، وهي هنا سؤال المحتاج. والمجلبة: مفعلة من الجلب، والمعنى: حق الوسيلة قضاء الحاجة. الغواية: الضلالة. استغراق: تجاوز الحدّ،

(١) أخرجه مسلم في الذكر حديث ٣٧، ٣٨، وأبو داود في الأدب باب ٦٠، والترمذي في الحدود باب ٣، والقرآن باب ١٠، وابن ماجه في المقدمة باب ١٧، وأحمد في المسند ٢/٢٥٢، ٢٩٦، ٥٠٠، ٥١٤.

(٢) أخرجه بنحوه أحمد في المسند ٢/١٧٩، ٢٠٧، بلفظ «الأثلب» بدل «المثلّب».

والحدّ: الأول الفصل بين الشئين، وأصله المنع، والحدّ الآخر حدّ السيف وشبهه.
يكلّ: يضعف.

وتعدّي الأدب، يُحبِطُ القُرب، وتناسي الحقوق، ينشئ العُقوق، وتحاشي
الرّيب يزفع الرّتب، وارتفاع الأخطار باقتحام الأخطار، وتنوء الأقدار بمواتاة
الأقدار، وشرف الأعمال في تقصير الآمال، وإطالة الفكرة تنقيح الحكمة، ورأس
الرّياسة تُهذّب السّياسة، ومع اللّجاجة تُلغى الحاجة، وعند الأوجال تُتفاضل
الرجال، ويتفاضل الهمم تتفاوت القيم، وتزيّد السّفير يهنّ التّدبير، ويخلل الأحوال
تتبيّن الأهوال، وبموجب الصّبر ثمرّة النّصر، واستحقاق الإحماد بحسب الاجتهاد،
ووجوب الملاحظة، كفاء المُحافظة، وصفاء المُوالي بتعهد المُوالي، وتحلّي
المُروءات يحفظ الأمانات، واختبار الإخوان بتخفيف الأحزان، ودفع الأعداء بكفّ
الأوداء، وامتحان العقلاء بمقارنة الجُهلاء، وتبصّر العواقب يؤمّن المعاطب، واتقاء
الشّنع ينشر السّمعة، وقُبْحُ الجفاء ينافي الوفاء، وجَوْهرُ الأحرار عند الأسرار.

تعدّي: تجاوز. يحبط: يفسد.
ينشئ العقوق: يظهر المقاطعة. تحاشي: ترك واعتزال.
الرّيب: التّهم. الرّتب: المنازل الرّفيعة، قال بعض الحكماء: ثلاثة لا عُزبة معهنّ:
مجانبة الرّيب، وحسن الأدب، وكفّ الأذى.

ونظمها الشاعر فقال: [المقارب]

يزين الغريب إذا ما اغترب ثلاث، فمنهنّ حسن الأدب
وثانية حسن أخلاقه وثالثهنّ اجتناب الرّيب

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه لدهقان بعض ملوك العجم: بم ينبّل الرجل
عندكم؟ قال: بترك الكذب، فإنه لا يشرف إلا من وثق بقوله. وبقيامه بأهله، فإنه لا ينبّل
من يحتاج أهله إلى غيره، وبمجانبة الرّيب فإنه لا يعزّ من لا يأمن أن يصادف على سوءة.
وبالقيام بحاجات الناس، فإنه من رُجيّ الفرج لديه كثرت غاشيته.

قوله: «ارتفاع الأخطار» أي شرف الأقدار والقيم. اقتحام: دخول شديد، يقال:
فلان يقتحم في الأمور، أي يدخل فيها بغير تثبّت ولا رويّة، وتقحمت الناقة، إذا نذت
فلم يمسكها رابكها، ومنه فُحمة العرب، سُمّيَتْ فُحمة، لأنهم إذا أجذبوا تركوا البادية
ودخلوا الريف.

الأخطار: جمع خَطَر، وهو الغَرَر.

تنوّه: ترفع. مواتاة: موافقة. الأقدار: الأول جمع قَدَر الإنسان، أي منزلته، والأقدار الثاني: جمع قَدَر الله تعالى.

وقال الشاعر: [الكامل]

الجِدْ أَنهَضْ بِالْفَتَى مِنْ عقله فانهض بجِدٍّ في الحوادث أو ذر
ما أَقْرَبَ الأشياء حين يسوقها قَدَرٌ وأبعدُها إذا لم تقْدَرِ
تقصير الآمال: تقليل الرجاء وكفّه، وَمَنْ قَلَل الطمع شُرْف عمله الفكرة: التدبير.
تنقيح: تخليص، وأصله أن تشذب العُقْد من العود أو القصب حتى يستوي موضعها مع
القصب.

قال الشاعر: [الطويل]

وطارت بصلب قَوَّضت عند بيتها له ابن ما قَوَّضت وكعوب
صلب: عمود البيت؛ جذبته المرأة لتضربه به فتهدم بيتها.
تهذب: تخلص: والمهذب: المخلص من العيوب. والسياسة: حسن الإدارة.
واللجاجة: ركوب الرأس في الباطل: تُلْفَى: توجد ويروى: «تلغى» و «تلقي»، ومعناها
تُترك وتطرح. والحاجة: ما يُحتاج إليه، فإن عكست رجعت الحاجة الفقر، يريد: إذا
لججت في شيء أدركت حاجتك، وعلى «تلغى» إذا وقعت لجة في حاجتك تركت،
وعلى العكس: مَنْ افتقر لجّ في السؤال حتى يعطى.
الأوجال: جمع وَجَل، وهو الفزع، والمعنى، أنَّ تفاضل الرجال في الصبر عند
النوازل.

سلمان رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ «ليس شيء خيراً من ألف مثله إلا
الإنسان».

وقال الشاعر: [الطويل]

ولم أرَ أمثالَ الرِّجال تسارعُوا إلى الخير حتى عدَّ ألفٌ بواحدٍ
وفي عكسه يقول: الأمور المخوفة تصغر على العظيم وتعظم على الصغير، فعلى
قدر ما يفضل الرجل صاحبه في عزمه وإقدامه تتزايد الأوجال وتنقص.

وقد قال المتنبي: [الطويل]

على قَدَرِ أَهلِ العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم^(١)

(١) البيتان في ديوان المتنبي ٣/٣٧٨، ٣٨٩.

وتعظمُ في عين الصغير صغارُها وتصغرُ في عين العظيم العظائمُ

الهمم: جمع همة. تتفاوت: تتباعد ما بينها. القيم: المنازل. السفير: الرسول: يهن: يضعف، والمعنى أن السفير إذا تعدى فزاد في الحديث ضعف التدبير، ولو عكست لقلت: إن تدبير المرسل إذا اختلَّ ضعف السفير، وإن كان حازماً، وعلى هذا أنشدوا: [السريع]

إذا كنتَ في حاجةٍ مرسلًا فأرسلَ حكيمًا ولا توصِه^(١)
وإن ناصحٌ منك يوماً دناً فلاتنأ عنه ولا تُقصِه
وإن باب أمرٍ عليك التوى فشاوِز لبيباً ولا تعصِه
وذو الحق لا تنتقص حقَّه فإن القطيعة في نقصِه
ولا تحرصنْ فربَّ امرئٍ حريصٍ مضاع على جزِصِه
قوله: «خلل»، فساد. والإحماد: أن تجد الرجل محموداً.

والاجتهاد: بلوغ الجهد، وهو أقصى الطاقة، والمعنى: أن الرجل يستحق أن يكون محموداً بحسب ما يبذل من اجتهاده وطاقته؛ ولو عكست لقلت: الاجتهاد واجبٌ عليك فيما كلفته بحسب إحمادك من كلفك.

الملاحظة: النظر بمؤخر العين.

المحافظة: التحرز، والمعنى: إنك إذا أوجبت ملاحظة حال المحافظ لك، ففعلك ذلك كفاء محافظته، وإن عكست قلت إن المحافظة لك إذا صفت محافظته فهي كفاء ملاحظتك.

الموالي: الذي يوالي الخير، والكرم، أي يفعل المرة بعد المرة. تعهد: تفقد. الموالي: بنو العم، وقيل: الموالي معن والاك بعثق أو بحلف أو بصحبة، فكل واحد منهما مولى للآخر، والموالي بالضم بالفاعل، والمعنى إذا تعاهدت من والاك بما أوجبه ولاؤه من رعايته، صفت مودته لك، وإن عكست قلت: إن الموالي يتعهدون من والاهم.

والصحيح في هذا الموضع أن الموالي الذي يوليكَ ودّه، والموالي: العبيد والأتباع.

وسألني الأستاذ المقرئ الحاج ابن السقاط في هذا الموضع، فأجبت بما تقدّم، فقال لي: معنى هذا الموضع غائب عمّن لا يعرف سيرة أهل المشرق، وذلك

(١) الأبيات لطرفة بن العبد في ديوانه ص ٦٤، وللزبير بن عبد المطلب في جمهرة الأمثال ٩٨/١، وبلا نسبة في تاج العروس (بستد)، والأغاني ٣٣٧/١٧.

أَنَّ الرجل الشريف حين يصبح عندهم يأمر موالِيَه أن يقصدوا نظراءه من الأشراف والأعيان، فيأتون باب الشريف، فيستأذنون عليه، ويدخلون إليه ويقولون له: ينعم مولانا صباحك، ثم يسألونه عن حاله وعمّا حدث عنده ثم يفعلون كذلك بجميع أصحاب مولاهم، وكذلك يفعل موالِي ذلك المقصود في قصد نظراء مولاهم، فتنضبط بذلك عندهم الرعايات بين الأصدقاء والأقارب، وتزايّد المودّات بين الأولياء والأجانب. فعلى هذا المعنى يقول في تعهد الموالِي، وهو حسن إن شاء الله تعالى.

قوله: «تحلّي»، أي تزيّن. والمروءات، تقدمت. وتخفيف الأحران: تهوين الطوارئ والنوازل. الأوداء: الأحباب، يريد أنهم يكفون الأعداء، ورواية ابن ظفر «دفع العداء»، وأنكر «الأعداء»، وقال: العداء بالفتح والمد: الظلم.

امتحان: اختبار، يقول: إنما يتبيّن لك العاقل بمقارنته وبمصاحبته للجاهل، لأنّه لا يوافق، وإن عكست قلت: الجاهل إذا صحّب العاقل تبصّر وانتقى جهله. وقالوا: إذا أردت أن تُفجّم عالمًا فأحضِرْهُ جاهلاً.

وقال الشاعر: [الكامل]

عَدَوَى البليد إلى الجليد سريعةً والجمر يُوضَعُ في الرماد فيخمدُ
وقال ﷺ: «ويل لعالمٍ أمرٍ من جاهله».

وجاء كيسان إلى الخليل يسأله، ففكر ليجيبه فلمّا استفتح الكلام، قال له: لا أدري ما تقول! فقال الخليل: [الكامل]

لو كنتَ تعلمُ ما أقولُ عَذَرْتَنِي أو كنتَ أجهلُ ما تقولُ عَذَلْتُكَ
لكن جهلتَ مقالتي فعذلتني وعلمتُ أنك جاهلٌ فعذرتُكَ

تبصّر العواقب: إمعان النظر في عاقبة الأمور. والمعاطب: المهالك، يريد من نظر في عاقبة أمره أمِن ما يحذر.

الشّنة: الفعل القبيح ينشر ذكره. السّمة: الذكر الجميل يُسمَعُ عنك، أو القبيح فينشر في الناس.

الجفاء: سوء الأدب، وثقل الكلام. وينافي: يباعد. الوفاء: ضد الغدر.

ثم قال: هَذِهِ مائتًا لَفْظَةً، تَحْتَوِي عَلَى أدبٍ وَعِظَةٍ، فَمَنْ سَاقَهَا هَذَا الْمَسَاقَ، فلا مِرَاءَ وَلَا شِقَاقَ، وَمَنْ رَامَ عَكْسَ قَالِبِهَا، وَأَنْ يَرُدَّهَا عَلَى عَقِبِهَا، فَلْيَقُلْ: الأسرارُ عند الأحرارِ، وجوهرُ الوفاءِ، يُنافي الجفَاءَ، وقُبْحُ السُّمْنَةِ يَنْشُرُ الشُّنْعَةَ، ثُمَّ عَلَى

هَذَا الْمَسْحَبِ فَلْيَسْحَبْهَا، وَلَا يَزْهَبْهَا، حَتَّى تَكُونَ خَاتِمَةً فَقَرِّهَا، وَآخِرَةً دُرِّهَا.
وَرَبُّ الْإِحْسَانِ صَنِيعَةُ الْإِنْسَانِ.

تحتوي: تشتمل. عظة: موعظة.

المراء والشقاق، معناهما الخلاف، والعكس ردّ أول الكلام على آخره، وهو الردّ على العقب كما ذكره، وهو معنى القهقرة الذي سُمّي به المقامة، ولذلك لم ينسبها إلى بلد. والقهقرة: رجوع الرجل عنك، كما جاء عليك، وذكر أن يرجع إلى خلف، وهو يستقبلك بوجهه، وهو الردّ على العقب، وذلك أنّ الرجل إذا توجه مقبلاً إليك، فإنما يقدّم في مشيه إليك صدور قدميه، فإذا تقهقر قدّم في مشيه عَقْبَهُ، وأصل القَهْقَر: الحجر المدحرج، فإذا ضربته تدحرج في جُزْيِهِ، حتى يستقرّ، فإذا أردت أن يرجع إلى الموضع الذي جاء منه ضربته فتدحرج راجعاً إلى جهة موضعه، فشبه رجوع الرجل على ما وصفنا، وكذلك هذه الرسالة رجوعُ آخرها إلى أولها، مشبه بذلك.

ولذلك شبه الأعرابي فرسه في اجتماعه بالجحر^(١) فقال: محبوبك مهملج^(٢) كما تقهقر الأدعج.

والمسحب: الطريق الذي تجرّ فيه الشيء.

يرهبها: يخفها، أي لا يخرج الألفاظ عن طريقها فتختلّ، وذلك أن هذه الرسالة مركّبة كلها من مبتدأ وخبر، فإن وقفت فيها على مبتدأ في أولها أو آخرها أو وسطها، فأقرأه مع ما بعده تجده مستقيماً، وأقرأه مع ما قبله تجده كذلك، فإن وقفت على خبر مبتدأ فلا يستقيم مع ما بعده، وهو مع ما قبله أبعد، فأراد بقوله «لا يرهبها» لا يبتدىء لفظه بغير مبتدأ فتتداعى مبانيها، وتبطل معانيها فتفهمه.

والفقر في غير الموزون مثل القوافي في الموزون، والفقر مشتقة من فقّار الظهر، لأنها تنقطع على قافيتين أو ثلاثة، وهذا هو الفرق بين الفقر والأسجاع إذ الأسجاع كلّها ترجع إلى قافية واحدة من سجع الحمام وهو لا يختلف، ولهذا قال المعري في الغراب: [الطويل]

أتى وهو طيار الجناح وإن مَشَى أشاع بما أعيأ سطيحاً من السَّجَع^(٣)

وسطيح: كاهن، وكلامه أسجاع.

قال الراوي: فلمّا صدّع برسالته الفريدة، وأملّوحتِهِ المُفيدة، عَلِمْنَا كَيْفَ

(١) الحجر: الأثني من الخيل.

(٢) الهملجة: حسن سير الدابة في سرعة.

(٣) البيت في سقط الزند ص ١٣٣٧.

يَتَفَاضِلُ الْإِنْشَاءَ، وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ. ثُمَّ اغْتَلَقَ كُلُّ مِثًا بِذِيْلِهِ، وَفَلَدَ لَهُ فَلْدَةً مِنْ نَيْلِهِ، فَأَبَى قَبُولَ فَلْدَتِي، وَقَالَ: لَسْتُ أَرْزَأُ تَلَامِيذَتِي.

فَقُلْتُ لَهُ: كُنْ أَبَا زَيْدٍ، عَلَى شُحُوبِ سَخْتِكَ، وَنُضُوبِ مَاءِ وَجَّتِكَ، فَقَالَ: أَنَا هُوَ عَلَى نُحُولِي وَقُحُولِي، وَقَسْفِ مُحُولِي، فَأَخَذْتُ فِي تَثْرِيْبِهِ، عَلَى تَشْرِيْقِهِ وَتَغْرِيْبِهِ.

صدع: كشف وشق.

الفريدة: التي لا مثل لها.

أملوحته، يريد بها الرسالة، والأملوحة: الكلام المليح، يعجب له السامع. والإنشاء: الكتابة.

فَلَدَ: قطع فلذة: قطعة، وأصلها قطعة من كبد البعير.

قال الشاعر: [البسيط]

تكفيه حُرَّةٌ فَلْدٌ إِنْ أَلَمَ بِهَا مِنْ الشَّوَاءِ وَيُرْوِي شَرْبَهُ النُّعْمُ^(١)
نيله: عطائه. أرزأ: أنقص.

والتلميذ: هنا متعلم العلم، ولذلك أبى أن يأخذ منه شيئاً، وهو في كلِّ مقامة إذا تعرَّضَ لِلْكُذْبَةِ يفرده بالأخذ منه، أو يبتدئ التقدير منه، وذلك أَنَّ الجماعة في هذه المقامة اشترطوا مناظرته، وابن همام شَرَطَ أَنَّهُ مِنْ نَظَارَةِ الْحَرْبِ، أَيِ إِنَّمَا جَلَسَ لِيَنْظُرَ وَيَتَعَلَّمَ، فلهذا أخذ منهم وتركه، وزاده فائدة التنبيه على أَنَّهُ أَبَا زَيْدٍ، ولذلك قال له: كن أبَا زَيْدٍ، وكن أتى به بلفظ الأمر، ومعناه الدعاء، وفي الحديث: «كن أبَا ذَرٍّ» و «كن أبَا خَيْثَمَةَ»^(٢)، وذلك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى شَخْصاً مِنْ بَعِيدٍ، فَرَجَا أَنْ يَكُونَ أَبَا ذَرٍّ الْغَفَّارِي، فَقَالَ: «كن أبَا ذَرٍّ» أَيِ جَعَلَكَ اللَّهُ أَبَا ذَرٍّ، فَكَانَ مَا رَجَاهُ النَّبِيُّ ﷺ،

(١) يروى صدر البيت:

تُغْنِيهِ حُرَّةٌ فَلْدٌ إِنْ أَلَمَ بِهَا

وهو لأعشى باهلة في لسان العرب (حذذ)، (حزذ) وجمهرة اللغة ص ٥٦، ٩٦، ٦٩٩، ٧٨١، وتاج العروس (حذذ)، (غمر)، (حزذ)، وتهذيب اللغة ٨/١٢٩، ١٤/٤٣٢، وديوان الأدب ١/١٨٠، وبلا نسبة في لسان العرب (حذذ)، (فلذذ)، وجمهرة اللغة ص ٥١٠، ومقاييس اللغة ٤/٣٩٤، ٤٥٠، وكتاب العين ٤/٤١٦، وأساس البلاغة (غمر).

(٢) رواه ابن الأثير الجزري في النهاية في غريب الحديث ٤/٣١١، بلفظ: في حديث توبة كعب «رَأَى رَجُلًا يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ فَقَالَ: كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ» أَيِ صَرٌّ، ومنه حديث عمر: أَنَّهُ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَرَأَى رَجُلًا بَذَّ الْهَيَاءَ فَقَالَ: «كن أبَا مُسْلِمٍ» يعني الخولاني.

وكذلك كان اللفظ هنا، كأنَّ ابن همام لمَّا أعجِبَ بفصاحة صاحب الرسالة تمنَّى أن يكون أبا زيد، لما عهد من فصاحته فقال: كن أبا زيد، أي جعلك الله أبا زيد الذي عهدتُ منه الفصاحة، متى رأيته، فصدَّق منه أمْنِيَّتُهُ فقال: أنا هو الذي تمَنَّيتُ.

والدعاء بلفظ الأمر كثير في كلامهم كقوله: [الطويل]

* ألا أنعم صباحاً أيها الظلل البالي *^(١)

وقول الآخر: [الطويل]

* ألا أنعم صباحاً أيها الربع واسلم *^(٢)

أي سلِّمك الله من رَنع، وجعل صباحك ناعماً.

الفنجديهي: كن أبا زيد، أي أنت أبو زيد، ومنه: «كنتم خير أمة أخرجت للناس» [آل عمران: ١١٠] أي أنتم خير أمة..

شحوب: تغيّر: سَخَنْتُكَ: جلدة وجهك وهيئتك. نُضوب: جفوف. والوجنة: العظم الشاخص تحت العين. قُحولي: يُبْسِي. قَشَّتْ: تغيّر هيئته بترك النظافة. محولي جفوف جسمي.

تَثْرِيه: لومه وتعيب فعله، والتَثْرِب بالذنب المؤاخذه به، وأصله الاختلاط والإفساد، وإنما يقول: لا تثريب عليك، من قَدَّر فعفا.

* * *

فَحَوَّلَ وَاسْتَرْجَعَ، ثُمَّ أَنشَدَ مِنْ قَلْبٍ مُّوجِعٍ: [مجزوء الكامل]:

سَلَّ الزَّمَانُ عَلَيَّ عَضْبَةً لِيُرَوِّعَنِي وَأَحْدَّ عَرْبَةً
وَاسْتَلَّ مِنْ جَفْنِي كَرَا مُّوَارِعِمًا، وَأَلْسَالَ عَرْبَةً
وَأَجَالَنِي فِي الْأَفْقِ أَطْ حَوِي شَرْقَهُ وَأَجُوبُ عَرْبَةً

(١) عجزه:

وهل يعمّن من كان في العُصْر الخالي

والبيت لامرئ القيس في ديوانه ص ٣٧، وجمهرة اللغة ص ١٣١٩، وخزانة الأدب ١/٦٠، ٣٢٨، ٣٣٢، ٣٧١/٢، ٤٤/١٠، والدرر ٥/١٩٢، وشرح شواهد المغني ١/٣٤٠، والكتاب ٤/٣٩، وبتاج العروس (طول)، وبلا نسبة في أوضح المسالك ١/١٤٨، وخزانة الأدب ٧/١٠٠٥، وشرح الأشموني ١/٦٩، ٢/٢٩٢، وشرح شواهد المغني ١/٤٨٥.. ومغني اللبيب ١/١٦٩، وجمع الهوامع ٢/٨٣.

(٢) يروى البيت:

ألا أنعم صباحاً أيها الربع وانطق وحديث حديث الركب إن شئت واهدق
وهو لامرئ القيس في ديوانه ص ١٦٨، والأشباه والنظائر ٦/٣٣٦.

فَبِكُلِّ جَوْ طَلَعَةٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ لِي وَعَرْبَةٍ
 وَكَذَا الْمَغْرَبُ شَخْصُهُ مُتَغَرَّبٌ وَنَوَاهُ عَرْبَةٍ
 ثُمَّ وَلَّى يَجُرُّ عِطْفِيهِ، وَيَخْطِرُ بِيَدَيْهِ، وَنَحْنُ بَيْنَ مُتَلَقِّاتٍ إِلَيْهِ، وَمُتَهَافَاتٍ عَلَيْهِ،
 ثُمَّ لَمْ نَلْبَثْ أَنْ حَلَلْنَا الْحُبَّاءَ، وَتَفَرَّقْنَا أَيَادِي سَبَا.

* * *

حولق: قال لا حول ولا قوّة إلا بالله. استرجع: قال إنا لله وإنا إليه راجعون.
 عضبه: أي سيفه القاطع. ليروعني: ليفزعني.
 عَرَبِهِ: حده. استَلَّ: أزال. كراه: نومه.
 مراغما: مذلاً.
 غربه: مجرى دمه، والغَرْبُ فيض الدمع.
 أجالني: صرفني ومشاني.
 الأفق: نواحي الأرض. أطوى: أقطع. أجوب: أخترق.
 جَوْ: ناحية غَرْبِي، فَعْلَةٌ، من الغروب مثل طَلَعَةٍ، من الطلوع.
 المغَرَّب: المبعد. المتغَرَّب: الملازم للغربة.
 نواه: سفرته. غربة: بعيدة.

* * *

[مما قيل في الغربة والسفر]

ومن أحسن ما قيل في تباعد السفر قول حبيب: [الطويل]

سَلِي هَلْ عَمَرْتُ الْفَقْرَ وَهُوَ سَبَاسِبٌ وَغَادَرْتُ رَبْعِي مِنْ رِكَابِي سَبَاسِبًا^(١)
 وَعَرَبْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ ذَكَرَ مَشْرِقٍ وَشَرَقْتُ حَتَّى قَدْ نَسِيتُ الْمَغَارِبَا
 خَطُوبٌ إِذَا لَاقِيْتَهُنَّ رَدَدْنَنِي جَرِيحاً كَأَنِّي قَدْ لَقِيتُ الْكَتَائِبَا
 وله أيضاً: [البسيط]

مَا الْيَوْمَ أَوَّلُ تَوْدِيعِي وَلَا الثَّانِي الْبَيْنَ أَكْبَرَ مِنْ شَوْقِي وَأَحْزَانِي^(٢)
 دَعِ الْفِرَاقَ فَإِنَّ الدَّهْرَ سَاعِدَهُ فَصَارَ أَمَلُكَ مِنْ رُوحِي لِحِشْمَانِي
 خَلِيفَةُ الْخَضْرَمِ مَنْ يَرْبِغُ عَلَى وَطَنِ فِي بَلَدَةِ فِظْهُورِ الْعَيْسِ أَوْطَانِي
 فِي الشَّامِ أَهْلِي وَبَغْدَادِ الْهُوَى وَأَنَا بِالرَّقَمَتَيْنِ وَبِالْفُسْطَاطِ إِخْوَانِي
 وَمَا أَظُنُّ النَّوَى تَرْضَى بِمَا صَنَعْتُ حَتَّى تَبْلُغَنِي أَقْصَى خِرَاسَانَ

(١) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ١٧.

(٢) الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٢٢٣.

وقال الحلواني: [الكامل]

يا نفس وَيَحْك، في التَّغْرِيب ذُلَّةٌ
وإذا نزلت بدار قوم دارهم
وقال ابن شرف: [السريع]

إن ترمك العُزْبَة في معشر
فدارهم ما دمت في دارهم
وقال البستي: [البسيط]

لا يعِدُّ المرء كُنَّا يستكن به
وَمَنْ نَأَى عَنْهُمْ قَلَّتْ مهابته
والسابق لهذا المعنى زهير في قوله: [الطويل]

وَمَنْ يَغْتَرِبَ يَحْسِبْ عَدُوًّا صَدِيقَهُ
وَمَنْ لَا يَكْرُمُ نَفْسَهُ لَا يَكْرُمُ^(١)
وفي قوله: [الوافر]

فقرِّي في بلادك إن قوماً متى يَدْعُوا بلادهم يهونوا^(٢)
يقال: جاء يجرَّ عِطْفِيهِ، إذا جاء رخي البال متبخترًا، وإنما ينظر في عِطْفِيهِ إذا كان
مُفْجَبًا بنفسه.

وثاني عِطْفِيهِ، بمعنى متكبر، والعِطْفَان: جانبَا الثوب، والعِطَاف الرِّداء، والجمع عُطْفٌ.
ويقال: جاء يجرَّ رجلِيهِ، إذا جاء مثقلًا لا يَقْدِرُ أن يحمل رجلِيهِ.
يخطر ببديهِ: يحركهما عند المشي.
متهافت: متساقط من التَّدَم على فراقه.
أيادي سبا، يريد في كلِّ طريق وجهة.

[قصة سبا وسد مأرب]

وسبأ هو أبو قبائل اليمن المتفرقة من سد مأرب الذين مزقهم الله كلَّ ممزق. وسُمِّي
سبأ لأنه أوَّل مَنْ سَبَى السَّبْي، وقيل: سبأ اسم أمهم، ومأرب اسم بلادهم.
وكانت سبأ من أحسن بلاد الله تعالى وأخصبها، وأكثرها شجرًا وماء، وقد ذكر
الله تعالى أنها كانت جثتين عن يمين وشمال، وكانت مسيرة شهر في شهر للمُجْدُ

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ٣٢، واللمع ص ٢١٥، وعجزه لأبي المثلث الهذلي في
لسان العرب (كرم).

(٢) البيت في ديوان زهير ص ١٩٢.

الراكب، يسير في جنان من أولها إلى آخرها، لا تواجهه الشمس، ولا يفارقه الظل، مع تدفق الماء، وصفاء الهواء، واتساع الفضاء، فمكثوا ما شاء الله، لا يعاندهم ملك إلا قصموه.

وكانت في بدء الزمان تركبها السيول، فجمع ملك حمير أهل مملكته، فشاورهم في دفع السيل، فأجمعوا على حفر مسارب له حتى تؤدّيه إلى البحر، فحشد أهل مملكته حتى صرف الماء، واتخذ سداً في موضع جريان الماء من الجبال، ووصفه بالحجارة والحديد، وجعل فيه مجاري للماء في استدارة الذراع، يخترقون منها مقداراً معلوماً من الماء ويشرباً مقسوماً للأرض، فإذا جاء السيل تصرف في المجاري إلى جنانهم ومزروعاتهم، بتقدير يعتمهم نفعه.

وقيل: صنعة لقمان بن عاد، وجعله فرسخاً في فرسخ؛ وذكر الأعشى في شعره أن حميراً ابتثته، فقال: [المتقارب]

رُحَامٌ بَنَشَهُ لَهُمُ حَمِيرٌ إِذَا جَاءَ مَاؤُهُمْ لَمْ يَرِمْ^(١)
وَأَرَوَى الزَّرْوَعِ وَأَعْنَابَهُمْ عَلَى سِعَةٍ مَاؤُهُمْ قَدْ قَسِمَ
فَعَاشُوا يِلْدَلُكَ فِي غَيْطَةٍ قَجَافَ بِهِمْ جَارِفٌ مِنْهَدِمٌ

فلما كفروا بأنعم الله، ورأوا أن ملكتهم لا يبديده شيء، وعبدوا الشمس، بعث الله على سدّهم فأرة فخرقته. وأرسل عليهم السيل، وليأيد الله خضراءهم.

ولما انتهى الملك في ولد سبأ إلى عمرو بن علقم مزيقياء - وسُمّي بذلك لأنه كان يمزق في كل ليلة حلّة كبراً من أن تعاد عليه أو يلبسها غيره. وقيل: سُمّي بذلك لأنه مزق الأزدي في البلاد - وكان أخوه هميران كاهناً، فأنته كاهنة تُدعى طريفة فأخبرته بدنوّ فساد السدّ وفيض السيل، وأنذرتة، فقال لها: وما آية ذلك؟ فقالت: إذا رأيت جُرْداً يُكثّر بيديه الحفّرة، ويقلب برجليه الصخر، فاعلم أن الله قد اقترب الأمر. فقال: وما الأمر؟ فقالت: وعدّ من الله ينزل يا عمرو، فلتكثر الشكر.

فرأى عمرو يوماً في السدّ جُرْداً يقلب صخرة، ما يقلبها خمسون رجلاً، فرجع وهو يقول: [الرجز]

أَبَصَرْتُ أَمْرًا هَاجَ لِي بَرَحَ السَّقَمِ
مِنْ جُرْدٍ كَفَحَلِ خَنْزِيرِ أَجَمِ
لَهُ مَخَالِيبٌ وَأَنْيَابٌ قَضَمِ

أي معوجة. فأجمع على الخروج منها، وأعمل الحيلة في بيع ماله، وألاً بنكر الناس عليه، فقال لابنه: إني صانع طعاماً، وداع إليه أهل مأرب، فاردد عليّ ما أقول لك من الحديث، ففعل ابنه ذلك وردّ عليه بأقبح ردّ، فصاح عمرو: واذّلاه! يُجيبني صبي! فحلف ألا يقيم ببلد ضيّم فيه، فجعل يبيع أمواله.

وبعضهم يقول لبعض: اغتبنوا غصبة عمرو، واشتروا منه قبل أن يرضى، فلما اجتمعت له أمواله، أخبرهم بشأن السيل، فأجمعوا على الجلاء، فقال لهم عمران أخوه: إني أصف لكم بلداناً، فاختاروا أيتها شئتم... فمن كان منكم ذا هم بعيد، وجمل غير شروء، فليلحق بالشعب من كرود، فلحق به همدان.

ثم قال: ومن كان منك ذا سياسة وصبر، على أزمت الدهر، فليلحق ببطن مرّ؛ فلحق به خزاعة.

ثم قال: ومن كان منكم يريد الراسخات في الوخل المطاعم في المحل، فليلحق بيثرب ذات النخل. فنزلها الأوس والخزرج.

ثم قال: ومن كان منكم يريد الخمر والخمير، والأمر والتأمر، فليلحق ببُصرى وسدير، وهي من أرض الشام، فنزلها غسان.

ثم قال: ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق، والخيل العتاق، والذهب والأوراق، فليلحق بالعراق، فلحق بهامالك بن فهم بن الأزد.

وتخلّف مالك بن اليمان في قومه، حتى أخرجهم السيل فنزلوا نجران، وانتسبوا إلى مذحج.

ودخلت جملة منهم إلى معدّ فأخرجتهم معدّ بعد حروب، فنزلوا بجبال السراة على تخوم الشام.

فلما تفرقت في البلاد هذا للتفرّق، ضربت العرب بهم المثل، فقالوا: ذهبوا أيدي سبأ وأيادي سبأ، أي متفرقين في كل ناحية.

وقيل فيهم: إنهم كانوا مجتمعين يداً واحدة، فلما مرّهم الله وفرّقهم، صارت يدهم أيادي متفرقة، وأخذ كل طليعة منهم طريقاً على حدة. أو يريد به النعمة، فالمعنى: تفرّقنا كما تفرقت نعم أهل سبأ.

الزجاج: سبأ مدينة تعرف بمأرب على ثلاث ليال من صنعاء.

الجوهري: سبأ اسم رجل سُميت به البلدة.

وذكر في الدرة أن لفظة التفرّق تستعمل في الأشخاص والأجسام، نحو تفرّق

القوم، وإنَّ الافتراق يقال في الأهواء والآراء، كما قال النبي ﷺ: «تَفْتَرِقُ أُمْتِي عَلَى كَذَا وَكَذَا فِرْقَةً»، فإذا قيل: إنَّ لزيد ثلاثة إخوة متفرِّقين، فالمعنى أن كل واحد منهم ببقعة. وإن قيل مفترقين فالمعنى أن أحدهم لأبيه وأمه، والآخر لأبيه، والثالث لأمه؛ وكذلك يقال: فَرَّقَ بالتشديد فيما كان من قَبْلِ الجمع، وفَرَّقَ بالتخفيف، فيما يراد به التمييز كقوله: فرق بين الحق والباطل، والحالي والعاطل.

تم الجزء الأول، ويليه الجزء الثاني

وأوله: «المقامة الثامنة عشرة، وتعرف بالسنجارية»

فهرس محتويات

الجزء الأول

من شرح مقامات الحريري

فهرس المحتويات

٣	تقديم
٦	ترجمة المؤلف
٧	مقدمة الشارح
١٣	الصدْر
١٩	بديع الزمان
٢١	هَمْدَان
٢٦	قدامة بن جعفر
٢٧	عدي بن الرّقاع
٢٩	الحمام
٣٣	ما قيل في الحقد
٣٤	حكم بلسان البهائم

المقامة الأولى

٣٧	الصَّنْعَانِيَة
٣٨	صنعاء
٤٢	ما قيل شعراً في ذم الكبر
٤٧	التجنيس
٤٩	ما قيل شعراً في ذم الدنيا

المقامة الثانية

٥٦	الحُلُوَانِيَة
٥٧	حلوان
٦٢	الliche وما قيل فيها
٦٦	البحترى

٧١	وصية أبي تمام للبحثري
٧٥	ما قيل في النرجس
٧٩	الوأواء الدمشقي
٨٢	ما قيل في اللؤلؤ
٨٣	ما قيل في الامتحان
٨٥	صاعد بن الحسن الربيعي
٨٦	سرعة البديهة وما قيل فيها
٨٨	مما قيل في الفراق

المقامة الثالثة

٩٢	الدَّيناريّة
٩٥	الحسد وما قيل فيه
١٠١	في وصف الدينار
١٠١	الوعد وإنجازه
١٠٧	مدح الأشياء وذمها

المقامة الرابعة

١١١	الدُّمياطية
١١٢	مما قيل في سواد الليل
١٢١	مما قيل في ضوء الصبح شعراً
١٢٤	الحمام وما قيل فيه شعراً
١٣١	حديث خرافة

المقامة الخامسة

١٣٣	الكوفيّة
١٣٣	الكوفة
١٣٤	مما قيل في الهلال شعراً
١٤٢	موسى عليه السلام
١٤٥	إبراهيم عليه السلام
١٤٥	قرى الضيف
١٤٦	البؤس والحرمان

١٤٨	مدينة فيد
١٥٣	الكميت الشاعر

المقامة السادسة

١٥٧	المَرَاعِيَّة وتعرف بالخيفاء
١٦٢	قَطْرِي بن الفجاءة
١٦٨	الدواة والمداد والقلم
١٨٣	مما قيل في الضباع
١٨٣	الدهر وأحواله
١٨٥	مما قيل في ذم الزمان

المقامة السابعة

١٩٠	البرَقْعِيدِيَّة
٢٠٠	ابن عباس وبعض أخباره
٢٠٢	إياس القاضي
٢٠٧	مما قيل في العمى شعراً
٢١١	أشعار في التشبيه

المقامة الثامنة

٢١٥	المعرية
٢١٥	معرة النعمان
٢١٩	القطا

المقامة التاسعة

٢٣٢	الإسكندرانية
٢٣٢	فرغانة
٢٣٣	غانة
٢٣٣	السواد والبياض ومما قيل فيه شعراً
٢٣٦	مما قيل في السفر والحض عليه
٢٤١	الإسكندرية
٢٥٦	الفرزدق وبعض أخباره

٢٥٨	الكسعي وقوسه
-----------	--------------

المقامة العاشرة

٢٦١	الرخبيّة
٢٦١	مالك بن طوق
٢٦٢	مما قيل في الحسن والجمال
٢٦٧	بعض أخبار الولاة
٢٧٠	السُّلَيْك بن السُّلَيْكَة
٢٧٤	إبراهيم النظام
٢٧٧	مما قيل في الحسن والجمال
٢٨٥	مما قيل في العذار وفي الالتحاء
٢٩٦	أحمد بن سريج من أئمة الشافعية
٢٩٨	من شعر النسيب
٣٠٠	مما قيل في خلق الشعر
٣٠١	المتلمس وصحيفته
٣٠٥	قصة المثل: طلب أثراً بعد عين
٣٠٨	قصة المثل: رجع بخفي حنين

المقامة الحادية عشرة

٣١١	الساوية
-----------	---------

المقامة الثانية عشرة

٣٣٢	الدمشقيّة
٣٣٢	غوطة دمشق
٣٣٤	باب جيرون
٣٤٣	بعض الأدعية المأثورة
٣٤٨	في مجالس الشراب
٣٥٠	مما قيل في الأزهار شعراً
٣٥٣	مما قيل في الخمر والشراب
٣٧٥	مما قيل في الخضاب

المقامة الثالثة عشرة

٣٧٨	البغدادية
٣٧٨	الزوراء
٣٨٠	مما قيل في الشعر والشعراء
٣٨١	مجالس الشعراء
٣٨٨	قصة المثل : حال الجريض دون القريض

المقامة الرابعة عشرة

٣٩٤	المكيّة
٣٩٨	الأدب
٤٠٢	مما قيل في الشكر
٤٠٣	قصة المثل : مواعيد عرقوب
٤٠٥	مما قيل في الحنين إلى الأوطان

المقامة الخامسة عشرة

٤٠٧	الفرضيّة
٤١١	الضرب

المقامة المجاعية

٤١٥	قصة المثل : رُبَّ رمية من غير رام
٤١٩	قصة المثل : تجوع الحرّة ولا تأكلُ ثديها
٤٢٠	ما شهر من مغربات الزرد
٤٢٧	شكر النعمة ومما قيل فيها

المقامة السادسة عشرة

٤٣٣	المغربيّة
٤٣٣	في معنى التطقّل
٤٣٤	من أخبار المتطفّلين
٤٤١	قصة أهل الكهف
٤٤٥	أمثلة من التصحيف وقلب الكلام
٤٤٦	مما قيل في الصديق

٤٤٨	المراء والجدال
٤٥٠	سحبان وائل
٤٥١	باقل
٤٥٢	مما قيل في الشمع
٤٥٥	مما قيل في الزيارة والزوار
٤٥٦	طيف الخيال

المقامة السابعة عشرة

٤٥٩	القهرية
٤٦٤	عروة بن أذينة وهشام بن عبد الملك
٤٧٤	مما قيل في الغربة والسفر
٤٧٦	قصة سبأ وسد مأرب